

التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي
(الجزء الأول)

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي



التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي
(الجزء الأول)

أعدده للنشر: تامغناست

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي



السنة الجامعية الأولى من التحاقه بكلية التربية، ونزولاً عند متطلبات
المصلحة العامة بدأت البحث وفي ذهني أن يجيء جامعاً. قدر الإمكان. بين
صفات الكتاب المقرر وصفات البحث المتخصص.

تصدير

بعد أن أقدم تعاقبت مع اليونيسكو في أكتوبر - تشرين الأول سنة
1967م. للعمل في ميدان التاريخ بكلية التربية في الجامعة الليبية. قدمت
إلى طرابلس الغرب حيث بدأت بأداء مهمتي التي كان من ضمنها تدريس
تاريخ ليبيا القديم من بدايته حتى عشية الفتح الإسلامي سنة 643م.
وظللت أدرّس هذه المادة طيلة أربع سنوات متتالية (1967 - 1971 م).
واصلت البحث خلالها حول هذا الموضوع. وإذا صححت القاعدة القائلة إن
خير طريقة لدراسة موضوع ما هي تدريسه. فإنني أعتز بأن أقول إنني اتبعت
تلك الطريقة فأفدت واستفدت من الكشف عن عراقية تاريخ هذا الجزء من
الوطن العربي الكبير: فما إن بدأت البحث عن حقائق التاريخ الليبي القديم.
حتى بدأت تنفتح أمامي مجالات جديدة. واسعة سعة ليبيا ذاتها. ومثيرة
بقدر ما في اكتشاف الحقيقة من متعة وإثارة.

وكان عليّ منذ البداية أن أقرّر طبيعة البحث الذي نددت نفسي للقيام
به: فهل أخصصه لدراسة جوانب محدودة من تلك الحقيقة التاريخية أم
أتصدى لتلك الحقبة بكاملها؟ وقلبت المسألة ذات اليمين وذات الشمال
فوجدت أن مصلحة طلبتي تقتضي أن يكون البحث شاملاً لكل الفترة
حتى يتسنى لكل من الطلبة أن تكون بيده نسخة من الكتاب في بداية

طوله ثمانمائة ميل كما تشترك مع الجمهورية التونسية في الغرب في خط حدود طوله مئتان وخمسون ميلاً ومع جنوب الجزائر في خط يبلغ طوله أكثر من ستمائة ميل. وهي في الجنوب الشرقي تشترك مع جمهورية السودان في خط حدود واحد كما تشترك في الجنوب مع جمهوريتي تشاد والنيجر.

وتشغل ليبيا ست عشرة درجة طولية (9° - 25°) وأكثر من أربع عشرة درجة عرضية (18° - 33°) بمساحة تبلغ حوالي (680,000) ميل مربع خلها في المرتبة الرابعة بين أكبر أربعة أقطار إفريقية. وهي إن قورنت من حيث المساحة بغيرها من البلدان زادت عن تكساس بضعفين ونصف الضعف وبلغت سبعة أضعاف بريطانيا العظمى وإرلندا الشمالية مجتمعين.

ويعتبر 95% من هذه المساحة صحراء وإن كان قسم من تلك الصحراء يتكون في الواقع من سهول استبس شبيه صحراوية ومقفرة وقليلة التنوع.

أما الخمسة الباقية في المائة فتعتبر صالحة للاستغلال الاقتصادي وإن كان ما يزرع منها في الوقت الحاضر لا يتعدى ½ % من كامل مساحة البلاد مع العلم أنه يمكن مضاعفة تلك الرقعة المستغلة في الزراعة. ولا شك أن المناخ وتوفر الماء هما العاملان اللذان يجعلان مناطق الزراعة المستقرة مقصورة على الأحزمة الساحلية الضيقة وسلاسل التلال في شمالي منطقة طرابلس وفي برقة وفي بعض الواحات في الداخل. ويذكر بهذا الصدد أن ليبيا ليست فيها أنهار دائمة.

وفي القسم الشمالي من منطقة طرابلس يلتقي الشريط الساحلي الخصيب، الذي لا يزيد عرضه في أي مكان منه عن سبعة أميال والذي يتمتع بمناخ حوض البحر الأبيض المتوسط. مع سهل الجفارة الذي يسمى أحياناً ((بالصحراء المصغرة)). وينتهي هذا السهل عند حافة جبل نفوسة الشمالية الشديدة الانحدار. وجبل نفوسة هذا عبارة عن سلسلة من التلال

التصريف بليبيا

طبيعة ليبيا وسكانها في الوقت الحاضر:

كان الإغريق القدماء يسمون كل الشمال الإفريقي إلى الغرب من مصر ليبيا (Libya). والمناسبة الوحيدة قبل القرن العشرين التي أطلق فيها اسم ليبيا على مناطق بعينها كانت حوالي 300م. عندما كون الإمبراطور ديوقليتيان ولايتي ليبيا العليا (Libya Superior) وليبيا الدنيا (Libya Inferior) في الجزء الشمالي من برقة. ولكن كلمة ليبيا كانت مقبولة دائماً كمرادف جغرافي لطرابلس أو بلاد البربر للدلالة على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا سنة 1934م. عندما أكمل الإيطاليون عملية احتلالهم لهما وأسمياهما مستعمرة ليبيا (Libia). وبعد ذلك احتفظت المملكة الليبية المتحدة بهذا الاسم لدى استقلالها سنة 1951م. ضمن حدود شملت الولايات الثلاث: طرابلس وبرقة وقران. ولقد ظل هذا الاسم معتمداً بعد إلغاء الدستور الاتحادي سنة 1964م. ونشوء ((المملكة الليبية)). وبعد ثورة أول سبتمبر سنة 1969م. وإلغاء النظام الملكي وإنشاء الجمهورية العربية الليبية.

وتتمتع ليبيا في الشمال بخط ساحلي على البحر الأبيض المتوسط يبلغ طوله ألفاً ومائتي ميل. وهو ساحل مكشوف في معظمه. قليل التنوع وخطر. وهي تشترك مع الجمهورية العربية المتحدة في الشرق في خط حدود

لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم وتمتد على شكل خط منحني حتى تلتقي مع البحر قرب مدينة الخمس. أما من الجنوب فإن الجبل يتدرج في الانخفاض حتى يتلاشى في منطقة ريفية متكسرة تعرف باسم منطقة ((القبلي)) ولا تليث أن تندمج في هضبة الحمادة الحمراء الصخرية التي تمتد مسافة مائتي ميل إلى الجنوب حيث تهبط إلى مستوى ثلاث من سلاسل الواحات في غرب فزان هي واحات وادي الشاطيء ووادي الآجال ومنخفض مرزق. وفي هذه الأودية الثلاثة تكون المياه الجوفية على عمق أقدم قليلة تحت السطح. وفي شمال برقة يقوم الجبل الأخضر على شكل درجتين ضيقتين صاعدتين من الساحل، مكوناً هضبة يبلغ ارتفاعها ألفي قدم، وهو خصيب ومغطي إلى حد معقول بالأشجار والشجيرات. أما في شرق برقة فإن التلال تنحدر نحو مصر عبر منطقة وعرة مقفرة هي منطقة مارماريكا. وفي جنوب برقة تنحدر المرتفعات لتتلاشى في الصحراء الليبية التي هي أكبر صحراء حقيقية في العالم - وفي برقة ثلاث واحات رئيسية هي جالو والجغبوب ومجموعة واحات الكفرة الواسعة. وفي أقصى جنوب برقة وفزان تقوم جبال تبستي كحاجز بين ليبيا وإفريقيا الوسطى.

وإذا ما ألقينا نظرة على المنطقتين المأهولتين في شمالي ليبيا فإننا سنجدهما مفصولتين عن بعضهما بثلاثمائة ميل من الخلاء الصحراوي في منطقة سرت التي تلتقي رمالها مع أمواج البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر صحراء سرت هذه من أعظم الحواجز الطبيعية في العالم ولذلك فإن الرحلة بين تونس وطرابلس أو بين برقة ومصر كانت حتى الثلاثينات من هذا القرن. عندما عادت الطريق الساحلية الليبية. أسهل على المسافرين منها بين طرابلس وبرقة عبر صحراء سرت المقيتة.

وليس بين سلاسل التلال الليبية مرتفعات تكفي لصد المؤثرات المناخية المتضادة والناشئة عن الصحراء من ناحية وعن البحر الأبيض المتوسط من الناحية الأخرى. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان؛ فالمنطق الشمالية تقاسي في الشتاء من العواصف

والرطوبة المزعجة، وربما تتساقط الثلوج على جبل نفوسة والجبل الأخضر. وكثيراً ما تهبط درجة الحرارة في سبها بفزان في الشتاء إلى ما تحت الصفر. وبالرغم من أن التلال الشمالية تتلقى عشرين بوصة من المطر في السنة. إلا أن معظم تلك الكمية يتساقط بين شهري ديسمبر - كانون الأول، ومارس - آذار. على شكل وابل غزير قصير الأمد مما يجعل معظم المياه المتجمعة منه تندفع بعنف إلى البحر جارفة معها ما تصادفه في طريقها من تربة سطحية خصبة. ويقل سقوط المطر كلما أجهنا جنوباً. كما أن مفعوله التخريبي يزداد. وفي فزان بالذات تذوّب عواصف المطر النادرة جدران الأبنية المشيدة بأجر الطين وتسبب فيضانات غير متوقعة مما يحمل الأهليين على اعتبار مثل تلك العواصف نقمة أكثر منها نعمة. وتعرض ليبيا كلها أو جلها مرة كل خمس أو ست سنوات لجفاف يستمر في بعض الأحيان طيلة فصلين متتاليين من السنة.

أما رياح «القبلي» الجنوبية الحارة فقد تهب في أي وقت خلال السنة وإن كان يغلب عليها أن تهب خلال إبريل - نيسان ومايو - أيار ويونيه - حزيران وفي نهاية الصيف. وهي عادة تجلب معها الغبار والرمل الناعم من جنوب الجزائر وتؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة على الساحل بثلاثين أو أربعين درجة فهرنهايتية خلال ساعات قليلة من هبوبها. وهي كذلك تحجب الشمس وتتلطف المحصولات وتترك وراءها طبقات من الرمل الناعم في كل مكان حتى داخل المنازل المقلقة بإحكام. وفي منطقة طرابلس يندر أن تستمر رياح القبلي أكثر من ثلاثة أيام، أما في فزان. حيث يشتد أداها. فإن خير ما يعبر عنها هو المثل الشعبي القائل: «إن هبت رياح القبلي طيلة أربعين يوماً - كفانا الله شرها - فإن الناقة تلتح دون ان يمسه الفحل».

وصيف ليبيا حار ورطوبته عالية فقد تصل على الساحل في أغسطس - آب إلى 90%. ولقد سجلت بلدة العزيزية الواقعة على حافة سهل الجفارة الشمالية أعلى رقم قياسي عالمي للحرارة في الظل عندما وصلت درجة الحرارة فيها إلى 136° فهرنهايتية في سبتمبر - أيلول سنة 1932 م. ولكن التلال الشمالية وخاصة الجبل الأخضر تتمتع بطقس معتدل ونسيم

منعش. وخالصة القول إن طقس طرابلس يدعو للطمانينة والرضا خلال معظم أيام السنة وطقس ليبيا عامة طقس صحي.

ومعظم الليبيين من العرب المسلمين الذين غمروا البلاد وأكسبوها عربيتها منذ القرن الحادي عشر للميلاد عندما زحفت عليها جموع قبائل بني هلال وبني سليم من مصر. وهنالك أقلية من البربر المسلمين لا يزيد نسبتهم عن 4% من مجموع السكان. وهم من نسل أبناء البلاد الأصليين الذين كانوا يسكنونها على وجه التحقيق منذ نهاية العصر الحجري القديم. ولا تزال أعداد منهم إلى الآن تعيش في منطقة طرابلس كمجتمعات زراعية صغيرة تنتشر قراها على أطراف جبل نفوسة بين يفرن ونالوت وفي زوارة على الساحل الغربي. وهم لا يزالون يخاطبون بعضهم البعض بلغة بربرية هي فرع من المجموعة اللغوية الحامية التي تنتمي إليها اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية واللغة الصومالية واللغة الأثيوبية.

أما سكان جنوب برقة ووزان فهم خليط من العرب والبربر والزوج الذين كان أسلافهم قد جلبوا كعبيد من وسط إفريقيا.

وبالنسبة للطوارق فرسان الصحراء الذين ينفرد رجالهم دون نساءهم بلبس القناع. على عكس ما هو مألوف لدى غيرهم من إخوانهم المسلمين. فإن أصلهم، كأصل إخوانهم البربر، لا يزال مسألة جدلية تتقدم عدد من المؤرخين بنظريات مختلفة حولها: فأبـن خلدون يقول: إن هؤلاء القوم كانوا أصلاً يعيشون في بلاد الشام وإنهم كانوا يعبدون الشمس وإنهم انحدروا من «مازغ» بن كنعان بن حام بن نوح. وهو يقسمهم إلى فرعين كبيرين تنتمي إليهما قبائلهم المختلفة. وهذان الفرعان هما البربر والطوارق. ويقول بعض المؤرخين إنهم كانوا يعيشون في الأصل في جنوب شبه جزيرة العرب ثم اضطروا للهجرة منها عبر مضيق باب المندب إلى الحبشة فوادي النيل. وهم يظهرون على النقوش المصرية القديمة تحت هذه الأسماء: برابرا (Barabra). برابراتا (Baraberata)¹. ليبو (Lebu) وأسماء أخرى سننتعرض لها فيما

Bereber - See also Encyclopaedia Britannica, William Benton -1 (Publisher), London, 1970

بعد. وتدل صورهم على الآثار المصرية على أنهم قوم شقر. ويقول المؤرخ ف. ر. رُد (F. R. Rodd) إن أسرى لبيين معينين من يظهرون في الصور والتماثيل المصرية القديمة هم من البربر.

ومن المؤكد أن لغة هؤلاء القوم المنتشرين من مصر إلى المحيط الأطلسي ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى السودان تظهر فيها خصائص تتشابه مع خصائص اللغات السامية بالرغم من أنها لغة حامية الأصل وإن كانت تختلف بعض الشيء عن اللغة الحامية التي انقرضت منذ أمد بعيد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الأسماء في جزر الكناري هي من هذه اللغة ذاتها.

وذهب عدد آخر من المؤرخين إلى ربط هؤلاء القوم الشقر من البربر بالأجناس الأوروبية القديمة من مثل الإيبيريين (Iberians) والكلت (Celts).

ويقدر ما عليه أصلهم من غموض فإن وقت قدومهم إلى الشمال الإفريقي والمكان الذي قدموا منه لا يزال سراً غامضاً كذلك. ويقول الكاتب الفرنسي جوته (Gautiers) إنهم انتشروا دواخل إفريقيا قبل بدء عصر المعادن². ومن المؤكد أن قبيلة زناتة ظهرت في الشمال الإفريقي مع ظهور الجمل في العهد الروماني وانتشرت كقبيلة من البربر الرحل في الصحراء الوسطى والغربية قبيل الفتح العربي.

ومن الجدير بالملاحظة أن الطوارق لم يكونوا يلبسون القناع خلال العهدين الروماني والبيزنطي. ويعتقد رُد (Rodd) أنهم تبنا هذه العادة بين القرنين الميلاديين السابع والحادي عشر إثر اندحارهم أمام المد العربي إلى الأقسام الجنوبية من الصحراء حيث تكثرت العواصف الرملية التي ألجأت رجالهم. لكونهم يتعرضون للعواصف أكثر من النساء اللواتي يقمن عادة يقمن عادة في بيوتهن. إلى لبس الأقبعة اتقاء لشر الرمال. ومنذ ذلك الحين حتى وقت قريب كان الطوارق ملوك الصحراء غير المتوجين. فلم تكن أية قافلة تجارية ولا أية حملة علمية تستطيع عبور الصحراء دون حماية منهم.

Wright, John, Libya, London, Ernest Benn Limited, 1st Edition 1969, -2 pp 21 - 25

وقبائل الطوارق متعددة بصورة معقدة كتعقيد تاريخهم. فالبعض منهم حافظوا على نقاوة دمهم فلم يختلطوا بغيرهم. بينما اختلط البعض الآخر مع شعوب إفريقية أخرى. ومع ذلك فقد ظلوا جميعاً يشتركون في عادات وتقاليد خاصة بهم. وينتسب الطوارق إلى الأم كما أن ابن الأخت هو الذي يخلف خاله في مشيخة القبيلة. وهم إجمالاً يقسمون إلى أربع طبقات هي: طبقة الإمفوكالين أي السلاطين وطبقة الإهكارن أي النبلاء والأمراء وطبقة الإمغانين أي الأتباع. وأخيراً طبقة الإكلان أي العبيد. وأبناء الطبقتين الأولى والثانية هم الطوارق الحقيقيون أي الذين ينحدرون من أم نبيلة بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها الأب.

أما أبناء الطبقة الثالثة فهم غالباً العبيد الذين أعتقهم أسيادهم وحرروهم ولكنهم ظلوا أتباعاً أو موالين لأسيادهم وقد يسمونهم أحياناً باسم طبقي آخر هو «إدرفن». والعبيد بالطبع هم تلك العناصر التي اسرها الطوارق إما من محيطهم وإما من المناطق الإفريقية المجاورة واستعبدها في قضاء حوائجهم.³

ويذهب أنطوني سلاري (Anthony Sillery) إلى رد أصل الطوارق للهاميين الشماليين الذين يقول إنهم يشملون البربر والطوارق والفلاني (القاطين في غرب إفريقيا) وفئة قديمة من البشر تعرف باسم جوانتشي (Guanche) سكنت جزر الكناري.⁴

والطوارق إجمالاً قوم طوال القامة والوجه. رفاق البشرة. يتميز أطفالهم في الغالب بالشعر الأشقر.

وتعتبر واحتا غدامس وغات مشارف ديار الطوارق التي تنتشر في أنحاء فزان الغربية وفي أجزاء أخرى من الصحراء حتى تمبكتو على نهر النيجر. وهم يتكلمون لهجة بربرية. ومنهم نسبة كبيرة من يجيدون استعمال الشكل المكتوب من لغة الطوارق وهو الشكل المعروف باسم التفيناغ

Baker, Richard St. Barber, Sahara Challenge, Lutterworth Press, -3 London, 1954, pp. 64 - 65

Sillery, Anthony, Africa, a social Geography, Oxford, 1961, p. 9 -4

(Tifinagh).

أما التيبو (Tebu) ذوو البشرة السمراء الذين يقطنون جنوب برقة وفزان فالمعتقد أنهم ينتمون إلى سكان الصحراء القدماء الذين أسماهم المؤرخ الإغريقي هيروودوتس «الترولوجودايت» ووصفهم بالسرعة الفائقة في العدو وبأنهم يتكلمون لغة «كزعيق الخفافيش». والملاحظ أن التيبو المعاصرين يتميزون بقدرتهم على التحمل. وقد ذكر المكتشف الألماني فردريك هورنمان (Hornmann Frederick) أن العرب وصفوا كلام التيبو بأنه «كزقزقة العصافير». ويبدو من ذلك أن نفس الجنس البشري هذا حسنوا لغتهم وجملوها بحيث تحولت ما يشبه زعيق الخفافيش إلى ما يشبه زقزقة العصافير خلال الاثني عشرين قرناً التي انقضت بين زيارة هيروودوتس وزيارة هورنمان. وتلك اللغة نفسها هي الآن إحدى لهجات السودان الجنوبي. وما يرجح هذا الرأي أن التيبو قوم صغار الأجسام. خفاف البنية والحركة. يتميزون بأنف يكاد يكون أفتنى. وبشفاه رقيقة وشعر بسيط. وهم مسلمون ويعيش معظمهم في أكواخ ذات سقوف مخروطية دقيقة.

ولعل أغرب جماعة في ليبيا هم الدوادة الذين يعيشون - ويبدو أنهم عاشوا كذلك منذ قرون - في ثلاث قرى في رمل الدوادة بين وادي الأجال ووادي النشاط في غربي فزان. ويعيش هؤلاء الدوادة الذين يبلغ عددهم أربعمائة نفس على نوع من الدود يوجد في ثلاث من البحيرات المالحة التي مازالت. بمعجزة. تقوم بين كثبان الرمل. وقد ذكر جيمس ويللارد. أحد الكتاب الأجانب القليلين الذين تمكنوا من زيارة الدوادة. أن الديدان التي يعيشون عليها إما هي نوع من قريدس المياه المالحة المعروف علمياً أرتيميا سألينا (Artemia Salina). وهم يجففونه ويسحقونه ثم يحولونه إلى معجون يجفف في الشمس ويصبح صالحاً للاستعمال كغذاء.

أما عدد السكان في ليبيا فإن إحصائيات وزارة التخطيط تشير إلى أنهم كانوا (1,559,399) نسمة وفقاً لتعداد سنة 1964م. ومعنى ذلك أن الكثافة السكانية لهذه البلاد هي 2.3 للميل المربع. وفي سنة 1967 م. قدر عدد السكان بـ (1,700,000) نسمة يعيش 60 % منهم في

مدينة طرابلس (235,000) وفي مدينة بنغازي (140,000) وأربع عشرة مدينة وقريّة كبيرة أخرى - ويزيد عدد سكان القسم الشمالي من منطقة طرابلس عن مليون نسمة بينما لا يزيد عدد سكان فزان عن (70,000) نسمة أي بمعدل شخص واحد لكل ثلاثة أميال مربعة. وقد يبدو غريباً أن تعلم أن نسبة البدو الرحل ونسبة الرحل في ليبيا تصل إلى حوالي سدس مجموع السكان فقط.

وكانت أكبر الجاليات الأجنبية في ليبيا الجالية الإيطالية؛ وكان الإيطاليون قليلين في برقة ولكنهم كانوا يعدون أكثر من ثلاثين ألفاً في منطقة طرابلس. كان يعيش خمسة آلاف منهم في مزارع قريبة من مدينتي طرابلس ومصراته بينما تعيش بقيتهم في مدينة طرابلس نفسها؛ تلك المدينة التي توجد فيها أيضاً جالية مالطية صغيرة قديمة. وبعد قيام ثورة الفاخ من سبتمبر 1969 بقليل رحلت حكومة الثورة الليبية جميع الإيطاليين عن ليبيا. وتوجد في كل من بنغازي وطرابلس جالية يونانية صغيرة وبقية من جالية يهودية. وبالإضافة لكل تلك الجاليات يعيش في ليبيا كثير من رجال النفط ورجال الأعمال والمدرسين والخبراء والمستشارين مع أسرهم؛ وينتمي هؤلاء إلى عدة جنسيات. وقد تزايد عدد العرب غير الليبيين في ليبيا بعد قيام ثورة الفاخ من سبتمبر وسير ليبيا في الاتجاه العربي.

الفصل الأول ليبيا في عصر ما قبل التاريخ

اسم ليبيا ودلالته

توصل أحد أبناء ليبيا في بحث له عن أصل هذه التسمية إلى النتيجة التالية: «ليبيا اسم عريق في قدمه... يرجع إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد. يستحيل تاريخياً ولغوياً الجزم بصحة رسمه «لوبيا» أو «ليبيا» على أحد الوجهين دون الآخر. إلا بالاختصار خيِّراً على لغة واحدة في عصر بذاته. وليس هذا مما يرضي منطق العلم ولا فضول العلماء. وهو الآن شعيباً ورسمياً ودولياً قد شاع وقبل وتأكد على أنه «ليبيا»⁵.

ويجدر بنا منذ البداية أن نشير إلى أن المدلول الجغرافي لأسماء الأقاليم والدول لم يكن في القديم محددًا واضحاً كما هو عليه الحال في أيامنا هذه بل كانت البلاد تسمي غالباً باسم الشعب الذي يسكنها. وواضح أن الشعوب مرت بعصور بدوأة تختلف طولاً وقصراً وأن الشعب. أي شعب. في طور بداوته لم يكن ليستقر ضمن حدود جغرافية ثابتة. مما يجعل رقعة البلاد التي يسكنها أصلاً تمتد أو تتقلص تبعاً لتحركاته وانتصاره أو اندحاره. ومن الناحية الأخرى فإن مسألة الانتماء لوطن معين أو أمة معينة هي ظاهرة حضارية متأخرة لا تتولد عند الأفراد والجماعات إلا بعد خروجهم من دور البداوة. وخررهم من الرابطة القبلية التي ختم عليهم أن يكون ولاؤهم وانتمائهم للقبيلة وليس للوطن أو الأمة.

وعلى هذا فإن الدلالة الجغرافية لاسم بلد من البلدان كانت تختلف من عصر لآخر قبل عصر الاستقرار: فالمصريون القدماء كانوا يعتبرون ليبيا الصحراء المجاورة لهم من الغرب والتي تمتد بعيداً حتى «عالم الأموات». بينما استعمل المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كلمة ليبيا ليبدل بها مرة على كل الشمال الإفريقي الواقع إلى الغرب من مصر. ومرة

⁵- بازامه، محمد مصطفى. ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية. اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب. وزارة الأبناء والإرشاد، بنغازي، 1963، ص 59

على برقة فقط. ومرة على إفريقيا عامة. ومن ناحية أخرى فإن حركات الأفراد والجماعات كانت طليقة إلى حد كبير ولا تخضع لأية قيود غير القيود التي كانت تفرضها عليها مصالحتها وظروفها. وستتضح هذه الحقيقة فيما بعد عندما نلاحظ مثلاً مدى الحرية التي كانت القبائل الليبية القديمة تتحرك بها عبر الحدود الليبية - المصرية، ولهذه الحقيقة أهمية بالغة. كما سنرى فيما بعد. لما كان لها من أثر على المنطقتين. ثم هنالك مسألة أخرى هي اتساع ليبيا الهائل وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها ما يجعل تعيين خط حدود لها (في الجنوب مثلاً) بصورة قاطعة وثابتة أمراً بالغ الصعوبة حتى في هذا القرن العشرين فما بالك في الأزمنة الموعلة في القدم؟ وإذن فإن كلمة ليبيا لم تحمل دلالتها الجغرافية الحالية إلا في مطلع هذا القرن - أما في الماضي فقد غلب استعمال كلمة «أنطابلس» (بنطابولس) أي المدن الخمس على المحافظات الشرقية في برقة. وكلمة أطرابلس (طرابلس) أي المدن الثلاث على المحافظات الغربية في منطقة طرابلس؛ وكان تاريخ هاتين المنطقتين يمثل إلى حد كبير تاريخ ليبيا بمفهومهما الجغرافي المعاصر - أما الدواخل أي المحافظات الجنوبية في فزان فقلما سجل تاريخها بنفس المستوى الذي سجل به تاريخ المنطقتين السابقتين بل قلما حفظ من حقائقه ما يكفي لرسم صورة مرضية لأحوال هذه المنطقة في مراحل تاريخها القديم - ولهذا السبب فإن الدارس أو الباحث لن يستطيع أن يفي تاريخ هذه المنطقة حقه - والرجاء معقود على أن ينشط علم الآثار في إجراء الحفريات والدراسات الضرورية لفتح مغالق تاريخ هذه المساحة الداخلية الواسعة من ليبيا.

ليبيا في أقدم عصورها

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. الأيتان 31/30 من سورة الأنبياء.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. الآية 99

من سورة الأنعام

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ﴾. الآية 24 من سورة يونس

لأسباب مختلفة أهمها المساعدة على فهم حالة ليبيا في عصور ما قبل التاريخ. وفهم ما كانت عليه صحراؤها من خصب وازدهار. قبل أن تصاب المنطقة بالجفاف. وتتحول إلى صحراء شاسعة قاحلة يجد الدارس أنه لا بد أن يمهّد لدراسته بالحديث عن الكرة الأرضية وتكوينها والأحوال الجيولوجية التي مرت بها. وما ترتب على ذلك من تغير في الأرض نفسها. وفي أحوالها ومناخها. مما أدى في النهاية إلى ظهور الحياة والإنسان والمجتمع البشري والتاريخ.

وتتلخص إحدى النظريات العلمية بهذا الشأن في أن الأرض والكواكب السيارة الأخرى كانت جميعها. بما فيها الشمس. أم المجموعة. كتلة واحدة كبيرة ملتصقة تدور حول نفسها. ونتيجة لسرعة دورانها راحت تنفصل عنها أجزاء صغيرة تبدأ بالدوران حول ذاتها وحول الكتلة الأم في الوقت ذاته. ثم أخذت كرتنا الأرضية تبرد شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلك تكون قشرة يابسة يحيط بها جو كثيف مشبع بالرطوبة. ولم تلبث الأبخرة في ذلك الجو أن تكثفت ونزلت على شكل أمطار غزيرة جمعت محيطات وبحاراً وبحيرات وأنهاراً. وأدى استمرار درجة الحرارة في الهبوط إلى برودة الأرض. وبالتالي إلى تقلصها. فنجم عن ذلك ارتفاع أماكن هي الجبال والهضاب والتلال.

وانخفاض أماكن أخرى هي السهول والأودية والقيعان. ومن الماء بدأت تظهر الأحياء الأولى وتطور عبر العصور الطويلة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. واستغرق هذا التطور مدة يقدرها علماء الجيولوجيا بما يزيد عن أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة هي عمر الأرض. ولكن هؤلاء العلماء لا يستطيعون أن يتبعوا بدرجة كافية من الدقة سوى الستمئة مليون سنة الأولى من عمرها. تلك الفترة التي سبقت تصلب القشرة الأرضية.

أما علماء التاريخ الذين يعتمدون على الاكتشافات الأثرية وعلى النقوش والكتابات التي خلفتها الحضارات القديمة. فهم لا يستطيعون التوغل في الماضي إلى أكثر من ستة آلاف سنة بينما يستطيع زملاؤهم علماء الجيولوجيا أن يصوروا لنا بكثير من التفصيل قصة الأرض قبل بدء التاريخ بستمئة مليون سنة. معتمدين في ذلك على نوع الصخور وعلى ما تحويه من بقايا نباتات وحيوانات متحجرة.

وبالرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن ثلاثة آلاف المليون من السنين التي انقضت على تصلب القشرة الأرضية. فإن الحياة بأشكالها البدائية الأولى لا بد أن تكون قد استغرقت في تطورها عدة ملايين من السنين قبل أن تصل إلى مستوى الأشكال المتحجرة الموجودة في كثير من الصخور والتي يرجع تكوينها إلى ما قبل ستمئة مليون سنة. ولم تظهر الحيوانات الفقرية الأولى - وهي أنواع بدائية من الحيوانات التي تشبه الأسماك - إلا بعد انقضاء مائة مليون سنة أخرى. أما الأعشاب فلم تبدأ بالظهور إلا قبل ما يزيد قليلاً عن أربعمئة مليون سنة. والحيوانات البرمائية قبل حوالي ثلاثمئة وخمسين مليون سنة.

ويرجع تاريخ ظهور الثدييات - ومنها الإنسان الذي هو أرقاها بفضل عقله - إلى ما يقل قليلاً عن مائتين وخمسين مليون سنة. ويقدر المختصون أن الإنسان نفسه إنما خرج إلى حيز الوجود خلال مائة المليون سنة الأخيرة.

وجدير بالملاحظة أن التطور الحياتي لم يستمر سلساً دون انقطاع؛ فقد نشأت بعض النباتات والحيوانات وتطورت لتتقرض نهائياً بعد ذلك بملايين

السنين. بينما بقي البعض الآخر واستمر دون تغيير يذكر.

ولقد نتج عن التغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية تغيرات هامة في جغرافية الكرة الأرضية ومناخها. وهذه بدورها أثرت في تطور النباتات والحيوانات وفي توزيعها الجغرافي.

ويستطيع علماء الجيولوجيا بالاعتماد على الصخور وما تحويه من متحجرات أن يكشفوا عن النمط العام لتطور النباتات والحيوانات. وعن نشوء المحيطات والقارات وسلاسل الجبال والأنهار والتغيرات المناخية؛ فنحن نعرف من الأبحاث الجيولوجية أن الأسد ووحيد القرن والفيل وفرس النهر كانت تسرح في يوم من الأيام في بلاد هي خلو منها الآن مثل بريطانيا. كما نعرف أن قمة إفرست - حيث اكتشفت حيوانات بحرية متحجرة - تتكون من صخور كلسية تكونت أصلاً كرواسب تحت سطح البحر.

الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ

تزيد مساحة الصحراء الليبية عن 1,500,000 كم². وهي تشكل الجزء الأوسط من الصحراء الإفريقية الكبرى - وهذه الصحراء لم تكن طيلة الوقت صحراء قاحلة كما هي الآن بل كانت في وقت ماضٍ تتمتع بمناخ دافئ مطر جعلها مليئة بالحياة النباتية والحيوانية. ولعل اكتشاف النفط مؤخراً فيها هو خير إثبات لما نقول إذ إن من المعروف أن النفط ناتج عن مواد عضوية (نباتية وحيوانية) غمرت في باطن الأرض فتحولت إلى نפט نتيجة لأحوال معينة من الضغط والحرارة. ونحن إذا ألقينا نظرة واحدة على عصر البليستوسين⁶ (Pleistocene) الذي بدأ قبل مليون سنة واستمر طيلة مليون سنة تقريباً سنلاحظ أنه تميز بتغيرات مناخية حادة. وبظهور مخلوقات تشبه القرود. ولكنها كانت ذكية واستطاعت أن تنمي ذكاءها إلى حد أنها بدأت تسير معتدلة على القدمين. وصنعت أدوات حجرية كانت تقطع بها ما تقتله من حيوانات؛ فوضعت بذلك بداية الانتقال إلى مرحلة الإنسان الأول. وسنلاحظ أن علماء الجيولوجيا يميلون إلى الاعتقاد أن إفريقيا كانت موطن

6- انظر العصور الجيولوجية في الملحق (أ).

هذا الإنسان الأول وأنه انتشر منها إلى آسيا ثم إلى أوروبا. وإذا نحن ألقينا نظرة أخرى على العصر الجيولوجي الحديث «الهولوسين» (Holocene). الذي يبدأ قبل عشرة آلاف سنة. سنلاحظ أن الإنسان تعلم حوالي منتصف هذا العصر كيف يستأنس الحيوانات ويزرع النباتات. وإذن فإن ما نعرفها اليوم بالصحراء الليبية كانت خلال العصر الحجري القديم والمتوسط تعج بالنباتات والحيوانات والناس. أما كيف أفرز ذلك البستان وحول إلى بحر قاحل من الرمال. فإن علماء الجيولوجيا يشيرون إلى أن عصر الهولوسين تميز بتزايد الجفاف في مناطق مختلقة من الأرض وخاصة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وأدى استمرار تزايد الجفاف إلى تكوّن الصحاري الحالية في العالم. وإلى هجرة إنسان وحيوان تلك الصحاري. وانقراض نباتاتها. والذي يلفت النظر فيما يتعلق بتكوّن الصحاري. هو أننا إذا تصفحنا مصور العالم بادئين بالصحراء الإفريقية الكبرى سنجد أنها تتكون من عدة صحاري متجاورة: فالصحراء الكبرى الأولى في الغرب والصحراء الليبية في الوسط. ثم تأتي صحراء النوبة إلى الجنوب والصحراء الغربية في مصر. وإذا اتجهنا شرقاً فإننا سنجد الصحراء العربية أمامنا. وسنجد أيضاً أن هذا الحزام الواسع الذي أصبح مجدباً نتيجة لما حل بأجوائه من جفاف حاد متزايد خلال عصر الهولوسين. يستمر في الامتداد شرقاً فيعبر سوريا والأردن والعراق وإيران وتركستان إلى أن ينتهي في صحراء غوبي في الصين.

والصحراء الليبية ليست كلها صحراء رملية بل تقوم فيها بعض السلاسل الجبلية فهناك مثلاً قمة بركان: أم الكوسي التي يبلغ ارتفاعها (11,204) أقدام. وتقوم بين الجبال مرتفعات صخرية تعرف بالحامادات. وسهول مكسوة بالحصى. وكثبان رمل متنقلة. وتخرق المنطقة كلها وديان جافة تشهد أنها كانت يوماً من الأيام مجاري أنهار. ويشهد بعضها بعمقه وعرضه الكبيرين على قوة الأنهار التي كانت تتدفق فيها. ويؤيد هذا الاعتقاد بوجود أنهار في الصحراء في عصر ما قبل التاريخ وجود رسوم حيوانات مائية كالتمساح محفورة أو مصورة على الصخور. ولا بد أن تلك الأنهار كانت تؤلف شبكة مائية واسعة ربما كانت تتصل بنهري النيل والنيجر وبحيرة تشاد.

ولا بد كذلك أن بعض تلك الأنهار لا يزال جارياً تحت الأرض كمياه جوفية تمد الواحات والآبار الارتوازية بالماء الذي هو سبب الحياة في هذا الجزء من البلاد.

ولقد دلت الشواهد الجيولوجية على أن الصحراء الكبرى كانت في عصر البليستوسين أقل جفافاً مما عليه الآن: ولذلك فإن الصحراء الليبية كانت في أواخر ذلك العصر تعج بالنباتات والحيوانات والبشر. تكسو معظم رقاعها أدغال تكفي نباتاتها وأشجارها لتغذية أضخم الحيوانات التي عاشت على وجه البسيطة. تشهد بذلك كومة عظام المستدون (Mastadon) الهائلة. الموجودة حالياً في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف السراي الحمراء في طرابلس. والتي كانت قد اكتشفت في صحراء سرت الحالية. والمستدون حيوان يدل هيكله على أنه كان يضاها في حجمه الفيل الكامل النمو. وله أربعة أنياب طول الواحد منها ثمانية أقدام. ولما كان لا يأكل سوى النباتات فلا بد أنه كان يستهلك أوراق شجرة كاملة في الوجبة الواحدة: ومع ذلك فقد أمكنه أن يعيش في هذه الرقعة التي نسميها اليوم الصحراء الليبية. وقس على هذا المثال عشرات الأمثلة لحيوانات أخرى متعددة ومتنوعة من مثل الفيل والزرافة والإيل ووحيد القرن وفرس النهر والنعامة. وقد كسا سكان هذه المنطقة جوانب أكام كاملة برسوم وأوصاف حيوانات منطقتهم عثر على عدد لا بأس به منها. وما يزال يعثر على المزيد منها في مناطق متباينة من الصحراء. وتلك الرسوم في معظمها هي لحيوانات انقرضت في الصحراء ولم يبق منها بعد سنة 2500 ق.م. سوى بعض الزرافات والنعامات التي لا تزال أعداد منها تعيش حتى يومنا هذا.

المخلفات الفنية

كان الرحالة الألماني بارث أول من عثر على النقوش الصخرية في وادي الزينغن (Ellisghen) غربي مرزق سنة 1850م. ثم توالت الاكتشافات على أيدي الرحالة المختلفين والبعثات العلمية المختلفة فاكشف رسوم أخرى في وادي الأجال. والمكنوسة. وفي جبل زنكرا جنوبي جرما. وفي وادي برجوج غربي فزان. وفي جبل غنيمه في شرق فزان وعلى جميع السطوح الصخرية

من جبل نفوسة شمالاً إلى هضبة تسيلي جنوباً. وهضبة تسيلي تقع في الشمال الشرقي من الهجار وتمتد إلى داخل حدود فزان الشرقية. وقد قام العالم الفرنسي هنري لوت بحملة إليها سنة 1956 م. واستطاع هو وزملاؤه خلال ستة عشر شهراً قضاها في الهضبة أن يستنسخوا «المئات والمئات من الجدران الصخرية المرسومة والتي تصور الأشكال البشرية والحيوانية بالآلاف... في أعظم متحف فني لما قبل التاريخ في العالم كله»⁷.

والواقع أن الرسوم والصور والنقوش الصخرية تملأ أرجاء الصحراء الليبية بل الصحراء الإفريقية الكبرى؛ فبالإضافة للمواقع التي اكتشفت في فزان. اكتشفت جبل عوينات⁸ جنوبي شرق برقة رسومات كثيرة على جوانب الكراكير (الأودية) بعضها يرجع إلى ما قبل التاريخ والبعض الآخر يرجع إلى العصر التاريخي. ولا تزال هنالك مواقع كثيرة تنتظر الكشف والدرس.

ولقد استطاع العلماء المختصون. على ضوء ما تم اكتشافه حتى الآن. أن يقسموا رسومات وصور ونقوش الصحراء حسب موضوعاتها إلى أربع مجموعات رئيسية:

1- المجموعة الأولى وتمثل الحيوانات التي يستلزم وجودها كميات كبيرة من المياه والحشائش كالمستدون والفيل وفرس النهر والتمساح. أو الحيوانات المفترسة التي يستدعي وجودها وجود حيوانات كثيرة أخرى من الأنواع التي تعيش على النباتات. من مثل الأسود والفهود والنمور.

7- لوت، هنري. لوحات تسيلي. قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ. مكتبة الفرغاني، طرابلس، ليبيا. الطبعة الأولى. بيروت، نوار (مايو) 1967، ص 8-9
8- - جبل عوينات هو كتلة جبلية مساحتها 1500 كم². يقوم في الصحراء الليبية عند تقاطع خط عرض 22° شمالاً مع خط طول 25° شرقاً ويبلغ ارتفاعه 6132 قدماً وكأنه جزيرة في بحر من الرمال. وفيه ثمانية آبار صخرية معروفة تملئ بمياه المطر. أشهر الرسومات والصور التي وجدت على سفوحه هي تلك التي وجدها أحمد به حسنين في كركور الطلح ونشرها ووصفها في كتابه الواحة المفقودة، ثم ما وجده الأمير كمال الدين في كركور إبراهيم وكركور حامد. وتظهر في هذه النقوش صور رجال ونساء وزرافات ونعامات وبقر وحشية وخيول ومواش وضأن متوحش وكلاب أو فعالب وفرس نهر ووحيد القرن وسرطان ثم القسي والرماح والتروس.

2- المجموعة الثانية وتمثل الحيوانات البرية التي لا تحتاج إلا إلى قدر محدود من الرطوبة والحشائش كالبقر والزراف والنعام.

3- المجموعة الثالثة وتمثل رجالاً يركبون عربات تجرها الخيول أو يركبون الخيول نفسها.

4- المجموعة الرابعة وتمثل رعاة الجمال.

وواضح من التقسيم السابق أن المجموعة الأولى فقط ترجع لعصر ما قبل التاريخ بينما ترجع المجموعات الثلاث الباقية للعصر التاريخي؛ فالحصان لم يُعرف إلا في أيام الجرامنتيين أي في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد بينما لم يُعرف الجمل إلا حوالي تاريخ الميلاد في الساحل وحوالي القرن الميلادي الرابع في الداخل. والجدير بالملاحظة أن التقسيم السابق للرسومات والنقوش يتفق مع تقسيم علماء الجيولوجيا والمناخ للفترات المناخية التي مرت بها الصحراء الكبرى - ومنها الصحراء الليبية - وهي:

1- الفترة الأولى الممطرة من 20000 إلى 12000 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الثالث في أوروبا.

2- الفترة الثانية وهي فترة الجفاف الأولى من 12000 إلى 5500 ق.م. وكانت الظروف المناخية بالصحراء خلالها تشبه ظروفها الحالية.

3- الفترة الثالثة وهي الفترة الممطرة الثانية من 5500 إلى 2500 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الرابع والأخير في أوروبا.

4- الفترة الرابعة وهي فترة الجفاف الثانية التي بدأت حوالي 2500 ق.م. ولا تزال مستمرة حتى الآن.

ومن الواضح أن الرسوم والصور والنقوش في عصر ما قبل التاريخ ترجع إلى الفترة المناخية الثالثة التي أُطلق عليها اسم عصر الصيادين وتظهر فيها الحيوانات المفترسة كالأسود والتماسيح وغير المفترسة كفرس النهر والخريت كما يظهر فيها الصيادون في جماعات منظمة يعملون على صيد الحيوانات بالشباك أو بالأسلحة البسيطة كالهروات التي كانوا يثبتون في

أطرافها أحياناً رؤوس حراب حجرية، وهم يرتدون ملابس من جلود الحيوانات تغطي عورتهم كما يظهرون في رسومات أخرى وهم يلبسون أقنعة من رؤوس حيوانات الصيد كالغزلان والحمير الوحشية والخرتيت والذئاب والفهود لأغراض التمويه على الحيوانات وتسهيل اصطيادها. وأوضح مثال على رسومات هذا العصر هو ما وجد في أودية متخندوش الواقعة خلف مرزق. وقد زار الدكتور محمد سليمان أيوب⁹ مراقب آثار المحافظات الجنوبية، هذا الموقع ودرس ما فيه من رسوم فوصفها بأنها «نتاج قوم على درجة عالية من المعرفة والذوق الفني» وبأنها مثلت الحيوانات المرسومة «بواقعية منقطعة النظير».

والجموعة الثانية من الرسوم تمثل صيادي الزراف والنعام، ورعاة البقر، وهي تمثل المراحل الأولى من الفترة المناخية الرابعة التي بدأت حوالي 2500 ق. م. ولا تزال مستمرة حتى الآن. وجب الإشارة هنا إلى أن الجفاف الذي حل بأجواء هذه المنطقة من الأرض فحولها في النهاية إلى الصحراء القاحلة التي نعرفها الآن لم يحدث فجأة وإنما بدأ حوالي 2500 ق. م. واستمر في التصاعد حتى بلغ ذروته حوالي سنة 1000 ق. م. وبين هذين التاريخين كانت هنالك أمطار موسمية تتساقط في هذه المنطقة وتكفي للإبقاء على حياة الحيوانات التي وردت رسوماتها في المجموعة الثانية، وتتميز هذه الفترة بتقدم فن الرسم الصخري وباستخدام الألوان (قبيل نهاية هذه الفترة) لتوضيح الأشكال المنقوشة. ومن أحسن الأمثلة على رسومات هذه الفترة تلك التي وجدت على جدران حقاف جبال الأناكوس: وأبرزها لوحة تمثل رقصات حفلات المطر تظهر فيها الراقصات متهدلات الشّعور وهن يؤدين رقصاتهن الإيقاعية. وقد عرفت هذه الفترة بعصر الرعاة نسبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن والذين استخدموا الألوان الطبيعية في رسم أبقارهم كما أنهم رسموا أنفسهم باللون الأحمر.

والجموعة الثالثة التي رسم فيها الرجال بأشكال هندسية وهم يركبون

9- أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ص40.

العربات أو يمتطون الخيل ثم التأكد مؤخراً أنها من عمل الجرامنتيين الذين استقروا في فزان حوالي القرن الثامن قبل الميلاد - ورسوم الفنانين الجرامنتيين الأول تظهر بدائية ساذجة إذا ما قورنت برسوم عصر الرعاة فقد اختفت الرشاقة التي كانت تتميز بها رسوم الأشخاص وأصبح فنانون الجرامنتيين الأول يرسمون الأشخاص على شكل خطوط متقاطعة أو نقط ورؤوس أسهم. ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا فن الرسم الصخري وأجادوا فيه كما يظهر في رسوم جبل زنكرا (جبل العسل) التي تمثل عصر نهضة الفن الجرامنتي ويقول فرانكو ساتن (Franco Sattin) في مقال له عن نقوش زنكرا¹⁰: «يزدان الجانب الشمالي لهضبة زنكرا بنقوش حيوانية وأخرى آدمية ترتقي إلى الدور الأخير من حقبة الرعاة وتدجين المواشي والخيول. كما يظهر ضمن مجموعة النقوش نحت سطحي يمثل رأس إنسان من جنس البحر الأبيض المتوسط (ويحتمل أنه جرامنتي)». وقد لاحظ صاحب المقال نقشاً بشكل أربع نعامة صغيرة بالإضافة إلى نقوش على حدة تظهر فيها محاكاة الطبيعة بطريقة سليمة، ولاحظ كذلك نقوشاً أخرى شبه تخطيطية كما لاحظ تخاطيط مع أشكال آدمية وفارس وأشكال حيوانية.

حوافز الخلفات الفنية ودلالاتها

قبل الاسترسال في الحديث عن دلالة هذه الخلفات الفنية من الصور والرسوم والنقوش الصخرية لابد لنا من التساؤل عن الدوافع التي حفزت أبناء الصحراء القدامى للقيام بعمل تلك النقوش. وهنا يجب أن نقرر منذ البداية أن الاجابة على هذا التساؤل لا تعدو نطاق التخمين والاستنتاج. إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الدوافع التي حركت فناني ما قبل التاريخ ومن بعدهم قد تكون دوافع سحرية أو دينية، أو إنهم ربما كانوا يقومون بتلك الأعمال من باب الفن للفن أو من باب التلذذ والتسلية¹¹. بينما ذهب فريق

10- انظر: ليبيا القديمة، نشرة حولية تصدرها الإدارة العامة للآثار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا، وزارة التربية والتعليم، المجلد الثاني، 19965، ص 22.

11- لوت، هنري، لوحات تسييلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا الطبعة الأولى، بيروت، نوار (مايو) 1967، ص 59 - 61.

ثانٍ إلى أنهم كانوا يخلدون أعمال مشاهير صيادي العصر ويتلقون منهم مكافآت على شكل قطع إضافية من اللحم. ومن الطبيعي أن ما يرسمه الإنسان العادي من أشكال يأتي مرتبطاً بتجاربه ومعرفته وبالأشياء المهمة في حياته؛ ولا شك أن الحيوانات كانت من أهم الأشياء في حياة إنسان الصحراء الليبية القديم.

أما دلالة تلك الصور والرسوم والنقوش الصخرية وما يمكن أن يستخلص منها من نتائج فيمكن إجمالها فيما يلي:

1- إن الصحراء الليبية كانت في الفترة الممطرة الثانية (5500 – 2500 ق. م.)، وهي الفترة التي يعتقد المختصون أنها زمن هذه الخلفات الفنية، غنية بالمياه والغابات والأشجار¹² والنباتات بمعنى أنها كانت امتداداً شمالياً للغابات الاستوائية في إفريقيا الوسطى الحالية، وكانت بالتالي أهلة بالعرق الأسود الذي دفعه الرجل الأبيض فيما بعد إلى وسط القارة الإفريقية. والمؤرخون لا يعرفون من أين جاء الرجل الأبيض إلى الشمال الإفريقي وإن كان بعضهم يقولون إنه جاء « من وراء البحر » أي من أوروبا.

2- إن الرسوم الصخرية في كهوف الصحراء تبدأ بالصور المرسومة على جدران الكهوف وينصب بسبيطة من الحجارة تتحدث عن الموت والحياة في الصحراء في فجر التاريخ. ومن هنا فهي ذات دلالة دينية¹³.

3- إن المستوى الفني المتقدم الذي يتجلى في هذه الرسوم والصور والنقوشات الصخرية المرسومة أو المحفورة على وجوه الصخور للمساء في كهوف الصحراء في عصور ما قبل التاريخ تدل بتناسقها وقوة تعبيرها عن الحركة على ما أحرزه إنسان الصحراء من تقدم حضاري في عصر الصيادين كان الأساس الذي ازدهر عليه فن الرسم الصخري الملون بالألوان الطبيعية

12- يقول هنري لوت في الحديث عن جذوع أشجار التارو (فصيلة قريبة من شجر السرو) القديمة في تسيلي: «وقد أحطيت تلك الجذوع القديمة بعناية خاصة أثناء الحملة. لأنها هي بدورها قد سبقت التاريخ وظلت شواهد على الظروف الرطبة التي كانت موجودة في الماضي. وتدل الإحصائيات على أنه ليست هناك إلا حوالي مائة من هذه الجذوع رغم أنها كانت في زمن مضى شيئاً مألوفاً أرض تسيلي» لوحات تسيلي ص 48.
13- المرجع السابق ص 77 - 85، 117 - 124، 196 - 209.

في فجر التاريخ منذ حوالي 2500 سنة ق. م.

4- إن وجود هذه الرسوم والصور في معظم أنحاء الصحراء الكبرى يدل على أنها كانت تعج بالسكان والحيوانات التي ملأوا جوانب الصحراء برسومها.

5- إن العدد الكبير من اللوحات المستنسخة من كهوف هضبة تسيلي يجعل المرء يتصور الصحراء الكبرى وكأنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ والمراحل الأولى من العصر التاريخي. ويتجلى في هذه اللوحات أسلوبان بارزان أحدهما رمزي قديم يبدو أنه من ابتداء فنانيين زنوج. وهو أسلوب الرسومات التي ترجع إلى ما قبل التاريخ. والآخر أحدث من الأول وهو صريح في محاكاة الطبيعة ويرجع إلى العصر التاريخي ويظهر فيه تأثير وادي النيل بكل وضوح. وربما ظهر فيه كذلك شيء من تأثير الفن الإيجي ما قد يعني قدوم عناصر مصرية أو إيجية إلى المنطقة أو عودة بعض أبناء المنطقة من ساقهم التجول أو الأسر أو الاسترقاق إلى مصر أو إلى غيرها فجلبوا معهم ما تأثروا به هم أنفسهم.

6- إن الفن الذي يتجلى في لوحات تسيلي وغيرها من النقوش الصخرية الكثيرة يساعد على تتبع الحياة الحيوانية في الصحراء الإفريقية الكبرى وبالتالي على تتبع التقلبات المناخية الكبرى التي نتج عنها ذلك الإمحال التدريجي فحول المنطقة في النهاية إلى صحراء.

7- إن التقسيم المذكور سابقاً بالنسبة للرسوم وللعصور الجيولوجية والمناخية التي مرت على الصحراء الكبرى يعطينا المزيد من المعلومات عن أنماط الحضارات التي تابعت على الصحراء: حضارات صيادين مسلحين بالهراوات والبومراخ (Boomerang) أو المقذوفات الراجعة وحضارات رعاة ورماة نبال. وحضارات محاربيين مسلحين بالجرید جاءوا بالحصان الأليف والعربات الحربية ذات العجلتين التي تجرها الخيل إلى ليبيا.

8- تشير الصور والرسوم إلى أن حيوانات المنطقة لم تتغير خلال زمن طويل فهي مرسومة بأقدم الأساليب الفنية، ولا يبدو عليها أي تبدل

ملحوظ حتى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد عندما تختفي صور الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيل والكركدن بينما تستمر النعام والزرافة في الظهور في الرسوم.

دلالة الخلفات الأثرية

يبرز علماء التاريخ القديم في دراسته بين عصرين: عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي. ويقصدون بالأول تاريخ الإنسان من أقدم أيامه حتى حوالي سنة 3000 ق. م. عندما اخترعت الكتابة. كما يقصدون بالآخر تاريخ الإنسان منذ سنة 3000 ق. م. فما بعدها. وعلى هذا الأساس فإن التاريخ يعتمد كلية على الأركيولوجيا (Archaeology) في دراسة عصر ما قبل التاريخ بينما هو يعتمد عليها أقل من اعتماده على الوثائق المكتوبة في دراسة العصر التاريخي.

العصر الحجري القديم (Paleolithic Age):

تناول أركيولوجية العصر الحجري القديم تطور الحضارة البشرية في الحقبة التي بدأت بظهور الإنسان كثديي يستعمل الأدوات الحجرية وانتهت مع بدء العصر الجيولوجي الحديث قبل حوالي عشرة آلاف سنة. ومعنى هذا أننا نبدأ في مرحلة مبكرة من عصر البليستوسين أو العصر الجليدي الذي بدأ قبل مليون سنة وانتهى قبل حوالي عشرة آلاف سنة. وقد ظهرت في بداية هذا العصر مخلوقات شبيهة بالإنسان الأول وراحت تتطور ببطء شديد منثنئة خلال تطورها حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأدنى ثم حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأوسط فحضارة العصر الحجري القديم الأعلى. وكان الإنسان في العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط يعيش على جمع المواد الغذائية واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك وجمع الفواكه والحبوب البرية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذوه الحضارة البشرية البسيطة نشأت وتطورت خلال عصر البليستوسين الذي تميز بأحداث مناخية كبرى من مثل تعرض الأقاليم الشمالية من الكرة الأرضية أربع مرات متفاوتة لزحف الجليد ومن مثل تكون أودية الأنهار والتغيرات الأساسية التي

طرأت على نباتات الأرض وحيواناتها.

وليسست لدينا معلومات كافية عن العصر الحجري القديم وإنما نعتمد فيما نعرفه عنه على ما تخلف من آثار الإنسان المادية التي صمدت لعوامل الزمن. وحتى تلك الخلفات تكاد تنحصر في الأدوات الحجرية أو تلك المصنوعة من العظام والقرون. بالإضافة إلى بقايا الحيوانات التي كان أسلافنا يصطادونها.

ونستطيع أن نقول بشكل عام إن الأدوات التي استعملها الإنسان في هذا العصر تدل على تطور تدريجي. إذ إنه بدأ يستعمل أداة واحدة لكل أغراضه. ثم توصل لصنع مجموعة أدوات محسنة يستعمل كل واحدة منها لأداء وظيفة معينة. ونستطيع أن نقول في هذا الصدد إن إنسان العصر الحجري مضى في تقدمه وتطوره من البسيط إلى المعقد ومن مراحل عدم التخصص إلى مراحل تتميز بدرجة عالية نسبياً من التخصص على نحو ما حدث لإنسان العصر التاريخي.

وعلى ضوء المعلومات القليلة المتوافرة لدينا عن العصر الحجري القديم نستطيع أن نقول إن صناعة الأدوات الحجرية مرت بأربع مراحل:

1- مرحلة الأدوات المصنوعة من رصف الأودية.

2- مرحلة الفأس اليدوية والأدوات ذات الحديد.

3- مرحلة الأدوات الرقيقة المصنوعة من شظايا الطران أو الصوان (Flakes).

4- مرحلة الأدوات الحجرية المصنوعة على شكل نصال.

وهذا التقسيم لا يعني أن كل مرحلة من هذه المراحل سادت فترة زمنية معينة قضت فيها على المرحلة السابقة لها نهائياً. بل الواقع أن أدوات المرحلة الواحدة كانت تبقى مستعملة إلى جانب أدوات المرحلة التالية ما دام هنالك ما يدعو لاستعمالها. لكن الاتجاه العام هو في السير من البسيط إلى المعقد كالبعد مثلاً بالأدوات المصنوعة من رصف الأودية بتحديد أحد

الجانبين لاستخدامه في القطع أو البشور. ثم الترقى إلى صنع الأدوات ذات الحدين وهكذا. وقد اهتم الإنسان إلى طرق مختلفة لصناعة أدواته الحجرية خلال العصر الحجري القديم الأدنى الذي شغل ثلاثة أرباع عصر البليستوسين فصار مثلاً بعد نواة من الصوان ثم يطرق عليها بنحو معين بكتلة أخرى فيشق منها الشظايا التي كان يشحذها أو يسننها على الشكل المطلوب. وبالإضافة إلى هذا التطور فإن أهم اكتشاف اهتمت إليه الإنسان في هذا العصر هو معرفة استعمال النار وإشعالها أو إخمادها.

العصر الحجري القديم الأوسط (180000 - 80000 ق. م.)

في هذا العصر طور الإنسان الأساليب الصناعية القديمة وارتقى بها إلى درجة الإتقان فصارت الأدوات المصنوعة من الشظايا تنتج بكثرة ويخصص كل منها لأداء وظيفة أو وظائف معينة. كما ظهرت لأول مرة صناعة عظام بدائية. وسكن الإنسان في هذا العصر الكهوف ودفن موتاه عن قصد لأول مرة في تاريخه. وقد وجدت آثار إنسان هذا العصر في أوروبا وغربي آسيا والهند وإفريقيا ما يشير إلى أن الأفكار والمفاهيم الجديدة التي كانت تكتشف في منطقة ما كانت تنتقل بسرعة معقولة إلى المناطق الأخرى من هذا العالم. وكانت كثافة السكان في هذه الفترة قليلة كما إنهم كانوا يعيشون على شكل جماعات صغيرة متفرقة.

العصر الحجري القديم الأعلى (80000 - 10000 ق. م.)

هذا العصر الذي تعادل مدته حوالي عشر مدة العصر الحجري القديم هو القسم الثالث والأخير من الأقسام الرئيسية للعصر الحجري القديم وهو الفترة التي حقق الإنسان خلالها أعظم تقدم حضاري له؛ إذ إنه استغنى عن الأدوات الشظايا وعن الفؤوس اليدوية واستعمل بدلاً منها الأدوات النصال. وفي هذا العصر ظهرت أيضاً اختراعات أساسية عديدة من أمثال الخيط والإبرة وملابس الجلد والأدوات الحجرية والعظمية ذات المقابض. والرمح الخاصة بصيد الحيتان. وقاذفة الحراب. وأدوات خاصة بصيد الأسماك. ومن ناحية أخرى شاع استعمال العاج والعظام والقرون إلى جانب الصوان على

نطاق أوسع كثيراً مما كان عليه الحال قبل ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أمر هام هو أن الأسس الفنية الأولى للرسم والنحت والنقش والطلاء إنما وضعت في هذا العصر. ثم ظهر الرقص وظهرت الموسيقى وصار الإنسان يستعمل الأتعة ويقوم الحفلات كما إن المجتمع الإنساني صار ينظم على أسس أكثر تعقيداً من ذي قبل.

وفي هذا العصر اختفت الأنواع البدائية من البشر وحل محلها الإنسان العصري العاقل (Homo Sapiens) الذي يشبه إنسان العصر الحاضر.

وفي أوروبا الغربية تدل مخلفات إنسان هذا العصر وأدواته على أنه أقام مراحل متتابعة من الحضارة أعطى العلماء كل مرحلة منها اسماً مميّزاً لها فسموا الأولى (hatelperronian) والثانية (Aurignacian) والثالثة (Gravettian) والرابعة (Solutrean) والخامسة (Magdalenian). وميزوا كل مرحلة من هذه المراحل بمجموعة من أنواع الأدوات التي استعملها الإنسان خلالها.

وقد حدث تطور مشابه للتطور الأوروبي الغربي في أوروبا الوسطى والشرقية وفي بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الشرق الأدنى. وكذلك في سيبيريا الوسطى. أما في الهند وفي شرق آسيا وشرق وجنوب إفريقيا فقد استمرت الأساليب الصناعية التقليدية القديمة التي كانت تعتمد على إنتاج الأدوات الحجرية من نواة معدة لذلك الغرض. وعلى إنتاج الأدوات الشظايا. وفي الواقع فإنه لا يبدو أن التقنية الجديدة المتقدمة قد انتقلت إلى هذه المناطق إلا بعد انتهاء العصر الحجري القديم بزمان.

العصر الحجري المتوسط (7500 - 10000 Mesolithic ق. م.):

بدأ هذا العصر قبل حوالي عشرة آلاف سنة واستمر في أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط حوالي 2500 سنة متداً إلى ما بعد مرحلة الزحف الجليدي. وفيه استمر الإنسان يتبع طرق جمع الفواكه وما إليها كما كانت الحال في العصر الحجري القديم. أمّا ففي بعض البلدان الأخرى من مثل جنوب إفريقيا وأستراليا وطسمانيا فقد استمرت طريقة الحياة التي كانت سائدة

في هذا العصر حتى العصر التاريخي. أما في أوروبا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى فإن الأركيولوجيين يعرفون هذا العصر بأنه فترة واضحة تقع بين العصر الحجري القديم من ناحية والعصر الحجري الحديث من ناحية أخرى. ولكن حضارات هذا العصر المتوسط لا يجوز اعتبارها على أي حال حلقة تطور تربط بين هذين العصرين بل يجب اعتبارها تطويراً وتعديلاً تدريجياً لاقتصاد الصيد القديم حتى يتناسب والأحوال البيئية الناشئة عن تدافع الأقاليم ذات السلاسل الجبلية المرتفعة. وبالتدريج تغلغت مؤثرات حضارية جديدة في غرب أوروبا من بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط حيث كانت جماعات حديثة من الصيادين قد أقامت سلسلة من الحضارات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي تميزت أدواتها الرئيسية بأنها كانت عبارة عن قطع صوانية صغيرة ذات أشكال هندسية عرفت ميكروليث (Microliths) - وقد عرفت هذه الحضارات في الشمال الإفريقي باسم حضارة قفصة (Capsian) وحضارة وهران (Oranian). نسبة لوهران في الجزائر. وبدل تعدد الحضارات التي نشأت هنا وهناك في أوروبا وشمال إفريقيا وفي الشرق الأدنى خلال هذا العصر على تزايد سرعة النمو والتطور مما يجعل السجل الأركيولوجي من هذا الحد فصاعداً أكثر تعقيداً وتشابكاً¹⁴.

العصر الحجري الحديث (3000 - 7500 Neolithic ق.م.):

لقد أتم الإنسان في العصر الحجري المتوسط بناء اقتصاد قائم كلية على جميع المواد الغذائية (جمع الفواكه والحبوب واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك). وحدث بعد هذوه الحقبة وخلال العصر الحجري الحديث تطور أدى بالإنسان إلى تغيير طريقة حياته تغييراً كلياً ذلك أنه أصبح مزارعاً يعتمد في اقتصاده على إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها. وصار يصنع الأوعية الفخارية ويربي الماشية والحيوانات التي استأنسها في هذا العصر كما إنه حسن أدواته الحجرية إلى درجة الإتقان.

ولعل الفخاريات هي أكثر مخلفات إنسان هذا العصر فائدة لنا في

The Encyclopedia Americana, International Edition (Vol. I - Africa, -14 Vol. II - Archacology), American Corporation, New York, 1966

التعرف على تاريخه. ذلك أن قطع الفخار لا تندثر كلية كما إنه يمكن التعرف عليها دون صعوبة. وتأتي العظام بعد الفخاريات في الأهمية فنحن نعرف ما اكتشف منها. بالرغم من صعوبة التمييز بين عظام الحيوانات الأليفة وغير الأليفة. أنه استأنس البقر والنعاج والماعز والخيل والكلاب. ونستدل على اكتشافه للزراعة بالحبوب المتحجرة والمتفحمة وبأحجار الطواحين والأدوات الحجرية الزراعية. وتدل الخلفات الأركيولوجية على أن المزارعين ومربي الماشية بدأوا بعد وقت غير طويل يبنون قبور موتاهم من الطين والحجارة. ويحصنون قراهم. ثم بدأوا يشيدون المعابد.

عصر المعادن:

صهر الإنسان النحاس في الشرق الأدنى في وقت لا يتأخر عن سنة 3000 ق. م. كما أنه صهر الذهب والفضة وربما الرصاص أيضاً في الأناضول بعد ذلك التاريخ. ولكن النحاس بقي المعدن الوحيد المستخدم في التكنولوجيا القديمة إلى ما بعد سنة 2000 ق. م. ولما كان اختراع الكتابة يعتبر بداية للعصر التاريخي سنة 3000 ق. م. فإن معظم عصر النحاس في الشرق الأدنى يقع في العصر التاريخي. وكانت الكتابة قد ظهرت في بابل ومصر حوالي سنة 3000 ق. م. ثم انتشرت خلال الألف التالي في جميع أرجاء الشرق الأدنى وفي كريت. ولا يزال العديد من الأركيولوجيين يقسمون العصر التاريخي إلى:

1- عصر البرونز من 3000 ق. م. إلى 1400 ق. م.

2- عصر الحديد من حوالي 1400 ق. م. إلى مطلع تاريخ الميلاد.

ويؤخذ على هذه التسمية أنها بالنسبة للبرونز تتضمن استعماله قبل ظهوره إذ إن البرونز الحقيقي (نحاس مزوج بـ 10% من التنك) لم يستعمل قبل سنة 1800 ق. م. وإن كانت محاولات تقوية النحاس وإكسابه صلابة بمزجه بالتنك قد تقدمت على هذا التاريخ. وبنفس الطريقة فإن الحديد الذي صهر في آسيا الصغرى حوالي سنة 1500 ق. م. أما انتشاره ببطء. إلى بقية الشرق الأدنى ولم يشع استعماله في مصر إلا في العصرين البطلمي

والروماني. وعصر المعادن في ليبيا يخص العصر التاريخي ولذلك سنؤجل الحديث عنه إلى موضع آخر من هذا الكتاب.

في إفريقيا وليبيا:

تميز العصر الحجري القديم في إفريقيا بمجموعات متنوعة من الأدوات الحجرية بعضها يمثل التطور المحلي والبعض الآخر يشبه إلى حد كبير أمثاله في أوروبا. ولقد بدأ هذا العصر في إفريقيا في وقت ماكر من عصر البليستوسين واستمر في بعض مناطقها إلى وقت حديث. أما عصر المعادن فقد بدأ في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد ولكنه بقي في إفريقيا مقصوراً على المناطق الواقعة شمال الصحراء الكبرى ولم يتجاوزها إلى الجنوب إلا في مطلع سني الميلاد. وقد ظل رجال الغابات في جنوب غربي إفريقيا يستعملون الأدوات الحجرية حتى قبل مائتي سنة فقط. وفي الشمال الإفريقي أو المناطق الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى سارت حضارة عصر ما قبل التاريخ على النمط الذي سارت عليه في أوروبا فما لبثت الفأس الحجرية اليدوية أن استبدلت بنصال وأدوات بشر مصنوعة من شظايا الصوان ثم تطورت تلك النصال والأدوات إلى أدوات ذات حدين وبشارات تصنع من نواة صوانية معدة خصيصاً لهذا الغرض. ثم أضيفت إلى كل ذلك أدوات ذات مقابض عثر على بعض منها في برقة وقدر العلماء أنها ترجع إلى حوالي سنة 34000 ق.م. وهي دون شك من صنع الإنسان العاقل الذي كان لا يزال يحتفظ بصفات تدل على أنه انحدر من الجنس البشري الإفريقي الذي كان يعيش في المنطقة منذ منتصف عصر البليستوسين.

وحوالي سنة 30000 ق.م. أو سنة 28000 ق.م. قامت على ساحل برقة حضارة مغايرة لما سبقها وتميزت باستعمال النصال الصوانية الطويلة. وكان صناع النصال من نوع الإنسان العاقل وربما قدموا إلى المنطقة من جنوب غرب آسيا. وقد كانوا صيادين يعيشون على الكباش البربري والغزال وحمار الوحش وبقر الوحش مكيفين أنفسهم وحضارتهم الآسيوية لتتلاءم

مع البيئة الجديدة. وقد استمرت حضارتهم هذه حوالي اثنين وعشرين ألف سنة.

ولما كان العصر الحجري الحديث قد بدأ في الفيوم وفي وادي النيل في الألف الخامس قبل الميلاد فإن من المعتقد أن حضارة هذا العصر أخذت تمتد غرباً إلى برقة والشمال الإفريقي ثم جنوباً إلى غرب إفريقيا بعد حلول الجفاف الذي أدى إلى تكون الصحراء الكبرى سنة 2500 ق.م.

ولقد مرت ليبيا القديمة بالمراحل المختلفة لعصر ما قبل التاريخ وأقام الإنسان الليبي القديم الحضارات الحجرية متأثراً قليلاً أو كثيراً بحضارات جيرانه في الشرق والغرب.

وكما قلنا عن الصحراء الليبية إنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ. نستطيع أن نقول عن ليبيا بحدودها الحالية إنها متحف آثار كبير لم تكتشف منه حتى الآن إلا زوايا قليلة. ولم يفتح من مغالق كنوزه الحضارية سوى النزر اليسير. إن دراسة أحوال ليبيا في عصر ما قبل التاريخ لا تزال موضوعاً بكرة بالنسبة لعلماء التاريخ وعلماء الأركيولوجيا على حد سواء: فقد ثبت أن قسماً كبيراً من الآثار التي تم اكتشافها حتى الآن من مثل آثار مدينة جرما وقصر مارا وشرابا ولوروكو والحاسيا وزويلة. وما وجد فيها وحولها من قبور وأضرحة وقلاع منتشرة في وادي الأجال بفزان تعود جميعها إلى العصر التاريخي وإلى أيام الجرامنتيين على وجه التحديد (حوالي القرن الثامن قبل الميلاد) رغم ما وقع فيه بعض الكتاب من التباس فنسبوا الكثير منها إلى عصر ما قبل التاريخ كما فعل جيمس ويللارد¹⁵.

العصر الحجري القديم الأدنى:

لعل أفضل ما نشر عن عصر ما قبل التاريخ في ليبيا حتى الآن هو كتاب: Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya لمؤلفيه (R. W. Hey و C.B.M. McBurney). فقد أظهر المؤلفان أن

15- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. مكتبة الفرجاني. طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى ببيروت. نوار (مايو) 1967. ص 35.

ما تم كشفه من مخلفات أركيولوجية يثبت أن ليبيا مرت بجميع مراحل عصر ما قبل التاريخ. ففي شمال منطقة طرابلس بشكل عام وفي موقع بئر دوفان¹⁶ بشكل خاص اكتشفت مخلفات من صناعة الفؤوس الحجرية اليدوية تدل على أن تلك الصناعة سادت خلال فترة مطرة تتفق مع فترة انتشار هذا النوع من الصناعة في الصحراء الغربية وفي واحة الخارجة. واكتشفت في توكرة ومواقع متفرقة من برقة في المدة الأخيرة مخلفات تدل على قيام حضارة العصر الحجري القديم الأدنى في ليبيا.

العصر الحجري القديم الأوسط:

أما حضارة العصر الحجري القديم الأوسط فقد أقيم الدليل على وجودها في ليبيا بملاحظة صناعات مختلفة هي:

- 1- صناعة الشظايا والأدوات الشظايا المحسنة وقد وجدت مخلفات لها في ثلاثة مواقع مختلفة في برقة.
- 2- صناعة أخرى قام بها الإنسان النياندرتال (Neanderthal) وهي تناظر الصناعة التي كانت قائمة في فلسطين في هذا العصر وتتشابه أدواتها مع الأدوات التي وجدت في جبل الكامل بحيفا في فلسطين. وفي الوقت ذاته فإن هذه الصناعة تعاصر بداية الزحف الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.
- 3- محاجر صنع الأدوات المحسنة قليلاً وهي تعاصر شبيهاتها من عهد الزحف الثاني للعصر الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.

والدليل الناصع الآخر هو اكتشاف موقع الحاج كرم¹⁷ حيث وجدت أدوات حجرية لها ما يماثلها في فلسطين وأوروبا. وتدل عظام الحيوانات التي وجدت ضمن مخلفات هذا الموقع على أن الجماعة التي كانت تعيش فيه كانت

16- قرب أحد مصبات رافد من روافد وادي مردم الذي هو رافد لوادي سوفجين وعلى بعد مائة كيلومتر من الشاطئ.

17- على الضفة الشرقية لوادي جحام قبل التقائه بوادي درنة وحت ضريح المرابط سيدي الحاج كرم الذي سميت المنطقة باسمه وعلى بعد ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر من الشاطئ.

تقتني تلك الحيوانات لأكل لحومها. وأهم هذه الحيوانات هب البقر والغزلان وحمير الوحش والسلاحف البرية والكباش البربرية.

وقد وجدت أدوات حجرية تشبه أدوات موقع الحاج كرم في وادي الناقفة وعين مارا ومواقع أخرى غربي درنة وفي رأس عامر على ساحل برقة وفي وادي مردوم ووادي غان وسفوح جبل نفوسة بمنطقة طرابلس.

العصر الحجري القديم الأعلى:

وبالنسبة لحضارة العصر الحجري القديم الأعلى جاء اكتشاف حفنة الضباع في وادي الكوف إثباتاً قاطعاً لقيام هذه الحضارة في ليبيا. وتماثل المخلفات التي وجدت في هذا الكهف مع ما وجد من مخلفات هذا العصر في فلسطين وسوريا من ناحية ومع ما وجد من مخلفات حضارة قفصة في تونس من الناحية الأخرى. وقد دل التحليل الكربوني على أن مخلفات هذا الكهف ترجع إلى حوالي سنة 14000 ق. م.

وهناك كهف آخر هام هو كهف حفنة الطيرة (كهف الطيور) الذي اكتشفه سنة 1937 م. الأركيولوجي الإيطالي السنيور بتروكي (Signor C.T. Petrocchi). وتكمن أهمية هذا الكهف في أن محتوياته من الأدوات الحجرية والعظام وغيرها من المخلفات وجدت على ما تركت عليه دون أن تمت إليها يد العبث. وفي أنه يحتوي أدوات يرجع بعضها إلى العصر الحجري القديم الأوسط بينما يرجع البعض الآخر إلى العصر الحجري القديم الأعلى¹⁸.

ومن مخلفات هذا العصر ما وجد في موقع «هوا الفتاح» بالقرب من أبولونيا (= سوسة). وقد دل التحليل الكربوني لمخلفاته على أنها تعاصر مخلفات حفنة الضباع وحفنة الطيرة.

العصر الحجري المتوسط:

أما العصر الحجري المتوسط فإن ما اكتشف من أدواته في ليبيا قليل ولا

18- حفنة الطيرة كهف من الحجر الكلسي الذي تكون خلال عصر الميوسين وهو يقع في الطرف الشرقي من سهل برقة الساحلي وعلى بعد عشرة كيلومترات إلى الداخل من بنغازي وهو يفتح إلى الجنوب الغربي.

يكفي لإعطاء صورة عن الحضارة الليبية القديمة في هذا العصر. وبالرغم من ذلك فإن الإنسان الليبي القديم الذي مر بمراحل العصر الحجري القديم كلها لا بد وأن يكون تابع تطوره فمر بهذا العصر. ولقد اكتشف حول خليج سرت أدوات تعود إلى قبيل العصر الحجري الحديث كما اكتشفت أدوات حجرية في وادي غان وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من غريان ترجع إلى قبيل بدء العصر الحجري الحديث. وعلى الضفة الأخرى لهذا الوادي ومقابل الموقع المذكور اكتشفت أدوات حجرية تدل أيضاً على أن صناعتها إنما عاشوا عشية الانتقال إلى العصر الحجري الحديث. بالإضافة لذلك فقد اكتشفت أمثلة لصناعات هذا العصر في مواقع أخرى متفرقة في ليبيا من الجبل الغربي حتى الجبل الأخضر.

العصر الحجري الحديث:

إن المكتشفات الأركيولوجية في واحة سيوة وفي شمالي منطقة طرابلس وفي برقة مضافة إلى أحدث ما تم التوصل إليه في مصر والمغرب تشير كلها إلى أن ليبيا كانت خلال هذا العصر تنقسم إلى منطقتين حضاريتين تتميز الواحدة منهما عن الأخرى: المنطقة الغربية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الغرب من خليج سرت. والمنطقة الشرقية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الشرق من ذلك الخليج¹⁹. وقد كان يغلب على المنطقة الغربية الطابع الإفريقي كما إنها كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارات نيجيريا والسودان والنيل الأعلى في هذا العصر. وقد أيد هذا الرأي ما تم اكتشافه من مخلفات شبيهة بمخلفات هذه المنطقة في جبال الهجار وتبيستي. ولقد وجدت في جبل نفوسة وفي سهل الجفارة بمنطقة طرابلس أدوات يرجع تاريخها إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث لحضارة قفصة²⁰. أما المنطقة الشرقية فهي بواحاتها وما فيها من أماكن

صالحة للسكن تشكل مثلثاً يقع إلى الشمال والشمال الشرقي من بحر الرمال الليبي وتمتد من الجبل الأخضر غرباً إلى الفيوم شرقاً ومن شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى واحة الخارجة جنوباً. وفي هذه المنطقة نشأ طراز مستقر من الحضارة أقامته جماعات بشرية منتجة للغذاء منذ حوالي بداية الألف الخامس قبل الميلاد. وربما كان هذا التحول الحيواني إلى إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها ناجماً عن اتصال حضاري بين أبناء المنطقة الأصليين الذين كانوا يعيشون على الصيد وجمع الغذاء وبين جماعات طائفة منتجة للغذاء قدمت من جنوب غرب آسيا. وقد أكد المؤلفان: (C.B.M. Mc Burney) و (R.W. Hey)²¹ قيام حضارة مستقلة إلى حد كبير في المنطقة الشرقية من ليبيا ابتداء من المراحل المتأخرة من العصر الحجري المتوسط على الأقل عندما كان إنسان هذه المنطقة لا يزال يعتمد في معيشته على الصيد وجمع المواد الغذائية وحتى نهاية العصر الحجري الحديث. والقول بقيام حضارة مستقلة في المنطقة الشرقية من ليبيا يجب ألا يعني أن تلك الحضارة كانت في عزلة تامة عن الحضارات المجاورة وإنما يجب أن يعني أنها كانت حضارة لها شخصيتها الخاصة بها وأنها كانت تؤثر في الحضارات المجاورة وتتأثر بها محتفظة بشخصيتها الخاصة طيلة الوقت. ونحن نلاحظ أن أدوات العصر الحجري الحديث التي وجدت في هذه المنطقة الشرقية من ليبيا كالسهم المرفق والعصا ذات السطوح الثلاثة وصناعة الشظايا بالضغط تشبه نظائرها بقية ساحل الشمال الإفريقي. وأقوى تقارب بين حضارة هذه المنطقة والحضارات المجاورة إنما كان بينها وبين المرحلة الثانية من حضارة الفيوم بمصر. ولقد اشتمت النزعة الاستقلالية لهذه الحضارة في الفترة ما بين انتهاء العصر الحجري الحديث وعهد استبدال الأدوات الحجرية بأدوات من مواد أخرى. ولذلك فإنها لم تتأثر خلال تلك الفترة تأثراً يذكر بالحضارات المجاورة. بل من الأرجح أن حضارة النيل المتقدمة على هذه

19- قامت بعزل عن الساحل التونسي الذي كانت تقوم على امتداده حتى خليج قابس في الشرق وحتى المحيط الأطلسي في الغرب حضارة وهران المعاصرة لحضارة قفصة العليا.
20- حضارة قفصة الدنيا والعليا انتشرت في مساحة تبلغ مائة وعشرين ألف كيلومتر مربع تقريباً على السهول الجنوبية الشرقية لكتلة جبال أطلس. فهي بذلك حضارة داخلية
21- McBurney, C.B.M. & R.W., Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya, Cambridge University Press, 1955, p. 261

تاريخ ليبيا القديم

الحضارة الليبية أخذت عنها الكثير²². أما سكان الواحات من ليبيا الشرقية فقد كانوا - كما هم عليه اليوم - شديدي المحافظة. ولذلك فإنهم لم يقتبسوا إلا القليل من تقنية الحضارات المجاورة. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة في مختلف أرجاء الصحراء الليبية دلّت على أنه كان يسكن تلك الصحراء في العصر الحجري الحديث رعاة بقر مسلحون بالقوس والنشاب وأنهم وصلوا درجة معقولة من التقدم الفني وتعرضوا لعدة مؤثرات خارجية.

والمعروف أن صناعات العصر الحجري الحديث في شمال غربي إفريقيا تمت من صناعات العصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي وحت مؤثرات أجنبية مصرية. والعصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي لشمال غربي إفريقيا هو آخر فترة من عصر ما قبل التاريخ إذ يبدأ بعد ذلك خاصة في المناطق الساحلية - العصر التاريخي الحقيقي بنزول الفينيقيين في مطلع الألف الأول قبل الميلاد في هذه المنطقة. ويتأثير الفينيقيين صارت دائرة العصر التاريخي تتسع ممتدة شرقاً وغرباً وجنوباً واستمرت كذلك في العهود الروماني والبيزنطي والعربي. أما المناطق الداخلية والصحراوية فقد ظلت في عصر شبه تاريخي (Protohistoric) يمكننا أن نقول إنه بدأ بعصر هيرودوتس (القرن الخامس ق. م.) وانتهى بالفتح الإسلامي²³. وبالنسبة لبرقة نستطيع أن نقول إنها عاشت في العصر التاريخي منذ بدء احتكاكها بالحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة ولكنها لم تدخل العصر التاريخي الحقيقي إلا بعد نزول الإغريق فيها في القرن السابع قبل الميلاد.

Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaeology of Northwest - 22 Africa; Museum of American Archaeology and Ethnology, Haravard 99-Jniversity, Vol; XIX - No.1, 1941, pp 96
23- المرجع السابق، ص 99 وما يليها.

الفصل الثاني

ليبيا من فجر التاريخ حتى مقدم الإغريق

والفينيقيين

ليبيا في فجر التاريخ

إن العقبة الرئيسية في سبيل دراسة تاريخ ليبيا القديم تكمن في كيفية تناول ذلك التاريخ نظراً لتشعبه، وانحصار مصادره، وتفاوت وجود تلك المصادر بالنسبة لمنطقة أو لأخرى. ولقد سبقَت الإشارة²⁴ إلى وفرة المصادر الخاصة بمنطقتي برقة وطرابلس وندرتها بالنسبة للدواخل.

وتنوع علاقات الليبيين مع غيرهم من الشعوب أدى إلى تنوع تاريخهم من ناحية وتنوع مصادره من ناحية أخرى؛ ولذلك فنحن نجد تاريخ برقة مرتبطاً بتاريخ المصريين والإغريق والرومان على الترتيب. ونتيجة لذلك الارتباط فإن مصادر تاريخ برقة لا تتعدى أن تكون مصرية أو إغريقية أو رومانية. بينما احتكت بالإغريق احتكاكاً بالند، ثم بالوندال فالبيزنطيين؛ وعلى ذلك فمصادر تاريخها تكاد تكون تنحصر في المصادر الرومانية والإغريقية لأن الفينيقيين والوندال لم يتركوا مصادر تذكر. أما منطقة فزان فلا نجد عنها إلا النزر اليسير الذي ورد هنا وهناك في كتب التاريخ والجغرافيا والأدب لمؤرخين وجغرافيين وأدباء من العصر الكلاسيكي. وما يزيد في صعوبة دراسة تاريخ فزان أن آثارها، بعكس ما عليه الحال بالنسبة لآثار برقة وطرابلس، خربت ونهبت عبر العصور من ناحية. ولم تكتشف وينقب عنها بما فيه الكفاية من الناحية الأخرى ما أدى إلى إبقاء تاريخها غامضاً وخالياً من التفاصيل.

وتسهيلاً للدراسة والبحث رأيت أن أبدأ إلى تقسيم التاريخ الليبي القديم إلى العصور التالية مع التأكيد أنه ليس هنالك حاجز زمني أو مادي يفصل بين عصر وعصر لأن الحياة لا تتوقف عند نهاية عصر لتبدأ من جديد في العصر الذي يليه بل تستمر في جريانها بغض النظر عن الظروف والعصور. فنجد نتيجة لذلك أن التاريخ يستمر في جريانه كذلك بحيث يسلم كل واحد من عصوره للذي يليه:

أ- تاريخ منطقة برقة. ويقسم إلى ما يلي:

1- من فجر التاريخ حتى حوالي سنة 631 ق. م. وهي السنة التي انفق على أن الإغريق أسسوا فيها مدينة قورينة (= شحات).

2- تاريخ منطقة برقة في العهدين الإغريقي والبطلمي حتى سنة 97 ق. م. وهي السنة التي اوصى فيها بتوريث برقة للرومان.

ب- تاريخ منطقة طرابلس ويقسم إلى ما يلي:

1- من فجر التاريخ حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أقام الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراته على الساحل الطرابلسي.

2- تاريخ منطقة طرابلس منطقة من بداية العهد الفينيقي (القرن السادس ق. م.) حتى سنة 46 ق. م. وهي بداية العهد الروماني في هذه المنطقة بعد وقوعها في يد يوليس قيصر في أعقاب انتصاره في معركة ثابيسوس (رأس الديماس بتونس).

ج- تاريخ فزان ويقسم إلى ما يلي:

1- من فجر التاريخ حتى مقدم الجرامنتيين حوالي سنة 800 ق. م.

2- من مقدم الجرامنتيين حتى بدء العصر الروماني.

د- ليبيا في العهد الروماني الذي انتهى في منطقة طرابلس باحتلال الوندال لها سنة 445 م. أي بعد احتلالهم لقرطاجنة بست سنوات.

هـ- طرابلس في عهد الوندال من سنة 445 م. إلى سنة 534 م. وهي السنة التي انتهت فيها حكم الوندال باستسلام ملكهم جليمر للقائد البيزنطي بليزاريوس.

و- طرابلس في العهد البيزنطي من سنة 534 م. حتى سنة 644 م. وهي سنة الفتح العربي.

ز- برقة في العهد البيزنطي من سنة 305 م. عندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وبيزنطية حتى سنة 643 م. وهي سنة الفتح العربي.

ح- فزان منذ حريق جرما سنة 395 م. حتى الفتح العربي سنة 644 م.

وقبل أن نبدأ بدراسة التاريخ الليبي القديم على أساس المخطط السابق يجدر بنا أن نتوقف هنيهة عند عدد من المبادئ الأساسية التي ستساعدنا على فهم وتفسير الكثير من المواقف المعقدة في التاريخ الليبي. وبوسعنا أن نلخص تلك المبادئ فيما يلي:

1- إن الإنسان القديم لم ينشأ لديه إحساس واع بالشعور بالانتماء إلى وطن معين أو أمة معينة إلا بعد أن خضر وأقام الإمبراطوريات والدول الكبيرة. وهذه مسألة سهلت عليه الهجرة من مكان لآخر وفقاً لأمنه ومصالحته وظروفه.

2- إن طبيعة الحياة البشرية في العصور القديمة كان يتحكم فيها قانون الغاب ومبدأ الحياة للإصلاح. ولذلك فإن الغارات والحروب كان يرافقها دائماً سبي النساء والأطفال واسترقاق الرجال وبالتالي امتزاج الأجناس.

3- إن الهجرات البشرية كانت ظاهرة عامة فلم تسلم منطقة مأهولة في العالم القديم من التعرض لموجات عاتية من الهجرات البشرية المتتالية الناجمة عن أسباب كثيرة مختلفة لا مجال لبحثها هنا.

4- إن البلدان المختلفة كانت تتفاوت في مدى تعرضها للهجرات والغارات تبعاً لأهمية موقعها الجغرافي من ناحية، وما فيها من مصادر الرزق من ناحية أخرى. وكثافة سكانها ومستواهم وإحاديهم أو تفرقهم وقدرتهم أو عجزهم بالنسبة للوقوف في وجه المغيرين أو المهاجرين من ناحية ثالثة.

فإذا نحن طبقنا هذه المبادئ على ليبيا خرجنا بالصورة التالية: إن ليبيا كانت دائماً قليلة كثافة السكان وبالتالي ضعيفة القوة. وما زاد في ضعفها غلبة الطابع البدوي على سكانها. وتسلسل النظام القبلي على أبنائها. ما حال دون قيام وحدة حقيقية بينهم وسهل على المغيرين أو المهاجرين التغلب عليهم. وهي كذلك واسعة الرقعة. ممتدة إلى أكثر من ألفي كيلومتر على ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي في مواجهة أوروبا، ومتعمقة في القارة الإفريقية نعمة جعلها رئة لإفريقيا الوسطى وخاصة السودان.

ولذلك فإن تأثيرها بأوروبا واتصالها بها وتأثيرها بإفريقيا الوسطى واتصالها بها. وتأثيرها بمصر المجاورة لها من الشرق واتصالها بها كانت أمورا حتمية لا مفر منها. فإذا أضفنا لما ذكر. صعوبة المواصلات في العصور التاريخية القديمة. أدركنا سبب عدم قيام سلطة مركزية قوية في هذه البلاد تصد عنها غارات المغيرين. وسيل المهاجرين القادمين من المناطق المجاورة: من أواسط القارة الإفريقية في الجنوب. ومن الشمال من جزر البحر الأبيض المتوسط والبلدان الأوروبية الواقعة على ساحله الشمالي في مقابلة الساحل الليبي الطويل وغير البعيد. ومن الشرق عبر مصر أو عبر البحر الأبيض المتوسط. ومن الغرب من جبال الأطلس التي يسهل النزول منها إلى الأراضي الليبية المنبسطة. ولعل أحدث مثل للهجرات الكبرى هو هجرة قبائل بني هلال وبني سليم في القرن الهجري الخامس. وأحدث مثل للغزو الخارجي هو الغزو الإيطالي سنة 1911 م.

برقة من فجر التاريخ سنة 631 ق. م.

تتناول هذه الفترة من التاريخ الليبي القديم دراسة العلاقات الليبية - المصرية. ومصادرنا عنها تكاد تنحصر في النقوش والمخطوطات المصرية. ولا بد أن تقرر منذ البداية أن العلاقات الليبية - المصرية كانت قائمة منذ أقدم الأزمنة ولكنها كانت علاقات عداء وغزو في معظم الأوقات إن لم نقل طيلة الوقت؛ وعلى هذا فإن مصادر التاريخ الليبي لهذه الفترة مصادر معادية كما هي الحال بالنسبة لمعظم مصادر التاريخ الليبي القديم بأسره. ومن هنا فإن أحداً لا يستطيع أن يدعي أن المخطوطات والنقوش المصرية تكون سجلاً كاملاً لعلاقة الليبيين بالمصريين في الفترة موضوع البحث. ولكنها على أي حال تعطي صورة تكفي لإثبات قيام تلك العلاقات وتبين نوعها. وتجدر الإشارة إلى أن المصريين كانوا يخرجون دائماً منتصرين على الليبيين لأن التقليد الذي كان سائداً عندهم هو أن يسجل الملك أو الفرعون أخبار انتصاراته وأمجاده وليس كل تاريخه. وقبل الخوض في هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى عاملين مهمين كان لهما أثر بالغ في خلق العلاقات الليبية - المصرية وفي تقرير طابعها العدائي. وهما: الجفاف التدريجي المتزايد الذي أصاب الديار الليبية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. ثم الاضطراب السكاني الذي أصاب أواسط أوروبا في وقت لاحق وأسفر عن تدافع الشعوب الأوروبية وقدم موجات متتالية منها نزلت في الشمال الإفريقي ابتداء من الساحل التونسي شرقاً حتى نهاية ساحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي غرباً. ولم تلبث إلا قليلاً حتى بدأت تضغط على القبائل الليبية المجاورة لها من الشرق.

فإذا نحن تذكرنا ما سبق تبيانه من أن الصحراء الليبية كانت تزخر بالحياة في عصر ما قبل التاريخ. ثم بدأت تتحول تدريجياً إلى ما هي عليه الآن نتيجة لحلول الجفاف الحاد المتزايد في مناخها من ناحية وللدمار الذي لحقته حيواناتها وأشجارها ونباتاتها من الناحية الأخرى. أمكننا أن نتصور أن الليبيين بدأوا منذ ذلك العهد السحيق بهاجرون من منطقتهم باتجاه مصر في الشرق لأن ذلك الاتجاه كان السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحاً

أمامهم إذ إنه لم يكن بوسعهم أن يبقوا في الداخل لجفافه كما أنه لم يكن بوسعهم أن يتجهوا إلى الغرب بسبب وعورة جبال أطلس من ناحية وبسبب ضغط «أقوام ما وراء البحر» التي هبطت تلك المنطقة فيما بعد من ناحية أخرى. وطبيعي أن يكون زحف الليبيين باتجاه مصر هرباً بحياتهم من منطقتهم المنكوبة إلى المنطقة المجاورة. وطلباً للرزق والأمن. ولما كان وادي النيل الدافئ الخصيب يمتد كواحة كبرى بين رمال الصحارى القاحلة التي تحيط به. فإن خضرته ومياهه العذبة كانت دون شك تشكل إغراءً جباراً للقبائل الليبية المجاورة. ومن هنا فإن المهاجرين الليبيين لابد أن يكونوا نزلاً وادي النيل على شكل هجرات متتالية في عصر ما قبل التاريخ وفي العصر التاريخي. وقدمهم لوادي النيل على هذه الصورة لا يمكن أن يكون اتخاذ طابعاً غير طابع الغزو والعنف لأن غايتهم من الهجرة كانت الاستيلاء على المواد الغذائية والأسلاب وربما الاستيطان. وكان هؤلاء المهاجرون لا يلبثون أن يمتزجوا بالسكان الأصليين حتى يذوبوا فيهم ليصبحوا عنصراً في تكوين الأجيال المصرية التالية. ومن الطبيعي والحالة هذه ان يقف المصريون القدماء موقف الدفاع عن أنفسهم وأرزاقهم وبلادهم فيحاولوا صد المغيرين من الغزاة المهاجرين. وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى مهاجمة القبائل الليبية في مواطنها قبل انقضاها على وادبهم تطبيقاً للمبدأ القائل إن الهجوم الوقائي هو خير وسيلة للدفاع.

في عهد الدولة القديمة (3200 - 2300 ق.م.):

لقد وجدت مخلفات أثرية ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات في مصر وتشهد على قيام اتصال بين الليبيين والمصريين: فقد عثر على مقبض عاجي لسكين في جبل العركي مقابل لجع حمادي في مصر يرجع تاريخه إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وقد نقش على أحد جانبيه معركة برية بحرية بين فريقين واضح أن أحدهما مصري والآخر يشبه أن يكون ليبيا بسبب القرب الذي يرتديه أفراده لستر عوارتهم ولأنهم أرسلوا شعورهم الطويلة وجعلوا جدائل منها تنسدل على جانب الرأس وهذه كلها صفات تقرب من الصفات التي رسم بها المصريون الليبيين في العصور اللاحقة.

وقد وجدت أيضاً لوحة الملك الوجه القبلي الملقب بالعقرب وعليها أربعة صفوف من النقوش الأفقية تظهر في الثلاثة الأولى منها صور ثيران وحمير وكباش وفي الرابع صورة تشبه أن تكون شجرة زيتون وأمام الشجرة نقشت علامة تدل على كلمة خنو ما قد يعني أن الملك عقرب خاض حرباً ضد التحنو وسجل ما غنمه منهم على لوحته تلك.

وفي مطلع عهد الأسرات عاد اسم التحنو للظهور مصوراً بالهيريوغرافية فقد وجدت في الكوم الأحمر إلى الشمال من إدفو بصعيد مصر أسطوانة عاجية نقش عليها اسم الملك نعرمر (Narmar) كما صور هذا الملك وهو يجلد جماعة من الأسرى نقش فوق رسمهم اسم التحنو²⁵. وعلى آثار الملك عجا. خليفة نعرمر. إشارات كثيرة إلى حروب مع الليبيين كما أن اسم التحنو يتكرر في نصوص الأسرتين الثانية والثالثة (2778 - 2723 ق.م.) باعتبارهم قوماً كان على فراغته هاتين الأسرتين أن يتصدوا لهم فراعنة هاتين الأسرتين أن يتصدوا لهم ويضعوا حداً لهجماتهم. وقد روى مانيثو (Manetho)²⁶ أنه في بداية عهد الأسرة الثالثة ثار الليبيون في مصر على الملك نفرقرع (Nefer-ka-ra) ولكنهم سرعان ما ألقوا أسلحتهم لتشاؤمهم من ازدياد حجم القمر زيادة غير طبيعية. وقد تكون هذه الرواية مجرد رواية موضوعة ولكن ليس هنالك ما ينفي احتمال أن يكون مانيثو قد نقلها عن كتاب أقدم منه. على أي حال لا نلث بعد انتهاء عهد الأسرة الثالثة إلا قليلاً حتى نسمع عن نزاع مؤكد بين الليبيين والمصريين وعن احتكاك بين الليبيين وجيرانهم زنوج الجنوب فما هو الملك سنفر. مؤسس الأسرة الرابعة (2723 - 2563 ق.م.) يقوم بحملة ضد الليبيين فيأسر منهم أحد عشر ألفاً ويغنم ثلاثة عشر ألفاً ومائة رأس من الماشية ويسجل

25- انظر: برستد. ج: ه: تاريخ مصر. ص 47. حيث ينص على أن الملك نعرمر قام في مطلع عهد الأسرات بإخضاع ثورة ليبية في الدلتا وأسر مائة وعشرين ألف ليبي كما غنم أربع مائة ألف رأس من المواشي - ويخالف أوريك بيتس برستد في هذه المسألة ويقول إنه يعتقد أن الذين قاموا بتلك الثورة كانوا مصريين من الدلتا وليس ليبيين.

26- مانيثو كاهن مصري عاش في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس وكتب تاريخ مصر بالإغريقية. وقد وصلت أجزاء منه في كتب المؤرخين العرب واليهود وخاصة تاريخ المؤرخ اليهودي يوسف.

كل ذلك على حجر بالرمو. ومن أهم النصوص التي تتحدث عن النزاع الليبي - المصري بعيد هذه المرحلة نقوش الملكين (ني - أوسر - رع) و (سحورع) من ملوك الأسرة الخامسة (2563 - 2423 ق. م.) وهي نقوش سجلها كل من الملكين على جدران معبده في قرية أبي صير وسجل فيها انتصاراته على الليبيين. ويتبين من أوضاع نقوش سحورع أن التحنو الليبيين الذين هزمهم ذلك الملك كانوا يعيشون إلى الجنوب من مفييس (ربما في وادي النطرون والفيوم). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرؤساء الليبيين كانوا في هذه الرحلة المبكرة من تاريخهم يتحلون بحلي شخصية تمتاز في صنعها عن مثيلاتها حتى في المراحل اللاحقة. وقد وردت في نقوش سحورع عبارة «ضرب تحنو» كما رسمت فيها الثيران والحمير والأغنام وقطعان الماعز التي غنمها هذا الملك ورسمت فوقها وحتها صور أسرى التحنو الليبيين يرسفون في الأغلال كما نقش فوقهم اسما إقليمين من أقاليمهم هما «باش» و«بكت». ورسمت كذلك خلف أسرة أمير التحنو صورة إله الغرب وصورة الإله «عش». إله بلاد التحنو. وهما يقدمان للملك سحورع خيرات البلاد الأجنبية. ولنقوش معبد الملك سحورع هذه قيمة أخرى مهمة لأنها تعطينا الكثير من التفاصيل عن التحنو فهم يظهرون فيها. رجالاً ونساء. قوماً طوال القامة. سمر البشرة. تهدل فوق أكتافهم شعورهم السوداء الطويلة المتموجة. وتزين جباههم خصل من الشعر تميزهم عن غيرهم. وتظهر وجوههم نحيفة. ووجناتهم نائنة. وشفاهم غليظة. كما يتميز رجالهم بلحي قصيرة تنتهي بطرف مدبب وتحدد شكل الفك بصورة واضحة. أما الرزي فهو ذاته للرجال والنساء إذ يرتدي كل من الرجل والمرأة شريطين عريضين من الجلد يتقاطعان على الصدر. ويتمنطق بحزام مزين بخطوط عمودية وأخرى أفقية وينتهي من الأمام بقراب يستر العورة. وتحيط بالعنق بنيقة مرتفعة نسبياً تتدلى منها بعض الأشرطة. وكان رجال التحنو يتميزون عن نساءهم بما كانوا يتحلون به من ذبول الحيوانات كما يتميزون عن غيرهم من الليبيين بعدم وضع الريشة أو الريشتين في شعورهم. أما أطفالهم فلم يكونوا يرتدون الحزام أو قراب العورة أو ذيل الحيوان.

وخلال الألف الثالث قبل الميلاد كان شعب جديد من أقوم ما وراء البحر يتميز بالبشرة البيضاء والشعر الأشقر قد استقر في ليبيا ووطد مكانته فيها. وقد فطن المصريون لما بين هؤلاء الليبيين الجدد والليبيين الآخرين من فروق فسموهم «التمحو» أي الشقر²⁷. وقد ورد ذكر هذه القبيلة لأول مرة في النصوص المصرية في عهد الملك بيبى الأول من الأسرة السادسة (2420 - 3280 ق. م.) عندما نسمع أن الجيش المصري الذي سار بقيادة «وتي» لمقاتلة القبائل الآسيوية كان يضم بين فرقته فرقة من مرتزقة «التمحو». ثم ورد ذكرهم ثانية في عهد الملك مررع. من هذه الأسرة أيضاً. وذلك في النقوش التي خلفها حرخوف. التاجر والرحالة المصري. على قبره في جزيرة الفنتين (فيلة) قرب أسوان. ودل فيها وهو يسرد أخبار رحلته إلى أرض «يام» (جنوب وادي حلفا) إنه وصل أرض التمحو إلى الغرب من «يام». وفي رحلته الثالثة إلى درب الأربعين في طريقه إلى دارفور بالسودان قال هذا الرحالة إنه سافر على درب الواحات ورأى قبيلة من زنوج «يام» تزحف على قبائل التمحو الذين كانوا يعيشون في غرب مصر. «وإن رئيس «يام» كان ذاهباً إلى أرض التمحو ليضرب التمحو حتى الركن الغربي من الأفق. فذهبت في أثره. وأدخلت السكينة على نفسه».

في عهد الدولة الوسطى (2300 - 1580 ق. م.):

وقامت حروب أخرى بين الليبيين والمصريين في عهد الدولة الوسطى بمصر. ففي عهد الأسرة الحادية عشرة نسمع أن الملك إنتف (Intef). أول ملوك هذه الأسرة. كان يملك بين كلاب صيده كلباً باسم لبيبي ما قد يدل على أنه كان أرسل إليه ضمن جزية كان الليبيون يؤدونها له. وفي عهد خليفته منتوحتب (Mentuhotep) الأول تمكن المصريون من هزيمة الريبو (Rebu) والتحنو - ولكن هذه الحروب لم تكن عامة أو على نطاق واسع وإنما كانت غزوات أو غارات تقوم بها القبائل الليبية تقابلها غارات مصرية مضادة. ونحن نقرأ عن غارة من هذا النوع في مطلع قصة سنوحي (Sinuhe) أحد

27- كانوا يقيمون في منطقة تقع إلى الغرب من منطقة التحنو وينتشرون على طول ضفة النيل الغربية وقد استقرت جماعة منهم في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني.

قادة الملك «أمنمحات» الأول (1961 – 1991) (Amenemhat I ق. م.):
فقد أرسل هذا الملك ابنه وشريكه في الملك «أسرتسين» (سنوسرت) الأول
(Useratesen I) إلى الغرب للإغارة على الريبو. يقول سنوحي:

« انظروا لقد بعث جلالته جيشاً جباراً ضد الليبيين تحت إمرة جله الأكبر.
الرب الكريم أسرتسين. والآن ها هو أسرتسين يعود من الغزو وهو يجرد وراءه
أعداداً من الأسرى الليبيين أحياء، وأعداداً لا تحصى من المواشي...»

ويبدو أن هذه الغزوة كانت حقيقة لأن صداها تردت حتى العصر الإغريقي
اللاحق – وقد أشار إليها ديودورس الصقلي بقوله: «إن الأمير الشاب أسرتسين
أرسل إلى بلاد الغرب ثم أخضع قسماً واسعاً من ليبيا» وربما كان الرسم
المتماثل لهذا الأمير في متحف القاهرة على هيئة الغريفين (gryphons)²⁸
يدوس الجنوبيين والليبيين بقدميه إما هو تذكراً لهذه الغارة.

ولعل ما يلفت النظر عند هذا الحد أن المصريين هم الذين كانوا يتعدون
في هذه الفترة وليس الليبيين كما حدث من قبل وكما سيحدث فيما بعد.
فنحن نسمع أن الليبيين كانوا متأثرين بعظمة القوة المصرية إلى حد أنه في
السنة الرابعة والثلاثين من حكم أسرتسين الأول قام أحد ضباطه وأسمه
إتنديدي (Itendidi) برفقة نخبة قليلة من الجنود بزيارة «الأرض سكان
الواحات» أي الليبيين. ولم يكن هدف هذه الزيارة معروفاً ولكن يبدو أنها
كانت بمثابة استعراض للعضلات المصريو فقط. ويبدو أن الليبيين كانوا
يحترمون القوة المصرية ويهابونها مهابة حقيقية خلال عهد الأسرة الثانية
عشرة فقد تمكن أحد ضباط الملك أسرتسين الثالث (1887 – 1850 ق. م.)
أن يجلب للملك «منتجات التحنو الجديدة اعتماداً على شهرة جلالته
العظيمة». كما أن هذا الملك ذاته صور نفسه وهو يهزم أحد الليبيين. ولعل
هذا العامل، مضافاً إليه استقرار التحمو في مصر وعلى حدودها الغربية،
وبالتالي عزوفهم عن المناوشات، يفسر ضالة المعلومات عن الليبيين طيلة
القرون الثلاثة التي تلت عهد الملك أسرتسين الثالث وحتى مطلع عهد
الأسرة الثامنة عشرة (1580 – 1320 ق. م.) عندما يبدأ نزاع متواصل بين

28- حيوان خرافي نصفه العلوي نسر ونصفه السفلي أسد.

الليبيين والمصريين يستمر طيلة عهد هذه الأسرة.

في عهد الدولة الحديثة (1580 – 1085 ق. م.)

وأول ما نسمعه عن هذا النزاع يرد على لسان أحد المسؤولين المصريين في
عهد الملك أمنحوتب الأول (1557 – 1530 ق. م.) عندما يذكر أنه أسر باسم
الملك «ثلاث أيدٍ» من قبيلة إموكهك (Imukehek) في الشمال. وقد يكون
هذا إشارة لمهاجمة هذه القبيلة للمقاطعات الغربية من الدلتا ما حمل
الملك أمنحوتب الأول على مهاجمتها وهزيمتها وتخليد انتصاره عليها على
لوحة تصوره ملوحاً بسيفه وقد جثا عدوه عند قدميه. وفي عهد ختمس
الثالث قدم الرؤساء الليبيون من الواحات الجنوبية والشمالية الجزية كما أن
أخته وزوجته وشريكته الملكة حتشبسوت (Hqtshepsut) حصلت جزية
ضخمة من التحنو كانت تتألف « من كمية من العاج ومن سبعمائة سن
فيل ومن عدد كبير من جلود الفهود الجنوبية». وباختصار فإن هيبة المصريين
في عهد الملكة حتشبسوت والملك ختمس الثالث بلغت في نفوس الليبيين
حداً جعل «Nehi» حاكم مقاطعة كوش في السنة الثالثة والعشرين
من حكم الملك يمد تلك الهيبة بقوله: « إن بلاد التحنو تخضع للملك
بسبب شهرة جلالته. وتأتي حاملمة جزيتها علة ظهورها إعراباً عن الولاء
والطاعة ... كالكلاب. راجية أن توهب لها نسمة الحياة». ويفهم من نصوص
أخرى أنه لم تحدث في عهد هذا الملك غارات ليبية على الحدود المصرية. ولكن
اضطراب الجبهة الداخلية في مصر إثر ثورة إخناتون (1370 1352 - ق. م.)
الدينية شجع الليبيين على استئناف هجماتهم على مصر غير أن الملك
حور محب تصدى لهم وأكد قوة مصر وسيطرتها على حدودها الغربية.
وفي منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة شن الملك أمنحوتب الثالث حرباً
ناجحة ضد التحنو وأخذ منهم أسرى كثيرين شغلهم فيما بعد في بناء
إحدى القلاع المصرية – ويظهر أن الليبيين القريبين من الحدود المصرية كانوا
قد أخضعوا نسبياً في أيام الملوك الحاربيين في أوائل عهد الدولة الحديثة.

ولم تتوقف هذه المناوشات بقدوم الأسرة التاسعة عشرة بل ازدادت كما أن تغلغل الليبيين في الدلتا تزايد إلى حد أن الملك سبتي الأول (Seti I)²⁹ (1298 - 1318 ق. م.) أحس في بداية حكمه أن مصر ستواجه عما قريب تهديداً حقيقياً من الغرب. ولذلك فقد قام هذا الملك بحملتين كبيرتين قادهما بنفسه ضد الليبيين. قبل قيامه بحملته على سوريا. وقضى السنة الثانية من حكمه يحاربهم في الدلتا حتى انتصر عليهم في النهاية «وركعت بلاد التحنو على ركبتها أمام الفرعون» فأخذ منها أسرى كثيرين تقدمه للإلهة أمون (Amon) بالإضافة للجزية المعهودة. وسجل أخبار ذلك على جدران الكرنك. ولو أن هذا الملك المحارب القدير تابع انتصاراته متوغلاً في ليبيا إلى الغرب بدلاً من التحول إلى سوريا في الشرق لتغير مجرى التاريخ الليبي - المصري فيما بعد. ولكن عمله الذي لم يتم لم يكن حرباً حاسمة بل كان مجرد حلقة أخرى في سلسلة حروب الردع التي كانت مصر تشنّها على القبائل الليبية بين الفينة والأخرى. وبسبب ذلك استعاد الليبيون نشاطهم في أيام ابنه وخلفه رمسيس الثاني (Rameses II). ولكن حروب رمسيس الثاني ضد الليبيين غامضة وإن كانت هنالك آثار مختلفة تدل على انتصاره عليهم: فعلى معبد أبي سمبل نرى رمسيس الثاني واقفاً فوق جسم ليبي مطروح على الأرض وهو يطعن ليبياً آخر بحرفته. ولعل أهم ما ذكره نقوش الآثار بالنسبة لهذه الحروب هو ظهور عنصر «الشردن Sherden» (= السردينيين) البحري حليفاً لليبيين في غاراتهم على مصر. وبعد حين نجد رمسيس الثاني³⁰ يستخدم الشردن كمرتزقة في جيشه ليصد بهم غارات

29- صور هذا الملك على مقبرته أجناس العالم الأربعة التي كان المصريون قد عرفوها. وكان شعب التمحو من بينها. وتدل هذه الرسوم على أن التمحو كانوا من البيض ذوي العيون الزرقاء أو السوداء والشعور الشقر أو الزينة بجداول صغيرة بعضها مرسل إلى الخلف والبعض الآخر على الجبهة. وكان الرجل منهم يرخي لحيته ويطلق شناربه ويضع رشنتين في رأسه. أما ملابسهم فكانت عبارة عن عباءة فضفاضة من الجلد تغطي الكتف الأيمن وأعلى الذراع ثم تعقد على الكتف الأيسر عقدة عريضة وتترك الذراع الأيسر مكشوفاً. والعباءة مزخرفة بألوان مختلفة كما أن ذيلها محلى بشريط عريض مخطط - وخت العبء يظهر قراب العورة كما أن السيقان والأذرع تبدو محلاة بأشكال معينة من الوشم كثيراً ما تظهر بينها العلامة الخاصة بالإلهة الليبية نيت.

Breasted, James Henry, A History Of Egypt, 2nd edition, Hodder -30 and Stoughton, London 1959, Book VI, p. 424, «Sheden or Sardinians...

الليبيين وحلفائهم من الشردن الآخرين. وهو من أجل تحقيق هذه الغاية يبدأ بإقامة سلسلة من الحصون في الصحراء الغربية تمتد مسافة (341) كيلومتراً بين راقودة وزاوية الرخم. وكان أهمها حصن راقودة وحصن ماريا (جنوب بحيرة مريوط) والغربانيات والعللمين. ثم ينصرف لمواصلة حروبه في سوريا التي لم يكن من الممكن أن يختل ميزان القوى فيها دون إلحاق الأذى بمصر. ورغم النصر الذي أحرزه رمسيس الثاني على التحنو وحلفائهم من الشردن وسجله على لوحة «تانيس» إلا أنه كرر خطأ والده عندما أكتفى بصددهم وردعهم. وهم الذين كانوا خطراً على مصر في أيام والده حين كانوا وحدهم. فكيف بهم الآن في عهده بعد أن تحالفوا مع الشردن من شعوب البحر؟ إننا قد لا نخطئ إذا اعتبرنا حروب الليبيين مع رمسيس الثاني مقدمة للغزوات الكبرى التي تلتها وهي أكبر أحداث التاريخ الليبي في عهد الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين. وتلك الغزوات حسب الترتيب الذي ظهرت به الآثار المصرية هي:

1- الغزوة التي وقعت في السنة الخامسة من حكم الملك مرتنباح (منفتاح) (Merneptah) سنة 1227 ق. م. وقد سجلت أخبارها أربعة مصادر أصلية هي: نقوش الكرنك الكبيرة. عمود القاهرة. لوح إسرائيل. وأنشودة النصر - وقد وصف العلامة برستد هذه الغزوة بأنها كانت «واحدة من أخطر الغزوات ... التي تعرضت لها مصر في تاريخها»³¹. وقد وقعت في أواخر مارس في السنة الخامسة من حكم مرتنباح وهو في الثالثة والسنتين من عمره. وتفيد نقوش الكرنك أن مصر قبل توليته «كان جزء من أرضها غير معتنى به. وقد ترك ليكون مرعى للماشية بسبب» أقوام الاقواس التسعة» (الليبيين). وقد تركت خراباً منذ زمن الاجداد. وكل ملوك الوجه البحري ظلوا وسط مدنهم محصورين في القصور الحكومية لقلّة الجنود...». وقد تزايد التهديد الليبي من جديد وكان المغيرون من الليبيين يكتسحون الحقول المصرية استمراراً حتى ضفاف النهر العظيم حيث كانوا

«were taken into Ramses II's army in considerable numbers

31- المرجع السابق ص 466 - 478.

يقضون أياماً بل أشهراً يسرحون ويمرحون في الأراضي المصرية باحثين عن مقومات معيشتهم. وفي هذه المرحلة الحرجة خالفت القبائل الليبية ضد مصر وهددت مدينة هليوبوليس مما دعا الفرعون الطاعن في السن إلى التشمير عن ساعد الجد للوقوف في وجههم وحماية رعاياه من خطرهم.

وقد بدأت هذا التحالف الليبي - البحري قبيلة الريبو بزعامة رينسها ميري يد (Meryey son of Ded) في موطنهم إلى الغرب من التحنو المتاخمين لمصر. وانضمت إليهم قبائل «إكوش Ekwesh» و «ترش Teresh» و «لوكا Luka» والشردن «Sherden» والشكلش «Shekelesh» و «شماليون قادمون من جميع البلاد». وبهذه القوات المتحالفة هاجم الريبو التحنو وأجبروهم على الانضمام إليهم³². وكان التحالف قد أبرم في شهر مارس. وبدأ الزحف شرقاً في شهر إبريل من السنة نفسها. وأمر مرنبتاح في الثامن من إبريل «بتجهيز الحشد العظيم في «مبر Meber»³³ حيث احتشد خير رماته، وحيء بعرباته الحربية من كل مكان. فهو لم يكن يهتم بمئات الآلاف في أيام القتال. وسار منشاته يتقدمهم المقاتلون بالسلاح الأبيض. وكان مظهرهم جميلاً وهم زاحفون. ومن ورائهم رماة النبال. ضد كل البلدان». وكان الملك قد جمع رجال بلاطه. وكان جلالته «ثائراً كالأسد» وقد خطب فيهم قائلاً «... إنكم تنزعجون كالطيور... هل ستخرب البلاد... وأقوام الأقواس التسعة قد أتوا إلى أرض مصر ليجثوا عن طعام لبطونهم...؟» وفي الخامس عشر من إبريل - نيسان تواقف الجيشتان في مكان اسمه «بر - إر» (Perire). في الدلتا الغربية³⁴ الجيشتان وجهاً لوجه بدأ المشاة المصريون والعربيات المصرية الحربية بالهجوم. وعندما أصبحت

32- كان التحنو غير ميالين للعنف نتيجة للردع الذي لقوه على أيدي الملكين رمسيس الثاني وسيتي الأول.

33- مكان معروف حتى الآن.

34- اقترح احد المؤرخين الالمان ان هذه الجابهة حصلت في مكان في جنوب الفيوم بينما اقترح بعض المؤرخين الاخرين أنها كانت بجوار كفر الزيات - وذكر الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابه دراسات في تاريخ ليبيا القديم أنها كانت في موقع (بر - إر) على حافة وادي النطرون إلى الشمال الغربي قليلاً من منف. ووجود كلمة (RWD) في النص المصري يؤكد وقوع الجابهة على حافة الدلتا الغربية لأن هذه الكلمة لا تستعمل إلا في الحديث عن الدلتا. أما مكان المعركة بالضبط فلا يزال غير معروف.

مقدمة جيش الحلفاء في مرمى السهم أمطرهم الرماة المصريون طيلة ست ساعات بوابل من سهامهم التي كانت تفوق في مداها وقوتها سهام الليبيين. ونتيجة لذلك دبت الفوضى بين صفوف الليبيين وبدأوا يتراجعون. وحاول ميري عبثاً أن يعيد تنظيمهم. إذ لم يلبث تراجعهم أن تحول إلى هزيمة فراح الفرسان المصريون يطاردونهم بينما استمروا هم «يمعنون في الهرب تاركين طلائعهم خلفهم. ولم تثبت أقدامهم بل أمعن في الهرب بينما ألقى رماتهم قسيهم. وتعبت قلوب العدائين منهم لكثرة العدو. فألقوا بقرب الماء التي كانوا يحملونها لشربهم». واستمرت القوات المصرية تطاردهم حتى «جبل قرون الأرض» أي الحافة الجبلية المطلة على الدلتا من الغرب. وقتل من الحلفاء (6200) من الليبو و(2370) من رجال البحر. وأسر منهم جميعاً (9367) أسيراً. وكان بين القتلى ستة من أبناء ميري وعدد من أقربائه وضباطه. بينما «سببت أمام ناظري الرئيس الليبي المهزوم اثنتا عشرة امرأة من حرمه اللواتي كان قد اصطحبهن معه». واجتاح المصريون المعسكر الليبي وأشعلوا النيران في خيامه. كما استولوا على أمتعة الأمير ميري الخاصة بما فيها فضته وذهبه وأوانيهِ البرونزية وأثاث حرمه وعرشه وقسيه وسهامه وكل ما كان قد أحضره معه من بلاده بالإضافة إلى ثيرانه وغنمه وحميره. وكانت الغنائم التي استولى عليها المصريون ضخمة وقد أدرجت في قائمة على الوجه التالي:

الأدوات الحربية التي كانت بأيدي المغيرين

سيوف المشواش النحاسية (1119)

أسلحة ليبية صغيرة (412021)

الخيول التي حملت الأمير الليبي المهزوم

أطفال الأمير الليبي وقد أخذوا أحياءهم واثنتا عشرة من زوجاته

مواشٍ متنوعة (8031) رؤوس

ماعز

وأواني شرب من الفضة

أوان مختلفة (4713)

قسي (0002)

واستطاع مربي أن ينجو بنفسه من تلك الكارثة بأعجوبة. وكان وحيداً أو مع عدد قليل من أتباعه. وجد على لوح إسرائيل هذه الكلمات في وصف هربه: «هرب الرئيس الليبي التعيس المهزوم وحيداً تحت جناح الظلام دون ريشة على رأسه... ولم يكن في قريته من الماء ما يكفي لإبقائه على قيد الحياة». وأثناء هربه مر بمرکز مصري على الحدود يدعى «قلعة الغرب» وقد علم ضابط القلعة بهرب الرئيس الليبي وبإفلاته وبعث للباطل المصري بتقرير عن الحادثة جاء فيه:

مربي المهزوم مر من هنا.

وقد هربت أطرافه بسبب جبهته.

لقد اجتاز عني بسلام.

تحت جناح الظلام.

إنه مهزوم.

وكل الآلهة تقف مع مصر.

ولا يعرف ما إذا كان هذا الأمير قد مات.

أم ما إذا قد بقي على قيد الحياة.

لكنه إن عاش.

لن يتمكن من تولي القيادة من جديد:

لأنه أصبح عدواً حتى لجنده أنفسهم.

فقد ولوا على أنفسهم أميراً غيره.

واحداً من إخوته.

وهذا الأمير الجديد سيحارب مربي حينما تقع عليه عيناه.

وقد اشمأز كل الرؤساء من مربي.

والاسطر الأخيرة من هذا التقرير تلقي ضوءاً على الأوضاع التي كانت تسود ليبيا بعد الهزيمة فيها هو مربي كغيره من زعماء البربر القدماء يكتشف أن سلطته على قومه كانت تتوقف على نجاحه العسكري. أما وقد فشلت فقد انقلب عليه رجاله في حنقهم على ما أصابهم من مصائب تحت زعامته. وأطاحوا به. ولم يبقوا على حياته الا احتراماً لامارة أسرته. وكان «العداء ظاهراً على ملامح إخوته الذين أرادوا أن يفتكوا به. كما أن قاداته كانوا في صراع ضد بعضهم البعض... وعندما وصل إلى بلاده كان كل واحد في البلاد ناقماً عليه. وكان هو يتعثر في خزيه ويسير مطأطئاً رأسه بعد أن أطار الحظ السيء الريشة التي كانت تزدهر بها هامته. وكان أهل بلدهته جميعاً يتحدثون ضده قائلين: «لقد وقع تحت أيدي الآلهة. ملوك ميفيس. وقد لعن ملك مصر اسم مربي ولقبه (بغيبض ميفيس). وهذه وصمة لاميرنا ستبقى في مصر تتناقلها الأجيال جيل عن جيل إلى الأبد».

وكان هذا الأمير المنكود يسمع في كل مكان الثناء على عدوه الفرعون مرنبتاح الذي أصبح مضرب المثل في ليبيا حتى صار الشاب الليبي يقول للآخر: «لم يسبق لنا أن أصبنا بمثل ذلك منذ زمن رع». ويقول كل شيخ مسن لأبنه: «واحسرتاه لليبيا». أما رجال القبائل «فقد توقفوا عن الاستمتاع بالحياة والسير في الحقول. فقد شلت حركتهم تلك في يوم واحد. كما أن مستوطناتهم أضحت مهجورة وصاروا يقولون: «إن الاختفاء جميل وإن السلامة في الكهوف».

ومن الناحية الأخرى ساد مصر شعور بالارتياح. وحماس شديد. واعتراف بالجميل للفرعون مرنبتاح. وقد سجلت هذه الظاهرة على لوح إسرائيل كما يلي: «لم تعد تسمع في الليل صيحة: قفا! انظروا هاهوا أحدهم قادم. إنه يتكلم لغة أجنبية! ... ولقد هدأت الأحوال في الحصون من جديد. أما ذلك الذي يزرع زرعاً فإنه بالتأكيد سيكفيه وسياكله». وجاء في أنشودة النصر التي كتبت بعد هزيمة مربي: «... لقد أشرق السرور العظيم على مصر. ولنبعث الفرح من بلدان مصر. وتحدث الناس عن الانتصارات التي أحرزها

مرنبتاح على التحنو ... آه وإنه يجلس الانسان ليتحدث. والناس تغدو وتروح ثانية دون وجود أي عائق في الطريق. وليس هنالك أي خوف في قلوبهم ... وقد تركت المعازل وشأنها وأصبحت الآبار مفتوحة. ومسالكها سهلة. ومعازل الأسوار أصبحت هادئة. لا يوقظ حراسها إلا الشمس ... وليس هناك صياح بليل: «قف .. قف. بلغة الأجانب».

ويبدو أن مرنبتاح أتبع نصره الحاسم بحملات آنية ضمنت له تحصيل الجزية من أعدائه. وقيل إنه «توغل في أراضي التحمو». وسواء قام مرنبتاح بغزوات إلى الأراضي الليبية أم لم يقم. فقد قنع المصريون بانتصارهم وتفوقهم ولم يقوموا بحملة كبرى على جيرانهم الليبيين تكفي لطرد الريبو بعيداً إلى الغرب بحيث تؤدي بهم إلى الضغط على جيرانهم من الغرب. وإن كانوا ربما قاموا بحملات صغيرة متفرقة - وعلى أي حال فقد كان انتصار مرنبتاح رادعاً لليبيين إلى حد أنه كان كافياً لإراحة مصر من غزواتهم لأمد طويل لو أن مصر لم تغرق في فترة من الفوضى الداخلية في أعقاب وفاة مرنبتاح مما أدى إلى إضعاف الإمبراطورية. وانحطاط الروح العسكرية. وتشجيع الليبيين من جديد على محاولة دخول وادي النيل بقوة السلاح. ولكن لسوء حظهم جاءت محاولتهم هذه متأخرة إذ إن الفرعون «ستناخت» Setnakht والنشيط كان قد أسس الأسرة العشرين وتلاه في تأسيسها وترسيخها في الحكم الفرعون القوي الطموح رمسيس الثالث الذي بعث الحياة في البلاد من جديد.

2- حروب رمسيس الثالث (1198 - 1166 ق. م.) الأولى ضد الليبيين: لقد وجد الكثير من النقوش على الآثار المصرية فيما يتعلق بحروب رمسيس الثالث ضد الليبيين. ولكن ما احتوته من معلومات جاء مضطرباً إلى حد أن العلامة برستد لم يكن راضياً عن ترجمته هو نفسه للنقوش الموجودة على جدران المعبد الكبير لرمسيس الثالث وهو المعروف بمعبد مدينة هيو في طيبة الغربية مقابل مدينة الأقصر. وهذه النقوش هي المرجع الرئيسي لحروب رمسيس الثالث هذه.

والحرب الأولى منها وقعت بين الليبيين ورمسيس الثالث في السنة الخامسة من حكمه (1194 ق. م.) أي بعد انتصار مرنبتاح على الليبيين بثلاث قرن. وكما حدث في حالة الحرب السابقة فإن الجولة الجديدة تقدمها تسلسل أعداد من الليبيين إلى مصر حتى «صار الليبيون والمشواش يعيشون في مصر بعد أن نهبوا مددن الشاطئ الغربي». وهكذا فقد استؤنفت الهجرة الليبية عبر حدود الدلتا الغربية. وصارت عصابات من قطاع الطرق الليبيين تتجول بين المدن في المنطقة الواقعة ما بين مفيس وشاطئ البحر الأبيض. وفي هذا الظرف المعقد المضطرب بينما كان «ستناخت» ومن بعده رمسيس الثالث يبذل كل ما في وسعه لاعادة النظام والحياة للبلاد. وبينما كانت المجالات الليبية تتغلغل في الدلتا. وقعت في سوريا وآسيا أحداث خطيرة حفزت الليبيين في النهاية على تكرار محاولة أميرهم مري التي حدثت قبل ثلث قرن من الزمن: وكانت تلك الاحداث عبارة عن اضطرابات في الشمال أدت إلى الزحف الكبير الذي قامت أقوام متعددة منهم إلى الجنوب تحت ضغط جيرانها في الشمال: وكان من بين تلك الاقوام: «الثلكل Thekel» و«البليست Peleset» (= الفلستينيون في الاجيل. وكانوا قد استقروا قبل ذلك في جزيرة كريت اليونانية) والدينين (Denyen) والوشنش «Weshesh» والشكلش «Shekelesh» والشردن (Sherden). وبدأ الثلكل والفلستينيون يتحركون جنوباً وشرقاً كما أن عدداً من المغامرين منهم بدأوا يغيرون على شواطئ الدلتا. وكان من الطبيعي أن تلتقي مصالحهم مع مصالح الليبيين ما أذكر في نفوس الليبيين الحماس لتلك المطامح التي كان مرنبتاح قد أخدمها إلى حين.

وكان مري بن رِد قد عزل وعين بدلاً منه أحد إخوته. وقد ورد فيما كتبه رمسيس الثالث، ثاني ملوك الأسرة العشرين. في بردية هاريس أنه نظم قوى مصر على شكل طوائف كان من جملتها «جنود كهك الذين لا يحصون» ثم يرد في هذا النص قوله: «... كان الليبيو والمشواش يسكنون مصر. وقد نهبوا مدن الشاطئ الأيمن من منف حتى كربين (Kerben)³⁵ ... وبلغوا

35- قرب قرية أبي قير.

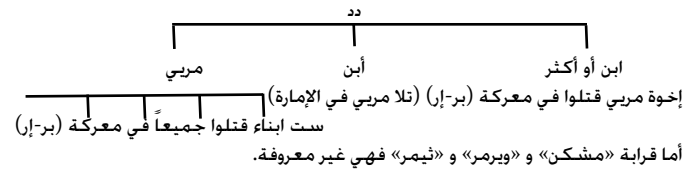
ضفتي النهر العظيم ... تأمل. لقد أهلكتهم وأخضعت المشواش والليبيو والإسبت والكيش والشاي والهس والبكن». وسجل هذا الملك. على جدران معبده الكبير في طيبة الغربية أخبار حربه هذه ضد الليبيين حيث قال: «لقد أتى أهل بلاد التمحو مجتمعين معاً في مكان واحد. ومعهم الليبيو والسبد والمشواش. غير أن خططهم حطمت ... وقد طلبوا رئيساً بأفواههم. غير أن ذلك لم يكن في قلوبهم ... وأن الإله الواحد الممتاز هو الذي عرف خطة صائبة ... ليجعل أهل الممالك الأجنبية يطلبون بقلوبهم من الملك العظيم أن ينصب رؤساء لهم ... وكان جلالته قد ربي ولداً صغيراً من أرض تمحو وقد عضده بقوة ساعديه ونصبه رئيساً عليهم لينظم الأرض. وهذا ما لم يسمع به من قبل منذ بدأ الملوك».

نستنتج من النص السابق أن رمسيس الثالث تدخل في شؤون الليبيين وحاول أن يفرض عليهم ملكاً منهم رياه في مصر فرفض الليبيون لأنه كان في نظرهم حاكماً مصريةً وأدى هذا الموقف إلى نشوب الحرب بينهم وبين رمسيس الثالث. وقد ورد في نصوص هذه الحرب المنقوشة على معبد رمسيس الثالث المذكور أن هذا الفرعون تغلب على الرؤساء الليبيين «دِد» و «مشكن» Meshken و «مريي» و «ويرمر» Wermer و «ثيمر» Themer و «كل رئيس معادٍ اجتاز الحدود المصرية من ليبيا». وما يلفت النظر في سجل هذه الحرب ظهور اسمي «دِد» و «مريي» وهما إما أن يكونا اسمي الرئيسين السابقين اللذين قادا الحرب ضد مرنبتاح وعادا الآن بعد ثلاث وثلاثين سنة ليشاركا في غزو مصر من مصر جديد. وإما أن يكونا اسمي شخصين من نسل الغزاة الأولين. وإما أن يكون الكتاب قد استخرجوهما من سجل مرنبتاح وأدخلوهما في سجل حرب رمسيس الثالث الأولى تمجيداً له. وتبدو الفرضية الأولى مستبعدة لأن مريي كان له ستة أولاد كبار أيام حربه مع مرنبتاح فلو قدرنا أن عمره آنذاك كان أربعين سنة وعمر والده دِد ستين فإن من المستبعد أن مجدهما يعودان ليشاركا في الغزو وقد نيفا على السبعين والتسعين - والفرضية الثانية لا يستبعد وقوعها وإن كان من المشكوك فيه أن نجد اثنين من الأسماء التي حاربت ضد مرنبتاح يعودان

ليمثلا في حرب جديدة - وتبقى الفرضية الثالثة وهي أكثر هذه الفرضيات الثلاث احتمالاً. ويؤيدها أن برستد رتب هؤلاء الأمراء زمنياً على النحو التالي: 1- دِد. 2- مشكن. 3- مريي (المخلوع). 4- ويرمر (معاصر لسيتي الثاني). 5- ثيمر (قائد الحرب الثانية)³⁶.

وتبدأ وقائع هذه الحرب تتأكد تاريخياً من اللحظة التي أخذ فيها التمحو وخالف معه النكل والبلس 37 ضد مصر. وقد حدث هذا عندما جمعت قبائل الربيو (الليبيو) والمشواش و «السبد Seped» وحركت شرقاً لينضم إليهم «أقوام البحر» والليبيون الذين كانوا يقيمون في الدلتا من قبل. وعلى هذا الأساس فإن عدد المحاربين المتحالفين لم يكن يقل كثيراً عن ثلاثين ألفاً. وبدأت الحرب بالغزو فحرب الغزاة ريف الدلتا ونهبوا مدنها من كرين حتى ميفيس في الجنوب بادئين من ناحية البحر والطريق الساحلي لكي يبقوا على اتصال بأقربائهم وحلفائهم. ولم يلق الغزاة في بادئ الأمر مقاومة تذكر فبدأوا يخلدون للسكينة والاستقرار. واعتبر «ثيمر» نفسه مهمته منتهية. وفي هذه الأونة فوجيء الغزاة بجيش رمسيس الثالث ينقض عليهم كالصاعقة فهزمتهم هزيمة ساحقة وقتل منهم ما يزيد عن اثني عشر ألف أكثرهم من أبناء البحر. وأسرى منهم حوالي ألف أسير. ويظهر الملك رمسيس الثالث على جدران مدينة هبو وهو يمتطي عربته الحربية ومن

36- القرابة المحققة بين هؤلاء الأمراء الليبيين هي تلك التي يمكن استخلاصها من سجلات مرنبتاح كما يلي:



37- انظر أيضاً: عبد العليم. مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. منشورات الجامعة الليبية. المطبعة الأهلية. بنغازي. يناير 1966. ص 29. حيث يذكر أن النقوش المصرية لم تورد انضمام النكل والبلس إلى الليبيين في هذه الحرب. ونحن مع تقديرنا لهذه الإشارة لا نرى أن سكوت النقوش المصرية ينفي إمكانية قيام التحالف المشار إليه خاصة ونحن نعرف أن التحالف بين الليبيين وأقوام البحر صار ظاهرة مألوفة قبل هذه الحرب وبعدها.

ورائه نبالته وسيافته وهو يطارد رجال القبائل. أما الاسرى فقد وسموا باسم الملك وأرسلوا ليستخدموا في الجيش أو وزعوا رقيقاً بين المعابد. ولا يعرف ما حدث لثيمر ولكن عدداً من مشتشاريه كانوا بين الاسرى الذين مثلوا أمام الملك. الذي حق له أن يفتخر بقوله: «لقد فللت هؤلاء الذين غزوا حدود بلادي وتركتهم منثورين في أماكنهم فوق أرض المعركة ... لقد أخضعت بلاد التمحو ... والمشواش. وتركتهم جميعاً يلتصقون بالأرض خشية مني».

أما بقية الغزاة فقد رضوا من الغنيمة بالإياب. ورضوا أن يستقروا في بلادهم ويخلدوا للهدوء والراحة. ولكن تلك الأسباب لم تهيأ لهم لسوء حظهم.

3- حرب رمسيس الثالث الثانية:

إننا نذكر أن الريبو. قبيل حريهم مع مرنتاح. أرغموا جيرانهم التحنو على مشاركتهم في غزوهم لمصر. وها نحن نجد حادثة مشابهة لهذه تقع بعد انتصار رمسيس الثالث بست سنوات. إذ إن المشواش. المجاورين للريبو من الغرب. والذين يبدو أنهم قاموا بدور كبير في الحروب الليبية المصرية قبل عهد الأسرة العشرين وظهروا بأعداد كبيرة محالفة للريبو في الحرب الأولى ضد رمسيس الثالث. لم يرضوا بنتائج الحرب وصاروا يحتقرون الريبو المجاورين لهم في الشرق بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاستغلوا حالة الضعف التي أصابت قبائل الريبو والتحنو بعد هزيمتها على يدي رمسيس الثالث فانقضوا على هؤلاء بقيادة زعيمهم كبر «Kepper» وابنه مشششر «Meshesher» وغلبوهم وأخضعوهم لحكمهم. ولم يقنع المشواش بهذا النصر بل اغتروا به وبما سمعوه من قصص عن غنى مصر. وخيراتها من التحنو والريبو المغلوبين فأغراهم ذلك على القيام بحملة على مصر. وواضح أن تشجيع الريبو والتحنو للمشواش على غزو مصر كان يهدف إما إلى أخذ الثأر من مصر وإما إلى التخلص من المشواش بضربهم في المصريين. على أي حال استجاب المشواش للأغراء وكونوا حلفاء كالمعتاد كان من بين القبائل الداخلة فيه قبيلة اسبت «Esbet» وقبيلة شاي «Shai» وقبيلة بكن «Beken» وقبيلة كيكش «Keykesh» وقبيلة هس «Hes». وربما

كان الحلفاء في هذه المرة قد توصلوا إلى نوع من التفاهم مع العموريين في سوريا. لأن هذه الغزوة الليبية والحرب العمورية ضد رمسيس الثالث وقعتنا في السنة الحادية عشرة من حكمه (1187 ق.م.) وتظهر على جدران معبد هبو نقوش تبين هذا الفرعون وهو يقود ملك العموريين والرئيس الليبي معاً أمام الاله آمون. ومثل هذا التفاهم بين الليبيين والعموريين كان من الممكن أن يتم بسهولة بواسطة التكل الذين كانوا حلفاء لليبيين في حرب السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث. كما أنهم في هذه الحرب الثانية وقفوا إلى جانب العموريين في سوريا دفاعاً منهم عن قراهم ومدنهم هناك من مثل مدينة دور «Dor».

وفي وقت متأخر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث زحف حلف القبائل الليبية على مصر وقد عقدوا النية على احتلالها وكانوا على حد تعبير النقوش الأثرية يقولون: «إننا سنقيم في مصر. كانوا جميعاً يقولون. ثم أخذوا يعبرون الحدود المصرية فوجاً إثر فوج». وربما كان عبور الحدود على هذا النحو لأغراض الاستطلاع ولجس نبض العدو وتلمس مدى قوته واستعداده. ويبدو أن القسم الرئيسي من القوات المتحالفة لم يصطدم بأية مقاومة حقيقية حتى وصل إلى معقل «هاتشو Hatsho» (في الدلتا على بعد أحد عشر ميلاً من حافة الصحراء الغربية) وبدأوا بحصاره. وهنا. كما تدل آثار مدينة هبو. انقض عليهم رمسيس الثالث بنبالته وعرباته الحربية. وكان النبالة يسيرون في المقدمة ومن ورائهم كتائب المشاة التي كانت تنتظر حتى يفرق النبالة صفوف الأعداء. وبدأ الهجوم فوجد المشواش وحلفاؤهم أنهم كأسلافهم عاجزون عن الصمود في وجه المصريين الذين راحوا يضيقون عليهم الحناق في نفس الوقت الذي كانت فيه النيران تنصب عليهم من الحصن الذي دارت رحى هذه المعركة تحت أسواره. فاختلت صفوفهم ولاذوا بالفرار غرباً بإجاء حافة الصحراء.

أما كبر. منكود الحظ. فقد وقع أسيراً وسلم نفسه وسلاحه وجنده. وكان يستغيث بالسماء من أجل ابنه مشششر - ولكن استغاثة كبر لم تستجب فقد قتل ابنه في المعركة وقتلت معه زوجة أبيه وأسرته. وبلغ

عدد القتلى من الحلفاء في هذه المعركة (2175) قتيلاً كما بلغ أسراهم (2025) أسيراً. وقد نقشت على جدران معبد رمسيس الثالث في مدينة هبو التفاصيل التالية عن هذه الحرب:

الأسرى الذين ساقهم سيف الفرعون القوي من بين المشواش المغلوبين:

رؤساء المشواش	1 (رجل)
رؤساء من الأعداء	5 (رجال) [هل كان هؤلاء زعماء القبائل الخمس المتحالفة؟]
مشواش	5021 (رجال)
شباب	251
أولاد	131
المجموع	4941
زوجاتهم	243 (امرأة)
شبابات	56
فتيات	151
المجموع	855

مجموع ما أخذه سيف الفرعون القوي من الأسرى الأحياء (2025) شخصاً.

أما الغنائم التي تم الاستيلاء عليها فكانت كما يلي:

ماشية وثيران	911
سيوف بطول خمسة سواعد	511
سيوف بطول ثلاثة سواعد	421
أقواس	306
عربات حربية	39
جعب سهام	00132
رماح	29

وكان مصير هؤلاء الأسرى أن يسموا باسم الملك وأرسلوا ليستخدموا في الجيش بينما أرسل ألف منهم للعناية بقطعان أحد المعابد.

وهكذا انتهت آخر غزوة ليبية كبرى لمصر وكان الانتصار الحاسم الذي حققه رمسيس الثالث كافياً لبث الذعر في قلوب الليبيين من حدود مصر حتى «المنحنى العظيم» (= بداية خليج سرت). وتيقن الليبيون أنهم لا يستطيعون الوقوف أمام المصريين في الحرب.

ولكن بالرغم من كل ما جرى استمر الليبيون في التسلسل إلى الدلتا بأعداد صغيرة واستقروا فيها على صورة جاليات. وتمكنوا في النهاية أن يحققوا سلماً ما فشلوا في تحقيقه حرباً - ألا وهو ارتقاء العرش المصري. وقبل الاسترسال في الحديث عن هذا الموضوع. يجدر بنا أن نتوقف هنيهة لنتساءل عن سبب هذا الزحف الليبي المتواصل باتجاه الشرق. ذلك الزحف الذي لم تكن الحروب التي استعرضناها سوى تعبير عنيف عنه.

إن ضغط القبائل الأوروبية³⁸ المندفعة من أواسط أوروبا نحو آسيا الصغرى وبلدان أوروبا الجنوبية حمل سكان هذه البلدان. الذين كانوا قد خرجوا من عصر البرونز إلى عصر الحديد. في القرن الثالث عشر قبل الميلاد على الاتجاه جنوباً مستفدين من سفنهم للاحتماء بها في عرض البحر الذي كانت القبائل المغيرة من أواسط أوروبا تجهل ركوبه. ثم ضغطوا بدورهم على سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وبلدان شاطئه الشمالي فتحرك هؤلاء في جموع كبيرة على شكل موجات من المهاجرين إلى أقرب الأماكن المناسبة للسكن والمعيشة. والقليلة المقاومة في الشمال الإفريقي الذي كان لا يزال في أواخر العصر الحجري الحديث. وتركزت هذه الهجرات على المغرب. المواجه لإسبانيا. وتونس. المواجهة لصقلية وإيطاليا. ومصر التي استطاعت أن تصد الغزاة عن أرضها. لهذا أصبح سكان الشمال الإفريقي الأصليين واقعين تحت ضغط المهاجرين الذين حلوا بالمغرب وتونس وكان لهم أن يتحركوا فكان

38- انظر ص 103.

الشرق أسهل جهة يتحركون إليها نظرا لطبيعة الساحل الليبي من ناحية، ونظراً لصعوبة الهجرة غرباً في وجه قبائل البحر وجبال أطلس، وصعوبة الهجرة إلى الجنوب الليبي الصحراوي في الداخل، ونظراً لأن هذه المناطق في الغرب والجنوب لا تتوافر فيها الخيرات الموجودة في مصر، من الناحية الأخرى. وعلى هذا الأساس وقعت الغزوات والحروب الأنفة الذكر بين المصريين والليبيين الذين رأيناهم يصطحبون معهم نساءهم وأطفالهم ومواشيهم ما يشير إلى أنهم لم يكونوا مجرد غزاة وإنما مهاجرين موجة تلو الأخرى استجابة للضغط الواقع عليهم من موجات هجرات أقوام البحر التي كانت تستقر إلى الغرب منهم ثم لا تلبث أن تزحف عليهم. ولكن المصريين الذين تمكنوا من صد تلك الموجات الليبية والقضاء عليها لم يستطيعوا ان يقضوا على الدوافع التي سببتها، ولذلك فنحن نرى في عهود من خلفوا رمسيس الثالث مباشرة استمرار التسلسل الليبي إلى الدلتا خاصة في عهد «الأسرة الحادية والعشرين الضعيفة الخزبة». وهكذا فنحن نجد الغزو الليبي المسلح يتوقف بعد معركة «هاتشو» ليبدأ بدلاً منه الزحف الليبي السلمي منذ حوالي سنة ألف قبل الميلاد. ولعلنا نتمكن من إلقاء شيء من الضوء على أحداث هذه الفترة بالنسبة للمهاجرين الليبيين بدراسة تاريخ أسرة «بويووا» «Buyuwawa» الليبية التي ظهرت في وقت متأخر من عهد الدولة الحديثة بمصر، والتي تعتبر مثلاً جيداً لسلوك الأسر الليبية المتسللة لمصر. ففي أوائل عهد الأسرة الحادية والعشرين استقر أحد أفراد التحنو الليبيين المسمى بهذا الاسم في مدينة «هراكليوبولس» «Heracleopolis» في مقاطعة أناسية، وصار ابنه موسن «Musen» كاهناً لمعبد الإلهة «حري شنف» القائم في هذه المدينة ورئيساً لقواتها من المرتزقة، وشغل خلفاؤه هذين المنصبين من بعده ما أدى إلى ازدياد نفوذ أسرته، وتزايد تمصرها بتزايد نفوذها وتقدمها، وفي أيام شيشنق، الحفيد الثالث لبويووا ورئيس المشاوش العظيم» توفي له ابن اسمه «نمروت» فدفنه في أبيدوس. وعندما وقع اعتداء على قبره، تقدم شيشنق بشكوى للملك «بتانيس» من الأسرة الحادية والعشرين فعطف هذا على قضيته، وقدم الرجلان معاً إلى معبد

الإله آمون في طيبة ليستمعاً إلى حكم الإله في هذه القضية. ولم يلبث موحى الإله أن حكم بإدانة المعتدين. وبعث لشيشنق على سبيل الترضية تمثالاً على صورة ابنه ليوضع في معبد أبيدوس كما أنه ثبت ملكية شيشنق لمساحة واسعة من الأراضي الخصبة في هراكليوبولس مما مكن حفيده المسمى باسمه أن يصبح ثرياً وأن يعيش في مستوى الأمراء. وعندما بلغت الأسرة الحادية والعشرون أقصى درجات الضعف، ولم يعد بوسعها أن تبقى قائمة على رأس الحكم انتقل شيشنق الحفيد من هراكليوبولس إلى مدينة «بوباستس Bubastis» وانتظر هناك حتى توفي آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرون فأعلن نفسه فرعوناً على مصر سنة 945 ق. م. وأسس الأسرة الثانية والعشرين.

وهكذا وبعد انقضاء ما يزيد قليلاً عن قرنين من الزمن على وفاة خصم الليبيين اللدود، رمسيس الثالث، كان الليبيون الأشداء قد أضافوا إلى صلابتهم وبأسهم الثقافة المصرية التي تثقفوا بها ما سهل عليهم اعتلاء عرش مصر دون مقاومة في وقت كانت مصر فيه لا تزال أقوى دولة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي. وفيما يلي شجرة أسرة بويووا حتى رقي شيشنق الثاني عرش مصر:

1- بويووا Buyuwawa

2- موسن Musen

3- نبنيشي Nebneshi

4- بيثوت Pethut

5- شيشنق (Mehetnushet) (Sheshonk)

6- نملوت (= نمروت) (Temseph) (Namlot)

7- الملك شيشنق الأول (Kerome) (Sheshonk I)

8- الملك أوسركون الأول Osorkon I

ابن شيشنق الأول وخليفته

وتاريخ هذه الأسرة التي أسسها شيشنق الأول³⁹ والأسرة الثالثة والعشرين التي تلتها وكانت من أصل ليبي كذلك يتعلق بالتاريخ المصري أكثر من تعلقه بالتاريخ الليبي. ولذلك فنحن نمسك عن الخوض فيه عند هذا الحد مكتفين بالإشارة إلى أن شيشنق الأول هو الذي غزا فلسطين وهزم الإسرائيليين ونهب أورشليم (القدس). عاصمة مملكة يهوذا. وكان من جملة ما نهبه منها تروس الملك سليمان المصنوع من الذهب. ولم تكن أسرة شيشنق هي الأسرة الوحيدة التي تسلمت إلى مصر واستقرت فيها على النحو الذي ذكرنا؛ فهناك ما يثبت أن أسراً ليبية كثيرة كانت تأتي إلى الدلتا وتستقر فيها حتى مرحلة متأخرة من تاريخ مصر القديم. وهذه الأسر. وإن كانت لم تبلغ شأواً أسرة شيشنق الأول. إلا أنه كان يظهر منها رؤساء أو أمراء صغار يحملون لقب «ما» (مختصر مشواش) ويتمتعون بسلطة أسبه بسلطة الرؤساء الإقطاعيين وينظرون للرجل الليبي الذي يتربع على عرش مصر نظرتهم لرئيس كبير منهم في الوقت الذي كان فيه المصريون ينظرون إليه نظرتهم المعتادة للفرعون. ومعنى هذا أن هؤلاء الرؤساء احتفظوا بشيء من الاستقلال تجاه التاج وتقاسموا فيما بينهم حكم الدلتا والجزء الشمالي من مصر الوسطى. واستفاحت سلطتهم على حساب السلطة المركزية ما أسهم في إضعاف الأخيرة ودفع إلى برائن الفوضى ومهد الطريق أمام بغنخي (Piankhi) النوبي الذي قضى على سلطة هؤلاء الرؤساء وأطاح بالأسرة الثالثة والعشرين وأسس على أنقاضها أسرة جديدة.

وعند هذا الحد من تاريخ العلاقات الليبية - المصرية القديمة تصمت المصادر المصرية عن الحديث عن الليبيين حتى لا نستطيع أن نسمع عنهم أية معلومات ذات قيمة تمكننا من متابعة رسم هيكل وتفاصيل الصورة التاريخية التي أبرزناها على النحو السابق. وأمام هذا الموقف لا يسعنا إلا أن نفترض أن القبائل الليبية في منطقة برقة أخذت تستقر في مواطن إقامتها لسببين رئيسيين هما:

Breasted, James Henry, A History of Egypt, 2nd edition, Hodder & Stoughton, London, 1059, Book VII, pp. 526 - 536

1- انكسار شوكة هذه القبائل نتيجة للحروب الطويلة بينهما وبين القوات المصرية ما أدى إلى اقتناعها بالتوقف عن مهاجمة مصر وبالقناعة بالاستقرار في الأرض التي كانت تسكنها.

2- تضائل ضغط شعوب البحر على سكان الساحل الليبي إلى حد أصبح يسمح بإسقاطه من الحساب كعامل فعال في حركة دفع الليبيين نحو مصر.

ولكن هذا يجب إلا يعني بأي حالٍ من الأحوال. أن الليبيين كأفراد وأسر قد توقفوا تماماً عن التسلل إلى مصر. بل بالعكس فإن عملية التسلل الفردي هذه استمرت. ولكن على نطاق ضيق. فنحن نلمح ظهور أسر ليبية في مصر وخاصة في الدلتا؛ ومن أمثلة هذه الأسر الأسرة التي ظهر منها في وقت لاحق «إنارس Inarus» زعيم الثورة الفاشلة ضد «أرتكزر كسيس الأول الفارسي Artaxerxes I» خلال حكم الفرس لمصر.

ويستمر هذا الغموض في تاريخ ليبيا منطقة برقة حتى قدوم الإغريق واستيطانهم ساحلها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد. وأنداك تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة هي موضوع فصل آخر من هذا الكتاب.

وفي ختام هذا الفصل. نلتفت إلى القبائل الليبية القديمة التي استوطنت منطقة برقة وحاولت الاستيلاء على مصر كما أسلفنا. وكان احتكاكها بالمصريين سبباً في تسجيل شيء من تاريخها على الآثار المصرية. التي لها الفضل في تزويدنا بمعلومات قيمة عن تلك القبائل. والقبائل التي عرفها المصريون وسجلوا أخبارها على آثارهم هي:

1- التحنو (Tehenu): وكانوا يشغلون القسم الساحلي الشرقي من ليبيا إلى الغرب من مصر مباشرة. بل إنهم كانوا يقتربون كثيراً من الدلتا المصرية كذلك. وكانت قبائلهم تنحصر بين المصريين في الشرق والريو في الغرب.

2- التمحو (Temehu): وكانوا يشغلون الواحة الخارجة وينتشرون على موازاة النيل جنوباً حتى النوبة. ويعتقد أن جماعة منهم أقامت في

تاريخ ليبيا القديم

النوبة واتخذتها وطناً لها.

3- اليبو (Rebu) أو الليبو (Lebu): ويظهر اسمهم على الآثار المصرية في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي عرف فيها المصريون القبيلتين السابقتين: ومعنى ذلك أنهم كانوا يشغلون المنطقة الواقعة إلى الغرب منهما حول جبل العقبة وفي برقة.

4- المشواش (Meshwesh): وكانوا يقطنون المنطقة الواقعة إلى الغرب من الريبو. وتدل أسلحتهم وارتباطاتهم بأقوام البحر على أنهم كانوا يتبعون الطريق الساحلي في زحفهم من الغرب إلى الشرق نحو مصر. وهذه القبيلة هي آخر قبيلة ليبية مهمة برد ذكرها على الآثار المصرية.

5- الإسبت (Esbet): وهي قبيلة صغيرة ذكر اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية.

6- هس (Hes): وهذه أيضاً قبيلة صغيرة ذكر اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية. وربما كانت الأرومة التي انحدرت منها فيما بعد القبيلة البربرية التي عرفها المسلمون باسم «هسه»

7- قبيلة بكن (Beken): وقد ورد اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية. وربما كان أبناء هذه القبيلة همهم أسلاف قبيلة البكالسة (Bacaias) التي ظهرت في وقت لاحق في المكان الذي وضعت فيه قبيلة بكن على الخريطة.

الفصل الثالث
الحضارة الليبية القديمة

طرابلس من فجر التاريخ

حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أسس الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراتة

تاريخ الإقليم الطرابلسي في هذه المرحلة أشبه بتاريخ فزان من حيث غموضه وقلة مصادره. وأحسن مصدر لنا عن تاريخ هذه المنطقة وبعد الفترة التي نتحدث عنها هو هيروdotus الذي حدثنا بالكثير عن القبائل الليبية وعاداتها. وليس أمامنا من خيار سوى أن نرسم صورة لأحوال هذا الإقليم ونمط الحياة فيه كما صورها هيروdotus. ونفترض قياساً عليها أن أحواله منذ أقدم عصوره التاريخية حتى زمن هيروdotus (القرن الخامس قبل الميلاد) كانت إلى حد كبير تشبه ما كانت عليه أيام هيروdotus وإن كانت أكثر بدائية من ذلك.

كانت ليبيا عند هيروdotus تبدأ من غربي النيل وتمتد حتى شاطئ المحيط الأطلسي. ومن الجنوب كانت تحدها بلاد الإثيوبيين السود ذوي الشعور التي تشبه الصوف. ووصف هيروdotus ليبيا الشرقية (وهي تقريباً ليبيا الحالية) بأنها مأهولة بالبؤدو الرجل. وقد عدد من قبائلها:

1- الأدرماخيدي (Adyrmachidae): وكانت تشغل المنطقة من دلتا النيل في الشرق إلى ميناء بلاينوس (Plynos)¹ في الغرب.

2- الجليجامي (Giligamae): وكانت منازلها تمتد بين ميناء بلاينوس في الشرق إلى جزيرة أفروديسياس (Aphrodisias)² في الغرب.

3- الأسبستي (Asbystae): وكانت تشغل المنطقة إلى الغرب من ديار الجليجامي وتمتد في الداخل بعيدة عن الساحل حتى موازاة قورينة التي كان الإغريق قد استوطنوها.

1- ميناء البردية أو سيدي براني؟

2- جزيرة الشرقية أو الحمام أو جزيرة كرسة إلى الغرب من درنة؟

4- الأوسخيزي (Auschisae): وكانت ديارها تمتد إلى الجنوب من مدينة برقة (= المرج) وحتى يوسبيريدس (= بنغازي).

5- البكالي (Bacales) وهي قبيلة صغيرة كانت تعيش ضمن أراضي القبيلة الرابعة حول ساحل توكرة.

6- الناسامونيون (Nasamones): قبيلة كبيرة كانت تنتشر إلى الجنوب الغربي من القبيلة الرابعة. وكانوا يحتلون المنطقة الساحلية حتى خليج سرت الكبير وينتشرون في الداخل حتى أوجلة.

7- البسلي (Psylli): وكانوا في الأصل يقيمون حول خليج سرت الكبير ولكن منطقتهم خضعت للناسامونيين.

8- المكاي (Macaе): وكانوا يقيمون على شواطئ خليج سرت إلى الغرب من الناسامونيين ويجري نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) إلى بحرهم قداماً عبر أراضيهم من تل يقال له تل الحسان (= مرتفع الإهات الجمال الثلاث Three Graces) بهضبة ترهونة؟.

9- الجنديانيون (Gindanes): وكانوا يقطنون أقصى غرب الساحل الليبي. يبدو أنهم كانوا يشكلون قسماً قوياً من اللوتوفاجي (أكلة اللوتس أو النبق).

10- الماخلاي (Machlyes): وكانوا يقيمون إلى الغرب من الجنديانيين «وتصل مواطنهم إلى نهر عظيم يقال له تريتون وهو يصب في بحيرة تريتون العظيمة (= شط الجريد)».

ونحن لا نزعج أن القبائل التي ذكرها هيروdotus كانت على الساحل الطرابلسي (الأرقام 6-10) منذ فجر التاريخ. ولكننا نقول إن هذا الساحل كان مأهولاً منذ بداية تاريخه بقبائل تعيش عيشة بدوية كان قوامها في مراحلها الأولى جمع المواد الغذائية ثم الصيد. ثم امتهنت الرعي إلى جانب الصيد. ولم تلبث أن بدأت في عصر هيروdotus تمارس الرعي والزراعة جنباً إلى جنب. ويستفاد مما كتبه هيروdotus أن سكان الساحل الطرابلسي القدماء

كانوا أقل تقدماً من جيرانهم الليبيين الغربيين الذين عرفوا حياة الزراعة والاستقرار في منازل ثابتة في وقت كان سكان الساحل الطرابلسي فيه لا يزالون غارقين في بداهتهم. وسنتحدث عن عادات ليبيي الساحل الطرابلسي وتقاليدهم وما قطعوه نحو التقدم الحضاري في الفصل التالي.

فزان من فجر التاريخ

حتى ظهور الجرمانتين حوالي القرن الثامن قبل الميلاد

حدثنا قبل قليل عن أحوال الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ وبيّنا كيف كانت تعج بالحيوانات والوحوش والنباتات والناس. وقد عرفنا أنه ابتداءً من حوالي سنة 2500 ق. م. كان الإنسان الذي يعيش في مناطق فزان يخرج من عصر حضارة الصيادين ويدخل عصر حضارة الرعاة نسبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن³. ولما كانت مصادرنا عن هذه الفترة من تاريخ هذا القسم من ليبيا لا تزودنا إلا بالنزر اليسير من المعلومات فليس أمامنا إلا أن نفترض أن سكان هذه المنطقة استمروا يعيشون عيشة الصيادين والرعاة. ونحن عندما نتحدث عن هذه المنطقة تحت عنوان فزان فإننا إنما نقصد بها كل المناطق الداخلية في ليبيا بمفهومها الجغرافي الحديث؛ ذلك إن فزانيا كانت في العصر الروماني. ولا بد أنها كانت قبله كذلك. تشمل «جميع الأراضي الواقعة خلف الجبال إلى الجنوب من ناحية غريان الحالية كما كانت تقترب من البحر اقتراباً شديداً في المنطقة الواقعة شرقي لبدّة وتمتد حتى قرب أوجلة شرقاً. ومن المحتمل أنها كانت تشمل منطقة واحات الكفرة والعيونيات الشرقية. أما غرباً فقد كانت تمتد من غدامس شمالاً حتى غات وربما وارجلا جنوباً»⁴.

أما عن سكان هذه المنطقة الداخلية الواسعة التي كانت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية بشكل يشبه ما هي عليه اليوم، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً سوى ما رواه المؤرخ الإغريقي هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد. ففي أعقاب جولة له في ليبيا زار خلالها مدينة قورينة (= شحات) وجمع كثيراً من المعلومات الهامة عن ليبيا سجلها في كتابه الرابع⁵ حيث يقول

3- انظر ص 32.

4- أيوب، محمد سليمان. مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة 1811 م. المطبعة الليبية. طرابلس الغرب. ص 11.

5- انظر الملحق «ب» من هذا الكتاب.

عن هذه المنطقة: «يسكن الجنوب الجرامنتس (والصحيح الجامفرانتس Gamphasantes) في أرض الوحوش. وكانوا يفرون من منظر الناس. وينفرون من صحبتهم. ولم تكن لهم أسلحة حرب. ولم يكونوا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم». وفي موضع آخر يقول هيروdotس: «حدثت عن كل الليبيين الرعاة الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر. وفي أعماق الداخل توجد بلاد ليبيا التي تسرح فيها الوحوش. ولكن بعد أرض الوحوش هذه. يوجد نطاق من الرمال يمتد من طيبة في مصر إلى أعمدة هرقل. وعلى مراحل كل واحدة منها تستغرق مسيرة عشرة أيام توجد أكمات من الملح في مجاد رملية. ويعلو كل جُد نبع يقذف من وسط الملح بماء بارد عذب. وحولها يقيم القوم الذين تقع مضاربهم بعيداً في الصحراء وإلى الداخل من أرض الوحوش».

ولقد أكد الكاتب الروماني استرابو (66 ق. م. - 24 م) ما ذكره هيروdotس وأضاف إليه عن دواخل ليبيا قوله: «إننا لا نعرف شيئاً عن أغلب القبائل التي تسكن ليبيا لأن الجيوش الأجنبية والرحالة الأجانب قليلاً ما ارتادوا البقاع الداخلية. كما وأن القليل جداً من سكان تلك الجهات هم الذين جاءوا إلى مدننا بالشاطئ. وحتى هؤلاء القلة قلما يذكرون أية أخبار مفصلة عن بلادهم. وعلى كل حال فإنني أروي المعلومات التالية نقلاً عنهم: «يسكن في أقصى جنوب ليبيا الأقوام المسمون باسم الإثيوبيين. وإلى الشمال منهم يسكن الجرامنت أغلب الجهات. وإلى جوارهم الفاروسى (Pharusii) والزنج (Nigriti). وإلى الشمال هؤلاء يعيش الجتولي (Gattoli)».

وفهم ما كتبه هيروdotس والكتاب الكلاسيكيون من بعده أن سكان فزان قبل قدوم الجرامنتيين كانوا عبارة عن سلالتين مختلفتين: السلالة الأولى إثيوبية وكان أبنائها طوال القامة. سمرو الوجوه. ماهرين في الرسم والتصوير الصخري. مسالمين. يستعملون أسلحة وأدوات بسيطة لأنهم يجهلون الأسلحة والأدوات المعدنية. ويشتغلون برعي الأبقار في الأدوية والسهول. ولعلهم لم يتعدوا حضارة العصر الحجري الحديث. أما السلالة

الثانية فكانت من الزنوج الذين كانوا يسكنون الكهوف في حمادة مرزق وما جاورها. وكانوا قوماً قصار القامة يعيشون على الأفاعي والديدان والحشرات. ولعل هؤلاء الأقوام الذين أطلق عليهم هيروdotس اسم «التروجلودايت Troglodytes» هم أسلاف «الحدادة» في أيامنا هذه من سكان مندرة وقبرعون. وقد كان مصير هؤلاء الأقوام الخضوع للجرامنتيين الأقوياء الذين تغلبوا عليهم بفضل أسلحتهم وعرباتهم الحربية وأسموهم جامفرانتس واسترقوهم ليراعوا لهم الماشية أو يشتغلوا في المزارع أو يؤدوا أية خدمات أخرى يكلفهم بها أسيادهم الذين كانوا قد نصبوا أنفسهم كطبقة عسكرية حاكمة في البلاد حوالي القرن الثامن من قبل الميلاد.

الحضارة الليبية القديمة

نعني بكلمة حضارة كل ما ينتجه الفرد وكل ما ينتجه المجتمع الإنساني في جميع مجالات الحياة سواء كان ذلك الإنتاج فكرياً أو مادياً. وإن فإن أسهل الطرق لدراسة حضارة شعب من الشعوب هي أن تأخذ مظاهر تلك الحضارة وندرسها واحداً واحداً ثم ندمج تلك الجزئيات في كل واحد. هو الصورة الشاملة المجمة للحضارة موضوع البحث. ولقد سبق لنا أن لمنا شيئاً من حضارة الليبيين في عصر ما قبل التاريخ. وسنحاول الآن أن نبرز ملامح هذه الحضارة في الفترة التي نبدأ ببدء التاريخ الليبي. وتمتد عبر مرحلة جديدة من مراحل هذا التاريخ تتحدد معالمها بنزول الإغريق في منطقة برقة. ونزول الفينيقيين في منطقة طرابلس واستقرار الجرامنتيين في منطقة فزان. ومظاهر هذه الحضارة أو مقوماتها هي: اللغة. والمجتمع ونظام الحكم. والاقتصاديات من صيد ورعي وزراعة وتجارة وصناعة. والعادات والتقاليد والأزياء والمساكن والعمران والأدوات والفنون والدين.

1- اللغة الليبية القديمة:

يقول أوريك بيتس (Oric Bates) في فصل تمتع عن هذا الموضوع⁶: «إن أصل اللغة التي تكلمها الليبيون منذ فجر التاريخ غير معروف تماماً كما هي الحالة بالنسبة لأصل الليبيين أنفسهم. ولعل من الأفضل أن توضع كل التكهانات الخاصة بهذا الموضوع على الرف إلى أن يتم جميع المزيد من الأدلة والبيانات».

وقد خرج بيتس من مقارنة عقدها بين اللغة الليبية (البربرية) القديمة واللغة المصرية إلى أن العلاقة بينهما في القواعد والمفردات علاقة وثيقة ولكن ليس من المعروف أين تم ذلك الاتصال والتداخل وما إذا كان قد تم بينهما في مصر السفلى أو العليا. وعلى أي حال فإن الدلائل تشير إلى أن اللغة

6- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, p. 74.

الليبية القديمة تمتعت بقسط وافر من الاستمرارية منذ عصر ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة.

ولا يتعدى أقدم نقش كتب بأبجدية اللغة الليبية القديمة القرن الرابع قبل الميلاد. وقد تم في القرن السابع عشر الميلادي اكتشاف نقش اشتهر باسم نقش «ثجّا Thugga» وقد سجل باللغتين الليبية والفينيقية⁷. ومنذ ذلك الحين كثرت التكهانات حول أصل أبجدية الشمال الإفريقي التي تطلق عليها أسماء مختلفة فتسمى ليبية أو نوميدية أو بربرية أو ليبية - بربرية. وحول أصل سليلتها التفيناغ (Tefinagh). وقد عزي أصل الأبجدية الليبية للمصرية وللإغريقية والوندالية والفينيقية الحديثة. وبالرغم من كثرة النظريات التي ظهرت حول هذا الموضوع إلا أن نظرية هاليفي (Halevy) - أواخر القرن التاسع عشر - لا تزال أقواها. وقد قارن هاليفي الأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة في الشمال الإفريقي فوجد ستة من الحروف الليبية الثلاثين لها نظائر قديمة في الأبجدية الفينيقية الحديثة تمثل نفس الأصوات مما يدل على أن فكرة الكتابة وبعض الحروف الليبية - ليس كلها - اشتقت من الفينيقية ثم أضيفت لها علامات من مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط أخذت عن العلامات التي كان الملاكون أو الصناع يسجلونها على منتوجاتهم من الخزفيات وغيرها. وضمت إلى الحروف الليبية لاستكمال أبجدية ليبية تكون بسيطة وعملية وتفي بالحاجة. ويرى هاليفي وليتورنو (Letourneux) أن الأبجدية التي تطورت على هذا النحو تتكون - كما تظهر في النقوش الأثرية - من ثلاثين حرفاً.

ويذكر أن أكثر النقوش التي وجدت باللغة الليبية إنما تم العثور عليها في الجزائر وتونس. وهما منطقتان كان سكانهما الأصليون يعيشون عيشة مستقرة. ويحتكون كثيراً بالفينيقيين⁸. وقد وجدت نقوش باللغة الليبية

7- هذا النقش موجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن.

8- كان الليبيين في شمال غربي إفريقيا نظامهم الوطني للكتابة فكانت اللهجات الليبية (البربرية) تكتب بأبجدية خاصة بها. وقد وجدت في نوميديا نقوش بالأبجدية الليبية ترجع

خارج هاتين المنطقتين حتى سيناء شرقاً ولكن بأعداد قليلة مما يدل على أن الليبيين الغربيين في تونس والجزائر. ولذلك فإن حاجتهم للأبجدية وللكتابة كانت أقل بكثير من حاجة سكان نوميديا مثلاً. فكثيراً ما كان النوميديون يخلدون ذكرى موتاهم بكتابة أشياء مناسبة على حجارة قبورهم. ولذلك فإن استثناء النقوش الليبية القليلة التي وجدت في سيناء، ووفي برقة. وفي بعض الواحات يثير مجالاً واسعاً من الشك في القول إن الليبيين القدماء قد عرفوا فن الكتابة.

2- نظام الحكم والمجتمع والتقاليد:

من المسلم به أن الأسرة هي أساس المجتمع - وفي الحديث عن الأسرة الليبية القديمة لا بد أن نشير منذ البداية إلى أن الآثار المصرية والصادر الإغريقية والرومانية جُمع على أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً بين الليبيين القدماء. فهذا «سلوست Sallust»⁹ يشير إلى أن الزواج السياسي بين المواطنين الإفريقيين لم تكن له أهمية تذكر «لأن الرجل الواحد منهم يستطيع أن يقتني أي عدد يريد من الزوجات ما دام متناسباً مع مقدرته على إعالتهن. فبعضهم له عشر زوجات. والبعض الآخر له أكثر من ذلك. ولكن الملوك هم الذين يقتنون من الزوجات أكثر من غيرهم. وعلى هذا الأساس يتقسم حب الزوج بين عدد كبير من الزوجات فتكون النتيجة ألا تصبح أية

إلى القرن الثاني قبل الميلاد وأخرى ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. ولكن لم يقرأ منها إلا بعض كلماتها. ويبدو أن أبجديتها كانت صوتية مكونة من ثلاثة وعشرين حرفاً صحيحاً. ولذلك اعتقد «جزل Gsell» أن الأبجدية الليبية لم تكون سوى تطوير محلي لأفكار نقلها الليبيون القدماء عن قدماء التجار الفينيقيين. انظر أيضاً:

The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Museum of American Archaeology & Ethnology, Harvard University, Vol. XIX - No. 1, 1941, pp 102 - 107.

⁹- مؤرخ لاتيني ولد سنة 87 ق. م. وكان من أنصار بوليس قيصر فولاه الحكم بالولاية الجديدة في إفريقيا ومنحه لقب برايتور «Praetor». واستمر سلوست في الولاية من 46 - 45 ق. م. وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية. وقد ألف سلوست كتابه المشهور «حروب يوغرنا».

منهن رفيقة للزوج بل يتساوين كلهن في الإهمال». ويتفق هذا القول مع ما رواه المؤرخ البيزنطي «بروكوبيس Procopius» عن رد الرؤساء الليبيين على القائد البيزنطي سليمان «Solomon» عندما هددهم بأن يقتل رهائنهم لديه. فكان جوابهم على ذلك التهديد أن قالوا له: «إنه يتحتم عليك. أنت الذي لا يستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة. أن تطلق بشأن ذريتك. أما نحن الذين يستطيع الواحد منا أن يتزوج أكثر من خمسين زوجة إن شاء. فإننا لا نخشى أن تنقطع ذريتنا».

ويقول هيرودوتس إن كل رجل من الناسامونيين كان له عدة زوجات. وقد سبق أن لاحظنا أن نقوش الكرنك ذكرت أن الفرعون مرنبتاح أسر «اثنتي عشرة امرأة من نساء الأمير الليبي مريي». ويفهم من النقوش المصرية أن عادة تعدد الزوجات كانت شائعة على نطاق واسع بين الليبيين. ولكن يبدو أنهم كانوا يحتفظون بما نعرفه بجناح حريم تحتل إحدى الزوجات فيه المرتبة الأولى بين بقية الزوجات.

ولعل ظاهرة تعدد الزوجات على نطاق واسع بين الليبيين القدماء هي التي أدت إلى وقوع عدد كبير من الكتاب الإغريق والرومان في الخطأ عندما تحثوا عن انتشار ما يشبه أن يكون إباحية جنسية. فهذا هو هيرودوتس يقول عن الناسامونيين والمساجيتي «Massagetae» إن الرجل منهم. حتى ولو كان متزوجاً. كان يتمتع بنساء الآخرين من أبناء قبيلته. ويقول عن الجنديانيين إن نساءهم كن يلبسن خلاخيل من الجلد في سيقانهم بحيث يمثل كل خلخال واحداً من عشاق المرأة الذين نالوا وصالها والمرأة التي تبرز أكبر عدد من هذه الخلاخيل على ساقها تحظى بأكبر تقدير في القبيلة لأن ذلك يعتبر برهاناً على جمال خلقتها وخلقتها وبالتالي على مقدرتها في اجتذاب العدد الأكبر من رجال القبيلة. ويقول عن الأوزيين «Auses» إنهم لا يتزوجون وإنما يعيشون سوية كقطيع من الحيوانات. وعندما يكبر الأطفال كان مجلس القبيلة الذي يضم كل رجالها البالغين يجتمع ليقرر إلحاقهم

بمن يشبهونهم من الرجال».

وبناقش أوريك بيتس¹⁰ هذه التهم فيعتبرها أخطاء وقع فيها قدماء الكتاب الإغريق والرومان لعجزهم عن تفهم ظاهرة تعدد الزوجات ويورد حجتين يدعم بهما رأيه: الأولى أن الأوزيين كانوا ينزلون عقوبة الموت بالفتاة المشتركة في بعض طقوسهم الدينية إذا تبين لهم أنها كانت فاقدة لعذريتها، وقوم هذه صفتهم لا يمكن أن يصح عليهم ما قاله هيرودوتس عنهم. والثانية أن نمطاً من قرابة الدم كان شائعاً في شمال إفريقيا ما يدل على أن القوم كانوا متفهمين على نوع من الزواج يكفي لتحديد قرابة الدم في نطاق الأسرة والعشيرة والقبيلة.

وعادات الزواج المعروفة عن قدماء الليبيين قليلة: فمن المعروف أن قبيلة الأدرماخيدي كانوا يحضرون كل الفتيات المقبلات على الزواج إلى ملكهم ليختار من شاء من بينهن فيتمتع بها قبل زواجها¹¹. وبين قبيلة الأوجلي «Augilae» كانت العادة أن تسمح العروس عشية زفافها لمن أراد أن يتمتع بها أن يفعل ذلك مقابل أجر معين. وكان ذلك يعتبر تكريماً لها. ولكنها كانت بعد ذلك تبقى مخصصة لزوجها¹². وربما كانت العادة الأولى ترتبط بنوع من الخوف الديني من حمل المسؤولية الناجمة عن إزالة البكارة. أما الثانية فترتبط بعادة الجنديين البدائية في السماح للفتاة بممارسة ذلك التقليد لكي تجمع مهراً كافياً لإعانتها في حياتها الزوجية المقبلة.

وأغرب من هاتين العادتين ما قيل عن قبيلة «الماخلي» (Machlyes) أنه عندما كان يتقدم لخطبة الفتاة أكثر من خاطب. كان ولي أمرها يقيم لهم جميعاً حفلة حضرها الفتاة ويتنافس المتقدمون لخطبتها في إلقاء النكت على مسامعها فمن نجح منهم في إضحакها قبل غيره كانت زوجة له.

ويجب ألا يتبادر لأذهاننا ما سبق أن مكانة المرأة الليبية كانت منحطة فإن العكس هو الصحيح. فالتقاليد البربرية والأدلة التاريخية تشير إلى أن

10- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St. London, 1914, pp 110111-.

11- Herodotus, The Histories, The Penguin Classics, 1966. iv, p. 300.

12- Mela 1. 8

المرأة كانت تحتل مكانة مرموقة. ويكفي دليلاً على ذلك معرفتنا أن نظام الإرث القائم على جهة الأم كان شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي البدائيين.

وبالنسبة للأعمال التي كانت تمارسها فإنها تمارسها فإنها كانت تكاد تنحصر في إعداد الطعام، وحلب المواشي. وغزل الخيوط اللازمة لإعداد الملابس. ونحن لا نعرف الكثير عن دور المرأة الرئيسي ألا وهو تربية الأطفال والعناية بهم؛ ولكننا نعرف من هيرودوتس أن النساء كن يقمن بكي الأطفال عند بلغوهم سن الرابعة وذلك باستعمال لفافة من الصوف الملطخ بدهن الخروف. تشعل وتوضع على وسط الرأس أو على عروق الصدغ. وكن يقمن بهذا العمل حماية للأطفال في حياتهم المستقبلية من الأمراض الناجمة عن نزل الرأس وإفرازاته. وكن يقمن إن عملية الكي هذه هي السبب في أن صحة الليبيين أجود من غيرها.

ولابد أن المرأة كانت لها مكانة مرموقة وأنها كانت تتمتع بعدة امتيازات ناجمة عن نظام الإرث القائم على أساس التسلسل من نسل الأم. وما يؤيد وجهة النظر هذه أن النساء الليبيات يظهرن بزى الرجال في نقوش سحروع ما يدل على أنهن كن موضع تكريم. فنحن نعرف أن الملكة حتشبسوت كانت. من أجل هذه الغاية ذاتها. تظهر آثار عصرها بزى الرجل.

أما نظام الحكم الذي كان سائداً بين الليبيين القدماء فهو النظام القبلي الذي كانت القبائل بموجبه تخضع لرؤساء تتراوح سلطاتهم بين سلطات شيخ القبيلة العربي وسلطات الأمير العربي على النحو الذي عرف عن قبائل شمال شبه الجزيرة العربية في جاهليتها. وكانت رئاسة القبيلة منصباً وراثياً في الأسرة الحاكمة وإن كان الرجل المؤسس يختار أصلاً لأنه اشتهر بالتزام جانب العدل في حياته وتصرفاته. وتستطيع القبيلة عزل رئيسها أو تنحيته لصالح أحد أقربائه إذا ما ثبت عدم كفايته. وأوضح مثال على هذا هو ما حدث للأمير مربي بن ديد بعد هزيمته. وكان يساعد رئيس القبيلة في بعض الحالات. إن لم يكن دائماً. مجلس للقبيلة يتكون من عشرة أشخاص. ونحن نسمع أن رمسيس الثالث استدعى للمثول بين يديه «عشرات» أسرى أعدائه الليبيين أي أعضاء مجالسهم القبلية. وفي

حالة الأوزيين نلمح مجلساً من نوع مغاير. ذلك أنه كان لهذه القبيلة مجلس يضم جميع الرجال البالغين وينعقد مرة كل ثلاثة أشهر أي مرة كل فصل من فصول السنة¹³. وتدلل النقوش المصرية على أن رؤساء القبائل الليبية كانوا من طبقتين: رؤساء كبار ورؤساء آخرون من مرتبة أدنى. وكان الرؤساء من الطبقة الأولى يتحلون بريشتين بينما يتحلى الرؤساء من الطبقة الثانية بريشة واحدة. أمّا واجبات وامتيازات الرئيس الليبي فهي غامضة. وتدلل النقوش المصرية على أن الرؤساء الليبيين كانوا قادة في الحروب أو مستشارين للائخاذ القبلي في حالة وجوده. أما في وقت السلم فسلطنتهم كانت ضئيلة إلا أنهم على أي حال كانوا يتمتعون بغذاء وكساء أعلى من مستوى غذاء وكساء أفراد القبيلة العاديين. وهكذا فإن الرئيس وحده لقبيلة من الليبيين الفقراء كان يتنعم بحصيرة من الجلد في منزله.

ويخبرنا بروكوبيس أن رؤساء القبائل القديمة في منطقة طرابلس قدموا في مناسبة معينة لمقابلة القائد البيزنطي بليزاريوس وفقاً للتقاليد السائد ليثبتوا في مناصبهم وليتسلموا الشارات الرسمية التي كانت عبارة عن:

- 1- صولجان مطعم بالفضة.
- 2- قبعة من خيوط فضية ولها عصابة فضية كذلك.
- 3- عباءة بيضاء تثبت على الكتف بمشبك مذهب.
- 4- إزار أبيض مزركش.
- 5- صندل مذهب.

وأقدم من كل هذه الشارات الرياسية استعمال ريشة النعام وجناحي الطائر والرداء الطويل المزركش الذي جمع شواهد النقوش المصرية على أنه كان لا يلبسه إلا الأمراء والرؤساء من المرتبة الأولى. وكان الرؤساء يتميزون عن أبناء قبائلهم بالوشم ولبس ذيل الحيوان كما أن نساء الرؤساء الكبار كن يبيجلن بارتداء زي الرجال.

وكان رئيس القبيلة الليبية يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية.

13- ذكر هيرودوتس أن هذا المجلس كان يجتمع من أجل إلحاق الأطفال بمن هم أشبه بهم من الرجال انظر Herodotus iv. 303 في الملحق «ب».

وليس لدينا ما يمكننا من معرفة نمط السلوك الذي كان الرؤساء يلتزمونه تمييزاً لأنفسهم عن أتباعهم. ولعل ما ذكره أحد الكتاب الرومان فيما بعد من أن الرؤساء النوميديين لم يكونوا يسمحون لأتباعهم بتقبيلهم لأنهم كانوا يرون في ذلك انتقاصاً من هيبة الحكم يكون ذا دلالة موروثة عن سلوك قديم خاص بالرؤساء.

3- الاقتصاديات:

كان سكان المناطق الخصيبة من السواحل الليبية يعيشون عيشة شبه مستقرة: ذلك أنهم بسبب سقوط أمطار شبه منتظمة تحلوا تدريجياً من عادة الترحال إلى شبه الاستقرار فصاروا يقيمون في فصل الشتاء المطر لأداء الأعمال الزراعية وينتقلون في الصيف طلباً للمرعى. وخير مثال على هذا هم الناسامونيون. الذين كانوا يقيمون حول خليج سرت الكبير. فقد كانوا يتركون قطعانهم هناك في الصيف ويذهبون إلى أوجلة لجني التمور. وكان المكاي كذلك ينتقلون بمواشيهم على الشريط الساحلي في الشتاء. فإذا حل الصيف وقلت المياه بالقرب من النشاط ابتعدوا عنه إلى الداخل. وربما كانت غايتهم في مثل هذه الحالة هي جبل غريان الخصيب. ولا بد أن البسلي كانوا شبه مستقرين أيضاً فقد وصل إلينا أنهم كانت لهم آبار ماء دائمة.

أما في دواخل البلاد فقد كان طابع حياة البدو الرحل هو الطابع السائد الغالب على حياة سكان هذه المناطق. ونحن نعرف أنه حتى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في مصر كان الليبيون لا يزالون واقعين تحت سيطرة الميل للهجرة من مكان إلى آخر. وما كان غزوهم لمصر إلا من هذا القبيل. وبعد هذه الفترة بألف سنة أي في أيام هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد توقفت الهجرات وبدأ البدو شبه المستقرين يشغلون المناطق الساحلية بينما بقيت قبائل الدواخل. باستثناء سكان الواحات الذين ربما كانوا قد استقروا منذ وقت مبكر واشتغلوا بالزراعة البدائية في واحاتهم. تعيش عيشة البدو الرحل. وبعد مضي أقل من ألف سنة أخرى كان سكان السواحل من الليبيين قد استقروا في مدن وقرى في مناطق مارماريكا وبرقة

وحول خليج سرت الكبير. ولكن البدو الرحل في الدواخل بدأوا يهاجمون القرى والمدن الليبية المستقرة كما حدث عندما قام الأوزوريون (Ausurians) (= الأستوريون؟) باجتياح منطقة المدن الخمس قبيل الفتح العربي.

الصيد:

وقد كان الصيد أول عامل من عوامل الاقتصاد الليبي الذي نحن بصده. ولا بد بهذا الخصوص أن نشير إلى ليبيا بأسرها كانت منذ عصر ما قبل التاريخ مليئة بأصناف شتى من الحيوانات والوحوش. وقد وصفها هيرودوتس في وقته «بأنها مليئة بالوحوش» في مناطقها الداخلية الواقعة ما وراء السواحل. وكان من بين الحيوانات والوحوش التي ذكرها هيرودوتس الطباء، والغزلان، والجواميس، والحمير... التي كانت لا تحتاج إلى الشرب، وبقر الوحش الإفريقي... الذي كانت الواحدة منه تبلغ حجم الثور، والثعالب، والضباع، والأنياص، والكباش البرية، وبنات آوى، والنمور، وتماسيح البر التي كان طول الواحد منها يصل إلى ثلاثة سواعد وكانت تشبه السحالي في شكلها¹⁴. والنعام وأفاعٍ صغيرة للواحدة منها قرن صغير.

وكان الليبيون يستفيدون من لحوم ما يؤكل من هذه الحيوانات ومن جلودها التي كانوا يستعملونها في صنع ملابسهم. ونحن ما زلنا نذكر أن الملكة حتشبسوت استولت من التحنو على «عدد من جلود الفهود كان طول الواحد منها خمسة سواعد أربعة». واستعمال الليبيين لريش النعام كحلية شخصية دفعهم إلى اصطيد هذا الطير باستمرار. ولقد سبقت الإشارة إلى استعمال الصيادين لرؤوس الحيوانات وجلودها كأقنعة تمكنهم من خداع الحيوان وتسهل عليهم اصطيداه.

استئناس الحيوانات:

من الثابت أن الليبيين استأنسوا الحيوانات من وقت مبكر في تاريخهم القديم. وقد سبق أن لاحظنا في الحروب الليبية-المصرية أعداد المواشي التي كان المصريون يستولون عليها من الليبيين منذ عهد سحورع من الأسرة

14- هل لهذا الحيوان علاقة بالورل؟

الخامسة. وكان من بينها البقر ذوات القرون الطويلة والحمير والماعز. ولقد كانت النساء الليبية تعمل ملابسها من جلود الماعز كما أنثين من المؤرخين الإغريق هما «بوزانياس Panusianias» و «سينيسيوس Synesius» ذكرا وجود الماعز في برقة. وقد ذكر هيرودوتس وعدد آخر من جمهرة الكتاب الكلاسيكيين أن القبائل البدوية التي كانت تسكن الأقسام الداخلية من ليبيا كانت تربي نوعاً من الثيران تتميز عن غيرها بسيرها إلى الورا أثناء الرعي. ذلك أنها بسبب قرونها الطويلة الملتوية إلى الأمام باتجاه الأرض كانت لا تستطيع أن تسير إلى الأمام وهي ترعى لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن أحداً من الرحالة الحديثين الذين جابوا أرجاء ليبيا والقارة الإفريقية لم يشر إلى وجود مثل هذا النوع من الثيران في أية منهما. وربما كانت المسألة لا تعدو تفسيراً وهمياً لملاحظة عدد من الثيران ذات القرون الطويلة وهي صدفة تسير إلى الورا أثناء رعيها. وفيما عدا هذه الملاحظة فقد وصف هيرودوتس تلك الثيران بأنها كانت كغيرها من الثيران باستثناء أن جلودها كانت أصلب وأسمك.

أما الضأن فهو. وإن لم يكن قد ورد له ذكر على الآثار المصرية. قد ذكر استرابو وجوده في الأجزاء الداخلية من البلاد. كما أن هوميروس أشار إلى صلاحية ليبيا لتربية الضأن. ونحن نلاحظ أيضاً أن الضأن كان متوافراً بأعداد كبيرة في ليبيا خلال العهد البيزنطي. وهو قطعاً لم يوجد فجأة في ذلك العهد.

وبالنسبة للحصان فإنه لم يعرف في ليبيا إلا في مرحلة متأخرة بعد أن تم إدخاله إليها من مصر. وأقدم إشارة إلى وجوده في ليبيا وردت في عهد الفرعون مرنتاح (القرن الثالث عشر قبل الميلاد). الذي استولى على «الخيل التي كانت تحمل الرئيس الليبي المهزوم». وفي الحرب الثانية بين الليبيين ورمسيس الثالث (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) استولى الأخير على (183) حصاناً وحماراً من أيدي الليبيين. ولكن ووجود الحصان لم يعمم في الشمال الإفريقي والأجزاء الساحلية والداخلية من ليبيا إلا في بداية العصر الكلاسيكي وإن كانت فزان قد عرفت على أيدي الجرمانتيين الذين يقدر أنهم

نزولها في القرن الثامن قبل الميلاد. ويقول استرابو: «إن الملوك [في الأجزاء الداخلية من ليبيا] يعتنون عناية فائقة بتربية الخيول إلى حد أن عدد المهار التي تنتج لديهم بلغ مائة ألف مهر في السنة». هذا وقد ذكر هيرودوتس خيل قبيلة الأسبستى. كما أن خيل برقة كانت تلقي شهرة فائقة عند الإغريق إلى حد أن عدداً كبيراً من كتابهم وصفوا برقة بأنها منطقة الخيول الممتازة.

وهذه الخيول وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت قوية صلبة. سريعة العدو. وكان ترويضها وتدريبها ممتازاً في أغلب الأحوال إلى درجة لأن الواحد منها كان يتبع صاحبه على نحو ما يفعل الكلب. وكان الفارس يمتطي صهوة جواده دون سرج وحتى دون لجام في أغلب الأحيان ويكتفي لتوجيهه بحمل عصا قصيرة خفيفة لا يضره بها بل ليوجهه فقط. ويبدو أن العنان الذي كان شائع الاستعمال كان عبارة عن طوق من الألياف يوضع في عنق الحصان وتتصل به وصلة أخرى هي الرسن.

وظل الحصان من أكثر الحيوانات أهمية في ليبيا حتى ظهور الجمل. وانتشر استخدامه في المناطق الصحراوية والرملية بشكل خاص فبدأت أهمية الحصان تتضاءل نظراً لقدرة الجمل على حمل العطش وعلى السير في المناطق الرملية التي تغوص فيها قوائم الحصان مما أعطى الجمل ميزة الصبر على السفر الطويل من ناحية واختصار المسافات الطويلة بالسير في خط مستقيم. عبر الكثبان الرملية التي يحول حقه دون غوص قوائمه فيها. من الناحية الأخرى. ولقد ظهر الجمل في إفريقيا لأول مرة عهد سبتي الأول بمصر (1328 - 1298 ق. م.) ثم عرف في مارماريكا في القرن الرابع قبل الميلاد وعم استخدامه بين الليبيين في العهد الروماني¹⁵.

15- عاش الجمل في شمال غرب إفريقيا (تونس والجزائر والمغرب) في عصر ما قبل التاريخ كحيوان متوحش. ولكن يبدو أنه انقرض خلال العصر الحجري الحديث أو تراجع إلى أعماق الصحراء. ثم أدخل ثانية إلى المنطقة بعد دخوله إلى مصر مع الفتح الفارسي سنة 525 ق. م. ومن مصر بدأ ينتشر تدريجياً إلى الغرب. وقد استولى يوبيس قيصر بعد معركة نابسوس سنة 26 ق. م. على أسلاب جيش كبير ولكن لم يكن بينها سوى اثنين وعشرين جملاً ما يدل على أن الجمال لم تكن حتى ذلك التاريخ تستخدم على نطاق واسع للنقل ولم تكن كثيرة في البلاد. وبعد ذلك بما يزيد قليلاً على أربعة قرون نسمع أن أحد القادة الرومانيين كلف لبداء أن

ومن الحيوانات الأليفة الأخرى الكلب. وقد ورد رسم له على لوح من عهد الأسرة الحادية عشرة في أوائل الدولة الوسطى. وهو رسم يدل على أنه كان من نوع كلاب الصيد.

ويذكر هيرودوتس أن الجيزانتيين (Gyzantes). سكان فزان. كانوا يربون النحل وينتجون نوعاً من العسل الصناعي.

يتضح مما تقدم أن سكان الأجزاء الداخلية من ليبيا كانوا يكرسون الكثير من جهودهم للعناية بالمواشي وتربيتها لأنها أساس معيشتهم بينما كان سكان السواحل شبه المستقرين أقل اعتناء بالمواشي نظراً لأنشغالهم بفلاحة الأرض خلال قسم من السنة. وعلى أي حال فإن الليبيين بشكل عام كانت عندهم أعداد كافية من الحيوانات الأليفة كما أنهم أظهروا ذكاء واجتهاداً فائقين في تربيتها واستكثارها.

الزراعة:

وفي مجال الزراعة حول سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي. فقد ذكر هيرودوتس أن منطقة نهر كينيس (Kinyps) (= وادي كعام) كانت خصوبتها في إنتاج الحبوب تعادل خصوبة أية منطقة أخرى في العالم القديم. كما أن محصولها منها كان يعادل محصول منطقة بابل الخصبة في جنوب العراق. وكانت منطقة يوسبيريدس (= بنغازي) أيضاً صالحة لزراعة الحبوب. وأقدم إشارة للزراعة الليبية وردت في عهد مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة عندما نسمع أنه في أعقاب انتصاره على الليبيين «خلعت من حقول الرئيس الليبي المهزوم كل النباتات ولم يترك حقل واحد ينمو حتى لا يتمكن أصحابه من الحصول

خشب له أربعة آلاف جمل (سنة 363 م) وهذا يدل على أن الجمال أصبحت في القرن الميلادي الرابع موجودة بكثرة في الشمال الإفريقي ومستخدمة بانتظام في النقل البري. انظر أيضاً:

Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Vol. XIX - No. I, Museum of American Archaeology and Ethnology, Harvard University, 1941, P. 108.

على لقمة العيش. كما أم مخازن الرئيس الليبي نهب ما كان فيها من حبوب».

وفي العصر الكلاسيكي كانت منطقة برقة الخصبة تخضع للإغريق وحدهم أو لهم وللبيبين معاً. بينما كانت منطقة وادي كعام تخضع للفينيقيين. أما بالنسبة لليبيين أنفسهم فقد سبقت الإشارة إلى هجرة الناسامونيين سنوياً إلى أوجلة لجني التمور. كما أن سكان الواحات لابد أن يكونوا قد عرفوا الزراعة منذ عهد استقرارهم في واحاتهم.

وفي شمال فزان كان الجرامنتيون. وفقاً لما ذكره هيرودوتس. يغطون الأرض السبخة بالتراب ويزرعونها. وربما كانت الكرمة تزرع في أنحاء مختلفة من ليبيا منذ وقت مبكر وخاصة في مارماريكا التي اشتهرت برداءة نبيذها.

ونستطيع أن نعتبر اللوتوفاجيين مزارعين. إلى حد ما. لأنهم كانوا يعيشون على ثمار شجرة اللوتس (= النبق أو الزيزفون) (Rhammus Zizyphus). وبالرغم من أنهم لم يكونوا يزرعون تلك الأشجار فإنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمارها. وقد أكد هيرودوتس أن بعضهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمار تلك الأشجار باعتبارها الغذاء الوحيد لهم. وكانوا كذلك يستحضرون منها نوعاً من النبيذ.

وقد أثبتت الآثار أن زراعة الزيتون كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في منطقة طرابلس منذ العهد الفينيقي وكذلك في العهد الروماني الذي وجدت بين آثاره أعداد مختلفة من معاصر زيت الزيتون. ويذكر هيرودوتس أن شجرة الزيتون كانت موجودة في كل الأماكن الصالحة لنموها في منطقة البنطابولس (= شمال برقة).

وكانت هنالك أشجار النخيل التي كان الليبيون يستفيدون من ثمرها كغذاء لهم. ويصنعون منها نوعاً من النبيذ كما كانوا يصنعون من لفائفها ما يحتاجونه من حبال.

وكان الليبيون يعيشون على القمح والشعير يأكلون حبوبه كما هي أو

يدقونها ويخبزون معجونها بدفنه في النار. وكان بعضهم يتغذون بجذور النباتات والخضروات والبعض الآخر مثل الجزانتيين كانوا يأكلون لحوم القرد المغربية «Barbary Apes» بينما كان التروجلودايت يأكلون لحم الأفاعي لعدم وجود غيرها عندهم. وكان الليبيون القاطنون حول خليج سرت يلتقطون الأسماك المتخلفة بعد انحسار المد. كما كانت عادة أكل الجراد شائعة فقد اشتهر الناسامونيون بتجفيفه وسحبه ثم خلط مسحوقه مع الحليب وشربه.

كانت حركة النقل منذ أقدم الأزمنة التاريخية تسير شمالاً - جنوباً أكثر منها شرقاً - غرباً في ليبيا. وكانت أشهر تلك الطرق طريق طرابلس - تشاد التي كان يتم بوساطتها تبادل السلع التجارية بين الشمال والجنوب منذ آلاف السنين. وكانت السودان تفضل دائماً طرق القوافل هذه على استخدام الطرق المائية كالنيل والنيجر والسنغال. ولقد كان هدف الفينيقيين القرطاجيين إنشاء المصانع والسيطرة على طرق القوافل هذه عندما أنشأوا محطاتهم التجارية على الساحل الطرابلسي وحول خليج سرت الكبير. ويبدو أن الليبيين كانوا يتاجرون في السلع السودانية والتشادية منذ عهد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة: فقد ذكر ضمن الجزية التي حصلتها هذه الملكة من التحنو «العاج وسبعمائة ناب فيل». ونحن نسمع مع حلول العهد الروماني باشتداد أعمال القرصنة ضد القوافل على طرق القوافل البرية في داخل ليبيا ما استدعى قيام الرومان بحملات شريرة مؤقتة لوضع حد لنشاط قطاع الطرق. ونسمع كذلك أن الناسامونيين المقيمين حول خليج سرت كانوا يقومون بمباغته المراكب الراسية في ذلك الخليج ثم يحطمونها وينهبونها.

وإذا حاولنا تقدير أهمية التجارة الليبية القديمة من وجهة نظر اقتصادية فلا يسعنا إلا أن نقول إنها كانت جارة بدائية وإن سلعتها كانت سلعاً طبيعية: إما كمالية مثل الأبانوس والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات المفترسة وإما خامات مثل الجلود عامة والملح.

أما الواردات فكانت عبارة عن الأسلحة والأدوات المعدنية والأقمشة

والخزفيات والزجاج والحاجيات الأخرى التي كان الليبيون يرغبون في اقتنائها ولكن لا يعرفون كيف يصنعونها.

وقد كان للتجارة الليبية أثران هامان على الليبيين أنفسهم فقد تقدم سكان السواحل منهم أكثر من سكان الدواخل نظراً لاحتكاك سكان السواحل الدائم المباشر مع الأجانب المتقدمين على الليبيين. كما أن طرق القوافل للتجارة مع السودان أدت تدريجياً إلى نشوء المدن التجارية في المواقع المهمة على طرق القوافل من مثل مدينة غدامس ومدينة جرما.

الأزياء والحلي:

كانت الملابس التي استعملها الليبيون حتى العهد الروماني قليلة جداً إلى درجة بررت وصف الكتاب القدماء «للجرامنتيين والناسامونيين بالعري». ويقول المؤرخ البيزنطي بروكوبيس إن اللباس الليبي كان عبارة عن إزار خشن لا يغيره صاحبه طوال العام. ويقول هيرودوتس إنه مع أن الأدرماخيدي الليبيين كانوا يشبهون المصريين في طباعهم إلا أنهم كانوا يرتدون الزي الليبي.

وأبسط أنواع الألبسة القبلية. وإن لم تكن أكثرها شيوعاً. تظهر على الآثار المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولعل أحسن تصوير للزي الليبي هو ما يظهر على آثار مدينة هيو بمصر من عهد الأسرة العشرين حيث يظهر قراب العورة الليبي كإزار بسيط مثبت من الأعلى بحزام فوق الخصر ومنسدل إلى ما فوق الركبتين بقليل. وبه في بعض الأحيان فتحة من الأمام.

أما العباءة الطويلة لأول مرة في عصر الدولة الفرعونية الحديثة فهي وإن لم تكن لباس الأغلبية الليبية إلا أنها كانت أكثر شيوعاً من القراب. وتجمع شواهد الآثار على أنها كانت لباساً مبرماً لذوي الجاه والمكانة. وعلى هذا الأساس كان البيزنطيون فيما بعد يقدمون عبايات طويلة للرؤساء الليبيين بمناسبة تثبيتهم في مناصبهم سنوياً. وكانت تلك العبايات تثبت على أحد الكتفين بمشابك ذهبية. ويصفها استرابو¹⁶ بأنها كانت فضفاضة عريضة

16- يقول استرابو إن سكان الشمال الإفريقي عامة كانوا «يرتدون جلود الأسود والنمور

الحواشي. ويبدو أن طريقة تفصيلها نقلت. كما تدل الآثار المصرية. عن الأردية الجلدية التي سبقتها في الاستعمال. وكانت عباءة القماش عبارة عن قطعة مستطيلة. عرضها عند طرفها العلوي أكبر منه عند الطرف السفلي وذلك حتى يمكن لقفها حول الكتفين وتعقد قرنتاها العلويتان المستطيلتان على الصدر. وهنالك نوع آخر معقد من هذه العبايات كان له كم قصير وكان يشبك على كتف واحد فقط. وهو النوع الذي يظهر به أربعة من الليبيين في صور ضريح سيبي الأول. وكانت هذه العباءة مفتوحة من المقدمة من أعلى إلى أسفل ويأتي تحتها حزام قراب العورة. وكانت العبايات تزين في بعض الحالات بأشكال ملونة أو بخياطة قطع عليها من قماش مخالف. ويبدو أن استعمال قراب العورة أصبح أكثر انتشاراً بين الليبيين المتحضرين فيما بعد. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذه المناسبة هو: من أين كان الليبيون يعتمدون الجلد أكثر من غيره مادة للباسهم من أين كانوا يأتون بالأقمشة الجيدة لعباءاتهم؟ إن الجواب على ذلك السؤال يتلخص في القول إن الليبيون كانوا يأتون بالأقمشة من نفس المصدر الذي كان يستوردون منه أسلحتهم البرونزية أي من الشردن (= السردينيين).

أما كيفية إعداد الملابس الجلدية للاستعمال فكانت في الغالب عبارة عن إحداث فتحة للرأس في وسط الجلد غير المدبوغ وغير المعالج ثم يسدل الجلد متديلاً من العنق حول الجسم. أما الجلد الذي عولج فربما كان يعمل على شكل قميص أو معطف.

وكان استعمال الملابس المذكورة أنفاً شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي بشكل عام. ولا نستطيع أن نعتبر أيّاً منها «الزي المميز للشمال الإفريقي» لأن تلك مرتبة انفرد بها «البنستاشي Penistasche» أو قراب العورة الذي كانت الغاية منه وقاية الأعضاء التناسلية مما قد تتعرض له من أذى. وتظهر أقدم مراحل استعمال هذا القراب في آثار سحورع و «ني - أوسر - رع»

والدببة وينامون بها». ثم يقول: «إن الرداء الليبي هو جلد يكون لصاحبه بمثابة لوح يقي صدره». ويقول ميلا (Mela) إن الليبيين في الدواخل كانوا يلتفون بجلود الحيوانات المفترسة والأليفة بينما كان المكاي يرتدون جلود الماعز. ونحن نعرف أن أفراد الفرقة الليبية في جيش كركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدون الجلود.

«Ne – User – Ra» من الأسرة الخامسة. ثم يبدو أنه حل محله نوع آخر من الغطاء لأن الكتاب الإغريق والرومان لم يشيروا إليه علماء بأنهم لو رأوه لأثار اهتمامهم دون شك لما فيه من غرابة بالنسبة لهم. وكان هذا القرباب في الغالب يعمل من الجلد أو من الألياف ثم يربط في الحزام ويتدلى منه إلى الأمام ليتمكن الرجل من إدخال عضوه التناسلي فيه.

وكان الليبيون يرتدون أحزمة جلدية مازلنا نجهل كيف كانوا يعقدونها. وإن كان يظهر من النقوش المصرية أن الحزام كان يلف أكثر من مرة حول الخصر ثم تثبت نهايته بوضعها بين الجسم ولفات الحزام وترسل متدلّية على الفخذ الأيسر. وربما كان الحزام والقرباب في بعض الحالات يكونان قطعة واحدة.

وكان ارتداء القرباب شائعاً بين الليبيين عامة سواء في ذلك الرؤساء والرجال العاديين. ومن الجدير بالذكر أن الغلمان الذين تظهر صورهم في نقوش معبد سحور لا يرتدون هذا القرباب مما يرجح الميل للاعتقاد أن ارتدائه لم يكن لوقاية أعضاء التناسل فقط وإنما كان أيضاً إشارة لبلوغ سن الرشد. أما المادة التي كان القرباب يعمل منها فليسست معروفة على وجه التحقيق وأغلب الظن أنه كان يعمل إما من الجلد وإما من الألياف النباتية وهما المادتان اللتان استعملتا لنفس الغاية في كل من مصر القديمة وإفريقيا الجنوبية على الترتيب. وفي بعض الحالات كان القرباب يلون بخطوط طولية حمراء وزرقاء وبيضاء.

وفي الحديث عن الأحذية يجدر بنا أن نلاحظ مسبقاً أن ظهور الليبيين على الآثار المصرية حفاة في معظم الحالات. حتى في حالة الرؤساء والأمراء منهم. لا يعني أنهم كانوا حفاة في واقع حياتهم وإنما قد يعني إما الإهمال من جانب الفنانين المصريين وإما المبالغة في إظهار أولئك الرؤساء والأمراء بمظهر الذل والخضوع وإنما لأن الفنانين اتخذوا ذلك أسلوباً فنياً لطريقتهم في الرسم. وعلى أي حال فهناك صورة لأحد الليبيين على آثار مدينة هيو يظهر فيها وقد انتعل صندلاً. وتذكر نصوص حرب مربي أن هذا الأمير ترك وراءه ساعة هربه من ميفيس «صندله ... لأنه كان مستعجلاً». وقد سبق أن

أشرنا إلى أنه كان من جملة الهدايا التي كان الرؤساء الليبيون يتلقونها في العهد البيزنطي الصنادل المذهبة. وبالإضافة للصنادل كان الليبيون يلفون سيقانهم برباطات من الجلد أو الصوف.

أما لباس الرأس فلم يكن شائعاً بين الليبيين بشكل عام بالرغم من شدة حرارة الشمس في ليبيا. ويظهر بعض الليبيين. خاصة المشواش. على الآثار المصرية وهم يرتدون نوعاً من غطاء الرأس يشبه ما نعرفه اليوم باسم الكوفية. وكانوا يثبتونه على رؤوسهم بالعصبة بدلاً من العقال عند العرب. ولم تكن القبعة التي تغطي قحف الرأس مجهولة عندهم. ويثبت معرفتهم لها صورة المرأة الليبية التي تظهر على آثار مدينة هيو وصور الليبيين المرسومين على آثار ختمس الرابع.

وكان لباس المرأة الليبية يعادل لباس الرجل الليبي في خشونته إن لم يكن أخشن منه. ويقول هيرودوتس بعد أن يعرب عن اعتقاده أن زي الإلهة الإغريقية أثينا كان مقتبساً عن الزي الليبي للمرأة: «لأننا إذا استثنينا حقيقة أن لباس المرأة الليبية من الجلد وأن حاشيته مزينة بالعقد الجلدية بدلاً من الأفاعي. فإن الزين يتشابهان تماماً في كل شيء آخر... لأن المرأة الليبية ترتدي فوق ملابسها (التي ربما كانت من القماش) جلد الماعز الذي جرد من شعره وعملت له حواشٍ وصبغ بالزُجُفَر أو الصباغ القرمزي». وتدل الآثار والمنحوتات المصرية من العهد الروماني على أن الليبيات كن يرتدين جنلة بسيطة تنضم على الخصر ثم ترسل على شكل ثنيات بسيطة حتى القدمين.

وإذا تذكرنا أن جميل الإنسان لشخصه هو عملية تسبق حضارياً عملية جميله للملابسه فلن يدهشنا أن نجد أنه بينما كانت ملابس الليبيين لا تزال بسيطة كانوا قد طوروا عدداً من الحلي كالأطواق وحلق الأذنين وأساور الذراع.

ولعل أشهر الحلي الليبية كانت ريش النعام فنحن نجد أن الحاربيين الليبيين عامة كانوا يزينون به رؤوسهم كما هو ظاهر في النقوش المصرية. ويمكن

تعليل عدم ظهور الريشة في بعض النقوش بواحد من الأسباب التالية:

- 1- ضحى بها الفنان توفيراً للسطح الذي يرسم عليه.
- 2- استحال رسمها على الفنان نتيجة لصعوبات فنية روتينية متكررة.
- 3- كون الصورة تخص رجلاً ليبيا عادياً لا يحق له لبس الريشة.

وفيما عدا السببين الأول والثاني فإن الرئيس الليبي لا يظهر على الآثار المصرية دون ريشة من عهد الدولة الوسطى فصاعداً. وهو قد يظهر بريشة واحدة حتى ولو كان من مرتبة عالية كمرتبة الأمير مربي مثلاً الذي قالت عنه نقوش مرنتاح «إن الحظ السيئ ضيع ريشته». وقد تميز وجهاء الدلتا من الليبيين في أواخر عهد الدولة الحديثة باستعمال ريشة واحدة. وفي واحدة سيوة نجد نقشاً للأمير ليبي يمثله وهو يركع أمام الإله آمون ويجمل رأسه بريشة واحدة. ومن الناحية الأخرى فنحن نجد استعمال الريشتين يدل على أن صاحبهما يحتل مركزاً أعلى من مركز الرؤساء بريشة واحدة. أما كيف كانت تلك الريشة أو الريشتان تثبت فهي مسألة غير معروفة بالتأكيد وإن كان من المحتمل أنهم كانوا يغرسون الريشة في أصل إحدى خصل الشعر الجانية.

وكما هو الحال مع معظم الناس البدائيين فإن الليبيين قد عرفوا أنواعاً عديدة من حلي الأذنين التي كانت تثبت إما بالخلق أو بالأزرار. وكانت هذه الحلي تلبس دائماً في شحمة الأذن ولليس في طرفها العلوي كما هي الحالة في النوبة مثلاً في الوقت الحاضر.

وتظهر على نقوش معبد سحورج من الأسرة الخامسة صور لبيبات وليبيين يتحلون بعقود من الخرز المنبسط والمدور. وعلى آثار مدينة هبو يظهر فيها لبيبان يتحليان بالعقود التي يتدلى منها الخرز.

أما الأساور فيبدو أنها لم تكن شائعة كثيراً بين الليبيين ولكنها كانت معروفة إذ إنها تظهر على أذرع الليبيين ومعاصمهم في نقوش أبي صير ومدينة هبو.

وكان الأمراء الليبيون يتحلون بحلية أخرى غريبة عرفت عند الملوك المصريين كحلية تدل على علو المكانة وهي ذيل الحيوان. فقد كان الليبيون يرتدونها متدلّة من مؤخرة الحزام. ولعلها حلية مورثة عن عادة قديمة ترجع للوقت الذي كان فيه الصيادون يلبسون جلد الحيوان الذي يقتلونه. وكان الذيل الليبي ينتهي بطرف مزين يشكّل تحت الحزام.

أما الخلاخيل فقد وردت في نقوش ختمس الرابع حيث يظهر أحد الربيو أنها أصبحت بشكل عام سمة مميزة لليبيين لدى كل المعنيين بدراسة النقوش المصرية. وتظهر في النقوش أشكال متعددة من هذه التسريحة. فالخصلة قد ترسل خلف الأذن أو أمامها. وقد تكون عبارة عن خصلة ملوية أو مجدولة من عدة مسائح أو ذؤابات وبطرق متنوعة مختلفة. ويبدو أن الطراز الغالب كان إطلاق خصلة واحدة على الجانب الأيمن أو الأيسر من الرأس ثم تقصير الشعر على الجانب المقابل حتى يكون بمستوى الصدغ. وبعد هذا ليس غريباً أن نجد اللغة المصرية الهيروغليفية تعبر عن كلمة «الغرب» أي ليبيا بما يشبه أن يكون قبعة ذات ريشة يتدلى من جانبها خطان يرمزان للخصلتين الجانبيتين.

وأخيراً تجب الإشارة إلى تسريحة لبيبة نادرة تظهر في صور الدهان على آثار بني حسن ويبدو الشعر فيها وقد جمع بنوع من العصابات المزينة بما يشبه الأصداف ثم يرسل من العصابة ليكون ما يشبه الفرشاة خلف الرقبة.

وسبب تنوع التسريحات عند الليبيين غير معروف. وإن كان هيرودوتس قد أشار إلى أن التسريحة ربما تستخدم كعلامة فارقة تميز بها بنات وأبناء القبيلة الواحدة من غيرهم. وربما كانت هنالك أسباب أخرى لاعتماد التسريحة ذات الخصلة الجانية الواحدة أو الخصلتين الجانبيتين كأن تكون مثلاً علامة مميزة للشباب. ولما كنا نعرف أن الرؤساء فقط هم الذين كانوا يستعملون التسريحة ذات الخصلة الجانية المزوجة فإننا لن نخشى إذا قلنا إن هذه التسريحة قصدوا بها أن تكون إشارة لمركزهم الرئاسي.

والرجال الليبيون يظهرون على الآثار المصرية ملتحين في أغلب الأحيان. ولحاهم ليست طويلة بل هي مهذبة بعناية فائقة. ومن ناحية أخرى كانوا يطلقون شواربهم خفيفة كذلك.

أما بالنسبة للوشم عند الليبيين القدماء فإن أحسن شاهد عليه هو صور الرؤساء الليبيين المرسومة بالدهان في تل العمارنة على ضريح سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة. وبلاط هبو الأملس. وبدل رسم الأمير الليبي الموجود في تل العمارنة على أنه كان رئيساً كبيراً لأنه يتحلى بريشتين. ونلاحظ على الكتف الأيمن لهذا الرئيس رسماً من طراز بسيط هو عبارة عن خط مزدوج موج تليه أربع نقط. وعلى صدره وبطنه ستة معينات في صف عمودي. تليها أدنى منها أربعة أخرى. وهذا الوشم يختلف قليلاً عما كان مألوفاً عند الليبيين عامة. ولقد دل فحص صور الرؤساء التمحوا الأربعة. الموجودة على ضريح سيتي الأول. على وجود علامات سوداء على أذرعهم وسيقانهم.

ويرجع أوريك بيتس¹⁷ أن الرؤساء من الليبيين هم فقط الذين كانوا يستعملون الوشم وأن رجال الأسر الحاكمة دون نساؤها هم الذين كانوا يستعملونه. ثم يشير إلى أن استعمال الوشم عند الليبيين القدماء كان مناظراً لما ذكره هيرودوتس عن بعض القبائل التراكبية (Tracians) التي كانت تستخدم الوشم كعلامة مميزة تشهد أن صاحبها ولد من أصل نبيل. كما أن عدم وجود الوشم كان دليلاً على انحطاط الأصل¹⁸.

أما أماط الوشم التي استخدمها الليبيون فقد كانت أماطاً محلية بسيطة وربما كانت في أغلب الأحيان من صنع خيال الفنانين المصريين أنفسهم. ولذلك فإن من الخطأ نسبتها إلى مؤثرات خارجية عن المحيط الإفريقي والأصول الإفريقية. وأهم هذه الأماط نمط اعتبر أن له دلالة دينية لأنه يتعلق بالإلهة نيث «Neith» إلهة الجلنا (ليبية - مصرية). ولأنه

17- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, P. 138.

18- Herodotus V, P. 312.

يعطينا أيضاً تفسيراً لاستخدام الليبيين للوشم.

وليس هنالك ما يثبت أن الوشم هذا كان عبارة عن وشم يوسم به الأسرى الذين وهبوا رقيقاً للربة نيث. ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد إمكانية كون الوشم على الأسرى الليبيين رمزاً لهذه الإلهة.

وعلى ذلك فقد كان الوشم عند الليبيين في البداية علامة مميزة للرؤساء الكبار. ثم صار شيوخ استعماله بين الرؤساء علامة تدل على أنهم كانوا بذلك يضعون أنفسهم تحت حماية الإلهة نيث.

أما الأماط الأخرى من الوشم فهي بسيطة للغاية ويمكن ردها إلى العصر الحجري الحديث. وربما كان الوشم بأمطه المختلفة مجرد دهان على الجسم من ناحية. وربما كان. من الناحية الأخرى. ووشماً حقيقياً ناجماً عن حقن المادة السوداء تحت الجلد. إذ من المعروف أن الجيزانتيين والماكساي كانوا يظلون أجسامهم بالدهان الأحمر.

وأخيراً تدل الآثار المصرية على أنه بالرغم من أن الشردين وغيرهم من حلفاء الليبيين كانوا يمارسون عادة الختان. إلا أن الليبيين أنفسهم لم يكونوا يختنون. وقد أكد هيرودوتس فيما بعد هذه المسألة وعزا أصولها للمصريين الذين قال عنهم كانوا يفضلون الطهارة بالرغم مما يترتب على الاختتان من تشويه. وعندما يعد هيرودوتس الشعوب التي تمارس عادة الاختتان. لا يذكر الليبيين بينهما. وهو يقول في هذا الصدد بحق إن هذه العادة مصرية. وإنها كانت معروفة في مصر وإثيوبيا¹⁹ منذ وقت قديم جداً. ومن الواضح أن هيرودوتس هنا لا يخلط بين الإثيوبيين والليبيين كما هي الحال بالنسبة للكاتب الإغريق وبالنسبة له هو ذاته في موضعين من كتابه: ذلك أن شواهد آثار الأسترين التاسعة عشرة والعشرين. ولوح بعنخي تثبت ما ذهب إليه فيما يتعلق بأصول عادة الختان: فنحن نعلم أن بعنخي. في أعقاب إخضاعه للدلتا ومن فيها من الأسر الليبية. منع الليبيين من الدخول عليه لأنهم كانوا يأكلون السمك - وهو محرّم عند الإثيوبيين - ولأنهم. كما يظهر.

19- Herodotus, II, p. 140.

كانوا غير مختننين. والشخص الليبي الوحيد الذي سمح له بالدخول هو نملوت (= نمرود). وكان ذلك إما تقديراً لمركزه كأعلى رئيس ليبي. وإما لأنه كان قد «حمل على الاختتان» وفقاً للعادة المصرية.

الفن والمادة: استعمال المعادن:

أجمع عدد كبير من المؤرخين في صمت على أن الليبيين في عصر الغزوات الليبية الكبرى لمصر كانوا في مرحلة حضارية متقدمة إلى حد كبير. لأنهم كانوا يستعملون الأسلحة والأواني المعدنية؛ وهذه قضية خطيرة جدية بالبحث الواعي العميق لأنها ذات أثر كبير على الحضارة الليبية القديمة وذات دلالة تاريخية عميقة.

وما لا شك فيه أن الليبيين القدماء كانوا يستعملون المعادن إلى حد ما. وقد سبق أن لاحظنا في قائمة الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمير الليبي مربي «ذهبه وفضته وأواني البرونزية» وأكثر من تسعة آلاف «من سيوف المشواش البرونزية» ثم «أواني الشرب الفضية» و«السكاكين». وكان من جملة الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث من الليبيين (115) سيفاً بطول خمسة سواعد و(124) سيفاً بطول ثلاثة سواعد.

ويؤكد هذه المعلومات ما مجده من تمثيل للأوعية الليبية في النقوش المصرية وما ذكره الكتاب الكلاسيكيون عن السيوف الليبية.

ولكننا نخطئ إن خرجنا من هذه المعلومات إلى القول إن الليبيين جميعاً كانوا يعيشون في «عصر المعادن الشامل» لأنهم في الواقع إنما كانوا صدفه يستعملون المعادن؛ فقد كانت المعادن المفيدة في الماضي كما هي الحالة اليوم تأتي لليبيين من الخارج. وتدل أشكال الزهريات المعدنية الخاصة بالأمراء الليبيين على أنها من أصول أجنبية. أما السيوف الطويلة فقد كانت من النوع المتداول في جنوب أوروبا وبين الشردين بالذات. ونحن نعلم أن هؤلاء كانوا حلفاء لأبناء الشمال الإفريقي الليبيين. والحقيقة المعروفة عن قلة المعادن المحلية وندرتها في الشمال الإفريقي من تونس إلى مصر في العصور التاريخية القديمة هي في حد ذاتها كافية للتشكيك فيما إذا كان

الليبيون أنفسهم قد عرفوا فن صناعة المعادن. وإذا استثنينا خام الحديد الممتاز «الهيمايت»²⁰ الأحمر اللون في مارماريكا. وعروق النحاس الأحمر في جبل العقبة فإنه لم توجد في ليبيا القديمة أية معادن أخرى قابلة للتصنيع. صحيح أنه كان هنالك بعض الرواسب الحديدية على حدود ليبيا الغربية. وكميات صغيرة من رواسب النحاس الأحمر في المنحدرات الشرقية لجبال أطلس ولكن ليس هنالك ما يدل على أنها اكتشفت قبل العصر الروماني. وحتى في أيامنا هذه فإن ليبيا تعتمد كلية على العالم الخارجي للحصول على حاجتها من المعادن.

ولابد من القول بهذا الصدد إن تحييص الكتابات الكلاسيكية ذات العلاقة بالأسلحة الليبية أمرٌ له مغزى كبير بالنسبة لهذا الموضوع لأن شعباً محباً للقتال مثل الليبيين يزود بكميات كبيرة من أدوات النحاس الأحمر والبرونز والحديد لا بد أنه كان بالتأكيد يزود بالأسلحة المعدنية ولكن الحالة لم تكن كذلك في العهدين الإغريقي والروماني. وصحيح أن كلاً من «هلائيكوس Hellanicus» نيوكولاس «Nicolaus» الدمشقيين تحدث عن السيوف الليبية ولكنهما كانا يعينان الليبيين الغربيين الذين كانوا قد تأثروا بالفينيقيين في قرطاجنة وليس الليبيين الشرقيين (سكان ليبيا بحدودها الحالية) الذين قال عنهم ديودورس الصقلي (Deodorus Siculus) إن الواحد منهم كان يتسلح بثلاثة رماح وحقبة حجارة وكانوا يجهلون السيوف والخوذات والأسلحة الأخرى. واستكمالاً لهذه الصورة التي رسمها ديودورس تضيف هنا أنهم كانوا أيضاً يتسلحون بالقوس والنشاب. وصحيح كذلك أن الأوزيين كانوا في احتفالاتهم الدينية يجعلون إحدى عذراتهم تلبس «الخوذة الكورنثية والدرع الإغريقي»²¹. ولكن هذه الأشياء كانت مستوردة؛ يدل على ذلك أن هيروودتس نفسه لا يلبث أن يعلن أنه لم يكن يعرف «كيف كان هؤلاء القوم يلبسون مثل تلك العذراء قبل استيطان الإغريق في المناطق المجاورة». ويفترض أنهم ربما كانوا يستعملون أسلحة مصرية. ثم يؤكد أن

20- الهيمايت (Haematite) هو أكسيد الحديد (ح2أ3) ولونه أحمر بني ويحتوي 57% من الحديد.

21- Herodotus, iv, p. 302.

الإغريق أنفسهم إنما أخذوا الدرقه والخوذة عن المصريين²². وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن الأوزيين أنفسهم كانوا يستعملون النبايت والحجارة في القتال الذي كان يشكل جزءاً من احتفالاتهم الدينية. ونحن نعلم أن الليبيين أجهزوا على من كان متأخراً من الفرس من جند أريانوس «Aryandes» من أجل ملابسهم وأسلحتهم أثناء تفهقر الجيش الفارسي من منطقة برقة. كما نعلم أن الفرق الليبية في جيش كزركسيس بمصر كانت مسلحة برماح صليت رؤوسها الخشبية على النار لتكتسب شيئاً من الصلابة. أما الحراب ذات الأسل التي ذكر الشاعر الإيطالي «Silius Italicus» أنها كانت سلاحاً ليبيا فليس من الضروري أنها كانت ذات رؤوس معدنية لأن الشاعر نفسه يشير في مكان آخر إلى جماعة أخرى من الليبيين كانت مسلحة بالحراب ذاتها ومع ذلك فهو يصفها بأنها كان ينقصها الحديد.

وقد ذكر كوريبوس «Corippus» أن أسلحة الليبيين في أوائل العهد البيزنطي كانت في بعض الحالات - بل ربما في أكثرها - من المعدن. وتجدر الإشارة إلى أن الأدلة المتعلقة بالأسلحة لا تشير فقط إلى ندرة المعادن وإنما تذكر أيضاً أن الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية الواردة في النصوص المصرية لا ذكر لها عند كتاب العصر الكلاسيكي فهم لا يذكرون إلا الكؤوس والأواني الخزفية أو الخشبية أو المصنوعة من لحاء الشجر²³. ومن ناحية ثانية فنحن في الوقت الذي نجد فيه نساء قبيلة الأدرماخيدي المتأثرة بالحضارة المصرية يحلين سيقانهن بخلاخيل برونزية، نجد أخواتهن نساء الأوزيين البعيدين عن مصر وتأثيرها يقتنعن بالخلاخيل الجلدية²⁴.

مما تقدم يتبين لنا أن المعدن كان شيئاً نادراً ولكن الرؤساء الكبار كانت لديهم كميات كبيرة منه. كما أن الحاربيين الليبيين الذين كانوا على احتكاك بالمصريين في الشرق أو بالقرطاجيين في الغرب كانوا يتمكنون من الحصول عليه. أما أغلبية رجال القبائل فلم يكن لديهم منه ما يكفي لأن يستعملونه

22- المرجع السابق. نفس الصفحة.

23- Mela, I, 8.

24- Herodotus, iv, pp 299 – 301.

رؤوساً لأسلحتهم أو ليصنعوا منه سيوفهم. والواقع أن الليبيين يظهرون في العصر التاريخي. وقد تعدوا فقط مرحلة حضارة العصر الحجري الحديث. كحلفاء لمستعملي المعادن من أمثال الشردن والقرطاجيين. وهذه نقطة هامة لأن جزيرة سردينيا التي كانت إلى حد ما خاضعة لسيطرة الشردن كانت غنية بالمعادن. وقد سبق أن قلنا إن سيوف رجال القبائل الليبية الطويلة كانت من النوع المعروف في جنوب أوروبا. وتظهر رسوم هذه السيوف على الآثار المصرية من عهد الدولة الحديثة بمصر كأسلحة مميزة للشردن والشكلش العاملين كمرتزقة في الجيش المصري. وبناء على هذا يمكننا أن نستنتج باطمئنان أن الشردن. جواله البحر المتحالفين مع الليبيين ضد مصر. هم الذين سلحوا حلفاءهم بالأسلحة المعدنية. ولهذه القضية دلالة بالغة على مدى توثق العلاقات بين الشماليين (أبناء جنوب أوروبا) والإفريقيين (سكان شمال إفريقيا) وعلى طبيعة الغزوات التي قامت بها أحلافهم ضد مصر.

الأسلحة والحروب:

لم يأنف الليبيون من استعمال أبسط الأسلحة كأسلحة هجومية. فقد سبقت الإشارة لاستعمالهم للنبانيت والحجارة التي كانوا يقذفونها بقوة إما باليد أو بالمقلع. أما عصيهم فكانت إما مستقيمة أو منحنية بعض الشيء عند نهايتها. وإذا قصدوا بها أن تقذف فإنهم كانوا يحنونها على شكل الترمباش «Turumbash» السوداني الحالي.

وقد استعمل الليبيون بشكل عام أسلحة بدائية للغاية. أما سلاحهم الممتاز فقد كان دون شك القوس والسهام والرمح القصير. ونحن نراهم في مناظر المعارك الكبرى على آثار الأسترين التاسعة عشرة والعشرين مسلحين بالأقواس. وتقول نصوص مرنبتاح عن الأمير الليبي مربي إنه هاجم التمحو بنبالته وأنه أثناء انهزامه فيما بعد خلف وراءه قوسه وسهامه وحقيبته. وكان ضمن الغنائم التي استولى عليها مرنبتاح أكثر من ألفي قوس بينما استولى رمسيس الثالث على عدد من الأقواس وعلى (2310) جعب. وتظهر الأقواس الليبية صغيرة جداً - كما هي الحال في بعض الأحيان بالنسبة

للأقواس المصرية - إلى حد أنها جعلنا نميل للاعتقاد أنها كانت تستعمل لقتل السهام الصغيرة السامة، وبديل شكلها أيضاً على أنها أشبه بالأقواس الآسيوية المنقوشة على الآثار المصرية منها بالأقواس الإفريقية الحديثة، وكان القوس الليبي المألوف أشبه بضلعي زاوية منفرجة بمقدار (140) درجة. أما أقواس الرؤساء فكانت في بعض الحالات معقوفة الطرفين. وفي حالة واحدة يظهر القوس صغيراً للغاية إلى حد يحملنا على وجوب اعتباره إما نموذجاً لقوس وإما أن يكون الفنان قد صغره لأسباب تقليدية كالحاجة لتوفير الفراغ مثلاً.

أما رؤوس السهام الليبية فكانت من أشكال مختلفة. وقد وجدت أعداد كبيرة منها، وهي من الصوان أو العقيق الأحمر أو حجارة أخرى. في الصحراء وفي الواحات المصرية وفي الفيوم ما يرجح الاعتقاد أن هذه الرؤوس هي التي كانت مستعملة بصفة عامة، ومن الناحية الأخرى فإن الرؤوس المحسنة التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث، والتي كانت شائعة الاستعمال في مصر حتى قبيل عصر الأسرات، يرجح أنها كانت مستعملة من قبل الليبيين الأقل تقدماً خلال عصرهم التاريخي. ونحن نجد نظيراً لهذه الرؤوس بين رؤوس السهام الإثيوبية، فقد كان الإثيوبيون حتى القرن الخامس قبل الميلاد - عندما كانوا يعملون في جيش كزركسيس الفارسي بمصر - يستعملون سهاماً «ليست لها رؤوس من حديد وإنما من حجر محدد إلى درجة عالية، كالنوع الذي كان يستخدم في حفر الأختام»²⁵. ويمكن التأكيد أن الرؤوس الصوانية التي وجدت في الفيوم هي رؤوس سهام ليبية من العصر الحجري الحديث وذلك بسبب التوزيع الجغرافي الواسع لعدة أنواع منها ولوجودها في أماكن صالحة للسكن ولعدم وجودها في وادي النيل.

أما الرماح التي كان يتميز بها الليبيون، على الأقل بعد ظهور الحصان، فيبدو أنها لم تكن شائعة في وقت الغزوات الليبية لمصر. ففي قائمة الأسلحة الليبية التي غنمها رمسيس الثالث ذكرت اثنتان وتسعون حربة فقط. ومع بدء العصر الكلاسيكي عم استعمال السهام والرماح

25- Herodotus VII. P, 440.

الصغيرة والحرب في الشمال الإفريقي. وهذه الأسلحة كانت رؤوسها مثل رؤوس السهام الليبية، وإذا لاحظنا أشكال المجموعة الثانية من هذه الرؤوس سنجد بينها أمثلة متنوعة من رؤوس الحرب الصغيرة والكبيرة وقد وجدت جميعها في منطقة الفيوم، ولقد سبق أن ذكرنا أن رؤوس الحرب كانت في بعض الحالات تمتد بصليها على النار. وتدل الكتابات الكلاسيكية على أن الرماح الليبية كانت تستخدم غالباً للقتل وليس للطنع. وكانت العادة أن يحمل المحارب رمحين أو ثلاثة من أجل هذه الغاية.

وبالإضافة لكل الأسلحة التي سبق ذكرها استعملوا السيف على نطاق محدود في الأوقات التي خالفوا فيها مع أقوام أكثر منهم تقدماً. ونحن نعلم أن المصريين غنموا (9111) سيفاً برونزياً من المشواش. كما سبق أن ذكرنا السيوف الليبية من طول خمسة (263 سم) وثلاثة سواعد (159 سم) ضمن الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث.

هذه السيوف الضخمة كانت، كما سبق أن ذكر، من صنع أجنبي. وقد ذكر سيلفيوس الإيطالي نوعاً آخر من السيوف قال إن الأدرماخيدي استعملوه. ويتضمن وصف سيلفيوس لهذا النوع أنه كان محنياً كالمنجل وبذلك فهو يشبه النوع الذي استعمله المصريون القدماء والذي ترجع أصوله إلى العصر الحجري الحديث.

وفي العصر الكلاسيكي استعمل الليبيون المتصلون بعالم البحر الأبيض المتوسط، في بعض الحالات، نوعاً قصيراً من السيوف المنحنية القاطعة هو المشيرا «Machaera» بينما استعملوا في العصر البيزنطي سيوفاً قصيرة مستقيمة هي في الواقع عبارة عن سكاكين طويلة، ولا بد من التمييز بين هذه السيوف القصيرة والسيوف التي غنمها مرنبتاح من الليبيين؛ فقد كانت الأولى عبارة عن خناجر كالتى تظهر في أيدي الليبيين منذ عهد ني - أوسر - رع وخلال عهد الدولة الحديثة في مصر. والواقع أنه من الصعب أن نميز بين هذه الخناجر والأسلحة المصرية فهي في الحقيقة من النوع الذي كان شائعاً في بلدان البحر الأبيض المتوسط. ونحن نعرف أنها

كانت لها أغماد من شكل نصابها. ونعرف كذلك من شكل النصاب أنها إما كانت تستعمل للظعن. وفي إحدى صور الدهان على آثار بني حسن يظهر احد المرتزة الليبيين وهو يحمل فأساً هلالية الحد. وذلك هو الشكل الذي كان شائعاً في مصر. ومن المحتمل أن يكون حاملها قد سلحه بها مستخدموه المصريون. ويذكر بهذا الصدد أن سيلفيوس الإيطالي أشار مرتين لوجود ليبيين في الجيش القرطاجي مسلحين بالفؤوس. وإن كانت الفؤوس المقصودة في هذه الحالة هي فؤوس من النوع المزدوج أي ذي الحدين.

وفي الحديث عن أنواع الأسلحة جدر الإشارة إلى أن الشعب المتأخر حضارياً يغلب على أسلحته أن تكون هجومية أكثر منها دفاعية لأن المبدأ ينطبق تماماً على حالة سكان الشمال الإفريقي القدماء. ولكن ذلك لا يعني أن أيّاً من شعوب هذه المنطقة كان مجرداً تماماً من وسائل الدفاع والوقاية كما ذكر هيرودوتس عن الجمفزانيتين: فالمعاطف الجلدية السميكة تعتبر وسيلة وقاية وقد كانت شائعة بشكل عام إلى حد أن جنود المراتب الدنيا من المرتزة الليبيين في جيش كزر كسيسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدونها. وفي العصر الكلاسيكي نجد التروس الجلدية مستعملة بانتظام. وكان النوع الشائع منها هو الشكل الكبير الذي كان مدوراً ومحدباً إلى حد ما. وقد ذكر هيرودوتس أن المكاي كانوا يستعملون ترساً صغيراً مدوراً يصنعونه من جلد النعام²⁶. ويخبرنا سيلفيوس الإيطالي أن الليبيين كانوا يطلون تروسهم بالدهان.

ولا يبدو أن الدروع والدرقات كانت مستعملة على نطاق واسع وإن كان الكتاب الرومان قد أشاروا لها بين الحين والآخر في معرض وصفهم للرؤساء الليبيين. وبالعكس فإن ديودورس الصقلي ذكر بصراحة أنها لم تكن مستعملة على الإطلاق²⁷.

وحينما نبدأ بالحديث عن المعدات فلا بد أن نعيد للذاكرة ما سبق أن

أشرنا إليه من أن الليبيين كانوا يستعملون جعب السهام منذ وقت غزواتهم لمصر. كما أنهم كانوا يستعملون نوعاً من الخنازير الجلدية فيه رماة الحجارة حجارتهم. ولعل أهم المعدات الليبية القديمة هي قربة الماء التي كان يستحيل عليهم عبور الصحراء دونها؛ وقد ورد ذكرها لأول مرة على آثار الدولة الحديثة في مصر. وفي هذا العصر وفي العصر الكلاسيكي من بعده كانت القرب تحمل بريطها تحت بطون الخيل حتى لا يتبخر الماء منها. وهذه عادة لا تزال دارجة حتى اليوم.

ومن المعدات الأخرى العربات الحربية: فقد كان بين ما استولى عليه رمسيس الثالث من الليبيين حوالي مائة عربة حربية. ويقول هيرودوتس إن الإغريق عرفوا العربة ذات الخيول الأربعة عن طريق الليبيين²⁸. ولكن هذا القول. إن صح. لا ينفي أن يكون الليبيون قد أخذوا استعمال هذه العربات الحربية عن المصريين. وعلى أي حال فإن نوعاً من العربات ذات العجلات كان قد عم انتشاره في الشمال الإفريقي مع بدء العصر الكلاسيكي. وفي ليبيا عرفها الأسبستي على الساحل وعرّفها الجرمانتيون في الداخل²⁹. كما أن الفرقة الليبية في جيش كزر كسيسيس الفارسي بمصر كانت تمتطي هذه العربات. ومن المعروف بهذا الخصوص أن كل قوم من الأقوام المختلفة في الجيش الفارسي إما كانوا يحاربون بأسلحتهم الوطنية. وقد اشتهرت قورينة بالعربات والسباق الخاص بها. ولكن شأن العربة لم يلبث أن انحط في العصر الروماني. ولا شك أن العربة الليبية كانت من النوع البسيط كما أنها كانت تصنع محلياً. وهي قطعاً لم تكن من النوع الفاخر المصنوع من الخشب والبرونز. وهو النوع الذي كان شائعاً في مصر وآسيا وبلاد اليونان. وفي حديثنا عن المعدات عامة والعربات خاصة يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه سابقاً عن الخيل الليبية التي تظهر لأول مرة في فترة الغزوات الليبية الكبرى لمصر.

28- Herodotus IV, 305. The four horse chariot is at least as early as the Homeric poems – Iliad viii 185, Odysseus xiii. 81 – and appeared in the Olympic contests in the Seventh century B.C.

29- هنالك نموذج للعربة الجرمانتية يمكن مشاهدته في متحف السراي الحمراء بطرابلس.

Herodotus, iv, p. 301 -26.

27- عاش ديودورس في القرن الميلادي الأول 4. 49. Diodorus Siculus, iii,

وَألف تاريخه المذكور (Bibliothèque Historique)

وفيما يتعلق بأساليب القتال نجد الليبيين في فترة الغزوات الكبرى لمصر يتبعون تكتيكاً يختلف عن التكتيك الذي صاروا يتبعونه في عصر لاحق بعدما أصبح أكثرهم يقاتلون من على ظهور الخيل. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أن المشواش عندما أخضعوا التحنو. المجاورين لهم من جهة الشرق. أجبروهم على الانضمام إليهم في غزوتهم لمصر. وكان أميرهم مربي قد حالف أعداداً من الشردن والشكلش والإكوش واللوكا والتراكيبين «منتخباً لهذه الغزوة أحسن المحاربين وأشجع الرجال في بلاده». ولما تم له ما أراد زحف بذلك الجيش على مصر وراح في طريقه على المراكز المصرية المتقدمة حتى بلغ وادي النيل حيث دنا من ميدان المعركة الذي كانت حثتشد فيه قوات الفرعون مرنبتاح. وقبل فجر اليوم السابق ليوم المعركة. قام الرئيس الكبير بنفسه بجولة بين خيام جنده الجلدية بشجع جنوده ويحثهم على الاستبسال في القتال. وفي صبيحة يوم المعركة كانت مقدمة الجيش الليبي تقف ضد المصريين وجهاً لوجه. وبدأت بين الفريقين معركة رهيبه دارت رحاها طيلة ست ساعات كان المصريون خلالها يطلقون رفوفاً من السهام على صفوف الجيش الليبي برهنت على صلابتها رغم قلة تنظيمها. وأسفرت المعركة في النهاية عن اندحار المغيرين ثم انهزامهم مخلفين وراءهم أقواسهم وقربهم وأكثر من تسعة آلاف قتل ومثلهم من الأسرى.

أما العصر الكلاسيكي فقد تغير تكتيك القتال الليبي وتطور. إذ نحن نجد المعارك الليبية تختلف كثيراً في أساليبها عن المعارك والحملات الأولى في عهد الغزوات الكبرى المذكورة. تلك الغزوات التي كانت. على ما تميزت به معاركها من وحشية وبربرية. تدل دلالة قاطعة على ثبات الليبيين وصلابتهم العسكرية. ويتجلى التطور الذي طرأ على أساليب القتال في العصرين الإغريقي والروماني في أن الحارب الإفريقي. شأنه في ذلك شأن الحارب الفارسي المعاصر له. كان فارساً خفيف الحركة. سريع الانقضاض. وسرعته في التراجع تفوق سرعته في الهجوم. ولا قبل لمشاة العدو بالدنو منه. ولذلك فنحن نجد أن الخيالة الإفريقيين. ومنهم الليبيون. كانوا في أيام يوليس قيصر نادراً ما يشتبكون مع عدوهم على أرض مستوية. لأنهم

كانوا يفضلون أن ينصبوا له الكمائن بخيولهم بين الأودية ثم ينقضون عليه فجأة. وفي بعض الأحيان فقط كانوا يحاربون بمؤازرة مشاة مسلحين تسليحاً خفيفاً وذلك لكي يتمكنوا من التحرك بسهولة وبسرعة ولكي يتمكنوا من المحافظة على التماسك والثبات. ونحن نلمح صفة الثبات القديم هذه ماثلة في منطقة طرابلس في مرحلة لاحقة عندما نجد الليبيين ينخون جمالهم على شكل دائرة يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في وسطها ثم يستحمون هم أنفسهم خلف صفوف الجمال استعداداً لقتال العدو المهاجم.

وهناك ناحية أخرى تدل على أن الليبيين عرفوا أساليب القتال المنتظم من وراء خطوط محصنة؛ فقد وجدت آثار حصون جيدة في أماكن متفرقة من ليبيا وخاصة في مناطق قبيلة الأوسخيزي وقبيلة الناسامونيين. وهذه مسألة لم يرد لها ذكر في أية مصادر تاريخية باستثناء أحد النقوش المصرية الذي يظهر فيه رمسيس الثاني وهو يقتحم حصناً اسمه «ساتونا» «Satuna» - والمفروض أن هذا هو اسم إحدى المدن السورية القديمة - والغريب في أمر هذا النقش أن حامية الحصن هي عبارة عن خليط من الآسيويين والليبيين؛ وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام حتى لو سلمنا جدلاً بأن العملية. موضوع النقش ولم تقع في ليبيا وإنما وقعت في سوريا لأن مغزاها واضح وهو يؤيد ما ذهبنا إليه في بداية هذه الفقرة.

وفي وقت لاحق نجد القتال من داخل دائرة من الجمال يصبح لعبة محببة لدى الليبيين يلجأون إليها لاستيعاب هجوم أعدائهم. فقد كانت الجمال تنأخ على شكل دائرة ثم يصطف الحاربون خلفها بينما يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في الوسط³⁰ - وفي بعض الأحيان كان الرجال ينصبون تروسهم أمام الجمال لوقايتها من أذى المهاجمين وسهامهم. ولم يكن البربر القدماء أقل شجاعة فردية من أحفادهم. ولكنهم كغيرهم من البدائيين كانوا يصابون بالذعر في بعض الأحيان كما حدث عندما تمكن بضعة من فرسان يوليس قيصر الغاليين (الفرنسيين) من تشتيت أفي

30- Procopius, De bello Vandalico, ii, 11.

فارس من فرسان شمال إفريقيا. ولكن هؤلاء الأخيرين كانوا في الأحوال المواتية يتفجرون جرأة وعناداً في وجه أعدائهم. فتورة إنارس «Inarus» وتكفاريناس (Tacfarinas) كانتا في حد ذاتهما عمليتين جريئتين تميزتا بالشجاعة والتصميم وإن كانتا فشلتا في تحقيق أهدافهما. ونحن ما نزال نذكر ما قاله ليفي (Livy) من أن سيوف المرتزقة الليبيين هي التي أدت إلى هزيمة روما في معركة كاني (canae)³¹. وبالرغم من أسلحة الليبيين كانت ضعيفة ومختلفة إلا أنهم في حالات استقلالهم التام. كما حدث في عهد الدولة المصرية الحديثة مثلاً. كانوا يتميزون دائماً بكثرتهم وشجاعتهم التي كانت تكفي لتشكيل تهديد دائم لمصر لو لم يكن ينقصها التنظيم بصورة مركزة. وفي العصر الكلاسيكي ظل الليبيون يتحلون بشجاعتهم القديمة كما أنهم تمكنوا بفضل انتشار الحصان والجمل. من تطوير تكتيك حربي يعتمد على مناوشة العدو وإنهاكه. أما قدرتهم على الأخاد فإنها لم تتطور كثيراً كما أن أسلحتهم. بعكس أسلحة أقوام البحر الأبيض المتوسط الأخرى. لم تحسن. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الخيالة الرومان المنظمين المدربين تدريباً حسناً. ولا أمام العرب المسلمين الذين كانت حرارة الإسلام في بداية عصره قد وحدت صفوفهم وقلوبهم. وبإيجاز فإن تاريخ الليبيين العسكري على غموضه يبرز مزية عامة لهم هي الشجاعة الفردية التي تصل حد التوحش والتي فقدت فعاليتها لانعدام الطاعة والثناء والانبساط.

31- Livy, xx, 47, 48.

الأدوات المنزلية:

يمكننا أن نجمل أدوات الليبيين المنزلية القديمة والتي وردت ما يثبت وجودها. كما يلي:

الكراسي:

فقد كان بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من مربي عرش هذا الأمير الليبي. ولكن المفروض أن الكراسي لم تكن شائعة الاستعمال.

الزهرات:

لقد سبق ذكر الزهرات الذهبية والفضية والبرونزية بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمراء الليبيين. وتدل أشكال تلك الزهرات. كما صورتها النقوش المصرية. على أنها كانت من صنع سوري. ولتلك الزهرات أهمية خاصة من حيث دلالتها على ثراء الأمراء الليبيين وعلى علاقاتهم بالآسيويين.

الأواني الخزفية:

من المحتمل أن يكون المصريون قد قصدوا هذا النوع من الأواني عندما سجلوا في قوائم غنائمهم من الليبيين «الزهرات المتنوعة». ومن المؤكد أن الليبيين كانوا يستعملون فناجين خزفية وجراراً فخارية. وإن كانت الخزفيات إجمالاً نادرة لدى الجرامنتيين.

أواني قشر بيض النعام:

لما كان الجرامنتيون لا يستطيعون صنع الأواني الخزفية نظراً لأن تربتهم رملية فقد عملوا فناجين من قشر بيض النعام. وقد ذكر ميلان³² أن الليبيين عرفوا نوعاً آخر من الأواني هو الأولني المصنوعة من الخشب أو لحاء جذوع الشجر.

الخبال:

وكانوا يصنعونها من الجلد أو من ألياف النخل كما أنهم كانوا يصنعون

32- Mela, I, 8.

من الليف أيضاً عصبة الرأس (نظير العقال عند العرب). أما المقلاع فلا بد أنهم كانوا يصنعونه من الجلد - وكانوا كذلك يصنعون الجبال النباتية من نبات اسمه «Lygeum Spartum». وقج وجد أوريك بيتس حبلاً من هذا النوع حزم به كفن أحد البدو الرحل في قبر اكتشفه بيتس في جربة. قرب سيوة سنة 1910م.

قَرَب الماء:

سبقَت الإشارة إليها وإلى كيفية حملها.

السَّلال:

تدل إحدى الصور على آثار بني حسن أن السلال كانت مستعملة عند الليبيين. فقد ظهرت الليبيات في تلك الصورة وهن يحملن أطفالهن في سلال على ظهورهن.

الحصر الجلدية:

لقد عرف الليبيون الحصر الجلدية وإن كان بروكوبيس³³ - إما لأنه كان يتحدث عن بيئة ليبية فقيرة أو ميلاً منه للمبالغة في تأخر القبائل الليبية البدوية وهمجيتها - يقول إن عظماء الرجال فقط هم الذين كانوا يتمتعون بهذه الكماليات ولا شك أن الليبيين كانوا يقتنون أشياء أخرى كثيرة لم تذكرها مصادرنا من الإبر والخيوط والأكياس الجلدية والأدوات اللازمة لصنعها. وأوعية لغلي اللحم. وأرندة من الصوان أو غيره وأدوات لتصنيع الجلود. وكان الليبيون الذين شغلوا الأجزاء الشمالية من الفيوم يمتلكون نوعاً بسيطاً من الطواحين اليدوية يستعملونه في طحن حبوبهم. وما زالت أمثال هذه الطواحين تكتشف في المواقع التي كانوا يسكنونها.

الموسيقى والرقص:

كانت الموسيقى الليبية في منتهى البدائية، وكان أبسط أشكالها تلك الصرخات التي كانوا يطلقونها في حالة نشوتهم والتي لاحظها هيرودوتس بين ليبيا عصره وقال في معرض حديث عنها: «إن الصرخات العالية أثناء

33- Procopius, De bello vandalico, ii, 6.

أداء الطقوس الإغريقية إنما نقلت عن إفريقيا حيث تتميز بهذا النوع من الصراخ. النساء الليبيات اللواتي يطلقن صرخاتهن بشيء غير قليل من الحلاوة»³⁴. ولعل هذه الصرخات هي أصل الزغاريد المألوفة في هذه الأيام.

وبالإضافة إلى هذه الصرخات فلا بد أن الليبيين القدماء كانت لهم أغانيهم التي كانت دينية في بعض الحالات كالذي ذكر من أن النساء الليبيات في سيوة كن وقت عبادتهن للإله آمون «يتغنين بترنيمة غريبة على طريقة أهل البلاد».

أما الآلات الموسيقية القديمة عند الليبيين فإن ما وردنا عنها قليل. ويبدو أن نوعاً من الصنج كان مستعملاً كما يظهر في الرسوم المصرية. وكانت هنالك آلة أخرى هي الطبل ذو الوجهين في الرسوم المصرية. وكانت هنالك آلة أخرى هي الطبل ذو الوجهين الذي يدل شكله على أنه كان مصنوعاً إما من الفخار أو الخشب الذي غطيت نهايته بالجلد. وكان هذا الطبل يحمل برباط يشده إلى الكتفين ويتركه يتدلى أفقياً بحيث تكون طبلتاه في وضع قريب من اليدين ليتمكن الدق عليهما بسهولة.

وهناك آلة موسيقية ثالثة هي المزمار البسيط ذو القصب الواحدة وكان يصنع في الغالب إما من الخشب أو من عظام الساق لنوع من الطيور الكبيرة. وكان به عدد غير معروف من الثقوب التي يستعملها العازف لعزف أغانه المختلفة. ولعل هذا المزمار هو سلف الشبابة الحالية وإن كان يختلف عنها في أن طرفه من جهة الفم كان أدق من الطرف الآخر. وفي الحديث عن المزمار لا بد أن نشير إلى «دوريوس ساميوس»³⁵ (Dorius Samius) ذكر وجود المزمار المزدوج (سلف المقرونة الحالية) عند الليبيين.

أما أكثر الآلات الموسيقية الليبية تقدماً، وهي آلة وردت عليها إنباتات قديمة، فقد كانت القيثارة الصغير ذات الزاوية القائمة. وقد كان هذا النوع من القيثارة شائع الاستعمال في مصر إلى جانب أنواع أخرى من القيثارات

34- Herodotus iv, p. 305.

35- Dorius Samius, Frag. 34 in Fragmenta Historicorum Graecorum (Edited by Muller, Paris, 1841).

التي كانت أكثر منه تعقيداً. ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة إذ إننا نجد أحد النقوش المصرية يمثل جميع هذه الآلات أثناء استعمالها في آن واحد.

وكان الليبيون يقومون بالرقص ويسيرون في مواكب احتفالية: فقد كان المرتزقة منهم في الجيش المصري يمارسون الرقص الحربي في عهد الدولة الحديثة. وكان المرتزقة من التمحو ينقسمون وقت الرقص إلى فريقين أحدهما واقف يضبط الإيقاع «بالطوق» أي القرع بعضاً على أخرى. والفريق الثاني يتحرك ويقفز على ذلك الإيقاع. وهناك مشهد آخر في النقوش المصرية يذكرنا بالرقصات الحربية التي تمارسها الأقوام البدائية وخاصة القبائل الهندية الحمراء في أمريكا. وقد سبقت الإشارة إلى رقصة أخرى هي ذلك الرقص الديني الذي كانت تمارسه عذارى الأوزين والذي يمكن أن نعتبره نوعاً من الرقص الحربي. ويشير أوريك بيتس³⁶ بهذا الصدد إلى رقصة كان أهل سيوة يمارسونها وهي ليست عربية وليست سودانية وكان شباب سيوة يؤديونها مرة واحدة في السنة بمناسبة مولد سيدي الشيخ سليمان. ولي الواحة. فيقفون في صفين متواجهين ويقومون بحركات هي أقرب إلى الرقص الريفي في إنجلترا منها إلى الرقص العربي أو السوداني مما يرجح الاعتقاد أنها رقصة قديمة مورثة عن الليبيين الذين كانوا يسكنون الواحة.

ومن الواضح أن المواكب كانت تشكل جزءاً من الاحتفالات الليبية الدينية فقد كان الأوزيون يكرمون إلهتهم أثينا (الأوزية) بموكب سنوي يدورون فيه حول بحيرة «تريتونس Tritonis» (شط الجريد بتونس) كما أن طقوس عبادة الإله آمون كانت تتميز بالمواكب. وقد وصف سيليوس الإيطالي³⁷ مواكب الحداد حول جثمان الأميرة اسبستي (Asbystae). وكان

36- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, Sy. Martin>s St. London 1914, p. 156.

37- Silius Italicus ii. 265.

هنالك أيضاً موكب سنوي مقدس يحمل خلاله رمز آمون. إله طيبة. ويدار به في ليبيا طيلة اثني عشر يوماً.

النقش والنحت:

لقد سبقت الإشارة إلى النقوش الصخرية في الصحراء الكبرى عامة وفي الصحراء الليبية خاصة. أما المنحوتات التي عرفت فعلاً في ليبيا فهي قليلة وترجع إلى عصر متأخر. ولعل أهم هذه المنحوتات ما وجد في غرزة (على بعد سبعين فرسخاً³⁸ إلى الجنوب من طرابلس عندى ملتقى خط عرض 10° ~ 31° شمالاً مع خط طول 41° ~ 14° شرقاً). وكان قد زار آثار غرزة هذه لأول مرة رجل اسمه كابتن سميث (Captain Smith R. N). من الأسطول البحري الملكي البريطاني في مارس سنة 1817 م. وكتب يصفها بقوله:

« هذا الموقع عارٍ تظهر فيه كتل قاحلة من الحجر الجيري والحجر الرملي وتقطعها في عدة أماكن فروع وادي زمزم الكبير. وبالرغم من أنني كبحت جماع خيالي ولم أسمح له أن ينطلق متناسباً في تخليقه تناسباً تصاعدياً مع الروايات المثيرة التي سمعتها عن هذا الموقع. إلا أنني لم استطع تضادي الشعور بخيبة الأمل لدى رؤيتي للأبنية السيئة. التي ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً وتقوم على حافة الرابية الجبلية. ولبعض القبور ذات الأساليب المختلفة التي تتميز باللامبالاة في الذوق. وتحلى بأعمدة خالية من التناسب تعلوها تيجان ليس بينها وبين الأعمدة أي انسجام».

ولكن بالرغم من خيبة أمل الكابتن سميث فإن منقوشات ومنحوتات غرزة هذه تكتسب أهمية خاصة عندما نتذكر أن شكلها ومستواها الفني يدلان على أنها كانت من عمل محلي وأنها إنما تمثل مرحلة متوسطة بين النقوش الصحراوية القديمة وبين النقوش الرومانية.

وقد اكتشف «دوفيريير Duveyrier» قرب غدامس لوحاً حفر عليه مشهد تظهر فيه فتاة ملتفتة نحو اليمين وهي جالسة على كرسي بسيط

38- League = ميل = 4 الفرسخ

من نوع كراسي المعسكرات. وقد وضعت قدميها على موطيء خشبي وهي ترتدي حلة طويلة، وشعرها مسرح تسريحة غريبة. وقد مدت ذراعها اليمنى ورفعت فيها جريدة نخل أو ريشة نعام ربط في نهايتها شبيء صغير مثلث الشكل. وتظهر خلف هذه الصورة صورة أخرى أصغر منها كثيراً ولكنها مثابها لها وربما كانت تمثل إحدى وصيفات الفتاة الأولى. ويظهر أمام الشكل الكبير بناء نصف مقوس تمتد نحوه الجريدة أو الريشة، وتحت نصف القوس شكل ثالث تهشم حتى لم يبق منه إلا الذراع اليمنى. وليس من شك في أن هذا اللوح في مجمله وفي تفاصيله يعكس تأثيراً مصرياً قوياً يشير إلى عهد الدولة الحديثة ولكن من الثابت أنه من صنع محلي يدل على ذلك الزي البربري الذي كسيت به الصورتان. أما مغزاه فهو ديني: فشكل الفتاة الجالسة ووصيفتها يوحي بأنهما تؤديان طقساً دينياً أمام إله أو روح يسكن المكان المقدس نصف المقوس. وإذا سمحنا لأنفسنا بعقد مقارنة بين فن النقش الصخري في العصر الحجري الحديث وبين فن النحت. على ضآلة ما عرف عنه وما اكتشف منه حتى الآن خرجنا بالقول إن الليبيين القدماء الذين بلغوا شأواً معقولاً من الإبداع في فن النقش الصخري لم يبلغوا في فن النحت مستوى يجعل هذا الفن وسيلة تعبير طبيعية وسهلة.

فن البناء:

إن ما يلفت النظر في الآثار الليبية أنه لم يكتشف بينها حتى الآن شيء من النصب الميجاليتية التي ترجع للعصر الحجري بعكس ما عليه الحال في المغرب الأقصى حيث توجد آثار ونصب ميجاليتية كثيرة. ويميل أوريك بيتس³⁹ إلى تأكيد النظرية القائلة إن البناء الميجاليتيين كانوا قوماً من غرب أوروبا قدموا عبر شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب ولكن موجتهم توقفت عند تونس.

وفي العصر التاريخي نجد لدى بعض الليبيين قلاعاً لا تزال آثارها قائمة في المنطقة الجنوبية الغربية من برقة. ولابد أن طبيعة حياة القبائل الليبية غير المستقرة كانت تفتضي وجود حصون هنا وهناك في مناطق جبال تلك

39- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St, London, 1914, p. 160

القبائل لتكون بمثابة معازل يلجأون إليها عند الخطر. أو يخزنون فيها ما بأيديهم من أمتعة أو غنائم أو يستعينون بحماتها الأقوياء من أتباعهم. ويقول ديودورس الصقلي بهذا الخصوص: «إن زعماء البدو الرحل من الليبيين لم تكن لهم مدن تجمع شملهم وإنما كانت لهم معازل قرب مصادر المياه يخزنون فيها ما لديهم من غنائم فائضة عن الحاجة». وقد أيد بلايني الكبير ما ذهب إليه ديودورس الصقلي.

ولدينا مزيد من الإثباتات عن وجود هذه القلاع: فكثيراً ما ورد ذكرها عند الكتاب والأدباء الكلاسيكيين. كما أن شيئاً من آثار هذه القلاع ذاتها ما زال قائماً إلى اليوم. وقد شاهد تلك الآثار عدد من الرحالة الحديثين وأعطونا فكرة عن حجمها ومخططاتها وبنائها. ولا تزال آثار واحد من هذه الحصون تشاهد في «هوا سيجال Haeah Segal» في الجنوب الغربي من برقة وهي تدل على أن البناء كان من نوع بدائي خشبي يتكون من قطع مستطيلة من الحجارة مثبتة في الأرض بحيث تكون مستطيلة أبعاده 45×36 متراً. ولابد أن هذا البناء كان في الأصل عبارة عن زريبة مبنية بالطين وأغصان الشجر أو الحجارة الصغيرة.

ولعل أهم هذه الآثار في ليبيا هي تلك القلاع المبنية من عدة أضلاع من الجدران الحجرية في الجزء الجنوبي الغربي لبرقة. ويقول بيتشي: «هنالك آثار عديدة لقلاع قديمة إلى الجنوب من بنغازي. وبعضها تختلف كلية في مخططها عن القلاع الإغريقية والرومانية»⁴⁰.

وهذه القلاع ذاتها مبنية «بحجارة كبيرة غير متساوية في حجمها رصت على بعضها البعض دون إسمنت أو طين على أسلوب البناء السيكلوبي «Cyclopien». وكانت أبعاد هذه الأبنية بصورة عامة تتراوح بين (30) إلى (45) متراً في الطول و(24) إلى (30) متراً في العرض. وكان شكلها مستطيلاً وزواياها أسطوانية كما وجدت في مناطق بعض القلاع قبور محفورة في الصخور. وكان يحيط بالقلعة في أغلب الحالات خندق

40- F.W. & H.W. Beechey, Expedition to the North of Africa, p. 244.

عميق أقيم على حافته الخارجية جدار متين قصير مشيد بقطع كبيرة من الحجارة.

وليس ثمة أدنى شك في أن هذه القلاع وطنية محلية لأنها تختلف في مخططاتها وبنائها عن القلاع البونيقية والإغريقية والرومانية في الشمال الإفريقي، ولأنها موجودة في مناطق كان التأثير الأجنبي فيها ضعيفاً إلى حد يبرر إهماله. وقد عزا بارت هذه القلاع لقبيلة الأوسخيزي لأن ما شاهده منها كان واقعاً على حافة منطقة سكنى هذه القبيلة قديماً قرب خليج سرت الكبير. ويرجح أوريك بيتس⁴¹ أن تكون تلك القلاع من مخلفات الناسامونيين فقد وجدت آثار بعضها ضمن الحدود الشمالية لمنطقة سكناهم حول القسم الشرقي من خليج سرت الكبير. كما أن هذه القبيلة كانت أقوى من جيرانها الأوسخيزي وبالتالي أجدر بإقامة القلاع. وعلى أي حال هذه القلاع تشهد أن بناتها كانوا يتمتعون بقسط لا بأس به من المهارة في البناء أو أنهم كانوا يسيطرون على أصحاب تلك المهارة ويستخدمونهم. أما زمن هذه القلاع فيمكن رده إلى القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد.

وكانت مساكن الليبيين القدماء إما الكهوف الطبيعية أو المنازل الثابتة أو الأكواخ المتنقلة. ومن الملاحظ أن بعض الليبيين كانوا لا يزالون حتى عهد قريب يسكنون الكهوف الطبيعية في مناطق متفرقة من البلاد وخاصة في تلال الجبل الأخضر في برقة. والكهوف الاصطناعية. كما لا يزال يشاهد حتى اليوم في غريان وجبلها⁴².

ولما كانت أغلبية الليبيين تعيش عيشة البدو الرحل فإنهم لم يسكنوا منازل ثابتة وإنما سكنوا الخيام والأكواخ المتنقلة. وفي عهد الأسرة المصرية التاسعة عشرة كان الليبيون يستخدمون خيام الجلد التي كانت شائعة في فزان حتى وقت قريب. ولا بد أن الخيام ظلت مستعملة لوقت طويل بعد ذلك التاريخ. وبالإضافة للخيام كان الليبيون يسكنون أكواخاً متحركة

41- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 166.

42- Vischer, Across the Sahara, p. 38.

عرفها الرومان باسم «مباليا أو مجاليا Mapalia, Magalia»⁴³ وكانت هذه المباليا عبارة عن أكواخ متنقلة. وقد وصف هيرودوتس مساكن الناسامونيين «بأنها كانت تعمل من عروق البروق»⁴⁴ أو من القصب المشدود بعضه إلى بعض». وكان نقل هذه الأكواخ من مكان لآخر⁴⁵ أمراً سهلاً لأنها لم تكن في الواقع سوى حواجز خفيفة تقي ساكنها من الشمس والريح. وكانت المباليا مستخدمة لدى النوميديين وفي داخل مارماريكا ولدى الرعاة الإفريقيين بصورة عامة مما يدل على مدى انتشار هذا النوع من المساكن المتنقلة ليس في ليبيا وحدها وإنما في الشمال الإفريقي بأسره. وفي زمن الحروب البونيقية لم يكن لدى الجنود النوميديين في الميدان أي مأوى غير هذه الأكواخ⁴⁶ ولهذا السبب تمكن القائد الروماني سكيبيو أفريكانوس «Scipio Africanus» في إحدى المناسبات من إحراق معسكر سيفاكس «Syphax»⁴⁷ النوميدي.

ولا شك أن شكل المباليا كان يختلف من منطقة لأخرى ومن بناء لآخر فقد كانت المباليا النوميديية أشبه بشكل القوارب المقلوبة وكان يدعمها من الداخل عصي أو أعمدة خشبية مغروسة في الأرض. وأغلب الظن أنها كانت شديدة الشبه بأكواخ منطقة طرابلس. وبعض الأكواخ كان شبيهاً بالأفران ولعل هذا النوع هو الذي تظهر أشكاله في الفسيفساء التي اكتشفت في موقع «العالية» بتونس. وتمثل هذه الفسيفساء مشهدين من النيل ولكن فنّان الشمال الإفريقي زين المشهدين بصور أكواخ من الواضح أنها كانت مباليا. وقد علمت هذه الأكواخ بشد عدد من العصي إلى بعضها البعض ثموضع فوقها سقف من الأغصان المنسوجة. ويتخذ هذا السقف شكل مخروط يستطيل ويستدق عند نهايته العليا بشكل لافت للأنظار. ولعل الغاية من هذه النهاية المستطيلة المنحنية كانت امتصاص الدخان.

43- لعل هذه التسمية من أصل بونيقية.

44- البروق (asphodel) نبات من الفصيلة الزنبقية يرد ذكره كثيراً في الأساطير اليونانية.

45- Herodotus, iv, p. 305.

46- Livy, xxx. 3.

47- Ibid., xxx 5.

وهنالكَ نوع آخر من المباليَا كان جداره الدائري يتكون من الوتل⁴⁸ وسقفه المحروطي من القش المنسوج، ونستطيع بصورة عامة أن نصنّف هذه الأكواخ إلى صنفين: الأول يشبه النوع الذي كان سائداً في منطقة طرابلس وكانت مصطبته أشبه بالمقطع الطولي لخياره كما أن سقفه كان من الوتل وكان مقوساً أو منحنياً، والثاني هو النوع الذي يمثّل في الشكل (47) وكانت مصطبته دائرية وسقفه مخروطياً.

أما المنازل الليبية الثابتة فقد كانت في الواحات وقد ذكر كل من هيرودوتس⁴⁹ وبلايني أن هذه المنازل كانت تبنى من الملح وهو وصف من السهل أن يكون مضللاً خاصة إذا قارنا هذه المنازل التي مازالت شائعة في واحة سيوة وهي تبنى بدعائم من جذوع النخل والحجارة وملاط من الطين والملح.

ولابد أن الليبيين شيدوا الآبار وخزانات المياه في وقت مبكر من تاريخهم. فقد ذكر هيرودوتس أن البسليّ كانوا يجمعون مياههم في خزانات كما أن الأعداد الكثيرة من الخزانات والآبار التي يصادفها المرء على طول الشمال الإفريقي من مصر إلى تونس. وإن كان يغلب على بنائها الطراز الروماني. لا بد أن أصولها كانت أقدم منها بكثير. وتوجد مخازن الجبوب في أماكن متفرقة من ليبيا ولكن من الصعب أن نقرر ما إذا كانت ليبية أو إغريقية أو رومانية لأنها مجرد حفر في الصخور على أشكال مكعبة أو على شكل الزجاجية. وتثبت وجودها في ليبيا آثارها من ناحية المصادر الكلاسيكية من ناحية أخرى. فقد ذكر مؤرخ حروب يوليس قيصر في إفريقيا «أنه كان من عادة الإفريقيين أن يضعوا جبوبهم في مستودعات مقوسة تحت الأرض لحمايتها أثناء الحروب. ولحمايتها من غارات الأعداء المفاجئة. وقد وجد مخزن جبوب من هذا النوع في جزيرة بلاتيا بخليج مبا ووجد مخزن آخر في مرسى سوسة (= أبولونيا).

48- قضبان تصفر مع الأغصان والقصب لإنشاء الأسيجة أو الجدران والسقوف
49- Herodotus, iv, p. 304.

الدين :

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الديانة الليبية القديمة إلى ثلاث:

1- مرحلة تقديس مظاهر الطبيعة والاعتقاد أن لها أرواحاً.

2- مرحلة الإيمان بالأخرويات من بعث وحساب.

3- المرحلة اللاهوتية.

المرحلة الأولى:

في هذه المرحلة كانت المعتقدات الدينية التي عرفها الليبيون من النوع البدائي البسيط المتعلق بعبادة الحيوانات وتقديسها شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب في مراحل تاريخها البدائي. فقد كان ابن الشمال الإفريقي البدائي في المرحلة البكرة من تاريخه يشعر بأن العالم مليء بالقوى الروحانية وبأن كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية مليئة بتلك القوى كذلك. وهكذا فإن الآبار والأشجار والتلال والسحب والعواصف... الخ كانت تسكنها. في نظره، أرواح أعطت كلاً منها الطابع الذي يميزه عن غيره. وحتى بعد مضي زمن ليس بقصير وبعد أن حلت محل هذه العقائد مفاهيم أخرى أوسع منها وأعمق. فإن العقائد الأولى بقيت تسيطر على عقول الجماهير. ففي العصر الكلاسيكي نجد أن نافورة الشمس في سيوة لفتت أنظار عدد كبير من الكتاب فعزوا إليها صفات حرارية ربما كانت تتوافر فيها كما عزوا إلى لونها كثرة التغير والتقلب؛ وهي صفات من المؤكد أنها لم تكن فيه⁵⁰. ومن المحتمل أن النافورة الرائعة في قورينة. وهي التي كرسست لأبولو بعد نزول الإغريق في ذلك المكان. كانت حُظي بكثير من الاحترام والتقديس قبل العصر الإغريقي. وكان الليبيون في العصر الكلاسيكي يعتقدون أن الحجارة الكبيرة كانت تسكنها الأرواح. وقد بلايني⁵¹ ننقلنا عن ميلاد⁵² أن لبيبي سيوة كانوا يقصدون حجراً من هذا النوع في تلك الواحة وكانوا يعتقدون أنه إن جُرد أحدهم ولمسه بيده فإن ذلك كان يؤدي فوراً إلى قيام عاصفة رملية

50- Herodotus, iv, p. 303 & Diodorus Siculus xvii. 50.

51- Pliny, ii, 45.

52- Mela, i. 8.

مهلكة تعصف بالواحة.

وبالإضافة للحجارة كان الليبيون في العصر الكلاسيكي يقدسون التلال - وكانوا يعتقدون أن لكل تلة روحاً توافيها بكل ما تقف عليه هي من معلومات - وهذه النظرة ذاتها كانت تتجسم بشكل أوضح لدى سكان المناطق الجبلية إلى الغرب من ليبيا؛ فقد ذكر بلايني أن الخنشوع الديني كان يملأ قلوب من يقتربون منهم من جبل أطلس خاصة عندما كانوا يشاهدون قمته المرتفعة فوق السحاب إلى درجة جعلها تبدو قاب قوسين من القمر نفسه⁵³. وقد ذكر الجغرافي الروماني ميلا في حديثه عن حجر سيوة الذي سبقت الإشارة إليه «أن ذلك الحجر كانت قدسيته في الأذهان مرتبطة بتقديس الريح الجنوبي (القبلي). فإذا ما جُرد أي إنسان ولسه بيده كانت الريح الجنوبية تهب من فورها وتقذف الرمل في كل مكان كالطرر ويسمع لها هدير كأنه هدير الأمواج». وإذا ما أضفنا بعض القرائن الأخرى لقول ميلا هذا فإننا سنستنتج دون ريب أن الليبيين كانوا يعتقدون أن الريح الجنوبية ذات طبيعة روحانية. وهذه عقيدة كانت متعمقة في عقل البربر إلى حد أنها دامت حتى الوقت الحاضر. وهذه مسألة تذكرنا بما سبق أن سمعناه من هيرودوتس من أن البسلي إنما قضت عليهم ريح جنوبية ظلت تعصف باستمرار حتى جففت مياه خزاناتهم مما حملهم على إعلان الحرب عليها. على حد ما رواه الليبيون لهيرودوتس. فساروا في الصحراء حيث هبت عليهم ريح من الجنوب فقضت عليهم بما كانت تحملها من رمال⁵⁴. وهذه الأسطورة تذكرنا بأسطورة أخرى تتعلق بالحملة التي كان قميز الثالث الفارسي قد بعث بها ضد سيوة. وقد روى هيرودوتس نفسه أن الفرس زحفوا من طيبة بمصر حتى بلغوا واحة الخارجة بسلام. وبعد ذلك «لم يعرف عنهم أي شيء سوى ما ذكره أهل سيوة ومن نقلوا معلوماتهم عنهم». فالجيش الفارسي لم يصل سيوة ولم يعد لمصر لأن المصيبة حلت به. كما تقول رواية أهل سيوة. عند نقطة في

53- Pliny, v. 1.

54- Herodotus, iv, p. 301. According to Nonnus (Dionysiaca, xiii - 381) the expedition of the Psylli was made by sea (!) and the ships were sun; by tempests from the south.

منتصف الطريق بين واحة الخارجة وواحة سيوة. فبينما كان الفرس يتناولون وجبة الغداء هبت عليهم من الجنوب ريح عاتية مهلكة حمل معها أعمدة ضخمة من زوابع الرمال فدفنتهم كلية. ومن الواضح أن الشك يرجح على اليقين بالنسبة للقصة الأولى وهو أيضاً محتمل بالنسبة للقصة الثانية. أما قصة البسلي الحقيقية فتتلخص. على ما يبدو. في أنهم تراجعوا جنوباً مبتعدين عن النشاطات التي ختت ضغط الناسامونييت الذين استولوا على ديارهم فكان في ذلك التراجع هلاكهم في الصحراء. وفي الحديث عن قصة الحملة الفارسية إلى سيوة لابد أن نلاحظ أن مسألة هبوب عاصفة رملية تغمر جيشها بأجمعه هي مسألة ليس لها نظير في التاريخ الحديث. وقد تكون حدثت فعلاً في ذلك الزمن القديم ولكن يغلب على الظن أن يكون الفرس قد ضلوا طريقهم خلال عاصفة رملية عادية فدب الذعر في قلوبهم مما حملهم على قتل أدلائهم. أو حمل أدلائهم على مغادرتهم فاتهاوا بعد ذلك في الصحراء واستمروا يضربون في جنباتها على غير هدى حتى ماتوا عطشاً. ومهما يكن الأصل التاريخي لهاتين القصتين فإن هنالك أمرين يتعلقان بهما لابد من ملاحظتهما وهما:

1- أن هيرودوتس في روايته للقصتين إنما يسجل ما سمعه من الليبيين أنفسهم.

2- أن الإساءة للريح الجنوبية في إحدى القصتين. ولعبد سيوة الصحراوي في الأخرى هي التي يفترض أنها جرت العقاب على المسيء بعواصف رملية عاتية أثارها ريح الجنوب.

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن مسألة الاعتقاد بوجود أرواح في الرياح ما زالت سائدة في أيامنا هذه بين سواد الشعوب العربية. فأنا شخصياً ما زلت أذكر أن الناس في الريف الفلسطيني يعتقدون أن الزبوجة «الفلاتينة» إنما حدثت نتيجة قتال بين الشياطين؛ ولذلك فهم يخاطبونها كلما ثارت قريباً منهم بقولهم «على الظالمين والقوم الكافرين» إيماناً منهم أن ذلك الخطاب يجنبهم شرها وشر شياطينها من ناحية. ويصرف ذلك الشر إلى الظالمين والكفار من ناحية أخرى. ولا شك أن فكرة مشابهة فيما يتعلق

برياح «القبلي» لا تزال سائدة في الريف الليبي. كما أن الناس في صعيد مصر ما زالوا يعتقدون أن الزوبعة إنما تثور في أعقاب طيران أحد الشياطين أو الجن الفاسقين.

ولا شك أن الليبيين القدماء كانوا يعتقدون كذلك بوجود أرواح في قوس القزح وفي السراب وفي النجوم. وأدى بهم ذلك الاعتقاد إلى عبادتها وتقديسها⁵⁵.

وهذا الاعتقاد بوجود أرواح في الظواهر الطبيعية المختلفة إنما هو نتيجة لتفاعلهم ببيئتهم الطبيعية ذات الصحراء الواسعة الممتدة والسماء العالية الصافية ما يجعل تلك الظواهر تتجسم هنا أكثر منها في أي مكان آخر؛ فالنجوم مثلاً تبدو هنا أكبر حجماً وأكثر تألقاً. وكذلك الحال بالنسبة للشمس والقمر. والليبيون ليسوا وحدهم في ذلك الموقف الخاص بعبادة

55- أنظر أيضاً: ليبيا القديمة، نشرة حولية تصدرها الإدارة العامة للأثار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا. وزارة التربية والتعليم. المجلدين الثالث والرابع. 1966 - 1967. ص 105-106 حيث يقول فروبينيسوس إن نقوش القرون التي تم اكتشافها في فزان إنما تهدف إلى أغراض رمزية. وإنها تشير إلى الضوء. وفي اعتقاده أن ثمة صلة تربط بين فكرة استعمال القرون في عصور ما قبل التاريخ واستعمالها الرمزي فيما بعد في ثقافات أخرى. وهو يرى أن تلك الصلة بين القرون من جهة والقمر والشمس والنور من جهة أخرى تبدو واضحة في النقاط التالية

- أ- إبراز القرون على هيئة هلال.
 - ب- إضافة الهلال إلى رسم القرون.
 - ج- وضع القرن على هيئة دائرة. وإن كان من الصعب تحديد ما إذا كانت تلك الدائرة ترمز للشمس أو للقمر.
 - د- إضافة خطوط على هيئة شعاع قد يكون رمزاً لأشعة الشمس.
- إضافة زخارف ترمز لأشعة الشمس من مثل الصليب بأشكاله المختلفة. وهو يرى أن النماذج المختلفة ربما كانت تشير إلى أن الناس كانوا يحاولون أن يربطوا بين الأرض وقوى الفضاء التي تعذر عليهم فهم ماهيتها. ويرى كذلك أن الآلهة والأجرام السماوية والحيوانات ذات القرون ربما كانت تكون نالوثاً رمزياً فيما قبل التاريخ ما جعل القرن يصبح فيما بعد أحد رموز القوة الروحية. ولقد تكهن البعض بأن القرن يمثل النور على الأرض نظراً للشبه القائم بينه وبين الهلال. ونظراً لخاصته الهجومية الدفاعية ما شجع الاعتقاد أنه منبع القوة والحياة وعندما أصبحت الماشية من أهم مصادر الغذاء. أصبح القرن يرمز أيضاً للخصوبة والتوالد بالإضافة إلى الاستمرار في استعماله كعنصر فني. ومن ناحية أخرى فربما كانت له دلالة سحرية؛ فنحن ما زلنا نرى بعض الرفيين يعلقون العظام والقرون على أطفالهم لتكون رُقي لهم.

ظواهر الطبيعة فقد شاركهم فيه العرب الساميون في شبه جزيرة العرب. والهاميون في إفريقيا الشرقية.

أما بالنسبة للمحرمات من المأكولات فقد ذكر هيرودوتس أن بعض الليبيين كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحم البقر تقدسياً للإلهة المصرية إيزيس التي كانت البقرة رمزاً لها. وحتى من تأغرقوا منهم في قورينة كانوا يسلكون سلوكاً مشابهاً. وزيادة على ذلك فإن نساء مدينة برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر فقط بل حرمن على أنفسهن أكل لحم الخنزير كذلك. وبالإضافة إلى هذا يبدو أن لحم الكلب كان محرماً؛ فكان لا يجوز أكله إلا في حالات معينة ولأسباب خاصة. وبالرغم من أنه كان يعرض للبيع في أسواق الشمال الإفريقي في القرون الوسطى إلا أن أكله كان يرتبط بخرافات شائعة يستدل من طبيعتها على أنها وضعت في أوقات قديمة كان لحم الكلب فيها محرماً.

وفي مجال التنجيم والعرافة والسحر عرف عن أبناء الشمال الإفريقي أنهم كانوا ماهرين في التنجيم في العصر الروماني. وكما هي الحال بالنسبة لمعظم الشعوب البدائية الأخرى كان المنجم في أغلب الحالات امرأة وليس رجلاً. ومن الثابت بالنسبة لليبيين أن المنجم أو المنجمة كان في بعض الحالات يستلقي عند قبر أحد أسلافه مستعيناً به على كشف المستقبل ثم يفيق وقد رأى ربا يعتبرها وحياً من سلفه. وفي أوجلة بالذات كانت أرواح السلف المؤلهين تعتبر ذات صلة بالسماء. وكانت تستشار بطريقة مشابهة أي عن طريق النوم والأحلام⁵⁶. وقد اعتبر هيرودوتس هذه العادة شائعة بين الناسامونيين عامة حين قال: «إنهم كانوا يستعينون على التنبؤ بالمستقبل بالذهاب إلى قبور أجدادهم والنوم عليها ثم يتصرفون وفقاً لما يرونه من أحلام هناك»⁵⁷. ويذكر أوريك بيتس⁵⁸ أن نساء الطوارق في قرية الأصنام قرب غدامس كن في مطلع القرن الحالي يرتدين أجمل ملابسهن ثم يذهبن

56- Mela, i. 8.

57- Herodotus, iv pp 300 - 302.

58- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St. London, 1914, p. 178.

إلى بعض القبور المشهورة مثل قبر «الزبار Zabbar» حيث ينادين الروح الساكنة بين القبور والتي يعرفونها باسم «إدبني Idebni»⁵⁹ فتظهر لهن على شكل عملاق ضخم عيناه بحجم عيني الجمل وجيب على أسنلتهم التي لم تكن تعدو الاستفسار عن زوج أو قريب أو حبيب غائب. ويرى بيتس أن هذه العادة توضح وتؤكد ما ذهب إليه كل من ميلا وهيرودوتس.

ولقد مارس الليبيون القدماء السحر بنوعيه الأبيض والأسود. ويذكر بهذه المناسبة ما أحرزه المغاربة إجمالاً من الشهرة بالسحر في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فقد ذكر نيقولاوس الدمشقي «Nicoaus Damascenus»⁶⁰ نوعاً من السحر كانت تشترك في مارسه قبيلة كاملة عندما قال إن ليبيين معينين كانوا يقيمون حفلاً سنوياً ينتهي مع غياب الثريا. وأتذاك كانت الأنوار تطفأ ويمارس المشتركون في الحفل العملية الجنسية مع المشتركات كيفما اتفق. ويقول أوريك بيتس⁶¹ في تعليقه على هذا القول: «إن هذا العمل رغم بربريته كان دون شك يخدم غاية دينية هي تأمين محصولات وافرة».

ويشير هيرودوتس⁶² إلى عادة التعاهد عند الناسامونيين فيقول إنهم كانوا عند إبرام العقود يتبادلون الماء فيسقى كل من الفريقين الفريق الآخر. فإن لم يوجد الماء استعاضوا عنه بالتراب بحيث يأخذ كل من الفريقين شيئاً من التراب في راحة يده فيلحق الفريق الآخر شيئاً منه بلسانه. ويبدو أن غايتهم من ذلك كانت تثبيت الفريقين المتعاهدين على الوفاء بالعهد لاعتقادهم أن من نقضه بعد إبرامه على تلك الصورة سيقع فريسة لمرض عضال لا جاة له منه. ولقد مارس الليبيون القدماء السحر من أجل ستنزال المصر كما مارسه البسلي الليبيون كحواة للأفاعي: فقد كان الاعتقاد السائد هو أم هؤلاء القوم يتحلون بقدة عجيبة على سحر

59- هذه الكلمة بلغة الطوارق تعني القبر = Idebni.

60- Nicolaus Damascenus, Frag. 135 in F.H.G.

61- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St Martin s St., London, 1914, p. 178.

62- Herodotus iv, p. 300.

الأفاعي ومعالجة عضاتها على نحو ما هي الحال في وقتنا هذا بالنسبة لأصحاب طريقة سيدي الرفاعي في مصر وغيرها. وكان من المعتقد أن ريق البسلي يضي من عضة الأفعى السامة. ولذلك يقول بلايني عنهم: «إن في أجسام هؤلاء القوم نوعاً من السم الطبيعي القاتل للأفاعي⁶³ فإذا تعرضت الأفعى لرائحته تخدرت إلى حين ثم ماتت». وكانت عاداتهم أن يعرضوا الطفل بعد ولادته مباشرة لأشرس الأفاعي: فإذا جئته الأفعى كان ذلك إثباتاً لصحة نسبه إلى والده من ناحية وإثباتاً لعدم خيانة الزوجة. أم ذلك الطفل. لزوجها من الناحية الأخرى. ومع أن بلايني لم يترك لنا وصفاً لتفاصيل أسلوب هؤلاء القوم في العلاج من عضة الأفعى. إلا أن قوله «إنهم كانوا يدهنون موضع العضة بريقهم» يشير إلى الطابع السحري الذي كان يتصف به أسلوبهم في العلاج. ومن المعروف أن البسلي كانوا يستخدمون في العصر الكلاسيكي كأطباء لمعالجة عضة الأفعى السامة ولدغة العقرب⁶⁴ ولعل أشه مناسبة استعين فيها بخدماتهم دون جدوى هي عندما دعاهم أكتافوس ليحاولوا إنقاذ كليونتره إثر إقدامها على الانتحار باستخدام أفعى سامة. ومن أجل هذا الغرض نفسه رافق عدد من البسلي جيش كاتو في مسيرته عبر منطقة خليج سرت الكبير. ويصف لنا كالياس السراقوسي⁶⁵ بوضوح أسلوب البسلي في علاج عضة الأفعى السامة عندما يقول إن الواحد منهم كان يعالج حالة التسمم البسيطة الناجمة عن عضة الأفعى بأن يبصق في الجرح الذي أحدثته العضة. أما في الحالات الخطرة فإنه كان يتمضمض بشيء من الماء ثم يفرغه من فمه في فنجان ويسقيه للمصاب. فإذا لم ينجح هذا العلاج جرد البسلي والمصاب من ملابسهما واستلقيا متلاصقين إلى أن يتغلب البسلي بما أودع فيه من قوى عجيبة على آثار السم. ومن الواضح أن هذا الوصف يدل على عادة سحرية موقرة كان يتوارثها الأبناء في هذه القبيلة عن الآباء. ويبدو أن هذا النوع من السحر لم يلبث أن تحول إلى مجرد وسيلة لا ابتزاز الأموال.

63- ما زلت أذكر اعتقاد الناس في الريف الفلسطيني أن ريق الإنسان هو بمثابة السم القاتل للأفاعي.

64- Pliny, XI. 25.

65- Callias Syracusanus, Frag. In F.H.G., Vol ii.

وبالنسبة للسحر الأسود فإن أوريك بيتس⁶⁶ يعرب عن اعتقاده أن «الإصابة بالعين» ليست موروثة عن العرب فقط وإنما أيضاً عن قدماء البربر. وقد روى بلايني نقلًا عن اثنين من الكتّاب الإغريق «أن أسراً إفريقية معينة من السحرة كانت تستطيع عن طريق الاستحسان وإظهار الإعجاب أن تسبب الموت للقطعان والذبول للأشجار والموت للأطفال»⁶⁷. ولقد سبق أن تعرضنا لمسألة استطلاع المستقبل بالنوم على قبور الأسلاف. ونحن نعرف أن لوسيوس أبوليوس (Lucius Apuleius)، الذي سنعرض لقصته فيما بعد. قدم لحكمة صبرانة بتهمة أنه استخدم السحر الأسود ليحمل بدنتيلا (Pudentilla) على حبه والزواج منه. وقد مثل أمام المحكمة فعلاً في سنة 157 م. وقال في دفاعه عن نفسه: «أجيبوني أنتم. يا من تدعون أن أبوليوس حاول أن يغوي روح بدنتيلا لتحجبه بأن استخدم السحر الأسود...»⁶⁸

المرحلة الثانية:

أما فيما يتعلق بعبادة أرواح الأسلاف المؤهلين فإنها تتضح في طريقة الدفن وفي النظرة للموتى. وفي الحديث عن طرق الدفن التي اتبعها الليبيون القدماء يقول هيرودوتس⁶⁹: طابن الليبيين الرحل. باستثناء الناسامونيين. كانوا يدفنون موتاهم على نحو ما يفعل الإغريق». أي إنهم كانوا يضعون الجثمان في اللحد ممدوداً من الشرق إلى الغرب أو بالعكس. أما الناسامونيون فكانوا يوارون الجثمان وهو في وضع الجلوس. ولذلك فإن أصدقاء المحتضر الناساموني كانوا يساعده في لحظات حياته الأخيرة على البقاء جالساً حتى يفارق الحياة. ويضيف الشاعر سيليوس الإيطالي أن الناسامونيين كانوا أيضاً يتخلصون من موتاهم بإلقائهم في البحر كما يذكر في الإشارة للجرمانتيين أنهم كانوا يدفنون موتاهم في حفرة رملية قليلة العمق. وقد

66- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London 1914, pp 180 – 181.

67- Pliny, vii-2, on the authority of Isogonus and Nymphodorus.

68- Ward, Philip, Apuleius on Trial at Sabratha, the Oleander Press, London, 1968. p. 13.

69- Herodotus, iv, p. 305.

عرف الليبيون كذلك دفن الموتى تحت كومة من التراب يسهل معها تمييز القبر. والجدير بالملاحظة هو أن عادة الدفن كانت شائعة بين الليبيين عموماً؛ أما المحرق فلم يرد له ذكر سوى في حالة واحدة ذكرها سيليوس الإيطالي في معرض وصفه لجنازة الأميرة أسبتي (Asbyte)⁷⁰ وأنواع الدفن التي ذكرت هي:

- 1- دفن الجثة ممدودة.
- 2- الدفن بإلقاء الجثة في البحر.
- 3- دفن الجثة وهي في وضع الجلوس.
- 4- الدفن تحت كومة تراب تذكارية.

وربما كانت عادة دفن الجثة ممدودة. كما لاحظ هيرودوتس. شائعة بين الليبيين المتأخرين في منطقة برقة. ذلك أنا نجد هيرودوتس يلاحظ عادة أخرى بمجرد وصوله للناسامونيين حول خليج سرت الكبير.

أما عادة الناسامونيين في إلقاء الجثة في البحر ربما كانت ناشئة من أصول نبعت في وقت لاحق كأن يكون الناسامونيون اقتبسوها مثلاً عمن احتكوا بهم من الغزاة من أقوام ما وراء البحر. أو إنها كانت ناجمة عن عرفان الناسامونيين بالجميل لهذا البحر الذي طالما زودهم بالكثير من خيراته.

ولكن طريقة دفن الجثة وهي في وضع الجلوس لم تكن مقصورة على الليبيين فقد كانت شائعة بين معظم شعوب القارة الإفريقية وبين الشعوب البدائية إجمالاً.

وجددير بالملاحظة أن اهتمام الليبيين القدماء اهتماماً فائقاً بدفن موتاهم إنما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بنوع من الحياة بعد الموت وإن لم يكن لدينا ما يثبت أنهم توصلوا لفكرة الحساب في الحياة الأخرى.

أما بالنسبة للكومة فإنها تدل على الطريقة التي كان الليبيون يميزون بها القبور ويخلدون بها ذكرى موتاهم. وقد كانوا يودعون الجثمان في لحد دائري أو

70- Silius Italicus, De Bello Punico, ii 263 sqq.

بيضوي مصفح من الداخل بقطع رقيقة من الحجارة ومسقوف بها بارتفاع يقارب نصف المتر. ثم يقيمون على ذلك اللحد كومة التراب التذكارية.

وقد كان الليبيون القدماء يسكبون بعض السوائل التي يقدمونها لموتاهم على قبور أولئك الموتى تركيماً لهم كما كانوا يزورون قبور مشاهير رؤسائهم كانت نظرة دينية دون ريب. والذي يؤكد هذه النتيجة التي خلصنا إليها هو ليس فقط ما لحناه سابقاً من نومهم على القبور بقصد استطلاع المستقبل بل الخلفان بالموتى أيضاً. فقد ذكر هيرودوتس أن الناساموني كان عندما يعقد ميناً يضع يده على قبر أحد الموتى من عرف في حياته بالعدل والصلاح ثم يقسم اليمين باسم صاحب ذلك القبر⁷¹.

ولعل الخلفان باسم الأولياء والأنبياء بين المسلمين عامة في أيامنا هذه إنما هو صادر عن عاطفة مشابهة للعاطفة القديمة عند الليبيين. تلك العاطفة التي جرتهم للخلفان بموتاهم. وهذا في الواقع يقيم الدليل على أنهم كانوا يؤمنون بوجود حياة أخرى⁷².

المرحلة الثالثة:

بعد المرحلة الثانية انتقل الليبيون إلى مرحلة دينية متطورة عرفوا فيها آلهة متعددة ذات أسماء وأشكال مختلفة نذكر منها ما يلي:

1- الإله أش «Ash»: ذكر اسم هذا الإله الليبي في نقوش سحورج من الأسرة الخامسة. ويستدل من الصورة التي يظهر عليها هذا الإله في النقوش المصرية أنه كان من الآلهة المهمة عند الليبيين منذ أيام الدولة المصرية القديمة. وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف شيئاً عن طبيعته أو قدرته.

2- الإلهة شاهديد «Shaheded»: لم يثبت أي شيء بالنسبة لهذا الاسم وإن كان البعض يعتقدون أنه اسم إلهة ليبية استناداً لما ورد على

71- Herodotus, iv, p. 300.

72- جدر الإشارة بهذا الصدد إلى نقشين رومانيين متأخرين وجدا على آثار غرزة وتظهر فيهما الكتابات التي نقشها الأبناء تخليداً لذكري آبائهم واختتموها برغبة غريبة فحواها أن يتمكن الموتى الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا وطنيين. من زيارة أحفادهم «وجعلهم مثلهم هم أنفسهم».

بعض الألواح التي وجدت في الدلتا وذكرت عليها أسماء بعض الليبيين المقيمين هناك.

3- الإله سينيفيري «Sinefere»: ذكر كوريبوس «Corippus»⁷³ إلهاً بهذا الاسم قال إن الليبيين كانوا يعبدونه. ويستنتج ما كتبه كوريبوس عن هذا الإله أنه كان إله حرب قبلي بمعنى أنه كان يساعد أتباعه في الحرب وفي السلم على أساس نزعة قبلية.

4- إله البحر بوزايدن «Poseidon»: ذكر هيرودوتس أن الإغريق أخذوا هذا الإله عن الليبيين الذين كانوا دائماً يعبدونه ولقد انفردوا بين الشعوب القديمة بأن كان لهم دون سواهم إله بهذا الاسم⁷⁴. وتدل كلمة هيرودوتس هذه على أن ليبيي الساحل كان لهم في القرن الخامس قبل الميلاد إله بحر مشهور ذو طبيعة عامة. وكان هذا الإله يعبد بصورة خاصة حول بحيرة تريتونس (= شط الجريد بتونس). ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان هذا الإله ليبي الأصل أم أنه قدم إلى ليبيا مع أقوام البحر التي خالفت مع الليبيين في غزو مصر.

5- بسافون «Psaphon»: يذكر ماكسيموس الصوراني⁷⁵ «Maximus Tyrius» أن رجلاً ليبياً اسمه بسافون كان يطمح إلى الألوهية. ومن أجل تحقيق غايته جمع عدداً كبيراً من الطيور الناطقة وعلمها أن تردد «الإله بسافون العظيم» ثم أطلقها فانتشرت في الأحراش وهي تنغني بتلك الكلمات. واعتقد من سمعوها من الليبيين البسطاء أن تلك الأصوات كانت إلهية فبدأوا يقدمون القرابين للإله بسافون. ولعل هذه الأقصوصة إنما هي محاولة متأخرة من جانب الكاتب لتفسير أسباب عبادة هذا الإله. وجدير بالذكر أنه لم تتوافر أية بينات أخرى بهذا الصدد.

6- إله الشمس: لقد سبقت الإشارة إلى أن بعض علامات الوشم التي وجدت على رسوم الليبيين في النقوش المصرية كانت ذات مغزي ديني. ونضيف

73- Corripus, Johannis, iv. 681.

74- Herodotus, II, p. 123.

75- Maximus Tyrius, Dissertat – XIX.

هنا علامات الوشم المصلبة التي ما زالت توجد بين البربر الليبيين حتى اليوم. إنما كانت تشير إلى عبادة الليبيين القدماء للشمس باعتبار الصليب رمزاً لأشعتها. ومن المعروف أن عبادة الشمس كانت شائعة بين الليبيين عامة فقد ذكر هيرودوتس أن الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس وللقمر⁷⁶. وهو يصف كيفية تقديمهم للقرابين بقوله: «الطقوس التي يتبعها الليبيون الرجل ... هي كما يلي: إنهم يبدأون بأذن الأضحية فيقطعونها ويرمونها فوق مسكنهم. وبعد الفراغ من هذا الطقس سقتلون الحيوان بليّ رقبته. وهم يقدمون القرابين للشمس والقمر فقط وليس لأي إله آخر. وهذه العبادة يشترك فيها الليبيون جميعاً. أما المقيمون منهم حول بحيرة تريتونس فإنهم بالإضافة للشمس والقمر يعبدون الإلهة تريتون والإله بوزايدن والإلهة أثينا بشكل خاص». وقد أيدت المصادر المختلفة عبادة الليبيين للشمس فقد وجدت في سيوة نافورة مكرسة للشمس كما أن ابن خلدون ذكر أن البربر بصفة عامة كانوا في الزمن القديم يعبدون الشمس. بينما ذكر آخرون أن الليبيين كانوا يعبدون الشمس الغاربة باسم هامون «Hammon»⁷⁷. والأسم الوحيد المعروف لإله الشمس الليبي هو جرزل «Gurzil». وهذا الاسم هو ما حفظه لنا كوريبوس⁷⁸. وهذا الإله يظهر محبوباً للغاية بين رجال القبائل فكاهنه «بيرنا Ierna» يحارب ببسالة في المعارك كما أن الليبيين يحملون رمزه في وطيس المعركة. وهم يعتبرونه من نسل إله النبوءات في واحة سيوة. وكان هذا الأخير عبارة عن كبش ذي قرون وقد عرف فيما بعد بارتباطه الوثيق بالإله آمون طيبة المصري لأسباب سببها فيما بعد. وكان شكل جرزل شكل الثور ولعل تمثيل إله الشمس على هذا النحو نابع من قوة الشمس وروعها ومزج هاتين الصفتين بقوة الثور وجماله. ويقابل هذه الظاهرة لدى الليبيين ظاهرة التقديس الذي كان

76- Herodotus, iv, p. 305. He has already excepted the Atarantes of the West, by Saying that they cursed the sun for its wasting heat (iv. P. 304).

77- Macrobius, Saturnalia, i. 21.

78- Corippos, Johannis, ii – 109, 405, iv. 665, 683, 1139, iv. 116, vii 304, 619.

يضيفه أهل هليوبولس في مصر على إله الشمس «الثور المقدس». ولقد وجدت على قاعدة مصباح روماني من القرن الميلادي الأول صورة رأس يظهر أنه رأس جرزل. كما وجد في القنصرية رأس منحوت نحاً غير متقن يجمع بين صفات آمون وجرزل. ذلك أن له قرني الثور المقدس وقرني الكبش المقدس في آن واحد. ولا بد أن عبادة جرزل امتدت زمناً طويلاً في ليبيا فنحن نجد البكري يكتب في القرن الحادي عشر الميلادي أن قبائل متعددة في منطقة طرابلس من بينها قبيلة هواره كانت تقدم الصلوات لصنم من الحجر أقيم على رابية وكان اسمه «كرزا» وذلك من أجل حماية قطعانها. وموضع هذا الصنم والغرض من الصلاة والتقارب في الاسم، تشير جميعاً إلى أن المقصود بهذا الصنم هو جرزل.

نستنتج مما سبق أن أصل جرزل. إله الشمس. ينبع من تشخيص الظواهر الطبيعية وعبادتها منذ أقدم العصور وهو بذلك يشبه الإله الإغريقي هيلوس «Helius». أما ظهوره في الحروب فرما كان يرجع إلى اعتبار أتباعه له حامياً لهم ومبدياً للظلام عنهم. وهم عندما كانوا يدعون لحماية قطعانهم فإنما كانوا يدعون باعتباره رب الثيران. وهو على ذلك الاعتبار لا يمكن إلا أن يكون بطبيعته حامياً لقطعانها.

7- إله القمر: هذا هو الإله الوحيد الذي عبده الليبيون إلى جانبه إله الشمس حسبما ذكر هيرودوتس⁷⁹. وفي الحديث عن عبادة القمر في شمال أفريقيا نشير إلى ما سبق ذكره من أن لحم الخنزير كان محرماً في الشمال الإفريقي حسبما رواه هيرودوتس⁸⁰ من أن أحداً من الليبيين لم يكن يربي الخنازير. وأن نساء برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر على أنفسهن بل حرمن لحم الخنزير كذلك. ونذكر بهذا الصدد أسطورتين ليبيتين قديمتين لما لهما من دلالة خاصة: الأولى تقول إن الناسامونيين الذين كانوا يعتبرون العقيق حجراً سماوي الأصل كانوا يخرجون للبحث عنه عندما يكون القمر بداراً. والثانية تقول إن الملح في سيوة كان يزداد أو ينقص تبعاً لزيادة القمر أو نقصانه

79- Herodotus iv, p. 305.

80- Ibid. 304.

- ولعل موقف المصريين القدماء من الخنزير يصلح لإلقاء بعض الضوء على موقف الليبيين القدماء منه: فقد كان المصريون يحرمون لحم الخنزير تحريمًا قاطعاً ويعتبرونه نجسًا. فإذا حدث أن لمس أحدهم فقد كان عليه أن يسارع إلى نهر النيل ليغطس فيه بملابسه الكاملة تطهيراً لنفسه. وبالرغم من ذلك فإنهم كانوا يقدمون الخنزير قرباناً لإله القمر عندما يكون القمر بدرًا. وكان يتحتم على مقدم قربان أن يأكل من لحم الخنزير في هذه المناسبة وإن كان محرماً عليه حتى أن يذوقه في الأحوال الأخرى. وربما كان للتحريم الليبي للحم الخنزير طابعاً ماثلاً.

8- الإله زيوس أمون. إله النبوءات:

يقدر بعض المؤرخين أن واحة سيوة ظلت ليبية حتى احتلها المصريون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وعندما احتلوها وجدوا أن سكانها الليبيين كانوا يعبدون إلهاً مشهوراً لهم فأسماه المصريون زيوس أمونباسم رئيس الآلهة المصرية «أمون طيبة». والأساطير التي تدور حول أصل الإله الليبي تقول إنه كان راعياً وأنه أهدى عدداً كبيراً من المواشي للإله ديونيسوس «Dionysus» فكافأه الأخير بأن أعطاه أرضاً في طيبة ورفعته إلى مرتبة الآلهة. وتقول أسطورة أخرى إن ديونيسوس أو هراكليس «Heracles» كان يعبر الصحراء الليبية في طريقه إلى الهند فاشتد به العطش ما دعاه إلى الاستغاثة بأبيه الإله زيوس فأرسل إليه كبشاً. هو كبش أمون المقدس - دله على نبع ماء. وفي أسطورة ثالثة أن بعض الرعاة وجدوا في المنطقة بين قرطاجة وقورينة طفلاً جالساً على الرمل وهو يضع على رأسه قرني كبش ويتفوه بالنبوءات - وعندما رفعوه عن الرمل توقف عن الكلام. فلما أعادوه إليه استأنف الكلام. وهكذا. ولما اختفى فجأة عرف الرعاة طبيعته الإلهية وبدأوا يعبدونه باسم الإله زيوس أمون. ويقول ديودوروس الصقلي⁸¹ إن أمون كان ملكاً ليبيا أسطورياً كما أن عدداً من الكتاب الكلاسيكيين يشيرون بوضوح إلى أصله الليبي.

81- Diodorus Siculus. iii, 68.

وهذه الأساطير إن دلت على شيء فإنها تدل على مدى التقارب الوثيق الذي حدث في الأذهان بين الإلهين: أمون سيوة الليبي وأمون طيبة المصري. وليس على الآثار المصرية ما يثبت أن الإلهين صاروا إلهاً واحداً في وقت من الأوقات. وصحيح أن موكباً يحمل رمز أمون طيبة كان يطوف أنحاء ليبيا مدة اثنتي عشر يوماً ولكن هذه العادة متأخرة وتتبع أصلاً من نفس مصدر الأساطير المذكورة آنفاً. وإذا نحن رجعنا لهيرودوتس فإننا نلمح في كتابته تمييزاً واضحاً بين هذين الإلهين: فهو دائماً يسنى الإله الليبي باسم زيوس أمون بينما يسمى الإله المصري أمون باسم زيوس طيبة. وهو يظن أن أتباع زيوس في سيوة سموا إلههم زيوس أمون تأثراً بالتقليد المصري في تسمية إله طيبة زيوس أمون. ويؤيد هذا الفرق الذي أوضحه هيرودوتس أن قمبري الثالث الفارسي أرسل حملة ضد زيوس أمون الليبي وأتباعه في سيوة لمحقه واسترقاق أتباعه بينما لم يتعرض أبداً للإله أمون المصري في طيبة. وهذا التمييز في المعاملة له مغزاه في الدلالة على أن زيوس أمون الليبي في سيوة كان غير زيوس أمون في طيبة بمصر. وإذا صح افتراض المؤرخين أن سيوة لم تتبع لمصر إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد فإن من المشكوك فيه أن يصبح إله جديد قدم إلى سيوة مع الفاتحين ذا شهرة عظيمة واسعة مثل الشهرة التي كان يتمتع بها الإله زيوس أمون الليبي.

وهذا الإله كان إله نبوءات في الدرجة الأولى فلقد أحرز موحاه في سيوة شهرة عظيمة إلى حد أن أهالي أثينا كانوا يبعثون إليه بأسئلتهم. كما أقيمت له معابد في قورينة وفي أماكن متفرقة من بلاد اليونان ذاتها. ونحن ما زلنا نذكر الرحلة التي قام بها الاسكندر الكبير لمعبد هذا الإله في سيوة⁸².

وعلى هذا فإن أمون الليبي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن أمون المصري: فقد كان الأول إله نبوءات في المرتبة الأولى بينما كان الآخر إله زراعة وحصاد قبل أن يصبح رئيساً للآلهة المصرية باسم أمون رع. حامى الحمى وماتح

82- انظر قصة إنشء موحى أمون في سيوة وشهرة هذا الموحى ص 661 - 662 و 664 - 665 الملحق «ب».

البركات. وهو وإن كان له موحى إلا أنه لم يبلغ من الشهرة كإله نبوءات ما بلغه آمون سيوة: وما دام أن وظائفهما كانت متغايرة فإن أصليهما كانا متغايرين دون ريب. وفي الحديث عن هيئة الإله الليبي يقول أوريك بيتس⁸³: «من المهم أن نلاحظ حالياً أن هذا الإله لم يكن مشخصاً في أعين أتباعه تشخيصاً بشرياً ولا حيوانياً».

وكانت أجوبة آمون الليبي تنقل للمستفسرين بطريقة مشابهة للطريقة التي كان الليبيون يتبعونها عند الاستعانة بأسلافهم على استطلاع المستقبل أي بالأحلام التي كانت تعتبر وحياً. وكانت طريقة الاستشارة في سيوة تتم بحمل رمز الإله في موكب يطوف به حدائق النخيل المجاورة لمعبده. وفي هذا الموكب كان ثمانون من كهنة هذا الإله يحملون على أكتافهم مركباً ذا ثلاثة صوارٍ - وهو طقس يظهر فيه تأثير الإله المصري آمون رع - وعليه المعبد الذهبي الخاص بهذا الإله. وكان ذلك المركب يحلى بصحاف فضية تتدلى من حافة المركب العليا بينما كان تمثال الإله ذاته يحلى بالحجارة الكريمة. وكان يسير خلف حملة المركب موكب طويل من العذاري والعقائل وهن يرتلن «ترانيم غريبة باللغة الليبية» من أجل كسب رضا الإله وإقناعه بإعطاء مستشيره جواباً مرضياً. وكان الموكب يسير في الاتجاه الذي يبدي هذا الإله رغبته فيه. وبعد انتهاء هذا الاحتفال كان آمون سيوة يعطي جوابه بالإشارة على الأسئلة المطروحة عليه. وفي العصر الكلاسيكي كان أحد كهنته يفسر تلك الإشارات. وكان ذلك الكاهن حراً في صوغ تلك الأجوبة شعرت على طريقة أرقى المواحي الإغريقية. وكان الرجال والنساء من أتباع هذا الإله يقومون بخدمته وعبادته فكانت النساء تشارك في مواكبه إلى جانب الرجال. وقد ذكر هيرودوتس في قصته القائلة إن أصل إله سيوة من طيبة بمصر - يلاحظ أن القصة ذاتها من طيبة أيضاً - أن موحى هذا الأله في سيوة إنما أسسته امرأة⁸⁴.

ويقول أوريك بيتس⁸⁵ إن الحيوان المقدس لهذا الإله الليبي كان كبشاً. وهذه حقيقة تلقفها المصريون بنهم لدى استيلائهم على سيوة لأن الحيوان المقدس لإلههم آمون طيبة كان الكبش أيضاً. توافق يؤدي إلى تعزيز الروابط بين الإلهين.

وقد يشك المرء في أن تقديس أتباع آمون الليبي للكبش المقدس لدى المصريين إنما جاء نتيجة للأساليب والمؤثرات المصرية ولكن البيانات المتوافرة بهذا الصدد تؤدي إلى استنتاج أن الكبش من الحيوانات المقدسة البارزة لدى الليبيين: أي إن تقديس الليبيين لهذا الحيوان إنما هو ناتج عن دوافع أصيلة لا علاقة لها بتقديس المصريين للحيوان ذاته. أما كيف ارتبط تقديس هذا الحيوان بآمون سيوة فهي مسألة تسترعي النظر ويصعب تفسيرها. وإن كان من المرجح أن النظرة السائدة بخصوص آمون سيوة هي أنه يمثل فقط مرحلة في عبادة الكبش الإله. وما يؤيد وجهة النظر هذه أن عبادة الكبش لم تكن شائعة في ليبيا فقط وإنما في جميع الشمال الإفريقي.

والمعروف أن الكبش البربري وجد في ليبيا منذ القدم وأن قوته وسرعته واستحالة الوصول إلى أماكن جواله في المناطق الجبلية التي كان يتعشقها جعلت منه في نظر العقول البدائية حيواناً جديراً بالإعجاب والتقديس.

ويجوز لنا أن نقول إن عبادة آمون سيوة ظلت محلية حتى اقترن هذا الإله في ذهن الناس بآمون طيبة المصري. وأتذكر شاعته وعبادته وانتشرت على نطاق واسع في ليبيا. ومما يدل على شيوعها على ذلك النحو كثرة الأماكن الليبية المسماة باسم هذا الإله فهناك معبد آمون في أوجلة. وتل آمون جنوبي بنغازي. ومحطة آمون على ساحل خليج سرت الكبير. ومحطة آمون قرب القوس الرخامي عند نصب الأخوين فيليني «Philaenorum Arae». ويقول أوريك بيتس⁸⁶ إن أهم تطور أجنبي طرأ على الإله الليبي - المصري آمون هو تبني قرطاجة له تحت اسم «بعل حامون» (Ball Hammon).

85- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 195.

86- Ibid. pp. 198 - 199.

83- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 193.

84- Herodotus, ii, pp. 124 - 125.

ويلاحظ بهذا الصدد أن عدم تسمية القرطاجيين لأبنائهم بأسماء مسندة لهذا الإله كان ناجماً عن أن هذا الإله احتفظ لديهم بطبيعته الليبية كإله للأموات ما جعلهم يتشائمون من تسمية أبنائهم باسم يتصل بالموت. ويتجنبون بالتالي تسميتهم على ذلك النحو. ولقد وجد أن ثلاثة أرباع الألواح التي عثر على آلاف منها في قرطاجة كانت مكرّسة للإله «بعل حامون» والإلهة تانيت «Tanit»؛ وهذا أمر مستغرب لأن المفروض الخالصة من أمثال بعليم وعشتار وإشمون وملكارث.

ولقد كان «بعل حامون» بالفعل شكلاً قرطاجياً من أشكاله الإله الليبي - المصري آمون. يدل على ذلك شكله الذي يظهر أحياناً على هيئة الكبش المقدس أو على هيئة التماثيل التي وجدت له في المقابر البونيقية والتي تظهره وهو يلبس قرني الكبش. وفي حالة واحدة فقط من هذه الحالات لم يكن يلبس القرنين ولكنه كان يحمل على ساعده الأيسر كبشاً قائماً. ويذكر بهذا الصدد أن مقدمات السفن القرطاجية كثيراً ما كانت تأخذ شكل إله رأسه رأس كبش. ويذكر سيليوس الإيطالي⁸⁷ في وصفه لمعركة بحرية بين القرطاجيين وأعدائهم أن قبطان إحدى السفن القرطاجية عندما رأى سفينته قد خرقت انتضى سكينته وطعن نفسه بها وقدم دمه قريناً بسكبه بين قرني الكبش المقدس على مقدم سفينته. وفي المواقع الفينيقية في جزيرة سردينيا من مثل مستوطنة تَرَس «Tharrus» وجدت عدة تماثيل لرؤوس أكباش على الطراز المصري مستوردة عن طريق القرطاجيين ما ثبت أن «بعل حامون» القرطاجي إنما هو آمون الليبي - المصري. ولا يعرف إلى متى استمرت إفريقية القرطاجية تعبد هذا الإله وإن كان يعتقد أن عبادته تلاشت إثر انتشار المسيحية في المنطقة.

وفي ليبيا ذاتها طرأ تطور جديد على طبيعة هذا الإله؛ ذلك أن اتساع رقعة البلاد وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها وصعوبة معرفة المسالك بين واحة وأخرى من واحاتها كانت جميعاً تستدعي وجود إله مواصلات يكون رقيقاً ودليلاً إلهياً للمسافرين. ولقد سبقت الإشارة إلى أسطورة

87- Silius Italicus, De Bello Punico, XIV. 452 Sq.

تلقي بعض الضوء على هذا التطور في طبيعة هذا الإله وهي الأسطورة المتعلقة بسفر ديونيسوس (أو هراكليس) عبر الصحراء الليبية إلى الهند واشتداد الظمأ به ثم استغاثته بأبيه الإله زيوس - آمون الذي أغاثه بكبش حفر بقائمتيه الأماميتين حتى استخرج الماء. وهنالك أسطورة أخرى تشير إلى الإرشاد الإلهي وتعلق برحلة الاسكندر المقدوني إلى سيوة. فقد وجد الاسكندر نفسه وجيشه. بعد أيام من مغادرتهم الساحل. وسط متاهة يستحيل عليهم الخروج منها. ولم يلبث ماؤهم أن نفذ وكادوا يهلكون لولا أن تدخلت عناية آمون الربانية فجعلت السماء تمطر عليهم ما يبل ظمأهم ثم وجهت خطاهم حتى وصلوا سيوة وعادوا منها. وكان دليلهم في الخالتين زوج من الغربان وقيل من الأفاعي.

وفي تاريخ سيوة الذي ألفه شخص مجهول باللغة العربية قصة لها مغزاها بالنسبة لهذا الموضوع خلاصتها أن أحد حكام مصر قضى ببعض العقوبات على بعض أتباعه فهربوا من وجه العقاب إلى الصحراء وليس معهم إلا زاد قليل لم يلبث إلا قليلاً حتى نفذ. وأذاك رأوا كبشاً يركض مبتعداً بين التلال فساروا في أثره حتى وصلوا إلى مدينة مأهولة خف بها البساتين والأشجار وجري من تحتها الأنهار. وكان أهلها لا يدفعون أية ضرائب. وعندما سألهم القادمون عن البلد الذي ينتمون إليه أجابوا بأنهم لا علاقة لهم البتة بالعالم الخارجي. وعاش هؤلاء الغرباء فترة طويلة في تلك المدينة ثم عادوا لمصر. وحاولوا بعد ذلك أن يجدوا تلك المدينة الواحة ثانية دون جدوى. ولعل هذه القصة التي يظهر الكبش فيها دليلاً للمسافرين إنما هي واحدة من عدة قصص مشابهة لا بد أنها كانت متعددة في وقت قديم؛ وهي تدل على مدى عناية آمون الليبي. إله التنبؤات في سيوة. بالمسافرين في الصحراء.

9- إله السماء Deus Coelestis

أثبت أحد البحاث الفرنسيين⁸⁸ وجود إله للسماء بين الليبيين القدماء. ولكنه كان إلهاً ذا طبيعة غامضة عامة. وأقدم مفهوم لليبيين عن السماء.

88- Toutain, J., De Saturni Dei in Africa Romana Cultus بعنوان

وهو مفهوم استمر سائداً حتى بداية القرن السابع قبل الميلاد. هو أن السماء. في نظرهم. كانت عبارة عن سطح صلب معلق فوق الجو الأرضي. وقد أشار هيرودوتس إلى هذه الفكرة في سرده لقصة مساعدة الليبيين للإغريق في القدوم إلى موقع قورينة من أزيوس عندما قال إن الليبيين مدحوا ذلك الموقع للإغريق بقولهم «إن سماء مثقوبة»⁸⁹ أي غالباً ما تمطر. ولكن المؤسف حقاً أنه لم توجد تفاصيل عن هذا الإله. ولعل أحسن ما يدل على طبيعته هو دراسة الإله زحل الذي شاعت عبادته في الشمال الإفريقي خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد. فقد وجدت على الألواح الخاصة بزحل رموز للظواهر السماوية مثل قرص الشمس والنجوم والهلال. وكان أبرز ما تتميز به طبيعته أنه كان أباً للسماوات وإلهاً للطقس ولا بد أن إله السماء الليبي القديم كان يشبه زحل في طبيعته العامة من مثل حماية الزراعة والقطعان. ولا بد كذلك أن أتباعه من قدماء الليبيين كانوا يقدمون له بواكير الفواكه من أعناب وتمر. ثم زيت الزيتون والنبيد وأكواز الصنوبر. ثم الثيران والنعاج والبقر. وكان الليبيون يعتقدون أن إله السماء هذا. وإن كان علياً عالمياً لا يموت. كان يموت موتاً مؤقتاً في فصل الخريف ويحتفلون بانبعائه في الربيع: ولعل عادة أكل الثوم خلال أسبوع كامل من شهر أكتوبر - تشرين الأول في سبوة ترجع إلى أصل قديم ناشيء عن الصيام حداداً على الموت المؤقت لهذا الإله.

10- إلهة السماء «Dea Coelestis»:

كانت هذه الإلهة شريكة لإله السماء ومثابته له في طبيعته. وقد التبس أمرها في أيام القرطاجيين بالإلهة القرطاجية تانيت. أما في العصر الروماني فقد عرفت باسم إلهة الأغذية «Dea Nutrix»

11- إلهة الأوزين:

عبد الأوزين الليبيون حول بحيرة تريتونس إلهة أسماها هيرودوتس وغيره أثينا. وقد كان لها معبد عند الأوزين. ووصفها هيرودوتس كما يلي:

89- Herodotus, iv. P. 295.

«تقيم عذاري الأوزين احتفالاً سنوياً تكريماً للإلهة أثينا فيقفن في صفين متقابلين ويتراشقن بالحجارة والهرارات. ومن يقلن إن هذه العادة العادة طقس موروث وإنهن يكرمن به إلهتهن التي هي نفس الإلهة الإغريقية أثينا. وإذا ماتت إحداهن بسبب ما يصيبها من جروح فإن الأوزين كانوا يعتبرون أنها لم تكن عذراء حقيقية. وكان يسبق بدء ذلك الاحتفال طقس آخر هو اختيار أجمل واحدة بين العذاري المشتركات في الحفل. ومتى تم اختيارها فإنها كانت تلبس بحضور الجمهور خوذة كورنثية وبزة عسكرية إغريقية ثم تمتطي عربة حربية يقودونها بها في موكب يدور حول البحيرة. ويقول الأوزيون إن أثينا هي ابنة الإله بوزايدن. إله بحيرة تريتونس. ويقولون إنها تشاجرت مع أبيها واستغاثت بالأله زيوس فوافق على أن يعتبرها ابنة له فصارت كذلك»⁹⁰.

ويعلق أوريك بيتس⁹¹ على رواية هيرودوتس هذه ثم يستخلص منها

النتائج التالية:

1- إن كون هذه الإلهة من نسل بوزايدن وتريتونس يمكن أن يعني أنها كانت إلهة بحر. إلا ارتباطها بزيوس لا يؤيد هذه النتيجة. وإن فإن التفسير الوحيد لطبيعتها هو أن نقول إنها لم تكن طبيعة محددة واضحة المعالم. ولذلك فإن من المنطقي أن نلحقها إما بإله السماء أو بإله البحر.

2- تشير الحفلة السنوية لهذه الإلهة إلى أنها كإله السماء كانت على

علاقة بفصول السنة.

3- مراسم تسليح العذراء: إن اختيار أجمل العذاري وتسليحها على

الطريقة الإغريقية الممتازة أمر له مغزاه. فقد كانت هذه العذراء المسلحة.

المتطية عربة حربية بمناسبة الاحتفال. إنما تمثل الإلهة المحتفل بها والتي لا

بد أنها كانت ذات صبغة حربية.

90- قارن أيضاً برواية هيرودوتس هذه رواية ميلا (7- Mela I) الذي لا يضيف جديداً لما ذكره هيرودوتس سوى قوله إن هذا الاحتفال السنوي كان يقام يوم عيد ميلاد الإلهة. Herodotus iv, p, 302

91- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited. St. Martin s St., London, 1914, p. 204.

4- الموكب: كانت الإلهة، مثله في شخص العذراء المذكورة، تدور حول بحيرة ترتيونس ومن خلفها موكب المحتفلين، وكانت الغاية من هذا الطقس استنزال بركات الإلهة على البلاد، وكانت مسيرة الموكب تختتم بالمبارزة التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت بدلاً لتقديم القوانين.

5- المبارزة: هي المناورة الحربية التي كان الاحتفال يختتم بها، وهي في الواقع ذات دلالة كبيرة على طبيعة هذه الإلهة. ونحن نلاحظ أن العذارى فقط كان يسمح لهن بالاشتراك في الحفل. ومن ماتت منهن نتيجة لما أصابها من جروح أثناء هذه المناورة كان يفترض أنها إنما تلقت ما تستحقه من عقاب لمشاركتها في الاحتفال وهي تعلم أنها كانت فاقدة لعذريتها وأنه لا يجوز لغير العذارى أن يشاركن فيه، ونحن نلاحظ في هذه النظرة اهتماماً كبيراً بالعذرية مما يدل على أن طبيعة هذه الإلهة كان فيها جانب قوي من العذرية. وليس صعباً أن ندرك مغزى المبارزة ذاتها. فمن الواضح أنها كانت أشبه بصلاة استسقاء وأنها كانت تمثيلاً للكفاح بين الجفاف والمطر. ومثل هذه الظاهرة بين الشعوب البدائية تفضي بنا إلى القول إنها كانت عند الأوزيين تهدف إلى إبعاد الشر واستجلاب الخير والبركة لأرض القبيلة، ولذلك فقد كان الاحتفال يختتم بها بقصد تأمين سقوط كميات وافرة من المطر في فصل الشتاء التالي.

كل ذلك يرجح الظن أن هذه الإلهة لا تمثل إلا مرحلة محلية من مراحل عبادة إلهة السماء التي سبق أن ذكرنا أنها شريكة لإله السماء. وعند هذا الحد نلمح ارتباطاً محتملاً بين كل من إلهة الأوزيين المرسله للمطر وإلهة السماء الليبية بشكل عام وبين إلهة الدلتا الغربية في مصر وهي نيث «Neith» إلهة مدين سبيس «Sais» التي ألقها عدد من الكتاب الحديثين بأثينا الأوزية. وقد عرفت عبادة نيث في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات ووصف على تمثال محفوظ في الفاتيكان بأنها «أم الشمس» وبأنها «بدأت تنجب قبل أن تولد». وقد ذكر بلوتارك أن معبد هذه الإلهة في سبيس يحمل نقشاً ترجمته كما يلي: «أنا كل ما وجد وكل ما هو موجود وكل ما سيوجد. ولم يكشف أحد طرف رداي».

ويؤكد المصريون وجود النص السابق ذاته منقوشاً على مدخل معبدها ويضيفون إلى ما ذكره بلوتارك «والثمرة التي جئت بها هي الشمس» مما تقدم يظهر أن نيث كانت أمّاً عظيمة للطبيعة تتصف بالعذرية. وهذه الصفة هي التي حملت الإغريق على اعتبارها أثينا.

وفيما يلي بيان بأوجه الشبه بين الإلهة نيث والإلهة الأوزية أثينا وهما اللتان أسمى هيرودوتس كلاهما باسم أثينا:

أثينا مدينة سبيس المصرية (نيث)	أثينا الأوزيين الليبيين
1- إلهة السماء	إلهة السماء
2- الأم العذراء	عذريتها أكيدة ومهمة
3- إلهة النباتات	باعثة المطر
4- لها صبغة حربية محلية	تمثلها في حفلها عذراء مسلحة ويختتم الحفل بمناورة حربية
5- شكلها شكل بقرة	لحم البقر محرم في ليبيا

ولقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين نظرية مفادها أن الإلهة نيث كانت إلهة ليبية لليبيين الذين كانوا يعيشون في مصر في عصر ما قبل الأسرات ثم اضطرت كما اضطروا هم أنفسهم إلى الرحيل إلى الشمال الغربي من مصر حيث استقرت واستقروا. والنظرية تتسم بالذكاء والمنطق ولكن لم يكتشف حتى الآن ما يؤيدها من الآثار. ومن المحتمل أن يكون هنالك نوع من الارتباط بين الإلهتين نظراً لظهور رمز الإلهة المصرية () وشماً على أجسام الأسرى الليبيين دون سواهم في نقوش موقع سبيس الجغرافي في الدلتا الغربية.

من الديانة الليبية القديمة دخلت. على الأرجح. الديانة المصرية القديمة وإن كنا لا نستطيع أن نبينها في الوقت الحاضر نظراً لقلّة المعلومات المتوافرة بالنسبة لليبيين القدماء بشكل عام».

الطابع العام للديانة الليبية القديمة

ما تقدم يتضح لنا أن الليبيين الذين بلغوا في الدين مرحلة تشخيص الآلهة كبشر ظلوا يتعلقون بقوة في عدد كبير من الأفكار الخاصة بألوهية الحيوانات. ويظهر أن الديانة الليبية كانت إيقونية جزئياً وأنها كانت تتصف بالتنوع وبالميزات المحلية الكثيرة كما أنها كانت تخضع إجمالاً لأفكار قليلة بسيطة وشائعة في جميع الشمال الإفريقي. ولهذا فإنها جمعت بين السحر وعبادة عدد من آلهة طبيعتهم واضحة محددة وآخرين لم تعرف طبيعتهم إلا بشكل عام كإله السماء مثلاً. ولا شك أن الليبيين القدماء كانوا يتحلون بفهم عميق لوجود حياة أخرى بعد الموت.

ويبدو من طبيعة هذه الديانة أنها كانت من إبداع عنصر متفائل بالنسبة لهذه الحياة وللحياة الأخرى. ويعكس ما عليه الحال في أغلب الديانات الإفريقية القديمة. وإذا استثنينا أسط العقائد فليس لدينا من البينات ما يبرر القول إن الديانة الليبية القديمة كانت ديانة عقائدية. فقد كانت بإيجاز ديانة بربرية. نصف متطورة. ونابعة مباشرة من الاعتقاد بوجود أرواح في كل مكان ظواهر الطبيعة.

وإذا نحن فتشنا عمّا يناظر هذه الديانة في الديانات القديمة المعروفة الأخرى فإننا نجد التشابه أكثر ما يكون بينها وبين الديانة المصرية. ففي مصر ارتبطت الشمس بالثور كما هي الحال في ليبيا. وتطور الاعتقاد بوجود حياة أخرى إلى حد كبير. واعتبر الكبش. كما هي الحال في بقية الشمال الإفريقي. حيواناً مقدساً. ولقد وجدنا تشابهاً كبيراً بين الإلهة المصرية نيت. إلهة مدينة سيس. ونظيرتها الليبية أثينا الأوزية. ويقول أوريك بيتس⁹²: « إن أوجه الشبه الكثيرة بين الديانتين توضح أن العلاقة بينهما كانت أقوى بكثير مما كانت عليه مثلاً بين الديانة الليبية والديانات السامية القديمة. وكما ان عنصراً ليبيا معيناً اندمج في اللغة المصرية القديمة فإن عناصر مماثلة

92- Ibid., p. 207

الفصل الرابع

- 1- برقة في الشهداء الإغريقي والبطلمي
- 2- طرابلس بين القينقيين والرومان
- 3- فزان منذ الجرامنتيين حتى بداية العصر الروماني

برقة في العهدين الاغريقي والبطلمي

(631 - 96 ق. م.)

كلمة لا بد منها:

سبق أن اشرنا إلى ليبيا في عصر ما قبل التاريخ كانت تنقسم إلى منطقتين حضاريتين أولهما غربية هي منطقة طرابلس وكانت واقعة تحت تأثير الحضارتين المجاورتين لها من الغرب: حضارة قفصه في تونس وحضارة وهران على طول الساحل من خليج قابس بتونس حتى نهاية ساحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي. وثانيتهما شرقية هي منطقة برقة وكانت واقعة تحت تأثير الحضارة المصرية ومن ورائها تأثير الحضارة الآسيوية. وأشرنا في موضع آخر إلى أن اتساع رقعة الأرض الليبية، وطبيعتها الصحراوية، وصعوبة مواصلاتها، وقلة كثافة سكانها، وعدم اتحاد قبائلها أدت جميعا إلى ضعف البلاد، وإلى عدم قيام سلطة مركزية قوية فيها مما أتاح للغزاة التغلب عليها دائما بسهولة. وسنحتاج إلى الإشارة لهذا الوضع بين الحين والآخر في الفصول القادمة لتفسير مواقف متعددة استطاعت قوى خارجية تتفاوت قوة وضعفاً أن تغلب فيها على الديار الليبية بعضها أو كلها دون عناء كبير.

من هذا القبيل ما تم للإغريق حينما استوطنوا ساحل برقة وللفينيقيين حينما أقاموا لهم وجودا على ساحل طرابلس. ولقد تركت هذه القسمة المبكرة أثرها على البلاد حتى سنوات قليلة مضت: فقد راحت منطقة برقة تتطور حضاريا تحت تأثير الحضارة الإغريقية المزدهرة على ساحلها. بينما تأثرت منطقة طرابلس بالحضارة الفينيقية ذات الطابع التجاري عن طريق المراكز التجارية الفينيقية القائمة على الساحل الطرابلسي. وبقيت الأقسام الداخلية من البلاد حتى العهد الروماني بعيدة نسبيا عن المؤثرات الحضارية، ومتمتعة معظم الوقت بما يشبه الاستقلال الفعلي مما جعل تاريخها يتميز بالطابع البدوي القبلي. وحتى في العهد الروماني بشقيه الغربي والشرقي

أو البيزنطي ظلت هذه القسمة قائمة عملياً وأن كانت غير قائمة رسمياً بحكم تبعية المنطقتين لسلطة واحدة. وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية لم تلبث منطقة طرابلس حتى خضعت للوندال بينما ظلت منطقة برقة تابعة للإمبراطورية البيزنطية. وحتى خلال عصر الأباطرة الرومانيين الأول نجد أن عنصراً جديداً قد طرأ على الصورة وهو نشوء مركزي قوة كبيرين مجاورين لليبيا: الأول في الغرب في ولاية إفريقية الرومانية الجديدة التي حلت محل قرطاجة الفينيقية في تونس والآخر في الإسكندرية بمصر. وكان هذان الرومانيان يحرضان على إنعقاد نفوذهما على ليبيا. الأول على منطقة طرابلس والثاني على منطقة برقة. والذي كان يحدث نتيجة لهذا التنافس هو زيادة اتضاح القسمة السابقة للبلاد. وحتى في العهد الإسلامي نجد أن هذه الصورة الأساسية لم تتغير كثيراً فقد أصبحت مدينة القيروان مركز القوة الإسلامية في ولاية إفريقية غربي ليبيا بينما أصبحت الفسطاط ومن بعدها القاهرة مركز القوة الإسلامية في مصر إلى الشرق من ليبيا. واستمرت ليبيا منطقة تنازع نفوذ بين هذين المركزين الإسلاميين. فوالى الفسطاط أو القاهرة يحاول دائماً أن يبسط نفوذه على برقة ويتولى تعيين ولايتها بينما يحاول والى القيروان أبداً أن يبسط نفوذه على منطقة طرابلس ويتولى تعيين ولايتها. وقد ينجح أحد المركزين في بسط نفوذه على ليبيا بأسرها إلى حين. إلا أن الغالب هو أن تكون برقة تابعة لوالى مصر بينما تكون طرابلس تابعة لوالى إفريقية وتبقى الدواخل مستقلة فعلياً بشؤونها وان كانت تتبع رسمياً للسلطة المركزية وهي الخلافة.

ونحن اذا أمعنا في تتبع هذه الصورة الانقسامية سنجد أنها ترافق تاريخ ليبيا في العهد العثماني وأثناء الاحتلال الإيطالي وخلال عهد الإدارة الخليفة وحتى في عهد الاستقلال وقيام المملكة الليبية المتحدة بولايتها الثلاث: برقة وطرابلس وقران. ولم تختف هذه الصورة الانقسامية إلا بعد إلغاء الدستور الإخادي وإعلان وحدة البلاد وفقاً لدستور أبريل- نيسان 1963 مما أنهى رسمياً عهد انقسام طويل أسهم في عرقلة نهضة البلاد طيلة تاريخها الماضي. والمأمول أن تعمل الجمهورية العربية الليبية الفتية. التي

أقامها الجيش بعد ثورته البيضاء صباح اليوم الأول من سبتمبر-أيلول 1969. على تحقيق الوحدة الوطنية عملياً بربط أجزاء البلاد بشبكة حديثة من المواصلات المختلفة. بتطوير المجتمع الليبي تطويراً عصبياً يخلصه من التركة الثقيلة التي خلفها له النظام القبلي القديم.

الإغريق في منطقة برقة

كانت بلاد اليونان. برها وجزرها. تخضع لحكومات مدنية كل منها مستقلة تماماً عن حكومات المدن الأخرى. وكانت حكومة مدينة أثينا. على البر اليوناني. وحكومة مدينة اسبارطة. على شبه جزيرة البلوبونيز. أشهر اثنتين من هذه الحكومات المدنية التي كانت علاقاتها ببعضها البعض علاقات عداء وحروب أكثر الوقت. ولما كانت بلاد اليونان جبلية. قليلة الموارد. فإنها كانت تشكو الفقر في معظم الأوقات. وكانت مشكلتها هذه تزداد حدة بتزايد عدد سكانها وبسبب قوانين الإرث التي كانت تعطي تركة الأب للابن الأكبر على حساب إخوته الآخرين فكان ينتج عن ذلك أن أعداداً كبيرة من الإخوة والأخوات كانوا يجدون أنفسهم فجأة ولا أمل لهم. وبالتالي لا مناص لهم من الهجرة إن أرادوا البقاء على قيد الحياة. فإذا أضفنا إلى هذه العوامل عامل حب المغامرة والجري وراء المجهول لدى الإغريق. ثم وعي كهنة المواحي. خاصة موحى دلفي. بالمشكلة وشدة إيمان الإغريق بتلك المواحي. أدركنا إن توسعهم خارج بلادهم كان واقعا لا محالة كفضية حتمية في تاريخهم. ولذلك فإن الدارس لتاريخهم يلاحظ أنهم بدأوا منذ القرن السابع قبل الميلاد يتوسعون ويقيمون المستوطنات على شواطئ آسيا الصغرى والبحر الأسود وعلى سواحل جنوب إيطاليا وفي صقلية وقبرص ثم مصر وليبيا¹.

1- تشير المصادر الكلاسيكية إلى أن برقة وبقية ليبيا عرفت عناصر قادمة من بلاد اليونان من سبقوا الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانت تلك العناصر تنتمي إلى كريت وثنسالي وشبه جزيرة البلوبونيز بالإضافة إلى عناصر أخرى قادمة من آسيا الصغرى (وربما كان هؤلاء هم الشرذنة أسلاف سكان جزيرة سردينيا الذين قدموا إليها أصلاً من آسيا الصغرى).

ويذكر الشاعر الإغريقي بندار أن عناصر من أهل طروادة (في آسيا الصغرى) قدمت إلى برقة هاربة من طروادة المدمرة في الوقت ذاته. انظر أيضاً:

Cyrenaican Expedition of the University, of Manchester 1952,

وكان الدين يلعب دورا كبيرا في حياة الإغريق القدماء شأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العالم. وكانوا يؤمنون إيمانا قويا بما تلقيه إليهم آلهتهم المختلفة على ألسنة كهنة مواحيها وخاصة موحى دلفي. موحى الإله أبولو ابن الإله زيوس؛ فلقد طالما ذهب الإغريق زرافات ووحداً إلى موحى أبولو في دلفي ليقدموا له القرابين. ويستشيروه في شؤونهم الخاصة والعامّة. و كان من الطبيعي أن يكون كهنة الآلهة المختلفة بما فيهم كاهنة موحى دلفي على وعي بمشكلات بلادهم. وبضرورة تشجيع مواطنيهم على الهجرة إلى الخارج. باعتبار الهجرة أفضل حل لتلك المشكلات. ولذلك فان هيرودتس يخبرنا أن فكرة هجرة الإغريق إلى ليبيا إنما نبعت أصلاً من موحى أبولو في دلفي. يقول هيرودتس نقلاً عن أهالي جزيرة ثيرا (= سنتوريون الحالية) الذين كانوا قد بعثوا وفداً منهم لاستشارة موحى دلفي في سبب انحباس المطر عن جزيرتهم: ذهب جرنوس (Grinnus) بن ايزانيوس (Aesanius) سليل ثيراس (Theras) وسيد جزيرة ثيرا إلى دلفي ليقدم قرباناً قوامه مائة ضحية نيابة عن أهالي الجزيرة. وكان بين الوفد الذي رافقه من أهالي الجزيرة شخص اسمه باتوس (Battus) ابن بولنستون (Polymnestus) من أسرة مينية. وقد استشار جرنوس أثناء إقامته في دلفي الإله أبولو في أمور عديدة. وتلقى من كاهنة الموحى جواباً لم تكن له علاقة ظاهرة بموضوعات الاستشارة. ويتلخص في وجوب قيام جرنوس بتأسيس مدينة في ليبيا. وعندما سمع جرنوس ذلك الجواب احتج بقوله: ولكن يا إلهي أبولو. أنا رجل طاعن في السن وضعيف إلى درجة لا تسمح لي بالبدء بمثل هذه الرحلة. أفلا تستطيع أن تكلف واحداً من هؤلاء الشباب بالقيام بتلك الرحلة بدلاً مني؟ قال هذا وهو يشير بأصبعه إلى باتوس. ولكن لم يطرأ أي جديد على الموقف في ذلك الحين. ورحل الوفد عن دلفي ونسوا ما نصح به الموحى ولم يتخذوا أي إجراء عملي بهذا الصدد لأنهم كانوا يجهلون موقع ليبيا. ولذلك فقد أحجموا عن إرسال جماعة من المستوطنين إلى مكان كانوا يجهلون حتى موقعه. ولم تسقط في جزيرتهم خلال السنوات السبع

Manchester University Press, 1956, Manchester, England, Edited by: Allan Rowe with contributions by Derek Buttle and John Gray.

التالية نقطة مطر واحدة وجفت جميع اشجار الجزيرة ما عدا واحدة. وفي هذا الظرف القاسي أرسل أهالي ثيرا إلى موحى دلفي يتشيرونه ثانية فكان الجواب تذكيراً لهم بوجوب إقامة المستوطنة التي تناسوا أمرها في ليبيا. ولما جاءهم هذا الجواب لم يبق لديهم غير أن ينفذوا الأمر فبعثوا إلى جزيرة كريت يستفسرون عما اذا كان أحد أبنائها أو أحد الغرباء من المقيمين بها قد سبق له ان زار ليبيا. وبينما كان وفدهم يتجول في كريت. وصلوا إلى بلدة اتانس ((Itanus)) حيث صادفوا تاجر أصبغة اسمه كوروبيس ((Corobius)) فأخبرهم أن عاصفة دافعت في إحدى سفرائه إلى جزيرة بلاتيا² ((platea)) القريبة من الساحل الليبي. واتفق الوفد مع كوروبيس هذا أن يعود معهم إلى جزيرتهم ثيرا مقابل مبلغ من المال دفعوه له. وبعد ذلك بقليل أبحرت من ثيرا جماعة استطلاعية تولى كوروبيس ارشادهم حتى وصلوا إلى بلاتيا. وهناك تركوا كوروبيس على شاطئها تركوا عنده مؤونة تكفيه لأشهر اتفقوا على عددها وكروا عائدين بسرعة إلى جزيرتهم ليزفوا إلى أهلها بشرى اكتشافهم للجزيرة. ولكنهم جاوزوا المدة التي كانوا قد اتفقوا عليها مع كوروبيس فبدأ الرجل يقاسي من قلة المؤونة حتى يسر له القدر سفينة من سفن جزيرة سامس كانت في طريقها إلى مصر بقيادة رجل اسمه كولاييس ((Colacus)) فحملتها الرياح إلى جزيرة بلاتيا. وبعد ان استمتع ملاحوها إلى قصة كوروبيس تركوا له مؤونة تكفيه سنة كاملة واستأنفوا رحلتهم إلى مصر التي كانوا يتعجلون الوصول إليها. ولكن الرياح الشرقية حالت دون وصولهم إلى مصر وساقطهم غرباً عبر أعمدة هرقل إلى ان اسعفهم حظ يفوق حظوظ البشر بالوصول إلى طرطسوس³ ((Taressus)) وهو مكان لم يكن قد استغل حتى ذلك الحين. وترتب على ذلك ان جمار سامس الذين كانوا في تلك السفينة ربحوا من الحمولة التي عادوا بها إلى بلادهم اكثر من أي تاجر اغريقي آخر نعرف اخباره الصحيحة باستثناء سوستراتس ((Sostratus)) ابن لودامس ((Laodamus)) من جزيرة ايجينا فهو تاجر

2- كانت تقوم في خليج ميا وتعرف باسم جزيرة خروف البحر «Seal Island»

3- إقليم في جنوب إسبانيا قرب نهر الوادي الكبير. وكان هذا الاسم يطلق على النهر نفسه وعلى مدينة في مصبه

لا يمكن ان يقارن به في الريح أي تاجر آخر..... وكانت المساعدة التي قدمها تجار سامس لكوروبيس أصل الروابط الودية الوثيقة بين جزيرة سامس من ناحية وقورينة وثيرا من الناحية الأخرى.

أما ابناء ثيرا الذين تركوا كوريبس على جزيرة بلاتيا بعد وصولهم إلى جزيرتهم ابلغوا اهلها انهم اقاموا مستوطنة على جزيرة قريبة من الشاطئ الليبي فتقرر ارسال جماعة اخرى لتنضم إلى المستوطنة على ان تكون تلك الجماعة مثلة لاقسام ثيرا السبعة وأن يقترح الاخوة فيما بينهم لتقرير من الذي سيذهب منهم. وان يتولى السلطة المطلقة على تلك الجماعة باتوس. وبعد ذلك ابحرت الجماعة في سفينتين من ذوات الخمسين مجدافا [وهما خملان مائتي رجل] إلى جزيرة بلاتيا....

وتتفق رواية أهل ثيرا وأهل قورينة على أن باتوس كان بلسانه عقدة منذ طفولته. وأن والده سمياه بذلك الاسم منذ ولادته. ولكنني شخصيا أرى انه لم يسم بذلك الاسم الا بعد ذهابه إلى ليبيا حيث تسمى باتوس حقيقيا لما كان قد افضى به موحى دلفي وبسبب المركز السامي الذي صار يشغله في ليبيا - ذلك ان كلمة ((باتوس)) تعني ((ملكاً)) في اللغة الليبية⁴ ويخيل إليّ أن كاهنة موحى دلفي انما أطلقت عليه ذلك الاسم الليبي عندما خاطبته بما اوحى به إليها الإله ابولو لانها كانت تعرف أنه سيصبح ملكا في ليبيا؛ ذلك ان باتوس عندما بلغ سن الرشد ذهب إلى موحى دلفي ليستشيريه بشأن ما كان عليه لسانه من لعنة فاجابه الموحى قائلا : اه يا باتوس ! انك من اجل صوتك جئت إلينا. ولكن الاله ابولو يبعث بك إلى ليبيا. مرتع القطعان. لتبني فيها مدينة. وهذا الخطاب باليونانية يعادل قول الاله : ((اه ! يا ايها الملك.....)) وكان جواب باتوس في هذه المناسبة ان شكاً أنه انما جاء يستشير الموحى في كيف يتخلص من لعنته فلقى عليه جوابا لا يناسب سؤاله وانما ينصحه بتأسيس مستوطنة في ليبيا⁵. وذلك مشروع

4- اسمه الأصلي أرسطو طاليس «Aristoteles» ولكنه صار يعرف باسم باتوس فيما بعد.

5- قيل إنه شفي من تلك العلة نتيجة لصدمة أصابته عندما وجد نفسه فجأة أمام أحد الأسود في ليبيا.

هو أعجز من ان يقوم به - فما الموارد التي كانت لديه ومن الذي كان يمكنه ان يقنعهم بمراقته؟ ولكن شكواه لم تجده نفعاً ولم يستطع ان يستخلص من الموحى أي جواب آخر بل ان الكاهنة كررت على مسامعه الجواب الأول. ولم ينتظر باتوس حتى تفرغ الكاهنة من إلقاء الجواب في المرة الثانية بل اسرع عائدا إلى ثيرا. ولكن حالته لم تتحسن بعد ذلك فقد ادبرت الدنيا عنه وعن غيره من أهل الجزيرة دون ان يتمكنوا من معرفة السبب. ولما أعادوا الكرة واستشاروا موحى دلفي من جديد اجابتهم الكاهنة بضمون جوابها الأول وان كان في كلمات جديدة اذ انها قالت انهم اذا انضموا إلى باتوس في تأسيس مستوطنة في ليبيا فان حظوظهم سوف تتحسن. وكانت هذه النصيحة كافية لحملهم على إرسال باتوس مع جماعة من المستوطنين في سفينتين من ذوات الخمسين مجدافا كما سبق. وبعد ان وصلوا الشاطئ الليبي لم يتمكنوا من اتخاذ قرار بالخطوة التالية فعادوا إلى ثيرا ولكن اهلها لم يسمحوا لهم بالنزول على شاطئها ورشقوهم بما وقعت عليه ايديهم عندما رأوهم يتجهون إلى الميناء. وصاحو فيهم معلنين وجوب عودتهم من حيث اتوا. ولما رأى باتوس ورفاقه موقف اقربائهم ذاك قرروا ان لا سبيل لهم غير العودة فكثروا راجعين إلى ليبيا واستقروا هذه المرة في جزيرة بلاتيا التي كانت قريبة من الشاطئ الليبي. وهي جزيرة يقال ان مساحتها مساوية لمساحة قورينة في هذا الوقت [القرن الخامس قبل الميلاد].

واقام هؤلاء المستوطنون في جزيرة بلاتيا مدة سنتين ولكنهم لم يصادفوا أي ازدهار في وطنهم الجديد مما حملهم على الابحار إلى بلاد اليونان ليستششروا موحى دلفي تاركين وراءهم في بلاتيا رجلا واحدا فقط. وعندما بلغوا موحى دلفي اعلنوا امامه ان حالته لم تتحسن رغم انهم كانوا يعيشون في ليبيا. وأجابتهم كاهنة الموحى بيبيتين من الشعر قائلة بلسان أبولو انه هو زار ليبيا اما هم فأنهم لم يفعلوا. وبناء على ذلك فانهم ان كانوا يعرفون تلك البلاد اكثر منه هو فهم مفرطون في الذكاء دون شك! ولما سمع باتوس ورجاله ذلك الجواب اعادوا الكرة وابحروا إلى بلاتيا لانه اتضح لهم ان ابولوا لن يتركهم وشأنهم الا اذا اقاموا مستوطنة حقيقية على البر الليبي.

ولهذا فانهم مروا بجزيرة بلاتيا والتقطوا الرجل الذي كان قد خلفوه عليها ثم عبروا إلى البر الليبي وأقاموا على شاطئه مدينة على مسافة قصيرة إلى الجنوب من بلاتيا في بقعة اسمها أزيروس⁶ «Aziris» - وهي بقعة خلافة يجري في احدي جنباتها نهر وحيط بها أودية بديعة. وأقاموا في هذا المكان ست سنوات ثم اقنعهم الليبيون بمغادرته وتعهدوا ان يدلّوهم على مكان افضل منه. وبعد موافقتهم على الاقتراح الليبي سار بهم أصدقائهم الليبيون - وكانوا من قبيلة الجليجامي (Giligamae) - ووقتوا مسيرتهم بحيث يجتازون بهم منطقة إراسا (Irasa) [لعلها أم الرزم] وهي أجود بقعة في البلاد. حث جنح الظلام وذلك حتى يحولوا دون رؤيتهم لها [لئلا تعجبهم فيستقروا بها]. واخيراً وصلوا إلى النبع المسمى ((نافورة ابولو)) وهناك قال الأذلاء الليبيون للإغريق: ((هذا هو المكان الذي يجدر بكم ان تستقروا فيه لان سمائه مثقوبة))⁷.

وفي حياة باتوس. مؤسس قورينة وسيدها طيلة اربعين سنة. وفي حياة ابنه اركيسيلوس (Arcesilaus) الذي كان سيدا للمدينة لمدة ست عشرة سنة ظل عدد سكان قورينة مساويا لعدد المستوطنين الاصليين. وفي عهد ملكها الثالث المعروف باسم ((باتوس السعيد)) اعلن موحي دلفي نبوءة تسببت في تراجم الإغريق عامة على الهجرة لمستوطنه قورينة؛ فقد حدث ان اهالي قورينة كانوا يقدمون هبات من الاراضي للمستوطنين الجدد عندما اعلن موحي دلفي ((أن كل من يذهب إلى ليبيا البهيجة بعد الفراغ من تقسيم الاراضي سيندم على عمله في يوم من الأيام))⁸.

تلك هي رواية هيرودتس عن تأسيس الإغريق الدوربين لمستوطنتهم الأولى قورينة (= سيرين. شحات). والمؤرخون متفقون على ان تأسيسها كان سنة 631 ق. م. في موقع من أراضي قبيلة الاسبستي (Asbystae) الليبية⁹.

6- من المحتمل أن يكون ذلك المكان هو موقع تميمي إلى الجنوب قليلا من درنة وربما كان وادي الخليج بعينه.

7- أي إنها كثيرة المطر. انظر أيضاً ص 224 أعلاه.

8- Herodotus, iv, pp. 292 – 296.

9- Smith, Captain R. Murdoch, R.E. & Commander E.A. Porcher, R.N., History of the Recent Discoveries at Cyrene – made during

ولقد عطف الليبيون في بداية الأمر على المهاجرين الإغريق ورحبوا بهم ونشأت بين الفريقين علاقات صداقة أدت إلى تزوج شباب الاغريق المهاجرين من فتيات ليبيا. كما جلست فيما بعد في مجاملة النساء الاغريقيات للبيبات بالامتناع عن أكل لحم البقر الذي كان النساء الليبيات يحرمه على انفسهن تقديسا للالهة المصرية نيث ثم ايزيس التي أصبح النساء الاغريقيات ايضا يقدرسها ويعتبرنها نظيرة لإلهتهن ديمتير (Demeter). وسيتضح لنا فيما بعد كيف بدأت القبائل الليبية تهاجم الاغريق وتخربهم بسبب اشتداد هجرتهم. وتوسعهم الاقليمي على حساب الليبين. واتضح نواياهم ومطامعهم الاستعمارية. ولقد ذكر هيرودتس فيما تقدم مساعدة الليبين للإغريق في اختيار موقع قورينة. اما لماذا اسموها قورينة فان احدي الاساطير الاغريقية تعطينا الجواب. تقول الاسطورة ان الإله ابولو شغف بفتاة اغريقية اسمها قورينة (Kurana) فراح يجري وراءها من بلاد اليونان إلى ليبيا حيث تمكن منها. وكانت قورينة فتاة رائعة الجمال. متحررة الذوق. ولم تكن تحب السير ذهابا وإيابا امام آلة الغزل. أو المشاركة في الحفلات مع صواحبها داخل المنزل. وانما كانت مولعة بصيد الحيوانات الشرسة وقتلها برمحتها وسيفها البرونزيين من أجل تأمين السلامة لقطعان والدها. ولم تكن قورينة تسمح للنوم ان يلمس جفونها الا لفترة قصيرة قبيل الفجر. وفيما يلي خلاصة للقصيدة التي نظمها الشاعر بندار في وصفها:

((بينما كانت قورينة ذات يوم تكافح اسدا ضخما بيديها العاريتين. رآها الإله ابولو فاعجب بها ووقع في حبها ولكنه كان في حيرة من امره. لا يدري ماذا يصنع. ولذلك فانه استدعى مستشاره وسأله قائلاً: ((هل من الشرع ان أباشر الاتصال بها فوراً ام الافضل ان اقطع الزهرة الحلوة على فراش الزوجية ؟)) ويعلق المستشار في رده بقوله ان الإله ابولو يعرف كل الاجوبة؛ ويضيف المستشار قوله: ((انك قدمت لهذا الوادي لتتزوج هذه الفتاة وانه مقدر لك ان تحملها عبر البحر إلى احدي حدائق الإله زيوس المختارة حيث جعلها ملكة لاحدى المدن وذلك بعد ان تكون قد جمعت أبناء احدي

an expedition to Cyrenaica in 1860/1861- under the auspices of her Majesty's Government – Day and son London 1864, p. 2.

الجزر ولملت شملهم على رابية تقوم وسط سهل رحيب. وأتذاك ستكون ليبيا ذات المروج الرحيبة سعيدة باستقبال العروس البديعة في منزل ذهبي. وسييسعد ليبيا ان تقدم للعروس كهدية قطعة من الأرض تعيش عليها متمتعة بشتى انواع الفواكه والمزروعات ومستأنسة شتى انواع الحيوانات. وتم كل شيء بسرعة وفقا لإرادة الإله؛ وزفت إليه العروس في صالة لينة مذهبة. ومنذ ذلك الحين حتى الان وقورينة تتردد على مدينتها ذات الجمال الرائع وذات الإبداع في مختلف الألعاب)).

العهد الملكي 631 - 440 ق.م :

وهكذا أسس الإغريق مستوطنتهم الأولى كحكومة مدنية على غرار ما عرفوه في بلادهم الأم. وتولى الحكم فيها باتوس الذي أصبح ملكا لها. وتوالى حكمها في أسرته. رغم قيام عدد من الثورات. حتى سنة 440 ق.م. وكان عدد ملوك هذه الأسرة ثمانية: أربعة منهم حملوا اسم باتوس الأربعة الآخرون حملوا اسم اركسيلاوس. وتعاقبوا جميعا على الحكم فكان أولهم باتوس الأول ثم تولاه ابنه اربلاوس الأول فباتوس الثاني. وهكذا. وفيما يلي أسماؤهم والفترة التي حكم خلالها كل منهم¹⁰:

- 1- باتوس الأول 631 - 591 ق.م.
- 2- أركسيلاوس الأول 591 - 575 ق.م.
- 3- باتوس الثاني ((السعيد)) 575 - 554 ق.م.
- 4- أركسيلاوس الثاني ((الطاغية)) 554 - 544 ق.م.
- 5- باتوس الثالث ((الأعرج)) 554 - 529 ق.م.
- 6- اركسيلاوس الثالث وأمه فريتميم 529 - 515 ق.م.
- 7- باتوس الرابع ((الوسيم)) حوالي 500 - 465 ق.م.

10- هذه التواريخ تقريبية ومبنية على أساس الإشارات التي وردت في المصادر الكلاسيكية لقورينة وسلوكها: فعلى سبيل المثال أعتبرنا سنة 631 ق.م. بداية حكم باتوس الأول لأن الكتاب أجمعوا أنها سنة تأسيس قورينة. واعتبرنا سنة 591 ق.م. نهاية لأن هيرودوتس ذكر أنه حكم قورينة مدة سنة أربعين سنة.

8- أركسيلاوس الرابع حوالي 465 - 440 ق.م.¹¹

وفي السنة الثالثة من عهد باتوس الثاني ((السعيد)) أي سنة 572 ق.م. تضخم عدد سكان قورينة نتيجة لتحريض موحى دلفي للاغريق على الهجرة إلى ليبيا. ومن الطبيعي ان ينتج عن تضخم عدد السكان اشتداد الحاجة للمزيد من المواد الغذائية وبالتالي إلى الأراضي المنتجة لها وهذا يعني وجوب توسع قورينة على حساب قبيلة الاسبتسي الليبية المجاورة لها. وهكذا بدأت قورينة تتعدى على الأراضي الليبية المجاورة وتغتنبها. واستمرت تتوسع على هذه الصورة حتى اثارث نعمة الاسبتسي الذين أغضبتهم نزع السيطرة القورينية من ناحية وفقدان اراضيهم من الناحية الأخرى مما حملهم في عهد شيخهم ادكران (Adicran) على إرسال وفد إلى بلاط ايريز (Apries) ملك مصر. وقدم الوفد إلى مصر وعلنوا ولاءهم وتبعيتهم هم وقومهم الملك مصر ثم شكوا إليه أمر قورينة. وخفت قوات قورينة لمجابهة القوة المصرية القادمة فوقعت بين الفريقين معركة قرب بئر ثيستيس (Thestes) في اراسا سنة 570 ق.م هزم الجيش المصري فيها هزيمة منكرة بحيث لم يعد من جنده إلى مصر سوى عدد قليل. ويعلل هيرودوتس تلك الهزيمة بانها ((كانت ناجمة دون شك عن انعدام الخبرة لدى المصريين بحرب الإغريق وعن عدم استعداد المصريين لمعالجة الموقف معالجة جادة))¹² ونتيجة لفشل هذه الحملة أثار اتباع ايريز عليه وحملوه شخصيا مسؤولية الكارثة. اما قورينة فقد توطد سلطانها وتأكدت سيادتها على الليبيين نتيجة لانتصارها.

وتلا باتوس السعيد على عرش قورينة ابنة أركسيلاوس الثاني الملقب بالطاغية. وما ان استقر الحكم لاركسيلاوس هذا حتى بدا يضطهد أربعة من أخوته هم : بيرسيوس (Perseus) وارستودميدوس (Aristomedon) وليكوس (lyecus) وزاكنتوس (zakynthus). وراح يعن في تجريدهم من

11- See also: Cyrenaican Expenditure of the University of Manchester, 1952, Manchester Univeristy Press, England, 1956, edited by Allan Rowe with contributions by Derek Buttle & John Gray, p.2.

12- Herodotus, iv, p. 296.

حقوقهم وامتيازاتهم الدستورية، فغضبوا عليه ورحلوا عن قورينة سنة 550 ق.م هم ومن أزرهم من الإغريق الذين كان بينهم عدد لا بأس به من أمهات لبيبات، وقاموا بمساعدة قبيلة الأوزخيزي (Auschisae) الليبية بتأسيس مدينة برقة (Barce) (= المرج)¹³ في سهل المرج إلى الغرب من قورينة، وبينما كانت اعمال البناء لا تزال مستمرة في برقة اقنع الإغريق فيها من حولهم من الليبيين بالتخلي عن ولائهم لقورينة ما دعا اركسيلاوس الثاني إلى محاربة من فعل ذلك منهم، فلما أحس هؤلاء بزحف قوات قورينة بقيادة اركسيلاوس الثاني تراجعوا مسرعين باتجاه الغرب وخف اركسيلاوس الثاني بجيشه لمطاردتهم حتى بلغ مدينة لوكن (Leucon) الليبية حيث التحم الفريقان في معركة حامية هزم القورينيون فيها هزيمة منكرة وفقدوا سبعة آلاف من جنودهم، وبعد هذه الضربة القاسية أصيب اركسيلاوس الثاني بحمى حاول التخلص منها بتناول شيء من الدواء ولكن القدر لم يمهله اذ ان اخاه ليارخوس (Learchus) قام بخنقه سنة 544 ق.م، وانتقلت له زوجته إركسو ((Erixo)) فقتلت ليارخوس فأل عرش قورينة لباتوس الثالث الأعرج بن أركسيلاوس الثاني.

هذه الاحوال المضطربة في قورينة اتاحت الفرصة امام مدينة برقة لتبسط نفوذها على القسم الغربي من المنطقة، وحفزت أهل قورينة على ارسال وفد إلى دلفي لاستشارة موحى أبولو هناك حول الجع السبل لاقامة افضل انواع الحكم في مدينتهم، واجابتهم كاهنة دلفي بان عليهم ان يستدعوا أحد رجال مدينة منتينيا ((Mantineia)) في مقاطعة اركاديا (Arcadea) لينظم لهم شؤونهم، وعملوا بنصيحة الموحى فأعبروا خدمات المشرع ديمناكوس (Demonax) الذي كان يتمتع بشهرة متازة وسمعة طيبة في بلده، وقدم ديموناكس إلى قورينة فدرس أوضاعها وأحوالها ثم تقدم بالاصلاحات الدستورية التالية:

13- قال هيردوتس إن أركسيلاوس الثاني وأنصارهم أسسوا مدينة برقة ولكن أوريك بيتس يعتقد أن برقة ليست إغريقية الأصل وإنما كانت قرية ليبية وكانت قائمة قبل مقدم الإغريق أو على الأقل، أن قبيلة الأوسخيزي الليبية التي أقيمت برقة في أراضيها قد شاركت في تأسيسها.

1- قسم قورينة إلى ثلاثة أقسام أو قبائل:

أ- المهاجرون من إغريق جزيرة ثيرا وجيرانهم،

ب- المهاجرون من إغريق شبه جزيرة البلوبونيز وكريت،

ج- المهاجرون من إغريق الجزر الأخرى.

2- خصص لباتوس، ملك المدينة، اراضي معينة ومهام كهنوتية معينة كذلك،

3- أباح لسكان المدينة عموماً التمتع بالامتيازات التي كانت حتى مقدمه مقصورة على الملوك¹⁴.

ثم انتخب من هذه القبائل الثلاث مجلس شيوخ انتقل إليه حكم المدينة من أسرة باتوس بموافقة باتوس الثالث، وظلت هذه الاجراءات سارية المفعول طيلة حياة باتوس الثالث ولكن ضجة كبرى ثارت في المدينة حول المناصب والامتيازات الحكومية المختلفة في عهد اركسيلاوس الثالث، بن باتوس الثالث العرج من فريتيماء ((Pheretima)) وخليفته في الحكم، ولما اصر اركسيلاوس الثالث هذا على تجاهل تشريعات ديموناكس وطالب بان ترد إليه امتيازات اسلافه وحقوقهم وقع نزاع بينه وبين أهل المدينة اسفر عن هزيمته وهربه إلى جزيرة سامس، وهرب أمه إلى مدينة سلاميس في قبرص حيث التجأت إلى بلاط الملك يولتن (Euelthon) الإغريقي وطلبت إليه امدادها بجيش يعيدها هي وابنها إلى عرش قورينة، وكان يولتن كريماً في معاملتها فاعدق عليها الهدايا بسخاء ولكنه لم يكن ينوي اعطاءها جيشاً، وراحت هي من جانبها تمتدح كل هدية يقدمها لها وتؤكد في الوقت ذاته ان هديتها المفضلة هي ان تعطى جيشاً، فلما ألت في هذا المطلب اهداها يولتن مغزلاً من ذهب عليه بعض الصوف معلناً ان ذلك المغزل - وليس الجيش - أليق بها كأمراً.

وفي هذه الاثناء تمكن اركسيلاوس الثالث، بما بذله من وعود بانه سيقطع من يناصره ما يكفيه من الأرض في قورينة، من حشد قوة لا بأس بها من

14- Herodotus, iv, p. 297

جزيرة سامس. إبحر بها إلى قورينة وتكن من استرجاع عرشه، ولكنه ارتكب الفضائح ضد الاهلين فنشرد بعضهم، ونفى بعضهم ونفى بعضهم إلى قبرص حيث اعدموا واحرق البعض الاخر. ثم تذكر ان كاهنة موحى دلفي كانت قد تنبأت بموته اذا ارتكبت مثل تلك الاعمال فاستبد به الذعر وهرب من قورينة والتجأ إلى حميه الأزير (Alazir). صاحب مدينة برقة. وبعد حين من مكوثه في مدينة برقة، وبينما كان يسير مع حميه في أحد شوارعها انقض عليهما عدد من أهل المدينة ومن كان فيها من لاجئي قورينة فقتلوهما.

وعندما كان اركيسيلوس الثالث لاجئاً في مدينة برقة كانت امه فيريتيما تقوم مقامه في قورينة فتتمتع بامتيازاته وتشرى على ادارة دفة الحكم وتحتل مقعده في مجلس قورينة، فلما سمعت بمقتله هربت إلى مصر مستعينة بأرياندس (Aryandes). حاكم مصر الفارسي من قبل قمبيز. واستندت في طلبها المساعدة من الحاكم الفارسي على ما كان ابنها قد قدمه لقمبيز من خدمات حينما اعلن ولاء قورينة له وعين الجزية التي كان على قورينة ان تقدمها لحاكم مصر الفارسي سنوياً.

ويسرد علينا هيرودوتس حكاية هذه الواقعة كما يلي:

((أعلن ارياندس عن حزنه العميق لما أصاب فيريتيما ووضع كل قواته في مصر من منشاء وبحارة تحت تصرفها. وقبل ان يصدر امره لتلك القوات بالزحف أرسل رسولا إلى أهل مدينة برقة ليستفسر عن اسم قاتل اركيسيلوس. ولكن أهل المدينة اجابوه بانهم جميعا يحملون مسؤولية قتله نظرا لما كان قد أخقه بهم جميعا من اضرار. ووجد ارياندس في هذا الرد حجة تبرر غزوة لليبيا [منطقة برقة] من أجل تحقيق مطامعه في اخضاعها. خاصة وان القبائل اللبية كانت كثيرة ولم يكن يخضع منها لداريوس. ملك الفرس الا عدد قليل بينما لم يكن معظمها يعير ذلك الملك لحظة واحدة من التفكير))¹⁵.

أمر ارياندس قواته بالسير في معية فيريتيما لمهاجمة برقة: فكان المشاة

تحت إمرة اماريس (Amasis والبحارة تحت إمرة بدريس (Badres). ولما وصلت تلك القوات إلى برقة حاصرتها وطلبت من أهلها ان يسلموا يسلموا قتلته اركيسيلوس ولكن هؤلاء رفضوا ان يسلموا احدا. واستمر الحصار تسعة اشهر كان الفرس خلالها يحاولون احداث ثغرة في سور المدينة اما بالهجوم المباشر واما بالحفر حته، ولكن محاولاتهم جميعا باءت بالفشل. ثم تمكن أحد عمال المعادن منهم من اكتشاف مواقع مجاري المدينة بالطريقة التالية: دار حول سور المدينة وهو يقرع على الأرض بدرقة برونزية فكانت تعطيه رنينا جامدا في كل المواقع التي دق عليها، فلما دق فوق المجاري كان لرنين درقته رجع أجوف. فدل قومه على الموقع وحفروا مدخلا يؤدي إلى داخل السور ليقتحموا منه المدينة ولكن أهلها كانوا متنبهين للحركة فقاموا بحفر خنادق مضادة من الداخل وقتلوا المتسللين من الفرس. كما نجحوا في الوقت ذاته في صد الهجمات الفارسية المباشرة على السور. وطال امد الحصار وتصاعدت خسائر الجانبين فقرر اماريس. قائد المشاة، ان يغير تكتيكية الحربي بعد ان حقق انه كان من المستحيل الاستيلاء على مدينة برقة بالقوة. ولذلك فقد لجأ للخدعة فانتظر حتى حل الظلام وامر رجاله فحفروا خندقا عريضا سقّفوه بألواح خشبية ثم وضعوا عليه التراب حتى تساوي مع سطح الأرض. وفي صباح اليوم التالي دعا اماريس أهل برقة إلى مؤتمر مشترك فلبوا الدعوة بارتياح وأسفر المؤتمر عن اتفاق على الشروط التالية:

1- وقف ممثلوا الفريقين فوق الخندق المدفون واقسموا ان:

أ- يدفع اهالي برقة مبلغاً معقولاً من المال لملك الفرس.

ب- الا يلحق الفرس من جانبهم أي اذى بمدينة برقة.

2- وان تبقى تلك الاتفاقية سارية المفعول ما دامت الأرض التي كانوا يقفون عليها ثابتة.

وبمجرد ان فرغ الطرفان من عقد اليمين خرج اهالي برقة من المدينة وتركوا أبواب السور مفتوحة ودعوا الفرس لدخولها حسب ارادتهم: وانما فعل أهل برقة ذلك لأنه لم يخطر في بالهم أن يكون الفرس قد بيتوا اية خدعة. وقبل

الفرس الدعوة فدخلوا المدينة مسرعين بعد ان هدموا الخندق متحللين بذلك من القسم الذي كانوا قد قطعوه على انفسهم.

وبعد دخول المدينة ألقى الفرس القبض على قتلة اركيسيلوس وسلموهم لفيرتيما وقامت هي بدورها بصلبهم على سور المدينة وعلقت إلى جانب كل منهم ثديي زوجته. اما بقية أهل المدينة. باستثناء من كانوا يمتون لاسرة باتوس بقرابة ولم يتورطوا في مقتل اركيسيلوس. فقد سلمتهم للفرس بينما سلمت مدينة برقة نفسها لمن أبقت عليهم من اقرباء باتوس. وعاد الفرس إلى مصر وهم يسوقون معهم معظم اهالي برقة عبيدا. ومن مصر سيق هؤلاء العبيد إلى بلاد فارس حيث قدموا للملك الفارسي داريوس فعين لهم قرية في مقاطعة بكتريا اسموها برقة باسم مدينتهم الاصلية وكانت لا تزال أهلة بهم وبنسلهم في أيام هيرودوتس¹⁶.

ولما اطل الجيش الفارسي على قورينة قرر اهلها وفاء لبعض النصائح الالهية ان يتركوا مدينتهم مفتوحة والا يعترضوا مسيرة القوات الفارسية. وعندما كانت القوات الفارسية تعبر بقورينة اقترح بدريس. قائد البحرية. الاستيلاء على المدينة. ولكن امازييس. قائد المشاة. رفض ذلك الاقتراح محتجاً بان هدف الحملة كان مدينة برقة الاغريقية فقط. وبعد ان اجتاز الجيش قورينة ندم الفرس على عدم استيلائهم عليها وكرروا عائدين ولكن اهلها تصدوا لهم هذه المرة ولم يسمحوا لهم بالدخول. والغريب في الامر انه بالرغم من ان الجانبين لم يشتبكا الا ان الفرس أصيبوا بذعر شديد وتراجعوا مسرعين ولم يتوقفوا الا بعد ان ابتعدوا عن المدينة مسافة سبعة اميال. وهناك اقاموا لهم معسكر مكثوا فيه بعض الوقت حتى وردتهم رسالة من اريانديس يامرهم فيها بالعودة إلى مصر. وأذالك طلبوا من قورينة ان تمدهم بالماء والغذاء فزودتهم بحاجتهم وبدأوا مسيرة العودة لمصر. وتجدر الإشارة هنا إلى ان القبائل الليبية راحت تهاجمهم على طول الطريق حتى حدود مصر. فكان افراد القبائل ينقضون على من يتأخر من الجنود ويجهزون عليهم طمعا في ملابسهم ومعداتهم¹⁷.

16- Herodotus, iv, p. 310

17- Idem.

وكانت اقصى نقطة في ليبيا وصلتها هذه الحملة الفارسية هي مدينة يوسبيريدس (Euesperides) (= بنغازي).

اما الملكة فيرتيما فقد عادت مع القوات الفارسية لمصر حيث لقيت جزاء ما اقترفته من فظائع في انتقامها من أهل برقة كما ورد سابقا فلم تلبث ان ماتت ميتة منكرة بعد ان دبت الديدان في جسمها وظلت تنهشها حتى الموت. وكان موتها على تلك الصورة مثالا وبرهانا على ان من يفرط في القسوة انما يستنزل على نفسه غضب الآلهة.

عند هذا الحد لا يسعنا الا ان نتساءل عن مصير مدينتي قورينة وبرقة. لقد لا حظنا ان الفرس خربوا مدينة برقة في أعقاب قتل اهلها لاركيسيلوس الثالث وحميه في أواخر سنة 516 ق.م. أو أوائل سنة 515 ق.م. ولم يبق في هذه المدينة سوى جالية قليلة من كانوا يمتون بصلة القرى لالاسرة الملكية الحاكمة في قورينة ويؤيدونها. اما بالنسبة لقورينة فان الملكة فيرتيما لم تعد إليها بعد فتك القوات الفارسية بأهالي مدينة برقة وانما رافقت تلك القوات في عودتها إلى مصر مارة بقورينة. ولقد أخبرنا هيرودوتس ان قائد البحرية الفارسية بدريس اقترح أثناء عبور الحملة الفارسية بقورينة في طريق عودتها لمصر ان تقوم تلك الحملة بالاستيلاء على هذه المدينة. فهل كان اقتراحه ذلك بايعاز من الملكة فيرتيما؟ وبعد اجتياز الحملة لقورينة ندم قائداها على عدم استيلائها على قورينة وحاولوا ان يعيدا الكرة فتصدى لهما أهلها واغلقوا أبواب المدينة في وجه القوة الفارسية. فهل كان هذا الموقف من جانب أهل قورينة ناجماً عن كرههم للفرس الذين نصبوا انفسهم حماة للنظام الملكي القوريني البغيض وحاولوا ان يفرضوه على برقة وقورينة بحد السيف؟ وهل كان ذلك الكره سببا في حمل أهل قورينة برقة على العدول مؤقتا عن النظام الملكي وعلى إقامة نوع من الحكم الديموقراطي في كل من المدينتين؟

ان النزاع بين الاسرة المالكة والشعب في قورينة بدأ منذ ان تضخم عدد سكان هذه المدينة في عهد باتوس الثاني السعيد (575 - 544 ق.م.) وبلغ ذروته في عهد باتوس الثالث الاعرج (544 - 529 ق.م) الذي قبل بإصلاحات

ديموناكس الدستورية التي ادت في واقعها إلى نقل سلطة الحكم من الأسرة المالكة إلى الشعب. وتركت للملك بعض الامتيازات والمناصب الكهنوتية فقط. وعلى ضوء هذه الحقائق القليلة والمعروفة عن هذه الفترة فأنا اميل للاعتقاد ان برقة وقورينة اجمعتا على كره النظام الملكي الموالي للفرس واقامت كل منهما نوعاً من الحكم الديمقراطي خلال الخمس عشرة سنة الباقية من القرن السادس ق.م. (515 - 500 ق.م.). فهل جريت قورينة من جديد ان تبعث الحياة في دستور ديموناكس؟ وهل حذت برقة حذوها؟

اما كيف أُعيد النظام الملكي إلى قورينة فان مصادرنا لا تسعفنا بشيء يذكر في هذا الخصوص. ولعل احسن ما يمكن ان نتكهن به هو ان نقول ان التجربة الديموقراطية الثانية في قورينة آلت إلى الفشل ما مهد السبيل أمام باتوس الرابع ((الوسيم)) لاستعادة عرش اسلافه في قورينة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد. أو مطلع القرن الخامس قبل الميلاد. ونحن نكاد لا نعرف عن باتوس الرابع هذا شيئاً سوى اسمه ولقبه وفوزه في الألعاب البيثية سنة 466 ق.م.

ونحن كذلك لا نعرف عن خلفه اركيسيلوس الرابع (حوالي 465-440 ق.م) سوى انه كان منهمكاً في استنفاذ مزيد من المستوطنين الإغريق من مختلف أنحاء بلاد اليونان للقدوم إلى قورينة. وانه أرسل جماعة من هؤلاء المستوطنين الجدد إلى يوسبيريدس تحت قيادة أخيه كاروتاس (Carrhotas) ليجعل منها ملجأً آمناً لأيي إليه ان دعت الحاجة من مثل قيام ثورة في قورينة ضده مثلاً. ولقد وقع ما كان يخشاه فقد اثار قدوم المهاجرين الجدد نقمة المهاجرين القدماء فنار هؤلاء على الحكم الملكي مما حمل اركيسيلوس الرابع على الفرار إلى يوسبيريدس للنجاة بنفسه. ولكن المدينة الاخيرة خيبت آماله واثبتت له ان إجراءاته الاحتياطية السابقة لم تكن فعالة فقد قتل على يد أحد اتباعه سنة 440 ق.م. في المدينة التي كان يعتبرها ملجأه الأمين. وبمقتله انتهى عهد النظام الملكي في قورينة وانتهى بذلك حكم أسرة باتوس التي تربعت على عرش قورينة ما يقرب مائتي سنة.

وقبل ان نمضي في محاولتنا لتتبع تاريخ قورينة يجدر بنا ان نلتفت إلى

الوراء قليلاً لنلقي نظرة عامة على بقية ساحل برقة وما أُقيم فيه من مستوطنات اغريقية أخرى.

منذ ان أسست قورينة اصبحت رأس جسر للاغريق فكانو يأتون إليها ثم ينطلقون منها إلى مواقع اخرى على ساحل برقة حيث يقيمون مستوطنات اغريقية جديدة. وقد تكون هنالك مستوطنات اغريقية اقامها إغريق قادمون مباشرة من بلاد اليونان الا ان الغالب هو ان يأتوا إلى قورينة أولاً ثم ينطلقون منها لاقامة المستوطنة الجديدة. ولقد سبقت الاشارة إلى مدينة برقة وكيف تم تأسيسها. والواقع ان الإغريق تابعوا اسلوبهم الاستيطاني ذلك حتى انتشرت مستوطناتهم على طول ساحل برقة فأقاموا بالاضافة لقورينة وبرقة مدن توكرة ويوسبيريدس وظلمينة وأبولونيا ودرنس وأنتيبرجوس¹⁸ (=طبرق). وسنحدث فيما يلي عن اهم هذه المدن بايجاز امين بذلك ان نوفق في تصوير حضارة هذه المنطقة وتاريخها.

1- قورينة (=سيرين. قرب شحات الحالية):

سبق ان بينا كيف نشأت قورينة في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد وكيف راحت تتطور في ظل نظام ملكي من الطراز الإغريقي. ونضيف هنا انه ترتب على انقراض أسرة باتوس ونظامها الملكي أمران رئيسيان :

الأول : تقلص نفوذ المدن الاغريقية القائمة هنا وهناك على ساحل برقة وانحصارها داخل اسوارها. واستمرار كل منها في حكم نفسها بنفسها وفق نوع من الحكم الإغريقي الديمقراطي مع قيام اتحاد إغريقي ينظم العلاقات فيما بين تلك المدن ذاتها من ناحية وفيما بينها وبين غيرها من الناحية الأخرى.

والثاني : ابتعاد القبائل الليبية عن الساحل وانفرادها بتصريف شؤونها.

وأدى هذا الوضع الجديد إلى قيام نوع من التفاهم والتعاون بين الليبيين والاغريق اقتضته المصلحة الاقتصادية المشتركة فقد كانت المدن الاغريقية

18- سميت كذلك لأنها تقابل جزيرة بيرجوس اليونانية ((Anti-Pyrgos))

في حاجة لما تنتجه القبائل الليبية وما يأتي عن طريقها من داخل ليبيا وأواسط إفريقيا خاصة السودان. كما ان القبائل الليبية لم تكن تستطيع ان تستغني عن الساحل ومدنه الإغريقية وما يأتي عن طريقها من وراء البحر. وعلى مثل هذه الحالة ظلت منطقة برقة بأكملها تخضع اسمياً للنفوذ الفارسي في مصر وتصرف شؤونها بذاتها عملياً خلال ما يزيد عن قرن من الزمن (440- 333 ق.م) أي ما بين انقراض أسرة باتوس في قورينة وظهور الاسكندر الكبير. ملك مقدونيا. الذي اكتسح الامبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة 333 ق.م. حيث قام بزيارة معبد آمون في سيوة واضفى على نفسه صبغة الأوهية باعلان انه هو ابن الإله زيوس -آمون وفي ذلك الحين قدمت له القبائل الليبية والمدن الاغريقية في منطقة برقة فروض الولاء والطاعة مشفوعة بما امكنها من هدايا. واصبحت منطقة برقة جزءاً من إمبراطورية الاسكندر الكبير. وبعد وفاته قسمت إمبراطوريته بين خلفائه الثلاثة فكانت مصر من نصيب البطالمة وظلت منطقة برقة تابعة لها وخاضعة لنفوذ البطالمة الإغريق. ملوك مصر.

ونحن اذا بحثنا عن عصر ذهبي لقورينة نستطيع ان نقول ان عصرها الذهبي هو الفترة التي بدأت قبيل انتهاء الملكية أي في مطلع الخامس قبل الميلاد وانتهت مع انتهاء القرن الرابع قبل الميلاد أي بعيد بداية العصر البطلمي بقليل. ففي هذه الفترة اقامت قورينة نظام حكم ديموقراطي وتخلت عن سياسة التوسع على حساب جيرانها الليبيين وهي السياسة التي رافقت تاريخها الملكي. وفي هذه الفترة كذلك بلغت ذروة ازدهارها الاقتصادي وتقدمها التجاري والزراعي إلى حد انها استطاعت وقت الجماعة الكبرى في بلاد اليونان (329 - 325 ق.م) ان تنقذ تلك البلاد من براثن الموت جوعاً عندما امتد اكثر من اربعين مدينة فيها. بينها أثينا نفسها. بما يزيد عن مليون بوشل من القمح¹⁹.

واثرى أهل قورينة نتيجة للاستقرار النسبي والازدهار الاقتصادي فالتفتوا
19- تدل على ذلك لوحة اثرية ترجع إلى سنة 330 ق.م. انظر أيضاً:
Le Veque, Pierre, The Greek Adventure, (English Translation),
Weidenfeld & Nicolson, London, W1, England, 1968, p. 341.

إلى ترقية عقولهم واجسامهم ما أدى إلى قيام نهضة فكرية في المدينة حولتها إلى مركز للتعليم والثقافة والحياة الناعمة. ففيها نشأت مدرسة فلسفية كان قد اسسها ارستبوس (Aristeppus). تلميذ سقراط وأستاذ أبي قورش. صاحب الفلسفة الابيقورية. وبعد وفاة سقراط سافر ارستبوس الظريف إلى مدن مختلفة. وقضى بعض الوقت في مدينة اسكليوس (Scillus) بصحبة صديقه اجزينيفون (Xenophon). ووقتا اطول من هذا في مدينة كورنث بصحبة صديقه لايس (Lais). ثم القى عصا الترحال في مسقط رأسه في قورينة. وكان ثراء الطبقة العليا في هذه المدينة نصف الشرقية قد تكون عادات ارستبوس. ولذلك فقد كان اكثر ما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله ان السعادة اعظم فضيلة. وكان ارستبوس وسيم الطلعة. دمت الاخلاق. بارعا في الحديث ما ساعده على ان يشق طريقه اينما كان: من هذا القبيل انه عندما خطمت السفينة التي كان بها قرب جزيرة رودس ووجد نفسه في ضائقة شديدة على تلك الجزيرة ذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضي هناك واخذ يخطب فيها. فافتتن به رجالها وقدموا له ولأصحابه جميع وسائل الراحة. وعندما فعلوا ذلك قال لهم: ان الاباء يجب ان يسلحوا ابنائهم بثروة يستطيعون ان يحملوها معهم إلى البر اذا خطمت بهم السفن.

وكانت فلسفته بسيطة وصرحة: فقد كان يقول: ان كل ما نفعه انما نفعه طمعا في اللذة أو خوفاً من الألم حتى اذا افقرنا انفسنا لخير اصدقائنا أو ضحينا بحياتنا من أجل قادتنا. وعلى هذا الاساس فالناس كلهم مجتمعون على ان اللذة هي الخير الذي ما بعده خير. وان كل ما عداها. حتى الفضيلة والفلسفة. يجب ان يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة. وعلما بالاشياء. غير مؤكد. وكل ما نعرفه معرفة مباشرة اكيدة هي حواسنا. فالحكمة اذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية. وليست اعظم اللذات الجسمية أو الحسية: ولهذا فان الرجل العاقل هو الذي يسعي وراءها اكثر من أي سعيه وراء أي شيء اخر. والذي لا يضحى بخير عاجل في سبيل خير أجل غير مؤكد. والحاضر وحده هو الموجود. واكبر

الظن انه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل ان لم يتفوق عليه. وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع الحصول عليه في الساعة التي نحن فيها. وليست فائدة الفلسفة في انها قد تبعدنا عن اللذة. بل فائدتها في أنها تهدينا إلى ان نختار: أحسن اللذات وننتفع بها. وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها. بل هو الذي يستمتع بها دون ان يكون عبدا لها. والذي يستطيع بعقله ان يقارن بين اللذائذ التي تعرضه للخطر والتي لا تعرضه له.

وإذن فقد كان محور فلسفة ارسطوبوس هو دعوة الناس إلى ثقة بمشاعرهم وأحاسيسهم مع ضبطها بالحكمة القائلة: ان الانسان السعيد حقاً هو الذي تعلم الحقيقة وانتصر على مشاعره فأصبح سيداً للمتعة وليس عبداً لها. ويقول ارسطوبوس نفسه في تلخيص فلسفته هذه:

((ان الحكمة ليست في السعي وراء الكمالات الخيالية. التي ليس لها وجود إلا في رؤوس الفلاسفة. كما ان الحكمة لا تكون بالجري وراء الشهوات واللذات الحسية التي تورث صاحبها المرض والندم ووخز الضمير. ولكن الحكمة في ان نحيا حياة معتدلة فلا نشغل أفكارنا بالجري وراء حلم خادع من المثل العليا الزائفة أو في الجري وراء لذات حسية تعرضنا للخطر. اذ اننا نكون في الأولى سذجاً مخدوعين. بينما نصير في الثانية أسرى لهذه اللذات أو عبيداً لها. والرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالحكمة والدهاء تجاه الرأي العام والشرائع والعادات ولكنه يعمل بقدر المستطاع على الا يكون سيداً لاي إنسان أو عبداً له))

وفي مجال الادب نبغ في قورينة عدد من فحول الشعراء كان من اوائلهم أجاممنون (Ajamemnon) في القرن السادس قبل الميلاد. وكليماخوس (310 – 240 ق.م.) والجغرافي العظيم ((اراتستنيس)) في القرن الثالث قبل الميلاد.

وإلى جانب الفلسفة ولادب ازدهرت في قورينة فنون الرقص والموسيقى. وزاد عدد سكانها حتى تجاوز المئة الف نسمة. وترقت فيها الالعب الرياضية

حتى ان فريقها فاز بالمرتبة الأولى في سباق العربات سنة 462 ق.م. وفاز في دورة الالعب الاولمبية التي عقدت بعد هذا التاريخ بسنتين.

أما في المجال الاقتصادي المزدهر فقد كانت قورينة ومينائها ابولونيا (=سوسة) همزة الوصل بين الدواخل الليبية واواسط افريقيا من ناحية وعالم ما وراء البحر من الناحية الثانية: فكانت تصدر إلى جانب القمح والخيول الاصلية ونبات السلفيوم (Silphium) البري الذي تظهر صورته على النقود القورينية خلال عدة قرون والذي كانت أسرة باتوس المالكة تحتكر التجارة به نظراً لأهميته كعلف مسمن للمواشي من ناحية وكعقار مطهر وتابل لذيد من الناحية الأخرى. ويبدو أن هذا النبات قد انقرض في أواخر العهد الروماني نظراً لانتشار رقعة الأراضي المزروعة ولعدم رغبة الليبيين في الابقاء على نبات بري لا يستفيد منه غير الطبقة الحاكمة البغيضة. وإلى جانب هذه السلع كانت تروج سلع أخرى أهمها العبيد والذهب والعاج والتمور والخمور وزيت الزيتون والذرة والاعناب والمواشي وريش النعام.

هذا بالنسبة للتجارة. أما الزراعة فلا شك أن سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية قد تحولوا إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي. ولندع هيرودوتس يحدثنا عن هذا الموضوع. يقول هيرودتس:

((لا أظن أننا نستطيع أن نقارن من حيث خصوبة التربة بين ليبيا وكل من اسيا وأوروبا باستثناء منطقة واحدة تسمى منطقة واحدة تسمى منطقة الكنيس [وادي كعام] وقد سميت كذلك نسبة للنهر الذي ترتوي منه. ولكن هذه المنطقة على أي حال تختلف كثيراً عن بقية ليبيا ولا تقل جودة عن أي بلد في العالم بالنسبة لانتاج الحبوب: فالترية هنا. بعكس ما هي عليه الحال في أي مكان اخر. سوداء وترويهما الينابيع فهي لا يخشى عليها من الجفاف من ناحية ولا من التلف بسبب الفيضانات من الناحية الأخرى (ويذكر بهذا الصدد ان المطر يسقط في هذه المنطقة من ليبيا). ويعادل انتاج الحاصل في هذه المنطقة انتاج نظيرتها في بابل. وهنالك تربة جيدة أيضاً حول يوسبيريدس. فهي في المواسم الممتازة تعطي من الغلة مائة ضعف ما بذر فيها. ومع ذلك فان منطقة الكنيس تعطي ثلاثة أضعاف

معدل انتاج منطقة يوسبيريدس. أما أراضي قورينة الواقعة في أعلى قسم من المنطقة الليبية التي يقطنها البدو الرحل فتتفرد بميزة خاصة بها تتلخص في أنها تتمتع بثلاثة مواسم غلة في السنة الواحدة: ويتمثل الموسم الأول في الأراضي القريبة من الشاطيء: فمحاصيلها تنضج مبكرة. وما ان يفرغ أهلها من جنيها حتى محاصيل التلال - المنطقة المتوسطة الواقعة فوق الحزام الساحلي - صالحة للجني. وعندما يفرغون الأهليون من جني هذا المحصول الثاني تكون محاصيل القسم الجبلي المرتفع قد نضجت وصارت صالحة للقطاف. وهكذا فإنه في الوقت الذي يكون الأهليون قد اكثروا أو شربوا محاصيل الموسم الأول يجدون ان محاصيل الموسم الأول يجدون ان محاصيل الموسم الأول يجدون ان محاصيل الموسم الأخير قد بدأت. مما يعطي أهل قورينة السعداء فصل خريف مستمر لمدة ثمانية أشهر متتالية²⁰.

ومن الواضح من أقوال هيرودوتس ان أهل قورينة كانوا يكثر من زراعة الحبوب خاصة القمح والشعير ثم زراعة أشجار الفواكه وخاصة شجيرة العنب وأشجار النخيل. وهما صنفاً كانوا يصنعون مشروباتهم من ثمارهما. وبالإضافة لذلك فقد اشتهرت برقة بالذرة وزيت الزيتون والتفاح والعصفر وروح الزهر وتربية الاغنام والمواشي والخيول السريعة بانتاج الأصواف ونبات السلفيوم (الأجدان) الذي كان علفاً ممتازاً للحيوانات وكانت عصارته عقاراً مفيداً في علاج الأمراض البشرية والحيوانية والنباتية. وكان اذا اضيف القليل منه للطعام. وخاصة إلى أطباق السمك. اضفي عليه نكهة خاصة مشهية. ولكن هذه الثروة الزراعية المزدهرة التي كانت بحق عماد ثروة قورينة كثيراً ما كانت تتعرض لغزو الجراد: وفي مثل تلك الحال كان على جميع السكان أن يخرجوا للاسهام في مكافحته والقضاء عليه. والذين يتهربون منهم من ذلك الواجب كانوا يتلقون نفس العقاب الذي كان يتلقاه الفارون من الخدمة العسكرية²¹.

ومع نهاية القرن السادس قبل الميلاد كانت مدن برقة قد أصبحت مراكز

20- انظر الملحق «ب» ص 687 - 788 أو آخر الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتس.
21- Wright, John, Libya, The Nations of the Modern World series. London, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, p. 43.

تجارية هامة وان لم تبلغ مبلغ قرطاجة: فقد كانت قورينة تتاجر مع المدن الاغريقية في جزر البحر الابيض المتوسط وساحله الشمالي. وكانت تجارتها في الوقت ذاته تسير نشيطة مع افريقيا الوسطى عن طريق واحة أوجلة (الواقعة على بعد مائة وخمسين ميلاً إلى الجنوب من اجدابيا) ومنها إلى الجنوب الغربي عبر الصحراء إلى مرزق أو إلى الجنوب الشرقي إلى واحة سيوة. ونتيجة لهذا الاقتصاد المزدهر في مجالي الزراعة والتجارة صارت قورينة في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد تعتبر احدى العواصم المهمة في العالم الإغريقي.

نظام الحكم الإغريقي في قورينة في العصر الملكي:

لقد أُنشأ سابقاً بالشكل العام لنظام الحكم الملكي الوراثي الذي كان سائداً في قورينة خلال أول قرنين من حياتها. وبالرغم من قلة مصادرنا عن العصر الملكي في قورينة فإنه لا بد لنا ان نتذكر حقيقة اساسية عامة تكاد تصدق على المجتمعات البشرية في كل مكان وزمان الا وهي ان الانسان حريص دائماً على ان ينقل معه تراثه وعاداته وتقاليده. ان هذا القول يصدق إلى حد كبير على حركة التوسع الاغريقية: فالمعروف بشكل عام ان المستوطنة الاغريقية خارج بلاد اليونان كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمدينة الام وتتأثر بها تؤثر فيها إلى حد كبير. ولما كانت قورينة مستوطنة دورية فلا نعتقد اننا نجافي الحقيقة اذا افترضنا ان تنظيمها السياسي كان إلى حد كبير صورة عن التنظيم السياسي في البلد الأم وهي جزيرة ثيرا الدورية: وقوام ذلك التنظيم هو ان يوزع المواطنون في المدينة إلى ثلاث قبائل. ولقد سبق ان علمنا من هيرودوتس ان المهاجرين الأول من ثيرا كانوا يمثلون الاقسام السبعة لسكانها: واذن فلا بد انهم نظموا انفسهم على شكل قبائل ثلاث تضم الاقسام السبعة - على غرار التنظيم الذي كان سائداً في ثيرا - منذ ان استقروا في قورينة بزعماء ملكهم باتوس. وما يؤيد هذا الرأي ان المشرع ديموناكس قسم مواطني قورينة إلى ثلاثة قبائل عندما استدعى لاصلاح دستورها في عهد باتوس الثالث الاعرج. ولعل ديموناكس اما كان يضفي الصبغة الشرعية على وضع كان قائماً. ومنذ نشوء قورينة قسمت اراضيها بين القبائل الثلاث

فتكونت بذلك أول طبقة من الارستوقراطيين المؤسسين. ملاكي الأراضي. ولكن لما كان عدد هذه الطبقة قليلاً²² فان قورينة سارت بين الحين والحين الاخر على سياسة توزيع هبات من الأراضي لمن يرغب في الهجرة إليها من الإغريق. وذلك لكي تدعم مركزها وتقوي وجودها في منطقة ساحل برقة. وخير مثال عل هذا هو ما ذكره هيرودوتس من حريق موحى دلفي للاغريق على الهجرة إلى قورينة في مطلع عهد باتوس ((السعيد))²³ وهنالك مثال اخر ما فعله اركيسيلوس الثالث الذي اقطع الأراضي في قورينة لكل من التفت حوله من الإغريق وأزره في استرجاع عرشه²⁴. ولما كنا نعرف ان ملكية الأرض هي الاساس الذي ارتكزت إليه الارستوقراطية الأولى في قورينة فإننا نعتقد ان كل مهاجر اغريقي جديد قدم لقورينة بعد ان حصل سلفاً على ملكية لارض فيها كان ينضم لاحدى قبائلها الثالث ويسهم بذلك في تقوية ارستوقراطيتها الأولى وتوسيعها. وبهذا فنحن نعارض ما ذهب إليه البعض من قصر الطبقة الارستوقراطية على الملاكين الأول ونسلاهم. وتقرير ان كل المهاجرين الذين قدموا لقورينة بعد قيامها وجدوا انفسهم في وضع التابع بالنسبة لطبقة المستوطنين الأوائل²⁵. ولما كان لا بد من وجود الأتباع فالتفسير المعقول هو ان نقول ان المهاجرين الجدد الذين اجبرتهم ظروفهم الجديدة في قورينة على ان يكونوا اتباعاً للارستوقراطيين الأوائل هم اولئك الإغريق الذين قدموا إلى قورينة دون ان يؤمنوا لانفسهم ملكية مسبقة. وهم ايضا صغار الملاكين الذين رأوا بالتجربة أنهم لا يستطيعون البقاء دون الالتجاء إلى غيرهم من كبار الملاكين. وهم ايضا العمال الفنيون والصناعيون ان صح التعبير. ويضاف إلى هؤلاء جميعاً بعض الليبيين الذين تأغرّفوا وربما ايضا بعض الإغريق من كانوا من أمهات ليبية.

عند هذا الحد تبلور في ذهننا صورة واضحة لمجتمع قورينة. فهو مجتمع

- 22- أنظر ص 239 أعلاه حيث يذكر هيرودوتس أن عدد المهاجرين المؤسسين كان عبارة عن حمولة سفينتين من ذوات الخمسين مجدافاً أي مائتي مهاجر
23- أنظر ص 244 أعلاه.
24- أنظر ص 247 أعلاه.
25- أنظر عبد العليم. مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. منشورات الجامعة الليبية. المطبعة الأهلية. بنغازي. 1966. ص 125 - 128.

طبقى هرمي تنقصه الطبقة المتوسطة بينما تتكون قاعدته من الأتباع وتترتب قرب قيمته طبقة ارستوقراطية من الملاكين ويقوم فوق الجميع ملك مطلق جمع في يديه مقاليد السلطات الدينية والعسكرية والمدنية.

وازاء النقص في مصادر هذا العصر لا بد لنا لن ان نلجأ ثانية إلى القياس على ما كان يجري في المدن الاغريقية في بلاد اليونان ذاتها. ولا بد انه كان لقورينة منذ مرحلة مبكرة في تاريخها مجلس شيوخ Gerousia. وهي كمستوطنة دورية لا بد ايضا انها كانت بها هيئة الإيفور الخمسة Ephors²⁶ الذين ربما كان الملك يعينهم ويعد إليهم ببعض سلطاته القضائية. وسنلاحظ انه بالإضافة إلى هذين المجلسين كان يوسبيريدس مجلس ثالث هو مجلس الشورى Boule. ولما كان من المرجح أن الذين اقاموا مستوطنة يوسبيريدس هم إغريق من قورينة فان وجود مجلس شورى في يوسبيريدس يشجع الافتراض ان قورينة كان لها مثل ذلك المجلس.

وإذا سلمنا بوجود هذه المجالس من وقت مبكر في تاريخ قورينة فانا لا بد ان نستنتج ان النزاع الذي كان يقع داخل أسرة باتوس المالكة كالذي حصل بين اركيسيلوس الثاني واخوته انما هو نزاع بين الملكية والارستوقراطية. وإذن فان اصلاحات ديموناكس الدستورية التي نقلت الحكم من الملك إلى الشعب كانت في الواقع انتصاراً للاقلية الارستوقراطية على الملكية وليس ثورة ديموقراطية في دستور المدينة. ويذكر بهذا الصدد ان التطور نحو الديموقراطية في بلاد الإغريق الأم سار على نمط مشابه فانتقلت السلطات من يد الملك إلى يد طبقة النبلاء أو إلى يد طاغية تولى مقاليد الامور عن طريق غير شرعية ثم انتقلت بعد ذلك للشعب فصار يحكم نفسه بنفسه وهو ما نعنيه بالحكم الديموقراطي. لا بد ان قورينة أقامت نوعاً من الديموقراطية فيها في الفترة التي انقضت بين نهاية أسرة باتوس الحاكمة سنة 440 ق.م ودخول برقة في حوزة البطالمة بعد سنة 322 ق.م.

26- تشير مصادر العصر البطلمي إلى وجود هذين المجلسين في قورينة في عصر البطالمة. وربما كان الأول منهما هو الذي قصده هيرودوتس عندما ذكر أن الملكة فيرنتيما كانت تأخذ مقعدها في مجلس قورينا نيابة عن اركيسيلوس الثالث الذي كان لاجئاً في برقة. انظر أيضاً ص 247 أعلاه.

2- أبولونيا (=سوسة)

بعد تأسيس قورينة بقليل بدأ أهلها بتأسيس ميناء لمدينتهم في مكان مناسب وقريب فوقع اختيارهم على المكان الذي لا تزال آثاره قائمة إلى الآن وسموا المستوطنة الجديدة أبولونيا تعتمد كلية على قورينة حتى العهد البطلمي عندما بدأت أهميتها كميناء تنمو وتزداد خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وطيلة العصر الذي كانت تعتمد فيه على قورينة كان ينظر إليها باعتبارها ميناء قورينة وكأنها جزء من قورينة وليس مستوطنة مستقلة. وعلى ذلك الأساس فإن الحياة فيها كانت خاضعة لما عليه قورينة. أما النشاطات التي كانت تجرى في هذا الميناء فكانت تصدير واستيراد ما تقرر قورينة تصديره واستيراده بالإضافة إلى تقديم الخدمات للمسافرين من قورينة والقادمين إليها. ومن المؤسف أن البحر ابتلع ما يزيد عن ثلث هذه المدينة فجعل من الصعب تحديد الميناء الإغريقي وارضفته وان كان من المحتمل انه اقيم إلى الشرق من النتوء الصخري البارز في البحر وانه كان يضم بركة كليوبتر.

3- برقة (= المرج) Berca, Barka:

لقد مر بنا كيف قامت جماعة من إغريق قورينة بتأسيس هذه المدينة بمساعدة قبيلة الأوسخيزي الليبية سنة 550 ق.م. وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف عن هذه المدينة سوى أنها كانت دون شك تستغل السهل الخصيب المحيط بها بالزراعة وبتربية الخيول البرقية المشهورة بأصالتها وسرعتها وباحرازها قصب السبق في المباريات اليونانية كما حدث في عهد الملك باتوس الرابع عندما فازت قورينة فوزا باهرا في الألعاب البيثية سنة 366 وفي سباق العربات سنة 462 ق.م. بفضل الخيل البرقية. وقد حمل فوز قورينة في الألعاب البيثية الشاعر الإغريقي الكبير بندار على تخليد هذه المناسبة في قصيدتين رائعتين من قصائده.

4- طلميثة

تقع طلميثة على الساحل مقابل مدينة برقة من الشمال وقد

استخدمت كميناء لمدينة برقة. وكانت هذه المستوطنة في الأصل تقوم محل المدينة الحالية إلى جانب المرفأ. ويدل ما اكتشف من آثارها على أنها كانت قد خططت بعناية ولكن الآثار التي تم كشفها فيها حتى الآن ترجع إلى عصور لاحقة وسنعرض لها في حينه. وتدل أقدم الخزفيات التي اكتشفت في طلميثة وأبولونيا على ان هاتين المدينتين أسستا بعد تأسيس قورينة سنة 631 ق.م بقليل. وعلى هذا الأساس فإن طلميثة لا يمكن ان يكون أسسها أناس من برقة كميناء للمدينة الاخيرة لان طلميثة اقدم من برقة وان كانت صارت تؤدي غرض الميناء بالنسبة لبرقة وتسمى ((ميناء برقة))

5- توكرة:

نستدل من اقوال بندار على ان المهاجرين من قورينة هم الذين قاموا بتأسيس توكرة وأبولونيا. وقد أيد هذا القول ما اكتشف من حفريات يرجع تاريخها إلى ما بعد تأسيس قورينة سنة 631 ق.م. وكان المتعارف عليه عامة ان توكرة أسسها قادمون من برقة ولكن الاخيرة لم تؤسس الا في وقت متأخر في عهد اركيسيلوس الثاني. وعلى ذلك فليس هنالك ما يبرر ماذهب إليه البعض من ان توكرة كانت تشاطر برقة كراهيتها لقورينة في القرن الذي تلا تأسيس برقة. وانها لذلك تأثرت بالغزوة الفارسية لبرقة سنة 515 ق.م. وان كان الفرس قد مروا بها لا محالة أثناء تلك الغزوة وهم في طريقهم إلى يوسبيردس. وليس هنالك في الآداب الكلاسيكية ولا في الحفريات التي اجريت حتى الان ما يدل على أصل السكان الذين استوطنوا توكرة ولكن يكاد يكون من المؤكد انهم قدموا من قورينة وان كان هنالك احتمال انهم كانوا اغريقا جاؤوا مباشرة إلى توكرة من بلاد اليونان دون المرور في أبولونيا مينا قورينة. ويقول اصطفانوس (Sephanus) ان هذه المستوطنة سميت باسم توكيرا (Tcheria) ابنة اوتاندروس (Autandros). وهما اسمان لا يذكرهما أي كاتب آخر.

6- يوسبيردس (= بنغازي)

يؤكد جودتشايلد ان مستوطنين من قورينة أو برقة قاموا قبل سنة

515 ق.م بتأسيس مستوطنة يوسبيريدس الأولى على الطرف الشمالي من سبخة السلماني الحالية حيث توجد الآن مقبرة سيدي عبيد الفيتوري²⁷. أما لماذا اختاروا ذلك الموقع على طرف السبخة فتعليله ان السبخة كانت آنذاك عبارة عن بحيرة ضحلة متصلة بالبحر وصالحة للملاحة القوارب والسفن الصغيرة التي كانت دون شك تصلها بالميناء القديم الذي ربما كان يقع إلى الغرب قليلا من المنارة الحالية.

واقدم اشارة ليوسبيريدس هي تلك التي أوردها هيرودوتس في حديثه عن الحملة الفارسية على مدينة برقة سنة 515 ق.م.²⁸ واذن فلا بد ان هذه المدينة كانت قائمة قبل ذلك التاريخ. واقدم عمله وجدت لها حتى الان ترجع لسنة 380 ق.م ويظهر على أحد وجهيها نبات السلفيوم بينما تظهر سمكة دلفين على الوجه الاخر²⁹.

ولابد ان يوسبيريدس كانت معرضة اكثر من غيرها لغارات القبائل الليبية المقيمة حول خليج سرت الكبير لانه كان من السهل على تلك القبائل ان تتقدم عبر السهول إلى يوسبيريدس. ولعل البحيرة هي التي كانت توفر بعض الحماية لهذه المستوطنة. من هذا القبيل ما نسّمعه من ثوسيديس (Thucydides) عن قبائل ليبية تضرب حصارا على يوسبيريدس سنة 414 ق.م. فلا يرفعه عنها الا وصول أسطول اغريقي كان في طريقه إلى سيراكوسة بقيادة رجل اسمه جيليبوس (Gylippus) فساقته الرياح إلى يوسبيريدس. إننا لا نشك في ان هذا الوضع القلق دعا إلى استقدام جماعة جديدة من المستوطنين الإغريق ولكنهم لم يمكثوا الا قليلا ثم عادوا إلى مدينتهم مسينا سنة 369 ق.م. واخر مرة ظهرت فيها يوسبيريدس على المسرح السياسي كانت سنة 322 ق.م. عندما ضلعت مع برقة في تأييد مغامر اسمه ثبرون (Thibron) كان يطمع في اقتطاع جزء من برقة يقيم فيه ملكا لنفسه. ولكن قورينة وحلفاءها من الليبيين تصدوا لذلك المغامر وتمكن أحد الليبيين من أسره في النهاية حيث قام أهل توكره بشنقه. ولا

27- أحد أبناء زليطن ورئيس نظام العروسية في برقة.

28- أنظر الصفحة 250 أعلاه.

29- ربما كانت صورة الدلفين رمزاً لبوزايدن إله البحر.

شك ان يوسبيريدس قاست نتيجة تورطها في ذلك النزاع وضلوعها مع الطرف الخاسر.

أما ما نعرفه عن التنظيم السياسي لهذه المدينة فهو قليل وينحصر في نقش مهم عثر عليه في موقع يوسبيريدس ويرجع تاريخه إلى سنة 350 ق.م. وهو يبين أن هذه المستوطنة كان لها مجلس قضاة (Ephors) ومجلس شيوخ (Gerousia) وفي النقش يقترح الشيوخ على مجلس الشورى (Boule) تكريم اثنين من أبناء مدينة سيراكوسة لقاء خدمات معينة كانا قدماها ليوسبيريدس. ولعل وجود هذه المجالس دليل على أن التنظيم السياسي ليوسبيريدس. وربما لمعظم المستوطنات الإغريقية في برقة. إن لم نقل كلها. كان بصفة عامة مشابهاً للتنظيم السياسي في قورينة.

وبالنسبة لاسم هذه المستوطنة فقد قطع جودتشايلد بأن يوسبيريدس (Euesperides) هو أصح وأقدم اسم لها³⁰. وقد البس هذا الاسم أكثر من ثوب من ثياب الأساطير الإغريقية القديمة نظراً للشبه بينه وبين الأسماء الواردة في أساطير هي أقدم من المدينة ذاتها. فقد ذهب عدد من الكتاب القدامى إلى أنها سميت هسبيريدس (Hesperides) نسبة للأخوات الأسطوريات الأربع³¹. بنات هسبيروس. اللواتي كن يحرسن البستان المسمى باسمهن والذي كانت الإلهة هيرا «Hera» قد تلقتة كهدية بمناسبة زواجها من الإله زيوس (Zeus). وتقول الأسطورة إن هذا البستان كان مليئاً بشجر التفاح الذي يثمر الذهب ولذلك فقد وكل الأخوات الأربع بحراسته نظراً لما كن يتحلين به من قدرة عجيبة على الغناء الساحر. ووضع الأفعوان الخيف لأن (Ladon) حث تصرفهن لكي يساعدهن في حراسة البستان. وإمعاناً في هذا الاتجاه فإنهم تعرفوا على بحيرة تريتونس (Tritonis Lacus)³² وقالوا

30- Goodchild, R.G., Benghazi, The Story of a City, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd edition, Lamin Hasni s Press, 1962.

31- Their names were: Aegle, Erythcia, Hestia and Arethusa

32- After Triton, Son of Poseidon, God of the Sea.

إنها هي البحيرة الواقعة إلى الجنوب من المدينة القديمة. كما تعرفوا على البستان نفسه في أحد المنخفضات في موقع سواني بن عصمان على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الشرق من بنغازي وإلى الشمال من الطريق إلى مطار بنينا. وقريبا من موقع البستان وجدوا كهفاً به بحيرة جوفية فاعتبروه نهر ليث. الذي هو نهر النسيان في العالم السفلي في الأساطير الإغريقية. وكان إلى الشمال الغربي من المدينة نهر سماه الفينيقيون نهر لاثن وهي تسمية تلفت النظر لما فيها من توافق عجيب مع التسمية الإغريقية للأفعوان لادن الذي سبق ذكره.

ويعارض سي. جي. سي هايسلوب (C.G.C. Hyslop) في كتابه (Cyrene and Ancient Gyrenaica) الصادر في طرابلس سنة 1945 م. هذه الآراء ويقول إن المؤسسين الإغريق أسموا المدينة يوهسبيريدس ومعناها بالإغريقية «مدينة الغرب السعيدة» نظراً لخصوبة الأرض التي كانت تجاورها من الغرب. وإن تسميتها هسبيريدس ناجمة عن التباس هذه التسمية على الكتاب القدامى تحت تأثير ما يعرفونه من الأساطير الإغريقية.

وبالإضافة إلى هذه المستوطنات المشهورة فلا شك أنه كانت هنالك مواقع أخرى كثيرة على ساحل برقة لا يمكن أن يكون قد فات الإغريق أن يستفيدوا منها ويستغلوها من مثل درنة (Dernis) وطبرق (Antipyrgos) وبمبا وعين غزالة والبردية. ولكن الحفريات لم تنشط في هذه المواقع لتوقفنا على أحوالها الماضية.

جمهورية برقة في ظلل الفرس والبطالمة

(440 - 96 ق. م.)

استولى الفرس على مصر سنة 525 ق. م. ولم يلبثوا حتى بسطوا نفوذهم على برقة خاصة القسم الساحلي منها أي المنطقة الإغريقية³³. ويبدو أن الفرس لم يركزوا قوات فارسية في برقة بل اكتفوا بإرسال الحملات العسكرية كلما دعت الضرورة. وقنعوا من هذه المنطقة بأن تعلم خضوعها لهم وتدفع لهم الجزية. وتركوا لها مهمة تصريف شؤونها كما تشاء. وقد سبق أن لمنا في الحديث عن قورينة أن أركيسيلوس الرابع (حوال 465 - 440 ق. م.) كان قد أعلن تبعية قورينة. وهي أهم مدينة إغريقية في برقة. لحاكم مصر الفارسي وحدد الجزية السنوية التي صارت تلك المدينة تدفعها للفرس. ولا بد أن بعض القبائل الليبية في برقة. وخاصة القريبة منها من الساحل. قد خضعت للفرس كذلك³⁴. وما يؤيد هذا القول أننا نسمع عن وجود فرقة ليبية في جيش الملك الفارسي كزركسيس عند زحفه على بلاد اليونان. وتجدر الإشارة هنا إلى أننا لا نسمع شيئاً عن موقف المدن الإغريقية في برقة من الحرب بين الإغريق والفرس طيلة النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد. ولعل الذي حدث هو أن تلك المدن كانت خاضعة للحكم الذي أقامه الفرس في مصر مما حال بينها وبين مد يد المساعدة لبلاد الإغريق. هذه ناحية أما الناحية الأخرى فتتلخص في بُعد تلك المدن عن بلاد اليونان وعدم التزامها بالارتباط بها مائة بالمائة.

وبعد أن انقضت أسيرة باتوس حوالي سنة 440 ق. م. سادت منططقة برقة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار مما شجع بعض القبائل الليبية على مهاجمة المدن الإغريقية كما حدث لمدينة يوسبيريدس سنة 414 ق. م.³⁵

33- كان باتوس الرابع. ملك قورينة. قد اعترف بالتبعية للملك الفارسي قمبيز بعيد إستيلاء الأخير على مصر سنة 525 ق. م.

34- انظر ص 248 أعلاه.

35- انظر ص 265 أعلاه.

وفي الوقت ذاته كانت المدن الإغريقية تزرع تحت وطأة صراع داخلي احتدم بين الطبقة الأرستوقراطية، التي نصبت نفسها في مراكز القوة والحكم بعد زوال الملكية. وبين البقية الباقية من سكان تلك المدن. واستمرت برقة تفاسي من الفوضى والصراع الداخلي إلى أن حل عهد الاسكندر الكبير الذي اكتسح الإمبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة 333 ق.م. فبادرت المدن الإغريقية في برقة وفي مقدمتها قورينة بإعلان تبعيتها له لدى سماعها عن بلوغه بارتونيوم «Paraetionium» (= مرسى مطروح). وقد أعربت قورينة بالذات عن ولائها له وترحيبها به بتقديم هدايا كان من جملتها ثلاثمائة جواد وخمس عربات حربية من ذوات الخيول الأربعة. وعندما زار الاسكندر الكبير معبد آمون في سيوة بادر عدد من القبائل الليبية بتقديم ولائهم له. والمعروف أن الاسكندر الكبير «عين - قبل مغادرته مصر إلى الشرق - أبولونيوس بن خارينوس (Apollonioos Charinos) حاكماً على ليبيا [منطقة برقة]³⁶. وائر وفاة الاسكندر الكبير سنة 323 ق.م. تقاسم خلفاؤه الثلاثة إمبراطوريته فيما بينهم فوَقعت مصر من نصيب حاكمها بطليموس بن لاجوس الذي صار فيما بعد الملك بطليموس الأول الملقب سوتر (Soter) أي المنقذ. وفي أواخر سنة 323 ق.م. اندلعت ثورة في قورينة وانتشر لهبها إلى بقية المدن الخمس التي كانت كغيرها من الجمهوريات الإغريقية فريسة للتطاحن الحزبي فاغتنم المغامر الاسبارطي ثبرون (Thibron) والمغامر الكريتي مناسكليس (Manasicles) تلك الفرصة فترزع كل منهما فريقاً من الثوار. وتمكن ثبرون من دخول قورينة إلا أن الحزب الديموقراطي فيها لم يلبث أن استولى على السلطة وطرد ثبرون كما طرد عدداً من أغنياء المدينة الأرستوقراطيين. ولكن ثبرون عاد فحاصر قورينة بينما التف حوله عدد من الأثرياء المطرودين ولجأ عدد آخر منهم إلى مصر يستجدون ببطليموس الأول. واغتنم بطليموس تلك الفرصة فأرسل رفيقه أوفلاس الأولنثي على رأس قوة برية وبحرية لوضع حد للصراع في المنطقة. واخذ المغامران مجابهة أوفلاس ولكنه هزمهما وأسرى ثبرون وصلبه.

36- نصحي. إبراهيم. تاريخ مصر في عصر البطالة. مكتبة الأجلو المصرية. الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء). القاهرة، 1966. ج.1، ص 32.

وبمناسبة هذا الانتصار قدم بطليموس نفسه إلى منطقة برقة ونصب أوفلاس حاكماً عليها، ولكن مدنها ظلت تحتفظ بنظمها الجمهورية في ظل العهد البطلمي الذي كانت منطقة برقة خلاله ملكاً للبطالة باستثناء فترة استقلالها الوجيزة من 283 - 273 ق.م. ولم يكن من السهل على أوفلاس أن يخضع منطقة برقة فقد ثارت عليه سنة 313 ق.م. وكادت تطيح به لولا أن بطليموس الأول سارع بإرسال حملة أخمدت الثورة وأعدت أوفلاس لكرسي الحكم من جديد. وفي سنة 311 ق.م. استقل أوفلاس ببرقة بتشجيع من أنتجونس. قائد عام قوات آسيا الذي كانت علاقته مع بطليموس الأول قد ساءت. وخالف أوفلاس مع أجاتوكليس السراقوسي ضد قرطاجة ولكنهما اختلفا في النهاية ففضى الأخير على أوفلاس سنة 308 ق.م. وكان ذلك من حسن حظ بطليموس الأول. وفي هذه الأثناء وبينما كان بطليموس الأول يترأس حملة ضد بلاد اليونان سنحت له الفرصة. بمقتل أوفلاس. لكي يستعيد برقة فكر عائداً لمصر من أجل تلك الغاية وأرسل ماجاس. ابن زوجته برنتشي. على رأس حملة نجحت في استعادة منطقة برقة. فكافأ بطليموس الأول ماجاس على ذلك النجاح بتعيينه سنة 300 ق.م. نائباً عنه في حجمها. ويدل كل هذا الاهتمام الذي أحاط به بطليموس الأول منطقة برقة على أن «قوريناثة [منطقة برقة] كانت تعني مصر مباشرة... وقد أثبتت الأيام أن ضم قوريناثة لم يزد في قوة بطليموس بل أصبح بمثابة شوكة في جانب البطالة. فمن ناحية لم يمثل أهلها للخضوع لسلطة أجنبية لأنهم اعتادوا على الحرية والاستقلال. ومن ناحية أخرى كانت الأطماع الشخصية تغري حكامها بالخروج على طاعة الملك»³⁷.

37- المصدر نفسه. ج.1، ص 80.

الحرب بين قورينة وقرطاجنة:

نتيجة للازدهار الذي أصابته قورينة في المجالات المختلفة فإنها أصبحت إلى جانب كونها مركز إشعاع ثقافي. مركزاً للقوة الإغريقية على ساحل برقة. وكان يقابلها بعيداً إلى الغرب على الساحل التونسي مركز ثقافة وقوة فينيقي هو قرطاجنة. وبالرغم من أن قرطاجنة كانت أعظم شأناً وقوة من قورينة إلا أنه كان لا بد أن تتعارض مصالحها باعتبار أن كلاهما كانت تنتمي إلى قارة مغايرة لقارة الأخرى فهما وإن قامتا على ساحل الشمال الإفريقي إلا أن قرطاجنة كانت آسيوية بينما كانت قورينة أوروبية. وإذن فنحن لا نبالغ إن رأينا في اصطدامهما حلقة صغيرة في سلسلة التصادم بين أوروبا وآسيا. وبالإضافة لذلك كله فإن التنافس بين الفينيقيين القرطاجيين والمستوطنين الإغريق في جزر البحر الأبيض المتوسط كان لا بد أن يؤدي إلى الاصطدام بين أولئك الإغريق والقرطاجيين وبالتالي بين القرطاجيين والقورينيين. ولم يطل الوقت بالمدينتين حتى تنازعتا على تعيين الحدود بينهما في منطقة طرابلس في أعقاب قصة الأخوين فيليني التي سنفصل القول فيها في موضع آخر. وفي هذه المرة توصلنا إلى اتفاقية على الحدود فيما بينهما إلا أن تلك الاتفاقية حسمت النزاع مؤقتاً ولم تحسم العداء الذي ظل قائماً في مكانه في انتظار ظروف مناسبة تسمح له بالتعبير عن ذاته. وجاءت الفرصة المنشودة في عهد بطليموس الأول. خليفة الاسكندر الكبير. عندما استجاب أوفلاس (Ophellas) حاكم قورينة الذي كان قد استقل بها. لدعوة تلقاها من أجاثوكليس (Agathocles) ملك سيراكوسة الإغريقي. الذي كان قد فاجأ قرطاجنة ونزل بقواته على البر التونسي. يحثه فيها على مشاركته في مهاجمة قرطاجنة ويؤكد له أنه سيؤيده. في حالة الانتصار على قرطاجنة. في أن تكون له. أي لأوفلاس. اليد المطلقة في برقة. وصادفت هذه الدعوة هوى وطموحاً في نفس أوفلاس فسار سنة 308 ق.م. بجيش يشبه مستوطنة متحركة برجالها ونسائها وأطفالها. وانضم إليه عدد كبير من أعوانه الليبيين. وجنّسهم جميع مشقة السير المضني حول خليج

سرت الكبير في منتصف الصيف القاسي. ولا يعرف ما فعله هذا الجيش بالمستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس وإن كنا نظن أنها فتحت أبوابها أمام القادمين جنباً للصرع وإراقة الدماء. والمعروف. على أي حال. أن عدداً قليلاً جداً من رجال أوفلاس تمكنوا من العودة سالمين من تلك الحملة. أما هو نفسه فقد لقي مصرعه على يد حليفه في تونس إثر خلاف نشب بينهما مما أتاح الفرصة لقرطاجنة فأجهزت على البقية الباقية من القوات المتحالفة: وانتهى بذلك التحدي الإغريقي الرئيسي لقرطاجنة ولسلطانها في شمال إفريقيا. ذلك التحدي الذي ورثته روما بعد نصف قرن من الزمن كجزء من التركة الإغريقية فسارت به حتى نهاية الشوط ونهاية قرطاجنة في موجة عدوان جديد لأوروبا على إفريقيا وآسيا مثلتين في قرطاجنة. وبمقتل أوفلاس خضعت برقة للبطالة من جديد. ولما كان البطالة ورتاء الاسكندر وخليفته أو نائبه أنتيباتر فإنهم لم يرثوا عنهما جزءاً من الإمبراطورية فقط بل ورثوا أيضاً نظام الحكم والنظام العسكري ونظماً أخرى وعادات وتقاليده تشكل في مجموعها طريقة حياة كاملة. ولتوضيح هذه النقطة نقول إن الإسكندر الكبير كان يعامل المدن الإغريقية أينما وجدت كحليفة حرة. ولكن خليفته أنتيباتر رغب في معاملتها كراعياء وكدول مغلوبة تابعة له يضع الحاميات فيما يشاء منها ونصّب في دست الحكم بها أوليجركيات (أقليات) تناصره. أو طغاة يمالئونه. وقد حذا البطالة حذو أنتيباتر في هذه السياسة فصاروا يعينون حكاماً أو مندوبين للملك في المدن التابعة لهم. وفي بعض الأحيان كان الملك البطلمي يتولى بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين الأول كما فعل بطليموس الأول بالنسبة لمنطقة برقة³⁸ ندما عين ماجاس حاكماً لها كما أسلفنا. وكما فعل بطليموس الثاني فيلادلفوس - وكان ماجاس المذكور ابناً لزوجة أبيه برنيتشي - عندما أقر ماجاس المذكور في منصبه حاكماً لقورينة³⁹ نيابة عن الملك.

38- تارن. وليم. الحضارة الهلينستية. الطبعة الثالثة. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. مكتبة الأجلو المصرية. القاهرة. 1966. ص 73 - 75.

39- نصحي. إبراهيم. تاريخ مصر في عصر البطالة. مكتبة الأجلو المصرية. الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء). القاهرة. 1966. ج 2. ص 334. حيث يقول: «إن المشكلة الرئيسية التي واجهت البطالة في قوريناينة قد واجهتهم كذلك في كل ممتلكاتهم التي كانت المدن الإغريقية

وفي مناسبة التعيين الأولى بإشراف ماجاس سلطات منصبه كحاكم لقورينة ابتداءً من سنة 300 ق.م. وبعد سنة 283 ق.م. (أي بعد وفاة بطليموس الأول) انتحل ماجاس لنفسه لقب ملك. ذلك اللقب الذي كان قد سقط من الاستعمال في قورينة منذ انتهاء أسرة باتوس. ولم يكتف ماجاس بكل ذلك بل أعلن استقلاله ببرقة وزحف على مصر سنة 274 ق.م. وأشرف على الاسكندرية ولكن الملكة أرسينوي، زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي أصبح ملكاً لمصر. نجحت بدهائها في إثارة قبائل المارمريدي الليبية ضده ووراء ظهره في ماريكا ما جعل حملته تبوء بالفشل ودفعه إلى التوصل لاتفاق مع بطليموس فيلادلفوس وذلك بعقد قران ابن بطليموس فيلادلفوس وخليفته على برنتشي ابنة ماجاس. وتخليداً لهذه المناسبة قام البطالمة بتغيير أسماء مدن برقة وسموها بأسماء ملكية كما سنبينه فيما بعد. وسقط اللقب الملكي من جديد وعاشت برقة طيلة المائة سنة التالية تحت حكم مصري لم تحدد معالمه.⁴⁰

وإذا نحن ألقينا نظرة على دستور المدينة الإغريقية المتمتعة بالحكم الذاتي من مثل المدن الإغريقية على ساحل برقة، فإننا سنلاحظ لأول وهلة أن ذلك الدستور يبدو وكأنه ظل على صورته الأولى دون أن تحسه يد التغيير⁴¹: فقد كان بكل مدينة جمعية تضم شمل أحرارها كما كان لها مجلسها

تقوم بالدور الرئيسي في حياتها. وإذا استبحنا لأنفسنا أن نستند إلى الوثائق القليلة التي لدينا في الحكم على موقف البطالمة من رعاياهم الإغريق بوجه عام، فإننا نرى البطالمة لم يعبأوا كثيراً باستقلال المدن الخاضعة لهم لأن سيطرتهم على هذه المدن تبدو بجلاء في وثائقها الرسمية، فديباجة هذه الوثائق لا تستهل عادة باسم المدينة وشعبها ومجلسها وحكامها بل باسم الملك⁴².

40- Wood, Roger & Wheeler, Mortimer, Roman Africa in Colour, Thames & Hudson, London, 1966, p. 16.

41- حافظ البطالمة على جوهر دستور منطقة برقة واكتفوا بإدخال بعض التعديلات التي كانت تكفل لهم خضوع المنطقة فاحتفظوا لأنفسهم بالامتيازات التالية: (1) الحق في أن يدمجوا في القبائل بعض المواطنين الجدد الذين ربما كانوا من أرباب الإقطاعيات العسكريين في الجيش البطلمي. (2) الحق في أن يعيدوا إلى المنفيين من أنصارهم بعض حقوقهم. (3) الحق في اختيار أعضاء مجلس الشيوخ. (4) الحق في تولي منصب الحاكم العسكري «Strategos» (5) التدخل في قضايا المنفيين. (6) الحق في منح حقوق المواطنة. انظر أيضاً: نصحي إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1966، ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني، ص 333.

وحكامها وسلطاتها التشريعية، وماليتها غير المستقرة، وخلافاتها الداخلية... حتى إذا حل الربع الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد كانت الأوليجركية والديموقراطية كمنظرتين سياسيتين قد لفظتا آخر أنفاسهما وأخذ الأساس الذي يقوم عليه تكتل الناس يتجه اتجاهات جديدة كالتشيع للبطالمة، أو للأحزاب الوطنية والروح القومية، أو للانضواء لطبقة الأغنياء أو الفقراء، وربما صارت السلطة تنتقل إلى مجلس الشورى أو يتولاها الحكام بعد أن يندمجوا في لجنة واحدة.

على ضوء ما تقدم يمكننا القول إن المدن الإغريقية الواقعة في ممتلكات البطالمة الأجنبية - أي خارج مصر - ومنها مدن برقة كانت خاضعة لهم خضوعاً لا شك فيه؛ وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس تلك الصفة. كما ان شكل نظام الحكم كان مرتبطاً بأموجه المصري بحيث تخضع المدن في الممتلكات الخارجية لقواد إغريق أو مقدونيين مع جعل الرئاسة في المدن بيد حكام مدنيين، وربط الشؤون المالية بالديوكيتس (Dioiketes) أي وزير المالية البطلمي الذي كان مقره في الاسكندرية بمصر.

وقد تجلت نظرة البطالمة بصدد اعتبارهم لبرقة ملكاً شخصياً لهم فيما أدخلوه من تغيير على أسماء مدنها الإغريقية وما سموها به من أسماء ملكية:

1- فقد غيروا اسم توكرة وسموها أرسينوي (Arsinoe) باسم زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس.

2- وغيروا اسم طلميثة الحالية وأسموها بطليموسة (Ptolemisa) لاباسم بطليموس الثاني فيلادلفوس.

3- وغيروا اسم يوسبيريدس وسموها برنتشي (برنيقة) باسم ابنة ماجاس زوجة بطليموس الثالث.

ومع كل ذلك فإن برقة ظلت دون شك تحتل مكانة خاصة بين ممتلكات البطالمة خارج مصر: فقد كانت عبارة عن ملحق لمصر يندب لحكمها أحد أعضاء الأسوة البطلمية، ومن الوجهة الإقتصادية كانت برقة ذات أهمية

بالغة لأنها منطقة زراعية شديدة الخصوبة إلى حد أنها كانت تعتبر أحد أهراء العالم القديم. أضف إلى ذلك أنها كانت موطن نوع من أفضل الخيول التي كانت البطالة في أمس الحاجة إليها. كما ان قورينة كانت منذ تاريخ تأسيسها مركزاً مهماً للتجارة الخارجية. ونحن وإن كنا لا نعرف غير القليل عن التنظيم الاقتصادي في قورينة وبرقة إلا إنه ما يلفت النظر ذلك الشبه القوي في التركيب الاجتماعي بين قورينة وبرقة من ناحية - كما وصفه استرابو - وبين الاسكندرية ومصر من الناحية الأخرى. فقد كان في قورينة عدد كبير من السكان غير الإغريق. وكان معظمهم من اليهود. إلى جانب مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة وآخرين يتمتعون ببعض حقوق المواطنة فقط. وآخرين من الغرباء الذين لم تكن لهم حقوق مواطنة على الإطلاق. وربما كان بعض هؤلاء الأخيرين من السكان الليبيين الأصليين. أما سكان الريف فقد كانوا عبارة عن مزارعين يستغلون أراضي تابعة إما لقورينة وإما للملك. وربما كانت هذه الطبقة من المزارعين تشمل بين صفوفها الجنود المتقاعد المستوطنين.

وإذا ما تذكرنا أن من أهم منجزات العصر البطلمي في مصر في مجال الزراعة إدخال عصر الحديد إلى البلاد على نطاق واسع يسمح للناس باستعمال الأدوات الحديدية استعمالاً شاملاً في حياتهم اليومية. فإننا لا بد أن نستنتج من ذلك أن البطالة شجعوا انتشار الأدوات الحديدية الزراعية في برقة كذلك⁴².

أما القبائل الليبية في هذا العصر فإن سكايلاكس (Skylax) الذي تناول هذا الموضوع حوالي سنة 320 ق.م. أي مع بدء العصر البطلمي في برقة. يخبرنا أنها كانت موزعة على النحو التالي:

42- كان الحديد نادر الاستعمال في مصر الفرعونية وكان البطالة أول من أمد مصر على نطاق واسع بالأدوات الحديدية التي كان معظمها مستورداً. أنظر أيضاً: Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, reprinted 1954, Three Vols., Vol. I, P. 362.

- 1- الأدرماخيدي: وكانت ديارهم تمتد فيما يلي مصر غرباً حتى مدينة أبيس (زاوية الرخم إلى الشرق من السلوم).
 - 2- المارماريدي: وكانوا يعيشون إلى الغرب من الأدرماخيدي وينتشرن في داخل برقة حتى مشارف خليج سرت الكبير.
 - 3- الناسامونيون: وكانوا يستوطنون المنطقة إلى الشرق من خليج سرت الكبير في الجنوب الغربي من برقة وينتشرن حتى نصب الأخوين فيليني حيث يقوم الآن القوس الرخامي التذكاري.
 - 4- المكاي: وكانت ديارهم تقع بين ديار الناسامونيين في الشرق ونهر كينبس في الغرب.
 - 5- اللوتوفاجيون أو أكلة اللوتس: وكانوا ينتشرن في المنطقة. من نهر كينبس إلى جيثس (Giethis) مقابل جزيرة جربة بتونس.
- أما علاقة الليبيين بالإغريق في هذا العصر فقد كانت علاقة عداة مع المدن الإغريقية في برقة وكانت تتمثل في سلسلة الغارات التي ظلت القبائل الليبية تشنها على تلك المدن بين الحين والآخر. ليس في العصر البطلمي وحده بل أيضاً في العصور التالية حتى الفتح الإسلامي. وقد اكتشف في قورينة نقش مؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد سجل عليه أن خمسة من قواد تلك المدينة أهدوا أبولو عشر الغنائم التي استولوا عليها في أعقاب انتصارهم على قبيلتي المكاي والناسامونيين. كما انهم شيدوا الاستراتيجسوم في قورينة تخليداً لذلك الانتصار. ولكن علاقة الليبيين بالبطالة كانت تتسم بالتبعية والخضوع رغم استمرارهم في تصريف شؤونهم الذاتية بأنفسهم. فنحن نسمع عن وجود ثلاثة آلاف مقاتل ليبي في جيش بطليموس الرابع فيلوباتر. ونسمع عن إسهامهم إسهاماً فعالاً في ترجيح الطفلة لصالح بطليموس الرابع في معركة رفح التي خاضها سنة 217 ق.م. ضد قوات أنطيوخس الثالث ملك سوريا السلوقي. وبالرغم من ضآلة ما نعرفه عن النظم الإدارية والاقتصادية لبرقة في ظل البطالة فإننا نستطيع أن نتصور. بالقياس على ما كان جارياً في مصر. وجود طبقة

من الليبيين العاملين في المزارع والمراعي والاحتكارات الملكية الأخرى. إلى جانب الليبيين المشتغلين بالزراعة والرعي والتجارة في ريف برقة وباديتها وفي ظل النظام الليبي القبلي المتين⁴³.

يتضح لنا ما تقدم أن القبائل الليبية في برقة ظلت مخلصه لنظامها القبلي الذي كان ينظم لها طريقة حياتها. وأنها كانت على علاقة متأرجحة بالمدن الإغريقية في برقة: تتحسن حيناً فيسود التعاون والتبادل التجاري. وتتسوء أحياناً فيسود العداء والقتال والغارات. كما ان علاقتها بالبطالمة اتسمت بالتبعية الإسمية من ناحية وبالاستقلال الفعلي بشؤونها الداخلية من ناحية أخرى. أما المدن الإغريقية في برقة فقد لاحظنا أنها جميعاً وعلى الخصوص قورينة. كانت تخضع لنظام حكم ملكي مطلق حتى انقراض أسرة باتوس سنة 440 ق.م. وتلت هذا التاريخ فترة صراع عنيف بين الأوليغركية الأرستوقراطية والقوى الديمقراطية في مدينة قورينة: فقد روى كل من ديودورس الصقلي وأرسطو أن ثورة ديموقراطية انفجرت في قورينة حوالي سنة 401 ق.م. قتل فيها أكثر من خمسمائة من الأغنياء وفرّ الكثيرون منهم طلباً للنجاة. وقد ذكر أرسطو أن السبب الرئيسي في قيام تلك الثورة هو نعمة الطبقات الفقيرة على الحكومة الأوليغركية المستبدة بها. وفي أعقاب هذه الثورة آلت السلطة للحزب الديمقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديمقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديمقراطية التي كان كليستينس (Cleisthenes) قد سنّها في إصلاحه للأوضاع في مدينة لإثينا. أما ديودورس فقد ذكر أن الأوليغركيين لم يستسلموا للهزيمة بل أعادوا الكرة في محاولة لاسترداد السلطة فتمكنوا في بداية الأمر من إقصاء الديمقراطيين عن مراكز السلطة في قورينة حوالي الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ولكن الديمقراطيين كروا عليهم من جديد فهرب فريق من هؤلاء إلى مصر واستغاثوا بحاكمها بطليموس ابن

43- انظر أيضاً: عبد العليم. مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. منشورات الجامعة الليبية. المطبعة الأهلية. بنغازي. يناير 1966. ص 77.

لاجوس فاستغل هذا فرصة النزاع بين الحزبين وتدخل عسكرياً فاحتل قورينة سنة 322 ق.م. وبسط نفوذه على منطقة برقة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم العثور على لوح رخامي محفوظ في متحف شحاتت نقش عليه دستور لقورينة يعتقد أنه وضع لبطليموس الأول في السنة التالية لاستيلائه على قورينة. ويتكون هذا الدستور من خمس عشرة مادة وتغلب عليه النزعة الأوليغركية فهو لا يسمح للمدينة بالعودة إلى رحاب الديمقراطية خاصة وأن بطليموس إنما تدخل لصالح فريق من الأوليغركيين الهاربين ولكنه في الوقت ذاته لم يطلق يد هؤلاء الأوليغركيين ليعودوا أسبداً محتكرين كما كانوا قبل خروجهم⁴⁴.

وفي سنة 313 ق.م. ثارت قورينة على الحكم البطلمي ولكن بطليموس أرسل إليها حملة ساعدت أوفلاس على إخماد تلك الثورة وأعادته إلى كرسي الحكم في المنطقة. وفي سنة 311 ق.م. حضرت أوفلاس مطامعه الشخصية وما لقيه من تشجيع أنتيجونس على الاستقلال بمنطقة برقة. ولم يكتف بذلك بل خالف مع أجاثوكليس. ملك سيراكوسة في حملة ضد قرطاجنة وانتهت تلك الحملة بمصرعه على يد حليفه سنة 308 ق.م.⁴⁵ واغتنم بطليموس الأول هذه الفرصة وكلف ماجاس. ابن زوجته برنتشي. باستعادة منطقة برقة فنجح في ذلك وكافأه بطليموس الأول بتعيينه سنة 300 ق.م. نائباً عنه في حكمها. وقبل ذلك بقليل نسمع عن قيام بطليموس الأول بغزوة مجددة لمنطقة برقة سنة 301 ق.م. مما يرجح قيام ثورة في قورينة قبيل ذلك التاريخ. ولكن بطليموس الأول لم يلبث بعد القضاء على تلك الثورة إلا قليلاً ثم توفي سنة 282 ق.م. فنتهز ماجاس فرصة موته واستقل بمنطقة برقة وأعلن نفسه ملكاً عليها. وقد حفزه موقفه هذا إلى التقرب من ملوك سوريا السلوقيين فتحالف معهم ضد البطالمة وتزوج من أباما ابنة أنطيوخس الأول تعزيراً لعرى الصداقة بينه وبينهم. وقبل وفاته بقليل مال إلى الاعتدال فاتبع سياسة المودعة تجاه

44- راجع بشأن هذا الدستور المرجع السابق ص 138-151.

45- انظر ص 272 أعلاه.

بطليموس الثاني فيلادلفوس. ملك مصر. فعقد خطوبة ابنته برنتشي على ابن بطليموس الثاني وولي عهده. ولكن بعد وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. تبنت أرملته أباما سياسة مغايرة لسياسته ومناوئة للبطالة فاخترت الأمير ديمتريوس الجميل. أحد أمراء البيت المالكي في مقدونيا. زوجاً لابنتها بدلاً من ولي عهد مصر البطلمي؛ وذلك لكي تبقى بعيدة عن البطالة ومستقلة بمنطقة برقة. وقدم ديمتريوس إلى قورينة حيث وقع في غرام أباما نفسها مما دفع الأميرة برنتشي إلى تدبير مؤامرة له أدت إلى مصرعه. وتمكنت برنتشي من السيطرة على الموقف في منطقة برقة حوالي سنة 255 ق.م. ونفذت خطتها فتزوجت من ولي عهد البطالة في مصر الذي أصبح الآن بطليموس الثالث. ملك مصر. مما أدى إلى تقارب جديد بين برقة ومصر لم يلبث أن انتهى بعد قليل بتبعية الأولى للثانية⁴⁶.

وتعتبر الفترة التي تلت وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. فترة غامضة في تاريخ برقة ولعلها هي الفترة التي نشأ فيها اتحاد البنطابوليس أو المدن الخمس. وقد كان اتحاداً فدرالياً لم يلبث أن شمل جميع مدن برقة وفقاً لدستور وضعه له الفيلسوفان أكيديوس وديموفانيس سنة 250 ق.م.⁴⁷

46- انظر أيضاً: إمار، أندريه. تاريخ الحضارات العام. ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه. ثلاثة مجلدات. المجلد الثالث. منشورات عويدات. بيروت. الطبعة الأولى. 1964. ص 303-324.
47- لم يصل إلينا دستور هذا الاتحاد. وولعلنا لا نخطيء إذا افترضنا أنه كان على غط دساتير الاتحادات الإغريقية التي جربتها بلاد اليونان في الفترة ما بين وفاة الإسكندر الكبير وظهور روما؛ وكان أهمها:

أ- الاتحاد الإيتولي (322 - 265 ق.م.): وكان على رئاسه قائد «Strategos» ينتخب كل عام وكانت السيادة فيه للجمعية الشعبية التي كانت تعقد مرة كل خريف أو عند الطلب كلما دعت الحاجة وكانت تفصل في المسائل الهامة كإعلان الحرب وإقرار السلم وعقد المعاهدات. وفي وقت الحرب كان الجيش الإيتولي يقوم مقام هذه الجمعية التي كان لكل إيتولي الحق في الاشتراك فيها. وإن كان من الطبيعي أن يقتصر الاشتراك فيها على الأثرياء حتى لا تتعرض الجمعية لاحتمال تسلط الغوغاء عليها. ومن المرجح أن التصويت لم يكن مقصوراً على الحاضرين من أعضائها بل كان لكل مدينة نسبية معينة من الأصوات تتناسب مع أهميتها. وكان للحلف مجلس اسمه السنهدريون «Synhedrion» يتكون من حوالي ألف مندوب يمثلون المدن المختلفة. وكان هذا المجلس يجتمع أكثر من اجتماعات الجمعية الشعبية ويفصل في مسائل أقل أهمية من المسائل التي تفصل فيها تلك الجمعية. وكانت له لجنة يسمى أعضاؤها أبوكليتوي «Apokletoy» ويساعدون الاستراتيجيةوس في تصريف أعماله العادية. وكان عددهم أكثر من ثلاثين عضواً. وكان الاستراتيجيةوس في الواقع هو السلطة التنفيذية الرئيسية؛ فقد كان يعيى القوات أو يسرحها. ويرأس الجمعية الشعبية ويتولى المفاوضات

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الاتحاد انتهى سنة 246 ق.م. بينما يذهب البعض الآخر إلى أن الاتحاد استمر قائماً كتنظيم داخلي محلي رغم تبعية برقة للبطالة. أما المدن الأعضاء في الاتحاد فقد كانت قورينة وبرقة وتوكرة ويوسبيريدس. وقد فصل المشرعان أبولونيا. ميناء قورينة. عن قورينة ذاتها واعتبراها مدينة مستقلة هي العضو الخامس في الاتحاد. وقد ظل اسم المدن الخمس شائعاً في الاستعمال حتى العصر البيزنطي. أما عاصمة الاتحاد فكانت قورينة وفيها كانت تصدر العملة الخاصة به. وبعد هذا الحد لا نجد ما يوضح لنا علاقة برقة بالبطالة. لكننا نعلم أن البطالة كانوا أصدقاء للرومان في هذه المرحلة فنحن نقرأ في وصية بطليموس يوريجيتس الثاني مناشدته للرومان باسم جميع الآلهة. وباسم الشرف أن يقدموا كل ما في وسعهم من مساعدة ضد أي معتد على مدن مملكته أو أراضيها. وفقاً لمتضيات العدالة ومعاهدة الصداقة والتحالف المبرمة بينه وبينهم؛ ولما كانت برقة جزءاً من ممتلكات البطالة فإنها كانت دون شك تتمتع كغيرها من ممتلكات البطالة بما كانت تنطوي عليه معاهدة الصداقة والتحالف بين البطالة والرومان. ولهذا فإننا نجد بطليموس أبيون يوصي منطقة برقة إرثاً لروما قبيل وفاته سنة 96 ق.م. كما نلاحظ أن الرومان قبلوا الوصية واكتفى مجلس شيوخهم «السناتو Senato» بوضع يده على الممتلكات الملكية في برقة وترك للمجن حرية التصرف في شؤونها احتراماً لمعاهدة التحالف والصداقة التي كانت قائمة بينهم وبين البطالة. واحتراماً للاستقلال الذاتي للمدن الإغريقية في برقة وللتقاليد التي كانت سائدة فيها.

وإلى جانب العنصرين: البربري الليبي - وهو العنصر الوطني - والإغريقي - وهو عنصر طارئ مستوطن - كان في برقة عنصر ثالث مهم هو العنصر اليهودي الطارئ. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف (Eusebius) أن «بطليموس

مع الدول الأخرى. ولم يكن يحق لأي فرد أن يشغل وظيفة الاستراتيجيةوس هذه سنتين متعاقبتين وإن كان يحق للفرد الواحد أن ينتخب مرة كل سنتين دون قيد. وكان الاستراتيجيةوس يتولى القيادة العليا لقوات الحلف الإيتولي في الميدان. وكان يليه مباشرة رئيس الفرسان «Hipparchos» ثم الوزير «Demosios Grammateus».

بعث بفريق من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها. ذلك لأنه كان مهتماً بتشديد قبضته على هذه المدينة ومدن ليبيا (= برقة) الأخرى». ومعنى هذا أن اليهود بدأوا يتسللون إلى برقة بعد سنة 322 ق.م. بتشجيع من بطليموس حاكم مصر الذي أصبح فيما بعد ملكاً لمصر وتسمى بطليموس الأول. وغاية بطليموس من تشجيع اليهود على الاستقرار في قورينة ثم في بقية برقة واضحة فقد أرادهم مخلب قط له يستخدمهم في تحقيق أغراضه في السيطرة على برقة. وإن فإن أصل الجالية اليهودية في برقة هم يهود مصر⁴⁸. ويبدو أن الجالية اليهودية في كل من مصر وبرقة قد وجدت قبل عصر البطالمة وازدادت خلاله نظراً لمن كان يجلبهم بطليموس الأول إلى مصر من اليهود الذين بأسرهم في فلسطين في غزواته المتعاقبة لها. ونظراً لهجرة عدد من يهود فلسطين المتدينين الذين هربوا بدينهم لمصر وبرقة خلال الحنة التي تعرضوا لها في فلسطين عندما أراد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع (175-164 ق.م.) أن يحملهم على التأخرق.

ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية ما ذكره استرابو (Strabo) من أن البطالمة شجعوا اليهود على الانتشار في مدن برقة وقراها. أما المدن التي استقروا بها فهي. بالإضافة إلى قورينة، طلميثة وأرسنوي (= توكرة) وبرنيتشي (= بنغازي). ويلاحظ أن الجالية اليهودية في هذه المدن ظهرت قوية منظمة في أوائل العصر الروماني ما يشير إلى أنها كانت قد استقرت فيها قبل ذلك العصر بأمد كاف أي خلال العصر البطلمي. ولا شك أن البطالمة أقطعوا جندهم المرتزقة الأراضي في ريف برقة. كما كانوا يفعلون في مصر. مما يعني وجود جنود يهود بين أصحاب تلك الإقطاعيات. وإذا جاز لنا أن نقيس سلوك يهود برقة على نمط السلوك اليهودي العام في العصور التاريخية المختلفة فلا بد لنا أن نرجح أنهم كونوا في برقة جاليات (Diaspora) أو جمعات تكاد تكون مغلقة في وجه غير اليهود. وتتغلغل في الوقت ذاته في كافة ميادين النشاط الحيوية من عسكرية وزراعية وتجارية ومالية بالإضافة إلى التغلغل

48- تواجد اليهود في مصر منذ أن دخلوها مع النبي إبراهيم قادمين من أور في جنوب العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وتزايدوا بعد ذلك في أيام النبي يوسف بن يعقوب في القرن الثامن عشر ق.م.

في الجهاز الحكومي خاصة ما كان يتصل منه بالاحتكارات الحكومية وجباية الضرائب وإدارة الأراضي الملكية. ولا شك أن يهود برقة احترقوا الراباة في المدن التجارية كما فعلوا وما زالوا يفعلون في كل مكان يستقرون فيه. ولعل الذي ساعدهم في ذلك المضمار هو إتقانهم للغة الإغريقية واستعمالهم للزي الإغريقي وللأسماء الإغريقية⁴⁹. محاولين بذلك كما هي عادتهم. ألا يظهرها كعنصر غريب في مجتمعات المدن التي استقروا بها.

ونحن نعلم أن البطالمة في مصر منحوا الجاليات الأجنبية الحرية التامة في مباشرة حياتها الخاصة كما اعترفوا لها بشخصيتها القانونية وبحقها في التملك وفي إدارة أملاكها. ونعرف كذلك أن هذه الحقوق ذاتها كانت تتمتع بها جالية يهود الاسكندرية. وعلى ضوء ذلك فنحن نستطيع القول إن البطالمة عاملوا الجاليات اليهودية في برقة بمثل تلك المعاملة فسمحوا لها بالاستقلال القضائي الخاص بتطبيق الشريعة اليهودية على الأحوال الشخصية كالزواج والميراث. كما سمحوا لها بجباية الضرائب من أفرادها وفقاً لتعاليم التوراة. وبارسال ما يتجمع منها في خزينة الجالية إلى هيكل أورشليم (= القدس). وبإقامة الكنيس أو البيع⁵⁰. ويؤيد ما ذهبنا إليه نقشان اكتشفا في مدينة برنيتشي يرجع تاريخهما إلى أوائل العصر الروماني ويتحدثان عن جالية يهودية في المدينة لها أراخنة يصدرون القرارات ويعمونها باسم جاليتهم: ما يرجح أن وجود هذه الجالية لم يكن طارئاً وإنما كان استمراراً لوجودها في العصر البطلمي من ناحية. وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من ناحية. وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من الناحية الأخرى.

أما عن سلوك اليهود في برقة خلال العصر البطلمي فإننا لا نسمع عن

49- لم يعثر على أسماء إغريقية ليهود في برقة من العصر البطلمي ولكن هذه الظاهرة تتجلى في الأسماء الإغريقية التي تسمى بها قورينة وأبولونيا وتوكرة وبرنيتشي في العصر الروماني.

50- انظر أيضاً: نصحي، إبراهيم. تاريخ مصر في عصر البطالمة. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966. ثلاثة أجزاء، ج2، ص 152-168 (سياسة البطالمة الدينية إزاء اليهود).

مشاركتهم في أي من الاضطرابات الكثيرة في ذلك العصر مما يشير إلى أنهم عاشوا عيشة هادئة مطمئنة في ظل أصدقائهم البطالة. وفي الوقت ذاته ليس لدينا أي دليل على تعرضهم لأي اضطهاد أو على اصطدامهم بأي من العنصرين السكانيين الآخرين: الليبيين والإغريق. وليس لدينا كذلك ما يكشف عن الموقف الحقيقي الذي وقفه يهود برقة من الفتنة التي نشبت بسبب النزاع على عرش البطالة في مصر في أعقاب مقتل الملك المصري بطليموس السادس فيلومتر سنة 145 ق.م. وزحف أخيه بطليموس الصغير. حاكم برقة، على الاسكندرية حيث تصدت له أخته وأرملة أخيه كليوبترا الثانية، يؤديها في ذلك أرسطوقراطية الإسكندرية وبهودها ويقود قواتها قائدان يهوديان. وقد استطاع بطليموس الصغير أن يخرج منتصراً في هذه المجابهة فارتقى عرش مصر باسم بطليموس يورجيتس الثاني (145 - 116 ق.م.) وقام بحملة انتقام على أعدائه ومن بينهم اليهود. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف أنهم، أي اليهود، قد تعرضوا لحنة قاسية لم ينقذهم منها، على ما يبدو، إلا عفو الملك عن خصومه بمناسبة زواجه من كليوبترا المذكورة. ولكن ليس لدينا ما يكشف عن موقف يهود برقة في هذه الفترة من الصراع على السلطة بين أعضاء الأسرة البطلمية الحاكمة.

ولقد اكتشف في قورينة مؤخراً نقش غير كامل يحتوي نسخاً لأربع وثائق مختلفة على الأقل وهو مؤرخ بالسنة التاسعة من عهد بطليموس سوتر وزوجته وشريكته في الحكم كليوبترا. وربما كان المقصود بهما سوتر الثاني وكليوبترا سيلينة (109) (Selene-108 ق.م.). ومهما يكن من أمر فإن تاريخ النقش غير متفق عليه وربما كان يرجع إلى فترة أقدم من المذكورة أي إلى عهد بطليموس السادس فيلومتر. أما الوثائق الأربع المشار إليها فهي:

1- مرسوم قوريني يقرر بالتفصيل إقامة احتفال ديني تكريماً للحكام وأسراهم وأسلافهم. وذلك اعترافاً من قورينة بما أسداه لها أولئك الحكام من جميل.

2- الجزء الأخير من مرسوم صادر عن قورينة. أو قرار من الحكام. بخصوص

جماعة بارزة من مواطني قورينة الذين وجهت لهم تهمة خطيرة. وتنص هذه الوثيقة على أن الأوامر والقوانين الملكية سوف تأخذ مجراها بالنسبة لتلك الجماعة شريطة ألا تصادر ممتلكاتهم بل يسمح بانتقالها لورثتهم.

أما الوثيقتان الثالثة والرابعة فهما في حالة جيدة وهما:

3- كتاب من الحكام إلى أهالي قورينة أرفقت به رسائل معنونة للمسؤولين في برقة وأمر من الحكام.

4- مقدمة الوثيقة الثانية السالفة الذكر: وربما كانت هي والرسائل (المفقودة) التي كانت معنونة لحكام مدن برقة من قبل البطالة وتعلق بالأراضي التي أعلن رسمياً أنها لا مالك لها. وبناء على ذلك الإعلان جرى ضمها لأملك التاج: أو إنها ظلت معلقة، بمعنى أن ملاكها كانوا مازالوا متهمين وعلى ذلك فهي عرضة لأن تصادر أو تعلن لا مالك لها⁵¹.

ويبدو أن قطعاً من هاتين الوثيقتين من الأراضي كانت لا تزال، إلى حد ما، في أيدي ملاكها السابقين. ويقرر الملوك أن أرضاً مثل هذه لن «توضع تحت الخاتم» أي لن تصادر. ولن يجري اعتقال أصحابها وعبيدهم؟ بموجب إجراء إداري قبل أن تأخذ الإجراءات القانونية مجراها.

ومن الواضح أن الأحوال التي حملت ملوك البطالة على اتخاذ تلك الإجراءات كانت أحوالاً غير عادية أي إن برقة كانت في حالة من الاضطراب: فهناك كثير من المواطنين البارزين في مدنها قد وجهت إليهم التهم وهم ينتظرون المحاكمة. وهنالك أشخاص آخرون غير مواطني المدن قد خسروا، بسبب خرقهم للقوانين على ما يبدو، ملكية أراضيهم التي أعلنت لا مالك لها (Adespotia). وهنالك جماعة أخرى لما يخسروا ملكية أراضيهم بعد: ولكنهم متهمون وقد يخسرونها بعد قليل. ويبدو أن الجماعتين الأخيرتين لم تكونا من المزارعين الوطنيين وإنما على الأرجح من المستوطنين العسكريين الذين عاملهم موظفو الملك تلك المعاملة القاسية.

51- Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Three Volumes, Vol. II, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, Reprinted 1953, Pp. 915916-.

إن هذا النقش. بغض النظر عن الفترة التي يرجع إليها تاريخها من القرن الثاني قبل الميلاد. يعكس اضطراب الأحوال في برقة ويتضمن وقوع أعمال الشغب وربما الحرب الأهلية. ولكن معرفتنا بتاريخ برقة في هذا العصر محدودة إلى درجة أنها لا تسمح لنا بأن نربط وثائق هذا النقش بحوادث معينة. وعلى أي حال فإن من الواضح أن الحكام المذكورين في هذه الوثائق قد خرجوا منتصرين من كفاحهم الذي ربما كان حرباً أسرية أو أهلية. ويبدو أنهم راحوا يحاولون إعادة السلام والنظام دون إصدار عفو عام شامل: فهم ينوون معاقبة خصومهم لكن دون عنف وإنما عن طريق المحاكم النظامية. ومن المعروف أن كثيراً من أمثال هذا الموقف حدثت في مصر في عهد فيلومتتر. يورجيتس الثاني وسوتر الثاني. ومن المؤكد أن برقة كانت متورطة في مشاكل مصر.

إن هذا النقش القوريني يكشف عن الحالة التعيسة وغير المستقرة التي تحولت إليها برقة الغنية المزدهرة نتيجة للحروب الأهلية ولسوء الإدارة تماماً كما حدث في قبرص ومصر ذاتها: فإن الأحوال السيئة التي سادت مصر في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وخلال القرن الأول قبل الميلاد أدت إلى تدمير اقتصادها وتجميد تقدمها. كما أنها أفقرت الطبقة العاملة فيها وخفضت عائدات الدولة من الموارد الداخلية.

النهضة الثقافية في برقة في عهد البطالة:

سبق أن أشرنا للنهضة الشاملة لقورينة في عصرها الذهبي. ولابد أن نشير هنا إلى أن النهضات الثقافية تستمر مزدهرة بعد الهبوط السياسي بأجل غير قصير. والنهضة الثقافية في برقة تتجلى في هذا العصر في ظهور أدباء وعلماء من أبنائها كانوا في الصف الأول مع أقرانهم في العالم الهلينستي. وكان من أشهرهم كليماخوس (Callimachus) القوريني (310 - 245 ق.م.) وكان أحد تلاميذ فليتاس وقد اختير فيما بعد أميناً لمكتبة الاسكندرية ثم شاعراً لبلاط بطليموس الثاني. ولقد أثبت كليماخوس أنه أستاذ اللون الشعري الذي اشتهر باسم «أنشودة الرعاة» فقد كان الشاعر المبرز في هذا اللون في أعين معاصريه. والشاعر الإسكندري الطراز إلى

أقصى حد. ولقد كانت أنشودة الرعاة الأسلوب الشعري الذي امتازت به الاسكندرية في هذا العصر. وهذه الأنشودة كانت عبارة عن صورة صغيرة كاملة في حد ذاتها: وربما اتخذت أشكالاً كثيرة. وكان المقصود منها أحياناً هو مجرد الإلقاء. وكليماخوس هو الذي جعل شعر المراثي الأداة الشائعة الطراز على الصورة التي قدر لها أن تظل عليها. ولدنا الآن بعض أناشيده وأجزاء من قصيدته المسماة «ضفائر برنيقة Coma Berenices» وأجزاء من ملحمة الصغيرة هيكالي (Hecale) ومن قصيدة حول موت أرسينوي. وفقرات من قصيدة هي أهم أعماله جميعاً وهي قصيدة الأسباب (Aitla) أي أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات. ولولا ما خلفه لنا من مقطوعات شعر الحكمة لأوشكنا أن نقول إنه لم يكن شاعراً بل عالماً تصدى لصياغة الشعر. وقد ناقده حديث «بالبر» من الخطأ. وكان كليماخوس من علماء فقه اللغة كما أنه كان الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه فيما يتعلق بميادين علمه وأدبه.

ونبع من أبناء برقة كذلك في القرن الثالث قبل الميلاد الجغرافي العظيم أراتوستينيس (275 - 200 ق.م.) الذي تقول الرواية المأثورة إنه تلقى العلم على أيدي معلمين أفاضلهم أرسنون (= زينون) الروافي وأرسسولوس المتشكك وكليماخوس الشاعر وليسسنياس النحوي. وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته في كثير من فروع العلم المختلفة مما جعل بطليموس الثالث يعينه أميناً لمكتبة الاسكندرية. ولقد ألف أراتوستينيس ديوان شعر وكتباً في التاريخ. وحاول في كتابة الكونوغرافيا (Conographia) أن يحدد أوقات الحوادث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط. وكتب كذلك رسائل في الرياضيات. واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مستقيمين. وقد قاس ميل مستوى الفلك وحده بـ (2351) فلم يخطئ إلا بنصف في المائة. لكن أعظم أعماله هو تقدير طول محيط الأرض بـ (24662) ميلاً. وذلك قريب من التقدير الحالي (24847) ميلاً. وقد توصل إلى تلك النتيجة بأن لاحظ في ظهر يوم الانقلاب الصيفي أن أشعة الشمس عند مدينة سيبني (قرب مدينة أسوان) كانت تقع عمودية على

سطح جدار ضيق، وعرف في الوقت ذاته أن ظل مسلة في الاسكندرية - وتبعد عن سيبني إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل - يدل على أن أشعة الشمس كانت تقع مائلة عن سمت الرأس بنحو $7\frac{1}{2}^\circ$ إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذي يصل بين البلدين. فاستنتج من ذلك أن القوس الذي يبلغ $7\frac{1}{2}^\circ$ على محيط الأرض يساوي خمسمائة ميل وأن محيط الأرض بهذه النسبة يساوي $360 \div 7\frac{1}{2} \times 500$ أي 24000 ميل أضاف لها (662) ميلاً فرق حساب. وبعد أن قاس محيط الأرض بدأ بوصفها فجمع في كتابه جيوغرافيكاً (Geographica) تقارير جميع علماء المساحة في الإسكندرية والرحالة البريين والبحريين⁵².

وأخيراً يجدر بنا أن نشير إلى أن حديثنا كان مركزاً حتى الآن على منجزات العنصر الإغريقي في برقة. أما عدم تعرضنا للعنصر البربري الليبي بمزيد من التفصيل فهو راجع إلى قلة معلوماتنا عنه. ولقد سبق أن نوهنا بالقبائل الليبية في هذا العصر في بداية هذه المقالة وعلينا أن نضيف الآن تلك القبائل ظلت تعيش طراز الحياة الذي عالجناه في عصر هيرودوتس: أي إنها بقيت تعيش عيشة البدو الرحل بشكل عام وإن كانت قد بدأت تستقر في أقاليمها في هذا العصر وتتجه للزراعة والتجارة بالإضافة للرعي.

52- ديورانست، ول، قصة الحضارة، ج3 مجلد 2، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1962.

ثبت ببعض التواريخ المصرية الهامة

3197 - 2778 ق.م.	الأسرتان الأولى والثانية
2778 - 2423 ق.م.	عصر الدولة القديمة حوالي
2778 - 2723 ق.م.	الأسرة الثالثة
2723 - 2563 ق.م.	الأسرة الرابعة
2563 - 2423 ق.م.	الأسرة الخامسة
2423 - 2242 ق.م.	نهاية الدولة القديمة
2423 - ؟	الأسرة السادسة
(وهمية)	الأسرة السابعة
2242 - ؟	الأسرة الثامنة
الأسرات الإهناسية	
2242 - 2150 ق.م.	الأسرة التاسعة
2150 - 2060 ق.م.	الأسرة العاشرة
2160؟ - 1580 ق.م.	عصر الدولة الوسطى
2160؟ - 2000 ق.م.	الأسرة الحادية عشرة
2160 - 2150 ق.م.	ملوكها: انتف الأول
2150 - 2090 ق.م.	انتف الثاني
2090 - 2085 ق.م.	انتف الثالث
2085 - 2065 ق.م.	منتوحتب الأول
2065 - 2060 ق.م.	» الثاني
2060 - 2010 ق.م.	» الثالث

1425 - 1450 ق.م.	أمن حتب الثاني
1405 ؟ - 1405 ق.م.	ختمس الرابع
1370 - 1405 ق.م.	أمن حتب الثالث
1325 - 1370 ق.م.	أمن حتب الرابع (أخناتون)
1200 - 1320 ق.م.	الأسرة التاسعة عشرة
1318 - 1320 ق.م.	ملوكها: رمسيس الأول
1298 - 1318 ق.م.	ستي الأول
1232 - 1298 ق.م.	رمسيس الثاني
1200 ؟ - 1200 ق.م.	ستي الثاني
1085 - 1200 ق.م.	الأسرة العشرون
1166 - 1198 ق.م.	ملوكها: رمسيس الثالث
1085 - 1166 ق.م.	رمسيس الرابع إلى الحادي عشر
323 - 1085 ق.م.	المدّة المتأخّرة
950 - 1085 ق.م.	الأسرة الحادية والعشرون
730 - 950 ق.م.	» الثانية والعشرون (ليبية)
730 - 817 ق.م.	» الثالثة والعشرون (ليبية)
715 - 730 ق.م.	» الرابعة والعشرون (نوبية)
656 - 715 ق.م.	» الخامسة والعشرون
525 - 663 ق.م.	» السادسة والعشرون
404 - 525 ق.م.	» السابعة والعشرون (فارسية)
398 - 404 ق.م.	» الثامنة والعشرون
378 - 398 ق.م.	» التاسعة والعشرون

2010 - 2008 ق.م.	» الرابع
2000 - 2008 ق.م.	» الخامس
1785 - 2000 ق.م.	الأسرة الثانية عشرة
1970 - 2000 ق.م.	ملوكها: أمن م حات الأول
1936 - 1970 ق.م.	س ن وسرت الأول
1904 - 1938 ق.م.	أمن م حات الثاني
1888 - 1906 ق.م.	س ن وسرت الثاني
1850 - 1887 ق.م.	س ن وسرت الثالث
1800 - 1850 ق.م.	أمن م حات الثالث
1792 - 1800 ق.م.	أمن م حات الرابع
1785 - 1792 ق.م.	سبك نفرو رع
1680 - 1785 ق.م.	الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة (هكسوس)
1580 - 1730 ق.م.	الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (هكسوس)
1580 - 1680 ق.م.	الأسرة السابعة عشرة
10900 - 1580 ق.م.	عصر الدولة الحديثة
1320 - 1580 ق.م.	الأسرة الثامنة عشرة
1558 - 1580 ق.م.	ملوكها: أحمس
1530 - 1557 ق.م.	أمن حتب الأول
1520 - 1530 ق.م.	ختمس الأول
1484 - 1520 ق.م.	ختمس الثاني + حتشبسوت
1450 - 1504 ق.م.	ختممس الثالث

» الثلاثون 378 – 341 ق.م.

فترة السيادة الفارسية الثانية 341 – 333 ق.م.

استيلاء الإسكندر الكبير على مصر - 332 ق.م.⁵³

حكم البطالة في مصر⁵⁴

1- بطليموس الأول الملقب سوتر الأول (= المنقذ) 305 (حينما أتخذ لقب ملك) – 283 ق.م.

2- بطليموس الثاني فيلادلفوس 283 – 246 ق.م.

3- بطليموس الثالث «يورجيتس الأول» (= الخيّر) 246 – 221 ق.م.

4- بطليموس الرابع فيلوباتر «Philopator» (= المحب لأبيه) 221

– حوالي 205 ق.م.

5- بطليموس الخامس ابيفينس «Epiphanes» (= المتجلي)

حوالي 205 – 181 أو 180 ق.م. مات مسموماً

6- بطليموس السادس فيلوميتر «Philometor» (= المحب لأمه)

181 أو 180 – 145 ق.م.

7- بطليموس السابع يورجيتس الثاني الطاغية شارك أخاه ابتداءً من

163 - 145 ق.م. وحكم بمفرده من 145 – 116 ق.م.

8- كليوبترا الثالثة (أرملة يورجيتس الثاني)

بطليموس الثامن الشاحب الملقب لاثيروس «Lathyros» سوتر الثاني

بطليموس التاسع «الاسكندر» 116 – 80 ق.م.

نهاية الأسرة الشرعية

53- دريوتون. إيتين. وفامديه. جاك. مصر. ترجمة عباس بيومي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

54- تارن وليم. الحضارة الهلينستية. الطبعة الثالثة. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. مكتبة الأجلو المصرية. القاهرة. 1966. ص 10 – 65.

بطليموس أبيون «Apion» الابن غير الشرعي ليورجيتس الثاني يرث عنه منطقة برقة ويحكمها 116 – 96 ق.م. عندما أوصى بها لروما.

9- بطليموس الحادي عشر (ابن غير شرعي للاثيروس) وقد نصبه أهل الاسكندرية ولقب ديونيسوس الجديد «Neos Dionysos» وكنى بالزمار «أوليتس Auletes» 80 – 51 ق.م.

10- بطليموس الثاني عشر وكليوبترا السابعة (ابنا الزمار) 51 – 31 ق.م.

انتهى حكمهما بانتصار أوغسطس على أنطونيس في معركة أكتيوم وتبعية مصر لروما.

طرابلس في العهد الفينيقي

خلاصة تاريخ الفينيقيين في الشرق والغرب:

الفينيقيون قوم ساميون أصلاً إلى حد أن عدداً غير قليل من المؤرخين العرب يعتبرونهم عرباً. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن شبه جزيرة العرب كانت أشبه بحوض ماء كلما زاد الماء فيه طفح الفائض على جوانبه. وهم يقدرّون أن أول موجة سكانية طفحت بها شبه جزيرة العرب كانت حوالي سنة 3500 ق.م. نتيجة لازدياد عدد سكانها وقلة مواردها. وكان اتجاه تلك الموجة البشرية إلى مصر عبر البحر الأحمر. وإلى فينيقية على الساحل اللبناني حيث استقر القادمون على طول الساحل وتغلبوا على جنس البحر الأبيض السامية الأولى هجرات أخرى صغيرة بعضها سامي وبعضها غير سامي كالآرمن والحثيين فاجتاحت منطقة الهلال الخصيب بأسره. ولكن الموجة السامية الكبرى التي غمرت منطقة الهلال الخصيب وحقمت في مصيرها طيلة ألف سنة هي هجرة العموريين بين سنة 2300 ق.م. وسنة 2100 ق.م. والمعتقد أن هذه الهجرة غمرت فينيقية وسوريا وفلسكين ووصلت فيما بعد إلى منطقة الجزيرة في ما بين النهرين بالعراق؛ وهي التي طبعت بلدان الشرق الأدنى نهائياً بالطابع السامي. وبمضي الزمن انقسم هؤلاء المهاجرون إلى جماعتين متميزتين: الأولى ظلت تُعرف بالعموريين واستقرت في المناطق الداخلية، والثانية صارت تُعرف باسم الكنعانيين. أي سكان المناطق المنخفضة. أو الأقوام الحمير. أي الفينيقيين. واستقرت على طول الساحل اللبناني والفلسطيني. وحوالي سنة 1194 ق.م. اجتاحت الدوريون بلاد اليونان فدفعوا الإيجيين. أي شعوب البحر. إلى الهجرة منها فغزوا آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين وليبيا ومصر. ولكن رمسيس الثالث، ملك مصر. تمكن من هزيمتهم في معركة بلوزيوم (Pelusium) إلا أنه لم يتمكن من إلقائهم في البحر. فتركهم يستقرون في فلسطين التي راحوا ينتشرون منها شمالاً إلى فينيقية. وجرى امتزاج هذه العناصر المختلفة تدريجياً على أرض فينيقية فما إن حانت سنة 1100 ق.م. حتى كان العنصران الكنعاني

السامي وهو الفينيقي. والهندو أوروبي وهو الإيجي قد امتزجا امتزاجاً كاملاً ونتج عنهما جيل جديد يجمع بين صفات العنصرين هو الذي صار يُعرف باسم الفينيقيين الذين كانت دماء رجال البحر الإيجيين تجري حارة في عروقهم فلم يلبثوا حتى فرضوا سيطرتهم المطلقة على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط طيلة ما يقرب من أربعمئة وخمسين سنة بحيث كانت لا تدخل إليه سفينة غريبة إلا أغرقوها أو أسروها وباعوا ركبها عبداً. ومع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد امتد نفوذ الفينيقيين البحري غرباً حتى شمل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط فكانت سفنهم تأتي بالسلع الشرقية المنقولة إليهم من أواسط آسيا والهلال الخصيب عن طريق أبناء عمومتهم العموريين. سكان دواخل سوريا. لتبعتها في إسبانيا مقابل المعادن الإسبانية - خاصة الفضة - التي كانت لا غنى عنها. ومنذ حوالي سنة 1110 ق.م. بدأت ذراع الأشوريين الأخذة في القوة تصل إلى فينيقية. فقد استولى تغلاث بلاسر (Tiglath Pileser) الأول في تلك السنة على أرواد وعلى بعض المدن الفينيقية الأخرى على ساحل فينيقية الشمالي. كما ان آشور - ناصر - بعل الثاني (Ashur - Nasirpal II) استولى على عدد من المدن الفينيقية سنة 883 ق.م. وحصل الجزية من صور وصيدا وبيبلوس وأرواد. وتلاه في الحكم وفي تنفيذ هذه السياسة العدوانية التوسعية خليفته شلمانصر الثالث (859 - 824) (Shalmaneser III) ق.م. فهاجم الفينيقيين والعموريين على السواء. واستمر الأشوريون بعد ذلك في سياستهم العدوانية الاستبدادية حتى استولوا على جميع المدن الفينيقية باستثناء صور فقد فشلوا في الاستيلاء عليها رغم تكرار حصارهم لها. ونتج عن تلك الأحوال هجرة فريق كبير من أبناء صور إلى الشمال الإفريقي حيث نزلوا بالقرب من تونس وأقاموا مستوطنة جديدة أسموها «القرية الحديثة» (Karat Hadasah)⁵⁵ وهي التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجنة. والتاريخ التقليدي المتفق عليه لتأسيسها هو سنة 814 ق.م. ومنذ ذلك الحين بدأت قوة قرطاجنة تنمو وتزدهر في الوقت الذي

55- Baramki, Dimitri, *Phaenicia and the Phaenicians*, Khaytas, Beirut, Lebanon, first edition, 1961, pp 6 - 8.

كانت فيه صور وبقيّة المدن الفينيقية في الشرق تضعف وتندحر مما ألقى على عاتق قرطاجة عبء المسؤولية في الدفاع عن المصالح والمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. ولم تكن قرطاجة أول مستوطنة يقيمها الفينيقيون على سواحل هذا الحوض فقد سبق لهم أن اجتازوا أعمدة هرقل (= مضيق جبل طارق) وأسسوا في الجنوب الغربي من شبه جزيرة إيبيريا (= إسبانيا) مدينة قادس سنة 1110 ق.م. لاجتلاب الفضة. كما إنهم أسسوا مراكز ومحطات تجارية كثيرة على طول معظم ساحل الشمال الإفريقي الواقع على طريقهم التجاري بين صور في فينيقية وقادس في إسبانيا.

وكما هي الحال بالنسبة لتأسيس العديد من المدن في العالم القديم فإن تأسيس قرطاجة ارتبط بأسطورة الأميرة عليّسة (Elissa) وأخيها بجماليون (Pygmalion) الذي خلف أباه على عرش صور حوالي سنة 830 ق.م. وحكم في بداية الأمر تحت إشراف أخته عليّسة أو «ديدو» التي تزوجت من خالها الثري. كبير كهنة الإله ملكارت. وطمع بجماليون في ثروة خاله فدبر مصرعه ولكن عليّسة حالت دون استيلاء أخيها على الكنوز التي كان زوجها قد دفنها في معبد ملكارت وذلك بأن أوهمته أنها كانت مسرورة بما فعل وأنها ستنتقل إلى منزله لتعيش معه. ثم غافلته وشحنت الكنوز في سفينة أبحرت بها إلى قبرص ومعها ثمانون رجلاً من كان جماليون قد أمرهم بمساعدتها. ومن قبرص حملت معها ثمانين عذراء ليكن زوجات لرجالها وأبحرت إلى الموقع الذي أسست فيه قرطاجة.

ولقد خلفت قرطاجة أمها صور⁵⁶ في رعاية المصالح الفينيقية وزعامة الفينيقيين فبدأت ببسط نفوذها على المستوطنات والمحطات التجارية الفينيقية ثم راحت توسع نطاق نفوذها فسيطرت حوالي سنة 650 ق.م. على جزيرة يابسة. إحدى جزر البليار الثلاث القريبة من إسبانيا. وأحلت محل الإغريق

56- كان نبوخذنصر «Nabukhodonosor». ملك بابل. قد استولى على صور سنة 574 ق.م. كما إن الفرس استولوا عليها سنة 539 ق.م. وأخيراً اجتاحتها الاسكندر الكبير سنة 333 ق.م. وهدمها مما أدى إلى هجرة من نجوا منها إلى قرطاجة.

الذين أجلتهم عن جزيرة كورسيكا حلفاءها الأثوريين. ووطدت أقدامها في جزيرة سردينيا وفي إسبانيا. وحتى تكمل سيطرتها على غرب البحر الأبيض المتوسط وحتكر التجارة فيه. عقدت أول محالفة صداقة مع القوة الرومانية الناشئة سنة 509 ق.م. وجددتها سنة 348 ق.م. وقد نصت تلك المعاهدة المعقودة بين الرومانيين وحلفائهم من جهة والقرطاجيين وحلفائهم من جهة أخرى على الشروط التالية:

«لا يجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يتجاوزوا في إبحارهم الرأس الجميل [رأس سيدي علي المكي بتونس] إلا لأسباب قاهرة كالعواصف. أو مطاردة الأعداء. فعند ذلك يكونون مدفوعين غصباً عنهم ورغم أنوفهم. ولا يرخص لهم باشتراء أو اقتناء أي شيء إلا ما كان ضرورياً لترميم سفنهم وتقليفها أو لإقامة شعائرهم الدينية... ويجب عليهم أن يرحلوا بعد خمسة أيام...»⁵⁷ وأنشأت قرطاجة نظاماً سياسياً لها تطور مع الزمن إلا أنه كان إجمالاً نظاماً أوليجركيا يقوم على سلطات ثلاث هي:

- 1- السلطة العليا وتتمثل في ملكين أو سبطين ينتخبان لعام واحد.
- 2- السلطة الأرستوقراطية الممثلة في مجلس الشيوخ الذي كان يتألف من ثلاثمائة عضو ينوبون عن الأسر الغنية وكبار التجار والأعيان والمحاربين.
- 3- الشعب. ولم يقوم نفوذه إلا في أيام آل برقة. أي في فترة الحروب البونيقية.

وجدير بالملاحظة أن المال كان يلعب أهم الأدوار بالنسبة لهذا الدستور: فكان الأثرياء من التجار وغيرهم يجدون الباب مفتوحاً أمامهم إلى المراكز الحساسة في جهاز الحكم في المدينة وذلك عن طريق دخولهم في عضوية مجلس الشيوخ المذكور. وكانت للدين مكانة ممتازة في نفوس الفينيقيين تنعكس في أسماء الأعلام التي كانوا يطلقونها على أبنائهم وبناتهم من مثل معطبعل (أي عطية بعل) وباركعبل (أي باركه بعل) وبنبعل (أي ابنة بعل) وعريسة بعل (أي خطيبة بعل) وأمة بعل (أي خادمة بعل)⁵⁸.

57- صفر. أحمد. مدينة المغرب في التاريخ. ج 1. الناشر - بوسلامة. تونس. ص 94 و 113.

58- كلمة بعل الفينيقية تعادل كلمة رب العربية التي قد تعني الإله أو الصاحب.

وكانت أشهر الآلهة الفينيقية بقرطاجة هي الإلهة تانيت بنتبعل وكانت تماثل عشتار، إلهة القمر عند فينيقي مدينة صور. شكل إله أقرن. له قرنان كقرني الكبش ما يشير إلى صلته بالإله آمون الليبي في سيوة. ويأتي بعد ذلك الإله ملكارت (ملك - كارت) أي ملك المدينة، والمقصود بها في هذه التسمية هي مدينة صور التي ينسب إليها هذا الإله. وقد كان له هيكل في قرطاجة، كما إن القرطاجيين كانوا يبعثون إلى هيكله في صور القرابين والهدايا الثمينة في كل سنة. ثم يأتي بعد ذلك الإله ميلكن أو مولك بعل. وكانوا يمثلونه على صورة وثن قبيح الخلق له رأس ثور فوق جسم إنسان. زكان القرطاجيون يمارسون أشد وأقسى عاداتهم الدينية على مذبح هذا الإله فيقدمون أطفالهم قرابين له بحرقهم أحياء؛ وغايتهم من ذلك تهدئة غضبه وسخطه ودفع نقمته. ونحن نعلم من ديودورس الصقلي أن القرطاجيين حين حاصرهم القائد الإغريقي أجاثوكليس حرقوا على مذبح هذا الإله مائتين من أطفال أسرهم النبيلة بالإضافة إلى ثلاثمائة من خيرة رجالهم تطوعوا بحرق أنفسهم ليكونوا قرباناً لائقاً بقدر هذا الإله. وإلى جانب الآلهة الرئيسية المذكورة عبد الفينيقيون عامة والقرطاجيون خاصة آلهة أخرى كثيرة ولكنها كانت ثانوية إذا ما قيست بالآلهة السالفة الذكر.

أما المجالات الاقتصادية المختلفة فقد كان القرطاجيون سادة التجارة البحرية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط دون منازع. وعلينا بهذا الخصوص أن نتذكر أنهم، في سبيل التجارة، داروا حول إفريقيا ووصلوا إلى إنجلترا وإرلندة، وتغلغلوا في الصحراء الإفريقية، ويكفي أن نذكر أن الإغريق واليهود والرومان اعترفوا للفينيقيين في المجالات الاقتصادية المختلفة، وخاصة في مجال التجارة، بالحذق والدهاء، والنشاط الذي لا يعرف الملل. وعلى هذا النحو فإن قرطاجة ظلت سيدة النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت روما أشدها وأدركت خطر قرطاجة عليها فدخلت معها في ثلاث حروب بونيقية انتهت سنة 146 ق.م. بتدمير قرطاجة وإزالتها من عالم الوجود في أبشع عدوان شنته أوروبا على آسيا وإفريقيا مثلتين في قرطاجة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين عامة والقرطاجيين خاصة لم يكونوا شعباً حربياً على نحو ما كان عليه الأثوسيون وغيرهم من شعوب العالم القديم. وإنما كانوا شعباً تجارياً بحرياً في الدرجة الأولى. وهذه الحقيقة توضح عدم إقامة قرطاجة لجيش وطني إذ إن من المعروف أن محاربيها كانوا جلهم. إن لم نقل كلهم، من المرتزقة الليبيين وغيرهم ولكنها كانت تضع أولئك المرتزقة تحت تصرف قادة بارزين من أبنائها من مثل هنيبال.

الفينيقيون في طرابلس:

لابد أن الفينيقيين أثناء رحلاتهم التجارية للمتاجرة مع بلدان الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط قد اضطروا في مناسبات عديدة إلى اللجوء لنقاط مختلفة على الساحل الليبي احتفاء من عاصفة أو طلباً للماء والغذاء أو من أجل الاستراحة. ويرجح هذا الرأي علمنا أن الفينيقيين كانوا يفضلون الإبحار قريبين من اليابسة نظراً لصغر سفنهم ذات المحاديف وخوفاً من التعرض للعواصف بعيدين عن اليابسة، وهم إن لم يكونوا قدموا للساحل الطرابلسي لغايات تجارية متممة منذ البداية فإنهم لم يلبثوا أن فتحو أعينهم على أهمية هذا الساحل كمنفذ لسلع السودان وغيره من أقطار أفريقيا الداخلية، تلك السلع التي كان من بينها الذهب والعقيق والحجارة الكريمة الأخرى والعاج والأبانوس والعبيد من الزنوج. هذا بالإضافة لكثرة النعام في منطقة طرابلس نفسها. وقد كان بيض النعام وريشه من السلع التجارية النادرة التي يشتد الأثرياء في طلبها.

ولقد دلت الحفريات التي أجريت في صبراتة على أن الفينيقيين كانوا قد أقاموا فيها خلال القرن السادس قبل الميلاد محطة تجارية (Emporium) يشغلونها في المواسم الملاحية عندما يكون البحر الأبيض المتوسط هادئاً نسبياً والملاحة مأمونة فيه وذلك ما بين شهري مارس/ آذار ونوفمبر/ تشرين الثاني من كل سنة، ومن المحتمل أنهم قاموا بإنشاء محطات تجارية أخرى حوالي ذلك التاريخ نفسه في لبدة الكبرى (Leptis Magna) وفي طرابلس (= أوياء Oea) وكان أسماها الفينيقي فيعات (Uiat). وفي شراكس (Charax) (= مدينة السلطان الحالية). وفي مكموداس - يوفراننا

(Macomades – Euphranta) (= مدينة سرت). وقد سبق أن أشرنا إلى أن قرطاجة التي ربما كانت أقدم محطة فينيقية كبرى على ساحل الشمال الإفريقي، نصبت نفسها حامية للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومنها مستوطنات الشمال الإفريقي. ولذلك فإنها وقفت تدفع عنها التوسع الإغريقي بنجاح وإن كانت فيما بعد قد ذهبت ضحية محاولتها أن تضع حداً للتوسع الروماني. ويختلف قدماء الكتاب في أي هذه المستوطنات الفينيقية أنشأتها صور وأبها أنشأتها صيدا. فالشاعر اللاتيني سيليوس الإيطالي (Silius Italicus) يخبرنا أن مدينة صور أنشأت لبدة وصبراتة وأن مهاجرين من صقلية من أصل فينيقي قاموا بإنشاء أويا. بينما يؤكد سالوست (Sallust) أن لبدة أنشأها مهاجرون من صيدا رحلوا عن مدينتهم الأم نتيجة للاضطرابات التي كانت تسودها. وعلينا بهذا الصدد أن نتذكر أن المؤلفين والكتاب اللاتين كثيراً ما كانوا يستعملون النسبة لصور ولصيда كمرادف للاسم الفينيقين. وعلى أي حال، وأياً كانت الجهة التي قدم منها الفينيقيون المؤسسون فإننا نستطيع أن نقول إن هذه المستوطنات أنشئت في فترة متأخرة نسبياً وبرعاية قرطاجة: فيرودوتس يفيدنا ضمناً أن لبدة لم تكن قد تحولت إلى مستوطنة دائمة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد عندما حاول مهاجرون إغريق من إسبارطة بزعامة دوربوس (Dorieus) ابن ملكها أن ينشؤوا مستوطنة إغريقية عند مصب نهر كنبس سموها باسم ذلك الوادي حوالي سنة 517 ق.م. فقد تدخلت قرطاجة في الحال وحثت بالتعاون مع قبيلة المكاي اللبية في إجبارهم على التوقف عند خليج سرت الكبير وعدم تجاوزه إلى الغرب. ومن الواضح أن عدم ذكر هيرودوتس لمدينة لبدة في سياق سرده للحادثة السابقة يدعونا إلى الاعتقاد أن لبدة لم تكن قد أنشئت بعد؛ لأنها لو كانت موجودة لشاركت القرطاجيين وحلفاءهم المكاي في طرد القادمين من المستوطنين الإغريق. ولا بد لهيرودوتس في مثل تلك الحالة أن يذكر مثل تلك المشاركة. ويؤيد هذا الرأي بعض الحفريات التي أجريت في لبدة إذ إن أقدم ما وجد في المقبرة الفينيقية تحت حلبة مسرح لبدة هي قطعة فخار كورنثية يعود تاريخها للقرن الخامس قبل الميلاد. وربما كانت أويا قد أنشئت في فترة متأخرة

عن تاريخ إنشاء لبدة. وحتى صبراتة التي سبق أن أشرنا إلى وجود محطة تجارية على موقعها في القرن السادس قبل الميلاد لم تصبح مستوطنة دائمة إلا بعد وقت متأخر في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا شك أن قرطاجة برهنت بطردها لدوربوس ومن كانوا معه من الإغريق عندما حاولوا إقامة مستوطنة نهر كنبس سنة 517 ق.م. أنها إما كانت تعلن أو تؤكد سياستها في اعتبار منطقة طرابلس محمية لها فدخلت بسبب ذلك في نزاع مع مدينة قورينة الإغريقية القوية. وتجدر الإشارة إلى الطيفية التي تمت بها تسوية النزاع على الحدود بين قرطاجة وقورينة في قصة الأخوين فيليني (Philaeni) (أي محبي الشهرة). تقول تلك القصة إن الجانيين الفينيق القرطاجي والإغريقي القوريني بعد أن ألبيا في سلسلة من المعارك غير الحاسمة لفرض سيطرتهم على الأرض الواسعة الممتدة بينهما. والتي لم تكن تتبع لأية سلطة معترف بها. سئما الحرب واتفقا على أن ينطلق من كل من مدينتيهما في وقت معين ممثلون لها سيراً على الأقدام وفي اتجاه المدينة الأخرى. على أن تكون نقطة التقاء الفريقين هي الحد الفاصل بين الطرفين. وأجاد الأخوان فيليني فقطعا ثلثي المسافة بين قرطاجة وقورينة حتى التقيا بفريق قورينة. وحاول الإغريق التنصل من الاتفاق باتهام الأخوين فيليني بأنهما بدءا مسيرتهما قبل الوقت المعين وبأنهما كان يجريان جرياً وليس منسياً. ولكن الأخوين فيليني أعلنوا استعدادهما لإعادة التجربة من جديد. وهنا أعلن الفريق القوريني أنه لن يقر الحدود عند تلك النقطة إلا إذا قبل الأخوان فيليني أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان وإلا فإن على قرطاجة أن تسمح لممثلي قورينة بالتقدم إلى المكان الذي ترضى به قورينة حداً بين المدينتين مقابل موافقة ممثليها على أن يدفنا حيين في ذلك المكان ليضمنا بذلك إقرار الحدود بين الطرفين. وأمام هذا التحدي أعلن الأخوان فيليني موافقتهم على أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان. وقد عرف المكان بعد ذلك باسم آري فيلينيوم (Philaenorum Arae) نسبة للنصب التذكارية التي أقامها القرطاجيون فوق قبري البطلين. وقد أقام الإيطاليون أثناء احتلالهم لليبيا القوس الرخامي الحالي عند ذلك الموقع.

وهذه القصة تبدو وكأنها مزيج من الحقيقة والأسطورة: فقد ورد في مقالة جغرافية إغريقية أن الحدود بين قرطاجة وقورينة عينت في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بطريقة سلمية وربما تم ذلك في أعقاب سلسلة من الحروب. وقبول قرطاجة بحل وسط ينطوي على شيء من المهادنة لقورينة الإغريقية يتفق مع سياسة قرطاجة في هذه المرحلة من تاريخها عندما كانت ترمي إلى التفرغ لفتح صقلية الإغريقية ولو أدى تفرغها ذلك إلى مهادنة الإغريق أنفسهم في أي مكان آخر. أما الأخوان فيليني نفساهما فهما أسطوريان وحتى اسمهما نفسه فهو إغريقي وليس فينيقياً. وربما كانت الأسطورة كلها من وضع الإغريق.

معاملة قرطاجة لمحمياتها الفينيقيات على الساحل الطرابلسي:

منذ البداية اتضح لنا أن قرطاجة فرضت نفوذها على منطقة طرابلس والمحطات التجارية الفينيقية (Emporia) التي أنشئت على طول الساحل الطرابلسي والتي بلغ عددها العشر أو نحو ذلك. ولابد أن هذه المحطات كانت بطيئة في نموها وتطورها فليست هنالك أية إشارة لها في الكتب الكلاسيكية السابقة للعهد الروماني باستثناء كتب الجغرافيا اليونانية. ومن ناحية أخرى فإن الحفريات الحديثة في ثبراته تدل على أن أول توسع ضخم لهذه المدينة إنما حدث في القرن الثالث قبل الميلاد. ولعل سر هذا الركود يكمن في السياسة التي كانت قرطاجة تنتهجها تجاه المستوطنات الفينيقية في ليبيا. تلك السياسة التي أعلنتها قرطاجة بوضوح في المعاهدة التي أبرمتها مع روما سنة 509 ق.م. وجمدت سنة 348 ق.م. وهي سياسة كانت تحظر على السفن غير الفينيقية المتاجرة مع المراكز الفينيقية في الشمال الإفريقي وبذلك فقد أصبحت صادرات وواردات تلك المراكز أو المحطات احتكاراتاً لقرطاجة على حساب مصلحة تلك المراكز الذاتية. وفي نفس الوقت فرضت قرطاجة على تلك المراكز ضرائب عالية: فنحن نعلم من ليفي (Livy) أن لبدّة التي كانت مركزاً مالياً إدارياً لمنطقة تشمل أوبيا وصبراتة. كانت تدفع لقرطاجة ضريبة يومية مقدارها «ثالثت» واحد أي ما يعادل (224) جنيهاً استرلينياً. وهو مبلغ كان يعادل ما يكسبه (2500) عامل في اليوم

الواحد. وبالإضافة للضرائب النقدية كانت المحطات الفينيقية في ليبيا تدفع لقرطاجة ضرائب عينية ورسوماً جمركية على صادراتها ووارداتها. كما كان عليها أن تقدم الحاربين والإمدادات لقرطاجة وقت الحرب. وزيادة على كل ما تقدم كان محظوراً على تلك المستوطنات أن تحتفظ بأية قوات عسكرية أو بحرية خاصة بها.

ومن الناحية الأخرى تركت قرطاجة تلك المستوطنات حرة في التصريف شؤونها الداخلية بما في ذلك التشريع والقضاء الذي كان ينحصر في أيدي أقلية من الأثرياء والأرستوقراطيين على غرار النمط المتبع في قرطاجة ذاتها. وكان اقتصاد المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي يعتمد على دعامتين أساسيتين هما:

1- المتاجرة في السلع التي تحملها إليها القوافل من أواسط إفريقيا.

2- الزراعة التي كان الفينيقيون من أبرع المزارعين القدماء فيها.

ولذلك فإننا نجد هذه المستوطنات تتوسع في مجال الزراعة الكثيفة (زراعة الأرض بأكثر من حصول واحد في السنة الواحدة) وفي الزراعة الواحدة بمعنى زراعة النبات الواحد في المكان الواحد المناسب له. ومن الواضح أن أنسب شجرة لمناخ منطقة طرابلس المعرض للجفاف والرياح اللافحة هي شجرة الزيتون. ولذلك فإننا نجد الفينيقين يدخلون زراعة هذه الشجرة للمنطقة بأسلوب علمي. وقد أدخلوا كذلك أشجار فواكه أخرى كثيرة من مثل التين والرمان والخوخ واللوز والكرمة. وفي المجالات الزراعية الأخرى أدخل الفينيقيون للمنطقة أدوات زراعية معدنية وأساليب أحدث من الأساليب التقليدية التي كانت سائدة فيها.

وحول هذا الموضوع يقول رستوفتريف: «لقد كان زيت الزيتون والفواكه والنبذ إلى حد ما، هي المنتجات الرئيسية للمدن، فكان ساحل إفريقية في العصور الفينيقية حديقة غناء فسيحة الأجزاء. وهذه حقيقة لا تدعمها الأدلة الكثيرة المباشرة فحسب. وإنما أيضاً الأدلة غير المباشرة: فنحن نعلم أن واحدة من أشهر الرسائل عن الفلاحة هي كتاب ماجو القرطاجني

[القرطاجي]

. وكان كتاب ماجو يبحث في الزراعة العلمية والرأسمالية. وقد وجه أكثر عنايته لا إلى زراعة الحبوب وإنما إلى غرس الكروم والبساتين. وعلى الأخص زراعة الزيتون. ومن المحتمل جداً أن اليد العاملة التي استخدمها ملاك الأراضي من الفينيقيين في مزارعهم كانت على العموم من الأرقاء»⁵⁹.

ولابد كذلك أن الفينيقيين بدأوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم في مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها. وقد استكمل الرومان تلك المشروعات في مرحلة لاحقة. ودليلنا على ذلك هو ما ذكره استرابو (Strabo) عن وجود سد فينيقي على مصب وادي كعام.

أما فيما يتعلق بالفن والصناعة والدين فإن حفريات الآثار لم تصل إلى شيء يذكر بهذا الصدد حتى الآن وإن كان يؤمل أن تؤدي قريباً إلى الكشف عما كانت عليه الحال بالنسبة لهذه الموضوعات في المستوطنات الفينيقية في ليبيا. إذ لا بد أن هذه المستوطنات كانت حذو حذو المدن الفينيقية الأصلية وحذو قرطاج في فنائها وصناعاتها. وفي عبادتها للآلهة الفينيقية المختلفة من مثل ملكارت وعشتار وبعل حامون وثانيث.

مواقع المستوطنات الفينيقية:

لما كان الفينيقيون جّاراً في الدرجة الأولى ومزارعين في الدرجة الثانية فقد كان من المنطق أن يختاروا مواقع مستوطناتهم الساحلية على مصبات الأنهار والأودية لتكون بمثابة مرافئ تمكنهم من البقاء على اتصال دائم مع البحر الذي كانوا لا يستطيعون الحياة بعيدين عنه. أما الأودية فكانت في غير مواسم المطر تصبح طرقاً طبيعية للقوافل القادمة بالسلع التجارية من أواسط إفريقيا. كما إنها كانت في مواسم المطر تؤمن كميات الماء اللازمة للناس والحيوانات والمزروعات. ولهذا فنحن نجد أن الفينيقيين أقاموا لبدّة على مصب وادي لبدّة في بقعة من أخصب بقاع منطقة طرابلس. وأقاموا أويا

59- رستوفتزهف. م. «Rostovtzeff M». تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 381.

على مصب «وادي لجينين» كما أقاموا صبراتة على رأس الطريق التجاري الهام الذي كان يحمل سلع أواسط إفريقيا إلى صبراتة ماراً ببغدامس.

وإذا ما فكرنا في العمران فإننا قد نتساءل في أيامنا هذه عن السر في أن الإغريق والرومان تركوا آثاراً ضخمة في الأماكن التي استوطنوها في ليبيا بينما لم يترك الفينيقيون شيئاً يذكر. والذي يبدو لنا هو أن الفينيقيين. بالرغم من شهرتهم في هندسة البناء وبالرغم مما خلفوه من آثار في فينيقية وقرطاجة. كانوا خارج هاتين المنطقتين جّاراً وزراعاً ولم يكونوا عشاق بناء؛ بمعنى أنهم كانوا يكتبون بأبسط البنائيات في المستوطنات التي أقاموها في ليبيا ما دامت تفي بأغراضهم. بينما كان الإغريق والرومان يكرسون حياتهم وجهدهم للأماكن التي يستوطنونها؛ لأنهم قد عقدوا النية مقدماً على البقاء فيها إلى الأبد؛ وإذن فلا بد لهم من أن يؤمنوا فيها وجود كل المرافق الضرورية من حمامات ومسارح وساحات وطرق ومعابد على غرار ما تعودوا عليه في بلادهم الأم. هذه ناحية. أما الناحية الثانية فهي أن الأبنية الفينيقية في ليبيا كانت بسيطة إلى حد جعل اندثارها وتلاشيها أمراً سهلاً. وبالإضافة لذلك الاعتبار فإن علينا أن نتذكر أنه لم جّر في مواقع المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي حفريات كافية لتقرير مدى ما وصل إليه العمران الفينيقي فيها.

بسبب هذا كله فإن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي تشتهر حالياً في مجال الآثار والسياحة بآثارها الرومانية والبيزنطية أكثر مما تشتهر بأصولها الفينيقية ولذلك فسوف نؤجل الحديث المفصل عن آثار المستوطنات الرئيسية الثلاث (لبدّة وأويا وصبراتة) التي سمي الإغريق المنطقة كلها باسمها أي طرابلس (Tripolis) أو منطقة المدن الثلاث إلى ما بعد الحديث عن الرومان في ليبيا.

بعد تدمير قرطاجة:

دمر الرومان قرطاجة سنة 146 ق.م. ولكن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس لم تصبح تابعة لروما إلا بعد سنة 46 ق.م. فماذا كان

يجري في تلك المستوطنات خلال المائة سنة التي انقضت بين تدمير قرطاجة وتبعية تلك المستوطنات لروما؟ إن مصادرها لا تمدنا بالشيء الكثير للإجابة على هذا السؤال. والقليل القليل الذي نعرفه يتلخص في أن تلك المستوطنات استمرت تعيش حياتها الخاصة وتدير شؤونها الذاتية كما كانت تفعل في ظل قرطاجة، أي إن كلاً منها ظلت خاضعة لتنظيم حكومي على نحو التنظيم الذي عرفته في عهد قرطاجة والذي يعطي السلطة لأقلية أرسوقراطية في كل مستوطنة، وفي مجال الزراعة ظلت كل منها تقوم بنشاطها المعتاد. والجديد في الصورة هو أن تلك المستوطنات استراحت الآن من عبء الضرائب الثقيلة التي كانت تدفعها لقرطاجة، واستراح أبناؤها من الخدمة العسكرية التي كانت تتطلبها قرطاجة بين الحين والآخر. وفي الوقت ذاته انكسر سور الاحتكار الذي كانت قرطاجة تحيطها به فانفتحت على العالم الخارجي وأصبحت تسير جارة نشطة خاصة بها مع روما ونوميديا وغيرهما من البلدان المجاورة. ولم يطل الأمر بالدولة النوميدية الناشئة حتى فرضت نفوذها في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد على إقليم طرابلس والمستوطنات الفينيقية القائمة عليه. ولكنها تركت لها حرية تصريف شؤونها كالمعتاد مما أدى إلى انتعاش اقتصادي تلحظه في التوسع العمراني الذي سجلته كل من صيراته ولبدة لأول مرة. واستمرت الحال على ذلك النحو حتى تغلب يوليس قيصر على منافسه بومبي في معركة فرسالس وبدأ بتنظيم الأملاك الرومانية في الشمال الإفريقي ومنها الإقليم الطرابلسي؛ وستعرض لذلك عند الحديث عن العصر الروماني.

هذا بالنسبة للمستوطنات الفينيقية، أما القبائل الليبية التي كانت تعيش عيشتها البدوية كالمعتاد؛ فكان بعض الليبيين القريبين من الساحل يحتكون بالفينيقيين ويتأثرون بهم فينقلون عنهم ما يستطيعون نقله في كافة المجالات من زراعية وجرارية وعمرانية وحتى في مجال اللغة والأدب والفنون. أما الليبيون البعيدون فقد ظل تأثرهم بالفينيقيين قليلاً وظلوا أكثر تعلقاً ببدواتهم ووأشد إخلاصاً لها. وتبعاً لذلك فقد ظل محور حياتهم يدور على الزراعة والرعي وتربية المواشي؛ وبالطبع فإنهم كانوا يتبادلون إنتاجهم

مع المستوطنات الفينيقية فيأخذون منها ما يحتاجون إليه من السلع المستوردة من الخارج ويعطونها ما يفيض لديهم من سلع زراعية وحيوانية كالزيتون والجلود.

فزان منذ مقدم الجرامنتيين

حتى بدء العصر الروماني

ليس من اليسير أن يحدد المرء المنطقة التي سكنها الجرامنتيون في دواخل ليبيا ولكن من المعروف أنهم استوطنوا عدداً كبيراً من الواحات التي كانت ولا تزال منتشرة هنا وهناك في إقليم فزان. وتركزت جمعاتهم بشكل خاص في سلسلة الواحات في وادي الأجل¹. وانتشرت قراهم شمالاً حتى المنحدرات الشمالية للحمادة الحمراء وهي سلسلة التلال القائمة إلى الجنوب من سهل الجفارة - وقد استقروا في المنطقة من غدامس - وغيرها من الواحات - في الغرب. إلى الكفرة في الشرق. وكانت الصحراء إلى الجنوب من مساكنهم تقوم، بالنسبة لهم، بمثابة الساحل للفينيقيين والقرطاجيين: فقد كانوا يقطعونها بعرباتهم ذات الخيول الأربعة ويقيمون الحصون على مصادر المياه التي كانوا يجدونها في أوديتها لحماية طرقهم التجارية، ولتكون بمثابة استراحات لهم وحيواناتهم. أما كيف كانوا يقيمون تلك الحصون في مناطق رملية تكاد تكون خالية تماماً من مواد البناء الأولية فنحن نعلم أنهم كانوا يحملون مواد البناء الضرورية معهم من مساكنهم وينقلونها على عرباتهم إلى مواقع المياه التي يريدون إقامة الحصون عليها².

ولقد سبقت الإشارة إلى أننا نفهم من هيروودوتس وبلايني وميلا وغيرهم من الكتاب الكلاسيكيين أنه كان يسكن منطقة فزان قبل قدوم الجرامنتيين جنسان من الناس: أقزام من الزنوج أسماهم هيروودوتس «ترجلودايت» واكتشفت لهم قبور كثيرة غير عميقة بين تلال حمادة مرزق وقطع من فخارياتهم تشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر. ويعتقد أنهم أسلاف الدوادة الحاليين الذين يعيشون بين كثنان أباري. ورعاة من الزنوج الطوال الذين

1- يقع وادي الأجل إلى الجنوب من سبها بفزان ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول يبلغ حوالي مائتي كيلومتر وعرض يتراوح بين اثنين إلى ثلاثين كيلومتراً.
2- انظر الملحق «ب» وانظر أيضاً: Ayoub, Excavations in Germa, A Stencil pamphlet at the Library of Antiquities, The Museums, Tripoli, Libya, No: 3839, p. 3

اكتشفت لهم رسوم صخرية في تدرات - أكاكوس إلى الشرق من غات وهوؤلاء هم الجنس الإثيوبي³. أما من أين جاء الجرامنتيون البيض إلى فزان ومتى وكيف فهي أمورٌ مازالت غامضة وحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء. والنظرية الدراجة والتي تجيب على تلك الأسئلة هي أن الموجة الدورية التي غمرت بلاد اليونان حوالي سنة 1194 ق. م. أحدثت تدافعاً سكانياً عمّت آثاره آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأوسط بما فيها مصر التي تمكنت أن توقف تيار تلك الهجرات. ولعل أقواماً من أولئك المهاجرين القادمين من وراء البحر ومعهم مهاجرون من صقلية وسردينيا وجزر أخرى من جزر البحر الأبيض المتوسط نزلوا ساحل برقة وخليج سرت. حيث لم تكن هنالك سلطة قوة مركزية تستطيع التصدي لهم. بعد أن صدتهم مصر عن سواحلها. ولم يلبثوا أن امتزجوا بالليبيين ثم اضطروا في ظروف لا تعرفها - وربما كانت لا تعدو قدوم مهاجرين آخرين ضغطوا على الجرامنتيين - إلى التوغل في دواخل ليبيا. وفي هذا الوقت كانت تعيش في واحات فزان وأوديتها الخضراء وحوش وحيوانات برية كثيرة كالغزال والودان. وكان الفزانيون المسلمون يربون مواشيهم ويعيشون عيشة إنسان العصر الحجري الحديث فيستعملون أسلحة بسيطة من الخشب والحجارة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أسلحة البرونز أو الحديد وكانوا يجهلون الخيل والعربات مما شجع أقوام البحر الجرامنتيين على غزوهم واحتلال ديارهم قادمين من شواطئ برقة وخليج سرت الكبير. وبعد أن استقر الغزاة الجرامنتيون في المنطقة جعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة واستعبدوا سكان المنطقة الأصليين ليسخروهم في مزارعهم وفي رعاية ماشيتهم وقضاء مصالحهم الأخرى. وكان ذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد دلت الحفريات على أن أول مستوطنة أقامها الجرامنتيون كانت على قمة جبل زكرا حيث وجدت ثلاثة من جدرانهم السايكولوبية (Cyclopic walls) وبقايا أكواخهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة زككرا تعني «العسل» بلغة الطوارق. فهل كانت التسمية ترجمة من الطوارق لأصل
3- انظر أيضاً: Ayoub, The Excavations of Cornelins Bolbus, 1968 pp 9 - 10.

جرامنتي؟ هذا الجبل يقوم في الحمادة الحمراء ويمتد شمالاً في وادي الأجال وهو عبارة عن قمتين: الجنوبية وهي الأقدم، والشمالية وهي التي استوطنها الجرامنتيون حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، فأقاموا عليها بيوتاً صغيرة وكونوا مزارع مدرجة على منحدراتها. وأحاطوها بجدار طويل علمت فيه مصارف للتحكم في توزيع مياه المطر المتجمعة أمامه والإفادة منها في أعمال الري - وكانت بيوتهم تتكون من غرف صغيرة مبنية بأجر الطين أو بالأجر الأحمر. وقد استعملوا روث البقر لطلاء جدرانها ومصاطبها وهي طريقة ما زالت مستعملة في كل من السودان والهند حتى اليوم⁴ ولعل هذا المستوى من المساكن يمثل مرحلة متقدمة نسبياً لأن المعروف أن مساكن الجرامنتيين كانت في أول أمرها مساكن بسيطة لا تعدو كونها أكواخاً أو خياماً من جلود الحيوانات. وتأتي مرحلة النهضة الجرامنتية بعد قيام جرما القديمة فقد دلت آثارها على أنها كانت محاطة بسور وخنق وكان في داخلها بيوت كبيرة وحمامات ومعابد. كما كانت بها أسواق يظهر فيها أثر الطراز الروماني. ووجدت بها كذلك أعمدة تنتصب بتيجانها الكورانية والدورية شواهد على التأثير الإغريقي⁵. وفي هذه الفترة صار البيت الجرامنتي يتكون من شقة أو أكثر. وصارت جدرانه ومصاطبه تطلّى بملاط من الجير أو الجبس الملون. وكشفت الحفريات كذلك عن أن جرما القديمة كانت تتمتع بامدادات مياه جيدة وبنظام ممتاز للمجاري وبشوارع تظللها الأشجار وبكثير من البساتين التي كانت تحيط بالمدينة وتضفي عليها رداءً جميلاً من الخضرة.

ونحن وإن كنا لا نزال نجهل حدود ملكة الجرامنتيين التي لا بد أن تكون قد شملت فزان ومنطقة واسعة حولها إلا أننا بدأنا، بفضل علم الآثار، نعرف في تاريخ هذه القبيلة القوية: فقد كشفت الحفريات عن وجود ما يزيد على أربعين ألف قبر بجوار عاصمتهم جرما، التي كانت عبارة عن مدينة صغيرة

4- Ayoub M. S., Fezzan, a short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1968, pp 4246-.

5- لم توجد في أعمق طبقة كشفتها الحفريات في جرما القديمة حتى الآن أدلة على أبنية أقدم من القرن الميلادي الأول. ومعظم أبنية هذه الطبقة ترجع إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني. وهي طريقة تدل على أن الجرامنتيين كانوا عند هذا الحد قد تأثروا في مجال العمران بالإغريق والرومان عن طريق احتكاكهم بالنوميديين وبلبدة وأويا وصبراتة.

تتألف من معابد حجرية وحصون ومنازل متباعدة وآبار رومانية حفرت فيها بعد دخول الرومان. وأثار جرما على غرابتها. ليست أغرب من آثار جرامنتية أخرى هي عبارة عن حوالي مائة ضريح هرمية الشكل لا تزال قائمة في مقبرة الحاسيا المجاورة لجرما.

والجرامنتيون. كمجتمع مستقر. قطعوا شوطاً حضارياً لا بأس به. وتتجلى حضارتهم في العمران الذي أشرفنا إليه وفي نظام الحكم والتجارة والزراعة - وكما كان المجتمع الجرامنتي يتكون من الفئات التالية: الملك وحاشيته ثم الأمراء والحكام. وتأتي بعد ذلك طبقة العمال طبقة السكان القدماء الإفريقيين الذين كان بينهم بعض البربر - ولم يتأثر النظام الجرامنتي القائم على الأرستوقراطية العسكرية بالنظام الملكي اليوناني ولا بالنظام الروماني ولا بالقرطاجي بل ظل مخلصاً للطبيعة البدوية التي اكتسبها في ليبيا: فقد دلت آثار الأمراء والحكام المحليين على أنهم كانوا غير قابلين للتأثر بالنظم المجاورة ولذلك فقد كانوا مثلاً لا يترفعون عن ترؤس الغرف التجارية ولا عن العمل في التجارة. وهم لذلك كانوا أثرياء أقوياء إلى حد أنه كان باستطاعتهم أن يقاوموا حتى ملوكهم. وكان الملك الجرامنتي رأس الدولة وقائد الجيش والكاهن الأعظم للبلاد فكان بذلك مصدر للسلطة: فالأمراء والحكام المحليون إنما كانوا يتلقون سلطتهم منه مقابل تقديمهم الضرائب والمخاريب له. واكن الجيش الجرامنتي يتكون من المشاة وإن الفرسان الذين يمتطون العربات أو سهوات الخيول. ويبدو أنه كان في جيشهم ذاك فرقة كومادو تستخدم في الدرجة الأولى لقطع الطرق ولردم الآبار. أما الطبقة العاملة فكانت تتكون من العمال اليدويين وصغار التجار. وقد قال استرابو عن هذه الطبقة في وقت لاحق: «إن حياتهم لم تكن حياة فخرية ورفاهية ولكنهم لم يكونوا فقراء فقراً مدقعاً وإنما كانوا طبقة متوسطة عادية». ويذكر استرابو وغيره من الكتاب الكلاسيكيين أن الجرامنتي كان يتزوج عدة زوجات مما ينقض ما ذهب إليه بعض الكتاب المعاصرين من أن الجرامنتيين هم أبناء الطوارق: لأننا نعرف أن الطوارق يجلبون النساء إلى حد أنهم يقيمون نظام الإرث على جهة عصبية الأم وينتسبون للأب بدلاً من الأب

ولا يتزوج الرجل منهم أكثر من زوجة واحدة.

وفي مجال الزراعة والرعي يتحدث هيرودوتس⁶ عن ديار الجرامنتيين في الصورة التالية: «على مسيرة عشرة أيام أخرى من أوجلة نحو الغرب نأتي إلى تلة ملح أخرى بها نبع كغيرها من هذه التلال، وفيها أشجار نخل من النوع الذي يثمر كما هي الحال في الواحات الأخرى. وهنا يقطن الجرامنتيون. تلك القبيلة العديدة، التي يفرش أبنائها طبقة من التراب فوق الملح. ثم يزرعون بذورهم فيها⁷. وعندهم كذلك البقر التي تسير إلى الورا أثناء رعيها. والسبب في هذه العادة الغريبة هو أن قرون هذا النوع من البقر تنمو منحنية إلى الأمام ونحو الأرض. ما يمنع البقر من التحرك إلى الأمام. كما هي العادة. لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وفيما عدا ذلك فإن بقر الجرامنتيين تشبه غيرها من البقر. وإن كانت تمتاز عنها بسماك جلدتها وصلابته. ويقوم الجرامنتيون بأسر رجال الكهوف الإثيوبيين أي الترجلودايت (Trooglodytes) بمطاردتهم في عربات جرّ الواحدة منها أربعة خيول. لأن هؤلاء الترجلودايت سريعو العدو إلى حد يفوق التصور. فهم أسرع من أي شعب نعرفه. وهم يأكلون الأفاعي والسحالي والزواحف الأخرى. ويتكلمون لغة ليس لها شبيه في العالم فهي كزعيق الخفافيش».

ولعل التجارة كانت أهم مرفق اقتصادي للجرامنتيين فقد دفعتهم إلى أن يصبحوا مهرة في الملاحة الصحراوية إن جاز التعبير فعرفوا كيف يهتدون فيها بالنجوم. كما إنهم أقاموا الحصون والمخارص التي لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم على طول طرق قوافل الصحراء. والطرق التجارية عبر الصحراء الليبية ليست اكتشافاً من إنجاز الجرامنتيين أنفسهم فقد كانت فيها طرق ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ. كما إن نصوص العصر التاريخي في مصر القديمة تذكر أن أحد جّار أسوان استخدم ليبين ليقطع الصحراء بقافلة مكونة من ثلاثمائة حمار. وقد استخدمت الحمير في القافلة نظراً لشدة

6- انظر الملحق «ب» ص 782.

7- لقد ذكر بلايني أن الجرامنتيين استعملوا روث البقر كسماد زراعي في القرن الأول قبل الميلاد حينما كانت لا تزال هنالك بعض بعض الأنهار الموسمية التي كانت مياهها تستغل في ري الأراضي الزراعية.

قدرة الحمار على حمل الضمأ ولأن الجمال لم يكن قد عرف بعد. وجدر الإشارة أيضاً إلى أن ماجو (Mago) القرطاجي استخدم الحمير في أيام الجرامنتيين لعبور الصحراء. ولا شك أن الجرامنتيين في بداية عهدهم بالصحراء استخدموا الثور للنقل والسفر. ولذلك فقد ظهرت صورته مسرجاً في بعض رسوماتهم على الصخور. ولكن غلب على الجرامنتيين استخدام الحصان أكثر من غيره فاستخدموه لجر العربات إلى جانب ركوبه مباشرة: وسنجد أنهم ظلوا يعتمدون على الخيل حتى في القرن الميلادي الرابع عندما شاع استخدام الجمال الذي أبوا أن يستخدموه رغم ما يتميز به عن الحصان في الأسفار الصحراوية.

وبالنظر لموقع جرما القديمة ومهارة الجرامنتيين في الملاحة الصحراوية وقدرتهم - بسبب قوتهم وكثرة عددهم - على حماية القوافل التي يهيمهم أمرها فقد أصبحت جرما. عاصمتهم. مركزاً تلتقي فيه القوافل الذاهبة لأواسط إفريقيا من الساحل الليبي والقوافل القادمة من أواسط إفريقيا باتجاه ذلك الساحل ولقد كانت الطريق العابرة بجرما من سرت إلى السودان أقصر تلك الطرق وبالتالي أكثرها استعمالاً. وكان قصرها ناجماً عن تعمق النتوء البحري في القارة عند سرت حتى خط عرض 30° شمالاً. أما بالنسبة للعبور من جرما إلى تشاد فإن الذي كان يجعل السفر ميسوراً هو وجود سلسلة من الواحات تنتشر من الشمال إلى الجنوب وعلى مسافات قصيرة ما بين فزان وتشاد. وأشهر طرق القوافل التي كانت تربط الساحل الليبي بجرما هي:

- 1- طريق صبراتة - غدامس - إدري - صحراء أوباري - جرما.
 - 2- طريق أوبا - غريان - إلى يرغن عبر الجبال - كثنان أباري - جرما. وقد اشتهرت باسم طريق أكلة اللوتس.
 - 3- طريق لبدة - غرزة - شوارف - براك - سبها - جرما.
 - 4- طريق سرت - ودان - هون - عبر جبال السودان إلى سبها - جرما.
- وفي الوقت ذاته كانت أشهر الطرق التي تربط جرما بتشاد والسودان

هي:

- 1- جرما - زويلة - كفرة - إيندي - إلى مورو في السودان.
- 2- جرما - قظرون - فايا - تشاد.
- 3- جرما - قصر مارا - شرابا - إلى كوار على نهر نيجر.
- 4- جرما - إمسك - نهر النيجر⁸.

بالإضافة إلى تلك الطرق كان هنالك طريق آخر يربط جرما بالنيل شرقا وبشاطئ المحيط الأطلسي غرباً مبتدئاً من ميفيس أو الأقصر عبر الواحات الصرية إلى سيوة فأوجلة فجرما ومنها إلى متخدوش. ثم إلى أكاكوس ومنها يسير عبر الهجار فأواسط الصحراء إلى الساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي.

وكانت القوافل الجرمانتية حُمل إلى أواسط إفريقيا بعض الإنتاج الجرمانتي مثل الملح ثم بضائع ما وراء البحر كالحزفيات والزجاجيات والملابس والأدوات الحديدية والحجارة الكريمة والحلي. وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نتذكر أن الجرمانتيين كانوا يحتكرون تجارة الملح المتوافرة بكثرة في بلادهم والذي كانوا يستبدلونه بالذهب مع بلدان أواسط إفريقيا. أما السلع التي كانوا يعودون بها من أواسط إفريقيا كانت الحيوانات المفترسة، وجلود الحيوانات، والعاج، والأخشاب وخاصة الأبانوس، والعبيد، والذهب الذي كانوا يأتون به من النوبة أو النيجر، والفضة من منطقة تمبكتو، وكان من إنتاجهم الياقوت أو حجر الأمازون الذي عُرف باسم الحجر القرطاجي لأن قرطاجة هي التي كانت تصدره إلى العالم الخارجي بعد استيراده من الجرمانتيين. وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفراعنة كانوا يسمون ذلك الحجر بالحجر التمحى من الواوات. نسبة لقبيلة التمحو الليبية التي كانت تنتشر أو تحرك في المنطقة بين شرق فزان وغرب النيل. ولقد أثبتت الحفريات صحة التسمية الفرعونية فقد اكتشف مونود (Monod) الفرنسي محجراً للأمازون على بعد قليل إلى الشرق من الواوات: واو الناموس، واو الكبير. وبالإضافة إلى تلك السلع تاجر

8- Ayoub, M.S. Fezzan, a Short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1986, pp 77 - 88.

الجرمانتيون أيضاً في الخيل والحمر والمواشي.

وبحكم هذه التجارة وأهميتها للاقتصاد الجرمانتي نشأت بين الجرمانتيين والإغريق وبينهم وبين القرطاجيين علاقات ودية سلمية فساعدتهم على الإثراء، وقد زاد في أهمية جرما أن القبائل الليبية التي كانت تنظر إلى نوميديا كمثال يحتذى صارت بعد سقوط نوميديا سنة 40 م. تتطلع إلى جرما باعتبارها النموذج المثالي الجديد الذي صارت تلك القبائل تحذو حذوه.

وفي مجال الصناعة دلت الآثار على أنه كانت تقوم في جرما صناعات محلية محدودة من مثل صناعة الحلي الذهبية والفضية، وصناعة الأغواش والأساور والأقراط من حجر الأمازون الذي أسماه الرومان فيما بعد (Carbuncle) أي العقيق، وقد كان هذا الحجر في ذلك الوقت يعتبر كريماً كالجواهر في أيامنا هذه. ولا شك أنه كانت لدى الجرمانتيين صناعات أولية أخرى ما يتعلق بالحاجات الضرورية كالمأكل والملبس والمسكن وبعض الأسلحة وما شابه ذلك.

وإذا ألقينا نظرة على فن الرسم عند الجرمانتيين في هذه المرحلة فإننا سنلاحظ أن الرسوم الجرمانتية الأولى كانت بدائية للغاية إذا ما قورنت برسوم الرعاة الذين احتل الجرمانتيون ديارهم وسخروهم في خدمتهم. ولعل خير مثل لهذه المرحلة من الفن الجرمانتي هو تلك النقوش الصخرية التي وجدت في زجا (Zigza) بشمال فزان، وبجبل غنيمية في جنوبها وفي جبل زنكرا في منطقة جرما، ويبرز بين النقوش المختلفة رسم عربة وخيلها. وقد مثل الجسم فيه بزويتين قائمتين بينما مثلت الأيدي والسيقان بخطوط مستقيمة ومثل الرأس بنقطة. وسنلاحظ أن هذا الفن الجرمانتي لم يلبث أن ترقى فيما بعد ووصل حداً معقولاً من التقدم، والمعتقد أن الجرمانتيين لم يكونوا نحائين إذ لم يكتشف بين آثار جرما حتى الآن سوى تمثال نصفي من الحجر الرملي لرجل يلبس رداءً.

ونحن وإن كنا لا نعرف الكثير عن حياة الجرمانتيين الدينية إلا أننا نعرف أنهم عبدوا الإلهة تانيت (Tanit) الليبية، التي كانوا يرون فيها سيدة

للصحراء، وحبوبة للقمر، ومرشدة للقوافل، وسراً للينابيع المتدفقة. وقد حافظت هذه الإلهة على لبيبتها لدى الجرامنتيين بالرغم من أن القرطاجيين عبدوها ورأوا فيها نظيراً لإلهتهم عشتار الفينيقية فزوجوها لإلههم بعل حامون. ولا شك في إن الجرامنتيين عبدوا كذلك الإله زيوس آمون الليبي الذي كان مقره في واحة سيوة بالإضافة إلى قوى مظاهر الطبيعة المتعددة. كما إنهم أخذوا عن الليبيين تقديس الأسلاف والنوم على قبورهم من أجل الاستخارة واستطلاع المستقبل. ولو كنا نعرف على وجه التحقيق أين كان الجرامنتيون يقيمون فيما وراء البحر قبل قدومهم إلى ليبيا لاستطعنا أن نحدد الآلهة التي لأبد وأنهم نقلوها معهم إلى فزان عند غزوهم لها واستقرارهم فيها. وإذا التفتنا إلى قبورهم وطريقتهم في الدفن وجدنا أن أقدم نوع اكتشف من قبورهم هو مجموعة من القبور المستديرة ذات اللحود الصغيرة وغير العميقة؛ وكانوا يدفنون الميت فيها على وضع يشبه وضع الجنين في الرحم. ولم توجد في تلك القبور سوى فخاريات قليلة وبعض أدوات الزينة المصنوعة من الحجارة والعظام.

الفصل الخامس
ليبيا في العصر الروماني

ليبيا في ظل الرومان

تمهيد:

حتل شبه جزيرة إيطاليا موقعا ممتازا على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. وتزداد أهمية هذا الموقع بسبب امتداد الساق الإيطالية وقدمها وجزيرة صقلية إلى مسافة كبيرة في داخل حتى تكاد تقسمه إلى حوضين: حوض شرقي وآخر غربي. وقبل ظهور روما والرومان كانت في إيطاليا ثلاثة عناصر سكانية مهمة هي:

1- الإغريق في جنوب إيطاليا وفي القسم الشرقي من صقلية. وكانت حضارتهم هنا امتدادا للحضارات الإغريقية في بلاد الإغريق.

2- الإترسكان وكانوا في الشمال في تسكانيا بين نهر التيبر ونهر أرنو. ثم انتشروا عبر التيبر على الساحل الغربي حتى خليج نابولي. وكانوا أصحاب حضارة قديمة تشبه الحضارة الفينيقية في اعتمادها على التجارة والزراعة والصناعة.

3- اللاتين وكانوا يقيمون في الوسط في سهل لاتيوم الذي يجري فيه نهر التيبر. فكانوا بذلك واقعين تحت تأثير حضارتي الإغريق والإترسكان فتأثروا بهاتين الحضارتين وأنشأوا سنة 755 ق.م. مدينة روما على سبع هضاب تقوم بالقرب من مصب نهر التيبر. ومن روما راحوا يبسطون سيطرتهم على القبائل المجاورة. ويوسعون دائرة نفوذهم شيئا فشيئا. حتى أقاموا دولة رومانية ملكية لم تلبث أن تحولت إلى جمهورية ثم إلى إمبراطورية.

حكومة روما الملكية:

تذهب الرواية الرومانية إلى أن الأخوين رومولس (Romulus) وريموس (Remus) رضيعي الذئبة هما اللذان أسسا روما سنة 755 ق.م. وكان رومولس الملك الأول عليها. ولم يكن النظام الملكي وراثيا بل كانوا ينتخبون ملوكهم بالهتاف والتصفيق تعبيرا عن الاستحسان والموافقة أو بالسكوت تعبيرا عن عدم الموافقة ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد نظام التصويت

والاقتراع. ومنذ هذه المرحلة المبكرة كان لهم مجلس شيوخ يتولى تحديد سلطة الملك وصلاحياته كما كانت لهم مجالس شعبية أخرى. ولكن السلطة في مجموعها كانت في يد الملك وأيدي تلك المجالس التي كانت في واقعها إنما تمثل الأرسطوقراطية المكونة من العسكريين والأثرياء. وكان الملك السابع والأخير هو الملك تاركويين الذي كان شديدا على الأغنياء. عطوفا على الفقراء والضعفاء. ما حمل الطبقة الأرسطوقراطية على الثورة عليه وطرده هو وابنه من روما وإعلان الجمهورية الرومانية سنة 508 ق.م.

حكومة روما الجمهورية:

كان النظام الجمهوري يرتكز أساسا على نزعة أرسطوقراطية أعطت كل شئ لطبقة النبلاء أو الأشراف وتركت طبقة البلبيين أو الرعايا محرومة من المشاركة في الحكم والحقوق وحتى من الزواج مع النبلاء. وكان الحكم في روما في هذه المرحلة في يد مجلس الشيوخ الروماني الذي كانت عضويته مقصورة على النبلاء. وفي كل سنة كان المجلس ينتخب قنصلين من الأشراف لمدة سنة ليتوليا قيادة الجيوش ويتأسسا مجلس الشعب ويتوليا السلطة القضائية ويسنوا القوانين والتشريعات بمشاركة مجلس الشيوخ ويقوموا بتنفيذها بعد ذلك.

وظلت طبقة الرعايا تكافح من أجل العدالة والمساواة حتى فازت بأول نصر كبير سنة 369 ق.م. عندما صارت تتمتع بجميع حقوق المواطنة المدنية وكانت ذلك النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات والمكاسب. ففي سنة 300 ق.م. فازت هذه الطبقة بحق التمتع بالحقوق المدنية. وتوالت هذه الانتصارات التي هي في الواقع انتصار لروما على نفسها حتى توحد الشعب الروماني وتساوي أفراده أمام القانون وحلت الثروة أو الفقر محل الانتساب إلى أسرة الأشراف أو إلى طبقة الرعايا كقياس يقرر مركز الفرد الاجتماعي ويمنحه أو يحرمه حق الانتخاب.

ومن الواضح أن هذا التطور كان يسير في اتجاه ديموقراطي سليم لم يلبث إن أدى إلى منح كافة الحقوق بما فيها حق الانتخاب لكل مواطن روماني

له مسكن. وظل ومجلس الشيوخ الروماني يتألف من ثلاثمائة عضو ولم تفتح لطبقة الرعايا أو العامة إلا ابتداء من سنة 400 ق.م. وبعد هذه المرحلة بدأت سلطاته تتقلص وتتحصر في إعداد مشروعات القوانين التي لم تكن لتصبح نافذة المفعول إلا بعد مصادقة المجالس الشعبية عليها. وفي تسيير السياسة الخارجية ومراقبة خزينة الدولة.

حكومة روما الإمبراطورية:

بانتصار يوليس قيصر. أحد القنصلين. على منافسه وزميله بومبي. القنصل الآخر. سنة 48 ق.م. أصبح الأول دكتاتورا يجمع في يده جميع مقاليد الأمور طيلة حياته. وكان كذلك إيذانا بنهاية العصر الجمهوري في روما وبدء العصر الإمبراطوري. وعندما اغتيل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. نشبت حرب أهلية ثانية بين أنطوني وأكتافيوس من جهة وقتلة قيصر وأنصارهم من جهة أخرى ثم بين أكتافيوس وأنطوني وانتهت بانتصار أكتافيوس الذي أصبح أول إمبراطور روماني وتلقب بأوغسطس أي العظيم (29 ق.م - 14 م).

وفيما يلي جدول تاريخي بأسماء أباطرة الرومان الغربيين والشرقيين (البيزنطيين) وتواريخ حكمهم:

الأباطرة الغربيون

الأسرة اليوليسية:

1. أكتافيوس أوغسطس 29 ق.م - 14 م
2. تايبيريوس كلوديس 14 - 37 م
3. كاليغولا (جايوس جيرمانيكوس) 37 - 41 م
4. كلوديس (تايبيريوس دروسس) 41 - 54 م
5. لوسيس نيرون كلوديس 54 - 68 م
6. فلافيس فسبسيانوس 69 - 79 م

الأسرة الفلافية:

7. تيطس فلافيوس سابينس 79 - 81 م
8. تيطس فلافيوس دومتيانس 81 - 96 م
- الأسرة الأنطونية:**
9. ماركس نيرفا 96 - 98 م
10. ماركس تراجانس 98 - 117 م
11. هادريان 117 - 138 م
12. تيطس أوريليوس أنطونينس 138 - 161 م
13. ماركس أوريليس 161 - 180 م
14. لوسيس كمودس 180 - 192 م
- الأسرة الأفريقية:**
15. سبتيميوس سويرس 193 - 211 م
16. كراكلا سويرس 211 - 217 م
17. أفيتس سويرس 218 - 222 م
18. اسكندر سويرس 222 - 235 م
- الفوضى العسكرية 235 - 285 م
19. ديوقلتيانس 285 - 305 م
20. قسطنطين الكبير 306 - 337 م

نشأة القسطنطينية ونقل العاصمة من روما إلى بيزنطة

الباطرة البيزنطيون

- قسطنطينوس الثاني (Constantius II) 337 - 361 م
- جوليان المرتد (Julian the Apostate) 361 - 363 م
- جوفيان (Juvian) 363 - 364 م
- فليز (Valens) 364 - 378 م

الأسرة الثيودوسية (Theodosian Dynasty)

- ثيودوسيس الكبير (the Great Theodosius) 379 - 395 م
- أركاديوس (Arcadius) 395 - 408 م
- ثيودوسيس الثاني (Theodosius II) 408 - 450 م
- مارسيان (Marcian) 450 - 457 م
- الأسرة الليونينية (Dynasty Leonine)**
- ليو الأول (Leo I) 457 - 474 م
- ليو الثاني (Leo II) 474 م
- زينو (Zeno) 474 - 491 م
- أنسطاسيوس (Anastasius) 491 - 518 م
- الأسرة الجستينانية (Justinianian Dynasty)**
- جستين الأول (Justin I) 518 - 527 م
- جستينان الأول (Justinian I) 527 - 565 م
- جستين الثاني (Justin II) 565 - 578 م
- تيبيريوس الثاني (Tiberius II) 578 - 582 م
- موريوس (Maurice) 582 - 602 م
- فوكاس (Phocas) 602 - 610 م
- الأسرة الهرقلية (Dynasty Heraclian)** (وقع الفتح العربي في بداية عهدها)
- هرقليوس (Heraclius) 610 - 641 م
- قسطنطين الثالث (Constantine III) (توفي) 641 م
- هرقليوناس (Heracleonas) (خلع) 641 م
- قنستانس الثاني (Constans II) 641 - 668 م
- قسطنطين الرابع (IV Constantine) 668 - 685 م
- جستينان الثاني (Justinian II) 685 - 695 م

انتهى بالنفي

ليونتيوس (Leontios) 698 - 695 م
 تيبيريوس الثالث (Tiberius III) 705 - 698 م
 (عودة) جستينيان الثاني (Justinian II Restoration)

711 - 705 م

انحطاط سلطة الأباطرة

باردينس (Bardanes) 713 - 711 م
 أنسطاسيوس الثاني (Anastasius II) 716 - 713 م
 ثيودوسيوس الثالث (Theodosius III) 717 - 716 م
 الأسرة الأيزورية (Dynasty Isaurian)

ليو الثالث (Leo III) 741 - 717 م
 قسطنطين الخامس (IV Constantine) 775 - 741 م
 ليو الرابع (Leo IV) 780 - 775 م
 قسطنطين السادس (VI Constantine)

(سملت أمه عينيه وخلعته) 797 - 780 م
 إيرينا (نهاية الأسرة) (Irene) 402 - 797 م
 نقفور (Nicephorus) 811 - 802 م
 ستوراسيوس (Stauracius) 811 م
 ميخائيل الأول (Michael I) 813 - 811 م
 ليو الخامس (Leo V) 820 - 813 م

الأسرة الفرجية (Dynasty Phrygian)

ميخائيل الثاني (Michael II) 829 - 820 م
 ثيوفيلوس (Theophilus) 842 - 829 م
 ميخائيل الثالث (Michael III) 867 - 842 م

الأسرة المقدونية (Dynasty Macedonian)

بسيل الأول (Basil I) 886 - 867 م
 ليو السادس (Leo VI) 912 - 886 م
 الاسكندر (Alexander) 913 - 886 م

قسطنطين بروفيروجينيتوس (Prophyrogenitus Constantine) 919 - 912 م

رومانوس الأول (Romnus I) 944 - 919 م
 رومانوس الثاني (Romnus II) 963 - 959 م
 بسيل الثاني (Basil II) 1025 - 963 م
 قسطنطين الثامن (Constantine VIII) 1025 - 963 م

قسطنطين الثامن (منفردا) (Constantine VIII) 1028 - 1025 م

نقفور الثاني (Nicephorus II) 969 - 963 م
 جون الأول تزميسكس (John I Tzimisces) 976 - 969 م
 رومانوس الثالث (Romnus III) 1034 - 1028 م
 ميخائيل الرابع (Michael IV) 1041 - 1034 م
 ميخائيل الخامس (Michael V) 1042 - 1041 م
 زو و ثيودورا (Zoe & Theodora) 1042 م

قسطنطين التاسع منوماخس (Constantine IX Monomchus) 1055 - 1042 م

ثيودورا (Theodora) 1056 - 1055 م
 ميخائيل ستراتوتيكوس (Michael Stratioticus) 1057 - 1056 م

(نهاية الأسرة المقدونية)

إسحاق الأول كمينوس (Isaac I Comnenus) (تنازل)

الأباطرة البيزنطيون في نيكايا (Nicaea)
 ثيودور الأول لسكارس (Theodore I Lascaris)
 م 1222 – 1204
 جون الثالث دو كاس فاتاتزيس (John III Ducas Vatatzes)
 م 1254 – 1222
 ثيودور الثاني لسكارس (Theodore II Lascaris)
 م 1258 – 1254
 جون الرابع لسكارس (John IV Lascaris)
 م 1261 – 1258
 ميخائيل الثامن بليولوجس (Michael VIII Palaeologus)
 م 1282 – 1259
 م 1261 استرجاع القسطنطينية
الأسرة البليولوجية (Dynasty of the Palaeologi)
 ميخائيل الثامن (Michael VIII)
 م 1282 – 1261
 أندرونيكوس الثاني (Andronicus II)
 م 1328 – 1282
 ميخائيل التاسع (Michael IX)
 م 1320 – 1293
 أندرونيكوس الثالث (Andronicus III)
 م 1376 – 1328
 جون الخامس (John V)
 م 1376 – 1341
 جون السادس (John VI)
 م 1354 – 1341
 أندرونيكوس الرابع (Andronicus IV)
 م 1379 – 1376
 (عودة) جون الخامس (restored John V)
 م 1391 – 1379
 جون السابع (John VII)
 م 1390
 مانويل الثاني (Manuel II)
 م 1425 – 1391
 جون الثامن (John VIII)
 م 1448 – 1425
 قسطنطين الحادي عشر دراجاسيس (Constantine) Dragases
 م 1453 – 1449 XI

م 1059 – 1055
 قسطنطين العاشر دو كاس (Constantine X Ducas)
 م 1067 – 1059
 رومانوس الرابع ديوجينيس (Romanus IV Diogenes)
 م 1071 – 1067
 ميخائيل السابع دو كاس (Michael VII Ducas)
 م 1078 – 1071
 نقفور الثالث بوتانياتس (Nicephorus III Botaniates)
 م 1081 – 1078
الأسرة الكمينية (Commenian Dynasty)
 ألكسيوس الأول كمينوس (Alexius I Comnenus)
 م 1118 – 1081
 جون الثاني (John II)
 م 1143 – 1118
 مانويل (Manuel)
 م 1180 – 1143
 ألكسيوس الثاني (Alexius II)
 م 1183 – 1180
 أندرونيكوس (Andronicus)
 م 1185 – 1183
الأسرة الإنجيلية (Dynasty of the Angeli)
 إسحاق الثاني (Isaac II) (خلع)
 م 1195 – 1185
 ألكسيوس الثالث (Alexius III)
 م 1203 – 1195
 إسحاق الثاني (عاد مع ألكسيوس الرابع) (Isaac II restored with)
 م 1204 – 1203 (Alexius IV)
 ألكسيوس الخامس دو كاس مرتزفيوس (Alexius V Ducas)
 م 1204 (Murtzphius)
 (الحملة الصليبية الرابعة تستولي على القسطنطينية)

استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة 1453 م
وانتهاء الإمبراطورية البيزنطية¹.

الرومان في طرابلس وفزان

سبق أن أشرنا إلى التحدي الإغريقي بزعامة قورينة لسلطة قرطاجة الفينيقية في تونس. وقد بينا كيف فشلت ذلك التحدي ثم أشرنا إلى روما ورثته فيما بعد ضمن التركيبة الإغريقية التي ورثتها فسارت بذلك الشوط إلى نهايته. لقد كانت قرطاجة تدرك من موقعها الاستراتيجي المهم أهمية مضيق مسينا الصقلي للتجارة العالمية في البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فأنها أزعجها أن يبدأ الإغريق بإنشاء مستوطنات لهم في صقلية لأن سيطرتهم عليها كانت تشكل تهديدا خطيرا للتجارة الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وقد لاحظنا قبل قليل أن قرطاجة ذهبت إلى حدة مهادنة إغريق قورينة والتساهل في إقرار الحدود بينها وبينهم لتتمكن من التفرغ لحرب إغريق صقلية والسيطرة على هذه الجزيرة المهمة فاستولت قواتها على مسينا المتحكمة في المضيق المسمى باسمها سنة 264 ق.م. ولما كان الرومان في هذه المرحلة التاريخية قد أصبحوا قوة نامية بدأت تملأ محل الإغريق في المرحلة الأولى من تكوين الإمبراطورية الرومانية. فإنهم لم يسكتوا على احتلال قرطاجة لمسينا بل خفوا لمكافحة ذلك الاحتلال بوصفهم حماة للإغريق والحضارة الإغريقية وان كان ذلك مجرد ستار لنواياهم التوسعية من جهة ولدفع الخطر عن أبوابهم من جهة أخرى. فكان هذا إيذانا ببدء حرب البونيقية بين روما وقرطاجة. واستمرت تلك الحرب طيلة ثلاث وعشرين سنة (264 - 241 ق.م.) وانتهت بخروج قرطاجة من صقلية. وبالرغم من هذه الخسارة الفادحة فقد استطاعت قرطاجة أن تشمر عن ساعدها من جديد. وبعد مضي ثلاث وعشرين سنة على انتهاء الحرب البونيقية الأولى. لتبدأ الحرب البونيقية الثانية ضد روما (218 - 202 ق.م.). وتميزت هذه الحرب الثانية بغزو القائد القرطاجي هانيبال لإيطاليا عبر جبال الألب ووقوفه على أبواب روما. ولكن الرومان استماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم. ولم تلبث حملة هانيبال أن باءت بالفشل فاغتنم الرومان هذه الفرصة وغزوا شمال إفريقيا بحملة يترأسها سكيبيو أفريكانس (Scipio)

1- Baynes, H. Norman & Moss, H. St. L. B. (Editors), Byzantium, Oxford University Press, Oxford , 1st issued as an Oxford University Press paperback 1969, pp 422423-.

(Africanus). وما إن نزل القائد على الشاطئ الأفريقي حتى خالف مع مسينسا (Massinissa) أحد رؤساء القبائل الليبية الغربية. وانتصرت القوات المتحالفة على القرطاجيين انتصاراً حاسماً في موقعة زاما فلم يبق أمام قرطاجة إلا أن تفاوض الرومان المنتصرين لتنقذ نفسها.

وانتهت المفاوضات مؤكدة معنى القول التاريخي «الويل للمغلوب» فقد فرض الرومان المنتصرين شروطاً تضمن لهم عدم انتعاش قرطاجة مرة أخرى. فرضوا عليها أن تتخلى عن أسبانيا. وأن تدفع غرامة كبيرة وتخفف عدد سفن أسطولها إلى عشرة سفن فقط. ولكي يثقل الرومان قرطاجة نهائياً. شجعوا مسينسا في أطماعه الإقليمية فاعترفوا به ملكاً لملكة نوميديا المستقلة (= الجزائر وبعض أجزاء تونس). ورغم أنهم سمحوا لقرطاجة بالاحتفاظ بمستوطناتها الفينيقية على الساحل الطرابلسي. ألا أنهم ضمنوا اتفاقية الصلح بينهم وبينها هذه الجملة المطاطة: «تشمل ملكة نوميديا كل المدن والمناطق التي سبق لمسينسا وأجداده إن ملكوها». وفي الوقت ذاته حظرت المعاهدة على قرطاجة شن أية حرب إلا بعد الاستئذان من روما.

ولم يكن مسينسا في حاجة لمزيد من التشجيع. فقد كان يتمتع بذكاء خارق وقوة جسمانية فائقة استخدمها إلى أقصى حد ممكن في سبيل تحقيق حلمه في إقامة ملكة ليبية موحدة. ونجح في تحويل عدد كبير من البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين وعمم بينهم استعمال الأدوات والطرق الزراعية الفينيقية فتمكن بذلك من إقامة ملكة ليبية امتدت حدودها أثناء حياته من شرقي المغرب الأقصى إلى غربي برقة. ولكن بقاء قرطاجة مستقلة رغم عجزها كان بمثابة شوكة في جانب مسينسا فبدأ يتعدى على المناطق التي ظلت تابعة لقرطاجة بموجب المعاهدة. وبدأت قرطاجة تشكوه إلى روما بعد كل عدوان. ولكن روما كانت في معظم هذه المناسبات تقرر في صالح مسينسا. وفي الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد أحس مسينسا أن بوسعه ضم المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى مملكته. فادعى أنه يريد المرور بها لمطاردة ثائر هارب إلى منطقة برقة.

ولكن قرطاجة رفضت أن تسمح له بذلك فاعتبر هذه الرفض حجة تبرير لإعلان الحرب وهاجم المستوطنات الفينيقية على ساحل منطقة طرابلس. ولكن قرطاجة استطاعت. رغم ضعفها. أن تدافع عن محمياتها وتصد غارة مسينسا. كما أنها استطاعت بعد احتجاجات كثيرة لدى مجلس الشيوخ الروماني أن تنجح في إقناع المجلس بإرسال لجنة تحقيق تنظر في المشكلة. وجاءت اللجنة ودرست الموقف ولكنها قررت في صالح مسينسا. فأصدرت روما. بناء على توصيات اللجنة. أمراً لقرطاجة بالتخلي عن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي وتسليمها لمسينسا سنة 162 ق.م. وبدفع غرامة له قدرها خمسمائة (تالنت). نظير احتفاظ قرطاجة فيما مضى بتلك المستوطنات بصفة غير شرعية.

وفي سنة 150 ق.م. استفز مسينسا قرطاجة حتى اضطرها لمهاجمته بجيش غير نظامي استطاع مسينسا أن يقضي عليه بسهولة. واستغلت روما فرصة نقض قرطاجة للمعاهدة بمهاجمة مسينسا دون إذن مسبق من روما فقامت القوات الرومانية بمهاجمة قرطاجة في حرب ثالثة جديدة هي الحرب البونيقية الثالثة التي استمرت ثلاث سنوات وانتهت سنة 136 ق.م. بأسوأ زوال قرطاجة من عالم الوجود وتسويتها بالأرض. وحتى تحول روما دون استئثار خطر خليفة مسينسا فيما لو استولى على بقية الشمال الأفريقي. شكلت ولاية رومانية مما كان قد تبقى لقرطاجة من أملاك في تونس. وعينت الحدود بين هذه الولاية وبين ملكة نوميديا بحفر خندق متصل فيما بينها عرف باسم خندق سكيبيو (Fossa Scipionis) واتخذت مدينة يوتيكا (Utica) الحرة. الواقعة على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال من موقع قرطاجة. عاصمة لهذه الولاية.

أما نوميديا فإنها أصبحت في عهد مسينسا ملكة كبيرة يسكنها شعب البدو الفساة المتأخرين باستثناء سكان المدن الثلاث في القسم الشرقي من نوميديا؛ فقد كانوا متأثرين بالحضارة الفينيقية. وكانت الزراعة قبل مسينسا موجودة على نطاق ضيق ولكن مسينسا شجع انتشارها وفرضها على البدو النوميديين بعد أن فرض عليهم الاستقرار. فبدأ

النوميديون يقتبسون الكثير من أساليب الزراعة وأدواتها عن الفينيقيين. وكانت أشهر مزروعاتهم القمح والشعير. ولكن معظمهم - حتى المناطق الصالحة للزراعة - ظلوا يفضلون العمل بالرعي وتربية الحيوانات التي كانوا ينزلون بها من السهول في الشتاء ويصعدون بها إلى الجبال والغابات في الصيف. وكانت أشهر تلك الحيوانات، الخيل والنعاج والماعز والبقر.

وكان النوميديون يعيشون في خيام من الجلد أو أكواخ من الصيد والعيان. وكان الرجل منهم يقيمون أكواخهم في بعض الحالات على العريات إما المستقرين فكانوا يقيمون في أكواخ دائمة ثابتة أو في بيوت ذات زوايا أربع أو في كهوف طبيعية أو صناعية.

وكان السكان آنئذ. كما هم اليوم، أشداء أصحاء، محبين للحرب. يعيشون أساسا على الحليب والجبن ولحم الصيد والمنتجات البرية المتنوعة ودقيق القمح والشعير وربما أيضا زيت الزيتون. وكانوا كذلك يأكلون الحبوب والجراد والعسل. أما الأبقار والأغنام فإنها كانت عماد ثروتهم فلم يكونوا يذبحونها ليأكلوها وإنما كانوا يقدمون التضحيات للآلهة فيأكلها المتعبدون. وربما كانوا أيضا يأكلون لحوم الكلاب. وكان فقراؤهم يلبسون الجلود بينما كان الأغنياء يرتدون الملابس الصوفية. وكان النوميديون يتحلون بالعقود والأساور والقلائد التي تشبه التي سابقتها في عصر ما قبل التاريخ وكانوا يلبسون خواتم اليد وخواتم أصابع القدم. وحلق الأذن المصنوع من النحاس أو البرونز أو الحديد. وكانت أدواتهم المنزلية في الغالب أما من الخشب أو من الفخار البدائي الذي كان يصنع باليد ويشوى على نار مكشوفة. وكان لونه أما رماديا أو بنيا أو اسود ولم يكن من حيث الجودة والإتقان يختلف عن فخار العصر الحجري الحديث.

ويبدو أن معظم أدواتهم وأسلحتهم كانت من الحديد غير أننا نجد من الصعب علينا أن نقدر إلى أي مدى استمروا في استعمال الأدوات الحجرية. والأرجح أن شمال غربي أفريقيا لم يمر بعصر النحاس ولا بعصر البرونز. وربما كانت الأدوات القليلة التي وجدت هنا من هذين المعدنين من صناعة أجنبية مستوردة.

وكانت الحربة ذات الرأس الحديدي هي السلاح الرئيسي الذي يستعمله النوميدي في الحرب أو الصيد. وكان النوميدي يحمل حراب وخنجرا وترسا صغيرا مستديرا. ولم يكن يحمي رأسه أو جسمه أي نوع من الدروع أو الخوذات.

ونحن نعرف أن الفرسان النوميديين الذي خدموا القرطاجيين أولا ثم الرومان ثانيا كانوا مسلحين على النحو الذي ذكر.

وبعد وفاة مسينسا في السنة الأولى من الحرب البونيقية الثالثة (149 ق.م.) تلاه على عرش نوميديا ابنه ميسبسسا (Micipsa) الذي تخلى عن سياسة أبيه التوسعية وتابع سياسة تشجيع الزراعة وحويل البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين.

وفي عهده تمتعت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي بقسط وافر من الحرية. فهي وإن كانت قد استمرت تدفع للملك الجديد ما كانت اعتادت على دفعه من ضرائب لقرطاجة إلا أنها سمح لها الآن أن تحكم نفسها بنفسها وفقا لشرائعها وعاداتها الفينيقية. ويعزى سبب تساهل الملك النوميدي الجديد في معاملة المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى بعدها عن سرتا (Cirta) (=قسنطينة). عاصمة ملكته. ولكن ربما كان ذلك التسامح سياسة متعمدة تهدف إلى ترك هذه المراكز الحضارية الفينيقية تعيش في سلام حتى تبقى بمثابة مراكز إشعاع حضاري فتستفيد هي ذاتها وتفيد البلاد بأسرها. والواقع أن أكبر فائدة حققها الحكم النوميدي لها هو انه مكنها من الخروج عن العزلة التي كانت قرطاجة تفرضها عليها إلى الاتصال بنوميديا وروما في وقت واحد. وجدير بالملاحظة أن هذه المرحلة هي مرحلة التوسع والتقدم الكبيرين اللذين أحرزتهما صبراتة لأول مرة في تاريخها نتيجة لرواج تجارتها مع إيطاليا وغيرها من بلدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة 118 ق.م. توفي الملك ميسبسسا تاركا ملكته ليشتترك في حكمها ابنه اذربال (Adherbal) وهيميسال (Hiempsal) وابن أخيه

يوغرتا (Jugurtha) ابن مانستبال. وكان يوغرثا هذا طموحا وقاسيا فبدأ حكمه بقتل هييمبسال وطرد اذريال الذي هرب إلى روما مستنجدا بها لتسوية الموقف. ولكن يوغرثا كان له أصدقاء متنفذون من الرومان في مجلس الشيوخ الروماني مما جعل ذلك المجلس يتخذ حلا وسطا قسمت ملكة نوميديا بموجبه إلى قسمين: شرقي ويشمل منطقة طرابلس لاذريال وغربي ليوغرتا. ولكن يوغرثا لم يلبث أن استأنف القتال ضد اذريال وحاصره. واكتفت روما في بداية الأزمة الجديدة بالاحتجاج الشفوي. ولكن عندما قتل اذريال وذبح عدد من أعوانه رجال الأعمال الرومان المقيمين في مملكته حُركت روما وبدأت الحرب بينها وبين يوغرثا، ولكنها كانت حربا قصيرة انتهت بخيانة صاحب موريتانيا _ وهو حمو يوغرثا _ لصهره وتسليمه لروما حيث شنق. وعينت روما بدلا منه أحا وديعا له من أبيه اسمه جودا (Gauda).

وفي غمرة هذه الأحداث كانت لبدة قد تحققت أن مصلحتها تقضي بإقامة علاقات حسنة مع الرومان. ولذلك فقد اتصلت بهم وعرضت عليهم عقد معاهدة صداقة وخالف بينها وبينهم فوافق الرومان على هذا الطلب فورا سنة 111 ق.م. واغلب الظن أن أويا وصبراتة سلكتا سلوكا مشابها في الوقت ذاته وفي سنة 106 ق.م. ناشدت لبدة روما أن ترسل لها حامية للدفاع عن المدينة ضد مؤامرة قيل أن شخصا معيننا اسمه هملقار (Hamilcar) كان يعدها داخل المدينة مع عدد آخر من أنصار يوغرثا. واستجابت روما للنداء وأرسلت حرسا رومانيا تركز في لبدة لأول مرة في تاريخ طرابلس. ولا بد أن يكون هذا الحرس قد سحب بعد انتهاء الإضطرابات لأننا لا نسمع عنه شيئا بعد ذلك؛ أما معاهدة الصداقة والتحالف فقد بقيت قائمة. ويبدو أن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي أصبحت منذ مطلع القرن الأول الميلادي تتمتع باستقلال اسمي تحت الحماية الرومانية؛ فنحن نسمع قبيل منتصف ذلك القرن عن نجاح لبدة في إقناع روما بالتدخل لدى الملك جوبا الأول (Juba I). ملك نوميديا. ليتنازل عن بعض أجزاء منطقة لبدة التي كان قد استولى عليها بطريقة غير شرعية.

ولما نشبت الحرب الأهلية الرومانية بين يوليس قيصر وبومبي سنة 49

ق.م. وقف الملك جوبا الأول بكل ثقله إلى جانب بومي وبادر بمحاربة القوات التي كان يوليس قيصر قد بعث بها ضد قوات لبومي كانت قد استولت على ولاية افريقية الرومانية. فهزمتها وقتل قائدها. وراح هو وقائد قوات بومي يعرزان وسائل دفاعهما بينما استولى بعض أنصاره على لبدة. ولكن الحال لم يطل بهم ففقد انهزم بومي أمام يوليس قيصر في معركة فرسالس (Pharsalus) سنة 48 ق.م. ففر إلى مصر حيث قتله أعوان بطليموس الثاني عشر في مدينة الإسكندرية. ومع نهاية سنة 47 ق.م. كان يوليس قيصر قد فرغ من إقرار الأمور المعلقة في الشرق فقدم إلى تونس في شهر أكتوبر - تشرين الأول من السنة نفسها حيث مكث يعد العدة ويتدبر الأمر حتى شهر ابريل - نيسان من السنة التالية عندما اشتبك مع قوات بومي المتحالفة مع الملك جوبا الأول وهزمتهم جميعا في معركة ثابسوس (Thapsus) (=رأس الديماس بتونس) مما حمل القائدين الرومانيين وحليفهما الملك جوبا الأول على الانتحار فوق الشمال الإفريقي بأسره في يد يوليس قيصر.

وقبل أن يعود يوليس قيصر إلى روما تريتث بعض الوقت لتنظيم الأمور في الشمال الإفريقي. ولكي يكافئ الأصدقاء ويعاقب الأعداء الذين كانوا ضالعين مع خصمه بومي. فألغى ملكة نوميديا وضم معظم أراضيها إلى روما وسماها ولاية افريقية الجديدة (Africa Nova) وعين المؤرخ الروماني سلوست (Sallust) أول حاكم لها بينما أعاد تنظيم ولاية افريقية الرومانية التي كانت قد أقيمت على أملاك قرطاجنة بتونس وسماها افريقية القديمة (Africa Vetus). أما لبدة التي كانت قد ضلعت مع الملك جوبا الأول ودخلت في حلف معه ومع أنصار بومي من الرومان؛ فان يوليس قيصر فرض عليها جزية سنوية عينية قدرها عشرة آلاف هكتولتر من زيت الزيتون أي ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه لبيي.

وهناك ما يحملنا على الظن أن أويا وصبراتة كانتا شريكتين لللبدة في سلوكها وبالتالي في تسديد هذه الجزية السنوية الضخمة التي يصعب علينا أن نتصور أن مدينة واحدة مثل لبدة كانت قادرة على تسديدها

بمفردها.

وهكذا أصبحت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي جزءاً من الإمبراطورية الرومانية مثلها في ذلك مثل بقية الشمال الإفريقي بما فيه مصر. وبعد مقتل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. سادت روما اضطرابات وخصومات بين أنطوني وأكتافيوس؛ وانتهت بانتصار الأخير في معركة اكتيوم (Actium) سنة 31 ق.م. ولم تسلم الولايات الرومانية بإفريقيا من لم الفوضى وتلك الضربات خلال الثلاث عشر سنة المذكورة (44 - 31 ق. م.)؛ فكثيراً ما سفكت الدماء وانتقلت السلطة من يد لأخرى. ولكن منطقة طرابلس لم تتورط في شيء من ذلك. لأنها على ما يبدو كانت قد تعلمت الدرس من تورطها في النزاع بين يوليس قيصر وبومبي. وبانتصار أكتافيوس الذي أصبح يلقب أوغسطس بدأ عهد سلام طويل عم أرجاء الإمبراطورية الرومانية فاستقرت الأحوال. وتفرغ الناس للبناء والعمران والتمتع بثمار الاستقرار والازدهار.

الحدود الرومانية في منطقة طرابلس:

كان أوغسطس رجلاً يعرف (كيف يسرع في تريث) ويعرف (كيف يتراجع دون أن يريق ماء وجهه)². ولذلك فقد خلف لإمبراطوريته نظاماً جيداً ظل فعالاً بعد وفاته سنة 14 م. حتى نهاية السلالة السويرية الأفريقية سنة 235 م. وعاشت بعض أثاره. من مثل مشاركة مجلس الشيوخ للإمبراطور في الحكم. حتى نهاية القرن الميلادي التاسع ولذلك فإن أوغسطس. بعد أن استقر له الأمر. قام بدراسة أحوال الولايات المختلفة وتوصل سنة 27 ق.م. إلى اتفاقية مع مجلس الشيوخ الروماني وضعت بموجبها كافة الولايات التي قدر أنها تحتاج إلى حماية عسكرية تحت إشراف الإمبراطور مباشرة بينما وضعت تحت إشراف المجلس جميع الولايات التي قدر أنها لا تحتاج إلى دفاع عسكري. وهكذا أصبحت ولاية إفريقية القديمة (تونس) المسالمة تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الروماني. وجدر الإشارة هنا إلى أن موقع قرطاج نفسها ظل

2- توينبي. أرنولد. تاريخ الحضارة الهلينستية. ترجمة رمزي جرجس وصفر خفاجة. سلسلة الألف كتاب. مكتبة الأجلو المصرية. 1963. ص 217.

مهجوراً منذ أن دمرت سنة 146 ق.م. وصب مدمروها اللعنة على موقعها.

ولكن ما كان يتحلى به ذلك الموقع من ميزات وما كان له من تقاليد جذب الرومان إلى أن يتناسوا اللعنة التي صبت عليه فبدأوا يخططون لإقامة مستوطنة جديدة تحت ستار اسم هو جونونيا (Junonia). وفي سنة 122 ق.م. تولى المصلح السابق جايوس جراكوس (Gaius Gracchus) قيادة حشود من المستوطنين الرومان بنفسه وسار الجميع نحو موقع قرطاج رغم ما ظهر لهم من إشارات كبيرة كانت بمثابة أمارات تدل على عدم موافقة الآلهة على تلك الخطوة. ويخبرنا بلوتارك (Plutarch) «إن العلم الذي كان في مقدمة الموكب تنازعت زوبعة طارئة ومزقته قطعاً بالرغم من أن حامله تمسك به بكل قواه. وفي الوقت ذاته أزاحت الزوبعة كل الضحايا التي كانت على المذابح وعصفت بها إلى خارج العلامات التي كانت قد أقيمت على حدود موقع المدينة. وحتى تلك العلامات نفسها انقضت عليها الذئاب وحملتها بعيداً عن أماكنها». وأذن فلا غرابة إذا فشل المشروع فقد كان مشروع من نوعه يحتاج إلى وجود حكومة أصلب من الحكومة التي كانت الآلهة الرومانية والساسة الرومانيون قد أقاموها في روما. وعندها انتصر يوليس قيصر على خصومه سنة 46 ق.م. في معركة ثابسوس (Thapsus) في تونس أعيد تأسيس قرطاج لأن اللعنة التي كانت قد صبها عليها مدمروها أصبحت الآن في طي النسيان. وفي عهد أوغسطس الطويل الذي تميز بالحكمة والتعقل (27 ق.م. - 14 م.) انتعشت مدينة قرطاج من جديد وعادت إلى منزلتها كواحد من المراكز التجارية والدينية في العالم المتحضر. أما ولاية إفريقية الجديدة فقد ألغيت وأعاد أوغسطس محلها ملكة نوميديا وعين ملكاً عليها هو جوبا الثاني بن جوبا الأول مكافأة له على ما كان قدمه لأوغسطس من خدمات أثناء النزاع بين الأخير و أنطوني.

وكان يوليس قيصر قد بعث بجوبا الثاني مع التوأمين شمس وقمر. ابني مارك أنطوني وكليوباترة. وعدد آخر من الرهائن إلى روما بعد معركة ثابسوس. ونشأ هؤلاء الثلاثة في روما كرومانيين ثم زوج أوغسطس جوبا الثاني من الأميرة قمر. وعاش العروسان في روما حتى ابتسم لهما الحظ ثانية على

يدي أوغسطس فانتقلا إلى مقرهما الملكي في ملكة نوميديا التي بعثت من جديد. ولكن أوغسطس لم يلبث أن أعاد النظر في هذا الأجراء فطلب إلى جوبا الثاني سنة 25 ق.م. أن يتخلى عن ملكته وان يأخذ بدلا منها ملكة مورتانيا (=المغرب الأقصى). ولبي الملك الطلب فانتقل مع زوجته واختارا مستوطنة «إبول» القرطاجية القديمة عاصمة لها وسميهاها قيصرية³.

والمعروف عن الملك جوبا الثاني أنه (كان أديبا دارسا نذر نفسه للفن والعلم... وكان يتقن الكتابة في كل من اللغات الفينيقية واللاتينية واليونانية كما انه كان مستغرقا في دراسة الجغرافيا وعلوم النبات والتاريخ والآثار واللغات وكان الدارسون والفنانون دائما موضع الترحيب والتكريم في بلاطه. وجمع كل الروايات على انه كان ملكا سعيدا مسالما محبوبا للغاية. ويبدو مع ذل انه كان منقادا لزوجته (فهل كانت قمر جميلة جمال والدتها ؟ لم نبأ بشيء من هذا). إذ يظهر انه كان هناك بعض الخلاف بين الزوجين الملكيين. كخلافهما على أي منهما كان دمه أنبل أو أشد زرقة من دم الآخر فهي سليلة الفراعنة. وهو سليل الملك مسينسا الذي قاد هجوما للفرسان وأنجب عدة أطفال وهو في سن الثمانين. ومن الثابت أن الملكة قمر فازت في هذا النزاع لأننا نجد الملك جوبا الثاني يحاول تزوير الجغرافيا يجعل أنهار ملكة مورتانيا روافد تغذي نهر النيل المصري. وذلك ضرب من الاحتيال يشبه ما فعله علماء الأنساب المحتصون بالعائلة البريطانية المالكة إذ أعادوا نسب هذه العائلة إلى الملك داود! ولاشك أن «قمر» لم تنس مولدها ولا موطنها الأصلي. ولذلك أصرت على أن يقام معبد لايزيس ضم تمساحا مقدسا جيء به خاصة من النيل. كما أنها نفذت رغبتها هي في تسمية طفلها الأول فسمته «بطليموس». ولكن لا «إيزيس» ولا «التمساح المقدس» كانا قادرين على إنقاذ الأمير الإفريقي من جنون غضب «كاليغولا» الذي أرداه قتيلا في سجن روما المظلم⁴.

ومقتل الملك جوبا الثاني انتهى عهد الملوك الإفريقيين سنة 40 م. عندما

3- مكانها اليوم قرية لصيد السمك تسمى تشرتشل على بعد حوالي مائة ميل إلى الغرب من مدينة الجزائر.

4- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. الطبعة الأولى. بيروت. 1967. ص 90-93.

قرر الرومان أن أفريقيا غنية إلى حد لا يسمح بالاستمرار في إشراك الملوك المحليين في حكمها. وانه لابد من فتح الأراضي الإفريقية أمام الاستعمار الروماني. وكان أول واجب على الحكومة الرومانية هو أن تشيع الطمأنينة في تلك الأراضي لجعلها صالحة للاستثمار. وقد درج الاستعمار الروماني على هذا النهج منذ عهد أوغسطس واستمر كذلك في عهد خلفائه. ويظهر أن الرأسماليين الرومانيين حازوا قصب السبق في هذا المضمار فأنشأوا الضياع الكبيرة الواسعة (Latifundia) في طول الأرض الإفريقية وعرضها. وقد لاحظ بلايي أن تلك الضياع كانت المظهر الواضح في حياة افريقية الزراعية⁵.

أما مصير الأرض النوميديّة. ومنها منطقة طرابلس. بعد انتقال جوبا الثاني إلى مورتانيا فكان أن ألحقت بولاية افريقية القديمة التي أصبحت تعرف باسم افريقية فقط. وظلت هذه الولاية تابعة لإداريا لمجلس الشيوخ الروماني الذي كان يعين بروقنصلا (Proconsula) لحكمها. ولكن ضم معظم الأراضي النوميديّة إليها إلى على البروقنصل مسؤوليات جسيمة في حفظ الأمن على حدودها الواسعة التي صار يقيم ضمنها عدد غير قليل من القبائل النوميديّة البدوية الشرسة مما حمل أوغسطس على الخروج عن العرف السائد وعن مبدئه القائل بعدم وضع قوات عسكرية تحت تصرف الحكام الذين كان يعينهم مجلس الشيوخ فوضع فرقة أوغستا الثالثة (Legio III Augusta) المشهورة تحت تصرف حاكم الولاية.

واتخذت هذه الفرقة منذ سنة 81 م. حتى تاريخ حلها مؤقثا سنة 238 م. مدينة لمبزي (Lambaesis) في الجزائر مقرا لرئاستها كما أنها عادت لذلك المقر بعد أن أعيد تشكيلها سنة 253 م. وكانت إحدى فصائلها. أي ما يعادل عشرها تقريبا. تتركز عادة في قرطاجنة لتكون بمثابة حرس لحاكم ولاية افريقية. وكانت روما تعزز تلك الفصيلة بفصيلة مدنية مكونة من ألف رجل غابتها القيام بإعمال الشرطة. وكانت الفرقة الرومانية

5- رستوتوفزف. م. تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي. ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 389.

تتألف إسميا من حوالي (5600) رجل روماني يضاف إليهم مثل عددهم من رجال القوات المساعدة من المرتبة الثانية. وكانت فرقة أوغستا الثالثة هذه كافية للشمال الإفريقي بأسره ابتداء من حدود مصر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب يساعدها في ذلك عدد من الكتائب المساعدة التي كان بينها كتيبتان من أصل بريطاني: إحداها من الفرسان والثانية من المشاة. وعدد آخر من القوات المحلية غير النظامية لهذه الوحدات النظامية كان هنالك الجنود المتقاعدون الذين نشأت عنهم نواة سكان المزارع المحصنة والمستوطنات الزراعية. ويقدر أن القوات المسلحة في هذه المساحة الواسعة من الشمال الإفريقي لم تزد عن سبعة وعشرين ألف مقاتل باستثناء الجنود المتقاعدين العاملين في المزارع المحصنة، وباستثناء الفصائل التي كانت تعزز حراسة الحصون والمعازل العسكرية في المرتفعات الداخلية المطلة على الصحراء.

ونشطت هذه الفرقة منذ قدومها فعينت حدود الولاية مؤقتا بحفر خندق حولها وأقامت لجنودها معسكرات في المواقع الاستراتيجية. وبدأ مهندسوها ببناء شبكة من الطرق والحصون. وكان على هذه الفرقة المؤلفة من حوالي اثني عشر ألف جندي روماني وحوالي خمسة ألف جندي إضافي من القوات المساعدة أن تحكم منطقة تزيد مساحتها عن مليون ونصف مليون ميل مربع لمدة قرنين ونصف قرن من الزمن قامت خلالها بدور الجندي والشرطي والمهندس والعامل؛ حتى إن قصة الشمال الإفريقي في عصرها إنما هي قصة هذه الفرقة نفسها. يقول جيمس ويللارد في حديثه عن الفرقة⁶:

«كانت الفرقة الرومانية عالما صغيرا كاملا قائما بحد ذاته. بعقلية تعاونية وروحية تعاونية بالفعل. فالجندي من بداية مدة الخدمة إلى آخرها (وهي 25 سنة) لم يكن عرف عالما غير عالم المعسكر. إذ لم يكن له منزل ولا زوجة ولا عائلة. وليس في التاريخ وحدة عسكرية نظمت مثل هذا التنظيم الفعال لأداء واجباتها. فقد كانت الفرقة في الواقع معصومة عن الخطأ تقريبا عصمة الآلة. ونادرا ما تجد أعضاها يتصرفون غير تصرف الدواليب

6- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. الطبعة الأولى. بيروت. 1967. ص 95-108.

وأسنان الدواليب المتشابكة بإحكام في آلة كبيرة من آلات الحرب. حتى إذا ثاروا على النظام كان عقابهم كما سنرى فيما بعد وحشيا».

والجيش الروماني الذي كان أقوى تنظيم عسكري ابتدعه البشرية في تاريخها القديم كانت قوامه الفرقة. وكانت مهمة القتال للفرقة شأنها عرضيا فقط. أما في وقت السلم فإن هذا الجيش كان مؤسسة أغنى عنها بما كان يضم من مهندسين وبنائين ومعماريين وقائمين بمهمات التمدين والتحصير. وكان الانخراط في سلك فرقة أوغستا الثالثة مقصورا على الرومانيين في بداية الأمر ثم فتح المجال أمام أبناء البلاد الأصليين للانخراط في سلكها. وكان عضو الفرقة بغض النظر عن جنسيته ينذر نفسه لوحده كما ينذر الراهب نفسه للسلك الذي يختاره. وكان لكل فرقة مستشفى بهيئة طبية فيها الجراحون وأطباء الأسنان وأطباء العيون.

وإذا ما قومنا جهود الجيش الروماني في تمدين مناطق الإمبراطورية المختلفة فانا سنجد أن أفريقيا كانت الميدان الذي قام فيه هذا الجيش بأعظم إنجازاته. فقد نجح في تحويل منطقة من أكثر المناطق تأخرا إلى ولاية من أكثر ولايات الإمبراطورية تمدنا وغنى وازدهارا - ولاية أخذت تخرج الجنود والأباطرة والقديسين والفلاسفة والكتاب إلى أن دمرتها الحروب وردتها إلى حالتها الأولى. وكل حولات أفريقيا هذه. من أرض (سكان الكهوف الذين ينعمون كالخفافيش) وأرض العشائر الذين كان طعامهم الرئيسي الجراد الجفف المسحوق. إلى أرض المدن والقرى والمزارع الرائعة - كل هذه التحولات كانت من صنع فرقة أوغستا الثالثة فهذه العصبة الصادقة من الجنود لم تحمل فقط القانون والنظام إلى المناطق الأهلة في الشمال الإفريقي بل غزت الصحراء وردت حدودها إلى الورا حتى تخوم لم تبلغها من قبل ولا من بعد.

هذه الفرقة الجبارة لم يطل بها الانتظار بعد دخولها الأراضي الأفريقية لكي تمارس فنها العسكري؛ فقد سجلت أول انتصار لها سنة 21 ق.م. وفي السنة التالية كان عليها أن تخوض حربا بدأت بين القبائل الموريتانية وامتدت على طول حدود ولاية افريقية، وخرت الفرقة برئاسة قائدها كرنيليوس بلبوس (Cornelius Balbus) إما من أوبا أو من صبراتة وتوجهت إلى

فزان عن طريق غدامس - عبر جبال الحمادة الحمراء - إلى إدري في وادي الشاطئ - عبر كثنان أباري إلى جرما. وقد نجحت هذه الحملة في هذه الحملة في الاستيلاء على غدامس وفي مفاجأة جرما ودخولها وتخريب زنككرا⁷. وتبدو لنا هذه الحملة الرومانية ناجحة نجاحا مؤقتا إذا اعتبرنا أنها كانت تهدف للرد فقط. كما تبدو فاشلة إذا اعتبرنا أنها كانت تهدف لإخضاع الجرامنتيين وفتح بلادهم لأننا لا نلبث أن نسمع عن حملة أخرى قامت بها الفرقة ضد الجرامنتيين سنة 15 ق.م.

وبعد موت نيرون سنة 68 م. قاست الإمبراطورية الرومانية سنة حرب أهلية تتابع خلالها أربعة من الأباطرة على عرش الإمبراطورية وتورطت قيادة فرقة أوغستا الثالثة في البيل مع هذا الإمبراطور أو ذلك ما صرفها مؤقتا عن الاعتناء بشؤون أفريقيا المحلية. فاعتنمت كل من لبد و أوبا تلك الفرصة لتسوية خلاف على الحدود بينهما بالقوة فاشتبكت قواتهما وتطور النزاع إلى حرب كبيرة أجاج نيرانها ما كان بينهما من تنافس جاري. ورأت أوبا أنها لم تكن كفوا لقوات لبد فاستعانت بالجرامنتيين الأثداء. وقدم هؤلاء فحاصروا لبد وخربوا ودمروا كل منطقتها ما خارج أسوارها. وخرت روما فأرسلت قوة بقيادة فاليريوس فستوس (Valerius Festus) أنقذت لبد وسوت الخلاف بينها وبين أوبا وطاردت الجرامنتيين ودخلت فزان في الأرجح عن طريق بوجيم - هون⁸. ويبدو أن حملة فستوس هذه نجحت في تحقيق أغراضها فنحن نسمع بعدها بقليل عن استخدام الرومان لفزان كقاعدة لحملة بعيدتي المدى إلى دواخل القارة الأفريقية:

1- الحملة الأولى قامت في عهد الإمبراطور دوميتيان (Domitian 81-96 م) بقيادة سويليوس فلاكوس (Suellius Flaccus) قائد عام فرقة أوغستا الثالثة الذي توغل جنوبا عبر الصحراء الليبية لمسيرة ثلاثة أشهر حتى وصل إلى بلاد من أسماهم «بالاثيوبيين» قاصدا بهم أبناء أفريقيا السوداء.

7- احتفل بلبوس بما أحرزه من نصر في هذه الحملة بعد عودته في 27 مارس سنة 19 ق.م.
8- كانت هذه الحملة في بداية عهد الإمبراطور فسبسيان (69-79 م).

2- والحملة الثانية بقيادة بوليس متيرنس (Julius Maternus) أحد أبناء لبد. الذي سار بقواته من لبد حتى بلغ جرما وقام بصحبة ملك الجرامنتيين بغارة على الإثيوبيين جلب العبيد. وبعد أن سارا طيلة أربعة أشهر إلى الجنوب وصلا إلى منطقة (إثيوبية) أسماها «أجسيمبا» (Agysimba) حيث «يتجمع العديد من وحيد القرن». ولاشك أن متيرنس كان يهدف من القيام بهذه الحملة إلى التعرف عن كذب على طرق القوافل. ويقول جيمس ويلارد في الحديث عن هذه الحملة:

«لقد انطلق القائد الروماني من «جرما». عاصمة الجرامنتيين القديمة. على بعد خمسمائة ميل جنوبي مدينة طرابلس. ثم سار بعد ذلك جنوبا مدة مائة وعشرين يوما. وقد روى لنا أن الطوابير الرومانية قطعت مسافة خمسمائة ميل من طرابلس إلى «جرما» في عشرين يوما. وكان معدل سيرها إذن خمسة وعشرين ميلا في اليوم. وهو المعدل المألوف للفرقة الرومانية حين جد السير. ولا يمكننا أن نتوقع محافظة طابور «متيرنس» على هذه السرعة عبر منطقة «آبير» [في النيجر] الجبلية. ولكن لدينا قاعدة للمقارنة في الأوقات التي قضاها المسافرون الآخرون في اجتياز الطريق نفسها وأول الأوروبيين الذين رحلوا بعد «متيرنس» جنوبا من «جرما» هما الميجر «دنهام» والكابتن «كلابرتون» اللذان قطعوا الألف ميل إلى بحيرة تشاد في ثمانية وستين يوما في رحلة الذهاب. وفي واحد وستين يوما في رحلة الإياب. وإذن فان دنهام وكلابرتون كانا يسيران بسرعة معدلها أكثر قليلا من خمسة وعشرين ميلا في اليوم. ما يعتبر سيرا طبيعيا في الصحراء. فإذا استطعنا أن نفترض أن رجال الدورية الرومانية كانوا يسيرون بمعدل خمسة وعشرين ميلا في اليوم (ولم يكن لهم عذر في التلكؤ على الطريق نظرا للخلاء الذي يجتازونه) فإن مجموع ما ساروا يبلغ ألفا وثمنامائة ميل ما يمكن أن يكون قد بلغ بهم حتى نهر الكنغو. ولكن هذا يصعب تصديقه. فإذا سمحنا لهذا الطابور ببعض أوقات الراحة والاستكشاف والتواءات الطريق أمكنه بسهولة أن يصل إلى بحيرة تشاد سالكا طريق القوافل القديمة: مرزق - مدامه - بلمه - أغامد. وهي كما يقول النص مسافة تزيد قليلا

عن ألف ميل باتجاه الجنوب، وهناك احتمال آخر إذا كانوا قد ساروا باتجاه الجنوب الغربي سالكين طريق غات -الهجار- أدرار، وهي مسافة تبلغ نحو ألف وثلاثمائة ميل، فعندئذ يمكن أن يكونوا قد بلغوا نهر النيجر في «بورم». أما الطريق الأولى فهي التي سلكتها بعثة اودني - كلابرتون - دنهام عام 1822 م. وأما الطريق الثانية فهي تقريبا سلكها الميجر لينغ عام 1826م. والحقيقة المهمة التي يجب ألا يغفل ذكرها في تقرير من هذا النوع هي أن وحيد القرن لم يكن كثير العدد في شمالي أفريقيا الوسطى. فلا بد إذن أن يكون «يوليس متينرس» قد اجتاز الصحراء الكبرى.

وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الغموض يمكن أن يكتنف سير الرحلة. ويمكن أن يكون سير الأشهر الأربعة «رحلة دائرية». وأكثر الشرح يرفضون أن يكون الرومان قد ذهبوا إلى ابعده من بحيرة تشاد على الرغم من أن المرء حين يتذكر كيف كانوا يسبرون خلال المستنقعات والأراضي السبخة والغابات في أوروبا الشمالية ينتفي لديه كل سبب يحمله على القليل من بعد المسافة التي كان بمقدورهم أن يقطعوها في أفريقيا»⁹.

وبالإضافة إلى هاتين الحملتين نسمع بين سنتي 85 و86 م. عن قيام سويليوس فلاكوس، الذي سبق ذكره، بحملة ضد الناموسيين إلى الشرق من منطقة طرابلس. وكان هؤلاء قد ثاروا على جباة الضرائب الرومانيين وقتلوا بعضهم. وفي بداية الاشتباك هزم الناموسيون فلاكوس وجيشه واحتلوا معسكره. ولكن دخولهم المعسكر الروماني بدلا من متابعة فلور الرومان أدى في النهاية إلى هزيمتهم. وذلك أنهم وجدوا في المعسكر المأكولات والخمور فأكلوا حتى شبعوا وشربوا وسكروا. وفي هذه الغفلة كان فلاكوس قد تمكن من لم شتات قواته فأعاد الكرة على الناموسيين واعمل السيف في رقابهم حتى لم ينج منهم إلا عدد قليل لأنوا بالفرار إلى الصحراء. وعلى اثر هذا الانتصار قدم الإمبراطور دوميتيان تقريرا لمجلس الشيوخ الروماني تباهى به بقوله: (أن الناموسيين اختفوا عن مسرح الوجود).

وكان القرن الميلادي الثاني قرن سلم لمنطقة طرابلس كما كان لغيرها

9- المرجع السابق، ص 73-75.

من أنحاء الإمبراطورية بشكل عام، ولكن غيوم الحرب بدأت تتلبد قرب نهايته: فقد قام ليفي من أبناء القبائل الليبية بهجوم على سواحل منطقة طرابلس في عهد الإمبراطور سيبتيموس سويروس (Septimius Severus). ابن لبدة (-193 211 م)؛ ولكن هذا الإمبراطور سحق المغيرين بحملة ربما كان قد تولى قيادتها بنفسه عند زيارته لمسقط رأسه (203-204 م). واغتنم الإمبراطور فرصة وجوده في لبدة فبدأ بإعادة تنظيم وسائل دفاع الحدود. وواصل خطته هذه من بعده ابنه كراكلا ((Caracalla 211-217 م). ثم حفيده اسكندر سويرس (Alexander Severus 211-235 م). وتشكل هذه الخطوة من جانب أباطرة الأسرة السويرية الإفريقية نقطة تحول في السياسة الرومانية الخاصة بالدفاع عن الحدود. فحتى هذا الوقت، أي طيلة الاقرنين الأول والثاني من الحكم الروماني في افريقية، كانت سياسة الرومان الدفاعية تقوم على مبدأ الإغارة بقواتهم الخفيفة الحركة على مصادر الخطر. والقضاء عليها، ثم العودة إلى القاعدة. أما التنظيم السويري الجديد فقد اعتمد على إنشاء نظام دفاع ثابت العمق فأصبحت الحدود الرومانية في جنوب طرابلس تتكون من ثلاثة أحزمة عميقة متميزة عن بعضها البعض:

1- الحزام الأول: وكان أكثر هذه الأحزمة الثلاثة تعمقا نحو الجنوب. ويقدر إن حدوده كانت تنتهي بخط يصل بين قلعة «بوجيم» وقلعة «الغربية» و«سيدامي» «غدامس»، وهي قلاع ثلاث أقيمت على خطوط المواصلات الثلاثة التي كانت تربط الدواخل بالساحل. وقام ببناء هذه القلاع الثلاث جنود ومهندسون من فرقة أوغستا الثالثة فبنوا قلعة «بوجيم» في عهد سيبتيموس سويرس، وقلعة غدامس في أيام كراكلا وقلعة «الغربية» في عهد اسكندر سويرس.

2- الحزام الثاني: وقد أقيم في عهد اسكندر سويرس للدفاع عن الحدود. وكان يمتد خلف الحزام الأول من جهة الشمال. ولم يكن سوى سلسلة من المستوطنات تنتشر في حوضي وادي سوف الجين ووادي زمزم، ولم يكن سكانها سوى قدماء المحاربين الليبيين الذي انهوا خدمتهم في فرقة

أوغستا الثالثة فمَنحوا مكافأة لهم على خدماتهم قطعة أرض معفاة من الضرائب. وإعداد من العبيد والماشية. لقاء تعهدهم بالدفاع عن منطقة سكنهم. وصد غارات القبائل البربرية عنها. وتعتبر آثار المزارع المحصنة التي كان هؤلاء المتقاعدون يعيشون فيها وما تركوه فيها من نصب تخليداً لذري موتاهم. من أهم الخلفات الأثرية في ليبيا.

وكان هذا الحزام يمتد ما بين شط الجريد في تونس وسبخة تاورغاء على خليج سرت الكبير. وهو أهم أجزاء خطوط الدفاع الرومانية في منطقة طرابلس من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأنه كان خط دفاع خلفي عن المدن الساحلية المزدهرة: صبراتة وأويا ولبدة. في وجه القبائل الليبية النوميدية التي كانت تسكن الدواخل. لأنه في الوقت ذاته وفر الحماية لأهم منطقة زراعية هي منطقة مزارع الزيتون في الجبل الغربي.

والواقع إن أصل خط الدفاع هذا ما زال يحف به الغموض؛ فالمصادر المكتوبة لا تعطي معلومات قاطعة عن بداية تأسيسه كجهاز دفاعي. والآثار لم تعط مزيداً من المعلومات بهذا الصدد عن فترة القرنين الأول والثاني للميلاد.

ونظراً لقلة البيانات بالنسبة لهذا الخط العسكري من ناحية ولتزايدها نسبياً في عهد سيبتيموس سويرس من الناحية الأخرى فإنا نجد ما يبرر اعتبار هذا الإمبراطور مؤسساً لذلك الخط الدفاعي. وربما كان السبب الذي حمله على ذلك هو أن تهديد قبائل الدواخل أصبح أمراً وشيكاً الوقوع¹⁰.

3- الحزام الدفاعي الثالث: وكان عبارة عن طريق استراتيجي يسير على طول حافة الجبل الغربي مبتدئاً من لبدة حتى ينتهي في قابس بتونس ماراً إلى الشمال من هضبة غريان وهضبة ترهونة الحصبة. وليس هنالك ما يدل على أن هذا الطريق كان معززاً بحصون أو قلاع. إنما كان فقط مجرد خط مواصلات خلفي يتم نظام الدفاع المذكور الذي اعتمد العمق ونقاط الدفاع

10- The Journal of Roman Studies, Vol.: XXXIX, 1949, Parts I & II, pp 8185-, an article under the title "The Limes Tripolitanus in the Light of recent discoveries, by R.G. Goodchild & J.B. Ward Perkins.

الثابتة أساساً له.

وبالرغم من وفاء سيبتيموس سويرس للمنطقة التي ولد فيها فإن نظام الدفاع السويبري السابق الذكر أدى في النهاية إلى إضعاف السلطة الرومانية في هذه المنطقة لأنه نَمَى روح الاستقلال الوطني لدى أصحاب المزارع المحصنة في الحزام الثاني وهم كما سبق أن لاحظنا من الليبيين المتقاعدين من الخدمة العسكرية. وقد أدت طبيعة عملهم الدفاعي إلى اعتمادهم على أنفسهم في كل شيء مما جعلهم ينزعون إلى الاستقلال عن السلطة الرومانية ويميلون فيما بعد إلى التفاهم وربما التعاون مع أبناء جلدتهم من القبائل الليبية¹¹.

وقبل منتصف القرن الميلادي الثالث. أي في حمأة الفوضى العسكرية والحروب الأهلية التي غرقت فيه الإمبراطورية الرومانية بين سنة 235 م وسنة 285 م¹². أي منذ نهاية الأسرة السويرية حتى تولي ديوقليانوس عرش الإمبراطورية. سحبت فرقة أوغستا الثالثة من منطقة طرابلس نهائياً وطور نظام الدفاع عن المنطقة بإتباع النظام المركزي؛ فقسمت المنطقة إلى مناطق دفاعية متعددة وأُنيط أمر الدفاع عن كل منها بقوة محلية مقيمة فيها مع قائدها. ومن أمثلة مناطق الدفاع المذكور تلك البناية الصغيرة الحصينة في سانية ذويب بأعلى وادي سوف الجين حيث لا تزال نشاهد نصاً منقوشاً على البناية يقول أنها أقيمت في عهد الإمبراطور الروماني فيليب العربي الحوراني (244-289 م) لصد غارات البربر. ومنذ ذلك الحين استقر نظام الدفاع الروماني في منطقة طرابلس على هذا الحال حتى نهاية العهد الروماني. مع احتلال الوندال للساحل الطرابلسي سنة 445 م. انتهى هذا النظام الدفاعي. وليس هنالك ما يدل على إحياء البيزنطيين له.

11- Mathews, Kenneth D. Jr., and Cook, Alfred W. Cities in the Sand, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, U.S.A., 1957, P. 25.

12- دفعت الولايات الرومانية ثمناً غالياً للحروب الرومانية الأهلية فمع أنها باستثناء المواطنين الرومان الأحرار المقيمين بها. لم تشترك بنصيب فعال في تلك الحروب إلا أن الغرم الحقيقي وقع عليها إذ كان عليها أن تتحمل المصروفات الباهضة التي تطلبها تلك الحروب.

عناصر ولغة السكان في منطقة طرابلس:

يبدو أن سكان الولايات الرومانية في افريقية كانوا قد ازدادوا بشكل ملحوظ خلال القرن الميلادي الثاني مما برر تقدير معدلهم بين 98 م و 244 م بما لا يقل عن ثمانية ملايين نسمة.

أما العناصر الرئيسية التي كانت تؤلف سكان منطقة طرابلس في العصر الروماني فهي العنصر الليبي البربري الذي سبق أن تعرضنا لذكر قبائله. والعنصر الفينيقي الذي كان مستقرا في المستوطنات الفينيقية على الساحل. والعنصر الروماني الذي كان كانت بيده السلطة. ويضاف إلى هذه العناصر الثلاثة التي كانت تشكل أغلبية السكان عنصران آخران يحتلان نسبة قليلة من مجموع السكان هما العنصر اليهودي والعنصر الإغريقي. ولقد سبقت الإشارة إلى أن علاقة الفينيقيين بالليبيين كانت علاقة اقتصادية أكثر منها سياسية ولذلك فإن الفينيقيين - بعكس الإغريق في برقة - أفادوا الليبيين الكثير وعلموهم الكثير من المجالات العمرانية والاقتصادية خاصة ما كان يتعلق بالتجارة وبالبناء والزراعة¹³. وإذا ما تذكرنا التنافس والنزاع الذي تميزت به علاقة الفينيقيين والإغريق أمكننا أن نقرر باطمئنان أن الفينيقيين لم يسمحوا للعنصر الإغريقي بالدخول إلى منطقة طرابلس والاستقرار فيها. وعلى هذا الأساس فإن الإغريق إنما قدموا إلى هذه المنطقة كأفراد وبإعداد قليلة للغاية في ظل العلم الروماني.

أما العنصر اليهودي فإن مصادرنا لا تكاد تسعفنا بشيء يذكر عنه؛ فهيرودوتس لا يذكر اليهود عندما يعدد عناصر السكان في ليبيا وهذا يعني أنهم لم يكونوا قد دخلوها حتى وقته (القرن الخامس ق.م). ولكن إذا تذكرنا العلاقات الطيبة التي كانت سائدة بين اليهود في فلسطين والفينيقيين في

13- صفر أحمد. مدينة المغرب العربي في التاريخ. ج 1. دار النشر - بو سلامة - تونس. ص 165-145. انظر أيضا:

Papers of the British School at Rome, Vol. XXXI, London, 1963, an article under the title "Wealth and Munificence in Roman Africa", by R.P. Duncan - Jones.

فينيقية خاصة أيام الملك سليمان وصديقه حيرام ملك صور. و افترضنا أن تلك العلاقة الودية ظلت قائمة بين الشعبين بشكل أو بآخر فانه لا يمكننا إلا أن نستنتج أن بعض اليهود رافقوا الفينيقيين في قدومهم إلى الشمال الإفريقي بصفة عامة وإلى منطقة طرابلس بصفة خاصة. وعلى هذا الأساس فلا بد أن اليهود بدأوا يقدون إلى المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس بعد القرن الرابع قبل الميلاد لكي يشتغلوا في التجارة والأعمال المالية المتعلقة بها أو في الصناعات اليدوية الأخرى أو في الزراعة. وفي هذا الصدد يحدثنا الأستاذ احمد صفر بقوله: «إن اليهود كانوا بدون شك رافقوا الفينيقيين في سفراتهم إلى الموانئ والمصارف التجارية بافريقية. وان تشتتت يهود فلسطين من أيام القدس [الأشوريين والبابليين] جلب إلى افريقية وإلى العالم الروماني بأسره عددا كبيرا من المهاجرين. وقد وقع تقدير عدد اليهود المبددين في العالم في القرن الأول من الميلاد بما يفوق ستة أو سبعة ملايين. منهم مليون بمصر. وكان عددهم مرتفعا أيضا بطرابلس. وكانوا يعيشون أحرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم. ويقومون بدعاية كبيرة حت ظل بيعتهم. وكان التبشير ضاربا أطنابه والثونيون يعتنقون دين اليهود بكثرة. ثم انتشرت الديانة اليهودية في بعض القبائل بالجنوب الغربي من البلاد التونسية¹⁴ » ويقول أنطونيو مريغي في هذا الصدد أيضا¹⁵: «إن ما نعرفه عن انتشار العنصر اليهودي في منطقة طرابلس قليل جدا. ولاشك أن بعض اليهود قدموا مع الفينيقيين واشتغلوا بالتجارة في المراكز التجارية الفينيقية في طرابلس ولكنهم إنما انتشروا في الأقسام الغربية من أفريقيا في أعقاب هجرتهم إلى برقة مما أدى إلى ازدياد عددهم في طرابلس في ظل الرومان حتى صار لهم في كل من المسدن الثلاث جالية مزدهرة كما أن بعض جالياتهم الصغيرة وجدت مراكز صغيرة في بعض الأماكن البعيدة حول خليج سرت الكبير».

14- صفر أحمد. مدينة المغرب العربي في التاريخ. ج 1. دار النشر - بو سلامة - تونس. ص 361-362.

15- Merighi, Antonio, Storia Della Libya - La Tripolitania Antica, Volume Second, A. Airolti Editore Verbania, MCMXL - XVIII, PP 33- 34.

ويقول أنطونيو ميرغي في موضع آخر من كتابه: «وفي القرن الميلاد الرابع كان كثير من اليهود في أفريقيا الوسطى. يشهد بذلك وجود كنس لهم في مدنهم المختلفة»¹⁶.

ويقول بروكوبيس في حديثه عن مدينة بوريوم الواقعة على خليج سرت: «وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة. وكان لهم معبد عتيق هناك أيضا يوقرونه ويكرمونهم. منذ أن بناه سليمان - كما يقولون - حين كان يحكم الشعب العبري»¹⁷.

وإذن فإن اليهود كونوا في طرابلس ابتداء من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد جاليات يهودية صغيرة نظمت شؤونها وحياتها وفقا لشرائعها وتقاليدها كما سنبينه عند الحديث عن اليهود في برقة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن مقدمهم إلى إقليم طرابلس منذ أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد يصادف فترة مقدمهم إلى برقة وبدء العهد البطلمي في مصر. ويصادف كذلك مرحلة الصراع بين البطالمة والسلوقيين على فلسطين وما تلا ذلك من محاولة السلوقيين فرض الهلنة على اليهود مما جعل بعضهم يفرون بحياتهم وأموالهم بمساعدة أصدقائهم الفينيقيين إلى الأماكن البعيدة عن الخطر فجاؤوا إلى منطقة طرابلس وغيرها من أرجاء الشمال الإفريقي. ونحن لا نشك في أعداد أخرى منهم ظلت تتوافر على منطقة طرابلس في العصور اللاحقة وخاصة في أوقات الحزن التي كانوا يتعرضون لها نتيجة لتصلبهم وثوراتهم: فقد ثاروا في فلسطين وفي برقة سنة 70 م. وبطش بهم الرومان وشتتوهم لكي يضمنوا عدم تكرار ثورتهم. وثاروا ثانية في برقة سنة 115 م. وفي مصر وقبرص وإنطاكية ومسوبوتاميا بالعراق فجلبوا على أنفسهم هذه المرة ما جلبوه عليها في الثورة السابقة. ثم ثاروا ثورتهم الثالثة والأخيرة على الحكم الروماني في فلسطين سنة 132-135 م. فكانت النتيجة وبالا عليهم فقد شتتتهم الرومان في أراضي الإمبراطورية الرومانية في القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا.

¹⁶- Ibidem, p. 268.

¹⁷- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 218.

ومن الواضح على ضوء ما تقدم أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس بدأت صغيرة ثم أخذت أعدادها تتزايد تدريجيا بانضمام قادمين جدد إليها. وأنها كانت تتمتع بحريتها الدينية، بالإمكانيات التي استطاعت الأقلية اليهودية أن تحوزها لنفسها دون غيرها من الأقليات في العصور والمجتمعات القديمة المختلفة، وإذا قدرنا أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس عاشت بسلام طيلة عهد الفينيقيين الذين كانت تربطهم باليهود أوامر صداقة تقليدية قديمة، فإن ما يدعو للتساؤل حقا هو سكوت مصادرنا عن رد الفعل الذي كان لابد أن يحدثه ثورات اليهود المتعاقبة في الشرق. وخاصة ثورة يهود برقة سنة 115 ق.م. بين يهود طرابلس. وهو سكوت إن جاز يفسر بالرغبة في المحافظة على الهدوء والسلام في أية مناسبة أخرى فلا يجوز أن يفسر بذلك في هذه المناسبة: إذ كيف نفسر عدم ثورة اليهود في طرابلس على الرومان في وقت ثار فيه أبناء جلدتهم في قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا؟ إن المصادر المتوافرة لدينا لا تلقي أي ضوء على هذه النقطة: وربما لا نجافي الحقيقة إذا افترضنا أن الجاليات اليهودية في طرابلس لم تكن كبيرة: وإن أغلبية يهود منطقة طرابلس كانوا من غير المتعصبين لدينهم من ناحية، وكانوا مرتبطين بيهود الغرب (خاصة إيطاليا وأسبانيا) أكثر من ارتباطهم بيهود الشرق من الناحية الأخرى. وكانوا من العاملين في التجارة والحقول المالية من الناحية الثالثة: فإذا صح ذلك فإنه يفسر عدم قيامهم بثورات من أجل المحافظة على أموالهم ومصالحهم ولأنهم بعيدون عن يهود الشرق ولذلك فهم غير متأثرين كثيرا بهم.

أما بالنسبة للغة فإن اللغة البونيقية أي الفينيقية الحديثة كانت سائدة دون شك في مدن الساحل الطرابلسي والمناطق القريبة منها خلال الوجود الفينقي. وربما ظلت كذلك حتى أوائل القرن الميلادي الثاني. ولاشك كذلك أن اللغة البربرية ظلت سائدة بين القبائل الليبية البربرية التي كانت تنتشر في الأجزاء الداخلية من البلاد. ومع بدء العصر الروماني صارت اللغة اللاتينية تنمو تدريجيا في المنطقة. ومن المؤكد أن اللغة البونيقية تلاشت وانتهى أمرها. كلغة محكية على الأقل. مع مطلع القرن الميلادي

الثاني. ولعل آخر استعمال لها هو ما تجده في نقش من لبدية مؤرخ بسنة 92 م: وقد سجل هذا النقش باللغتين البونيقية واللاتينية¹⁸. ومع ذلك فإن اللغة اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة. ولا عبارة هنا قط لاستعمال القديس أوغسطين لكلمة «بونيقية» وصفاً للغة التي كانت محكية في عهده في ضواحي مدينة هيبونة الفينيقية (= عنابة بالجزائر). إذ يجب ألا نأخذ ذلك الوصف بحرفيته لأننا نعلم أن اللغة الليبية البربرية القديمة. وهي أم اللهجة البربرية التي لا يزال البربر يتكلمونها حتى الآن. ظلت قيد الاستعمال. وجدير بالإشارة هنا إلى أن اللغة الإغريقية كانت تلقى إقبالاً من الطبقة المثقفة ولذلك فإننا نستطيع أن نقول إنها كانت موجودة بين أبناء تلك الطبقة وعلى نطاق محدود.

أما بالنسبة لفران فيبدو أن الرومان لم يحاولوا أن يفتحوها ويستعمروها على غرار ما فعلوا بالنسبة لطرابلس وغيرها من مناطق الشمال الإفريقي الساحلي. ولكنهم في الوقت ذاته وجدوا أن مصالحهم التجارية مع أواسط إفريقيا كانت ختم عليهم السيطرة على طرق القوافل التجارية التي كان لا بد لها أن تمر بفران. كما ان حماية المزارع والمشروعات الأخرى القائمة في ريف منطقة طرابلس كانت قد حتمت عليهم مقاتلة البربر والجرامنتيين ومدافعهم عن تلك المنطقة. وعند هذا الحد نجد أنفسنا مضطرين للتساؤل عن مدى تغلغل الرومان في أعماق الصحراء الليبية. وعن بقية الأسباب التي دفعتهم إلى التغلغل في منطقة مقفرة يكاد يستحيل على أية جماعة مستقرة أن تبقى على قيد الحياة فيها.

ونود أن نقرر منذ البداية أن من غير الممكن حتى الآن إعطاء جواب قاطع على هذا التساؤل. ولكن المسح الجوي الذي قام به الكولونيل الفرنسي «جان براداي» للمناطق الجنوبية من الصحراء الجزائرية طيلة ثلاث سنوات (1946 - 1949) بين لأول مرة مدى ما كان عليه التنظيم الروماني العسكري والمدني على حدود تلك الصحراء.

18- إمار، أندريه وأوبويه، جانين، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، 1964، ص 462.

يقول جيمس ويلارد في تعليقه على ذلك التنظيم¹⁹:

«إنه مثال من الاستعمار ليس له مثيل في التاريخ من حيث التخطيط والفعالية والنجاح. ذلك أن بناء الخنادق والطرق والحصون والقلاع ومراكز المراقبة وبراج الخابرة على حدود يبلغ طولها حوالي «1500 ميل». لم يضطلع به الرومان فقط من أجل صد بدو الصحراء عن مهاجمة المدن الكبرى المزدهرة في إفريقية التابعة للإدارة القنصلية، بل لتمهيد السبيل من أجل إسكان عدد كبير من المزارعين. وجاه هذه الخطة تدل عليه صور الكولونيل (براديز) الجوية الرائعة التي تظهر بقايا المئات من القرى والمزارع حيث لا يوجد اليوم شيء سوى الصخور المتآكلة.

إن الخبراء أنفسهم لتستبد بهم الحيرة بشأن كيفية إنجاز الرومان هذا العمل الذي يفوق فيما يبدو طاقة البشر. بإقامتهم مثل هذا العدد الكبير من المراكز الأمامية في الخلاء ناهيك عن جر المياه الذي يعتبر بدونه كل عمل للإسكان إضاعة للوقت».

وبالرغم من أن أحدا لا يعرف على وجه الدقة ما الذي حمل الرومان على تجسيم أنفسهم نشاق استيطان الصحراء إلا أن اقرب نظرية للقبول هي تلك التي تقول أن روما منذ عهد أوغسطس كانت في حاجة ماسة إلى مصدر جديد للمؤن لتطعم مدنها المزدهمة بالسكان ولتطعم الآلاف المؤلفة من الجماهير الإيطالية التي أخذت تهجر الأرياف وتتكدس في روما لتتغذى وتشهد السيرك على حساب الإمبراطورية. ولهذا فإن الرومان وجهوا أنظارهم لاستغلال شمالي إفريقيا بسواحلها وصحاريها في محاولة لتحويلها إلى أهراء لروما ومن ورائها إيطاليا. وبدا العمل كما أسلفنا على أيدي فرقة أوغسطين الثالثة التي مهدت الطرق وأقامت القلاع والحصون وشبكات الري ومراكز الحراسة في المزارع المتعمقة في جوف الصحراء كما أثبتت صور الكولونيل «براداي». وهناك ما يدل على أن الرومان اتبعوا هذه السياسة نفسها في تمهيد الطرق وإنشاء الحصون وشبكات الري في المغرب

19- ويلارد، جيمس، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 116.

الأقصى وتونس وليبيا على نحو ما فعلوا في الجزائر. إلا أنه لم يكتشف في أعماق الصحراء الليبية ما يدل على أن الرومان حاولوا استغلال هذه الصحراء على نحو ما فعلوا في الصحراء الجزائرية.

ويبدو لنا أن تمهيد الطرق كان مفتاح الحملات الإجمالية إلى قلب الصحراء أو أطرافها. لأن وجودها كان يضمن وجود مواصلات آمنة وإمدادات كافية. والطرق الرومانية كانت على نوعين: واحد مدني والثاني عسكري. وكانت الطرق المدنية هي الطرق الرئيسية ولذلك فقد كانت ممهدة وكانت تستعمل للنقل العام وللبريد السريع. أما الطرق العسكرية فكانت ضيقة مستقيمة تخترق البلاد من حصن إلى آخر مباشرة. وكانت فرقة أوغستا الثالثة تقيم عند كل ميل روماني «أي كل 1480 متراً» شارة حجرية على شبكة الطرق الرئيسية تنقش عليها: «هذا النصب إقامته فرقة أوغستا الثالثة». وقد تم حتى الآن العثور على أكثر من ألفين من هذه الأنصاب في مختلف أرجاء الولايات الإفريقية الرومانية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أنه لم يعثر حتى الآن على أي شيء يدل على أن الطرق الرومانية في ليبيا كانت مرصوفة بالحجارة مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنها كانت طرقاً ترابية²⁰.

وبعد إقامة شبكات الطرق وضمان وجود مواصلات مأمونة كانت الفرقة تبدأ بإقامة الحصون والأبراج في جميع المواقع الاستراتيجية بمعدل «حصن كل ميل» ثم تصل بين كل حصن والذي يليه بخندق أو بعدد من البروج وذلك لكي يبقى جنود كل حصن على مرأى من جنود الحصن الآخر لإجراء المحابرات بواسطة النيران في الليل والدخان أو الإشارات في النهار. وكان هذا النظام فعالاً إلى درجة مكنت الرومان من حكم مليون ونصف المليون ميل مربع من الشمال الإفريقي لعدة قرون بقوة فرقة أوغستا الثالثة التي لم يكن عدد أفرادها يتجاوز اثني عشر ألف جندي يعززهم ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف جندي آخرين من قوات محلية وغير نظامية.

20- Goodchild, R.G. The Roads and Milestones of Tripolitania, Discoveries and Researches in 1947, Department of Antiquities, British Military Administration, Tripoli, 1948, p. 7

والخطوة التي كانت تلي إقامة شبكات الطرق والحصون هي توغل جنود فرقة أوغستا الثالثة في الصحراء مطمئنين لمواصلاتهم وأمنهم. ومتفرغين لإقامة المعسكرات والحصون في الواحات الرئيسية على طرق القوافل المتجهة إلى أواسط أفريقيا من مثل حصن غدامس. وكانوا يصلون بين هذه الحصون بخنادق تحفر تدريجياً ويمدون وراء الخنادق طرقاً لدورياتهم. على الجهة الداخلية من خطوط الحدود هذه وأحياناً على الجهة الخارجية. كان مهندسو الفرقة يصممون وينشئون سلاسل من المزارع المحصنة التي كانت تقطع للمحاربين المتقاعدين من الفرقة كما سبق أن ذكرنا. وتدل الحفلات الأثرية التي استخرجت من قبور رجال الحدود المستوطنين هؤلاء على أنهم كانوا يستخدمون الخيل أولاً ثم الجمال في حراثة مزارعهم. وكان السيد المتقاعد يجلس على كرسيه ليراقب عمل عبيده وهم يقومون بجني المحصولات في المواسم المختلفة.

أما مشكلة الجفاف فقد سلك الرومان طرقاً فذة للتغلب عليها: فهم مثلاً كانوا يختارون حصونهم ومعسكراتهم الرئيسية مواقع استراتيجية تتوافر فيها الينابيع أو الآبار أما في الأماكن الموعلة في أعماق الصحراء وحماياتها التي لم تكن فيها ينابيع أو آبار فكان الرومان يحسنون استغلال مياه الأمطار والوديان إذ أنهم كانوا بالعمل الشاق الدائب يسيطرون على الأمطار الساقطة في مناطقهم قبل أن تتمكن من بلوغ مجاري المياه وذلك بإقامة الجدران والمسطحات والخنادق والحواجز والسدود والخزانات والبرك لاحتواء كل نقطة من المطر تنزل على المنحدرات الصخرية قبل ضياعها في الرمال. فكانوا بذلك يحبسون المطر بحث يسقط. كما كانوا يحولون مياه الأخاديد إلى البرك والخزانات التي أقاموها حيث تبقى مجمعة ليستعملوها فيما بعد. أما مياه الوديان فإنهم كانوا يحجزونها بواسطة ما يقيمونه من سدود حجرية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرومان كانوا يقيمون نوعين من السدود لحفظ مياه الأودية: ففي الأودية الصخرية الضيقة كانوا يقيمون سدوداً حجرية تقطع الأودية عرضاً وترتبط بجانب الجبال المحيطة بها.

وهذا النوع من السدود كان يبنى بالصخور ويقطع الحجارة الكلسية

المعدة خصيصا لهذا الغرض والتي كانت تثبت بالجير القوي، وخير مثال على هذا النوع هو السدود التي كانت مقامة على وادي لجينين ووادي كعام، والنوع الثاني من السدود هو السدود الترابية التي كانوا يقيمون أكثر من واحد منها عبر الوادي الواحد، وبالإضافة للسدود فقد عمل الرومان بركا لتجميع المياه توجد في ليبيا وتكثر في منطقة طرابلس وخاصة في وادي لجينين ووادي زمزم²¹.

وكانوا يقيمون قنوات للري تمتد من الوديان والخزانات إلى الحقول المقسمة إلى قطع مستطيلة بواسطة أحاديدي جري المياه فيها ببطء يسمح لكميات منها بالتفشي في باطن الأرض بدلا من ضياعها سدى، وبذلك تحفظ التربة المحددة على هذا النحو بنسبة كافية من الرطوبة في الأوقات التي تكون فيها بقية التربة قد جفت تماما، ونظام الري هذا لم يجعل الزراعة في الصحراء مكنة فحسب بل جعلها مجدية كذلك.

وبالإمكان القول إن هذه الجهود الجبارة والأعمال الشاقة التي حملها الرومان مختارين لإقامة حصون ومزارع محصنة على طول تخوم الصحراء الكبرى في الشمال الإفريقي قد آتت أكلها فأصبحت تلك الحصون والمزارع تخدم أغراضا سياسية أهمها أنها كانت:

- 1- خط دفاع خارجي في نظام الدفاع العسكري الذي كان يشمل أفريقيا الشمالية بأسرها.
- 2- مراكز للجمارك ولضبط تنقلات المسافرين.
- 3- مظهر قوة يردع بدو البربر في الجنوب ويرهبهم بوضوح أن الرومان كانوا أقوى منهم وأغنى وأكثر حضرا.

ولقد ظلت هذه الشبكة الدفاعية حتى حوالي سنة 400 م. وبعدها خضعت لهجمات البربر كغيرها من الأسوار والتحصينات الرومانية، ولعل

21- The Illustrated London News, December 16, 1961, article under the title "Ancient Systems for making the desert blossom as a rose: Water Conservation in Roman Tripolitania", by Olwen Brogan & Claudio Vita - Finzi, St. Jon's College, Cambridge, England.

أحسن ما قيل في وصف هذه الشبكة الرومانية هو ما أورده الكولونيل «باراديز» في تقريره النهائي عن نشاطاته خلال ثلاث سنوات قضاها في دراسة جادة لحدود التوغل الروماني في الصحراء الجزائرية: «يجب علي أن أشدد للمرة الأخيرة على التناقض الخيف بين ما كانت عليه هذه المنطقة بكاملها في يوم من الأيام وبين ما هي عليه الآن. إن المنطقة قد تآكلتها اليوم بشكل مربع من الوهاد التي تزداد عمقا واتساعا في جميع الاتجاهات نظرا لهجر المنشآت الرومانية لحفظ التربة، والانطباع الذي ينشأ للمرء، عن المنطقة هو الانطباع الناشئ عن صحراء مقفرة تبعث على الذهول أكثر من الصحراء الكبرى ذاتها: أن الخراب هنا لأبعث على الكآبة والحزن»²².

من كل ما تقدم نستخلص أن الرومان جعلوا وجودهم ملموسا في فزان واستطاعوا بواسطة الحملات المؤقتة الناجحة التي كانوا يشنونها على الجرامنتيين بين الفينة والفينة أن يبسطوا عليهم نفوذهم ما كان يكفي لجعل الجرامنتيين حريصين على مخالفتهم اتقاء لشهرهم من ناحية ولكي يفيدوا من التعاون التجاري معهم من الناحية الأخرى. ولعل خير شاهد على هذا هو قيام يوليس متينرس وملك الجرامنتيين بالحملة المشتركة التي سبق أن حدثنا عنها والتي كانت تهدف ليس فقط إلى تعريف متينرس وقواته على إحدى طرق القوافل الرئيسية إلى تشاد وأفريقيا السوداء وإنما أيضا إلى جلب العبيد من تلك المناطق، وبكلمات أخرى فإن كلا من الفريقين الروماني والجرامنتي قد اقتنع بعد التجربة أنه لا يستطيع أن يقهر الفريق الثاني وأنه في الوقت ذاته لا يستغني عنه، فالجرامنتيون لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن الموانئ الرومانية على الساحل الطرابلسي لأنها كانت التنفس الطبيعي لنشاطهم التجاري وهمزة الوصل بينهم وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط، والرومان لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن سلع أفريقيا السوداء التي لم تكن قوافلهم التجارية قادرة على الوصول إليها إلا عن طريق الجرامنتيين وبحراستهم، ولقد كانت حماية الجرامنتيين للقوافل أمرا لا يستغنى عنه لأن بعض القبائل الليبية القاطنة في الدواخل كانت تعيش

22- ويللارد، جيمس، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرعاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 125.

على قطع الطرق ومهاجمة القوافل وسلبها. وقد حدث ديودورس الصقلي عن ليبيا لم يكونوا يلتزمون بطاعة الملك ولا يراعون العدالة بل يعيشون على السلب والنهب ويقومون بغارات مفاجئة من مراكزهم الصحراوية ثم يعودون سريعا إلى تلك المراكز. ويقول ديودورس إن أولئك الليبيين كانوا يرتدون ألبسة من جلود الماعز ولم تكن لهم مدن أو قرى بل كانوا يقيمون أبراجا إلى جوار منابع المياه يحفظون أسلابهم فيها. كما أن الواحد منهم كان يتسلح بثلاث رماح ويقطع من الحجارة يحملها في حقيبة من الجلد. وهم لم يعرفوا استعمال السيف أو لبس الخوذة. ولقد كانوا قساة في معاملة أعدائهم إذ كانوا يعاملونهم وكأنهم لصوص فلا يتورعون عن ذبحهم وسفك دمائهم.²³

من هنا بدأت العلاقات تتحسن بين الجرامنتيين والرومان بعد سلسلة مضيئة من المعارك ونشأ بينهما نوع من التفاهم والتعاون من أجل تأمين طرق قوافل التجارة الصحراوية. ولقد أثمر ذلك التعاون الصالح الطرفين فنشطت القوافل جوب طرق الصحراء الرابطة بين الموانئ الرومانية وأفريقيا الوسطى عبر فزان وأدى ذلك النشاط إلى ازدهار جرما وتوسعها فأقيمت فيها أبنية كثيرة جميلة على الطراز الروماني ما زلنا نشاهد منها حتى اليوم آثار المنازل الفخمة. والموسوليا²⁴ أو الأضرحة الكبيرة. والحمامات. واستمر هذا التعاون وذلك الازدهار في سلام حتى حوالي نهاية القرن الميلادي الرابع عندما قام غزاة مجهولون بالقضاء على ملكة الجرامنتيين وإحراق جرما. ولما كان هذا الحادث يصادف فترة النزاع بين الدوناتيين من البربر والكنيسة الكاثوليكية في روما وإتباعها في الشمال الإفريقي. فإننا قد لا نخطئ إذا إستنتجنا أن الدوناتيين من البربر الذين أصبحوا أكثر تطرفا وعنفا بعد وفاة

23- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 182-183.

24- الموسوليا أو الأضرحة الكبيرة نوع من القبور البارزة البنين والمشيدة على طراز ضريح الملك الإغريقي موسولس «Maussollus» صاحب هليكارنسوس «Halicaranssus» في آسيا الصغرى وكانت قد بنته له زوجته آرتميسيا «Artemesia» وشارك في جميله أربعة من كبار النحاتين اليونانيين. وعن هذا الضريح أخذ القرطاجيون نموذج أضرحتهم الكبيرة ثم أخذ النوميديون هذا النمط عن القرطاجيين. وعن النوميديين أخذه الجرامنتيون.

زعيمهم الروحي دوناتس سنة 355 م. هم الذين حرقوا جرما وخربوا مزارع الجرامنتيين وبساتينهم وأطاحوا بمملكتهم وذلك لنقمتهم على كنيسة روما من ناحية ولاستيائهم من تعاون الجرامنتيين وخالفهم مع الرومان إلا انه بوسعنا أن نؤكد أن السلطة الرومانية كانت على حافة الانهيار في أفريقيا الرومانية وان جرما نفسها كانت قد ضعفت إلى درجة مكنت الغزاة من اجتياحها وتدميرها بسهولة ظاهرة سنة 395 م. ولعل هذا الضعف كان ناجما عن عدة عوامل تكالبت على إضعاف التجارة التي كانت الشريان الرئيسي للحياة الجرامنتية وهي عدة عوامل كان أهمها:

1- نفاذ المياه الجوفية جزئيا ما سبب جفاف بعض العيون والآبار وبالتالي الواحات.

2- في أعقاب تزايد الجفاف جف الكثير من الحشائش والنباتات فسهلت حركة الكثبان الرملية التي كانت النباتات تثبتها في أماكنها ما جعلها تنتقل مع الرياح فتسد بعض الطرق التي كانت تستعملها الخيول والعربات الجرامنتية.

3- أدى نقص عدد الآبار والعيون إلى تطويل المسافة بين مصدر ماء والذي يليه ما صعب الأمر على حيوانات القوافل وأصحابها وحد من مقدرتها على الحركة.

4- اضطراب الأوضاع في المدن الساحلية والفقر الذي لحق بتجارها نتيجة لذلك أدت إلى إقعادهم عن المتاجرة مع الجرامنتيين.

5- مع نهاية القرن الميلادي الرابع بدأت قبائل البربر وخاصة هواره ومزانا ولواتا باستعمال الجمال للنقل عبر الصحراء فأصبحت بذلك في غنى عن جرما.

وزاد الموقف سوءاً أن الجرامنتيين أنفسهم لم يقبلوا على استعمال الجمال بل نفروا منها وظلوا أوفياء لخيولهم التي لا يمكن أن تقارن بالجمال في الأسفار الصحراوية.

وبعد هذا التاريخ خضعت ملكة الجرامنتيين كغيرها من المناطق الداخلية لسيطرة البربر حتى العهد البيزنطي.

ويظهر التأثير الروماني جلياً في غير الموسوليا من آثار جرما. فهناك قبور مربعة ذات درجتين وهي مقصورة قصارة بيضاء من الخارج ويبلغ عمق لحودها حوالي أربعة أمتار. وقد وجد في تلك القبور بعض الفخار الروماني الممتاز إلى جانب الزجاج والحلي الذهبية واغواش مصنوعة من حجر الأمازون أي العقيق. وقد لاحظ الأثريون أن هذا النوع من القبور و النوع المألوف في المقبرة والملكية. وإن كانت أعداد منه قد وجدت في وادي الآجال إلى الشرق والغرب من جرما. وبالإضافة إلى هذا النوع وجدت قبور هرمية بنيت أهراماتها التي يتراوح ارتفاعها بين مترين وأربعة من اجر الطين وحفرت اللحد تحت تلك الأهرامات على عمق مترين أو ثلاثة؛ ويعتقد أن هذا النمط من القبور منقولاً إما عن مصر وإما عن السودان. وهناك بعض المذابح المبنية بالحجر الرملي إما على شكل مسلة صغيرة وإما على شكل فرن؛ وكانت تطل باللون الأحمر وتوضع أمام القبور جاه الشرق أو الغرب وإلى جوانبها موائد القرابين.

الرومان في برقة

ظلت منطقة برقة تابعة للبطالة كما أسلفنا حتى عهد بطليموس أبيون (Apion)، الابن غير الشرعي لبطليموس السابع يوجيتس الثاني. وقد ورث أبون منطقة برقة بناء على وصية يوجيتس الثاني وحكمها منذ سنة 116 ق.م. حتى أوصى بها لروما قبيل وفاته. دون وريث. سنة 96 ق.م. وكانت المنطقة التي ورثتها روما عن بطليموس أبيون تشمل الأراضي الواقعة بين بحر كاتباتمو الكبير (Gran Catabatmo) (=خليج السلوم) في الشرق ونصب الأخوين فليني على خليج سرت الكبير في الغرب وتنتهي قرب (مقاطع الكبريت) على ذلك الخليج²⁵.

والمعلومات التي لدينا عن برقة بين سنة 96 ق.م. وسنة 75 ق.م. ليست كثيرة. ولكننا نعرف أن مجلس الشيوخ الروماني اكتفى في بداية الأمر بوضع يده على الأراضي الملكية في برقة بينما اعتبر المدن الإغريقية في تلك المنطقة كحليفات لروما فترك لها حرية تصريف شؤونها. ويخبرنا بلايني أن أول شحنة من نبات السلفيوم وصلت من برقة بعد وفات أبيون بثلاث سنوات أي سنة 93 ق.م. وأنها كانت عبارة عن إنتاج الحقول الملكية (Agri Regii). ولكن لما كانت المدن الإغريقية في برقة كغيرها من المدن الإغريقية في وضع من الضعف والاضطراب لا يمكنها من حفظ أمنها واستقرارها فقد وقعت فريسة للفوضى وأعمال الشغب. وحيال هذا الوضع المضطرب اتخذت روما قراراً بضم المنطقة فعلياً فعينت لها حاكماً رومانياً لأول مرة سنة 75 ق.م. وكان رتبة كويستور (Quaestor)²⁶. وبأشرف ذلك الحاكم. وكان اسمه كرنيليو لونتولو مارسليانو (Cornelio Lentulo Marcellino). سلطاته سنة 74 ق.م. وبالرغم من ذلك الإجراء الروماني فإن قورينة تكبدت

25- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a.c. - 642 d.c.), Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoidi - Editore, 1943 - XXI, page 27.

26- Ibid. Pag. 43. See also: Jones, A.H.M. Cities of the Estern Roman Provinces, Oxford, 1937.

خسائر اقتصادية فادحة في القرن الأول قبل الميلاد نتيجة القرصنة من ناحية وغزوات قبائل المارماريدي (Marmaridae) من ناحية أخرى. ثم نتيجة للحروب الرومانية الأهلية. ولم تبدأ تنتعش إلا منذ عهد أوغسطس. ويدل أحد نقوش الحمامات الكبرى في هذه المدينة على أنها تلقت معونات مادية في أواخر القرن الميلادي الأول.

ولا شك أنها بدأت تنتعش بعد ذلك؛ فنحن نسمع أن أحد أبنائها كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني في أوائل القرن الميلادي الثاني.²⁷

أما سبب عدول روما عن موقفها الأول من مدن برقة الإغريقية واتخاذها قراراً بضمها إلى أملاكها سنة 75 ق.م. فإن سلّوست²⁸ يخبرنا أن روما سلكت على ذلك النحو محتجة بأن تلك المدن كانت بحاجة لحكومات أقل طموحاً من حكوماتها القائمة آنذاك وبسبب نشوب حرب أهلية في قورينة وهي حرب تدل المصادر الأخرى على أنها لم تكن الحرب الأهلية الأولى والأخيرة منذ سنة 66 ق.م.²⁹ واختلف المؤرخون في أسباب ضم روما لبرقة فقال البعض انه تم تحت ضغط رجال الأعمال الرومان الذين كانوا في برقة. وقال آخرون بل لأن روما ما أرادت أن تقفل جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط في وجه القراصنة الذين تمكن يومي من هزمتهم وسحقهم في صيف سنة 96 ق.م.

وفي تلك السنة ذاتها وبعد أن قضى بومي على القراصنة بين برقة وكريت أقدم مجلس الشيوخ الروماني على ضم هاتين المنطقتين في ولاية واحدة باعتبار أنهما كانتا تخضعان لسلطة واحدة وهي سلطة البطالة طيلة العهد البطلمي³⁰. وقد اتسمت هذه الفترة بعدم الاستقرار ولم تفلح فكرة

27- The Journal of Roman Studies, Vol. XLIX, 1959, Parts I & II, article under the title "Four Inscriptions from Roman Cyrenaica", by Joyce Reynolds, pp. 95101-.

28- Sallust, Hist. II, fra. 43.

29- The Journal of Roman Studies, Vol. LII, 1962, Parts I & II, article under the title "Cyrenaica, Pompey and C.N. Cornelius Marcellinus", by Joyce Reynolds, pp. 97103-.

30- رستوتنزف. م. تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي. ترجمة زكي علي

دمج برقة وكريت في ولاية واحدة في تخلص برقة من الفوضى والإضطرابات التي كانت تعاني منها. ذلك لأن عملية الدمج لم تكن تعدو توحيد الجهاز الإداري الروماني فيهما فظلت كل منهما تصرف شؤونها الداخلية كالعتاد بينما انصرفت الإدارة الرومانية لاستنقاذ الأراضي الملكية في برقة من الذين وضعوا أيديهم عليها. والى تحصيل الضرائب المستحقة للخزينة الرومانية. وظلت برقة وكريت تكونان ولاية واحدة تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الروماني حتى بعد توصل الإمبراطور أوغسطس إلى اتفاقته المعروفة مع ذلك المجلس بخصوص اقتسام إدارة ولايات الإمبراطورية بينهما سنة 23 ق.م. ولكن حتى في هذا العصر الإمبراطوري نحن لا نسمع إلا القليل والقليل فقط عن الحياة في هذه الولاية. ويبدو لنا أنها أفادت كغيرها من الولايات من الاستقرار والازدهار اللذين كانا الطابع المميز للحياة في الإمبراطورية الرومانية ما بين سنة 27 ق.م. وسنة 68 م. والأمر الوحيد الذي نعرفه عن الحياة الاقتصادية في كريت وبرقة هو محاولة الأباطرة كلوديوس ونيرون وفسبسيان وضع حد للفوضى التي ضربت أطنابها في نظم امتلاك الأراضي التي كانت سائدة هناك. فقد وضع الأفراد ليديهم على مساحات واسعة من الأراضي في كل من القطرين. برقة وكريت. مع أنها من الوجهة القانونية كانت ملكاً خاصاً للمدن أو للأباطرة بوصفهم ورثة للبطالة.

والواقع إن اهتمام الرومان الفعلي بمنطقة برقة لم يبدأ إلا في عهد الإمبراطور أوغسطس (27 ق.م. - 14 م.) فقد بقيت شبه مهملة بين سنتي 75-24 ق.م. تستوفي منها الضرائب ولا تبذل فيها جهود رومانية تذكر من أجل إنعاشها والنهوض بعمرانها وحضارتها. وربما كان ذلك ناجماً عن الأحوال المضطربة التي واكبت المرحلة الأخيرة من العهد الجمهوري في روما. ومع بدء عهد أوغسطس انطلق الرومان بنشاطهم المعهود على إنعاش منطقة برقة فضمنوا لها مواصلات آمنة. ووسعوا رقعة الأرض المزروعة بما أدى إلى تحرك اقتصادي زراعي كان السبب الرئيسي في نهوض المنطقة وتقدمها. ولا تزال آثار برك الماء الرومانية. وأبنية المزارع والحقول التي تظهر هنا وهناك في

وحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 378.

مختلف أنحاء برقة تقوم أدلة واضحة على النشاط الروماني العمراني في برقة في هذه الحقبة التاريخية وهو نشاط نلمسه أيضا فيما نلاحظه من إصلاحات وتحسينات وإضافات أدخلت في هذه الفترة على المرافق الإغريقية التي كانت قائمة آنذاك في مختلف المدن الإغريقية في برقة. ومن الواضح أن الرومان. الذين اعتبروا أنفسهم ورثة للإغريق وحماة للحضارة الإغريقية. كانوا حريصين على أن تستمر برقة في نموها الحضاري نموا طبيعيا يتجلى لنا في استمرار اللغة الإغريقية والطابع الإغريقي للمنطقة. فلقد ظلت اللغة الإغريقية تحتل المرتبة الأولى بينما جاءت اللغة اللاتينية في المرتبة الثانية. يدل على ذلك ما تم اكتشافه من نقوش سجل الموضوع الواحد من موضوعاتها باللغة الإغريقية أولا ثم باللغة اللاتينية ثانيا.

وعندما اعتلى الإمبراطور ديوقليان (285-305 م.) عرش الإمبراطورية أعاد تنظيم الولايات فجعل طرابلس ولاية قائمة بذاتها وكانت تشمل الأراضي الواقعة بين القوس الرخامي التذكاري وبين شط الجريد في تونس. وفصل برقة عن كريت وكون منها ولايتين جديدتين: ولاية ليبيا العليا (Upper Libya) وصارت طلمينة عاصمة لها³¹ بدلا من سيرين. وكانت تتألف من منطقة البنطابولس ومعها القسم الشمالي من هضبة برقة. وولاية ليبيا الدنيا (Lower Libya) أو الجافة وكانت تشمل السواحل القاحلة بين درنة والإسكندرية. وقد ظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدتا

31- Goodchild, R.G., The decline of Cyrene and rise of Ptolemais, Two new Inscriptions-in Quaderni Di Archeologia Della Libya, Roma, 1961. See also: The Journal of Roman Studies, Vol. XLV, 1953, Parts I & II, pp 106 – 115, article under the title “Diocletian’s Price-Edict” at Ptolemais (Cyrenaica), by Giacomo Caputo and Richard Goodchild, wherein they say:

تمت طلمينة في العصر الهلينستي إلى مركز تجاري مستقل ذاتياً. وفي أيام ديوقليان صارت عاصمة لولاية ليبيا العليا ومركزا دينيا لأبرشيتها أي قسمها الإداري؛ شغله سينيسيون فيما بعد. وقد نقلت العاصمة إليها من قورينة في أيام ديوقليان؛ ونحن وإن كنا لا نعرف زمن عملية النقل هذه على وجه التحديق إلا أننا نعتقد أنها تمت قبل تولية سينيسيوس سنة 410 م.

في دوقية واحدة سنة 381 م. وعندما قسمت الإمبراطورية الرومانية سنة 395 م. إلى قسمين: غربي وعاصمته روما، وشرقي وعاصمته بيزنطة أو القسطنطينية. تبعت منطقة برقة للإمبراطورية البيزنطية بحكم أن برقة كانت ترتبط بالحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط منذ قدوم الإغريق إليها.

الحدود الرومانية في برقة:

بالرغم من أن برقة كانت في بداية عهدها بالرومان تابعة لإداريا لمجلس الشيوخ الروماني إلا أنها كانت معرضة للكثير من غارات القبائل الليبية. وهنالك إثباتات كافية تدل على أن برقة كان لها حرس حدود روماني ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد. ولكن يبدو أن ذلك الحرس كان قليلا بحيث لم تكن له القوة الكافية لإيقاف الثورة اليهودية عندما بدأت سنة 115 م. ما حمل الرومان على إرسال مزيد من القوات لتعزيزه وتمكينه من كبح الثورة اليهودية. ولقد أوضحت الأزمة التي استفحلت في منتصف القرن الميلادي الثالث مدى الخطر الذي كانت منطقة برقة معرضة له عندما اغتتمت قبائل مارماريكا فرصة الفوضى التي كانت قد استفحلت في الإمبراطوري في أعقاب زوال الأسرة الأفريقية السوبرية وأغارت على منطقة برقة واكتسحت قورينة³².

ومنذ سنة 390 م. فصاعدا لم تسترح منطقة برقة من غزوات القبائل البربرية إلا قليلا؛ وكانت اخطر تلك الغارات الاستوريين في المناطق الداخلية المجاورة لخليج سرت الكبير. وقد ظهر الاستوريون لأول مرة في التاريخ الروماني عندما قاموا بغزو منطقة طرابلس سنة 363 – 365 م. ومع حلول سنة 399 م. كانت غاراتهم تشمل جانبي خليج سرت الغربي (شرق طرابلس) والشرقي (غرب برقة). ولعلنا نستطيع أن نتصور ما وصلت إليه حالة البنطابولس من هزال عندما نتذكر أن أحد أبناء بنغازي واسمه

32- أصيبت قورينة سنة 262 م. بزلزال مدمر ولكنها عمرت بسرعة سنة 267 م. وسميت Claudiopolis باسم الإمبراطور كلوديس الثاني ولكن هذا الاسم لم يدم طويلا. وقد أصيبت قورينة بزلزال آخر سنة 365 م.

اندرونيكوس (Andronicus). وكان صياد سمك، صار حاكما للبنطابولس سنة 410 م. ولعل تدني مستوى الطبقة الاجتماعية التي جاء من صفوفها هو الذي حمل سينييسيوس. أسقف طلميثة، على مناصبته العدا. وفي سنة 450 م. أي بعد حوالي نصف قرن من الغارات الاستورية الأولى. جددت غاراتهم ما حمل الجنرال الروماني أرماتيوس (Armatius) على القيام بحملة ضدهم. أما في مطلع القرن الميلادي السادس فإن التهديد الرئيسي لهضبة برقة المعزولة جاء هذه المرة من قبائل المازيكي (Mazices) الذين استقروا في الواحات الواقعة إلى الغرب من وادي النيل وأغاروا على منطقة برقة مرة واحدة على الأقل حوالي سنة 513 م.

وكانت الطريق إلى برقة من خليج سرت محروسة منذ القدم. وكان أقصى حصن دفاع عنها من الغرب هو حصن بير أم القرنية قرب القوس الرخامي وكان يشغل مساحة 35 × 32 مترا مربعا. ولم يكن حوله خندق. والمعروف عنه أنه كان معمورا في القرن الميلادي الأول ولكنه أهمل وهجر قبل عصر جستنيان عندما صارت الحدود الغربية للبنطابولس تقوم قريبا من المدينة المستورة (بوقرادة) قرب مرسى البريقة. حيث وجدت مجموعة كبيرة من القلاع الصغيرة ذات الخنادق التي كان قصر العطيلات بمثابة قلب لها. وتجدر الإشارة هنا إلى مقاتلين سوريين كانوا يتولون حراسة أجدابية لها. (Corniculatum) في القرن الميلادي الأول.

ولقد وجدت آثار قلاع ثلاث كانت تشكل خط دفاع غربي عن برقة من ناحية سرت تمتد من الغرب إلى الشرق ومبتدئا بالقرب من الشاطئ ومنتجها حتى سهل الاستبس في الداخل. وتلك القلاع الثلاث المهمة هي: زاوية طيلمون (=تل أمون) وقلعة زاوية الشليظمة وقلعة زاوية مسوس. وكان هذا الخط يشكل أقصى حد لمنطقة سرت نحو الداخل. وجدير بالملاحظة أن مراكز الدفاع في عهد الاحتلال الإيطالي الحديث كانت تقوم في تلك المواقع ذاتها³³.

33- The Journal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, London, Vol. XLIII, 1953, 'The Roman and Byzantine Limes, R.G. Goodchild, pp. 6576-.

ونحن وإن كنا لا نعرف مواقع خط الدفاع الروماني في برقة بأسرها فنحن لا نستطيع إلا أن نجزم بوجود مثل ذلك الخط ما نراه من بقايا الحصون. فهناك آثار مزارع محصنة كانت تحمي الجهتين الغربية والجنوبية لسهل المرج المحيط بمدينة برقة. كما توجد آثار بعضها على جانبي الوادي الممتد من الأبيار إلى المرج وهناك مجموعة قصور أو حصون مقامة في وادي الكوف للحيلولة دون التسلل إليه من الجنوب وشطر منطقة برقة إلى شطرين. أما في شرق برقة فلا بد أن التحصينات كانت قليلة وإن وجدت آثار منها تدل على خط دفاع كان يهدف لحماية الطريق الذي كان يؤدي من درنة إلى الداخل. كما نعلم أن الإمبراطور جستنيان حصن طبرق بما قد يشير إلى أنها إما كانت محصنة قبل عهده فجاء هو ليرمها ويجدد تحصيناتها في إطار سياسة الترميم التي سار عليها بالنسبة لمدن إمبراطوريته. ولعل وجود آثار كنانس محصنة يشير إلى تلك الكنائس. وخاصة ما كان منها في الدواخل. إما حصنت نفسها لتقوم بالدفاع عن ذاتها وعن أتباعها. بعد أن ضعف خط الدفاع الروماني في أواخر العهد الروماني. وهو نفس ما فعلته طلميثة بزعامة أسقفها سينييسيوس عندما قامت بتحسين كنيستها ومرافقها الحيوية دفاعا عن ذاتها.

ولا شك أن الرومان أوجدوا شبكة مناسبة من الطرق في برقة على غرار ما فعلوا في طرابلس وغيرها من ولاياتهم الأخرى. ولقد وجدت حجارة معالم الطرق الرومانية في عشرة مواقع في برقة حتى الآن. ويبدو أنه كانت في البنطابولس ثلاث طرق رئيسية تلتقي جميعها في قورينة. ولا بد أن المتطلبات العسكرية فيما اقتضت إيجاد شبكة أخرى من الطرق تربط الساحل بالدواخل كما كانت الحال في منطقة طرابلس³⁴.

اليهود في برقة:

كان إلى جانب العنصر الليبي والإغريقي والروماني في برقة عنصر رابع

34- Papers of the British School at Rome, Vol. XVIII (New series Vol. V) 1950, The British School at Rome, 1 Lowther Gardens, Exhibition Road, London, England, Goodchild, R.G., Milestones in Cyrenaica, pp 83 - 91.

هام هو العنصر اليهودي وقد سبقت الإشارة إليه في الحديث عن عناصر سكان منطقة طرابلس. وقبل أن نتحدث عن أوضاع يهود برقة وسلوكهم يجدر بنا أن نترتب هنيهة نلقي خلالها نظرة على تاريخ اليهود وكيف ومتى جاءوا إلى برقة.

إن المتعارف عليه بشكل عام أن اليهود. الذين ينتمون إلى الجنس السامي الذي ننتهي إليه بوصفنا عربا. وجدوا أول ما وجدوا في أور بجنوب العراق ولأسباب مختلفة هاجر بهم إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد من أور إلى مصر ماراً بأرض كنعان (=فلسطين) ولكنهم لم يكتفوا في مصر غير قليل ثم عادوا إلى فلسطين واستقروا بها كجالية صغيرة. وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد هاجر بهم يوسف بن يعقوب من فلسطين إلى مصر حيث استعبدتهم الفراعنة طيلة أربعة قرون. هاجر بهم بعدها أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد موسى بن عمران إلى فلسطين فدخلوها بعد أربعين سنة من الضياع في صحراء التيه بشبه جزيرة سناء. وقد تمكن اليهود من الاستيلاء على مناطق محدودة من فلسطين أقاموا فيها في ظل نظام قبلي يتمثل في الأثني عشر سبطاً أو قبيلة التي انقسمت إليها قبائلهم. وكان يتولى سلطة الحكم عليهم قضاة منهم بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد. وعند هذا الحد من تاريخهم نجدهم ينجحون في إقامة ملكة لهم يعتبر أول ملوكهم عليها الملك شاؤول الذي لم يكن في الواقع سوى ملك رمزي. أما أول ملك حقيقي لهم فهو الملك داود الذي عمل على توسيع حدود مملكته بالقوة فحارب جالوت. ملك البربر. وانتصر عليه وشرد البربر واتخذ القدس عاصمة لمملكته التي أصبحت تشمل ضمن حدودها أرض اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين من نهر الفرات إلى خليج العقبة وساحل البحر الأبيض المتوسط. والجدير بالملاحظة أن اليهود حتى أيام الملك داود لم يوقفوا إلى إقامة حكومة مركزية قوية فظلت مملكتهم وكأنها ملكتان ترتبط الواحدة منهما بالأخرى ارتباطاً هزيلاً. هاتان المملكتان كانتا إسرائيل في الشمال ويهودا في الجنوب. وكان ملك يهودا لا يستطيع أن يحكم في إسرائيل إلا بموافقة الإسرائيليين ولكن الملك داود

نفسه منح تلك الموافقة مقدماً قبل تنويجه. وعندما اعتلى ابنه سليمان عرش يهودا فجأة في أعقاب وفاة أبيه لم يعترف به الإسرائيليين إلا بعد أن ذهب إلى عاصمتهم شخيم (=نابلس) وتوج ثانية فيها. وبعد وفاة سليمان سنة 931 ق.م. خلفه ابنه رحبعام (Rehoboam) على عرش يهودا فقط ولم تعترف به إسرائيل لما حمله على شن حرب عليها ولكنها تمكنت من هزيمته بقيادة قائدها يربعام (Ieroboam) الذي استقل بها وبأسباطها العشرة بينما ظلت يهودا ملكة ثانية يسكنها السبطان الباقيان. وظلت هاتان المملكتان منقسمتين حتى القرن الثامن قبل الميلاد عندما استولت الدولة الآشورية الناشئة في العراق على ملكة إسرائيل. ولم تلبث ملكة يهودا أن لاقت مصيراً مشابهاً عندما اكتسحها نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد وسبى اليهود إلى بابل حيث ظلوا حتى أيام الفرس عندما سمح كورش لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس فعاد بعضهم إليها وجدوا بناء الهيكل في القرن الخامس قبل الميلاد.

وبعد وفاة الإسكندر الكبير سنة 323 ق.م. قسمت إمبراطوريته بين خلفائه فكانت بلاد الشام من نصيب السلوقيين وكانت مصر وبرقة من نصيب البطالمة. ولم يلبث الصراع أن نشب بين البطالمة والسلوقيين من أجل الاستيلاء على فلسطين. ذلك الممر التاريخي الذي يربط آسيا بإفريقيا. وتمكن بطليموس الأول من الاستيلاء على يهودا سنة 301 ق.م. وظلت بعده تحت حكم البطالمة حتى سنة 200 ق.م. ولا ريب أن البطالمة جلبوا معهم لمصر أعداداً من اليهود الذين أسروا أثناء الحروب بين البطالمة والسلوقيين. كما أن البطالمة كانوا يحاولون توجيه هجرة اليهود إلى مملكتاتهم. تلك الهجرة التي نشأت عن عدم وأد اليهود لا أي من أطفالهم ما أدى إلى تزايد عددهم وحملهم بالتالي على الهجرة كحل لمشكلة تزايد عدد السكان. وترتب على هذا الوضع بمجموعه قيام جاليات يهودية في مصر وفي برقة التابعة لها. ففي مصر كان لليهود مستوطنات منذ أزمان طويلة. ومنذ القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد عاش منهم بجزيرة إلفنتين (فيلة) في أعلى النيل جماعة أصلهم في البداية من المرتزقة وقد اسكنهم فيها أحد

المسوك. وكان لهم هناك معبد لالههم يهوه. وسكن يهود آخرون مصر في عهد أرميا. النبي العبراني الذي ناصر نبوخذ نصر ثم انسحب إلى مصر بعد سقوط أورشليم (585 ق.م.). كما أقامت جالية قديمة منهم في منف. ثم احضر بطليموس الأول عددا منهم إلى الإسكندرية فيما بعد. واستمرت هجرة اليهود إلى مصر طيلة القرن الثالث قبل الميلاد وكانوا إجمالا ينزلون بالإسكندرية. وأحيانا بريف البلاد حيث كان لهم في عهد بطليموس الثالث ثلاث كنس أو بيع.

وعندما نشبت الحرب الأهلية بين كليوبترا الثالثة وابنها بطليموس لانيروس انحاز اليهود إلى جانب الأم فكان ذلك هو بداية حالة التوتر بالإسكندرية بين اليهود والإغريق لان الأخيرين كانوا يناصرون الابن. وكان يهود الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد يشكلون اكبر جالية لهم خارج يهودا. وقدر عددهم في مصر بعد الحقبة المسيحية بمليون نسمة: وكانوا يملأون اثنين من أحياء الإسكندرية الخمسة الموجودة داخل سور المدينة. ولقد كان وجود الجاليات اليهودية أمرا مشهورا بوضوح في الإسكندرية وفي مدينة برنيقة بإقليم برقة، وكانت جالية برنيقة سنة 13 ق.م. تحت حكم مجلس من تسعة من الاراخنة (Archonc) أي الحكام³⁵.

وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد تمكن أنطيوخس الثالث (الكبير) ملك السلوقيين من انتزاع فلسطين من أيدي البطالمة وضمها لمملكته. وكان أنطيوخس هذا متسامحا مع اليهود. بل انه أعطاهم في الواقع مزيدا من الحرية في تصريف شؤونهم الذاتية. ولكن انتزاع فلسطين من أيدي البطالمة لم يضع حدا للصراع بينهم وبين السلوقيين فقد مكان أنطيوخس الثالث يطمح إلى الاستيلاء على مصر وتوحيد إمبراطورية الإسكندر من جديد تحت رايته. ولكن القوة الرومانية الناشئة كانت قد بدأت تمد حمايتها للبطالمة ضد السلوقيين في نطاق لعبتها الجديدة في المحافظة على توازن القوى ما اقنع أنطيوخس الثالث بأنه لن يتمكن من هزيمة البطالمة

35- تارن. سير وليم وود. الحضارة الهلينستية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. مكتبة الأجلو المصرية. القاهرة. 1966. ص 223-253.

وحمايتهم الرومان إلا إذا وحد الجبهة الداخلية في بلاده. ومن أجل هذه الغاية بدأ بهلته مملكته. إلا أن اليهود في فلسطين رفضوا برنامج الهلته المقترح واحتجوا لدى انطيوخس الثالث بأنهم قد اثبتوا إخلاصهم له بدفع الضرائب بحمل السلاح والانخراط في سلك قواته المقاتلة: ولذلك فإنهم لم يكونوا بحاجة لإثبات إخلاصهم عن طريق إقامة التماثيل له في معابدهم. وقبل انطيوخس الثالث وجهة نظرهم هذه وغض النظر عن هلنتهم. ولكن ابنه الثاني انطيوخس ابيفينز (Epiphanes) الذي ورث العرش السلوقي سنة 176 ق.م. بعد أن قتل أخاه لم يوافق على استثناء اليهود من برنامج الهلته ليس لأنه كان متحيزا ضدهم ولكن من حيث المبدأ: فما دام اليهود مواطنين في مملكته فان عليهم أن يخضعوا لقوانين السلطة كغيرهم من المواطنين. ولكن اليهود أصروا على التمسك بموقفهم في رفض برنامج الهلته.

وكان التقليد المتوارث هو أن يعين السلوقيون حكام الولايات المختلفة تعيينا مباشرا. أما بالنسبة لليهود فان السلوقيين كانوا يكتفون بتعيين كاهن أعظم يرشحه لهم اليهود أنفسهم. وفي هذه المرحلة رأت الأرستقراطية اليهودية أن من مصلحتها أن تساد انطيوخس ابيفينز على هلته فلسطين وتمكنت بالرشوة وبالتغريب من حمله على تعيين كاهن يهودي اسمه جيسون (Jason) وفي منصب الكاهن الأعظم بفلسطين. وكان جيسون هذا أحد زعماء الهلته البارزين في فلسطين فتمكن خلال اثني عشر شهرا من تحقيق ما عجزت مائة وخمس وعشرون سنة من الحكم البطلمي والسلوقي عن تحقيقه ألا وهو فتح أبواب هيكل اليهود في القدس أما الطقوس الوثنية حيث أدخلت إليه التماثيل الإغريقية. وصار الكهان اليهود يرتدون الزي الإغريقي ويمارسون الطقوس الإغريقية. كما صار اليهود يمارسون الألعاب الإغريقية في ساحة الهيكل وهم عراة. وصارت القدس ترسل وفودا تمثلها في الاحتفالات الوثنية. وما أثار حفيظة اليهود على اختلاف طبقاتهم فراحوا يتدمرون من دعاة الهلته خاصة اليهود منهم. وفي غمار إحدى حملات أنطيوخس ابيفينز على مصر راجت بين اليهود في فلسطين إشاعة بأنه قتل في إحدى المعارك. فاغتنموا الفرصة. وانقضوا على كهانهم. الذين

كان السلوقيون قد عينوهم، فألقوا القبض عليهم في الهيكل وألقوا بهم إلى حتفهم من علو مائة قدم، ثم حملوا التماثيل الوثنية الموضوعة في الهيكل وألقوها بالكهان. وراحوا يتبعون دعاة الهلنة ويذبحونهم. وتمكن حزب الهسدانيين (Hasidns)، الذي انضوى تحت لوائه كل اليهود المحافظين المناهضين للهلنة من الاستيلاء على السلطة في فلسطين.

ولكن إشاعة مقتل أنطيوخس إبيفينز كانت كاذبة، فالذي حدث هو أن الرومان اندزرو بالخروج من مصر وكانت قد وصلت إلى مسامعه أنباء ثورة اليهود وراءه في فلسطين فقرر العودة، ودخل بقواته القدس فأدب اليهود النائرين في اشتباك قتل منهم فيه عشرة آلاف، وإثر ذلك أعيدت تشكيلة الكهّان المواليين لحركة الهلنة كما أعيدت التماثيل الإغريقية إلى الهيكل. ودعا إبيفينز كثيرا من الوثنيين لسكنى القدس لتخفيف من صبغتها اليهودية، وألغى طقس اليهود في السبت وحرّم عليهم تطهير آبائهم مما زاد في نقيمتهم فانضمت أعداد جديدة منهم، حتى من الذين كانوا يتخذون موقفا معتدلاً من الهلنة، إلى حزب الهسدانيين. وأدى ذلك إلى تهديد الطريق أمام ثورة جديدة، وجاءت تلك الثورة بسرعة سنة 168 ق.م. إثر إقدام أحد الموظفين السلوقيين في قرية خارج القدس على محاولة إرغام كاهن يهودي على تقديم قربان لأحد الآلهة الإغريقية ففضل الكاهن أن يقتل ذلك الموظف على أن يرتكب تلك الخطيئة. كان ذلك الكاهن متاثياس الهسموني (Mattathias the Hasmonean)، الذي أمر إبيفينز بعقابه فهب اليهود جميعا للدفاع عنه فأصبح هو وأبناؤه الخمسة يقودون الثورة الجديدة وعرفوا بالمكابيين (Maccabees) نسبة للتسمية العبرية التي تعني (مطرقة) باعتبار أنهم كانوا يضربون القوات السلوقية مطرقة إثر الأخرى في الحروب المتتالية، وفي سنة 166 ق.م. تمكن اليهود من هزيمة جيش كان يقوده إبيفينز بنفسه ولكن الحرب استمرت لمدة خمسة وعشرين سنة قتل فيها أبناء متاثياس الواحد تلو الآخر باستثناء سيمون الذي ظل يتزعم الثورة حتى بعد موت إبيفينز، وعرض خلف إبيفينز الاستقلال الذاتي على اليهود ولكنهم رفضوا العرض وأصرروا على الاستقلال الكامل حتى رضخ السلوقيين فوقع

سيمون معهم اتفاقية الاستقلال التي بعثت ملكة يهودا من جديد سنة 143 ق.م. وأصبح سيمون الكاهن الأعظم للقدس وحاكم يهودا، وهو وإن كان لم يتوج رسميا ملكا عليها إلا أنه كان يعتبر أول ملوك هذه الأسرة. ورأى سيمون من وجهة نظره أن البطالة أو السلوقيين سيهاجمون مملكته في يوم ما فوقع اتفاقية دفاع مشترك مع روما التي كان يتوقع سطوع نجمها كقوة كبرى، فحق عليه بذلك قول الشاعر العربي:

ومن تخذ الضرغام بازاً لصيده تصبّه الضرغام فيما تصيدا
وقول الشاعر الإنجليزي:

There was a young Lady of Niger
Who smiled as he rode on a tiger;
They came back from the ride
With the Lady inside,
And the smile on the face of the tiger.

ذلك أن الابتسامة بقيت على ثغر اليهود طيلة ثمانين سنة كانوا يمتطون النمر الروماني خلالها، ولكنها صارت على وجه ذلك النمر بعد أن صاروا هم في جوفه. فقد استعرت نار الحرب بين أبناء الأسرة اليهودية الحاكمة وكانت حربا قاسية دامية لم تنته إلا بعد تدخل يومي سنة 63 ق.م. اثر فتحه لسوريا وألغى المملكة المكابية وحولها إلى ولاية رومانية.

وكان الرومان يعينون حكاما للولاية اليهودية اشتهر من بينهم هيرود اليهودي الذي نصب نفسه ملكا عليها بمساعدة الرومان وحكمها مدة ست وأربعين سنة، وكان الرومان يخوضون حربا مضنية وغير حاسمة ضد البارثيين (الفرس) في الشرق، ولذلك فإنهم كانوا دائما يخشون من اقتحام البارثيين للحدود الرومانية في يهودا فبالغوا في حراستها وإخضاعها اعتقادا منهم أنهم في تلك الحالة يستطيعون أن يستوعبوا أي هجوم يشنه البارثيين. وأثارت تلك المعاملة اليهود كما أثارتهم الضرائب الكثيرة

التي كان الرومان يجبرونها منهم فأعلنوا الثورة سنة 66 م. وبادروا بالقضاء على الحرس الروماني خارج القدس ثم انتشر لهيب ثورتهم حتى عم أرجاء فلسطين. وكان يوسف بن ماثياس (Joseph ben Mattathias)³⁶ يقود قوات الجليل اليهودية ضد الرومان. واستمرت الحرب بقيادة القائد الروماني فسبسيان الذي لم يلبث أن اعتلى عرش الإمبراطورية فكلف ابنه تيطس بمواصلته الحرب. واستطاع هذا الأخير أن يحتل القدس سنة 70 م. فانتقم من اليهود شر انتقام. وقد ذكر المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus) الذي قال عن الرومان أنفسهم إنهم يخلقون الخراب ويسمون عملهم ذلك سلباً. إن تيطس قتل من اليهود في تلك الحرب ستمائة ألف نسمة. وفي عهد الإمبراطور تراجان ثار اليهود ثورتهم الثانية سنة 113 م. في كل من مصر وأنطاكية وقورينة وقبرص ومسوبوتاميا بالعراق مغتربين فرصة انشغال تراجان في غزوة لبارثيا. ولما علم تراجان بالثورة قطع غزوته وانداد لليهود فحاربهم طيلة ثلاث سنوات أدعنوا له بعدها.

وفي عهد الإمبراطور هدران ثار اليهود ثورتهم الثالثة على الرومان سنة 132 م. بزعامه باركشبة. فاستدعى هجران يوليس سيويرس وجيشه من بريطانيا وأرسله لسحق الثورة اليهودية في فلسطين فدخلها بجيش يبلغ عدده خمسة وثلاثين ألفاً ولكنه لم يتمكن من إخضاع الثورة إلا بعد مضي ثلاث سنوات سنة 135 م. من الحرب القاسية المدمرة فأعدم الرومان باركشبه ومساعدته الربى أكيبا. وبانتهاء هذه الثورة انتهت المرحلة الرومانية من تاريخ اليهود فقد قتلت أعداد كبيرة منهم بينما هرب من تمكن منهم من الهرب وتفرقوا في أرجاء المعمورة. وكان من الطبيعي أن يتوجهوا في المكانة الأولى إلى بارثيا حيث رحب بهم البارثيون أعداء الرومان. أما من ظلوا

36- يسميه الكتاب الرومان يوسيبوس "Eusebius". وقد استسلم للرومان فيما بعد واستأذنتهم في مرافقة جيشهم المحاصر للقدس ليتسنى له تأريخ تلك الحرب عن كذب فأذنتوا له ومنحوه حق المواطنة الرومانية مما جعله يغير اسمه إلى فلافيوس جوسيفوس "Flavius Josephus". ومنذ ذلك الحين صار اليهود يتهمونه بالخيانة. ويتعبر كتاباه: تاريخ الحرب اليهودية وآثار اليهود أفضل مرجعين موجودين. وهما يتناولان تاريخ اليهود بين سنة 100 ق.م. وسنة 100 م. أما يوسف نفسه فقد عاش من سنة 38 إلى سنة 100 م.

منهم في فلسطين فقد بيعوا عبيدا في أسواق الرقيق³⁷.

إن الحرب اليهودية الثالثة وضعت مستقبل اليهود السياسي والاقتصادي والاجتماعي على حافة الهاوية: فكان معظمهم دون جنسية في القرن الميلادي الثاني وكانوا منتشرين في عدة أقطار من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ما بين الهند شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً. وكان المنطق والتاريخ يقضيان بان يفقد اليهود هويتهم كجنس ويختفوا عن مسرح الوجود ولكنهم تمكنوا من إيجاد صيغة جديدة وفرت لهم أسباب البقاء وهي صيغة (الجالية اليهودية) التي اشتهرت باسم (Diaspora Judaism). والدياسبورا كلمة إغريقية تعني التشتت وهي حتى اليوم تعني الجاليات اليهودية خارج إسرائيل³⁸.

أما كيف ومتى نشأت تلك الجاليات التي تتميز بطريقتها الخاصة في الحياة فان بعض المؤرخين يردون ذلك إلى تخطيم مملكة يهودا لأول مرة والسبي والبابلي الذي تلا خطبهما في القرن السادس قبل الميلاد.

وإذا صح ذلك فان كلمة دياسبورا تصبح مرادفة لكلمة (المنفى) فكأما نفي اليهود إلى بابل ليعيشوا هناك في المنفى. والواقع أن الدياسبورا الحقيقية إنما بدأت بالنسبة لليهود بعد فتح الفرس لبابل وسماح كورش الفارسي لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس. وأنذاك عاد منهم والي 25% فقط بينما أثر الباقون المعيشة في المنفى. أما وجودهم في بابل قبل كورش كان إجبارياً وكان يعنى المعيشة في المنفى. أما وجودهم فيها بعد أن سمح

37- انظر أيضاً: توينبي، آرنولد. تاريخ الحضارة الهلينستية. ترجمة رمزي جرجس وضفر خفاجة، سلسلة الألف كتاب، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص 242 - حيث يقول: «عندما أصر اليهود على الدخول في عراق مع الدولة العالمية الهلينية، ضاربت عرض الحائط بتحذيرات الملك هيرودوس، ورفعوا السلاح في وجهها بالجرأة ذاتها التي حملوا بها على الدولة السلوقية المتداعية، لم يلبثوا أن جلبوا على أنفسهم تلك الكوارث الماحقة المروعة التي وقعت فيما بين 66 - 70 م، و 132 - 135 م، فقد أبعد يهود فلسطين عن بكرة أبيهم، فيما عدا طائفتين تختلفا عنهم، هما مدرسة الياحام يوحنا بن زكاي "Johanan ben Zakkai" والكنيسة المسيحية وهما الطائفتان اللتان نبذتا استخدام القوة كأداة لتنفيذ خططهما الدينية».

Dimont, Max I., Jews God, and History, W.H. Allen, London, 1964, -38
pp 94 - 121

لهم كورش بالعودة فقد أصبح اختياريًا أي (دياسبورا). وهناك فرق آخر بين المنفى والدياسبورا ذلك أن الشعب المنفي لا ينتج حضارة في العادة بل يذوب في المجتمع الجديد أو يرتد إلى حياة البدو الرحل. أما اليهود فقد ظلوا يحتفظون بيهوديتهم وفي الوقت ذاته يسهمون في حضارة المجتمع الذي تعيش جاليتهم فيه دون أن تنصهر أو تفقد هويتها، ولم يتحقق هذا التماسك لليهود صدفة أو تلقائيا بل جاء نتيجة تطبيق مبادئ وضعها اليهود لأنفسهم: فقد قرروا فيما بينهم أن أي يهودي يباع رقيقا لا بد من أن يقوم اليهود في اقرب جالية على مكان وجوده بفديته وخريره خلال مدة أقصاها سبع سنوات. ولكي يحفظوا لغتهم من الضياع والاندثار وضعوا كتب القواعد الخاصة بها، وحتى يحفظوا دينهم من وحدوا طقوس العبادة في كل كُنسهم وأقاموا تنظيمًا دينيًا اجتماعيًا يحتم عليهم ما يلي: أينما وجد عشيرة ذكور يهود فوق سن الثالثة عشرة وعلى مسافة تسمح لهم بالاتصال ببعضهم البعض فلهم الصلاحية في إقامة طائفة دينية أسموها بالعبرية (مينيان) (Minyan). وإذا اجتمع مائة وعشرون منهم فلهم صلاحية إقامة طائفة اجتماعية لها محكمتها الشرعية الخاصة بها. وكان على كل طائفة من هذا النوع أن تلتزم بمبادئ أخرى أهمها:

1- أن تفرض على أفرادها ضرائب غير الضرائب التي يدفعونها للدولة التي يعيشون على أرضها وذلك لكي يبقى اليهودي في غنى عن أن يستعين ماليا بحكومة وثنية أو مسيحية. وكانوا ينفقون حصيلة تلك الضرائب فيما بينهم على التعليم وفي أوجه الخير.

2- إيجاد نظام تعليمي يكون مجانيًا لأيتامهم والمحتاجين منهم: وكان إجباريا للأولاد ومسموحًا به للبنات.

3- لا يجوز لليهودي أن يطلب الإحسان من أية دولة وإنما يطلبه من جاليتهم فقط. ولكي يضمنوا عدم تناقص أعدادهم فرضوا عقوبات صارمة على وأد الأطفال والإجهاض والرهينة وحرّموا على اليهود التزاوج مع غيرهم.

ولكي يضمنوا لأنفسهم حكمًا ذاتيًا ويحفظوا حقوقهم ويحموا أنفسهم من الاتهام بالخيانة وضعوا القوانين الأربعة التالية التي تعتبر فريدة من نوعها:

1- ليس على أي يهودي أن يلتزم بتطبيق أي قانون يهودي إذا كان تطبيقه فوق طاقة اليهودي المتدين. وفي تلك الحالة يجب أن يعاد النظر في تفسير ذلك القانون أو تعديله بحيث يساير الجيل الجديد.

2- على اليهود أن يعترفوا بصحة الوثائق غير اليهودية في محاكمهم وفي سواها. وان يعتبروا أي قسم يعقد في أي محكمة وبأية لغة قسمًا صحيحًا.

3- على اليهود أن يطيعوا قوانين البلد الذي يعيشون فيه مادامت لا تمنعهم من ممارسة دينهم أو تحملهم على ممارسة طقوس دينية أخرى أو تدفعهم إلى القتل.

4- على اليهود أن يحاربوا دفاعًا عن البلد الذي يعيشون فيه.

وإذا حاولنا أن نتتبع تشتت وقيام الجاليات اليهودية بإيجاز فإنا نخرج بالصورة التالية:

أ - نشأت أول جالية يهودية خارج فلسطين في بابل بالعراق من الأسرى الذين ساهم نبوخذنصر بعد أن اجتاحت القدس وهدم هيكل سليمان في القرن السادس قبل الميلاد.

ب - وفي عصر البطالمة في مصر أي ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد بدأت تتكون هناك جالية يهودية معظم أفرادهم من الأسرى اليهود الذين كان البطالمة يعودون بهم من فلسطين التي كانت ميدان صراع البطالمة والسلوقيين. ولما كانت برقة تابعة للبطالمة فإن أعداداً من اليهود قدمت إليها من مصر بتشجيع من البطالمة الذين كانوا يستغلون اليهود من أجل إخضاع برقة للسيطرة البطلمية. فقد ذكر المؤرخ يوسف أن بطليموس الأول أرسل فريقًا من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها. لأنه كان مهتمًا

بتشديد قبضته على تلك المدينة ومدن ليبيا (برقة) الأخرى.

ج - وبعد أن استولى بومبي على مملكة يهودا وحوّلها إلى ولاية رومانية أصبح اليهود يلازمون الرومان والجيش الروماني ملازمة الظل. فكان يسير وراء الجيوش الرومانية التي تحمل الأعلام الإمبراطورية المزينة بالنسر الروماني رجال الأعمال وأصحاب المشروعات اليهود. ولهذا السبب قويت الجاليات اليهودية التي كانت قد استقرت في إيطاليا في القرن الثاني قبل الميلاد وفي فرنسا في القرن الأول قبل الميلاد وفي أسبانيا مع مطلع تاريخ الميلاد. فما إن بدأ القرن الميلادي الثالث حتى كان اليهود قد توغّلوا في أوروبا شمالاً حتى كولون في ألمانيا. ولقد نقل يوسف عن استرابو. الذي كان معاصراً للإمبراطور أوغسطس. قوله: (إن اليهود على عهده كانوا قد وجدوا طريقهم إلى كل مدينة. ومن العسير ألا تجد في أي مكان في العالم المعمور موطناً لهم). وفي عهد أوغسطس الإمبراطور الروماني الأول. أصدر هذا الإمبراطور تصريحاً أعلن فيه أن يهود الإمبراطورية أثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الماضي والحاضر خاصة عندما كان هيركاتس كاهناً أعظم لهم في زمن يوليس قيصر. وبناء على ذلك فإن الإمبراطور أوغسطس قرر السماح لليهود بمباشرة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم على نحو ما كانوا يفعلون في عهد ذلك الكاهن. وقرر السماح لهم بتحويل أموالهم إلى القدس وتوعد كل من أقدم على سرقة أموالهم أو كتبهم المقدسة بالجلد وبمصادرة الممتلكات.

د - منح الإمبراطور كرا كلا اليهود في الإمبراطورية الرومانية حق المواطنة الرومانية وساوهم بغيرهم من مواطني الإمبراطورية سنة 212 م.

هـ - أما هجرة اليهود إلى شبه الجزيرة العربية فقد نشأت على شكل جدول مستمر منذ بطش بهم القائد الروماني تيطس سنة 70 م. وما لبثت أن تحولت إلى سيل كبير خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد وذلك هرباً من الحروب التي كانت مستعرة بين الفرس والبيزنطيين في سوريا وفلسطين. وقد استقر معظم اليهود المهاجرين إلى شبه الجزيرة العربية في يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى. وبسبب اقتناع اليهود بان الحرب بين الفرس والبيزنطيين ستكون حرباً طويلة الأمد. وبسبب خذير اليهود لبعضهم

البعض بان الإمبراطورية البيزنطية لن تكون مأوى صالحاً للحرية فقد هاجرت أعداد منهم إلى شبه الجزيرة العربية أعداد أخرى كثيرة إلى النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

و - وفي إيطاليا دعا ثيودورك الكبير (454-526 م.) اليهود إلى الاستقرار في كل مدن مملكته وخاصة في روما و نابولي و فينيسيا و ميلان و عاصمته الجديدة رافنا. ويقول ماكس ديمونت عن يهود إيطاليا هؤلاء: (إنهم كانوا تجاراً ورجال مصارف وقضاة ومزارعين. وصاغة مجوهرات وحرفيين. وربما كان ثلث هؤلاء اليهود في إيطاليا لا ينحدرون من نسل أسلافهم كانوا وثنين أصلاً وبدعوا يعتنقون الديانة اليهودية منذ القرن الأول للميلاد)³⁹.

ز - ترجع مشكلة اليهود المرتدين في أسبانيا إلى القرن السادس للميلاد عندما حمل الملك ركارد (Reccared). الذي كان متحمساً للديانة المسيحية. تسعين ألفاً منهم على اعتناقها بالقوة.

ح - وفي نفس الوقت الذي تلقى فيه كوليس الأمر بالقيام بالرحلة التي اكتشف فيها أمريكا سنة 1492م. وقع الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا أمرا يقضي بطرد اليهود من إسبانيا. وتولى قيادة الهجرة اليهودية من أسبانيا الربّي دون إسحاق أبرافانل (Don Isaac Abravanel) الذي كان وزيراً للمالية البلاط الإسباني. ويقدر أن خمسين ألفاً من المائة والخمسين ألف يهودي إسباني - وهم اليهود الذي كانوا ينحدرون من أسلاف عاشوا في أسبانيا منذ القرن الميلادي الأول - آثروا أن يدفعوا ثمن البقاء في ديارهم بإسبانيا فاعتنقوا المسيحية. أما المائة ألف الآخرون فقد مات منهم حوالي عشرة آلاف واستقر خمسة وأربعون ألفاً في وحوالي خمسة عشرة ألفاً في الشمال الإفريقي ومصر وعشرة آلاف في جنوب فرنسا وهولندا وعشرة آلاف في شمالي إيطاليا وخمسة آلاف في أقطار متفرقة في آسيا وإفريقيا وأوروبا وخمسة آلاف في أمريكا الجنوبية. وتمتع المهاجرون اليهود في ظل الإسلام في الشمال الإفريقي وفي مصر والإمبراطورية العثمانية لعدة قرون بحرية دينية واقتصادية كاملة لم يكونوا ليحلموا بها في عهودهم السابقة كما

Ibidem, p. 218 -39

لم يكن يحلم بها معاصروهم من أبناء جلدتهم الذين انتهت بهم الهجرة إلى أوروبا حيث لم يبق بلد أوروبي استقروا فيه إلا واضطهدهم أو طردهم. وفي سنة 1496 م. هددت البرتغال بطرد يهودها فهرب الكثيرون منهم إلى شمال أفريقيا وشمال إيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

نلخص من كل ما تقدم إلى أن اليهود بدعوا يقيمون جاليات لهم في ليبيا فاستقروا في البداية في برقة قادمين إليها من مصر بتشجيع من البطالمة وكان المهاجرون الأوائل الذين استقروا في برقة من الأسرى اليهود الذين كان البطالمة يعيدون بهم إلى مصر في إغراب غزواتهم المتكررة لفلسطين. وفي عهد أنطيوخس الرابع السلوقي (175 - 164 ق.م.) هاجرت أعداد جديدة من اليهود المتدينين من فلسطين فراراً بدينهم وهرباً من الهلثة التي أراد انطيوخس هذا أن يحملهم عليها فقدموا إلى برقة وانضموا إلى يهودها. ويبدو أن أعداد قليلة من اليهود تغلغت في منطقة طرابلس في هذه الفترة وان كانت مصادرها لا تكاد تفصح بشيء حول هذه النقطة بالذات.

أما في برقة فقد أثبتت الآثار وجود اليهود منذ العصر البطلمي في طلميثة؛ فقد عثرت بعثة المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو على عملة برونزية يهودية من ذات ربع الشاقل من النوع الذي كان سيمون المكابي (139-135 ق.م.) قد أصدره أثناء حكمه في مملكة يهودا بفلسطين. وتقدم مقابر توكرة الدليل على أن اليهود وجدوا في تلك المدينة منذ العصر البطلمي. وهنالك أدلة كافية تثبت وجود جالية يهودية كبيرة في برنتشي في أوائل العصر الروماني⁴⁰. ويبدو أن الجاليات اليهودية في برقة لم تقتصر على سكنى المدن فقط بل تعدتها إلى سكنى القرى في مختلف أنحاء ريف برقة. وقياساً على نشاط الجاليات اليهودية الاقتصادي في البلدان المختلفة يبدو لنا أن يهود برقة شغلوا عدداً لا بأس به من الوظائف الحكومية وخاصة ما كان يتصل منها بالاحتكارات الملكية وبجباية الضرائب والأعمال المالية

40- عثرت بعثة مانثيستر على أسماء يهودية منقوشة بالأحرف اليونانية على حجارة قبور توكرة وقورينة وبرقة. وكان معظمها أسماء يهودية صريحة وبعضها أسماء يهودية مترجمة للغة الإغريقية وهي ترجع للفترة 31 ق.م. - 83 م.

الأخرى كالتجارة والمراعاة وغيرها. أما من سكنوا ريف برقة من اليهود فلا بد أنهم اشتغلوا بالزراعة والرعي والمهن المتصلة بهما. ولم يقتصر نشاط اليهود الاقتصادي على شغل الوظائف الحكومية بل أنهم دخلوا العمل الحرفي فكان منهم الصاغة ورجال المصارف والتجار وأصحاب السفن والمرايون. ولا شك أن الجاليات اليهودية في برقة كانت منظمة على النحو الذي كان يقوم عليه نظام الدياسبورا الذي تعرضنا له قبل قليل. وما يؤيد هذا الرأي أن نقشين اكتشفا في برنتشي يتضمن كل منهما قراراً أصدرته الجالية اليهودية هناك أفاد الأول منهما - ويرجع تاريخه إلى ما بين سنة 30 ق.م. وسنة 100 م. - أنه كان يرأس الجالية اليهودية في تلك المدينة سبعة أرخنة (كهان). وأفاد القرار الثاني المؤرخ سنة 25 ق.م. أنه كان يحكم تلك الجالية تسعة كهان. وورد في قرار ثالث يعود إلى عصر الإمبراطور نيرون أن عشرة من الكهان اليهود أسهموا في ترميم الكنيس اليهودي بتلك المدينة. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة أن الجالية اليهودية في الإسكندرية كان يحكمها تسعة من كهانها في عصر الإمبراطور أوغسطس. وبالإضافة إلى كل ما تقدم فإن استرابو يخبرنا أن سكان قورينة في عهد أوغسطس كانوا ينقسمون إلى أربع طبقات هي:

1- طبقة مواطني المدينة من الإغريق.

2- طبقة المزارعين.

3- طبقة الأجانب المقيمين في المدينة.

4- طبقة اليهود أي الجاليات اليهودية في قورينة.

ومن الواضح هنا أن استرابو رأى في يهود قورينة فئة قائمة بذاتها وتمييزة عن غيرها من فئات السكان بما يدل على أنهم كانوا يشكلون دياسبورا منظمة. وقد اكتفى يوسف بأن ينقل عن استرابو قوله إن يهود قورينة في عهد أوغسطس كانوا يشكلون طبقة منفصلة تماماً عن بقية طبقات السكان في المدينة؛ وتصرف يوسف على هذا النحو قد يشير إلى أن يهود قورينة لم يكونوا قد اكتسبوا حقوق المواطنة كاملة فيها. ويبدو لنا

أن ما يصدق على الجالية اليهودية بشكل عام لم تكتسب حقوق المواطنة الرومانية إلا في عصر الإمبراطور كراكلا الذي منح يهود الإمبراطورية ذلك الحق سنة 212 م.

ويبدو كذلك أن يهود برقة قد آثروا التزام جانب الهدوء والسلام بعدما تعرضوا له من قتل وتشريد فعاشوا في أمن وطمأنينة في ظل الحكم البطلمي.

ويؤيد هذا الرأي أن مصادر ذلك العصر لا تشير إلى أن اليهود كانوا طرفا في أي نزاع في برقة أو سببا له. كما إنها لا تشير إلى أنهم قد تعرضوا لأي اضطهاد أو التحموا في أي صدام مع الإغريق أو الليبيين طوال العصر البطلمي. ومع حلول العصر الروماني نجد الجاليات اليهودية قد استقرت وثبتت في الأماكن التي كانت تسكنها في برقة منذ العهد البطلمي. ولاشك أن تلك الجاليات قد قويت وتعززت في الأوقات التي كانت فيها على وئام مع السلطة الرومانية⁴¹. ولقد دلت الآثار على وجود جالية يهودية قوية في قورينة؛ فقد عثرت بعثة جامعة مانشستر⁴² على قطعة عملة يهودية من ذات نصف الشاقل في قورينة يعود تاريخها إلى السنة الثانية من ثورة اليهود الأولى في القدس أي إلى سنة 68 م. كما وردت أسماء يهودية في نقش يتضمن قائمة بأسماء منظمة للشباب بالمدينة. وبالإضافة إلى قورينة وجدت على أثار طلمية وتوكرة وأبولونيا أسماء منقوشة تثبت وجود جاليات يهودية في تلك المدن. وقد عثرت بعثة جامعة مانشستر في موسم حفرياتها سنة 1956 م. في محجر إلى الغرب من توكرة على مصباح نقش عليه صورة الشمعدان اليهودي ذي السبعة فروع. وبالإضافة إلى الشواهد الأثرية يجبرنا بروكوبيس أن جالية من اليهود كانت تعيش بالقرب من بوريوم على خليج سرت منذ عصر قديم وأنها كان لها معبد هناك يقدهه أفرادها

41- انظر الفقرة (ج) ، ص 400 - 401 أعلاه.

42- تعتقد بعثة جامعة مانشستر أن المدن الساحلية في برقة مثل أبولونيا وطمية وتوكرة وبنغازي كانت كمراكز تجارية أنسب من غيرها لسكنى اليهود في عهد البطالة والرومان والبيزنطيين. ويذكر أن سونسيوس أحصى بحارته في رحلة له من الاسكندرية إلى قورينة فكان أكثر من نصفهم بما فيهم القبطان من اليهود.

ويزعمون أن الملك سليمان هو الذي شيده. ويضيف بروكوبيس أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان اجبر تلك الجالية على اعتناق المسيحية وحول معبدهم المذكور إلى كنيسة.

ولاشك أن يهود برقة في العصر الروماني استمروا بمارسون أوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها في العصر البطلمي وخاصة في المدن والموانئ التجارية من مثل طلمية وقورينة وبرنتشي. وقد ذكر يوسف أن حاكم قورينة الروماني ذبح حوالي ثلاثة آلاف من أثرياء اليهود بتلك المدينة في أعقاب فتنة أشعلها يهودها سنة 70 م. ونحن نعتقد أن فتنتهم تلك ما كانت إلا جأوبا مع يهود فلسطين الذين كانوا ثائرين على الحكم الروماني هناك. وقد وجد في برنتشي نقش سجلت عليه أسماء عدد من اليهود الأثرياء الذين كانوا قد تبرعوا لترميم كنيسهم في المدينة. وعلى نقش آخر وجد في هذه المدينة سجل قام أحد الأثرياء اليهود بكسوة أرضية وحوائط المسرح الدائري في المدينة مما يدل على النجاح والتقدم الاقتصادي الذي حققته الجالية اليهودية فيها. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أيضا إن يهود ريف برقة أصابوا شبيئا من الرخاء الاقتصادي وتملكوا الأراضي الزراعية وقطعان الماشية⁴³.

مسلك اليهود في برقة:

أولاً: نقل المؤرخ اليهودي يوسف عن استرابو أن الدكتاتور سُلّا (Sulla) - تولى السلطة سنة 81 ق.م. - عندما كان في طريقه لمحاربة مثراديتس بعث قوة بقيادة لوكولس (Lucullus) لإخماد فتنة قام بها يهود قورينة. ولكن بلوتارك. وهو آدم من استرابو. يشير إلى هذه الحادثة دون أي ذكر لليهود بقوله إن القائد الروماني لوكولس عندما قدم إلى قورينة بناء على طلب رئيسه سُلّا من أجل الحصول على سفن يعزز بها أسطوله⁴⁴. وجد نفسه مضطراً

43- عبد العليم. مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. منشورات الجامعة الليبية. المطبعة الأهلية. بنغازي. يناير 1966. 171 - 182.

44- كانت برقة في هذه الأونة أربع مدن بحرية هي: أبولونيا. طلمية. توكرة. وبرنتشي. ومع أن أساطيلها كانت تجارية فلا بد أنها كانت لها سفن حربية لحماية السفن التجارية من القرصنة.

للتدخل لإقرار الأمن والنظام ووضع حد للاضطرابات التي كانت مستشرية في المدينة قبيل سنة 74 ق.م. ويحاول الدكتور مصطفى كمال عبد العليم⁴⁵ أن يبين نوع تلك الفتنة وأسبابها فيردها إلى الاحتمالات التالية:

- 1- أن إغريق قورينة أرادوا حرمان يهودها من بعض إمتيازاتهم أو منها كلها في أعقاب وفاة بطليموس أبيون عقابا لهم على جرم ارتكوبه.
- 2- أن يهود قورينة ربما كانوا قد انحازوا في الصراع الذي كان مستفحلاً فيها إلى جانب لم يرض عنه الحزب المنتصر على نحو ما فعلوا في الإسكندرية بمصر. فاستحقوا بسلوكتهم ذلك سخط المنتصر وعقابه.
- 3- أن قورينة لم تكن راضية عن حكم البطالمة. الذي كان يهودها ركيزة من ركائزه؛ فلما انتهى عهد البطالمة واستردت المدينة استقلالها بادر إغريقها إلى الانتقام من يهودها.
- 4- أن اليهود ربما كانوا قد أحدثوا الفتنة في قورينة لكي يلفتوا أنظار السلطات الرومانية إلى مدى ما كانوا يتعرضون له من خطر لو استمروا موضوعين تحت رحمة الإغريق.

ونحن نضيف إلى هذه الاحتمالات احتمالاً آخر لا يقل عنها أهمية. ونجمله فيما يلي: إن ملكة يهودا الثانية التي خرجت للوجود على يد سيمون المكابي سنة 143 ق.م. كانت تربطها بمعظم الجاليات اليهودية خارج فلسطين روابط وثيقة أشبه بالروابط القائمة في عصرنا هذا بين إسرائيل والجاليات اليهودية الموجودة خارج فلسطين. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الدولة المكابية كانت في أواخر سني حياتها. وقبل إلغاء بومبي لها سنة 63 ق.م. تقاسي من صراع دام شرس دارت رحاه بين أفراد الأسرة الحاكمة المتطاحنين على السلطة⁴⁶. أفلا يجوز والحالة هذه أن تكون ذبول ذلك الصراع قد امتدت إلى يهود قورينة كرد فعل عاطفي أدى إلى انشقاق الجالية اليهودية فيها لاختلافها حول من هو أولى بالسلطة في القدس؟ وقد نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنّه ربما قدم إلى قورينة بعض من يهود فلسطين في أواخر عهد

45- المرجع السابق نفسه، ص 195 - 196.

46- انظر ص 395 - 396 أعلاه.

الدولة المكابية فجلبوا إليها معهم بذور ذلك الصراع الذي سبقت الإشارة إليه. وعلى أساس هذا الاحتمال فإن ما حدث في قورينة في هذه المناسبة قد لا يعدو كونه صراعاً محلياً بين أفراد الجالية اليهودية نفسها مما سهّل على لوكولس وضع حد له.

ثانياً: يبدو أن السياسة التي سلكها الإمبراطور أوغسطس نحو اليهود والتي سبق أن لمنا طرفاً منها في تصريحه⁴⁷ الذي أقر فيه لهم بامتيازاتهم الطائفية ظلت متبعة بعده حتى حوالي وفاة نيرون سنة 68 م. وفقد تمتعت برقة وغيرها من ولايات الإمبراطورية في هذه المرحلة بفترة من الهدوء والاستقرار مما أدى إلى إقبال الناس على أعمالهم في طمأنينة وبالتالي إلى انتشار الازدهار وعموم الرخاء ولكن تلك النعم لم تدم طويلاً إذ ما لبثت علاقات الرومان باليهود أن تعكرت وقام اليهود بثورتهم الأولى على الرومان في فلسطين سنة 66 م.⁴⁸ وقد ذكر سلوش أن يهود قورينة أسهموا في الدفاع عن القدس كما ذكر يوسف أنه في المراحل الأخيرة من حصار القدس فر بعض زعمائها إلى قورينة وكان بينهم ثلاثة إخوة هم أبناء كاهن القدس الأعظم إسماعيل. ولدى وصول أولئك الإخوة إلى قورينة ألقى القبض عليهم وأعدموا شنقاً. وكانت بين اليهود الفارين من القدس إلى قورينة جماعة من المتدينين المتطرفين يتزعمهم يونثان النساج الذي وصفه يوسف أنه زعيم أشد وبأنه استطاع أن يستميل إليه عدداً غير قليل من يهود قورينة من الطبقة الفقيرة وقادهم إلى الصحراء حيث راحوا يعيثون فساداً في الأراضي المحيطة بقورينة⁴⁹. ويبدو أن بعض الأرستقراطيين من يهود قورينة من الطبقة الثرية ممن كانوا ميالين للهلثة ويستفيدون من تقاربهم مع إغريقها رأوا في تلك الثورة خطراً يهدد مصالحهم وكيانهم فتعاونوا مع كاتلوس (Catallus) حاكم قورينة الروماني. حتى تمكن من إلقاء القبض على يونثان بالدور الذي لعبه ذلك النفر من أثرياء يهود قورينة

47- انظر ص 301. أعلاه.

48- انظر ص 396 أعلاه.

49- عبد العليم، مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 198.

ضده فأراد أن يورطهم في قضيته بأن أبلغ الحاكم أنهم هم الذين خططوا لثورته ومؤلواها. ووجدت هذه التهمة هوى في نفس الحاكم فراح تخير أثرياء اليهود في قورينة وبعدهم. وقد حمل يوسف على كاتلوس ونعى عليه سرعة تصديقه لأقوال يونثان. وعلل تصرفه بأنه كان ناجحاً عن حقه على اسكندر. أحد أثرياء يهود قورينة. ولذلك فإنه أوعز إلى يونثان باتهام اسكندر وزوجته بالتورط في الثورة. ثم أعدمهما بتلك التهمة وراح يمعن في الانتقام من أثرياء اليهود حتى ذبح منهم حوالي ثلاثة آلاف. ولكي يبرر كاتلوس فعلته أوعز إلى يونثان أن يكيل التهمة جزافاً للشخصيات اليهودية البارزة ليس من يهود قورينة فحسب وإنما أيضاً من يهود الإسكندرية وروما. وكان المؤرخ يوسف من بين المتهمين فقد اتهمه يونثان أنه زوده بالمال والسلاح للمضي في الثورة. وعلل يوسف نفسه توجيه التهمة له⁵⁰ بأن المكانة الممتازة التي كان يتمتع بها بعد أن منح حق المواطنة الرومانية أثارت غيرة اليهود وحسدتهم ودفعتهم إلى اتهامه بالخيانة لقضيتهم أولاً ثم إلى اتهامه بالتورط في مساندة يهود قورينة.

وسيق يونثان والأسرى من أتباعه مكبلين في الأصفاد إلى روما حيث قدموا إلى الإمبراطور فسبسيان فأمر بإطلاق سراحهم باستثناء يونثان الذي أمر بتعذيبه أولاً ثم بحرقه.

ما تقدم يتضح لنا أن ثورة يهود قورينة كانت في الدرجة الأولى جأوبا مع ثورة يهود القدس في فلسطين. أما موقف الأرسطوقراطية اليهودية في قورينة، وهو موقف معادٍ فيفسره أمران:

الأول: أنها كانت حريصة على ثورتها وكيانها ومصالحها المتوقفة على وجود علاقات طيبة بينها وبين إغريق قورينة من ناحية ثم بينها وبين السلطة الرومانية الحاكمة من الناحية الأخرى. وقد رأينا أن حاكم قورينة الروماني كان مشككاً في ولاء هذه الطبقة من اليهود بالرغم من محاولتهم إثبات العكس بتعاونها مع السلطة ضد الثوار.

والثاني: أن غلاة اليهود الذين قدموا إلى قورينة هارين من القدس ربما

50- انظر حاشية (1)، ص 396 أعلاه.

كانوا قد حاولوا إقناع الأرسطوقراطية اليهودية في قورينة بالانضمام إلى الثورة تخفيفاً للضغط الواقع على القدس المحاصرة فرفضت الاستجابة لدعوتهم مراعاة لظروفها الخاصة. وكان رفضها الاستجابة لدعوتهم ذلك كافياً لجعل الثوار يعادونها ويتهمونها بالخيانة. وفي رأينا أن هذا الأمر يعينه هو الذي يعلل اتهام يونثان لأثرياء يهود قورينة بالتورط في الثورة كوسيلة للانتقام منهم بيد السلطة الرومانية كما يعلل اتهام يونثان للمؤرخ يوسف بالتهمة ذاتها لأن الأخير كان قد تخلى عن قيادة ثوار الجليل من اليهود بفلسطين واستسلم للرومان وقبِل حق المواطنة الرومانية من دولة كانت تضطهد أبناء جلدته. وزاد الطين بلّة فرافق القوات الرومانية التي كانت تحاصر القدس من أجل كتابة تاريخ تلك الحرب. وهي أسباب أدت مجتمعة إلى اتهام اليهود ليوسف بالخيانة حتى اليوم. وإذن فإن يونثان لم يوجه التهمة إلى الأرسطوقراطيين من اليهود في فلسطين بناء على إعزاز حاكم قورينة الروماني وإنما فعل ذلك تعبيراً عن موقف الثوار اليهود في فلسطين أولاً ثم في برقة ثانياً. وبهذه الدوافع ذاتها أقدم كذلك على اتهام يوسف بالتورط في دعم الثورة الفاشلة على أمل الانتقام منه بيد السلطة الرومانية التي كانت ترعاه. ولعل هذا هو ما جعل الإمبراطور فسبسيان يفرج عن الأسرى من الثوار اليهود بتعذيب يونثان ثم بحرقه⁵¹.

وترتب على هزيمة اليهود في القدس وهزيمتهم في قورينة في السنة ذاتها (70 م.) تغيير السياسة الرومانية نحوهم: فقد بالغت السلطة الرومانية في تقتيل اليهود وتشريدهم ولم تكتف بذلك بل سعت لإذلالهم وذلك بفرض ضريبة نصف وشاقل على كل من كان في سن الثالثة فما فوق من ذكورهم في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية على أن تدفع لمعبد الإله الوثني جوبيتر الروماني بعد أن كان مسموحاً لليهود أن يدفعوها لهيكلهم في القدس. وكان هذا الإذلال وما رافقه من صنوف الضغط وسوء المعاملة بمثابة بذور ثورة يهودية أخرى.

51- قارن هذا التعليق بالتعليق المغاير الذي أورده الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابه: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 198 - 199.

ثالثاً: ولم تلبث الفرصة أن سنحت عندما قام الإمبراطور تراجان بغزو بارتيا فاعنتم اليهود فرصة انشغاله وثاروا في كل من قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا. وكانت هذه الثورة الكبرى الثانية لليهود على الحكم الروماني. ويبدو لنا أن السبب الرئيسي الذي حدا باليهود للثورة من جديد وفي البلدان الخمسة المذكورة هو إلغاء السلطة الرومانية لبعض الإمتيازات التي تعود لليهود أن يتمتعوا بها، وتعمدها إذلالهم بشتى الطرق. وعجزهم عن إعلان الثورة في فلسطين نظراً لأنهم لم يكونوا قد التقطوا أنفاسهم بعد بسبب ما أحقه بهم تيطس من بطش وتشريد. وهدم للهيكل. ومصادرة للأموال والممتلكات. ونظراً للرقابة والحراسة المشددة التي كان الرومان يفرضونها على من تبقى من يهود فلسطين في أعقاب ثورتهم الأولى. ولوجود الجيش الروماني بقيادة الإمبراطور نفسه على حدود بارتيا غير بعيد عن فلسطين. وإذن فإن ثورة الجاليات اليهودية في الأقطار المذكورة لا بد أن تكون قد جاءت نتيجة لمؤامرة مدبرة شاركت في طبخها الجالية الأم في فلسطين بواسطة أفرادها الذين ظلوا ينزحون عن فلسطين بعد سنة 70 م. على شكل جدول مستمر من الهجرة.

وكانت إلى جانب هذه الأسباب أخرى أهمها أن اليهود صاروا يكرهون الإغريق وكل ما هو إغريقي منذ أن حاول الإغريق السلوقيين أن يفرضوا الهلنة عليهم بالقوة. وما كان يؤجج لهيب تلك الكراهية جشع اليهود واشتغالهم بالمراباة وولعهم بالسيطرة على رأس المال. وثمة أمر آخر هو أن ثورة اليهود السابقة في قورينة لا بد وأن تكون قد ألحقت الأذى بإغريق قورينة وبمخالجهم بشكل مباشر مما زاد في كره الإغريق لليهود. ذلك الكره التقليدي الذي انبثق عن كون اليهود ركيزة للحكم البطلمي السابق في برقة. وكانت هذه الثورة اليهودية في برقة عنيفة إلى حد أن الحامية الرومانية عجزت عن إخمادها. واضطر الإمبراطور إلى سحب قوات من أماكن أخرى من الإمبراطورية لتساعد في إخضاعها.

وفي البداية اتخذت هذه الثورة شكل فتنة إما بين اليهود أنفسهم أو بينهم وبين الإغريق ثم تحولت إلى صدام دام بين اليهود والرومان إثر تدخل

الحامية الرومانية لوضع حد للفتنة. ولقد أكدت المصادر المكتوبة أن هذه الثورة لم تقتصر على قورينة وحدها بل انتشرت حتى عمّت مدن برقة وقراها. وإن كانت مركزة في قورينة وضواحيها. كما إن المكتشفات الأثرية أثبتت صحة ما أوردته المصادر المكتوبة. والتف اليهود جميعهم هذه المرة حول زعيمهم وملكهم لوقاس أندرياس «Lukaas-Andreas» لأنهم على ما يبدو لم ينسوا الدرس الذي تعلموه من ثورتهم السابقة والذي أثبت لهم أن تعاونهم مع السلطة ضد بعضهم البعض لا يمكن أن يؤدي إلى ضمان مصالحهم ومراكزهم. فكأنما رأوا هذه المرة أن الضمانة الحقيقية الوحيدة لهم تكمن في اتحادهم وتكاتفهم في وجه الوثنيين الإغريق والرومان. وتمكن اليهود بقيادة زعيمهم المذكور أن يستولوا على مدينة قورينة ويستبيحوها ويحرقوها.. ولم تلبث الجاليات اليهودية الأخرى أن ثارت في كل من مصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا. ومع نهاية سنة 115 م. أو بداية سنة 116 م. كان التعاون تاماً بين يهود برقة ويهود مصر فقد زحف يهود برقة - في شتاء سنة 116 م. على الأرجح - بقيادة زعيمهم واكتسحوا ودمروا وحرقوا كل ما صادفوه في طريقهم حتى بلغوا مشارف الإسكندرية. ولما عجزوا عن اقتحام الإسكندرية انتشروا في داخل مصر وراحوا يؤازرون يهودها في تشديد النكير على الإغريق والرومان هناك. ونحن وإن كنا نجعل التفاصيل العسكرية الخاصة بهذه الثورة إلا أننا نعرف أنها كانت حرباً عنيفة تميزت بالشراسة والوحشية فقد ورد في كتاب لـ«ديوكاسيوس» «Dio Cassius» فصل شرحه «كزيفيلينوس Xiphilinus» بين وحشية اليهود ويصفهم بما يلي: «كانوا يأكلون لحم ضحاياهم من الناس. ويتحزمون بأمعائهم. ويدهنون بدمائهم. ويتدثرون بجلودهم. وكم من ضحية نشروا جسمه إلى نصفين من الفرق إلى القدم! وكم من ضحايا أخرى ألقوا بها للوحوش الضارية وأجبروهم على مصارعة بعضهم البعض حتى الموت! وقد ذهب ضحية هذه الثورة في برقة حوالي مائتين وعشرين ألفاً. وقام اليهود بأعمال وحشية مشابهة في مصر. وأخرى لا تقل عن غيرها وحشية في قبرص بقيادة «آرتيميون» «Artemion» حيث بلغ عدد ضحاياهم حوالي

مائتين وأربعين ألفاً»⁵². ويناقدش «اسكندر فوكس» «Alexander Fuks» مظهر هذه الوحشية فيذكر أن مراجع أخرى أصحاب تلك المراجع لم يكتبوا ما كتبوه بدوافع لا سامية. ثم يذكر أن اليهود تركوا البلاد وراءهم محروقة. وأن ليبيا (برقة) كان من الممكن أن تظل صحراء قاحلة بعد أن قتل اليهود معظم مزارعيها لولا أن الإمبراطور هدرين بذل جهوداً كبيرة وأرسل أعداداً من المستوطنين الجدد لتعميرها. وبعد ذلك يتساءل فوكس عن دوافع اليهود للتصرف على النحو الذي تصرفوا به وعمّا إذا كانت حركتهم تهدف إلى تدمير البلاد والعودة إلى فلسطين. وهو وإن لم يذكر أسباب هذه الثورة فقد أشار إلى بعض أهدافها التي يقول إنه ربما كان منها أيضاً إبادة الوثنيين وألتهتهم. وفي رأينا أن أسبابها الرئيسية كانت سياسية واجتماعية وأنها جاءت تعبيراً عن تعصب اليهود الديني والعنصري.

واهتم الإمبراطور تراجان بهذه الثورة فأرسل قائده ماركيوس توريو في حملة على مصر وبرقة وأحمد بها الثورة في البلدين ف قضى على الثورة في مصر في يوليو- أغسطس (تموز إلى آب) سنة 117 م. واقتحم أسوار قورينة وسحق ثورة برقة. ولا شك في أن العقاب الذي أنزلته القوات الرومانية باليهود كان متناسباً مع الجرائم التي اقترفوها فقد تعرضوا في قورينة وغيرها لحملة انتقامية استهدفت خلعتهم من جذورهم حتى لا يعود بوسعهم القيام بأية ثورة جديدة في المستقبل. ونتج عن ذلك مقتل الكثيرين منهم بينما لاذ آخرون بالفرار إلى الدواخل طلباً للنجاة فالتجأوا إلى القبائل الليبية المناهضة للرومان وأسهموا في تنظيمها وتوجيه مقاومتها الطويلة للحكم الروماني. ويرى بعض الكتّاب أن هذا العنصر اليهودي اجتذب الكثيرين من البربر للديانة اليهودية وأسهم حتى في مقاومة الفتح العربي للشمال الإفريقي فيما بعد. فهذا هو جون رايت يقول في الحديث عن هذه النقطة بالذات: «ظهر في القرنين الخامس والسادس للميلاد في سهول الاستبس على حاشية الصحراء في كل من تونس وطرابلس اتحاد

52- The Journal of Roman Studies, Vol. LXVIII, p. 32 and Vol LI parts I & II, Society for Promotion of Roman Studies, London, 1961, pp. 98 – 104, Aspects of the Jewish Revolt A.D. 115 – 117, by Alexander Fuks.

قوي لقبائل زناتة البربرية وكانت قوته الرئيسية من الهجّانة الذين ربما كانوا يتوغّلون نحو الصحراء بعد سقوط الأمطار الأولى بينما يقضون الصيف في الجبال. وقد سمي جبل نفوسة ذاته باسم عنصر يهودي مهم في اتحاد زناتة. وما زال الاعتقاد سائداً بالتأثير اليهودي. أو حتى القيادة اليهودية هما اللذان كانا السبب في ذلك التماسك غير العادي الذي تميز به اتحاد زناتة إذا ما قورن بغيره من اتحادات القبائل الصحراوية: فاللاجئون اليهود الذين هربوا إلى الصحراء في الجنوب والغرب من برقة بعد ثورتهم هناك سنة 115 م. ربما كانوا نواة الهجّانة الزناتيين الذين كانوا يكرهون الرومان ويناضلون ضدهم في القرون المتأخرة. والملكية الزناتية. الكاهنة داهية. التي حاربت العرب بعنف في القرن السابع الميلادي تحمل اسماً يهودياً ربما كان صورة مبكرة لاسم (كوهن) الشائع حالياً بين اليهود»⁵³.

أما قائد الثورة لوقاس - أندرياس (لوقا أندريا) فلم يعرف كيف كان مصيره وإن كنا نجد إغريق الإسكندرية يمثلونه بشخصية هزلية على مسارحهم تعبيراً عن سخريتهم من آمال اليهود في الخلاص والتحرر⁵⁴. وكان من الطبيعي أن يترتب هذه الثورة وما واكبها من أعمال تخريب وعنّف. ثم ما تلاها من أعمال قمع مضادة أمران رئيسيان: مصير الجالية اليهودية في برقة والجاليات اليهودية التي كانت قد ثارت في نفس الوقت في مناطق أخرى من الشرق الأوسط. ثم مستقبل برقة بعد ما لحقها من تدمير وتخريب. أما بالنسبة للجالية اليهودية في برقة فإننا لا نشك في أن أعداداً كبيرة منها فروا بحياتهم بعيداً عن عين السلطة الرومانية ويدها فالتجأوا إلى دواخل ليبيا بينما التجأ بعضهم إلى طرابلس حيث كانت أعداد منهم قد استقرت بعد مجيئها طلباً للتجارة والعمل في ركب الفينيقيين بينما أثر آخرون أن يتعدوا قدر المستطاع عن برقة فوصلوا إلى بحيرة تشاد وحوض النيجر الأوسط والسنغال وغرب أفريقيا ومناطق أخرى من دواخل القسم

53- Wright, John, Libya, The Nations of the Modern World Series, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, P. 70

54- عبد العليم. مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. المطبعة الأهلية. بنغازي. 1966. ص 204.

الشمالي من أفريقيا والسودان. أما بالنسبة للخراب الذي أحقته الثورة اليهودية بمنطقة برقة فقد أسرع الإمبراطور تراجان ليقيلها من عثرتها وبدأ في الأيام الأخيرة من حياته يرسل المهاجرين إلى منطقة قورينة لإعادة تعميرها. ونحن نعرف أنه عين قبيل وفاته في شهر أغسطس سنة 117 م. عريفاً لمعسكر في أراضي قورينة كان قد أنزل فيه ثلاثة آلاف من الجنود المتقاعدين. وجاء بعده الإمبراطور هدریان فواصل سياسة سلفه الإصلاحية بكل جد ونشاط وأنزل أعداداً من الجنود المتقاعدين في كل من قورينة وتوكرة وأبولونيا ومدن برقة الأخرى⁵⁵. ولقد دلت النقوش الكثيرة التي اكتشفت في قورينة وبعض مدن برقة الأخرى على أن أعمال هذا الإمبراطور قد شملت مجالين أساسيين وهما:

أولاً: مجال العمارة: فقد نشط هذا الإمبراطور في ترميم المعابد واللباني العامة والطرق التي خربت أثناء الثورة. وأعاد إقامة التماثيل التي أزيلت من أماكنها مع إصلاح أو استبدال ما هشم منها.

ثانياً: مجال الاقتصاد: فقد تبين للإمبراطور هدریان أن نسبة كبيرة من القوة العاملة وخاصة المزارعين الإغريق قد قتلوا ودمرت مزارعهم؛ وعلى ضوء ذلك أصدر الإمبراطور قراراً يقضي بإدخال مستوطنين جدد للمنطقة. ولقد نشر مؤخراً نقش يشير إلى أن ثلاثة آلاف جندي مسرح أحضروا إلى مدينة قورينة. ولا بد أن بعض هؤلاء أو غيرهم قد أنزلوا في المدينة الجديدة التي أقامها هذا الإمبراطور وسماها باسمه (هدريانوبولس)⁵⁶. وإن دل هذا شيء فإنما يدل على أن هدریان استقدم كثيراً من المستوطنين الجدد وأنزلهم في مختلف النواحي التي كانت مأهولة قبل قيام الثورة اليهودية. إذ لا يعقل أن يقتصر برنامج الإمبراطور الإصلاحي على مدن بعينها مثل قورينة وأبولونيا وصفصافة والقبة. ولعل من المفيد بهذا الخصوص أن نشير إلى عبارة «مصلح ليبيا» «Restitutor Libyae» التي وردت على نقود هدریان.

55- The Journal of Roman Studies, Society for Promotion of Roman Studies, London, Vol. XL, parts I & II, 1950, pp 87 – 88.

56- عبد العليم، مصطفى كمال. دراسات في تاريخ ليبيا القديم. المطبعة الأهلية. بنغازي. 1966. ص 204 - 205.

ويذكر أيضاً أن خلفاء هدریان تابعوا برنامجه الإصلاحي من بعده لأن عصره وحده لم يكن كافياً لإصلاح الخراب الشامل الذي أحاق ببرقة والذي جعلها «لفترة طويلة من الزمن منطقة شبيهة خالية من السكان. فقيرة جدا في الموارد وفي الإمكانات ولم تجد في إصلاحها وتعميرها بالسكان محاولات من خلف تراجان من أباطرة الرومان. وفقدت وإلى آخر العهد الروماني ذلك الوجه الحضاري الذي اشتهرت به قبل تلك الثورة في التاريخ»⁵⁷.

57- بازامه، محمد مصطفى. بنغازي عبر التاريخ. دار ليبيا للنشر والتوزيع. بنغازي 1968. ج 1، ص 188 - 189.

التنظيم الروماني الإداري والمدني في ليبيا

أولاً: في عهد الجمهورية (146 - 29 ق.م.)

بعد تهديم قرطاجة في أعقاب الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 ق.م. ابتلعت مملكة نوميديا، حليفة روما، معظم الأراضي التي كانت تابعة لقرطاجة ولم يبق منها سوى موقع قرطاجة نفسها ومساحة صغيرة حول ذلك الموقع وبعض المدن الفينيقية مثل يوتيكا التي لم تقف إلى جانب قرطاجة في صراعها مع روما، وقامت روما بضم موقع قرطاجة والأراضي الملحقة به إليها كأول ولاية إفريقية وسمتها «إفريقيا الرومانية» «Africa Romana» وكانت حدودها تبدأ من مصب الوادي الكبير قرب طبرقة وتمتد حتى جنوبي طينة على خليج سرت الصغير (=خليج قابس)، وقد عين سكيبيو أفريكانس حدود هذه الولاية بخندق أمر بحفره بينها وبين الأراضي النوميدية وهو الخندق الذي عرف باسم «Fossa Scipionis» أي خندق سكيبيو. ولكن الرومان كانت وسواسهم تمنعهم من استصلاح هذه الولاية واستعمارها خوفاً من اللعنة التي كانوا يعتقدون بحلولها على قرطاجة. ولذلك فهم لم يفعلوا شيئاً سوى حفر الخندق والقيام بمسح أراضي هذه الولاية ما عدا المدن السبع التي كانت روما قد منحتها حريتها مكافأة لها على تخليها عن قرطاجة أثناء الحرب البونيقية الثالثة⁵⁸. وقد ظلت هذه الولاية على تلك الحالة حتى أيام الإمبراطور أوغسطس الذي كان يتمتع بشجاعة تكفي لتمكينه من إهمال مخاوف قومه ووسواسهم فعمر قرطاجة الرومانية على أنقاض قرطاجة البونيقية واستقدم لها عدداً كافياً من المهاجرين الرومانيين وصارت بعد ذلك عاصمة للولاية بعد يوتيكا⁵⁹.

58- المدن السبع هي: يوتيكا، حدرموت (= سوسة)، لبدة الصغرى (= لمطة)، ثابسوس (= رأس الديماس قرب المهديّة)، إثنولة (= جمّة أو رأس بوطرية)، إسلولة (= إنشيلة شمالي صفاقس) وئوداليس (= عين طلة؟).

59- صفر، أحمد، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار النشر - بو سلامة، تونس، ج 1، ص (297).

أما في ليبيا فإن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس كان مسينسا قد انتزعها من قرطاجة بموافقة روما في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد، وقد ظلت تابعة لمملكة نوميديا حتى سنة 111 ق.م. عندما عقدت روما حلفاً مع لبدة بناء على طلب الأخيرة، ويعتقد أن أوبا وصبراتة حدتا حدواً لبدة وبذلك دخلت هذه الحليفتان الصغيرة تحت نفوذ الحليفة القوية روما، وفي برقة كان بطليموس أبون قد أوصى ببرقة للرومان قبيل وفاته سنة 67 ق.م. فضموها إليهم بين سنتي 75 و 74 ق.م. دمجوها في ولاية واحدة مع كريت وظلت كذلك حتى عهد أوغسطس حينما بدأ الرومان يعتنون باستثمارها، وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وبيزنطية في عهد قسطنطين الكبير ألحقت برقة بالإمبراطورية البيزنطية وظلت حتى فتحها المسلمون.

وفي أواخر العهد الجمهوري في روما أحدث يوليس قيصر بعد انتصاره على يومي عدة تغيرات تنظيمية فجعل من نوميديا الشرقية ولاية إفريقية الجديدة «Africa Nova» وضم لها منطقة طرابلس الساحلية، وكانت الولاية الجديدة تمتد موازية لولاية إفريقية الرومانية ويحدها من الغرب خط يمر غربي عنابة في الجزائر وغربي قالمة ويتجه جنوباً حتى سواحل خليج قابس.

أما ولاية إفريقية الرومانية فقد غير اسمها إلى إفريقية القديمة «Africa Vetus» وظلت رقعته كما كانت، محصورة بين البحر وخندق سكيبيو.

ثانياً: في عهد الإمبراطورية (29 ق.م. - 439 م.)

في سنة 27 ق.م. دمج الإمبراطور أوغسطس هاتين الولايتين القديمة والجديدة في ولاية بروقنصلية أو إفريقية فقط، ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الإمبراطور أوغسطس كان قد اتفق مع مجلس الشيوخ الروماني على اقتسام إدارة الولايات بحيث تكون الولايات المسالمة الهادئة التابعة لمجلس الشيوخ بينما تتبع الولايات الأخرى للإمبراطور، وكانت ولاية إفريقية

البروقنصلية تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الذي يتولى تعيين وال لها برتبة بروقنصل «Proconsul» أي نائب قنصل يشرف على سير الأحوال فيها فكان يشرف على تطبيق القانون داخل الحدود البلدية للمدن ويتولى تطبيقه خارج تلك الحدود. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان البروقنصل معنياً في الدرجة الأولى بشؤون الضرائب. والضرائب الرومانية كانت عبارة عن نوعين: ضرائب مباشرة وضرائب غير مباشرة. ولقد ظل أساس الضرائب المباشرة في منطقة طرابلس يستند إلى الضريبة التي كان يوليس قيصر قد فرضها على لبة - وإن كان من المعتقد أنها خفضت فيما بعد نتيجة للمسح الذي أجري في عهد أوغسطس لتقدير مدى ما كان لكل ولاية من الولايات أن تتحمله من الضرائب. أما الضرائب غير مباشرة فكانت أربعاً:

- 1- رسوم جمركية تفرض على البضائع المستوردة براً وبحراً.
- 2- رسوم وفاة تؤخذ من تركة المتوفى بمقدار 5% وكانت تطبق على المواطنين الرومان فقط.
- 3- رسوم على تجارة جل الرقيق مقدارها 5% من ثمن الرأس الواحد.
- 4- رسوم على تجارة بيع الرقيق مقدارها 4% من ثمن الرأس الواحد.

وكانت هذه الضرائب غير المباشرة خلال على المتعهدين سواء كان المتعهد فرداً أو شركة. خلال القرن الميلادي الأول فيدفع المتعهد قيمة الضرائب ويجبي هو أقصى ما يستطيع جبايته من الأهالي. وقد بذل الإمبراطور أوغسطس جهوداً كبيرة في سبيل القضاء على ما في هذا النظام من عيوب ومساوئ كانت سبباً في الفضائح الكثيرة التي وقعت في أواخر العهد الجمهوري في روما. وفي أيام الإمبراطور فسبسيان (69-79 م.) كان لكل دائرة إفريقية مجلس ولاية «Concilium» له صلاحية تخطي البروقنصل وتقديم الظلامة مباشرة للإمبراطور. وفي عهد تراجان أوقف العمل بنظام المتعهدين في جباية الضرائب غير المباشرة وأصبح يتولى تحصيلها موظفون رسميون تابعون للإمبراطور. وكان مكتب الضرائب الرسمي في لبة يتكون من دائرتين إحداهما مسؤولة عن تحصيل الضرائب المستحقة على البضائع

المستوردة بحراً وعلى الوفيات. والأخرى تختص بتحصيل الضرائب المستحقة على البضائع المستوردة براً وعلى حلب وبيع الرقيق.

ولما كان البروقنصل وموظفوه القليلون لا يستطيعون القيام بالروتين الحكومي جميعه. فإنهم صاروا يعتمدون كثيراً على البلديات وأجهزتها المحلية. وهذا يفسر لنا عدم تدخل الرومان في الشؤون البلدية في المدن الثلاث التي استمرت تحتفظ بنظامها البلدي ودساتيرها البلدية الفينيقية طيلة العصر الروماني. وقد رد الإمبراطور أوغسطس لهذه المدن الثلاث حريتها التي سلبها إياها يوليس قيصر فأبح الآن لا يجوز للبروقنصل أن يتدخل في شؤونها البلدية. وفي القرن الميلادي الثاني رفع مستوى المدن الثلاث إلى درجة مستوطنات «Colonies» وبذلك نالت هذه المدن حقوق المواطنة الرومانية وأصبح سكانها مواطنين رومانيين لهم حقوق ابن روما وعليهم واجباته. وكانت أولى هذه المدن في الحصول على تلك الحقوق مدينة لبة (109-110 م. في عهد تراجان) ثم أوبا (حوالي 150 م.) ثم صبراتة في عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (137-161 م.)⁶⁰ ولقد احتفلت المدن الثلاث بهذا التقدير الذي منحها إياه روما فبدأت تضع صور الأباطرة على عملاتها إعراباً عن اعترافها بالجميل. ولا بد أن نذكر بهذا الصدد أن روما كانت تمنح درجة مستوطنة «Colony» لمدن ولاياتها إرضاء لكبرياء تلك المدن عن طريق إشعارها بأنها صارت عبارة عن أجزاء من مدينة روما نفسها واقعة ليس في روما وإنما خارجها في الولايات المعنية. وإن دلّ تزايد إقبال مدن الولايات على المطالبة بهذا الشرف خلال القرن الميلادي الثاني على شيء فإيما يدل على ارتفاع أسهم شعبية الحكم الروماني. كما أن انتشار تلك الشعبية على نطاق واسع يدل على تزايد أهمية الولايات بالنسبة للعاصمة. ولقد كانت العاصمة نفسها تستفيد معنوياً ومادياً من منح حق المواطنة الرومانية لمدن الولايات؛ فهي كانت تستفيد معنوياً لتزايد شعبيتها بتزايد عدد المدن والجماهير الرومينة. وكانت تستفيد مادياً لأن تلك الجماهير التي

60- بالنسبة لمدن برقة ومسألة اكتساب حقوق المواطنة الرومانية سميت كل من سيرين وتوكرة باسم «Colonia» وذلك على لوح «Tabula Peutingeriana» ولكننا لا نعرف متى منحت ذلك الحق ولا نعرف مدى تأثيره على دستوريهما الداخليين.

كانت تسكن مدن الولايات المرومنة صار ينطبق عليهم قانون تحصيل ضرائب الوفيات الذي سبق الإشارة إليه. أما مدن الولايات نفسها فلم تكن تجني من منحها حقوق المواطنة الرومانية سوى الفائدة المعنوية. وإن كانت هنالك ظروف خاصة تؤدي إلى منح مدينة من ذلك النوع امتيازاً إضافياً يعفيها من ضرائب العقارات وتصبح وكأنها إحدى المدن الإيطالية. وقد تمتعت مدينة لبدة بهذا الامتياز الذي منحها إياه ابنها البار سيبتيموس سويرس مناسبة زيارته لها سنة 203 م. ومن باب العرفان بالجميل سمى أبناء لبدة مدينهم سبتيما «Septimia» وسموا أنفسهم سبتيمين «Septimiani». ولكن تسرعت تحت تأثير ذلك المد العاطف فتعهدت مختارة أن تمد روما مجاناً بكمية سنوية من زيت الزيتون. فلم يلبث هذا التبرع حتى تحول إلى التزام على لبدة. وحقاً لروما تطالب به إن تأخر عن مواعده.

ولما حصلت المدن الثلاث على حقوق المواطنة الرومانية وأصبحت بدرجة مستوطنات رومانية بدأت تغير حكمها المحلية أو على الأصح تغير أسماء تلك النظم. التي كانت لا تزال فينيقية. ولكي تنسجم مع التقاليد الرومانية. وصارت كل مدينة تقسم سكانها إلى دوائر انتخابية على غرار الحال في روما. ولقد سمت لبدة ثمان دوائر من دوائرها الانتخابية الإحدى عشرة المعروفة بأسماء أسرة تراجان اعترافاً بجميله في منحها حقوق المواطنة الرومانية كاملة. وربما كانت تسمية صبراته لدوائرها بأسماء أسرة أنطونيوس بيوس ترجع لسبب ماثل. وكانت الدوائر الانتخابية في كل مدينة تشكل مجموعها الجمعية الوطنية للمدينة. تلك الجمعية التي كانت تتولى القيام بالأمر الشكلي من مثل المصادقة على ما يقدم إليها من مشروعات. والتصديق على المرسومات التكرمية. وانتخاب القضاة من ضمن قائمة أسماء أشخاص جرى ترشيحهم مقدماً. ونتيجة لإصلاحات الإمبراطور ديو فلتيان (285-305 م.) أصبحت منطقة طرابلس ولاية قائمة بذاتها وأصبحت لبدة عاصمة لها.

الحياة في المدن الرومانية

سلكت المدن الثلاث في منطقة طرابلس والمدن الخمس في منطقة برقة على نحو ما سلك غيرها من المدن في الولايات المختلفة فبدأت تقلد روما ليس في نظمها وشرائعها فحسب وإنما أيضاً في كل وجوه حياتها. والمعروف عن المدينة الرومانية أن مركز الحياة فيها هو الفورم «Forum» وهو عبارة عن ساحى مرصوفة ومكشوفة لا تصل إليها وسائل النقل ذات العجلات. وتحيط بها المعابد الرئيسية والأبنية العامة بالإضافة للمكاتب والجوانيت. وبذلك فلإن الفورم كان يقوم بوظيفة المركز الاجتماعي ومركز المعلومات وساحة الاجتماعات الشعبية؛ فكان الرجل يذهب إلى الفورم ليرى أو يسمع ما في مدينته من جديد ولتبادل الأحاديث مع أصدقائه في ظل الأعمدة المحيطة بالفورم أو ليمشى في المساء بين التماثيل المقامة بمرسومات بلدية تكريماً للأباطرة والمحسنين من أبناء المدينة. وكان الناخبون يجتمعون في الفورم للسمع للقضاة أو للتصويت. وكانت منابر الخطابة تقام أغلب الأحيان أمام المعابد الخاصة «روما» من مثل معبد «روما وأوغسطس» في لبدة وباستثناء المعابد كانت أهم الأبنية المقامة على الفورم هي بناء الكوريا «Curia» وبناء الباسيليكا «Basilica». وكانت الكوريا عبارة عن القاعة التي كان المجلس البلدي «Ordo Decuniorum» يعقد اجتماعاته فيها برئاسة القضاة السنويين. أمّا الباسيليكا التي يمكننا أن نقول إنها كانت امتداداً للفورم فقد كانت مسقوفة للوقاية من الشمس والمطر. وكانت تقوم فيها المحاكم والبورصة كما كان يسمح لعامة الشعب بالدخول إليها بحرية فيتسلون بالاستماع إلى المحاكمات. أو المساومات بين التجار. أو المحاضرات العامة.

ولم يكن الفورم المكان الوحيد الذي يمكن للأهالي أن يرتادوه فقد كانت أعداد كبيرة منهم ترتاد الحمامات بعد الظهر محققين لأنفسهم غايتين: واحدة اجتماعية والأخرى صحية. وكان «الروتين» المتبع في الاستحمام هو: حمام حار. حمام فاتر ثم حمام بارد. وكان كل من هذه الحمامات في غرفة منفصلة فالحمام الحار في غرفة تسمى كلداريوم «Caldarium» والفاتر في غرفة تسمى تبيداريوم «Tapidarium» ثم يأتي الحمام الثالث وهو

البارد المسمى فريجيداريوم «Frigidarium» وفيه بركة للسباحة وأماكن للاستراحة يجلس فيها الخارجون من الحمامات الأخرى بعض الوقت قبل الخروج إلى الشارع. وكان المستحم في العادة يبدأ بالحمام البخاري المعروف باسم لكونكم «Laconicum» كما كان المستحمون يدهنون أجسامهم بزيت الزيتون بدلاً من الصابون. وكان الأثرياء منهم يحضرون عبيدهم معهم أو يستأجرون خدم الحمامات لتدليكهم وجفيف الزيت عن أجسامهم.

وكان يتصل بالحمامات عدد من المراحيض العامة المعروفة باسم «فورিকা» «Forica» والتي لا تزال بقاياها قائمة في كل من لبدّة وصبراته وقورينة وكان المواطنون عامة يستعملونها لقاء دفع رسوم ضئيلة على غرار ما هو معروف الآن في دورات المياه في أوروبا. ولما لم تكن المراحيض موجودة في المنازل إلا في قليل من منازل الكبراء والأثرياء. فإن وجود المراحيض العامة كان ضرورة لا غنى عنها.

أما وسائل الترفيه الرئيسية فقد كانت: المسرح. المسرح المدرج وميدان سباق الخيل. وكان المسرح أشبه بقاعة الموسيقى من حيث أن النشاط داخله كان مقصوراً على التمثيل الإيمائي المصحوب بالموسيقى والأوركسترا. وكان الممثل الواحد يقوم بأدوار شخصيات الرواية جميعها إلا أنه كان يغير قناعه بين دور وآخر. وكانت موضوعات مثل هذه التمثيليات تؤخذ من الأساطير الإغريقية كما ان الممثل الإيمائي البار كان يحظى بشهرة واسعة على غرار ما هو الحال في أيامنا بالنسبة لنجوم السينما والمسرح.

وبالنسبة للمسرح المدرج فقد وجد تصوير للنشاط الذي كان يتم عليه في رصيف من الفسيفساء عثر عليه في «فيلا داربوك عميرة» قرب زليطن وهو موجود حالياً في متحف السراي الحمراء بطرابلس. وبصور جانبان من هذه الفسيفساء عملية صيد الحيوانات البرية التي كانت تتم عادة في الصباح في حلبة تحوّل إلى أسبه ما يكون بيقة مكشوفة في وسط غابة. ثم يظهر الصيادون وكلابهم وهم يجهزون على غزال وبقرة وحشية وحمار وحش وعدد من النعام. بينما يظهر دب وثور. ربطا ببعضهما وهما يقتتلان

حتى الموت. وإلى جانبها منظر هذلي لأحد الأقزام وخنزيره الأليف. ومن بين المناظر الأخرى منظر إعدام المجرمين وأسرى الحرب بتقدمهم للوحوش المفترسة. وفي هذا المنظر نرى اثنين من هؤلاء المنكودي الحظ وقد شدا إلى أعمدة خشبية مثبتة إلى عربتي يد. وقد دفعت إحدى العربتين وظهر نمر يجهز على إحدى الضحيتين بينما ظهرت العربة الثانية يدفعها أحد حراس الحلبة نحو وحش آخر. وفي منظر آخر يبدو شخص منكود ثالث يجره أحد حراس الحلبة من شعره ليقتله أمام أسد ضار. وقد فسر أحد الكتاب مناظر الضحايا الثلاث بأنها ترمز لمن أعدموا من الجرامنتيين في أعقاب حملة فاليريوس فستوس «Valerius Festus».

وعلى الجوانب الأخرى من هذه الفسيفساء مناظر للمصارعين الذين أخلت لهم الحلبة بعد الظهر. وهم يظهرون مسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة التقليدية في عصرهم. وكانت العادة أن تجري المبارزة بين متصارعين مسلحين بأسلحة متغيرة. وفي هذا المشهد الذي تصوره الفسيفساء المذكورة تجري المصارعة على أنغام فرقة موسيقية تستخدم طبلًا وبقاً وأرغناً. ويظهر أن عدداً من المصارعين قد انتهوا. وكان المصارع المغلوب يرفع ذراعه اليسرى إشارة لاستسلامه. وأنداك ينظر الحكم إلى القاضي المترس للمكان مسترشداً بقراره الذي كان كثيراً ما يعطي وفقاً لرغبة المشاهدين. فإذا رفع القاضي إبهامه الأيمن إلى أعلى كان معنى ذلك الإبقاء على حياة المصارع المغلوب. أما إذ أشار بإبهامه ذلك إلى أسفل فمعنى ذلك أن على المنتصر أن يجهز على خصمه المغلوب بضربة الرحمة. وقد تستمر المصارعة عدة أيام متتالية فقد اكتشف نقش يرجع إلى حوالي سنة 200 م. وهو يذكر أن عرض مصارعة استمر خمسة أيام متتالية في صبراته. ولكنه يضيف أن ذلك العرض كان أول عرض بهذا الطول يجري في صبراته.

وفي الحديث عن ميدان سباق الخيل أو السيرك «Circus» نذكر أن لبدّة هي الوحيدة بين المدن الثلاث التي كان بها ميدان سباق دائم مرصوف بالحجارة مع احتمال أن كلا من أوبيا وصبراته كان بها ميدان مشابه ولكن مفروش بالخشب. ولا تزال آثار ميدانين مشابهيين قائمة في سيرين وطمبيثة. وكان

السباق الشائع في تلك الأيام هو سباق العربات التي تجرها أربعة من الخيول. وكان يشترك في الدفعة الواحدة عدد من العربات أقصاه اثنتا عشرة عربية تجري عادة سبع دورات حول الميدان باتجاه يعاكس عقرب الساعة. وفي وسط ميدان السباق هذا كانت تشهر على حاملات مرتفعة إما سبع بيضات أو سبع نوافير ماء على شكل سمكة الدلفين أو الدُّخس «Dolphin». ومع نهاية كل دورة حول الملعب كانت تؤخذ بيضة أو تسكر نافورة لإعلام الجمهور بعدد الدورات التي انتهت وعدد الدورات الباقية. وكثيراً ما كانت الحوادث تقع أثناء السباق فتصطدم عربية بأخرى فتحطمها وتتحطم هي عليها صدمة أو عمداً. وقد وجد مشهد يخل هذه الحوادث في أحد القبور في قرقارش. ومّا كان يزيد في حماس المشاهدين للسباق أن الرهان كان مسموحاً به. ولا نخفي إذا افترضنا أن الحال في لبدّة كانت تشبه الحالة في روما والمدن الكبرى الأخرى من حيث أن المتسابقين كانوا يحملون ألواناً مميزة هي: الأحمر أو الأبيض أو الأزرق أو الأخضر. ومن حيث أن الجمهور المشاهد كان ينقسم في حماسه وتشجيعه تبعاً لتلك الألوان. وما ينطبق على لبدّة ينطبق على أوبيا وصبراته وسيرين وطمليثة.

ولعل خير ما يمثل الحياة الاجتماعية في مدن منطقة طرابلس حوالي منتصف القرن الميلادي الثاني هو أبولوجيا أو اعتذار أبوليس «Apuleius». وقبل أن نسرد قصة الأبولوجيا نجد لزاماً علينا أن نعرف بأبوليس لأنه كان شخصية غريبة جديرة بالتصوير. ولد لوسسيوس أبوليس في مدينة مدورا «Madaurs» على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب الغربي من قرطاجة سنة 124 م. من أسرة ثرية عريقة النسب. وتلقى دراسته في مدورا ثم في قرطاجة فأثينا. وبدد الثروة الكبيرة التي ورثها عن أسرته في تنقلاته من مدينة لأخرى. تلك التنقلات التي كان خلالها ينتقل من دين لآخر وينظم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية وقد مارس السحر. وألف كتاباً كثيرة في موضوعات مختلفة من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان. وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في روما وغيرها من المدن. ولو قدر لأبوليس أن يبعث بعد وفاته لسأه أن يجد نفسه مشهوراً بين أبناء منطقتة بسبب أقل أعماله

شأناً وهو كتابه المسمى «الجمار الذهبي». وكان الأسم الأول لهذا الكتاب هو «Metamorphoseon Leбри XI» أي «أحد عشر كتاباً في التحويل» والكتاب عبارة عن توسع غريب في قصة يرويه لوسسيوس البتراسي عن رجل أنقلب حماراً. ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات. والوصف. والحوادث المحشورة فيه حشراً. يتخللها السحر والرعب والفحش في القول. والحديث عن التقوى المرجأ. ويروي لوسسيوس. بطل القصة. كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات. وألقى نفسه أينما حل في جو من السحر. وما جاء في ذلك الكتاب: «وما كاد الليل ينقضي ويبدأ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ. وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مذهول. راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة... والحق إنني لم أكن أرى شيئاً وأعتقد أنه كما أراه في الواقع. بل إن كل شيء بدا لي أنه قد تحول إلى صورة أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة. وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن الحجارة التي قد تعثر بها قدمي تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها. وأن الطيور التي سمعتها تغرد والأشجار والياه الجارية. استحالت إلى هذا الرش والورق ومنايع الماء. من صور أخرى غير هذه الصور. وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام. وأن الجدران ستتكلم وتروي أخباراً عجيبة. وأني سأسمع من فوري وحياً من السماء ومن شعاع الشمس».

وعند هذا الحد كان لوسسيوس قد أصبح مستعداً لأية مغامرة يريدتها ولذلك فهو يدهن جسمه برهم سحري. وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً. ولكنه حين يدلك بنفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً. وتروي القصة بعدئذ ما يلقاه ذلك الحمار «الذي له إحساس الإنسان وإدراكه» من محن. وكان عزاءه الوحيد «أذني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو شديد البعد عني».

وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الأدمية إذا عثر على وردة وأكلها. وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيء. ثم كره الحياة. فلجأ أولاً إلى الفلسفة. ثم إلى

الدين. وألف دعاء يشكر فيه «إيزيس» شكراً بينه وبين إبتهاال المسيحيين إلى أم الرب شبه عجب. ثم يخلق رأسه ويقبل في الطبقة الثالثة من أتباع «أيزيس» المبتدئين ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه «أوزوريس» - أعظم الآلهة - بأن يعود إلى وطنه ويشغل بالقانون.

وقدم أبوليوس في إحدى رحلاته إلى أوبا من مدورا في طريقه إلى الإسكندرية ولكن المرض قعد به في أوبا حيث كان يسكن صديقه وزميله في الدراسة في أثينا سيسينيوس بونتيانوس «Sicinius Pontianus» مع والدته الأرملة الثرية إميليا بوندتيللا (Emelia Pudentilla). وعندما سمع بونتيانوس بمرض أبوليس عرض عليه السكنى معه ومع والدته في منزلهما الواقع على البحر فقبل أبوليس ذلك العرض شاكراً. وكان بونتيانوس يهدف من وراء هذه الدعوة إلى إقناع صديقه أبوليس بالزواج من والدته إميليا حمائية لثروتها من الوقوع في يد زوج غير مرغوب فيه. واحتفظ بونتيانوس باديء الأمر بخبطه هذه سرا حتى حانت اللحظة المناسبة وذلك عندما دعي أبوليس لإلقاء محاضرة في باسيليكاً أوبا. وكانت محاضرتة ناجحة وسعد مستمعوها بما جلى فيها من فصاحة إلى حد أنهم بدأوا يتوسلون إليه أن يقيم في أوبا وأن يقبل أن يصبح أحد أبنائها. وبهذه المناسبة تقدم بونتيانوس بخبطه لصديقه وجح في أقناعه بالبقاء في أوبا وبالزواج من والدته. وبدأ زواجهما سعيداً ولكنه لم يلبث أن تعكر نتيجة المؤامرات التي بدأ أقارب إميليا يدبرونها لأن مظامعهم في ثروتها قد خابت بسبب هذا الزواج. ولذلك فقد شنوا حملة تشهير ضد أبوليس انتهت باتهامه رسمياً بأنه إنما حمل إميليا على الموافقة على الزواج منه بوساطة الساحر. وبموجب تلك التهمة قدم أبوليس للمحاكمة في صبراته حيث وقف يدافع عن نفسه أمام رئيس المحكمة البروقنصل «كلوديوس مكسيموس» «Claudius Maximus» الذي كان صديقاً له. والأبولوجيا هي الخطبة التي ألقاها أبوليس في محكمة صبراته ففي هذه المناسبة. وجلى ذكاؤه وبلاغته بشكل أدهش مستمعيه من أبناء الولاية ومكنه من الفوز بالبراءة. ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن رحل عن أوبا مع زوجته إميليا إلى قرطاجة حيث قضى بقية حياته يمارس صناعتي

الطب والحمامة. وكتابة الرسائل. والخطب. ولكن معظم ما كتبه كان في الموضوعات العلمية والطبيعية. وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريًا نقش عليه باللاتينية الكلمتان: «الفيلسوف الإفلاطوني».

وأبوليس هو الشخصية الأدبية اللامعة الوحيدة التي لها ذكر في منطقة طرابلس في هذه الفترة. ونحن لا نجد أثراً لتلك الفورة الفكرية التي تميزت بها إفريقية الرومانية بشكل عام والتي أدت إلى ظهور كتاب من مستوى رفيع مثل أبوليس نفسه وتيرتوليان (Tertullian) وأوغسطس (Augustine). وهذا يعني أنه بالرغم من وضوح الرومانية الشديدة في المظاهر الخارجية للحياة في المدن الثلاث إلا أننا نجد المحافظة الشديدة تسيطر على الحياة الفكرية كما أننا نجد هذه المنطقة فينيقية أكثر منها رومانية في مجال الأدب والدين وصحيح إن اللغتين واللاتينية طكانتا مستعملتين رسمياً ولكن اللغة الفينيقية كانت أكثر شيوعاً كما أنها كانت لغة التخاطب بين الناس. وبالرغم من إن اللغة الإغريقية كانت تحتل المرتبة الأولى كلغة للمفكرين والأدباء والمثقفين ثقافة عالية. إلا أننا نجد مبادئها الأساسية فقط تدرس في منطقة المدن الثلاثة. فإذا أراد أحد أبناء المنطقة أن يتابع تعليمه العالي كان عليه أن يطلبه في قرطاجة الرومانية أو في روما أو في أثينا. ومن الناحية الدينية أستمرو أبناء منطقة المدن الثلاثة متمسكين بألتهم وطقوسهم الفينيقية وإن كانوا قد بدأوا يطلقون عليها أسماء رومانية فسموا ملكارت هيركوليس وأسموا أشمون أبولو وأسموا عشتار مينرقا وقينوس وهكذا. وظلت هذه الحالة سائدة حتى دخول المسيحية إلى هذه البلاد. فنحن نسمع عن وجود أسقف مسيحي في لبدية في نهاية القرن الميلادي الثاني كما نسمع عن وجود مركز معمداني في كل من أوبا وصبراته وقت انعقاد مجمع قرطاجة سنة 256 م.

الزراعة والتجارة:

كان اقتصاد منطقة طرابلس خلال العهد الروماني يرتكز في الدرجة الأولى على تصدير زيت الزيتون. وبالرغم من أن زيت الزيتون الإفريقي كان

يعتبر ثقيلًا بالنسبة لأغراض الطبخ إلا أن الطلب عليه في تزايد بسبب استعماله للتدليك في الحمامات ولأغراض الإضاءة. ولعلنا نستطيع أن نتصور النطاق الواسع الذي كانت زراعة شجرة الزيتون قد بلغت مع بدء العصر الروماني عندما نتذكر مقدار الغرامة السنوية الضخمة التي فرضها يوليوس قيصر على لبدية والتي كانت عبارة عن عشرة ملايين لتر من الزيت؛ فقد قدر ذوو الاختصاص أن تلك الكمية كانت تعادل إنتاج ما لا يقل عن مليون شجرة من الزيتون⁶¹. ولقد أدى وجود رؤوس أموال رومانية ضخمة في منطقة طرابلس في العصر الروماني إلى تشجيع زراعة شجرة الزيتون وتوسيع الرقعة المزروعة بها. فلما أهل القرن الميلادي الثاني كان جميع الجبل الغربي من ترهونة إلى البحر ومن حافة الجبل إلى وادي ترغلات مكسواً بمزارع الزيتون الكثيفة. ولا نكاد نشك في أن مزارع واسعة من الزيتون كانت تكسوا القسم الشرقي من سهل الجفارة خاصة حول أويا وصبارة. ولقد تم التأكد كذلك من وجود مزارع للزيتون في منطقة الزنتان وفي مناطق مصراته الداخلية. وحول خليج سدرية. ونحن نعرف أن الإمبراطور هدریان شجع البدو على استغلال الأراضي الداخلية التي لم تكن قد شجرت حتى ذلك الوقت فكانوا يشجرونها على حسابهم الخاص مقابل تأمين ملكيتها لهم من ناحية وإعفائهم من الضرائب التي كانت تجب عادة من أشجار الزيتون وكروم العنب من الناحية الأخرى. ولا بد أن هذا التشجيع أدى إلى ظهور إعداد جديدة من المزارع. أما على الساحل فإن المزارع التي كانت شائعة عي المزارع المتنوعة الإنتاج التي كانت تهدف إلى أن تكون مكتفية ذاتياً أو إلى أن تزود الأسواق بالمنتجات المختلفة.

وفي الوقت الذي نرى فيه إن الزراعة كانت تشكل المورد الرئيسي لثروة منطقة طرابلس في هذه الفترة فنحن نعلم أن جارة القوافل عبر الصحراء لقيت تشجيعاً كبيراً نظراً لاستتباب الأمن وانتشار شبكة الطرق الرومانية

61- أنظر أيضاً ديورانت . ول . قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثانية . 1959 . القاهرة ج3 ص31 . حيث يقول : « وجد العرب حين قدموا إلى الشمال الإفريقي في القرن السابع الميلاد أن في وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون » .

المترامية الأطراف. ولذلك فقد نشطت القوافل العابرة للصحراء من أواسط إفريقيا ناقلة الفيلة والعاج والذهب والرقيق إلى صبراته وأويا ولبدية. وإذا تذكرنا أن عدد الحيوانات التي كانت تقتل في اليوم الواحد في المسرح المدرج في روما كان يصل إلى خمسة آلاف. استطعنا أن نكون فكرة عن أهمية المتاجرة في الحيوانات البرية كالفيلة والأسود والنمور التي كان لا بد لها أن تمر في أحد موانئ طرابلس. تلك المواني التي كانت مدخلا للسلع المستوردة من وراء البحر لتسير في الاتجاه المعاكس أي إلى الدواخل. ولقد أثبتت الحفريات التي أجريت في مقابر جرما وجود مصابيح رومانية وأواني فخارية وزجاجية تتراوح تواريخها بين أواخر القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الرابع.

وفي المجال الصناعي لم تكشف الحفريات حتى الآن عن شيء ذي بال باستثناء بعض قطع الأنية الفخارية التي يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الرابع. وهي تدل على أن هذه الصناعة كانت متأخرة وتنتج للاستهلاك المحلي فقط. والصناعة المحلية الوحيدة التي ذاع صيتها في الخارج هي صناعة الجروم «Garum». وهو نوع من المشهيات كان يستحضر من السمك المملح؛ وقد اشتهرت لبدية بهذه الصناعة بشكل خاص.

عصر الانحطاط

بمقتل اسكندر سويرس سنة 230 م. انتهت أسرة سويرس وانتهى معها عهد الأباطرة الإفرقيين وغرقت الإمبراطورية الرومانية في فوضى عسكرية دامت نصف قرن وأوصلت الإمبراطورية إلى حافة الهاوية ما شجع الأعداء المتحرفين خارج حدودها على مهاجمتها. وكان أول ضحايا هذه الحرب الأهلية، التي تعاقب خلالها أكثر من عشرين إمبراطورا على عرش روما، هم أبناء الطبقة البرجوازية من الملاكين والتجار في مدن الولايات المختلفة؛ فقد أدت النفقات العسكرية الباهظة إلى التضخم المالي وبالتالي إلى فقدان النقد لمعظم قيمته الشرائية وركود الحركة التجارية. وارتفعت الضرائب ارتفاعا خياليا لسد حاجة الأباطرة العسكريين ولكن لما أصبحت النقود لا قيمة تذكر لها فان الضرائب صارت عينية. وزاد الحال سوءا أن تحصيل هذه الضرائب صار عملا إلزاميا لموظفي البلديات الذين أصبحوا مسؤولين شخصيا عن تحصيل ضرائب مدنهم ومناطقهم ما حول منصب رئيس البلدية «Decurion» من منصب شرف يعتز به صاحبه إلى عبء بغيض. ثقيل على كاهل من يشغله. ولم تسلم المدن الليبية الرومانية من هذا البلاء بل فاست منه مثلما فاست غيرها من مدن الإمبراطورية واستمرت الحال تسير من سيء إلى أسوأ حتى عهد ديوقلتيان (285-305 م) فتصدى هذا الإمبراطور للمشكلة المستفحلة وحاول إصلاح الوضع المتدهور بإشراك ثلاثة آخرين معه في الحكم. ولكن الفوضى عادة فنشبت من جديد إثر استقالته سنة 305 م. ولم تستتب الأمور إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين الذي واصل إصلاحات ديوقلتيان بكل عزيمة وجد حتى صار يصعب على النزء أن يعزو إصلاحاً معيناً لأحدهما دون الآخر. وفي سنة 313 م. رأى قسطنطين أن حرب الدولة للديانة المسيحية وأتباعها إنما هي حرب خاسرة. فأصدر مرسوم ميلان المشهور الذي أعطى المسيحيين حرية العبادة الكاملة وتعهد بتأييد الدولة لهم. ولكن أمل قسطنطين خاب عندما وجد المسيحيين منشقين على أنفسهم ومختلفين فيما بينهم. ففي الشمال الإفرقي مثلا كان

المسيحيون مختلفين على الموقف الخاص بمعاملة المسيحيين الذين كانوا قد ارتدوا تحت الضغط والتهديد وسوء المعاملة التي كان يلقاها المسيحيون عامة قبل صدور مرسوم ميلان المذكور. ونشأت عن هذا الخلاف كنيسةان أفريقيتان إحداهما كاثوليكية تأخذ بوجهة نظر كنيسة روما القائلة أن المسيحي المرتد يبقى مسيحيا إذا ندم على ارتداده. والأخرى دوناتية - نسبة لزعيمها دوناتس⁶² (Donatus) -. وكانت تتخذ موقفا متشددا وتقول أن المسيحي المرتد لا يجوز اعتباره مسيحيا إلا إذا عمّد من جديد. صحيح أن هذا الخلاف كان خلافاً دينياً في ظاهره ولكنه كان في باطنه وحقيقته قناعا يتستر وراءه الاتجاه الوطني بقدر ما كان نتيجة للاضطراب الاجتماعي والاقتصادي ما جعله يصبح مظهراً من مظاهر الحركة الوطنية وتعبيرا عن الشعور الوطني الذي بدأ يقاوم الكنيسة الكاثوليكية لارتباطها بروما والإمبراطور والعناصر الرومانية الحاكمة.

وعلى هذا الأساس فان الحركة الدوناتية ارتبطت باللغات المحلية فجاء هذا تعبيرا عن مناهضتها للكنيسة الكاثوليكية التي كانت مرتبطة باللغة اللاتينية لغة العنصر الحاكم. وكان من الطبيعية. والحالة هذه. أن تحالف الدوناتية مع الثورة الثقافية لمناطق نوميديا وللطبقات الدنيا من سكان المدن بينما خالفت الكاثوليكية مع الطبقات العليا التي كانت قد صبغت بالصبغة الرومانية من مثل كبار الملاكين والنبلاء من سكان المدن. ولما صارت الكاثوليكية دعامة للأباطرة والحكومة المركزية في إفريقية فان الكنيسة الكاثوليكية صارت بؤرة تتركز عليها الشكاوي الاجتماعية والسياسية. ومن الناحية الأخرى فقد لوحظت صلة رجال الدين الدوناتيين بثورات المزارعين التي هزت أسس النظام الزراعي في نوميديا في الأربعينات من القرن الميلادي الرابع. وهددت بأعمال ماثلة في كل أرجاء الشمال الأفريقي. والواقع أن هذه الحركة إنما قامت في جميع ولايات الإمبراطورية. باستثناء فرنسا. تعبيرا عن

62- كان دوناتس أسقف قرطاجة ومؤسس مذهب الدوناتية الذي ظهر سنة 311 م. وكان أتباع دوناتس يذهبون إلى أنهم هم وحدهم خلفاء الرسل وأنهم يمثلون الكنيسة الكاملة الحقيقية وأن عمادة وسيامة رجال الكنيسة التابعين لروما غير صحيحتين وقد حكم على هذا المذهب وأتباعه بالهرطقة.

ثورة الثقافات المحلية ورفضها للصبغة الإغريقيو - رومانية مما مهد الطريق أمام الإسلام كبديل للإمبراطورية الرومانية⁶³.

ومع مضي السنوات كانت هذه الحركة الدونانية تزداد تطرفا وعنفا وجذب لصفوفها الكثيرين من اللصوص وقطاع الطرق مما أدى بها في النهاية إلى الانحراف عن أوجهها الوطني والتحول إلى أداة تخريب وتدمير مما ألقى أضرارا فادحة باقتصاديات البلاد وعمرانها. ولقد سبقت الإشارة إلى احتمال أن يكون الدونانيون هم الذين حرقوا جرما وخربوها فقضوا بذلك على ملكة الجرامنتيين.

ولقد عجل في انحطاط منطقة المدن الثلاث وتقهرها إن القبائل الليبية المتلاحمة إجمالا مع الحركة الدونانية اغتنمت الفرصة لتهاجم تلك المنطقة ابتداء من منتصف القرن الميلادي الرابع. ففي سنة 363 م. شن الأستوريون (Austurians) هجوما على منطقة لبدة انتقاما لثأر أستوري كانت سلطات لبدة قد قتلتها فقتلوا كل من صادفوه في طريقهم وأحرقوا كل ما وصلت إليه أيديهم. ولم ينقذ لبدة نفسها إلا أسوارها التي كانت لها هيبة في نفوس المهاجمين أدت إلى رحيلهم عنها بعد حصار لم يتعد ثلاثة أيام. وراحت لبدة تستنجد بالإمبراطور دون جدوى ربما راحوا الأستوريون يكررون غاراتهم عليها ثانية وثالثة وفي كل مرة يدمرون ويخربون ويقتلون الناس. ويقطعون الشجر. وقد امتد حصارهم لللبدة في غزوتهم الثالثة طيلة ثمانية أيام رحلة عنها بعدها⁶⁴.

ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة أخذت منطقة المدن الثلاثة تتقهقر

63- The Journal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, article under the title: "Christianity and Local Culture in Late Roman Africa" by Peter Brown., Vol . LVIII, Parts I & II, London, 1968, pp 85 – 95.

أنظر أيضا : وبللارد . جيمس . الصحراء الكبرى . مكتبة الفرجاني . طرابلس . الطبعة الأولى . بيروت 1967 . ص 128 – 147 .

64- أثبتت الدراسات الأثرية أن الخراب الذي حاق بلبدة لم يكن كله من صنع الأستوريين. بل إن كثيرا منه كان بسبب الزلزال الشديد الذي أصاب جميع منطقة وسط وشرق حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 365 م .

وتقفز إلى حد أنها كانت في منتهى الهزال عندما بدأ الغزو الوندالي. والفئة الوحيدة من أبناء هذه المنطقة. التي ظلت منتعشة خلال القرن الرابع والخامس للميلاد هي فئة أصحاب مزارع الحدود الذين ظلوا بعيدين عن الأحداث. في مزارعهم المتعمقة داخل البلاد يعيشون عيشة شبيهة مستقلة بعد انحسار السلطة الرومانية عنهم. وربما لا نخطئ إذا قلنا إنهم ضمنوا أمنهم وسلامتهم تجاه القبائل المغيرة بأن ضلعوا معها أو وقفوا منها موقف الحياد. وتدل آثار الكنائس التي وجدت في مناطقهم من مثل «كنيسة القصر اللوطي» على أن الكثيرين منهم تحولوا للديانة المسيحية في مطلع القرن الميلادي الخامس.

احتلال الوندال لمنطقة طرابلس

(من 439 - 834 م)

- 1- جنسريك 430 - 477 م.
- 2- هونريك 477 - 484 م.
- 3- جونتاموند 484 - 496 م.
- 4- ترانساموند 496 - 523 م.
- 5- هلدريك 523 - 530 م.
- 6- جليمر 530 - 534 م.

الوندال قبائل من أصل جرمانى زحفوا من بلادهم بجوار بحر آزوف فعبروا بألمانيا ثم غالة «فرنسا» واستقروا في أسبانيا - حيث سميت الأندلس باسمهم: وندالوسية - ومن أسبانيا قدموا إلى الشمال الإفريقي سنة 429 م. بقضهم وقضيضهم فكان عددهم بما في ذلك النساء والأطفال ثمانين ألف بينهم عشرون ألف مقاتل. وقصة قدومهم إلى الشمال الإفريقي هي أن الكونت بونيفيس (Boniface) كان حاكما لولاية أفريقية سنة 429 م. وحدث أن اشتد سوء التفاهم بينه وبين الإمبراطورة بلاسيديا (Placidia) نتيجة لمؤامرات منافسة إيتيوس (Aestion). وتطور ذلك الخلاف حتى خلع الكونت بونيفيس طاعة روما ودعا الملك جنسريك (Genserik). ملك الوندال في أسبانيا للقدوم إلى أفريقية ومساعدته. ولما كان جنسريك ينتظر مثل هذه الدعوة فإنه لبها فوراً وخف لنجدة الكونت. وبعد نزول جنسريك في الشمال الإفريقي زال الخلاف بين الكونت بونيفيس والإمبراطورة بلاسيديا وحل بينهما الوئام فطلب الكونت من جنسريك الانسحاب من البلاد ولكن الأخير لم يكن ليقتنع في حال من الأحوال بأن ينسحب من إفريقية ما دعا الكونت بونيفيس إلى الإقدام على محاولة طرده بالقوة؛ وعندما فشلت المحاولة وجد الكونت نفسه مرغماً على مغادرة البلاد سنة 431 م. وحاول

الإمبراطور فالنتيان الثالث أن يروج لفكرة تبعية الوندال له من باب التشبث بمظاهر السلطة ولكن الحكم الروماني في الشمال الإفريقي كان في الواقع قد انتهى فعلاً عندما استولى الوندال على قرطاجنة سنة 439 م. ومنذ البداية شكل الوندال طبقة عسكرية حاكمة صغيرة وفرضوا أنفسهم على شعوب عربية في الشمال الإفريقي حيث راحوا ينظمون شؤونهم الذاتية على أساس الحكم شبيه العسكري الذي كانوا قد جلبوه معهم. ولكنهم لم يحاولوا قط أن يغيروا النظام الإدارى الروماني الذي كان سائداً بين شعوب المنطقة بل تركوا تلك الشعوب تحكم نفسها حكماً ذاتياً على خير ما نهياً لها. وكان الوندال أثناء جوالهم قد اعتنقوا المذهب المسيحي الاسكندري المنسوب إلى أريوس (Arius) الإسكندري المتوفى سنة 336 م - وهو مذهب كان مناهضاً لكنيسة روما ولهذا فقد حكم عليه بالهرطقة - ولذلك السبب فإن الوندال كانوا أعداء أعداء للمذهب الكاثوليكى فراحوا يضطهدون الكاثوليك في الشمال الإفريقي ويصادرون ممتلكاتهم الدينية والخاصة وينفون رجال الدين الكاثوليك. ومن الناحية الأخرى فإنهم اعتبروا الدوناتيين حلفاء طبيعيين لهم ضد الكاثوليك بالرغم مما في مذهب الدوناتيين من الأصول الدينية الأرثوذكسية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية في روما بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات والمناقشات بينها وبين أتباع الكنيسة الدوناتية قد اعتبرت الدوناتيين هراطقة خارجين عن القانون سنة 411 م. وجردهم من حقوقهم وممتلكاتهم بناء على ذلك الاعتبار. ولكن الوندال الآن أعادوا للدوناتيين كل ما كانوا فقدوه وعوضوهم عما كانوا خسروه. على حساب منافسيهم الكاثوليك المضطهدين.

وبالنسبة لمنطقة المدن الثلاثة فإن الوندال لم يعلقوا عليها أهمية اقتصادية أو استراتيجية كبرى. وهم في الواقع لم يحتلوها فعلاً إلا حوالي سنة 455 م. عندما جهزوا جيشاً كان فيه كثير من النوميديين واستولوا على طرابلس وجزر البحر المتوسط ودخلوا إيطاليا واستولوا على مدينة روما نفسها واستباحوها مدة خمسة عشر يوماً عادوا بعدها إلى قرطاجنة ومعهم كثير من الأسرى والسبايا اللواتي كانت بينهن الإمبراطورة نفسها

وابنتاها. وحتى بعد هذا التاريخ فإن احتلال الوندال لمنطقة المدن الثلاثة كان احتلال غير مباشر. ويجدر بنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن الوندال لم يخلفوا لنا ما يدل على احتلالهم للبدية سوى عدد من قطع النقود وجدت في سوق المدينة. وفيما عدا إقامة حرس قليل العدد في لبدية فلا يبدو أن الوندال بدلوا أية محاولة لإعادة تنظيم الدفاع عن هذه المنطقة بل بالعكس فإنهم قاموا بهدم أسوار لبدية وصبراتة وربما أوبا أيضا تنفيذا لسياسة ملكهم جنسريك التي كانت تهدف إلى هدم جميع التحصينات للحيلولة دون استفادة القبائل المحلية منها في حالة قيامها بثورة على الحكم الوندالي. وحتى يتجنب جنسريك خطر قيام القبائل البربرية الشرسة بالثورة على حكمه أوجد لها متنفسا يمكنها من التعبير عن شرستها لمصلحتها ومصحة الوندال وذلك بأن أشركها في حملات القرصنة التي كان يشنها على جزر البحر الأبيض المتوسط وساحله الأوروبي. وفي أعقاب كل حملة كانت الأسلاب والغنائم تفرغ في قرطاج وتوزع تحت نظر الملك جنسريك وإشرافه المباشر. وقد أدت هذه السياسة تجاه القبائل الليبية إلى إراحة الوندال. ولو إلى حين. من شرها. وإلى جعلها في الوقت ذاته تابعة لجنسريك وخاضعة لأمره. ولكن هذه السياسة كانت ذات حدين فقد ظلت مفيدة للوندال ما دامت فرص القرصنة والسلب والنهب قائمة. ولكن عندما انتهت القرصنة الوندالية انعكست الآية وانقلبت تلك القبائل البدوية البربرية منذ موت جنسريك سنة 477 م. ترضى غرائزها البدوية العنيفة بالسلب والنهب والتخريب في داخل البلاد ذاتها مما أدى إلى انهيار النظام الروماني وإحلال الفوضى وأعمال العنف بدلا منه؛ وأدت تلك الفوضى بدورها إلى إحياء السكان الوطنيين للنظام البدوي القبلي الذي كانوا قد اعتادوا عليه قبل قدوم الرومان في المنطقة. فعاد ذلك النظام - الذي كان بلائم البيئتين الطبيعية والاجتماعية وبلائم العقلية البدوية - إلى أصله بمجرد اضمحلال النفوذ والنظام الرومانيين وحلت بذلك إفريقيا البربرية أي الليبية محل أفريقيا الرومانية. وكانت النتيجة الاقتصادية المحتمومة هي تخريب مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي كان الرومان قد استصلحوها.

وزحف الصحراء على حساب العمران. ومسؤولية هذا الخراب وتلك النكبة الاقتصادية لا تقع على عاتق جنسريك وقومه وحدهم بل تقع على عاتق القبائل البدوية البربرية كذلك. والواقع إن جنسريك لم يوجه ضربه القاسية إلا لأفراد الاستقراطية الرومانية سواء كانوا من رجال الدين أو من غيرهم أما الفلاحون فإنه لم يمسسهم هو وقومه بسوء لأنهم كانوا يرون فيهم ركيزة للازدهار الاقتصادي وبالتالي مصدرا ممتاز للدخل. ولكن جنسريك وقومه قصروا تجاه هؤلاء المزارعين في أمر جوهرى هو أنهم لم يؤمنوا لهم الحماية الكافية من غارات القبائل البدوية وهجمات الدوناتيين والعناصر المتطرفة والمتحالفة معهم من مثل الدوارين وغيرهم. وإذن فإن القضاء على الفلاحين والفلاحة وإحلال الصحراء محل المزارع والعمران إنما جاء نتيجة لغارات القبائل المحلية؛ تلك الغارات التي بلغت أوج عنفوانها في أيام الملك الوندالي الثالث والتي أدت إلى مقتل أعداد كبيرة من الفلاحين وهرب من استطاع الهرب منهم إلى أماكن أخرى يجدون فيها الأمن والطمأنينة.

ولقد أتضح ما كانت سياسة جنسريك في هدم التحصينات تنطوي عليه من حماقة عندما جرد ليو البيزنطي سنة 468 م. حملة ضد جنسريك للقضاء على حركة قراصنته التي كان إرهابها قد امتد إلى الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. إذ بالرغم من أن القوة الرئيسية من الأسطول البيزنطي قد حطمت أثناء مهاجمتها لقرطاجة إلا إن مفرزة صغيرة من ذلك الأسطول كانت قد وجهت بقيادة هراكليوس (Heraclius) ضد منطقة المدن الثلاثة تمكنت بسهولة من الاستيلاء على المدن الثلاثة لأن الوندال. كما تقدم. كانوا قد هدموا أسوارها وتحصيناتها. وقد طردت تلك القوة البيزنطية الصغيرة الحرس الوندالي من المدن الثلاث وظلت تحكمها دونما معارضة مدة ثلاثة سنوات ثم انسحبت تلقائيا.

ظهور القبائل الهجانة:

نجحت سياسة جنسريك في استقطاب القبائل الليبية ومسالمتها للوندال طيلة حياة ذلك الملك. وما إن توفي جنسريك حتى بدأت القلاقل

والاضطراب تدب بين تلك القبائل التي كانت مع هذه المرحلة قد أتقنت استخدام الجمل في السلم والحرب مما زاد في سرعة حركتها ومقدرتها على المناورة وعلى مفاجأة العدو وضربه. وبيدوا إن أول من ساعد على تربية الجمل وانتشاره في الشمال الأفريقي هو الإمبراطور سبتيميوس سويرس. ابن لبدة لأنه رأى أن الجمل «سفينة الصحراء» كان ضروريا لاقتصاد منطقة طرابلس. تلك المنطقة التي كان الإمبراطور يحيطها بعنايته. والتي كان اقتصادها التجاري يعتمد إلى حد كبير على قوافل الصحراء التي كانت بمثابة همزة وصل بينها وبين غدامس وجرما وأواسط أفريقيا. ولهذا فان تربية الجمل كانت قد بلغت شأواً بعيدا في منطقة طرابلس لدى استيلاء الوندال على الشمال الإفريقي. وأول ثورة خطيرة قامت بها القبائل الهجانية في منطقة المدن الثلاث واستخدمت فيها الجمل في القتال بنجاح كانت في عهد الوندال الرابع ترانساموند (Transamund). وكان يقود القبائل الليبية في هذه الثورة واحد من أذكى رؤسائها وأنشطهم اسمه كاباون⁶⁵ «Cabaon». وكانت هذه الثورة عنيفة إلى حد أن الوندال اضطروا لإرسال حملة من قرطاجة لإخضاعها. وما يلفت الانتباه في هذه الثورة ذلك الدور البارز الذي لعبته الجمال فيها والذي سنبرزه بعد قليل. لقد علم كاباون بأن الوندال كانوا في طريقهم إليه من قرطاجة فراح يستعد لمجابهتهم. ومن أجل ذلك فرض على أعوانه أشد أنظمة التفتيش من مثل فصل الرجال عن النساء والتهديد بإعدام من يخرج عن تلك التعليمات. وفي الوقت ذاته بعث أعدادا من عملائه السريين إلى قرطاجة وأمرهم أن يقتفوا أثر الحملة الوندالية وأن يصلحوا أية أضرار تلحقها تلك الحملة بالكنائس الكاثوليكية وعند مرورها بها. ولم يكن عمل كاباون هذا صادرا عن إيمانه بالكنيسة الكاثوليكية بل عن نظريته المصلحية؛ فقد عرف عنه أنه كان يقول إنه مع جهله بالألوهة الذي كان النصراني الكاثوليك يبعده عنه إلا انه كان يرى أن ذلك الإله - إن كان قويا كما قيل عنه - فلا بد أن ينتقم من الذين يتطاولون عليه أو ينالون منه. ولا بد أن يدافع عن الذين يمجدهونه ويقدمونه.

65- لعل بين هذا الاسم وقربة « كاباوا » في جبل نفوسة شيئا من الصلة .

ويخبرنا المؤرخ البيزنطي بروكبيس (Procopius) أنه عندما اقترب الوندال أمر كاباون بجماله فأنيخت خلف بعضها البعض في اثنتي عشر دائرة مركزها واحد. ثم انه وضع في الفراغ الداخلي حول مركز هذه الدوائر جميع الأمتعة والنساء والأطفال وأمر رجاله بأن يقفوا بين الجمال برماحهم الطويلة. وتروسههم. وقسيهم. وحيال هذه الكتيبة الصلبة لم يستطع فرسان الوندال بسيوهم وحرابهم القصيرة وخيولهم أن يفعلوا شيئا. خاصة وأن الخيل نفرت من الجمال ولم تجرأ على الدنو منها بدرجة كافية. وهكذا وقع الوندال فريسة للنبال الليبية التي راحت تنهال عليهم والرمح الطويلة التي كانت تنوشهم فوق الكثير منهم صرعى وقتل الكثيرون وهم يحاولون الفرار وانتهت حملتهم بهزيمة مخزية لهم ونصر مؤزر لليبيين.

وما يؤخذ على بروكوبيس في سرده لقصة هذه الثورة الليبية هو انه لم يذكر اسم القبيلة الليبية التي قامت بها برئاسة كاباون. والمرجح أن قبيلة الهيلاجواز (Hilaguas) هي التي تزعمت الثورة وبدأتها ثم انضمت إليها أعداد كبيرة من قبيلة لواته البربرية. التي كانت تنتشر في منطقة طرابلس. لمؤازرتها في وجه الحملة الوندالية المنتظرة. وقد تمكنت لواتة بين سنة 527 م. وسنة 533 م. من هزيمة الوندال مرة ثانية في منطقة المدن الثلاثة. وفي هذه المرة قامت لواتة باستباحة لبدة وبنهبها ثم غادرتها مهجورة خربة. وكان عجز الوندال عن القضاء عن المقاومة الليبية إيذاناً بقرب انتهاء عهدهم المظلم إن كان تميز بشيء فيما تميز بالعنف والقسوة. وبالتدمير والتخريب.

الفصل السادس
ليبيا في العصر البيزنطي

ليبيا في العصر البيزنطي

موجز تاريخ البيزنطيين:

نبتت فكرة تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور ديوقلتيان في أواخر القرن الميلادي الثالث وفي أعقاب نصف قرن من الفوضى العسكرية والحروب الأهلية. وكان ديوقليان نفسه يعتبر الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها. وقد أحس القوم منذ أيام القيصرية الأولى بضرورة وجود وزير لاتيني وآخر يوناني. ومضى ديوقلتيان في تنفيذ هذا التقسيم الأساسي إلى ابعد من ذلك حينما أمر أن يكون للإمبراطورية إمبراطوران اثنان يقيم أحدهما في شطرنج من شطريها ويقوم الثاني في الشطر الآخر. ولكي يتجنب المشاكل التي كانت عادة ترافق انتقال العرش. جعل لكل إمبراطور قيصرًا يساعده ويكون وريثه بعد موته. وفي الوقت ذاته أعيد تقسيم الولايات وتنظيمها فقسمت الإمبراطورية إلى إيلات كبرى (هي: غالة (فرنسا)، إيطاليا، إيريا (البلقان)، والشرق؛ ووضعت كل إيالة تحت إمرة حاكم برايتوري (Praetorian Prefect) كان أعلى موظف في الدولة وكان بمثابة نائب للإمبراطور ولكن مركزه في الأيالة. وكانت بيده سلطات إدارية ومالية وقضائية مطلقة ولكن لم يكن له سلطان على الجيش. وكان هذا الحاكم العام يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقًا على كل دوقية، وكانت الدوقية تقسم إلى أبرشية أو أكثر يتأسس كلا منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية. وقد ظل هذا التقسيم الإداري قائمًا طيلة الفترة التي ندرسها أي حتى القرن الميلادي السابع عندما قسمت الإيالات الكبرى الأربعة إلى تسعة وعشرين إقليمًا (Theames) وصار الاستراتيجوس (Strategos) أي قائد الإقليم يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية في إقليمه. وبالإضافة للإيالات الأربعة الكبرى كانت هناك إيلتان أخرتان هما إيالة أسيا وإيالة أفريقية وكان على رأس كل واحد

منهما حاكم عام بلقب بروقنصل وله حق الاتصال المباشر مع الإمبراطور.

وفصل ديوقليان السلطة المدنية عن العسكرية فأنشأ إلى جانب التنظيم المدني تنظيماً عسكرياً ضخماً وكون جيشاً إمبراطورياً سريع الحركة، ولكي يضمن استقراراً للمجتمع. وضماناً لانتظام دخل خزينة الإمبراطورية من الضرائب فإنه بعث من جديد فكرة الإمبراطور أوريليوس ووضعها موضع التنفيذ حينما أمر بأن يلتزم كل ابن حرفة أبيه ولا يتزحزح عنها أبداً كانت. ولكي يتخلص من خطر النبلاء بدأ يشكل جيشه من أبناء الطبقة المتوسطة دون النبيلة. ثم انه حاول أن يثبت النقد على ما كان عليه أيام أوغسطس فأصدر عملة من ذات الوزن الكامل ولكن ذلك أدى إلى عكس ما كان ينتظر منه أي ارتفاع الأسعار؛ مما حمل ديوقليان على إصدار مرسومه الشهير سنة 301 م. والذي حددت بموجبه أسعار السلع كل على حدة.

أما فيما يختص بعلاقة الإمبراطور برعاياه فإن ديوقليان كان يرى أن من الأصلح للإمبراطور والرعية أن يصبح الإمبراطور نص إليه وقد أدى به ذلك إلى الاصطدام مع أتباع الديانة المسيحية من رعاياه واضطهادهم.

بهذه التنظيمات بذر ديوقليان بذرتين لم تلبثا أن نمتا وشكلتا الاتجاهات الأساسية للإمبراطورية فقد أثمرت أحدهما تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية وأثمرت الأخرى إرساء قواعد الحكم الأوتوقراطي المطلق في الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ أن الحكم الدياركي (Dyarchy) أي الثنائي الذي أقامه الإمبراطور أوغسطس جاعلاً من مجلس الشيوخ الروماني شريكاً له في الحكم لم يدم كثيراً وإن كانت آخر آثاره لم تنزل من الدولة إلا في نهاية القرن التاسع. وواقع الحال أن الإمبراطور صار منذ أيام ديوقليان يحكم البلاد بمفرده فكان هو السلطة العليا في البلاد وأعلى مرجع فيها. وكان يستطيع تعيين جميع الوزراء وعزلهم بمطلق إرادته كما كانت بيده مقاليد التصرف المطلق في الشؤون المالية، وكان التشريع محصوراً فيه وحده. وصار هو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية في الإمبراطورية، وهو فوق ذلك رئيس الكنيسة والقسيس الأعلى للإمبراطورية. وكانت سياساته ونزواته هي التي

تصوغ مصير الملايين من رعاياه.

وكان حق انتخاب الإمبراطور محصوراً في مجلس الشيوخ «السيناتو» وفي الجيش. وشعب القسطنطينية؛ فكان لا بد من موافقة هذه الجهات الثلاثة على تولي الإمبراطور للحكم ليكون نائباً لله شريطة أن يحكم وفقاً للقانون الروماني. ولكن متى تمت تلك الموافقة وتم تتويج الإمبراطور فإنه يصبح حاكماً مطلقاً ما دام حائزاً رضا الناس. فإذا ظهر أنه غير قادر على مهام منصبه جاز لأي واحد من الجهات الناخبة الثلاث أن تعزله وتعلن بدلاً منه إمبراطوراً جديداً. وكان الذي يقوم بذلك عادة هو الجيش أو فريق منه. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان يحق للإمبراطور بعد انتخابه وتتويجه أن يضم إليه في الحكم أباطرة آخرين يختارهم هو.

أما مجلس الشيوخ فقد بلغ أوج ازدهاره في القسطنطينية في القرن السادس والسابع للميلاد، وهو إن كانت القسطنطينية قد ورثته عن روما إلا أنه لم يكن ماثلاً لسناتوا روما القديم رغم أنه منح امتيازات الأخير جميعها بما فيها حق الانتخاب سنة 390 م. ذلك أن السناتو البيزنطي كان يتألف من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين من كانوا فوق مستوى معين. ثم من ذريتهم؛ فكانه كان بذلك هيئة غير محددة الشكل تجمع بين ذوي النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز المسئولة في الإمبراطورية. وبذا فإن سلطانه في الواقع كان ينحصر في أنه هيئة شبيهة دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها.

وجاء قسطنطين الكبير (توفي سنة 337 م.) فواصل السير على خطة ديوقليان وأنشأ عاصمته الجديدة القسطنطينية على موقع قرية بيزنطة الإغريقية. وقد أصبحت العاصمة الحديثة صورة جديدة لروما القديمة فحق لمؤسسها أن يسميها «روما الجديدة» وإن كانت تختلف عن القديمة في أنها أصبحت عاصمة مسيحية ليست لها الارتباطات الوثنية التي كانت لروما. ولقد تأكدت في العاصمة الجديدة من البداية المبادئ الأساسية الثلاثة للإمبراطورية البيزنطية: التقاليد الإمبراطورية، الكنيسة الأرثوذكسية والثقافة الإغريقية؛ وقد كانت هذه هي القوى الثلاثة الدائمة التي ظلت

توجه الحكم والدين والأدب في الإمبراطورية البيزنطية، وكانت الخطة الكبيرة الأخرى التي اتخذها قسطنطين الكبير بعد بناء القسطنطينية هو الميل نحو الديانة المسيحية. ذلك الميل الذي أدى خلال القرون الثلاثة التالية إلى إقامة وحدة وثيقة بين الكنيسة والحكومة في ظل الإمبراطور مما أدى إلى خلق الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية على أسس مغايرة في مجموعها ومحصلتها لتلك التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية الغربية تحت زعامة روما، ولذلك فإن الفترة بين قسطنطين وهرقل (توفي عام 641 م) تعتبر مرحلة تكوينية راحت بيزنطة خلالها تبتعد تدريجيا عن روابطها بالغرب حتى اتخذت، بعد القرن الميلادي السابع في الشرق الأدنى وبعد التفاعلات الداخلية في بيزنطا نفسها، الطابع التاريخي الذي تميزت به.

ويعتبر حكم ثيودوسيوس الكبير (379 – 390 م) نقطة تحول في هذه الفترة: فهو آخر حاكم مفرد امتد سلطانه على سائر الإمبراطورية الرومانية بحدودها الأصلية، وبعد وفاته بجيل كانت القبائل المتبريرة قد استولت على بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وأفريقية. وفي عهد ابنه أركاديوس وهنوريوس انفصل نصف الإمبراطورية الشرقية والغربي عن بعضهما انفصالا فعلياً لم يتحدا بعده حقيقة وأن أخذتا اسمياً. وكان عهد قسطنطين واضح الأثر في تقرير نوع ومدى علاقة الكنيسة بالدولة فقد أصدر هو وشريكه الإمبراطور ليسينيوس بياناً هاماً سنة 313 م. يدعو إلى التسامح تجاه العقيدة المسيحية وأصدر مجمع نيقية تحت تأثيره بياناً سنة 325 م. ندد فيه بأريوس. أسقف الإسكندرية الذي كان ينادي بوحداية طبيعة المسيح. وكان ابنا قسطنطين قد ربا تربية مسيحية ولذلك فإن قسطنطينوس الثاني (337 – 361 م) تبنى تفسيره الخاص للعقيدة المسيحية وان كانت قوة المعارضة قد ظهرت جلية في عهد يوليان المرتد (361 – 363 م). وأظهر حلفاء يوليان المرتد حذراً وحكمة فيما يتعلق بالمسائل الدينية. ولم تصبح الإمبراطورية الرومانية دولة مسيحية أرثوذكسية رسمياً إلا في عهد ثيودوسيوس الأول الكبير. ومنذ ذلك الحين انتهى عهد التسامح المشروع تجاه

الوثنية والوثنيين. وفي الوقت ذاته لم يسمح لأتباع أريوس⁶⁶ بنشر مذهبهم داخل الإمبراطورية مما جعلهم يتجهون بدعوتهم إلى القبائل البربرية الغازية. وفي عهد ثيودوسيوس الثاني أنزل هذا الإمبراطور بالوثنيين سنة 431 م. ضروباً شتى من التعجيز السياسي والحرمان من الحقوق حتى إذا وافق سنة 438 م وجدناه يدعي أنه لم يبق منهم احد في الإمبراطورية.

وتعددت البدع والدعوات خلال القرن الميلادي الخامس وتبلور الخصام الديني على شكل نزاع مثلث بين القسطنطينية وروما والإسكندرية. وتمكنت روما والقسطنطينية في مجلس خلكيديون سنة 451 م. من هزيمة الإسكندرية

66- الأريوسية نحلة جديدة ظهرت في الاسكندرية وكانت مرتبطة بطبيعة المسيح. فالعروف أن الكنيسة المسيحية منذ نشأتها تعتقد بوجود ثلاثة أقانيم: الأب والابن والروح القدس، وأن هؤلاء الثلاثة ليسوا الا واحداً في الجوهر. غير انه ظهر في الكنيسة من حين لآخر أناس يخالفون هذه العقيدة، فكانت الكنيسة الكاثوليكية. وهي كنيسة الدولة، حكمت عليها بالهرطقة. وكان من جملة هؤلاء سابيلوس (القرن الميلادي الثالث) أسقف ليبيا الذي قال ان اللوجوس (الكلمة) هو المسيح وانه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه في ذلك شأن الأب والروح القدس. منكرًا بقوله ذلك التمييز بين الأب والابن والروح القدس. وكان منهم أيضاً أريوس الذي كان على رأس كنيسة صغيرة في الاسكندرية سنة 318 م. وكان آنذاك شيخاً معروفاً بالتصوف متمتعاً باحترام عدد كبير من الاتقياء والصالحين. وكان أريوس قد تعلم في حداثته سنة في أنطاكية بسوريا المذهب العقلي الذي يقول إن «الكلمة التي أخذت بالمسيح ليست من نفس جوهر الرب وإن المسيح ليس الا مخلوقاً. جاء من العدم، لا من نفس المادة الإلهية. وأنه مر عليه وقت لم يكن موجوداً. وأنه تبعاً لذلك ويوصفه ابن الله لا يشترك الرب في شيء ولا يشبهه في شيء لأن الله ليس له شبيهه». كان أريوس بذلك يرمي إلى تأكيد وحدانية الله وقد فاتته انه انما وضع المسيح في مرتبة ثانوية وجرده ما اتصف به من انه منقذ للعالم فمحا فكرة المسيحية الأساسية وهي فكرة الخلاص.

واختلف أريوس عن سابيلوس في أن الأخير كان يعتقد بالوهية المسيح بينما كان أريوس يرى غير ذلك. وأدت دعوة أريوس هذه إلى انقسام كنيسة الاسكندرية بين مؤيد ومناهض. فاعتقد بها سنة 320 م مجمع شهدته نحو مائة قسيس وأسفر عن اتخاذ قرار بحرمان أريوس وعزله كما أمر يعزل جماعة من القسس والشمامسة الذين تمسكوا بأرائهم الأريوسية. إثر ذلك غادر أريوس مصر إلى فلسطين حيث راح يدعو لمبدئه ما أدى إلى اتساع الخلاف حتى شمل جميع الكنائس المسيحية. وعند هذا الحد تدخل الامبراطور قسطنطين لتسوية النزاع ف عقد مجعاً مسكونياً في نيقية سنة 320 م انتهى بإدانة أريوس وسجنه وتحديد العقيدة الأرثوذكسية باعتبار المسيح الابن من نفس مادة الأب أي أنه يستمد صفة الألوهية من الرب. ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد فقد اضطر الامبراطور قسطنطين فيما بعد أن يفرج عن أريوس بل ويبدأ يميل إليه فانبعث النزاع الديني من جديد وكان محوره مسألة «كيف يجتمع في شخص المسيح الطبيعتان الإلهية والبشرية».

والقضاء على خطر زعامتهم الدينية ولكن مصر وسوريا ظلنا تؤيدان مذهب الإسكندرية في القول بوحدة طبيعة المسيح متخذين الخلاف الديني ستارا لمقاومة الحكومة المركزية. وظل الأباطرة البيزنطيون يحاولون عبثا التوفيق بين رؤوس هذا الثلاث إلى أن قدم الفاتحون العرب فانزعوا مصر وسوريا من البيزنطيين وأزالوا بذلك سببا من أسباب النزاع بين القسطنطينية وروما. ذلك النزاع الذي كان ناجما عن محاولة القسطنطينية التوفيق بين الإسكندرية وروما. وهكذا نشأت في القسطنطينية وحدة وثيقة بين الكنيسة والدولة بينما راحت البابوية تقيم أساسا لاستقلالها عن السلطة الزمنية في روما. ومن هنا افتقرت حظوظ الإمبراطوريتين فتعرضت الغربية منهما لغارات القبائل المتبريرة التي لم تلبث أن قضت عليها مع أواخر القرن الميلادي السادس بينما استمرت الشرقية قائمة حتى سقطت على أيدي العثمانيين سنة 1453 م. وكان استمرارها يرجع إلى وحدة الكنيسة والدولة فيها وإلى مواردها الاقتصادية الجمة ولبعدها عن السبل التي سلكتها القبائل المتبريرة.

وفي سنة 518 م. أصبح أحد الفلاحين المقدونيين رئيسا للحرس الإمبراطوري فتمكن بذلك من اعتلاء العرش البيزنطي باسم جستين الأول. وخلفه على العرش ابن عمه جستيان الكبير (527 - 565 م) الذي يغلب اسمه على التاريخ البيزنطي خلال القرن الميلادي السادس: فهو آخر إمبراطور بيزنطي كان يتمتع بعقلية رومانية صرفة فقد كانت لغته اللاتينية وكانت أفكاره لاتينية كذلك، وهو بسبب ذلك كله كان أقوى تعبير وأعنف تطبيق لفكرة السيادة الرومانية. وكان في نظره يعني استرداد مناطق الإمبراطورية من أيدي القبائل الجرمانية التي كانت قد استولت عليها. ويعني ذلك تعميم المذهب الأرثوذكسي وانتصاره وتأكيد الإشراف المطلق للإمبراطور على الكنيسة. وحقيقا لهذه الأهداف فقد استرجع أفريقية من الوندال سنة 534 م. وإيطاليا من القوط سنة 537 م. واسترجع جنوب أسبانيا فأصبح البحر الأبيض المتوسط جمعيه مفتوحا أمام الملاحاة البيزنطية. وأقام جستينيان نظام دفاع واسع على حدود إمبراطوريته واعاد تنظيم قوات

الحراسة على الحدود وشدد الأنظمة الإدارة في الولايات كما أقام الكثير من الأشغال والمباني العامة التي لا تزال آثارها ماثلة في القارات الثلاثة: أفريقيا وآسيا وأوروبا. ولقد كانت أفكار جنستينيان ذاتها الدافع الذي حفزه على القيام بعمله العظيمين الآخرين: جمع وتبويب القوانين الرومانية، وبناء كنيسة القديسة صوفيا.

ولكن حروب جستينيان وخلفائه من بعده في المناطق الغربية من الإمبراطورية أدت إلى إفلاس خزينة الدولة وزيادة الضرائب. وما زاد الطين بله أن القوات البيزنطية الحاربة ساءها أن تبقى في الشتاء على نهر الدانوب فأعلنت التمرد سنة 602 م. ونصبت قائدها فوكاس إمبراطورا. فقام من فوره بإعدام سلفه موريس وأسرتة ونشر الرعب في أنحاء الإمبراطورية في وقت كانت فيه الفوضى المستشرية في الداخل. والخزينة الخاوية. والغارات الفارسية تهدد الكيان البيزنطي بالزوال.

وجاءت حركة الإنقاذ من ولاية أفريقية التي كانت أكثر ولايات الإمبراطورية الرومانية في هذه المرحلة. ففي سنة 610 م. أبحر هرقل ابن حاكم قرطاجة إلى القسطنطينية ونجح في خلع فوكاس وارتقاء عرض الإمبراطورية. وبعد ذلك أعاد تنظيم الجيش وأعاد النظام للعاصمة وأصلح أمور الخزينة ثم تفرغ لمقاتلة الفرس الذين كانوا قد استولوا على إنطاكية سنة 611 م. وعلى دمشق سنة 613 م. وعلى القدس سنة 614 م. وعلى الإسكندرية سنة 619 م. وحرك هرقل فتوغل في الحدود الفارسية ابتداء من سنة 626 م. وهزم الفرس في معركة قرب الموصل سنة 627 م. ولم تلبث أن حدثت في فارس ثورة أودت بحياة ملك الفرس ما حمل خلفه على عقد صلح مع هرقل الذي دخل القسطنطينية محتفلا سنة 629 م. ولكن فرحة هرقل لم تدم طويلا إذ لم تلبث الجيوش الإسلامية أن اجتاحت بلاد الشام (635 - 636م) ومصر وليبيا (641 - 643 م).

الإدارة البيزنطية:

مع تطور النظام الإمبراطوري إلى النظام الإمبراطوري الأوتوقراطي

البيزنطي جرى تعديل النظام الإداري للإمبراطورية من أجل إيجاد وسائل الدفاع عنها وإدارة شؤونها الداخلية ودمج عناصرها المختلفة في وحدة متماسكة، ومن أجل هذه الغايات هدف التعديل إلى إقامة بيروقراطية دقيقة منبعها إرادة الإمبراطور وغايتها التعبير عن تلك الإرادة بصورة فعالة. ولقد سبق أن اشرنا إلى أن أسس هذا النظام البيروقراطي كانت قد وضعت أيام ديوقلتيان وقسطنطين الكبير. وقد ظلت قائمة بعد ذلك مع إدخال تعديلات وتفصيلات ضرورية اقتضتها ظروف الإمبراطورية وما تعرضت له من ضغوط خارجية، ولقد تسببت النفقات الكثيرة الناجمة عن الصرف على هذا الجهاز الإداري البيروقراطي ونفقات الدفاع عن الإمبراطورية والإنفاق على بلاط الإمبراطور الفخم في إلقاء عبء كبير على موازنة الدولة ومواردها مما استدعى إقامة سياسة مالية لا ترحم، ومن أجل حماية الإمبراطور من ظهور أي منافس له جرى فصل السلطة العسكرية عن المدنية وجرى كذلك تقسيم الإيالات الكبرى إلى دوقيات تتألف الواحدة منها من أبرشية أو أكثر وفقاً لمساحتها. وكان أعلى موظف مدني على رأس الإيالة هو الحاكم البرايتوري (praetorian prefect) وكانت له السلطة العليا في الإيالة وعلى الشرطة وعلى ضرائب الأرض المعروفة باسم أنونا (Annona) التي كان يدفع من ريعها رواتب الموظفين والجند ويغذي الجيش. وكان هذا الحاكم البايثوري يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقاً على رأس كل واحدة منها. وكانت الدوقية ذاتها تقسم إلى أبرشية أو أكثر يترأس كلا منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية. ومع أن رئيس الأبرشية كان مسؤولاً مباشرة أمام الدوق فقد كان له الحق أيضاً أن يكتب للإمبراطور مباشرة كما كان يحق للأهالي أن يستأنفوا ضد أحكامه للبلاط الإمبراطوري. وكان للإمبراطور حق الاتصال المباشر مع الدوقات ورؤساء الأبرشيات كما إنه كان يرسل نواباً عنه إن دعت الضرورة ليتفقدوا سير الإدارة. وهكذا فإن هذا التنظيم كان يتيح قيام إشراف متبادل بين الحكومة الإمبراطورية المركزية وحكومات الولايات. وقد ظل هذا النظام قائماً حتى عتبر في القرن الميلادي السابع في أيام هرقل الذي ربما كان قد اقتبس عن أعدائه الفرس نظام

الأفضية العسكرية مما أدى إلى إعادة جمع السلطتين المدنية والعسكرية في يد الحاكم العسكري (Strategos) للقضاء أو الإقليم (Theames).

الجيش:

نظم قسطنطين الكبير القوات المسلحة فأقر بقاء قوات حراسة الحدود (Limitanei) الذين كانوا عبارة عن ميليشيا من العسكريين الفلاحين الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مقابل ما يقطعهم إياه الإمبراطور من أرض. وأنشأ قوة متحركة تحت قيادته الشخصية. وكان لهذه القوة متحركة تحت قيادته الشخصية، وكان لهذه القوة عملياً رئيساً أركان (Magistri Militum) يترأس أحدهما الفرسان ويترأس الآخر المشاة. وكان مركز الأول أعلى من مركز الثاني نظراً لتفوق قوة الفرسان على قوة المشاة. وكانا يأتيان في المرة الثانية بعد الحاكم البرايتوري وإن كانا يساويانه في لقب الرتبة. وكان كل من هذين الرئيسين الفعليين للأركان هو المفتش العام لقوته، ولما كان يترأس قوته تحت إمرة الإمبراطور في حالة تولى الأخير قيادة الجيش وقت الحرب. أما في حالة تكليف أي منهما بأمورية خاصة فانه كان يحق له قيادة قوات مختلفة من الفرسان والمشاة. ومنذ أيام ثيودوسيوس الأول الكبير صار في النصف الشرقي من الإمبراطورية خمسة رؤساء أركان يتمتع كل منهم بالسلطة على المناطق التي عينها له الإمبراطور. وكان اثنان منهم يقيم في البلاط عن الآخرين وتابعا مباشرة للإمبراطور. وكان اثنان منهم يقيم في البلاط في القسطنطينية بينما كان الثلاثة الآخرون موزعين كما يلي: واحد لقيادة جيش إيالة الشرق، والآخر لقيادة جيش ثراسيا والثالث لقيادة جيش إيريا. وقد أضاف جستنيان في أيامه رئيساً جديداً لقيادة جيش أرمينيا.

وكان التجنيد يتم من بين أبناء الجنود وأبناء المزارعين عن طريق الخدمة الإجبارية بينما كان الملاكون يستطيعون إن يدفعوا مبلغاً من المال بدلاً من المجندين الذين كان عليهم أن يرسلوهم للخدمة من بين المزارعين العاملين في أملاكهم. وهكذا فإن كثيراً من الجنود كانوا يتقدمون للخدمة طواعية مقابل المعاش مما أدى إلى كثرة وجود الجنود المرتزقة من البرابرة (= الأجانب) وخاصة الجرمان في صفوف الجيش البيزنطي. وفي القرن الميلادي السابع

سمح الإمبراطور هرقل لجنوده بالاستقرار في المناطق التي كانت مهددة بالغزو الفارسي أكثر من غيرها. ويذكر بهذا الصدد أن عدد القوات البيزنطية بلغ في عهد جستينيان مائة وخمسين ألف جندي بينما انخفض هذا العدد إلى مائة وعشرين ألف جندي في القرن الميلادي التاسع.

المالية البيزنطية:

إن مؤرخ الدولة البيزنطية لا يشعر بضيق الحدود التي يحبسها فيها صمت مراجعه بقدر ما يشعر به عندما يحاول أن يبحث المسائل المالية: فليس لدينا معلومات مفصلة أكيدة عما كان الثراء العريض في بيزنطة يتكون منه وإن كنا نعلم أن وظيفة القنصل. عندما ألغاه جستينيان في القرن الميلادي السادس. كانت تكلف شأغلها حوالي تسعين ألف جنيه في السنة. وهذا مبلغ لا نظن فردا عابدا كان يستطيع أن يتحمل أعباءه. وعلى الجملة كانت نفقات الدولة تصرف على أشياء أساسية ثلاثة:

1- البلاط الإمبراطوري في القسطنطينية.

2- القوات المسلحة ووسائل الدفاع.

3- الجهاز الإداري البيروقراطي والمباني العامة.

وليس هناك وثائق قاطعة بتقديرات الموازنة السنوية وان كان بعض المؤرخين قد ذكروا أنها بلغت 640 مليون فرنك ذهبي بينما ذكر البعض الآخر أنها بلغت بين مائة وخمسة عشر مليون فرنك ذهبي فقط.

أما العائدات فكانت ترد الخزينة من الموارد التالية⁶⁷:

أ- عائدات أملاك الدولة من صناعية وزراعية ومدنية (كرسوم الجمارك بنسبة 10 % وضرائب السلع الاستهلاكية وبيازارات الدولة والمناجم والملاحات).

ب- الضرائب غير المباشرة: وكانت هذه تثير كثيرا من الاحتجاج الشديد.

67- Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization, edited by Norman H. Baynes & H. St. L.B. Moss. Oxford University Press, Paperback, 1969.

الذي يستدعي إجراء تعديلات مالية. وبالتالي فإن السجلات البيزنطية الرسمية نادرا ما كانت تشير إلى هذا النوع من الضرائب.

ج- الضرائب المباشرة: وكانت أوضح ما تكون في المناطق الريفية. وهي أنواع منها:

1- ضريبة الأراضي: وكان من ضمنها ضريبة تفرض على الأرض ذاتها وتقدر على أساس مساحة الأرض وقيمتها وطبيعتها استغلالها الزراعي طبقا لتقويمات المقيدين التي كانت تجري مرة كل خمسة عشرة سنة. ثم ضريبة المحاصيل وهي ترجع في أصولها إلى الضريبة الرومانية التي كانت تعرف باسم أنونا (Annona) ويختلف مقدارها تبعاً لاختلاف عدد الحيوانات المستخدمة في حراثة أرض محصول معين. وكانت القرية تعتبر وحدة ضريبية متكاملة: فاذا اختفى أحد الملاكين فرض على أقرب جار له في الأرض أن يدفع الضريبة المقررة على المالك الغائب.

2- ضريبة المراعي: وكانت تفرض على المراعي وعلى الحيوانات ما عدا المستخدم منها في الحراثة.

3- الضريبة الشخصية: وكانت تجبى على كل أسرة من أسر أرقاء الأرض بينما كانت ضريبة مشابهة تحصل في حالات الحرب من الأسرة الحرة وضريبة نالته مشابهة تجبى من غير المسيحيين خاصة اليهود.

وكانت الضرائب الأنفة الذكر تجبى من الأرياف فقط. أما المدن فكانت تجبى منها الضرائب التالية:

1- ضريبة الأرباح التجارية. وقد ألغيت في مطلع القرن الميلادي الخامس واستعيض عنها بعد ذلك بضريبة الرخص.

2- ضريبة عرفت باسم إيريكون (Aerikon) وهي ذات طبيعة غامضة بالرغم من كثرة ما كتب عنها. وقد قيل إنها وضعت في عهد جستينيان وكانت تدل على أنواع مختلفة من الضرائب.

3- ضريبة الإرث: ويصدق عليها ما قيل عن سابقتها.

والحق أن النظام المالي البيزنطي وخاصة نظام الضرائب كان نظاما صارما شديدا، فنحن وان لاحظنا حدوث انتعاش في الرخاء التجاري خلال العقود الأولى من القرن الميلادي السادس وفي عهد جستينيان نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها الإمبراطور لتنمية التجارة والنهوض بها، فانا لا نستطيع إن نقول إلا أن ذلك الجهد قد قضي عليه وهو يعد في أكماله إذ أن فوائده لم يسمح لها قط إن تؤتي أكلها أو تثمر لأن جياة الضرائب هبطوا على الناس سريعا، ما جعل سكان الإمبراطورية يزدادون على الأيام ارهاقا وامتعاضا وقد زادهم مصيبة على مصائبهم انتشار الطاعون الكبير سنة 544 م. وقد انعكست هذه الحقيقة في تصرف الشعوب في ليبيا ومصر وبلاد الشام وقت قدوم الفاتحين العرب فلم يحاول أهل هذه الأقاليم الذين كانت بيزنطة تنههمم بالزندقة وتضطهدهم وترهقهم بالضرائب أن يحافظوا على سيادة الإمبراطور بل رحبوا بتغيير السيد⁶⁸.

وفي أثناء القرن الخامس استخدمت في الولايات طريقة شراء الوظائف وهي الطريقة التي اشتهرت باسم سفيراجيا (Suffragia) حيث كان حاكم المقاطعة يشترى منصبه بمال كان بعضه يذهب إلى الإمبراطور والبعض الآخر يذهب إلى الحاكم البرابيتوري العام، وعندئذ كان حاكم المقاطعة يعود فيعوض نفسه بما هو فوق الكفاية من الضرائب المحلية، وقد حمل هذا الوضع الإمبراطور جستينيان على إلغاء بيع بعض الوظائف ومنح كل حاكم مرتبا كان يتحتم عليه أن يعيش عليه وأعيد تنفيذ القانون الذي كان يقضي على الحاكم بالبقاء بمقاطعته مدة خمسين يوما بعد التخلي عن منصبه للإجابة على ما قد يوجه إليه من تهم، وصار يعين لكل مدينة موظف باسم حامي المدينة (Defensor Civitatis) ينتخب محليا ليكون شبيه كابح لغلواء حاكم المقاطعة وليقوم بالنظر في القضايا الصغيرة، وفي الفترة ما بين سنة 536 م، و 537 م، أعيد توزيع الولايات من جديد بحيث ربطت المقاطعات الغنية بالفقيرة حتى تقوم الأولى بتسديد بعض ما على الثانية، ومن ناحية أخرى اتبع جستينيان مبدأ ديوقلتيان في ربط الناس بمهن آبائهم

68- رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961، ص 35.

حتى يضمن استقرارا للشعب من ناحية واستقرارا للضرائب التي تجبى منه من الناحية الأخرى.

وبالنسبة للتركيب الاجتماعي لسكان الريف في هذا العصر فان بوسعنا القول أن المجتمع الريفي كان يتكون من فئتين هما: المزارعون الأحرار والمزارعون الأرقاء من أقدان الأرض، وكان مولى الأرض مرتبطا بها كما إن أبناءه كانوا يرثون مهنته فيصبحون موالى أرض مثله، وكان السيد، مالك الأرض، يدفع عن مواليه الضرائب ويستولي على ثمار الأرض، وكان هنالك أيضا مزارعون مستأجرون في كثير من مزارع الأغنياء يدفعون الأجرة نقدا أو عينا أو يعتبرون أحراراً، والواقع أنهم كانوا يجدون من المال عليهم أن يغيروا أحوالهم إلى أفضل منها فهم ثابتون حيث هم، أما القروي الحر فلم يكن اقل ارتباطاً بالأرض من رفاقه سالفى الذكر وكان يكلف هو وورثته بأنواع من ضرائب الأملاك سبق الإشارة إليها، ولقد كانت قرى أرقاء الأرض أكثر شيوعا في أيام كبار الملوك في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، على أن هذا المجتمع الريفي أعيد تنظيمه إبان الفوضى التي سادت أواخر القرن الميلادي السادس وخلال القرن الميلادي السابع، وبذلك التنظيم صارت المجتمعات الحرة هي الأصل والقاعدة المرعية، وقد تعودت الدولة أن تدفع إعطيات الجنب بوجه خاص على شكل منح من الأرض فخلقت بذلك طبقة من صغار الملوك الوارثين من العسكريين، ولكن المالك الكبير لم يلبث إن ظهر مع استتباب الأمن والنظام من جديد، وعندئذ صار الغني يتحمل على كاهله التزامات الفقير، فيدفع عنه الضرائب مقابل الاستيلاء على محصولاته، فيحيله بذلك إلى مستأجر أو إلى مولى أرض، وقد يخفق الحصول أحيانا، وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر⁶⁹.

69- المرجع السابق، ص 249 .

طرابلس في العهد البيزنطي

تولى الإمبراطور جستنيان عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية سنة 527 م. وفي هذا الوقت ذاته كان قد مضى على النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية نصف قرن وهو يريز تحت نير القبائل المتبريرة. وكان جستنيان منذ البداية يحلم باستعادة ذلك النصف المفقود ليضمه إلى إمبراطوريته؛ وله في ذلك غايات ثلاث:

- 1- إيماءة رومانطية لإحياء ماضي الإمبراطورية وتراثها العظيم.
- 2- إنقاذ النصارى الكاثوليك من ربة الطغيان والظلم الذي فرضه عليهم الهرطقة.
- 3- ملء خزنته الخاوية بما يمكن أن يحصل عليه من دخل وجباية من البلدان التي يستردها.

وكانت أولى الولايات المفقودة التي يمكن أن تتيح لجستنيان الفرصة لتحقيق أحلامه ومطامعه هي ولاية افريقية حيث توفي الملك الوندالي ترانساموند وتلاه في الحكم هلدريك (Hilderic) سنة 522 م. وكان هلدريك هذا حاكما رحيمًا متسامحًا فنشأت بينه وبين جستنيان صداقة شخصية. ولكن هلدريك فشل في كبح زمام القبائل النائرة ما شجع جليمر (Gelimer) ابن أخيه. على خلع من الحكم بعد فترة قصيرة. وكانت حركة جليمر فرصة ذهبية بالنسبة لجستنيان فحشد أسطولًا ضمها في القسطنطينية تحت إمرة بليزاريوس (Belizarius) استعدادًا للإبحار إلى افريقية بحجة مساندة صديقه الخلوغ. وعشية إبحار هذا الأسطول وصلت القسطنطينية أنباء من منطقة المدن الثلاثة تفيد أن بدنتيوس (Pudentius). أحد القادة الوطنيين من أبناء المنطقة. قد أعلن الثورة على الوندال باسم الإمبراطور جستنيان ودعا الإمبراطور لمساندة الثورة فورًا. وبناء على ذلك سارع الإمبراطور بإرسال قوة صغيرة تحت إمرة رجل اسمه تيموث (Tattimuth) ساندت بدنتيوس في الاستيلاء على منطقة المدن

الثلاثة التي كانت خيالية من الوندال آنذاك لأن جليمر لم يشأ أن يرسل لها أية قوة وندالية. وفي هذه الأثناء كانت حملة جستنيان الرئيسية قد نزلت بسلام على الساحل التونسي وزحفت باتجاه قرطاجة التي سقطت في يد بليزاريوس في سبتمبر - أيلول سنة 533 م. ولكن جليمر أعاد تنظيم قواته واستأنف القتال إلا أنه هزم هزيمة ساحقة في شهر ديسمبر - كانون الأول من السنة ذاتها. ولما فشلت محاولته النهائية للصمود في جبل بابوا (Papua) سلم نفسه لقوات بليزاريوس. وبتسليمه انتهت ملكة الوندال في الشمال الإفريقي سنة 534 م.

ولكن الوندال لم يكونوا الخصم الوحيد الذي كان على البيزنطيين أي يحسبوا حسابه في الشمال الإفريقي فالقبائل الوطنية لم تدخل مباشرة في الحرب التي قام بها بليزاريوس. بل نحن نسمع عن استئناف قبيلة لوانة لضغطها على منطقة المدن الثلاث حتى قبل انتهاء حملة بليزاريوس إلى ما انتهت إليه من نجاح ما حمل بليزاريوس على إرسال التعزيزات العسكرية لمساندة تيموث وبدنتيوس. وبعد تسليم جليمر بوقت قصير. وعندما كان بليزاريوس يستعد للإبحار إلى القسطنطينية نشبت ثورتان عنيفتان واحدة في جنوب تونس والثانية في منطقة جبال الأوراس. وازدادت الحالة سوءاً عندما تمرد قسم كبير من الجيش البيزنطي. ولكن الحظ أسعف جستنيان في هذا الظرف الطارئ؛ بضابطين من أئع الضباط أنقدا الموقف وهما سليمان الداراسي (Solomon of Daras) خليفة بليزاريوس في رئاسة أركان الجيش البيزنطي (Magister Militum) وجرمانوس (Germanus) الذي حل محل سليمان في هذه الفترة العصيبة. وقد استطاع هذان الضابطان سنة 539 م. بفضل ما بذلاه من جهود مخلصنة أن يجنبا الإمبراطورية البيزنطية ما كان يتهددها من أخطار وتدعمت بذلك سلطة جستنيان على الجيش البيزنطي نفسه وعلى قبائل الشمال الإفريقي.

ولكن هذا السلم الذي أمكنت المحافظة عليه بصعوبة لم يلبث أن خرق بعد هذا بخمس سنوات أي سنة 544 م. بسبب حادث وقع في لبدية؛ ذلك أن سيرجيوس (Sergius) ابن أخي سليمان. كان قد عين مؤخرًا حاكمًا عسكريًا

(Dux) لمنطقة المدن الثلاث ولكنه لم يكن كفوًا لذلك المنصب فقد قدمت إلى لبدّة. بعد حلوله فيها بقليل. قوة كبيرة من قبيلة لوانة وعرضت أن تعلن صداقتها للحاكم الجديد مقابل أن يقدم لها الهدايا المعهودة في مثل هذه المناسبة والتي كان يقدمها كل حاكم جديد رمزاً لاحترامه وتقديره لسلطة القبيلة⁷⁰. وبناء على نصيحة بدنتيوس تعهد سيرجيوس بتلبية طلب رجال القبيلة ودعا من أجل هذه الغاية ثمانين من وجهائهم ورؤسائهم إلى مأدبة داخل لبدّة. وتلا تلك المأدبة مؤتمر اتهم الليبيون أثناءه البيزنطيين بنهب محاصيلهم وسرقتها. وعندما حوّل سيرجيوس لينصرف دون أن يرد على تهمتهم أمسك به أحد رؤسائهم من كتفه فأنقص أحد أفراد الحرس البيزنطي على ذلك الرئيس وضرب عنقه بسيفه. وتلت هذا الحادث مذبحّة قتل فيها كل الوجهاء الليبيين إلا واحداً أفلت من الحرس ونقل النبأ لأبناء القبيلة الذين كانوا ينتظرون خارج لبدّة فانقض هؤلأء على المدينة ولكنهم فوجؤوا بالحرس البيزنطي يهاجم معسكرهم ويستولي عليه بعد معركة دارت وجها لوجه بين الفريقين. وفي آخر ذلك النهار أعاد الليبيون الكرة وشددوا النكير على البيزنطيين في هجوم قتل فيه بدنتيوس وأرغم سيرجيوس على الانسحاب داخل المدينة للاحتماء بأسوارها.

ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت هذه المذبحة قد وقعت صدفة أو نتيجة للغدر والخيانة المدبرة من قبل البيزنطيين. ولكن تأثيرها على أي حال كان الشرارة التي أشعلت برميل البارود في الشمال الإفريقي من منطقة المدن الثلاث حتى جبال الأوراس؛ ففي وقت لاحق من السنة ذاتها (544 م) سقط سليمان صريعا في إحدى المعارك في ولاية افريقية وحل سيرجيوس محله في رئاسة الأركان ولكنه فشل في إخماد الثوار مما أدى إلى استبداله. ولكن خليفته وقع ضحية مؤامرة محلية قام بها جنثاريس (Guntharis). حاكم نوميديا العسكري. واستولى على قرطاجة. وأسعف الحظ جستنيان من جديد فلم يلبث مغتصب قرطاجة أن قتل على يد احد الضباط الأرمنيين

70- كانت تلك الهدايا عبارة عن صولجان بالفضة وقبعة مفضضة وعباءة بيضاء وحذاء مذهب.

المخلصين للإمبراطور. وبالإضافة لذلك فقد وفق جنستيان في اختيار رئيس جديد لأركان القوات الإمبراطورية المسلحة في شمال أفريقيا هو جون ثروجليتا (John Troglita). الحاكم العسكري لمنطقة المدن الثلاثة. وكان جون رجلا قديرا يتمتع بخبرة من الطراز الأول في شؤون حرب الصحراء.

توجه جون إلى قرطاجة فوصلها في نهاية سنة 546 ليجد القبائل النائرة قد استحكمت في روابي تونس الوسطى بحشود كبيرة من النوميديين والأفارقة تعززها حشود لواتية وأستورية قدمت من منطقة المدن الثلاثة. ومكث جون في قرطاجة المدة التي كانت ضرورية لحشد قواته ثم حرك نحو القبائل النائرة وحاول أن يصانعها في البداية فلما فشلت جميع محاولاته الدبلوماسية اشتبك مع قوات القبائل واستطاع أن يحرز عليها نصرا ساحقا بالقرب من سبيلطة في مطلع السنة الجديدة (547 م) فمزقها كل مرق وشنتت من ظلوا أحياء من مقاتليها. وكان بين القتلى على أرض المعركة رئيس لواتة وكاهنها جرننا (Jerna) الذي قتل وهو يحاول إنقاذ صورة الثور غرززل (Gurzil). إله لواتة. وبعد هذه الواقعة رجع جون إلى قرطاجة حيث استقبل استقبال الفاتحين.

ولكن انتصاره هذا جاء سابقا لأوانه فقد نشأت بعده بأشهر قليلة. أي في منتصف صيف سنة 547 م. ثورة جديدة في منطقة المدن الثلاثة حيث نجح كركاسان (Carcasan). ملك الأفارقة. في إعادة لثم شتات إتباع جرننا وفي كسب تأييد الناسامونيين والجرامنتيين وقام بهجوم خاطف على ساحل المنطقة ثم واصل حملته باتجاه الشمال الغربي نحو تونس إلا أنه وجد جون يقف في وجهه كالسد عند الحدود فاجّبه هذا النائر إلى الدواخل المقفرة في جهات شط الجريد. واقتفى جون أثره بقواته ولكنها لم تلبث أن رفضت التقدم عندما اشتدت عليها حرارة النهار فاضطر جون إلى العودة. وهنا اغتنم رجال القبائل النائرة تلك الفرصة فراحوا يتعقبون جيش جون خفية ثم فاجأه بهجوم مركز في مكان يبعد أربعين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من قابس وأنزلوا به هزيمة منكرة. ولكن جون التجأ إلى مكان اسمه لاريبوس (Laribus) قضى فيه الشتاء منهمكا في إعادة تنظيم قواته.

وفي الربيع التالي اشتبك مع الثوار في معركة في مكان اسمه معسكرات كاتو (Campi Catonis) وانتصر عليهم انتصارا حاسما قتل نتيجة له ملكهم كركاسان وهزموا هزيمة حاسمة. ومنذ هذا التاريخ حتى الفتح العربي لليبيا سنة 643 م. لم تسجل أية معارك أو اشتباكات في منطقة المدن الثلاث واستتب الأمر في شمال إفريقيا للبيزنطيين.

وأحس البيزنطيون الآن أن عليهم أن يعيدوا تنظيم الإدارة في شمال إفريقيا فأقاموا فيه أجهزة إدارية على غرار نظام ديوقليان وذلك بأن قسموا الشمال الإفريقي إلى سبع دوقيات كانت منطقة المدن الثلاث واحدة منها وكانت عاصمتها لبدية. وكانت الدوقيات السبع تخضع لحاكم بروقنصلي عام مسئول تجاه الإمبراطور مباشرة ومركزة في قرطاجنة. وكان هذا البروقنصل يعين دوقا على رأس كل دوقية يكون مسؤولا أمامه عن دوقيته كما كان للدوق الحق في الاتصال بالإمبراطور مباشرة. وكانت هذه الدوقيات تقسم إلى أبرشيات على رأس كل منها رئيس أبرشية. والمرجح أن المدن الثلاث كانت مكونة من أبرشية واحدة يعتبر رئيسها موظفا من موظفي الدوق. وكان رئيس الأبرشية ومجلسها الاستشاري المكون من خمسين عضوا يساعدون الدوق في القيام بشؤون الدوقية التي كانت تقسم إلى وحدات إدارية صغيرة بحيث تكون كل مدينة والأرض التابعة لها وكل قرية والأراضي التابعة لها وحدة إدارية واحدة. وأول عمل قام به الإمبراطور جستنيان بعد استعادة شمال إفريقيا وضمه من جديد للتاج الإمبراطوري هو إرسال اثنين من الموظفين من القسطنطينية إلى الشمال الإفريقي لتقدير الضرائب التي تتوجب جبايتها. وقد وصف سكان الشمال الإفريقي هذين الموظفين بأنهما كانا «غير معتدلين وغير محمولين».

وتبدي مدن منطقة طرابلس في هذا العهد آخر خفقة حياة كالحفنة الأخيرة التي تصدر عن السراج قبل أن ينطفئ؛ فقد أعيد تحصين لبدية وإن كان سورها البيزنطي لم يظم إلا جزءا بسيطا من لبدية الرومانية التي أصبح معظمها الآن مدفونا تحت الرمال الزاحفة. وبالإضافة للسور كرس جستنيان هيكلًا مقدسا في لبدية لأم الرب «أي لمرم العذراء» وشيد أربع

كنائس أخرى كما رُم قصر سويرس. وربما كان الهيكل وقصر سويرس معا يكونان ما نعرفه بالباسيليكا السويرية التي حولها البيزنطيون إلى كنيسة. وربما كانت أسوار أوبا قد جددت كذلك وأقيمت فيها حمامات عامة جديدة وأدخلت على منشأتها المدنية تحسينات أخرى. أما بالنسبة لصبراته فان أسوارها جددت كذلك كما أقيمت فيها كنيسة بيزنطية.

أما في دواخل طرابلس فإنه لم يكتشف حتى الآن ما يدل على أن البيزنطيين قد حصنوا حدودها أو رموها مما يؤدي الاستنتاج أن سلطان البيزنطيين لم يتعدى الشريط الساحلي في منطقة المدن الثلاثة. ولكن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس يذكر أن البيزنطيين كانوا نشيطين في مجال نشر الديانة المسيحية بين أبناء القبائل الليبية التي ذكر من ضمنها أهل غدامس والجرامنتيين. وحتى الآن لم يكتشف أي أثر يثبت أن أهل فزان اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن قيل أنه وجدت في غدامس بعض الآثار المسيحية. ولعل أهم من ذلك كله أن ثلاثا من كنائس القرن الميلادي الخامس في داخل منطقة طرابلس (الخضراء، الأصابعة، وخفاجي عامر) زودت في هذا العهد البيزنطي بأجرمان معمدانية جديدة مصلبة من النوع البيزنطي ما قد يعني تحول أبناء هذه المنطقة عن المذهب الدوناتي إلى المذهب الكاثوليكي.

وبالرغم من إصلاحات البيزنطيين الإدارية وإنعاشهم للكاثوليكية فان الحضارة البيزنطية لم تضرب جذورها عميقة في المنطقة. والواقع أنها لم تكن أكثر من مظهر يخفي ورائه الانحدار السريع الذي كانت البلاد تتردى إليه في تحولها إلى مستوى الرعاة الرحل. وفي هذا العصر تشكلت الجماعات القبلية البربرية في منطقة طرابلس من مثل نفوسة وهوارة الذين أبدوا قدرا من المقاومة في مدافعة العرب الفاتحين عن بلادهم. ولقد انهار المظهر الحضاري البيزنطي بسرعة تحت وطأة جيش عمرو ابن العاص. فاتح مصر. عندما غزا برقة وطرابلس (642 - 643 م.) ولم تبد أية مدينة بيزنطية أدنى مقاومة باستثناء ضئيلة أبدتها مدينة طرابلس.

برقة في العهد البيزنطي

التنظيمات الإدارية حتى عهد جستينيان:

انقسمت ليبيا⁷¹ وفقاً لتنظيمات ديوقلتيان (285 – 305 م.) الإدارية إلى ولاية في منطقة طرابلس وولايتين في منطقة برقة هما ولاية ليبيا العليا التي أصبحت ظلمينة عاصمة لها بدلاً من سيرين وولاية ليبيا الدنيا التي كانت تشمل السواحل القاحلة بين درنة والإسكندرية وكانت بارتونيوم (= مرسى مطروح) عاصمة إدارية لها. وظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدنا في دوقية واحدة في مطلع عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (379-395 م.) وكان ذلك سنة 371 م. وبعد وفاة ثيودوسيوس الكبير انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية أو بيزنطية فانعكست تلك القسمة على ليبيا إذ إن طرابلس استمرت تابعة للإمبراطورية الغربية ثم للوندال حتى استردها منهم جستينيان بينما تبعت دوقية برقة للإمبراطورية البيزنطية. ومن هنا اختلفت ظروف المنطقتين اللببيتين: فإن طرابلس لم تلبث أن خضعت للوندال طيلة قرن كامل عادت بعده للتاج البيزنطي في انتظار مقدم الفاتحين العرب بينما ظلت برقة تابعة للبيزنطيين طيلة الوقت حتى فتحها العرب سنة 642 م.

ورغم قلة المعلومات المتوافرة لدينا عن برقة البيزنطية فإننا نرجع أن المنطقة من خليج سرت الكبير في الغرب حتى الإسكندرية في الشرق صارت منذ سنة 381 م. تشكل دوقية واحدة مكونة من أبرشيتين واحدة تشمل منطقة البنطابولس وكانت عاصمتها الإدارية ظلمينة والأخرى تشمل المنطقة الساحلية بين درنة والإسكندرية وعاصمتها الإدارية بارتونيوم كما أسلفنا⁷². ولعل الأبرشية الأولى حملت اسم البنطابولس بينما حملت الثانية اسم ليبيا. وعلى هذا الأساس فإن برقة كانت دوقية بيزنطية يترأسها دوق واحد ويساعده في حكمها وإدارة شؤونها رئيساً الأبرشيتين ومجلسهما الاستشاريان. ويبدو لنا أن دوق برقة كان مسؤولاً

71- انظر ص 372 – 381 أعلاه .

72- صارت درنة في وقت من الأوقات عاصمة لهذه الولاية

تجاه الدوق الأوجستال (أي نائب الإمبراطور في مصر) بالإضافة إلى مسؤوليته المباشرة تجاه الإمبراطور. وفي زمن الإمبراطور أنسطاسيوس (491_518 م.) انقسمت برقة إلى دوقتين تتألف كل منهما من أبرشية واحدة وصارت دوقية البنطابولس تابعة لحاكم إيالة الشرق البرياتوري الذي كان نائباً للإمبراطور في حكم الأملاك البيزنطية في آسيا ومصر بينما ظلت دوقية ليبيا (من درنة حتى الإسكندرية) تابعة إدارياً للدوق الأوجستال بمصر وصارت تعتبر إقليماً من أقاليم الحدود (Limes) نظراً لما كانت تتعرض له من غارات رجال القبائل. ولم تكن لدوق هذه المنطقة إلا السلطة المدنية وقد استمر هذا الوضع حتى أيام جستينيان عندما أُلغى هذا الإمبراطور وظيفة الدوق الأوجستال في مصر وقسم مصر بموجب القانون رقم 13 الذي أصدره سنة 538 م أو 539 م. إلى خمس دوقيات هي: مصر، أوجستامنيكا، أركاديا، طيبة وليبيا. وبموجب قانون جستينيان المذكور صارت دوقية ليبيا تخضع لدوق يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويكون مسؤولاً تجاه الإمبراطور مباشرة وتجاه الحاكم البرياتوري لإيالة الشرق (Oriens).

وبعد منتصف القرن الميلادي الرابع⁷³ كانت الأجهزة الإدارية الرومانية بشكل عام وفي منطقة برقة بشكل خاص فقد دب فيها الفساد والتعفن خاصة فيما يتعلق بالنظام المالي ونظام جباية الضرائب. وبالطبع وقع السكان ضحايا لجباة الضرائب وما ورائهم من سلطات الجهاز الإداري الذي بدأ يتجه حثيثاً نحو التحول إلى بيروقراطية صارمة لا ترحم إلى حد إن الإمبراطور فالنتين الأول عجز عن حماية السكان من استبدال الموظفين وظلمهم فلجأ في سنة 364 م. إلى استحداث وظيفة حامى المدينة (Defensor Civitatis) لحماية دافعي الضرائب وأصحاب الشكاوي والضعفاء بشكل عام. وكان حاكم الشرق حتى سنة 387 م هو الذي يعين الحماية لمدن دوقية إيالته. وفي تلك السنة صدر قرار إمبراطوري يقضي بأن

73- بالرغم من أن برقة سلمت من شر الوندال إلا أن حالتها ساءت بسبب تكرار غارات القبائل الليبية عليها ما أدى إلى نقل عاصمتها الإدارية من قورينة إلى ظلمينة أولاً عندما صار الأسقف سورينيوس أسقفاً لها من 410 إلى 413 م. ثم إلى أبولونيا إلى سميت سوسا (Sozusa) أي مدينة المنقذ

تقوم المدن بانتخاب حمايتها، وظلت الحالة كذلك حتى سنة 409 م، عندما أدرك الأباطرة أن الفقراء من المساكين كانوا في حاجة ماسة للحماية فعدلت اختصاص حماة المدن وطريقة انتخابهم بحيث صاروا ينتخبون من قبل رجال الدين والأعيان والملاكين ونواب البلديات. ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً لأن ما حمّله الحماة من مسؤوليات ثقيلة جعلهم لا يقلون عن نواب البلديات رغبة في التخلص من الالتزامات المفروضة عليهم. وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها أباطرة مختلفون لتحسين وضع حماة المدن أملاً في الإبقاء عليهم ليدافعوا عن سكان مناطقهم إلا أن وظيفة حامي المدينة اختفت قبل عصر جستينيان؛ وما يؤكد اختفاءها قبل زمنه هو أن جستينيان كثيراً ما فكر في إحياء تلك الوظيفة ومن ناحية أخرى فإن تفكيره في إحياء تلك الوظيفة دليل آخر يضاف للأدلة الكثيرة التي تشير إلى استئثار الفساد في الجهاز الإداري واشتداد الظلم الواقع على الأهاليين. «والواقع إن ما رفع من الأقاليم من الشكاوي، وما تكرر إصداره من الأوامر الإمبراطورية، ليس دليلاً على أن كل ما جرى من محاولات للإصلاح في القرنين الرابع والخامس لم يؤد إلى نتيجة طيبة»⁷⁴.

النظام المالي:

كان النظام المالي لاسيما ما كان يتعلق منه بالضرائب مشكلة بالغة التعقيد؛ فالخزائن خاوية من الأموال، والحاجة جد ماسة لها، فلما تربع جستينيان على عرش الإمبراطورية لم تكن النظم المالية إلا ما أجراه المصلحون في القرن الميلادي الرابع فيما يتعلق بنظم الضرائب وطرق الجباية والمسؤولية عن الجباية؛ وهي إصلاحات وتعديلات لم ينجح النظام المالي معها في إصلاح الأحوال الاقتصادية، ولم يحسن الموكلون بجباية الضرائب استخدام السلطة التي بأيديهم فكانت النتيجة أن دافعي الضرائب حمّلوا فوق طاقتهم وصاروا يؤدون أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب ولم يجدهم نفعاً كلما لجأ إليه الأباطرة الذين توالوا عن العرش البيزنطي قبل جستينيان من التهديدات وفرض العقوبات على الموظفين الذين لم يتركوا

74- العربي، السيد باز، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1961، ص 144

حيلة إلا ولجئوا إليها من أجل التخلي عن القيام بواجباتهم. ولقد دفع هذا الموقف السيء أعداداً كبيرة من السكان إلى هجر مدنهم وأراضيهم واللجوء إلى الصحراء حيث لا تصل اليهم أيدي جباة الضرائب. ولم تكن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي لجأ إليها دافعوا الضرائب للتهرب من جباة الضرائب فقد التمسوا كل الوسائل التي كانت كفيفة بتخليصهم من دفع الضرائب وتأدية ما عليهم من التزامات فلجئوا إلى استخدام أساليب الخداع والغش ولكي يفلتوا من قبضة عمال الخراج، فالملاكون من الأهالي رأوا أنه من الخير لهم أن يتخلوا عن أراضيهم حتى لا يدفعوا ما تقرر عليهم من ضرائب جائرة فخريت حقول وقرى عديدة بعد أن لجأ أصحابها إلى الصحراء أو الأديرة أو انخرطوا في سلك الجيش.

ولقد ذهب سدى كل الوسائل والإجراءات التي اتخذتها الحكومة المركزية لمنع هذا الفساد كما أن النظم والإصلاحات والتعديلات التي أجرتها تلك الحكومة عجزت عن إيجاد العلاج الناجع لذلك الفساد المستشري. ونحن نجد في مقدمة القانون رقم 13 الذي أصدره جستينيان إشارة إلى خلاصة ما كان عليه الموقف قبيل إجراء إصلاحات جستينيان: ففي مقدمة ذلك القانون إشارات إلى ما كان يتصف به جباة الضرائب من أخلاق جعلت جستينيان يفكر طويلاً في حقيقة استقامتهم وإخلاصهم؛ فقد استغلوا ما أصاب الإدارة المالية من اضطراب وصاروا يستفيدون من ذلك لمصالحهم الخاصة فلا يرسلون إلى خزينة القسطنطينية من الضرائب التي يجيئونها سوى النزر اليسير كما إن ما كانوا يرسلونه إلى العاصمة من الفصح صار ضئيلاً إلى درجة جعلته يبدو كأنه صدقة. ومع ذلك فإن دافعي الضرائب كانوا يؤكدون دائماً أنهم كانوا يؤدون كل ما كان مقرر عليهم من ضرائب. وعلى الرغم من كل المحاولات التي قامت بها الحكومة المركزية في القسطنطينية لمناهضة التقاليد الإدارية السيئة، بما أجرته من إصلاحات جديدة، فإنه كان لزاماً على جستينيان - بعد أن تعرضت تلك الإصلاحات للتداعي والانحيار - أن يبدأ من جديد بإجراء إصلاحات شاملة تصلح لتحقيق نتائج مثمرة. ولا شك أن جستينيان قد أفاد في وضع إصلاحاته من كل التجارب والإصلاحات التي

سبقت عصره.

الجنود:

في مستهل القرن الميلادي السادس أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس مرسومًا موجهاً إلى الدوق دانيال. دوق البنطابولس. يوضح بعض الأمور الهامة المتعلقة بالإدارة لا سيما ما يرتبط منها بحقوق وواجبات الجنود الذين كانوا يرابطون في هذه المنطقة.

ويتضح من ذلك المرسوم ما كان عليه الوضع الحربي في البنطابولس حيث كانت ترابط فئتان من الجنود: الجنود النظاميون. والفلاحون من جنود الحدود الذين كانت الحكومة تمنحهم الأراضي على الحدود مقابل تعهدهم بالدفاع عن مناطقهم وبحراسة الطرق ومراقبة القبائل المتمردة ومنع الرعايا البيزنطيين من العبور إلى أراضي البربر إلا بعد الحصول على الإذن من الدوق. وهكذا كان جيش من حرس الحدود الفلاحين يرابط على طول امتداد الحدود التي أقيمت عليها قلاع وحصون متقاربة. والراجح أن ما حدث في دوقية البنطابولس من إقامة جيش حدود. أو أطراف. من الجنود الفلاحين جرى أيضاً في دوقية ليبيا وعلى الحدود الشرقية والجنوبية لمصر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخدمة في جيش الحدود كانت وراثية تنتقل من الأب إلى الأبناء.

تنظيمات جستنيان الإدارية

وفقاً للقانون رقم 13 الذي أصدره هذا الإمبراطور

(سنة 538 م أو سنة 539 م.)

سبق أن بينا أن منطقة برقة صارت في عهد جستنيان تنقسم إلى دوقيتين تابعتين للحاكم البرياتوري لإيالة الشرق. وهما دوقية البنطابولس وعاصمتها الإدارية طلميثة. ودوقية ليبيا وعاصمتها الإدارية بارتونيوم (= مرسى مطروح). ورجحنا أن كلا من هاتين الدوقيتين كانت تتألف من أبرشية واحدة⁷⁵.

الدوق:

ولقد كانت للدوق في دوقيته سلطات واسعة للغاية فقد كان يمثل السلطة الإمبراطورية. وكأنه بذلك يعتبر نائباً محلياً للإمبراطور. فهو يلي كل الأعمال المدنية والعسكرية. ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة. وما اجتمع تحت إمرته من عساكر في دوقيته هياً له بوجه خاص أن يقوم بحفظ الأمن العام في المدن وأن يقدم المساعدة المطلوبة لعمال الخراج لتمكينهم من حصيل الضرائب. ومن الناحية العسكرية كان الدوق يعتبر رأس كل ما ويتعلق بالجيش من الوظائف فكان يتولى إدارة فرق من الجيش ويحرص على انتظام صرف رواتب العساكر وملايسهم. ومن أعماله أن يوالي الطواف بإقليم دوقيته ليتفقد أحوال الناس به وليقف على أحوال الحاميات والاستحكامات. وعندما كانت دوقيته تتعرض للخطر كان يتولى قيادة قواته في الميدان أو يعهد بقيادتها لأحد نوابه لحماية دوقيته والدفاع عنها. وكان على الدوق إن يسهر على حدود دوقيته ويحافظ عليها ويحميها من غارات البدو. كما أنه كان مخولاً بعقد معاهدات الصلح مع الأعداء.

ولقد زاد سلطان الدوق داخل دوقيته بفضل ما ركزه الإمبراطور جستنيان في يديه من سلطات حتى أصبح الدوق كأنه ملك في دوقيته. والراجح أن وظيفة الدوق لم تكن مقيمة بمدة معينة فكان متى عين لا يصرف عن

⁷⁵- أنظر ص 474 أعلاه .

منصبه إلا بناء على مرسوم إمبراطوري أو إذا نقل إلى وظيفة أخرى.

وحتى تبقى يد الدوق نظيفة ظاهرة عمل جستنيان على زيادة راتبه لاسيما بالنسبة لكل من دوق مصر ودوق ليبيا فقد كان المرتب السنوي للأول أربعين صولدا أو ديناراً ذهبياً أي ما يقابل (2880) ديناراً، بينما كان المرتب السنوي لدوق ليبيا (1453) ديناراً، وكان مرتب دوق أفريقية (1582) ديناراً، ولم يكتف جستنيان بذلك بل غمر الدوقات بكرمه من ناحية وفرض عقوبات صارمة على المخالفين منهم من الناحية الأخرى.

وكان الدوق يتولى بنفسه التنظيم الفعلي لديوانه ثم يرفع تشكيلات الديوان للإمبراطور للمصادقة عليها. وكان ديوان الدوق يشمل الإدارات التالية:

- 1- الإدارة المالية وتتولى الشؤون المالية في الدوقية وجباية الضرائب والخراج وتخويل ما يجب تحويله منها إلى القسطنطينية.
 - 2- إدارة التجنيد وقد أشار إليها مرسوم انسطاسيوس الموجه لدوق ليبيا ولكن لم يرد لها ذكر في النصوص المعروفة عن عهد جستنيان، وكان مدير هذه الإدارة، بالاتفاق مع مدير الإدارة المالية، يتولى إصدار الشهادات للمجندين بأنهم أصحاء وأنه لم يلتحقوا بالجيش تهرباً بالالتزامات البلدية.
 - 3- إدارة الشؤون القضائية: وكانت لمديرها السلطة العليا في القضاء الجنائي.
 - 4- إدارة المحفوظات أو ديوان الإنشاء حيث كان يجري تحرير الوثائق وحفظ السجلات.
 - 5- إدارة المظالم وإليها ترفع الالتماسات والشكاوي.
 - 6- إدارة المنشآت العامة وكانت تنظر فيما يتعلق بالعمائر والمباني.
 - 7- إدارة الخزانة وكانت تتولى الإشراف على ما يجبي في الدوقية من ضرائب عينية أو نقدية.
- وكان يرتبط بحاشية الدوق موظفون آخرون كالموثقين والرسول ورجال البريد ورجال الحرس والقوميين والمقدرين (Assessors) والأطباء والمدرسين.

وكانت نفقات ديوان دوقية ليبيا حوالي 187½ ديناراً ذهبياً في السنة أي ما يعادل (13500) ديناراً.

رئيس الأبرشية:

كانت الدوقية الواحدة تتألف من أبرشية أو أكثر حسب مساحتها وظروفها وقد سبق لنا أن اشرنا إلى وجود دوقيتين في برقة تتألف كل منهما من أبرشية واحدة عليها رئيس أبرشية. وليس في مصادرها ما يوضح عمل رئيس الأبرشية ويحدده ولكننا نرجح أنه كان ينوب عن الدوق في قيادة شرطة الأبرشية وربما كانت له بعض الصلاحيات القضائية. ونحن نعرف انه بعد أن ضمت لدوقية ليبيا منطقتا ميناليتس ومربوط المصريتين عهد الإمبراطور لدوق ليبيا أن يتولى مسؤولية اختيار موظف نشيط ينوب عنه في حكم هاتين المنطقتين ومباشرة القضاء وحفظ الأمن فيهما. وقد عرف هذا الموظف باسم توبوتيريت (Topoterete). وقد ندب دوق ليبيا عشرين من موظفي ديوانه لمساعدة التوبوتيريت في أعماله كما حتم على العساكر المرابطين في المنطقتين أن يقدموا له كل ما يحتاجه من مساعدة. والذي دعي إلى تعيين هذا الموظف هو كون المنطقتين المذكورتين بعيدتين عن بارتونوم، العاصمة الإدارية للدوقية. وكونهما مضطرتين ما جعل سكانهما يقاسون كثيراً من المصاعب في سبيل تقديم شكواوهم لمحكمة الدوق. ولعل وجود دوق على رأس منطقة تشمل أبرشية واحدة فقط كان يقلل من شأن رئيس الأبرشية حتى يصبح مجرد موظف في ديوان الدوق.

الباجرک:

على ضوء ما كان معمولاً به في مصر نستطيع أن نقول إن الباجرک وجدت في دوقيتني برقة، وكان الباجرک موظفاً يستمد سلطاته من الإمبراطور مباشرة فإذا لم يقم بتأدية واجباته لم تكن للدوق السلطة في عزله وكان أقصى ما يستطيع القيام به في مثل تلك الحالة أن يكتب تقريراً بشأن الباجرک للإمبراطور فيتخذ الأخير بحق الباجرک ما يراه مناسباً، أما عمل الباجرک فمن المرجح أنه كان يختص بجباية الضرائب من القرى

والأراضي التابعة لعاصمة النوم (Nome) أو الإقليم باستثناء القرى والضياع التي كانت تتمتع بحق الجباية الذاتية، وفي القانون رقم 13 ما يشير إلى أن الطابع المالي هو الذي كان يغلب على طبيعة عمل الباجرك وإن كان هذا الأخير. على ما يبدو، يشارك في الأمور القضائية من مثل تنفيذ القرارات والأحكام الصادرة عن محكمة الدوق، وكانت تحت إمرة الباجرك جماعة من الموظفين كالجباة والمراقبين والكتاب والمساعدين. كما كانت توضع تحت تصرفه وسائل المواصلات المناسبة ليتمكن من الطواف بالبلاد والوقوف على أحوالها.

وحتى يلتزم الباجرك جانب الأمانة والإخلاص فرض الإمبراطور عقوبات مالية على كل باجرك أهمل واجباته أو تهاون فيها أو خان الأمانة وكان من بين تلك العقوبات أن يقرر الإمبراطور مصادره أموال ذلك الباجرك.

إدارة المدن والبلديات:

كان في كل مدينة من مدن الأبرشية إلى جانب الباجرك نواب البلدية الذين ورد ذكرهم في القانون رقم 13 على أنهم نواب لجباية الخراج، وكان يجوز لهم أن يقدموا إلى عاصمة الدوقية للتشاور مع ممثلي السلطة المركزية في أمور الضرائب، وكان يساعدهم في أداء أعمالهم مجلس البلدية الذين كان من جملة أعضائه كتاب الحسابات والكتاب العام وملتوي الدعاوي والخزائن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها، وكان يرتبط بالمدينة وبلديتها أيضا كبير الأطباء، والموظفون الموكلون بالإشراف على المرافق العامة كالحمامات والجسور.

ولقد اهتم الإمبراطور جستنيان بإعادة تنظيم إدارة المدن، بعد أن كانت قد تعرضت منذ القرن الميلادي الثالث للانهايار والتداعي؛ إذ إن نواب البلدية - بعد أن تجردوا من سلطانهم وتخلوا عن واجباتهم لممثلي الحكومة - أخذوا بالتدريج يخضعون لنوع من الوصايا الحكومية التي كانت تهدف إلى الوحدة وإلى اقرار الأمن.

ثم أخذت أعمال البلدية في التضاؤل، بسبب وجود وظيفة حامي

المدينة التي طالما فكر جستنيان في بعثها وتعديلها بصورة تضمن الحيلولة دون ابتزاز الأموال، وهو ما عجز الحماة السابقون عن تحقيقه بل صاروا هم أنفسهم يمارسون عمليات الابتزاز، ولكن محاولة جستنيان لم يكتب لها النجاح نظرا لتداعي نظام البلديات بشكل عام وبسبب ازدياد نفوذ كبار الملاك.

وإزداد نفوذ الكنيسة في القرن الميلادي السادس بإزدياد مشاركتها في الإدارة البلدية إذ صار الأسقف يشترك مع الأعيان في اختيار بعض الموظفين كحامي المدينة مثلا، وفي الإشراف على الموارد المالية للمدينة وصيانة مرافقها العامة.

أما بالنسبة للقرى فقد ظلت القرية بمثابة وحدة إدارية تابعة للمدينة التي هي المركز الإداري للمنطقة أو الإقليم؛ فكانت القرية هي التي تملك الأرض وتحمل مسؤولية زراعتها وتأدية ما يتقرر عليها من الضرائب.

وكانت لكل قرية هيئة أشبه ما تكون بمجلس محلي يتكون من أعيانها ويتولى مسؤولية تسيير أمورها الداخلية كإدارتها المالية وجمع المؤونة اللازمة للجنود وتنظيم شرطة القرية، وفي حالة كون القرية تتمتع بحق الجباية الذاتية كان أعضاء مجلسها المحلي يصبحون على علاقة دائمة بديوان الأبرشية فيما يتعلق بالشؤون المالية.

وفي القرن الميلادي السادس بلغ الاهتمام بتأدية بعض الخدمات العامة حد الإلزام أو التكاليف الذي كان يقع على كاهل بعض أبناء الطبقة الثرية مما جعل بعض أعمال السخرة تصبح وراثية من مثل وظيفة جابي الخراج وفئة المجدفين في سفن الدوق، وتعتبر وظيفة حامي المدينة من أهم أعمال السخرة والإلزام فقد كان على شياغلها أن يتولاها لمدة سنتين لا يستطيع أثناءها أن يتخلى عن الأعباء الملقاة على عاتقه مهما انتحل من أعذار.

التنظيم المالي منذ جستنيان:

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى ما كان عليه التنظيم المالي وخاصة نظام الضرائب من تعقيد، وسنحاول فيما يلي أن نستعرض أنواع الضرائب

البيزنطية المعروفة وطرق تقديرها وجبايتها.

كانت هناك ضرائب مباشرة جبي عينية أي في نفس المحصول أو نوعية أي نقدية مقدرة على محصول من المحصولات. وكانت هناك أيضا ضريبة الرأس أو الضريبة الشخصية (Capitatio) ولكننا لا نعرف عنها سوى أنها فرضت في الفيوم في مصر على الذكور البالغين من العمل 12 - 45 سنة ولكن لم يصلنا من الوثائق ما يثبت أنها دفعت فعلا. ويظن بعض المؤرخين أن هذه الضريبة لم تكن إلا ضريبة الأرض نظرا لأن الناس كانوا مرتبطين بأراضيهم بصفة دائمة.

وبالإضافة لهذه الضرائب المباشرة كانت هناك ضرائب غير مباشرة من مثل مكوس الجمارك على الواردات والصادرات. وما كان يتحملة دافعي الضرائب من السخرة كصيانة الجسور وزراعة الأراضي العامة وتزويد الجيش بالمواد.

وقد كانت لجان خاصة تقوم وفقا للعرف والعادة بتقدير الضرائب حسب طبيعة الأرض وقوتها الإنتاجية. وخير مثال على هذا أن دوقية ليبيا حينما اختلت بها زراعة القمح صارت ضريبتها نوعية.

ونظرا للمسؤولية الجماعية التي تحملها دافعوا الضرائب منذ زمن الإمبراطور قسطنطين في كل الإمبراطورية ازداد الاهتمام بتوزيع الضرائب على جميع أراضي الإقليم سواء كانت مهملة أو لا مالك لها فألزم من تبقى من المزارعين في القرى أن يدفعوا الضرائب المطلوبة كما ألزموا بزراعة الأراضي المهملة أو المهجورة المجاورة لأراضيهم. ومن المرجح أن الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان لم يلغوا هذا الإجراء.

أما أساليب جباية الضرائب الغير عقارية فليس لدينا معلومات تذكر عنها. أما الضرائب النوعية التي كانت يرسم الخزينة فقد كان على الدوق وديوانه القيام بجبايتها.

وقد جعل جستنيان لدوق مصر ودوق ليبيا، اللذين لم تتجاوز سلطة الواحد منها حدود دوقيته. الحق في التدخل في أمر الدوقيات الأخرى المجاورة والحق في أن يستخدموا القوة لإرغام الملاك الهاربين على العودة واستخلاص الضرائب منهم.

ومع انخفاض قيمة العملة لجأت الحكومة في القرن السادس إلى تحصيل الضرائب عينا بدلا منها نقدا. وصارت إجراءات الحكومة لتحصيل الضرائب على ذلك النحو تشتد أكثر فأكثر ابتداء من سنة 559 م. مما جعل العاجزين عن دفع الضرائب وحتى مختلسيها يلجئون للكفالات من أجل الحماية.

إيداع الضرائب والنفقات العامة:

أصدر جستنيان في قانونه رقم 13 على ضرورة إقامة موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات في برقة حتى يتجنب الوسائل التي حاول بعضهم بمقتضاها زيادة النفقات على الإيرادات. وأشار الإمبراطور في ملحق مرسوم هذا القانون إلى ما ينبغي أن يرد إلى خزينة الشرق من برقة ومناليتس ومريوط ومقدار ما ينفق محليا فيها على الموظفين والدواوين وجراية الجند المرابطين في مواضع مختلفة منها والأموال المخصصة لملاهي المدن.

ولما لم يكن بدوقيتي برقة خزينة تحفظ فيها الأموال التي يجب أن تؤدي للإمبراطور. تقرر نقل تلك الأموال إلى الإسكندرية حيث كان يتسلمها مندوب الخزينة العامة ويحولها إلى القسطنطينية. وكان الدوق هو المسؤول عن التصرف في النفقات في دوقيته على أنه كان هو وديوانه يتحملان المسؤولية عن تنظيم صرفها في النواحي الثلاث المقررة: نفقات حربية. نفقات مدنية من مثل مرتبات الدوق وموظفيه ونفقات البريد والمدارس وبقية المرافق العامة. ثم نفقات عامة كانت تعرف باسم سلمنيا (Solemnia).

وحدد جستنيان أنواع العقوبات التي تلحق بالخالفين: وقد كان من بينها التغريم والعزل ومصادرة الممتلكات والتعذيب حتى الموت.

ضريبة القمح أو الميرة المدنية (Annona Civica):

فرضت هذه الضريبة منذ أيام ديوقلتيان ولكن مقدارها لم يحدد مما جعلها عرضة للتعديل المتعاقب لكي تلائم أغراض الدولة كإطعام العاصمة أو تموين الجيش. وقد اهتم جستنيان بإعادة تنظيم هذه الضريبة المهمة، التي قدر إن دوقية مصر وحدها كانت تشحن بموجبها من الإسكندرية للقسطنطينية كل سنة ثمانية ملايين إردب «ولم تشترك في ذلك ليبيا»⁷⁶ لأنها لم تنج من وافر القمح مثلما جود به مصر. ويعتبر هذا الإقليم مديناً باستمرار للخزانة».

التنظيمات القضائية زمن جستنيان:

1- محكمة الدوق: وكانت تنعقد في عاصمة الدوقية وتعتبر أهم محاكمها، وكان للدوق صلاحية ممارسة القضاء الجنائي العالي والقضاء المدني كما كان يفصل في الخصومات التي تقع بين الموظفين كالنظر في الدعاوى المالية والحكم في القضايا المدنية الهامة وينظر في المظالم، والذي حدث هو أن السلطة القضائية وبقية السلطات المدنية جمعت في يد الدوق ففقد رئيس الأبرشية بذلك كل امتيازاته تقريبا ولم يعد إلا مجرد قاض موظف عند الدوق ربما كقائد للشرطة له بعض الصلاحيات القضائية المحدودة.

وكانت اختصاصات الباجرك أن ينظر في عقود الضمان وفي الشكاوي فيرد الحقوق إلى أصحابها، أما حامي المدينة فكان له حق القضاء الجنائي والمدني من مثل النظر في قضايا المعاملات المالية التي لا تتجاوز قيمتها (350) صولدا ذهبيا. ومنذ سنة 535 م، صار اختصاص حامي المدينة مطابقاً لاختصاص رئيس الأبرشية. وبموجب ملحق جستنيان رقم 15 صار للحامي الحق في أن ينظر في القضايا التي لم تكن الجرائم فيها بالغة الخطورة وأن ينفذ ما أصدره من عقوبات، أما إذا كانت الجناية كبيرة فإن الحامي كان لا يستطيع أن يفعل شيئا حيالها سوى أن يأمر بالقبض على الجاني وإيداعه

76- العربي، السيد الباز، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1961، ص 203.

السجن ثم يقدم إلى محكمة رئيس الأبرشية. وبعد صدور القانون رقم 13 صار الجاني يقدم لمحكمة الدوق بدلاً من محكمة الأبرشية وبالإضافة لذلك فقد كان حامي المدينة يقوم بوظيفة قاضي الصلح.

أما في القرى فإن رجال الشرطة كانوا يباشرون السلطة القضائية في بعض الأمور. فإذا عجزوا عن الإصلاح بين المتخاصمين أرسلوهم إلى المدينة حيث يتولى الباجرك وحامي المدينة محاكمتهم. وفي بعض الحالات كانت قضايا الريف تُحل عن طريق التحكيم.

وقد نشأ القضاء الكنسي منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير فكان المتخاصمون - إذا كان أحدهم رجل دين أو كانت الخصومة في أمور دينية - يحتكمون للأسقف. وكان القانون يقر ما يتخذه الأساقفة من قرارات.

وكان يحق للمشتكي بعد ذلك كله أن يستأنف أي حكم صادر ضده لمحكمة الإمبراطور في بيزنطة فيكون القرار الصادر عنها بمثابة أمر لا بد من تنفيذه. وبالرغم من إن محكمة الدوق كانت تنظر فيها القضايا العسكرية إلا أنه كانت هناك محاكم عسكرية خاصة تنظر في القضايا المختلفة بما فيها القضايا العسكرية إلا أنه كانت هناك محاكم عسكرية خاصة تنظر في القضايا التي يكون أحد الجنود طرفاً فيها.

وحتى يوفر جستنيان على أصحاب الدعاوى مشاق ونفقات الاستئناف لمحكمة القسطنطينية قرر إنشاء محاكم متوسطة بين الأخيرة ومحاكم الأقاليم كانت تفصل نهائياً في القضايا التي لا تزيد الدعوى فيها عن (500) صولدا من الذهب.

الشرطة والجيش:

كان الدوق يعتبر الرئيس الأعلى للشرطة في دوقيته بينما كان رئيس الأبرشية يعتبر قائداً للشرطة فيها تصدر عن ديوانه أوامر القبض والاعتقال ويودع في سجنه المذنبون والمجرمون. وقد درج دوق ليبيا على أن يرسل نائباً عنه إلى منطقتي ميناليتس ومريوط المضطربتين بسبب قريهما من الإسكندرية المضطربة. وكان ذلك النائب يلقي القبض على من يلجأ لهاتين المنطقتين

من مثيري الشغب بالإسكندرية ثم ينفذ ما صدر من محكمة نائب ليبيا من أحكام أو يسلم المقبوض عليهم لمدوبي أوجستال الإسكندرية، وكان لدى ذلك النائب بالإضافة إلى الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه خمسون جندياً اتخذهم من بين الحامية العسكرية التي كانت ترابط في منطقتهم.

ويذكر بهذا الصدد أن البربر كانوا يعتبرون من أخطر المغيرين على مصر، ومعروف إن أريستوماك، دوق مصر، قاد في عهد الإمبراطور موريس (582 - 602 م) حملة ضد المغيرين منهم الذين كانوا قد بلغوا النيل فألحق بهم هزيمة منكرة، وهاجم المازيكي (Maziques) الليبيين الذين كانوا قد عرفوا بإثارة القلق والاضطراب في برقة وسيوة وأديرة وادي النظرون خلال القرنين الميلاديين الخامس والسادس.

ولما كانت الطريق مفتوحة إلى مصر من دوقية ليبيا فإن الحكومة البيزنطية بذلك جهداً شاقاً في تنظيم الدفاع عن الحدود في القرنين الخامس والسادس للميلاد؛ فقد أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس الثاني بالنسبة لدوقية ليبيا مرسوماً شرح فيه بالتفصيل ما يجب أن تؤديه القوات المرابطة بتلك الدوقية، ولذلك فإن الجند الفلاحين كانوا يرابطون على طول الحدود في القلاع والحصون المتقاربة التي قامت على أطرافها، ومن المرجح إن جستنيان أبقى على هذا الاتجاه.

وكان جستنيان حريصاً على توفير الأمن والسلام على حدود دوقية ليبيا، فلم يكتف بإعادة تنظيم الجيش بل أنشأ الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية ورم وعمر أسوار المدن والحصون العديدة في برقة البيزنطية، ومن الدليل على متانة تلك التحصينات ما حدث بعد قرن من الزمن حينما قاوم فلافيان، دوق البنطابولس، الغزو العربي من خلف أسوار توكرة، والمعروف انه كانت في دوقية ليبيا ثلاثة مواضع ترابط فيها القوات البيزنطية الحربية فكان في كل مدينة من مدنها الثلاثة حامية يتراوح عددها بين (300) إلى (500) جندي، وتلك المدن الثلاثة هي بتريتونيوم وأنتيرغوس (= طبرق) وربما كانت المدينة الثالثة هي مدينة نافوزيرس التي يخبرنا بروكوبيس أنها كانت على مسيرة يوم من الإسكندرية وأن جستنيان أقام فيها منشآت

كثيرة منها محلات إقامة الحكام والحمامات.

اقتصاديات منطقة برقة

في عهد الرومان الشرقيين والغربيين

سبق أن تحدثنا في اقتصاديات منطقة برقة في العصور السالفة وفقد بينا أنها ظلت متطورة مزدهرة في العهدين الإغريقي والبطلمي في المجالات الاقتصادية الرئيسية الثلاث: الزراعة والتجارة وتربية المواشي⁷⁷. ومع أواخر العصر البطلمي كان هذا الاقتصاد قد تضعف نتيجة للاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية ومغامرات المغامرين وغارات القراصنة، وزادت الحالة سوءا خلال النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد وخاصة بالنسبة للتجارة فقد اتخذ القراصنة جزيرة كريت قاعدة لعملياتهم وراحوا يغربون وينهبون ويخربون كل ما تصل إليه أيديهم فوقعت جارة مدن ساحل برقة المقابل لكريت ضحية لتلك الأعمال التي ظلت تشل التجارة البحرية خاصة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط إلى أن تمكن يومي سنة 67 ق. م. من وضع حد للقرصنة والقراصنة بالقضاء على قواعدهم في كريت وعلى سفنهم في عرض البحر قبيل ضم برقة وكريت في ولاية واحدة. وكانت جارة برقة مزدهرة بين أواسط إفريقيا وبلدان الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط قد شلت تماما خلال المدة التي اشتد فيها نشاط القراصنة، وهي لم تبدأ تنتعش وتنهض من تلك العثرة إلا بعد أن حل عهد أوغسطس وحل مع السلام والأمن في الداخل والخارج ليس في برقة وحدها بل في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ولكن جارة برقة ظلت دون المستوى الذي كانت عليه بالرغم من انتعاشها النسبي ذلك أن تبادلها التجاري أصبح الآن ينحصر تقريبا مع روما. أما الرعي وتربية المواشي فقد كانت حظوظها أوفر من حظ التجارة لأن أهالي برقة استأنفوا ممارسة نشاطهم المعهود في ظل الأمن والسلام اللذين ضمنهما لهم عهد أوغسطس فصاروا يربون الخيول والمواشي وينتجون القمح والشعير والذرة والتمور والعسل وزيت الزيتون والنبذ والسلفيوم ودام ذلك الانتعاش في تصاعد وتقدم حتى قيام الثورة اليهودية (115 - 117 م.). وقد أكد بيتروا رومانلي أن «حقول قورينة

77- أنظر ص 253 - 259 أعلاه

وظلمية كانت تجود بإنتاج الحبوب والزيت والنبذ في أيام نيرون (54 - 68 م.)، وفسيبيان (69 - 89 م)⁷⁸؛ وتلك هي المحصولات التي كانت المنطقة تنتجها في أحسن عصورها. ونحن نرى أن ما يصدق على هاتين المدينتين كان يصدق على بقية المناطق الزراعية في منطقة برقة.

ويظهر القرن الميلادي الأول وكأنه فترة خصصت لزراعة الحبوب لاسيما القمح والشعير. ويشير كايوس بلايني الكبير في كتابه «التاريخ الطبيعي» إلى هذه الحقيقة بقوله: «ان الطبيعة منحت أرض إفريقية بتمامها وكمالها للآلهة سيريس [إله الزراعة والفلاحة والحصاد عند الرومان]»⁷⁹ وإذن فليس من المستغرب أن يصف الرومان منطقة الشمال الإفريقي بأنها أرض الحبوب.

ونظرا لإقبال إيطاليا في القرن الميلادي الأول على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات فان روما والمدن الإيطالية الأخرى صارت تعتمد على سد حاجاتها من الحبوب خاصة القمح. فيما جيبه وما تستورده منها. على صقلية وسردينيا وأقطار الشمال الإفريقي التي صارت تعرف في روما باسم «ولايات الحنطة». وبناء على هذا فان السياسة الرومانية صارت تعتمد تشجيع زراعة الحبوب في برقة فازدهرت تلك الزراعة نتيجة لتضافر جهود الأهلين والحكومة على النهوض بها. ولم تقتصر جهود الدولة على تشجيع زراعة الحبوب فقط بل شملت مختلف المجالات الزراعية. وما يؤيد هذا القول ويؤكد ذلك البرك الرومانية التي وجدت في برقة وفي بقية الشمال الإفريقي لتجميع مياه المطر واستغلالها في الزراعة وفي سقاية المواشي. وما وجد من آثار معاصر زيت الزيتون من مثل معصرة الكوفية قرب بنغازي. ولقد أشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب إلى أن زيت الزيتون الإفريقي، رغم ثقله، كان يلقى إقبالا

78- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a. c. - 642 d. c.). Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airolti - Editore, 1943 - XXI, pag. 41.

79- بلايني الكبير كاتب روماني كان عالما في التاريخ الطبيعي. ولد بمدينة قومة سنة 23 م. وهلك ضمن من هلكوا نتيجة لثورة بركان فيزوف سنة 79 م. أي بعد نشر كتابه (التاريخ الطبيعي. 36 جزءا) بستين.

وراجا للاستعمال في أغراض الإضاءة ومن أجل التدليك في الحمامات. وبعد هذا الازدهار الذي شهدته منطقة برقة في القرن الميلادي الأول ازداد عبء الضرائب الرومانية ما أدى إلى بدء تلاشي صغار الملاكين وظهور كبار الملاكين الذين صاروا يكدسون الأراضي في أيديهم فيستغلونها ويستولون على معظم إنتاجها وهم يسكنون بعيداً عنها خارج المنطقة أو في مدنها مما أدى مع نهاية القرن الميلادي الرابع إلى اختفاء الزراعة العلمية لتحل محلها الأساليب التقليدية المتأخرة⁸⁰.

أما فيما يتعلق بتربية الحيوانات فقد استمرت برقة تربي الخيول البرقاوية المشهورة بأصالتها وسرعة عدوها، بالإضافة للبقر والحمر والأغنام والنعاج والطيور الداجنة كالحمام والدجاج. ثم النحل. كما أنها كانت تتاجر في الأفيال وفي الحيوانات الضارية كالأسود والنمور والفهود فتجلبها من السودان وأواسط إفريقيا بواسطة القوافل وتصدرها من موانئها إلى روما لاستعمالها في المسارح المدرجة. وحتى نكوّن فكرة واضحة عن أهمية الحيوانات الضارية والفيلة كمادة لتجارة برقة نشير إلى أن ثلاثة آلاف وخمسمائة من تلك الحيوانات قتلت خلال حفلة واحدة جرت في مسرح روما المدرج واستمرت مدة ستة وعشرين يوماً متتالية وذلك في بداية العصر الإمبراطوري في أيام أوغسطس. ولا شك أن ذلك الرقم قد تصاعد فيما بعد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المتفرج الروماني العادي في روما كان يعرف تلك الحيوانات باسم الحيوانات الليبية⁸¹.

ولكن هذه النهضة التي شهدتها منطقة برقة في القرن الميلادي الأول سرعان ما حطمت في بداية القرن الميلادي الثاني إثر ثورة اليهود التي لم تسفر عن حرق وتخريب المدن والقرى والمزارع الإغريقية التي كانت قائمة على ساحل برقة فحسب بل تعدتها وامتدت يدها الخربة إلى المناطق الداخلية المجاورة للساحل بالقتل والحرق والتدمير فأنزلت بمنطقة برقة كارثة عجزت جهود الأباطرة الرومان من فهم هديران عن إقامة تلك المنطقة من عثارها.

80- أنظر أيضا الصفحات 529 - 531 أدناه

81- صفر، أحمد، مدينة المغرب العربي في التاريخ، ج 1، دار النشر - بوسلامة - تونس، ص 322 - 331

ومنذ ذلك الحين صارت قَدَمًا منطقة برقة بأسرها تغوصان أكثر فأكثر في حمأة الفقر. وراحت هي تتردى من المستوى الحضاري الرفيع الذي كانت قد بلغت إلى مستوى المجتمع البدوي الفقير الذي يعتمد في معيشتته على رعي الماشية. ومنذ النصف الثاني من القرن الميلادي الثالث حتى نهاية العهد البيزنطي أضيف إلى كل العوامل السابقة عامل جديد مدمر هو أن كراهية القبائل البربرية الليبية للرومان والبيزنطيين بدأت تعبر عن نفسها عمليا على شكل هجمات راحت تلك القبائل تشنّها على مدن منطقة برقة المختلفة فتقتل وتنهب وتخرب كل ما تصل إليه أيديها. ولقد سبق أن أشرنا إلى غارات الأستوريين بشكل خاص وبيننا كيف إنها لم تقتصر على برقة بل امتدت إلى طرابلس كذلك. ومن الواضح ما نقلناه من بروكوبيس إن غارات القبائل الليبية لم تتوقف حتى في عهد جستنيان، الذي اتسم بكثرة التحصينات والاستعدادات العسكرية بل ظلت متواصلة حتى نهاية العصر البيزنطي. ولم يكن الأستوريين وحدهم هم الذين يشنون الهجمات على منطقة برقة، فقد كان جميع البربر الذين يسكنون الأجزاء الداخلية من المنطقة - والذين أشار إليهم بروكوبيس باسم المور - يمارسون نشاطا ماثلا. وقد سبق الإشارة للحملة التي قام بها أريستوماك، دوق مصر، ضدهم في عهد الإمبراطور موريس (582 - 602 م). وإلى هجومه على قبيلة المازيكي الليبية التي كانت تواصل إثارة الاضطرابات والمتاعب في برقة وسيوة ووادي النظرون طيلة القرنين الميلاديين الخامس والسادس. وما كان يزيد المأساة أسوأ وقوع الزلازل وغزوات الجراد من حين لآخر. والواقع أن الحالة استمرت تسير من سيء إلى أسوأ على ذلك النحو الذي وصفنا حتى قبض الله لبرقة من انقدها من برائن الفقر والفوضى والاستبداد والاستغلال فدخلها عمر بن العاص صلحا ودون أية مقاومة وضمها لحوزة الإسلام سنة 462 م.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن دوقية ليبيا البرقية أصبحت في العصر البيزنطي عاجزة عن تقديم أية كميات من الحبوب للدولة بل هي بالعكس

صارت دائما مدينة للخزينة البيزنطية، ويصور بروكوبيس القيصري⁸² حالة برقة في أيامه بقوله: «ويتفق أن يكون الجزء الأعظم من أرض ليبيا هذه [برقة] لم يعتن به على وجه العموم، غير أن إمبراطورنا [جستينيان] نظر إلى هذه البلاد كذلك بعين الاهتمام حتى لا تكون عاثرة الحظ فتقاسى من غارات المور الذين يسكنون البلاد المجاورة، فأسس من أجل هذا حصنين بحاميتهما يدعى أحدهما بتريتونيوم، بينما أطلق على الآخر الذي يقع بعيداً عن المدائن الخمس، اسم انتيبرغوم [طبرق]»⁸³ وعندما يتعرض بروكوبيس لطمينة يقول أنها كانت في الأزمنة الغابرة مزدهرة وأهلة بالسكان ولكنها أصبحت بعهدده شبه مهجورة بسبب افتقارها الشديد للماء ما جعل سكانها ينزحون عنها، وهذا ما دعا جستينيان إلى إعادة بناء قناطرها وربما إصلاح قناة الماء الرئيسية التي كانت تمد المدينة بالماء فأعاد لها بذلك شيئا من ازدهارها القديم.

والواقع أن جستينيان لم يدخر جهدا في سبيل تحصين برقة وضمانة أمنها الداخلي والخارجي كأساس لإنعاشها من جديد حتى تسهم بنصيب أوفر في ملء الخزينة البيزنطية، ولكن جهوده، كجهود أسلافه لم تحقق النتائج المتوجاه منها لأن فساد البيروقراطية البيزنطية كان مستشرها إلى درجة أثبت معها إن العطار لا يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر والناس معاً.

82- مؤرخ بيزنطي ولد في قيصرية بفلسطين حوالي نهاية القرن الميلادي الخامس، وفي سنة 527 م. عين أمين سر خاص للقائد البيزنطي المشهور بليزاريوس ورافقه في حملاته على الشمال الإفريقي وإيطاليا وفارس، ثم عاد إلى القسطنطينية سنة 540 م. وكل ما عرف عنه بعد ذلك أنه كان لا يزال على قيد الحياة في سنة 559 م.

83- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، دار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 213 - 213 .

فزان منذ حريق جرما سنة 395 م. حتى الفتح العربي سنة 644 م.

لقد سبق أن بينا أنه مع نهاية القرن الميلادي الرابع الميلادي كانت السلطة الرومانية في الشمال الإفريقي قد بلغت حدا خطرا من الضعف، وأن ملكة الجرامنتيين كانت في منتهى الضعف ما سهل على الدوناتيين المنحرفين اجتياح جرما وحرقتها وتدميرها⁸⁴. وعندما استولى الوندال على الشريط الساحلي من منطقة طرابلس لم يحاولوا بسط نفوذهم على غير مدن ذلك الساحل، وتلا الوندال البيزنطيون فاكتفوا أيضا بالشريط الساحلي وفشلوا في فرض سيطرتهم على القبائل الليبية التي ما انفكت تهاجم مدن ذلك الساحل، وعلى ضوء هذا كله، ونظرا لعدم توافر معلومات كافية لدينا عن أحوال فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا في هذه الفترة فنحن لا نستطيع إلا أن نقول إن فزان والمناطق الداخلية من ليبيا قد ارتدت من جديد إلى الانغماس في الحياة البدوية التي يسيطر عليها النظام القبلي الصرف، وحتى المناطق المجاورة للشريط الساحلي في طرابلس وبرقة فإنها تفهقرت إلى نفس المستوى المعيشي والاجتماعي والسياسي نظرا لحيلولة الحدود الساحلية البيزنطية بين سكان تلك المناطق والاحتكاك بسكان المدن الساحلية وحضارات ما وراء البحر، وكانت النتيجة المنطقية لمثل هذا الموقف أن قبائل الدواخل الليبية انكفأت على أنفسها وأصبحت معزولة عن العالم المتحضر فتفرغت لشحن الغارات على المناطق البيزنطية والمزارع والواحات الجرامنتية، ومحاربة بعضها البعض في مضمار تنازع البقاء ما أدى إلى سيادة قانون الغاب وقفار المزارع وانحطاط السكان إلى مستوى الرعاية الرحل، ونحن نعرف ان قبائل هواة ومزاتة مثلا - وهي قبائل كانت تسكن حول خليج سرت الكبير - راحت تهاجر واحات فزان وأفلحت في انتزاع واحات الجفرة ووادي الشاطئ وزويلة من أيدي الجرامنتيين بفضل استخدامهما

84- انظر ص 377 أعلاه .

للجمال واستمرار الجرامنتيين في الاعتماد على الخيول والعربات⁸⁵.

ونتيجة لذلك فإن تلك القبائل لم تنزع مصادر الثروة الزراعية فقط من أيدي الجرامنتيين بل استولت أيضا على طرق التجارة عبر الصحراء ففقد الجرامنتيون بذلك الموردين الاقتصاديين الذين كانا شريان النهضة الجرامنتية التي سبقت نهاية القرن الميلادي الرابع.

ولقد حاول الجرامنتيين أن يدروا عن أنفسهم أذى القبائل المغيرة بتوفير نوع من الحماية البيزنطية لعاصمتهم جرما ولما بقي في أيديهم من مزارع وممتلكات فتوصلوا إلى نوع من التفاهم مع البيزنطيين تم بموجبه إرسال حامية بيزنطية رابطة في قلعة لوروكوا بوادي الأجال. على بعد ستين كيلومتر من جرما. لحماية جرما وبقية واحات ذلك الوادي مقابل أن يدفع الجرامنتيين نفقات تلك الحامية وان تحول جرما إلى الديانة المسيحية. ولكن ملكة جرما الهرمة عجزت عن دفع نفقات الحامية البيزنطية مما أدى إلى انسحاب تلك الحامية تاركة جرما والجرامنتيين ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم.

وبوسعنا أن نتصور إن فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا ظلت نهبا لنزوات القبائل وغاراتها على بعضها البعض منذ ذلك الحين حتى الفتح العربي. وفي مثل تلك الحالة فإن سبيل الحماية الوحيد للفرد والجماعة هو النظام القبلي بوصفه بديلا للفوضى المطلقة.

ومن الطبيعي إن تزايد الإخطار يؤدي في مثل هذه الحالة إلى تقوية الرابطة بين الفرد وقبيلته مما يزيد وحدة العصبية القبلية وعمقها فيزيد بالتالي ضراوة التنافر القبلي وعنفه. ولذلك فانا يجب إن نستغرب قلة المقاومة التي لقيها الفاتحون العرب عند استيلائهم على ليبيا لأن هذه البلاد ولا سيما أجزائها الداخلية كانت قد بلغت أقصى درجات الضعف والانحطاط مع مطلع القرن السابع للميلاد.

85- أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ليبيا، 1967، ص 56 - 57.

اليهود والنصرانية في ليبيا

لقد سبق أن خدثنا عن اليهود في ليبيا وقد رنا أنهم بدأوا يتوافدون إلى منطقة طرابلس مع الفينيقيين بعد القرن الرابع بعد الميلاد. وعلى برقة خلال عهد الاسكندر وخلفائه البطالمة. ومن المؤكد إن اليهود كونوا لهم جاليات منظمة في هاتين المنطقتين كانت لها كنسها أو بيعها حيث كان اليهود يمارسون طقوسهم الدينية دون تدخل من أحد. ويكاد يكون من المؤكد أنهم كانوا يبشرون بدياناتهم بين الوثنيين من البربر القدماء. فقد رجح أوريك بيتس أن البربر كانوا يندمجون مع اليهود بسهولة وان الكثيرين منهم اعتنقوا الديانة اليهودية «وتلك ظاهرة تفسر لنا اشتراك أعداد كبيرة من الثوار في ثورة اليهود في برقة سنة 115 م»⁸⁶.

ولعل اليهود هم أول من نقل فكرة الديانة المسيحية لبرقة فنحن نعرف إن سيمون القوريني هو الذي حمل صليب المسيح على طريق الألام في القدس⁸⁷.

وعلى هذا فإن الديانة المسيحية لا بد ان تكون قد دخلت برقة وبقية الشمال الإفريقي في وقت مبكر. ولقد دلت الآثار على أن أتباع الديانة المسيحية كانوا منتشرين في مساحة واسعة من الشمال الإفريقي. ولكن المسيحيين ظلوا يقاسون من الاضطهاد الوثني على أيدي السلطة الرومانية حتى سنة 313 م. عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان المشهور الذي ضمن للمسيحيين الحرية الدينية. إلا أن ذلك المرسوم لم يحل المشكلة لأن أتباع الكنيسة المسيحية كانوا قد أصبحوا كثيرين وفي الوقت ذاته منقسمين فيما بينهم. وقد سبق وأن أشرنا إلى ظهور مذهب دوناتس 86- Bates, Oric, Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Marein>s ST., London, 1914, p. 208
87- Romanelli, Pietro, La Cirenica Romana (96 a. c. - 642 . d . c), . Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi - Editore. 1943 - XXI, pag. 229.

وانتشاره في منطقة طرابلس سنة 311 م. كتعبير عن ألماني الوطنية في وجه السلطة الرومانية وكنيستها الكاثوليكية. وقبل أن ينتهي القرن الميلادي الرابع كانت الدوناتية قد انحرفت عن مبادئها وأصبحت محورا يلتف حوله اللصوص وقطاع الطرق. وان صح ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الدوناتيين هم الذين حرقوا جرما وخربوها فان ذلك يعني امتداد المسيحية إلى منطقة فزان ولو في شكلها الدوناتية. وفي موضع آخر من هذا الكتاب تعرضنا كذلك للمذهب الآريوسي الذي انتشر في الإسكندرية ومصر والشرق ولم يلبث أن امتد لبرقة حوالي نفس الفترة التي انتشر فيها المذهب الدوناتية⁸⁸. وبالرغم من انتشار الديانة المسيحية على نطاق واسع في الشمال الإفريقي إلا أن الوثنيين كانوا لا يزالون موجودين في عهد جستنيان - القرن الميلادي السادس - الذي حملهم على اعتناقها تفيذا لسياسته في نشر الديانة المسيحية وتعميمها في الإمبراطورية. ويحدثنا بروكوبيس عن هذا الموضوع. بعد ذكره لجالو وأوجله. بقوله: «أنهما احتفظتا بعبادات الأقدمين. إذ كانوا جميعا في ظلال الشرك حتى يومي هذا». وتوجد هنا معابد من الأزمنة الغابرة مكرسة (لأمون) و (الاسكندر المقدوني). وقد تعودوا الأهالي فعلا أن يقدموا لها القرابين حتى عهد جستنيان. وكان في هذا المكان عدد كبير من يدعون (عبيد الهيكل). لكن الإمبراطور أخذ أهيته الآن. لا لأمن أشخاص رعاياه فحسب. بل هو وضع في اعتباره إنقاذ أرواحهم كذلك. فاعتنى من كل سبيل بمن يعيش هناك من الناس. والحق انه لم يترك وسيلة للتفكير في حاجاتهم المادية تفكيراً يفوق العادة. وهو علمهم كذلك مذهب العقيدة الحقبة فحوّل السكان جميعهم إلى المسيحية ومهد السبيل لتبديد عادات أجدادهم الرجسة. وبنى لهم فضلا عن ذلك كنيسة لأم الرب. لتكون حارسا لأمن المدينتين والعقيدة الحقبة.

أما مدينة بوريوم. التي تقع بالقرب من المور. فإنها لم تدعن قد لدفع الجزية حتى الوقت الحاضر. كما لم يأتها جامع جزية أو ضرائب منذ أن خلق الإنسان. وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة. وكان لهم معبد

88- أنظر هامش (1) ص 457 - 458

عتيق هناك أيضا يوقرونه ويكرمونه. منذ أن بناه (سليمان) - كما يقولون - حين كان يحكم الشعب العبري. لكن الإمبراطور جستنيان مهد الطريق إلى أن يغير جميع هؤلاء عبادة أسلافهم كذلك ويصبحوا نصارى. وحول معيهم إلى كنيسة⁸⁹. وعندما يشير بروكوبيس إلى غدامس يقول: «وفيها يعيش المور الذين كانوا متسالمين مع الرومان منذ غابر الأزمان. وقد كسب الإمبراطور جستنيان هؤلاء جميعا واعتنقوا العقيدة المسيحية طوعا»⁹⁰. وبعد إن يستعرض بروكوبيس أعمال الترميم التي قام بها جستنيان في لبدة الكبرى يقول إن جستنيان «جعل من أهل القبائل التي تعيش بالقرب منها. والتي تدعى (الغادابيتاني Gadabitani) - وكانت حتى ذلك العهد منغمسة فيما يسمى شكل الإلحاد الإغريقي [الوثنية] - جعل منهم الآن مسيحيين. متحمسين»⁹¹.

ولكن بالرغم من جهود جستنيان وغيره من الأباطرة فإن الديانة المسيحية لم ترسخ في المنطقة. ولذلك فإن المسلمين لم يصطدموا بأية معارضة عقائدية مسيحية عندما استولوا على ليبيا (642 - 643 م).

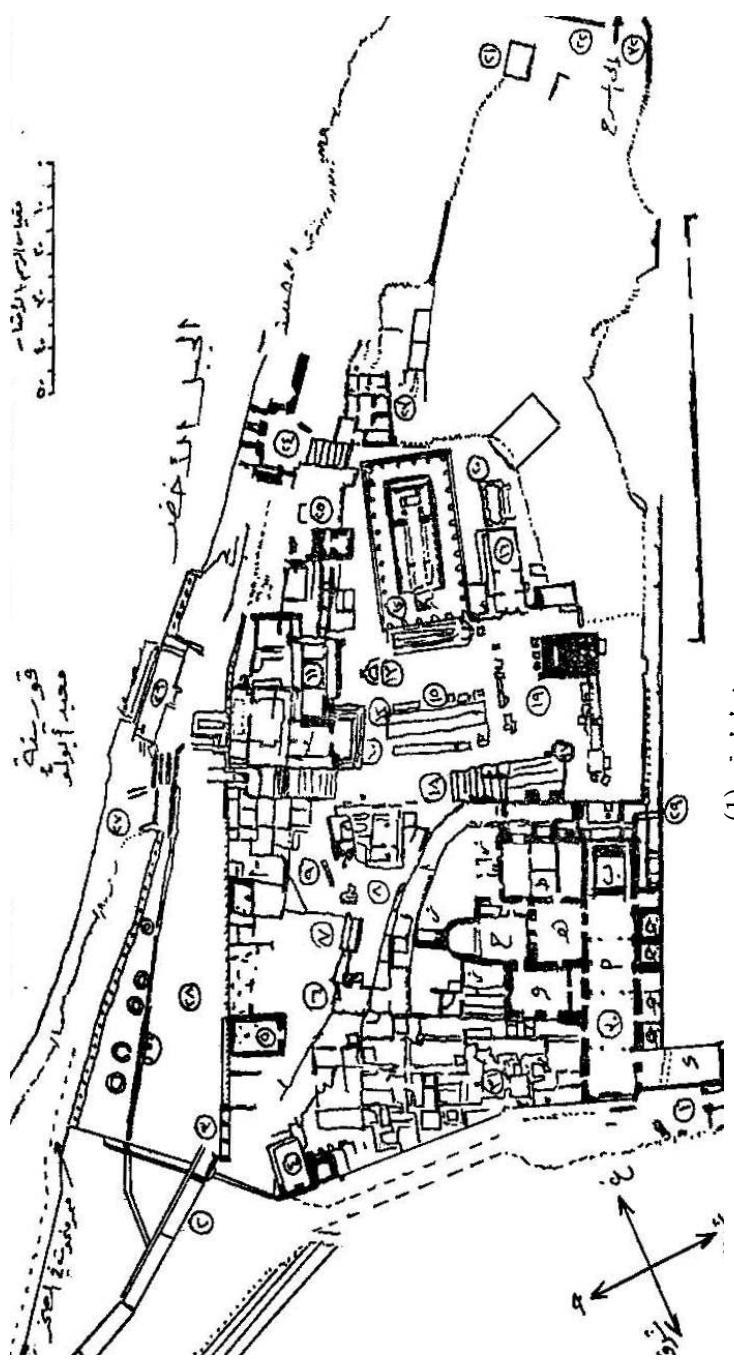
89- خشيم. علي فهمي. نصوص ليبية. دار مكتبة الفكر طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى. 1967. ص 216 - 218 .

90- المرجع السابق. ص 221 .

91- المرجع السابق. ص 226 .

الفصل السابع

المدن والمواقع الأثرية في ليبيا



مخطط رقم (1)
عن هايسلوب

المدن والمواقع الأثرية في ليبيا

أولاً: في برقة:

قورينة = سيرين = شحات:

إن مظهر قورينة الرائع والمناظر الطبيعية الفذة التي تحيط بالمدينة لا بد أنها كانت تذكر الإغريق من أبناء المدينة بموحى دلفي ذاته. والواقع أن قورينة أصبحت دلفي إفريقيا بما كان فيها من مواجٍ في مقبرة باتوس وبمغاورها المقدسة الموجودة في الصخور إلى الجنوب الشرقي من معبد أبولو. وتنقسم قورينة الإغريقية إلى قطاعين أحدهما يشغله معبد أبولو والآخر على رأس التلة المشرفة على المعبد وتشغله الأبنية العامة الرئيسية أو المركز الشعبي في المدينة. وقد كان من بين تلك الأبنية المنازل والمتاجر التي كانت تمتد شمالاً حتى حافة الصخور المشرفة على معبد أبولو. والآثار القائمة في هذا القطاع الآن تعود إلى العهد الروماني لأن الآثار الإغريقية اختفت نتيجة للاندثار وإعادة البناء من جديد عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

معبد أبولو الإغريقي (زيوس الروماني فيما بعد):

كان معبد أبولو في البداية يشمل المعبد نفسه والمذبح والنافورة الخاصة بطقوس التطهير. ومع مرور الزمن، واستجابة لمتطلبات العصور المختلفة، نشأت حول هذا المعبد معابد أخرى كثيرة، وكان المدخل الأصلي لمعبد أبولو يسير مع الوادي في الجنوب الشرقي. وهو الطريق المقدس الذي كان يفضي إلى ساحة المعبد بوساطة البوابة الإغريقية بروبيلايا (Propylaea) من ناحية وبوساطة المدخل الحالي في الشمال من الناحية الأخرى وكانت منطقة المعبد جميعها محاطة بالصخور من الجنوب وبالجدران من الجهات الثلاث الأخرى. وإلى حرم أبولو هذا كانت تهرع الآلاف المؤلفة من الليبيين والأفارقة المتأثرين بالحضارة الإغريقية بالإضافة للإغريق أنفسهم. وكان عامتهم يقومون بطقوس الغسل المقدس في صفوف الحياض القائمة في القسم العلوي. بينما كان عليه القوم يقومون بالطقوس المماثلة في المغاور

الأرضية التي ما زالت معرفتنا عنها محدودة. ولكنهم جميعاً كانوا يبتهجون ويسنيرون بأداء العبادة لإلههم الكبير أبولو. مؤسس المدينة وراعيها. كما انهم يستشعرون الراحة والطمأنينة لمجرد دخولهم رحابه المقدسة.

واستمرت العبادة في هذا المعبد على ما كانت عليه حتى في العهد الروماني عندما أدخلت عليه تعديلات كثيرة كان من جملتها إقامة الحمامات الكبرى في عهد الإمبراطور تراجان (98 - 117 م) وذلك في أعقاب ما حل به من حرق وتدمير وتخريب أثناء الثورة اليهودية (115 - 117 م). ولقد دلت النقوش المكتشفة في آثار قورينة على أن هذا المعبد. والأبنية الأخرى. والمدينة بصفة عامة لحقتها أضرار بالغة ولم تستكمل الإصلاحات الرئيسية فيها قبل (172 - 175 م) عندما كانت قورينة قد تمتعت لبضع سنوات باسم متروبولس بمعنى العاصمة بدلاً من اسم بولس «Polis» أي المدينة فقط⁹².

ولكن نهاية هذا المعبد الزاهر لاحت للأنظار بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للبلاد في منتصف القرن الميلادي الرابع مما أدى إلى حریم الديانات الوثنية. فأصبح هذا المعبد مهجوراً. ولم تلبث غارات القبائل الليبية المتتالية وغزوات الجراد أن قضت على موارد قورينة الزراعية. وتلا ذلك زلزال عظيم صدع المدينة والمعبد: فكان نذيراً باندثار الديانة القديمة وغرق المعبد في عالم النسيان. وبشيراً بانبلاج نور الإسلام في ربوع ليبيا والشمال الإفريقي بأسره.

مركز المدينة الشعبي:

لا تزال ترى على الرابية المشرفة على معبد أبولو آثار القطع المدني من قورينة فهنا ميدانها الرئيسي. ومجلسها بقاعته العامة. والمباني العمومية الأخرى ومقبرة باتوس. مؤسس المدينة. وهنا كانت المتاجر والشوارع والمسارح. كما ان المحاكم كانت تنعقد في الباسيليكا (Basilica) الكبيرة المتصلة

92- Papers of the British School at Rome, Vol. XXVI, p. 33, article under the title "The Temple of Zeus at Cyrene", by R.G. Goodchild, J.M. Reynolds and C.T. Herington, London, 1958.

بالفورم (Forum) الذي كان قد أقامه سوفيناس بروكيولس (Sufenas Proculus) في القرن الميلادي الأول. وتنتشر مباني السكن في أماكن متعددة وهي تمتاز بأرضها المبلطة بالرخام وبزخارف الفسيفساء. وأبرز تلك المنازل هو منزل جيسون ماجنوس (Jason Magnus). ولكن تغيرات كثيرة طرأت على هذه المباني عبر العصور التاريخية التالية لإقامتها. فقد أقام الرومان منازل على أنقاض منازل الإغريق وتلاههم الرومان الشرقيون أو البيزنطيون فأقاموا منازلهم على أنقاض منازل أسلافهم الغربيين.

وإلى الشرق من شحات الحالية تقوم أنقاض معبد كبير للإله زيوس. وهو من مخلفات القرن الخامس قبل الميلاد. وقد كان على جانب كبير من العظمة يؤهله لمنافسة أي أثر آخر في بلاد اليونان نفسها. وإلى الشرق من هذا المعبد كان يقع الملعب الكبير الذي يجري فيه سباق الخيل.

وكان يطل على المدينة جميعها الأكروبولس أو القلعة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من شحات الحالية. وقد استخدم البطالمة في عهدهم هذه القلعة مقر الحرس من جنودهم المصريين والمرتزة من أجل إخضاع الأهالي. وليس من قبيل الصدفة أن الإيطاليين اختاروا هذا الموقع نفسه ليكون قلعة لهم أثناء احتلالهم لليبي: ذلك أن هذا الموقع هو عبارة عن نقطة استراتيجية مهمة يمكن لقوتها المتمركزة فيها من السيطرة على المنطقة المجاورة لها.

مفتاح مخطط معبد أبولو وملاحظات على أهم الآثار:

- 1- المدخل الرئيسي: وهو مدخل حديث ولكنه أقيم قرب موقع بوابة قديمة كانت تتفرع منها الطرق إلى أبولونيا والشمال.
- 2- الطريق المقدس: وكان الحجاج يسلكونه إلى المعبد قادمين عن طريق الوادي من الجنوب الشرقي. وكان يقوم على شمال الحجاج القادمين جدار عالٍ يستتر مكان الأسرار. وكان هذا الطريق ينتهي بهم إلى السطحية العليا (28) أو يدورون عند نهايته إلى اليمين متجهين نحو معبد أبولو عن طريق البوابة الإغريقية (3) (Propylaea). وقد مدت هذه الطريق فيما بعد

إلى البوابة الرومانية (6). ولكن شيدت عليها في فترة لاحقة الحمامات الصغرى وإلى الشمال الشرقي من الطريق المقدس حفر مجرى في الصخر لا يزال يحمل مياه المطر إلى الوادي.

3- البوابة الإغريقية: هذه البوابة التي أعيد نصبها ذات أعمدة دورية قد تكون من مخلفات العصر الهلينستي ولكن نقوشها تشير إلى أنها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك العصر. وربما كانت قد هدمت قبل تشييد البوابة الرومانية رقم (6).

4- معبد أفروديت (فينوس): معبد هذه الإلهة يرجع إلى تاريخ قديم ولكن بناءه جدد في العصر الهلينستي وهذه الإلهة هي إلهة الحب والجمال والزواج وحماية البحارة وإلهة الحرب.

5- معبد القادة الثلاثة (Strategeion): أقيم هذا المعبد تكريماً لأبولو وتخليداً لانتصار ثلاثة من القادة في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد نقشت أسماءهم بالإغريقية على إفريزه ويذكر النص المنقوش فوق الباب أن سوفيناس بروكيولس أعاد بناء هذا المعبد وكرسه للإمبراطور تيبيريوس (37 - 14) (Tiberius م.). وقد أعيد بناء هذا المعبد وسقفه.

6- البوابة الرومانية: أقيمت في العصر الروماني ورمت في عهد هدریان (117 - 139 م.) إثر ما أصابها من تلف في الثورة اليهودية. ولعل هذا هو الوقت الذي مدت فيه الطريق المقدسة إلى هذه البوابة ذات الأعمدة الكورنثية.

7- النافورة الهلينستية: ويقوم عليها سقف يرتكز على أعمدة دورية صغيرة وتظهر عليه آثار الدهان.

8- معبد هادس (Hades-Pluto) أحد أخوة زيوس: وقد كان هادس إلهاً حزيناً عبوساً يطبق العدالة الصارمة على مملكته في عالم الأموات السفلي الذي كان يشمل النار. ويظهر على أحد أعمدة هذا المعبد نقش يشير إلى أن المعبد رم في أواخر القرن الثاني أو الثالث للميلاد.

9- معبد بيرسيفون (Persephone = Proserpine): كانت بيرسيفون زوجة لهادس وابنة لديمتر (Demeter) إلهة الحبوب. ولذلك فإن الإلهة بيرسيفون كانت ذات طبيعة ثنائية فهي ربة الأموات وفي الوقت ذاته ربة الخصوبة. ومعبدها المقام بجوار معبد زوجها بيني في العصر الروماني ولكن على أساس قديم.

10- المعبد الصغير لأبولو: على هذا المعبد نقش ينص على أن بناءه جدد على يدي جيسون ما جنوس في أواخر القرن الميلادي الثاني. وجيسون هذا كان مواطناً بارزاً وثرياً كما أنه كان كاهناً لأبولو.

11- معبد أبولو - موساجيتس (Apollo - Musagetes): هذا معبد آخر لأبولو حيث كان يعبد بوصفه زعيماً لإلهات الفنون التسع (Muses) كاللهة الموسيقى وإلهة الشعر... الخ. وقد أعيد بناء هذا المعبد في العصر الروماني.

12- عمود براتوميديس (Pratomedes): وهو عمود تذكاري يرجع تاريخه إلى القرن الرابع قبل الميلاد. ويقال إن الأوراق التي تزين قاعدته هي أوراق نبات السلفيوم وإن كانت أشبه بأوراق الأكانثوس العادي.

13- النمفية أو نافورة الحوريات (Nymphaeum): يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الثالث وعليها قطعة منحوتة تمثل حورية وهي تصارع الأسود.

14- معبد أبولو: هذا هو أقدم معبد في قورينة. وهو النواة التي نشأ حولها حرم أبولو. وما زال أساس المعبد الأول الذي بني في القرن السابع قبل الميلاد موجوداً كما أن أعمدته لا تزال تشاهد مطروحة لتكوّن أساس مصطبة هذا المعبد عندما أعيد بناؤه فيما بعد. وقد حرق هذا المعبد في الثورة اليهودية ثم أعيد بناؤه خلال القرن الميلادي الثاني. والآثار التي تشاهد اليوم إنما هي آثار هذا البنيان الروماني الأخير الذي جاء نسخة عن البناء الدوري السابق. وقد حول هذا المعبد في العهد البيزنطي إلى كنيسة مسيحية. والنقوش المحفورة على جانبي مدخله هي قوائم بأسماء كهنة أبولو في أيام

الرومان. وقد اكتشف تمثال لأبولو في هذا الموقع سنة 1861 م. وهو الآن في المتحف البريطاني. وتبدو على شظايا المعبد آثار الدهان الأزرق ما يشير إلى أن الإغريق بشكل عام كانوا يدهنون أبنيتهم.

15- مذبح أبولو: يقوم هذا المذبح أمام المعبد. وكانت المذابح في الأزمنة القديمة تقام خارج المعابد حيث تجري الاحتفالات الدينية. ومذبح أبولو الذي يعتبر نموذجاً ممتازاً للمذابح كان بناؤه قد أعيد في القرن الرابع قبل الميلاد وصفح بالرخام الذي وجد مستعملاً في تبليط الحمامات الرومانية الصغرى التي أقيمت فيما بعد. ولا يزال جزء من المصرف الذي كان يحمل دماء الأضحية بعيداً موجوداً في نهاية المذبح الشمالية. وهناك بين المذبح والمعبد حجر كبير فيه بقايا من الحلقة المعدنية التي كانت الأضحية تربط فيها.

16- معبد آرتميس (= ديانا) (Artemis - Diana): بني هذا المعبد في القرن الخامس قبل الميلاد مكان معبد بدائي قديم. ثم أعيد بناؤه بعد تدميره في الثورة اليهودية. وكانت آرتميس هذه أخت أبولو وربة العذرية والولادة. وحامية الصيد. وهي ترتبط بالنساء إلى حد ما ويبدو أنها أصبحت في قورينة نظيرة للإله أبولو. فكان النساء يضحين لها تماماً كما يضحى الرجال لأبولو.

17- مذبح آرتميس: وكان يؤدي نفس وظيفة مذبح أبولو. ومازال درجه قائماً. وهو يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

18- معبد ديوسكوري (كاستر + بلوكس) (Caster & Disocuri Pollux): وكان مكرساً للأخوين المذكورين. ابني ليدا (Leda) وأخوي هلين طروادة (Helen of Troy) وليس مؤكداً أن هذين الأخوين كانا إلهين خفضت مرتبتهما إلى مرتبة الأبطال أو بطلين رفعا إلى مرتبة الآلهة. ولكنهما كانا حاميين للبحارة ما جعل أهل جزيرة ثيرا يقبلون على عبادتهما. أما في قورينة فكانا يعتبران جالبي نبات السلفيوم. والبناء الحالي لهذا المعبد هو بناء روماني لواحد من أقدم معابد قورينة.

19- معبد هيكاتي (Hecate): كانت هيكاتي تعبد في قورينة كوصيفة لابنة عمها آرتميس. ولقد أضيفت على هذه الإلهة صفات مختلفة في أوقات مختلفة. وكان من بين تلك الصفات اعتبار هذه الإلهة ملكة السحر والأشباح. وقد أقيم هذا المعبد تخليداً لذكرى انتصار الإمبراطور تراجان على الداسيين (Dacians) الذين كانوا يسكنون رومانيا الحالية.

20- قاعة المجلس: وهي قاعة تلحق عادة بمعابد أبولو في بلاد اليونان.

21- معبد مجهول: اكتشفه سميث وبورنشر (Smith & Porcher) سنة 1861م.

22- جدار نيكوداموس (Nikodamos): يكوّن هذا الجدار الحد الغربي للحرم المسمى باسمه بانيه وقد أعيد بناؤه في القرن الميلادي الثالث ضمن حركة ترميم عامة لهذا الحرم.

23- منزل روماني: يرجع تاريخه إلى القرن الميلادي الخامس.

24- التريكلينيوم أو كهف العبادة (Triclinium): هذا كهف كانت فيه مقاعد حجرية. وتدل بعض طقوس أبولو وأحد النقوش على أنه كان خاصاً باستعمال الكهنة فقط.

25- معبد إيزيس (Izis): وهي إلهة مصرية كانت عبادتها شائعة في الشرق ثم انتشرت بين الرومان. ويدل أحد النقوش على أن معبدها هذا شيد من عائدات أبولو في القرن الميلادي الأول.

26- نافورة أبولو: هذا النبع الذي قيل إن لمياهه ميزات شفائية استخدم في طقوس الغسل والتطهير الخاصة بعبادة أبولو. وهو متصل أيضاً بالخورية قورينة أو سيرين. وقد اشتهر عند الإغريق أن الخوريات كانت أرواحاً مائية. ولا يزال يرى في جانب الخزان الجاور للنافورة ما يشير إلى وجود مقاعد كان الزائرون للنافورة يجلسون عليها من أجل الأستشفاء أو التطهر.

27- طريق باتوس: طريق صخري يفضي إلى القسم العلوي من المدينة.

28- سطحية المعبد العليا: تركت السطحية العليا من حرم أبولو خالية من المباني وذلك حتى تكون ساحة رحبة تتسع لجمهور الحجاج للتجمع فيها. وهنالك جدار منخفض جنوبيها يحجز قاعات العبادة القائمة في الركن الجنوبي الشرقي. والممر المتصل بها والحفور في الصخر وصفاً طويلاً من حياض الماء التي كان الحجاج يقومون بالاغتسال المقدس منها. وتظهر هنا أيضاً الحفر التي كانت قطع الرخام والحجارة الأخرى حرق فيها لصنع الجير اللازم لبنانيات القرنين الخامس والسادس للميلاد.

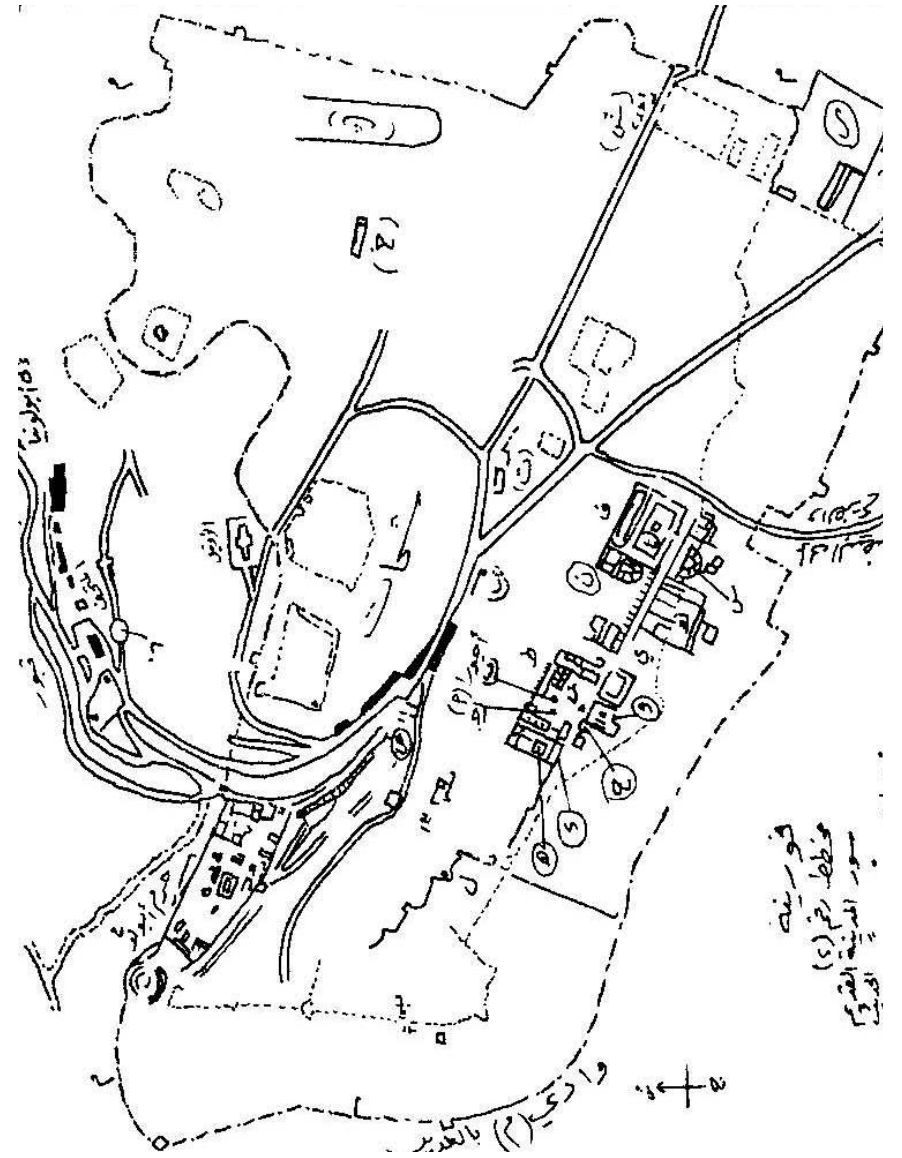
29- الجدار الاستنادي: وكانت الغاية منه المحافظة على تربة سطحيات حرم أبولو. كما أنه كان يشكل جزءاً من سور المدينة في الوقت ذاته. وكان يقوم على طول السطحية صف من الأعمدة الإغريقية.

الحمامات:

في نقش لا يزال موجوداً قرب الطريق بجوار المدخل الرئيسي أن الحمامات الأولى. وكانت عبارة عن بناية واحدة في الأصل. شيدت للإمبراطور تراجان سنة 98م. ولما كانت قد دمرت كغيرها من المرافق في الثورة اليهودية فقد أعيد بناؤها بإيعاز من الإمبراطور هدریان سنة 119 م. وهنالك نقش في القاعة الكبرى يسجل هذه الذكرى ويتفق تاريخه مع صدور المرسوم الذي منع الاستحمام المختلط. ولعل ذلك هو الذي أدى إلى إقامة وحدتين منفصلتين من الحمامات: الوحدة الكبرى (30) للرجال. والوحدة الصغرى للنساء في الشرق (31).

30- الحمامات الكبرى: تدل بقايا الرخام والفسيفساء على ما كانت عليه هذه الحمامات من فخامة عندما كانت تتحلى بكثير من المنحوتات التي تم اكتشاف بعضها وعندما كانت بمثابة نادٍ يلتقي فيه رجال المدينة الرومانية:

أ- القاعة الكبرى: لاحظ طبقتي الفسيفساء المستخدمتين في مصاطب 98 م. و 119 م. والمغسلتين اللتين قدمهما جيسون ماجنوس ونقشت عليهما الكلمات: «على حسابه الخاص».



ب- مغاطس للماء البارد.

ج- غرف لتغيير الملابس.

د- بناء منفصل ربما كان مكتبة. أعيد بناؤه. لاحظ الفسيفساء.

هـ- كاليديريوم (Calidarium): أو الغرفة الحارة: لها مصاطب مرتفعة وأنابيب في الجدران يدور فيها الهواء الحار الآتي من الموقد. وتتصل بممر مباشر مع (أ) حتى لا يضيع الهواء الحار.

و- الموقد.

ز- لكونيكم (Laconicum): أو غرفة البخار الحار مع مغاطس للماء

الحار في الطرفين الجنوبي والغربي. كانت تحمي كما في حالة (هـ).

ح- غرفة حارة أخرى. قسمت فيما بعد إلى اثنتين.

ط- آثار دائرة الأعمدة التي كانت جزءاً من بناية تراجان.

31- الحمامات الصغرى: أعيد بناؤها في وقت متأخر من العصر الروماني عندما امتد مدخلها الجنوبي فوق الطريق المقدس. ولا تزال ترى بها الغرف الحارة بينما تظهر دورة مياه (ي) في طرفها الشرقي وهي من النوع الذي كان يكسح بالماء؛ لاحظ مقاعد الأطفال. وفي القرن الميلادي الخامس بدأت الحمامات الكبرى تهجر جزئياً وصارت الحمامات الصغرى تكفي لعدد السكان الذي تضائل. وهذه هي المرحلة التي استخدم فيها رخام مذبح أبولو (15) في تبليط المصاطب.

32- المسرح والمسرح المدرج (Theatre & Amphitheatre):

هذا المسرح الروماني لحقت به أضرار بالغة في ثورة اليهود ثم أعيد بناؤه كمسرح مدرج صغير. والفرق بين المسارح الرومانية والمسارح الرومانية المدرجة هو الصنف الأول كان به قاعة استماع وخشبة مسرح (Stage) وراء منتصف القطر يستند إلى بناء مرتفع للمناظر. وكان يستخدم لعرض التمثيليات. أما الصنف الثاني أي المدرج فكان بيضوي الشكل أو. كما في حالتنا هذه. دائرياً، وكانت تجري في القسم الأوسط منه الاستعراضات التي

يحارب فيها المتصارعون بعضهم بعضاً أو يصارعون الوحوش الضارية. أو يلقي بالمسيحيين والأشهرار وأسرى الحرب فيها ليجابها تلك الحيوانات المفترسة. وبوسعك أن ترى أساس خشبة المسرح الذي كانت مصطبته من الخشب ومن ورائه الأبنية المستخدمة للمناظر؛ وهو بناء كان يتألف من عدة طبقات وكان يرتفع بقدر ارتفاع قاعة الاستماع ويمثل مقدمة قصر فخيم بداخله وشرفاته التي كان يستعملها الممثلون. كما أنه كان مزيناً بالأعمدة والتمائيل. وفي الوقت الذي كان فيه هذا البناء بحجب السهل الواقع إلى أدنى المسرح حتى لا يرى إلا من خلال فتحات الأبواب. فإنه كان يساعد أيضاً على تقليل الصدى وبالتالي على وضوح الصوت.

وفي المرحلة التي حول فيها هذا المسرح إلى مسرح مدرج أزيل منه موقع خشبة المسرح وبناء المناظر ثم أكملت دائرته. وبعد ذلك أزيلت الصخور وتم إحداث ممر دائري حول الحلبة (Arena) يدخل إليها منه اللاعبون. ثم وضعت مقاعد جديدة لا تزال ترى قائمة على أصول المقاعد القديمة. وخلافاً للعادة لم يكن ممكناً بالنسبة لهذا المدرج أن تمتد المقاعد حول الحلبة جميعها لأن الانحدار الشديد في الأرض في الجانب الشمالي حال دون ذلك.

وكثيراً ما سمي هذا المسرح خطأً بالمسرح الإغريقي لأنه يشابه المسارح الإغريقية في أنه منحوت في سفح تلة. بينما كانت المسارح الرومانية تقام على مواقع منبسطة. وكانت قاعة الاستماع الإغريقية أكثر من نصف دائرة. كما ان النشاط كان يجري بصفة رئيسية في وسطها حيث كانت الأوركسترا (Orchestra) تأخذ أماكنها أمام بناء منخفض للمناظر لم يلبث أن نشأت أمامه تدريجياً خشبة المسرح. ولقد استمر الممثلون يستخدمون مكان الأوركسترا هذا بينما كانت توضع فيه في المسارح الرومانية مقاعد كبار المسؤولين. ولا بد أنه كان في سيرين مسرح إغريقي. ومن المرجح أنه كان في موقع هذا المسرح ذاته. ولكن المسارح كانت تخضع للتعديل والتغيير من عصر لعصر لكي تناسب الأنواع الجديدة من الدراما. وإذن فإن من غير المعقول أن يكون المسرح الإغريقي في سيرين ظل دون تغيير رغم بقاء سيرين أكثر من سبعة قرون في يد الرومان الغربيين والشرقيين.

مفتاح مخطط مركز المدينة الشعبي وملاحظات عليه:

أ- الأجورا (Agora):

وهي الميدان الرئيسي في أية مدينة إغريقية وتناظر الفورم في المدينة الرومانية. وكانت تقوم حول الأجورا المباني المدنية الرئيسية كما ان الأسواق ربما كانت تنعقد فيها، وكان يقوم على جنباتها عدد كبير من المعابد التي لا تزال بقايا أسسها شاهدة على وجودها. وبالإضافة لذلك فقد كانت الأجورا تزين بالتماثيل المختلفة.

ب- ضريح باتوس الأول:

يرجع هذا الضريح إلى القرن السابع الميلاد قبل الميلاد عندما كرم باتوس الأول، مؤسس المدينة، تكريماً خاصاً فسمح بدفنه في الميدان الرئيسي في المدينة. وتجذ عدداً من الدرج يؤدي إلى غرفة الضريح المنخفضة كما نجد على أحد الجانبين قاعدة تمثال بينما نجد مذبحاً من الجانب الآخر. وهذا المذبح مصرف تنسرب منه دماء الأضحيات. وبوسعنا أن نلمح الترتيبات التي كانت تتعلق بغسل مصطبة الغرفة. وكان ضريح باتوس هذا يستخدم كموحي.

وإلى الجنوب الغربي منه يقوم الضريح الآخر وهو ضريح دائري صغير.

ج- ضريح أوناماستوس (Onamastus):

أوناماستوس كاهن لدلفي، مركز عبادة أبولو في شمال بلاد اليونان. كان معاصراً لباتوس الأول وقدم لسيرين لينظم الحياة الدينية فيها. ولا تزال بعض تشريعاته التي ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد منقوشة حتى اليوم على الرخام. وتتجلى أهمية أوناماستوس في شرف موقع ضريحه الذي استخدم كموحي أيضاً.

د- معبد ديمتر (الأم العظمى):

لا تزال هنا آثار رخامية لبوابة تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وفي الداخل جزء من تمثال للإلهة وهي جالسلة. وقد كانت ديمتر تعرف باسم سيرس (Ceres) كما انها ربة الحبوب التي سميت باسمها (Cereals)

وأم بيرسيفون.

هـ- الجمناسيوم (Gymnasium):

بناء هليينستي أقيم حول فناء (Palestra) كان يستخدم لإجراء التمارين. وكان مدرسة لعلية شباب الدولة تحتل مكانة مرموقة بينها. وكان يدير الجمناسيوم واحد من كبار الموظفين في المدينة. وفي بعض الأحيان كانت المرأة تشغل هذا المنصب كما ان الفتيات - على نحو ما كان معروفاً في اسبارطة - كان يسمح لهن بالالتحاق بهذه المؤسسة.

و- البريتانيوم (Prytaneium):

كانت هذه عبارة عن المركز الإداري للمدينة. وكان لها مر كورنثي معمد ومسقوف، وهي مبنية حول فناء مما يجعلها أشبه بمنزل خاص. وعلى ذلك، ولوجود الشعلة المقدسة فيها، فإنها كانت تقوم كرمز لكونها بيتاً للأمة. أما المكان الذي كان يحتفظ فيه بالشعلة المقدسة، فربما كان هو تلك الفتحة التي تشبه المحراب إلى الشرق من الطابق الأسفل وإلى الجنوب من الفناء.

وكان موظفو مجلس المدينة يعيشون ويعملون في هذا البناء. كما ان الزوار وذوي الامتيازات من المواطنين كانوا يتناولون وجبات طعامهم هنا على حساب الدولة. وكان المجلس البلدي (Municipium) للمدينة خلال القرنين الأول والثاني من العصر الروماني يضطلع بمهام حكم المدينة وريفها من هذا المكان. ولكن الموظفين الإمبراطوريين انتزعوا منه تلك السلطة فيما بعد.

ويعود تاريخ هذا البناء إلى أواخر العصر الإغريقي كما تظهر فيه بعض الإضافات الرومانية. وإلى الشرق من هذا البناء يقوم بناء آخر اكتشف فيه مؤخراً رصيف من الفسيفساء رسم عليه رأس مدوزة (Medusa)⁹³.

ز- النصب التذكاري البحري:

93- مدوزة هي إحدى الغرغونات «Gorgons» الثلاث اللواتي كانت شعورهن من الأفاعي وكان كل من تقع عيناه عليهن مباشرة يتحول إلى حجر. وتروي الأسطورة الإغريقية كيف نجح بيرسبوس «Perseus» في قتل المدوزة في ليبيا وحمل رأسها إلى أثينا.

تمثيل لسفينة حربية معاصرة للبناء الذي ربما كان قد شيد في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد تخليداً لذكرى انتصار بحري. وقد أقيم على مقدمة البناء - السفينة شكل مجنح لإلهة النصر اكتشف جسمه مؤخراً.

ح- الكابيتول (Capitolium):

بناء يرجع تاريخه إلى أواخر العصر الهلينستي وبه أربعة أعمدة دورية من الرخام الأبيض. وقد حوله الرومان إلى كابيتول وهو معبد كان يشغل المكان الرئيسي في الفورم في معظم المدن الرومانية ويعبد فيه آلهة الإمبراطورية جوبيتر (Jupiter) وجونو (Juno) ومينرفا (Minerva). وقد تم التعرف على هذا المعبد بعد أن اكتشف تماثيل لتلك الآلهة في موقعه. وقد تم التعرف على هذا المعبد بعد أن اكتشف تماثيل لتلك الآلهة في موقعه. أما النقوش الإغريقية التي عليه فهي تسجل شكر المدينة للإمبراطور هدران على مساعدته في إعادة تعميرها بعد أن خربها اليهود في ثورتهم. وبجوار الكابيتول من الجنوب الغربي توجد آثار بناء المحكمة.

ط- مر أوغسطس المعبد:

لا يزال عمودان يونيان كبيران يدلان على هذا المعبد الذي كرس للإله زيوس وروما والإمبراطور أوغسطس. وقد أضيف فيما بعد بعض المتاجر على الأرض المنخفضة الواقعة إلى الشمال من هذا المعبد.

ي- شارع كارياتيدس (Caryatides):

فتح هذا الشارع حوالي القرن الرابع ما بين الأجورا في الشرق إلى فورم بروكولس. وفي مطلع العصر الروماني أقيم على موازاته من جهة الشمال جدار مزخرف بأشكال قائمة على قواعد وحاملة الكرنيش على رؤوسها. وقد سقطت كل تلك الأشكال على وجوهها وأصبح من الصعب التعرف عليها.

ك- منزل جيسون ماجنوس (Jason Magnus):

هذا منزل فخم كبير يبدو أنه يخص تيبيريوس كلوديوس جيسون ما

جنوس (Tiberius Claudius Jason Magnus). كاهن أبولو في نهاية القرن الميلادي الثاني. وهذا المنزل عبارة عن منزلين عدلاً ودمجاً ليكونا منزلاً واحداً. وكانت في المنزل الكبير القائم على موقع مرتفع من الغرب غرف الاستقبال التي بنيت حول فناء تحيط به الأعمدة. وفي غرفة الاستقبال الكبرى في الطرف الجنوبي بقايا رصيف فخم من الرخام الملون بينما تقوم خارجها تماثيل إلهات الفنون التسع. وفي غرف وممرات أخرى مصاطب من الفسيفساء الجيدة وبقايا رخام كانت الجدران مصفحة به. وزخارف بالدهان. أما المنزل الصغير في الناحية الشرقية. وهو مقام كذلك حول فناء. فقد كان مخصصاً لاستعمال الأسرة. وغرفاته الغربيةتان لهما مصاطب متنازة من الفسيفساء التي لا تزال في حالة جيدة: ففي الجنوبية منهما. وهي ربما كانت حجرة نوم. أحسن مصطبة من الفسيفساء رسمت في وسطها صورة إلهة البحر وفي زواياها أشكال ترمز لفصول السنة الأربعة.

وقد دمجت في هذا البناء ثلاثة معابد صغيرة كانت إلى الشمال من المنزل الكبير. وظل المعبد الغربي منهما يحتفظ بطابعه الديني كمعبد خاص لصاحب المنزل فقد وجد فيه رصيف من الفسيفساء نقش عليه «إلى الرب العظيم هرمس» (Hermes) من إنفاريوس (Invarius). العبد الذي طالما صلى من أجل سلامة وانتصار تيبيريوس كلوديوس جيسون ماجنوس.

ل- الأكروبولس أو القلعة (Acropolis, Citadel):

تقوم هذه القلعة على أعلى نقطة في التلة وهو موقع لا بد أن المستوطنين الأول اختاروه كموقع استراتيجي قوي. والجدران الباقية عبارة عن خليط من البنيان وترجع لأقدم عهد للإغريق في هذا المكان. والآثار الماثلة حالياً هي في معظمها هيلينستية وترجع للفترة التي أكثر فيها ماجس والبطالمة من البنيان. ويدل أحد النقوش أن الجانب الشرقي أعيد بناؤه سنة 12 م. وقد أقيم في الجانب الشمالي فيما بعد معبد صغير لإيزيس مستنداً إلى جدران القلعة. وقد وجد في هذا المعبد تمثال صغير لهذه الإلهة من الرخام المدهون.

م- أسوار المدينة:

تمتد أسوار المدينة مسافة كبيرة وإن كانت آثارها الباقية ليست ذات ارتفاع يذكر. وبالإمكان تتبع مواقع السور في معظم امتداده. وقد خضع هذا السور لتغييرات وتعديلات كثيرة عبر القرون بحديث أصبح من الصعب تعيين تاريخ له. والأجزاء الظاهرة منه هي في معظمها من العصر الهلينستي وإن كان الرومان كثيراً ما جددوا وشيدوا خلال عصرهم.

ن- المسرح الواقع غربي فورم بروكيولس:

حشر هذا المسرح بصورة مكشوفة على بقايا الفورم، وهو من النوع الروماني المعتاد وبه صفوف من المقاعد التي يتم الوصول إليها من خمس ممرات مسقوفة تنفرع من ليوان حول محيط قاعة الاستماع وتمتد حتى تقترب من الصف الأوسط الكائن على مستوى الأرض ثم تنحدر إلى صف آخر دون مستوى الأرض وإلى مكان الأوركسترا الذي لم يتم كشفه بعد.

س- المسرح الواقع إلى جنوب فورم بروكيولس:

ربما كان هذا المسرح أحدث المسارح الثلاثة في سيرين ولعله قد بني في القرن الميلادي الثالث كبدل للمسرح رقم (32) الذي ورد ذكره سابقاً. في أعقاب تحويل الأخير إلى مسرح مدرج. وقد أقيم هذا المسرح على أسس قديمة ولم يبق منه إلا الجزء السفلي. ولعل سبب تلاشي بقية بنیان هذا المسرح يرجع إلى الحفرة الموجودة في وسطه والتي حرققت فيها معظم حجارتها لتحول إلى جير في عصور لاحقة.

ع- السيزاريوم (Caesareum) وفورم بروكيولس:

يرجع الاسم الأول الذي يشير إلى عبادة عدة قياصرة. للقرن الميلادي الثاني. أما الاسم الثاني فإن نقوش الدكة الجنوبية تشير إلى أن الذي قام ببنائه هو سوفيناس بروكيولس الذي عاش في مطلع القرن الميلادي الأول. أما طابع البناء فهو هليْنستي من فترة ما قبل السنة السادسة للميلاد. وهي السنة التي أدخلت فيها تعديلات على هذا البناء إن لم يكن البناء كله قد جدد.

إن هذا البناء بما يحيط به من أعمدة دورية، وبجداره الخارجي البسيط المتوج بإفريز وكرنيش دوري يثير في النفس إعجاباً بعظمته خاصة عندما يتذكر المرء الفورم الجديد في لبدّة، الذي لا بد وأن يكون قد تأثر بهذا البناء بالرغم من أنه متأخر عنه زمنياً ويرجع إلى نهاية القرن الميلادي الثاني.

وقبل أن يعيد الأثريون الإيطاليون نصب هذا الأثر كان معظم جدرانه وأعمدته وكل وسطه مغموراً تحت الجدران الرومانية المتأخرة التي تدل هي وفتحات الرمي الموجودة في الجدران الخارجية على أن هذا البناء استعمل كقلعة في القرنين الميلاديين الرابع والخامس لصد هجمات القبائل البربرية التزايد. وترجع الفسيفساء الجذابة الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية إلى الفترة التاريخية ذاتها عندما انتقل كثير من المواطنين إلى المناطق المحصنة حيث واصلوا الاهتمام بتجميل مساكنهم الجديدة.

وفي وسط هذا البناء توجد أسس معبد صغير كان قد كرس لعبادة الإله ديونيسوس (Dionysos) أي باكوس (Bacchus).

ف- الباسيليكا:

كان بناؤها قد أعيد في عهد الإمبراطور هدران (117 - 138 م) وفيها مذبح له. وكانت تستعمل كمكان يلتقي فيه التجار ليتبادلوا المعلومات ويعقدوا الصفقات. كما أن القضاة كانوا يعقدون محاكمهم فيها.

ص- المنزل الذي به رصيف ديونيسوس (باكوس):

هذا منزل عادي متوسط الحجم يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الميلادي الثاني. وفيه بهوان مبلطان بالفسيفساء كما أن إحدى حجراته التي ربما كانت غرفة طعام تحتوي رصيفاً من الفسيفساء صور عليه ديونيسوس وهو يبحث عن حبيبته أريادني (Ariadne).

ق- برك الماء

هذه آثار برك رومانية كانت تستخدم لتجميع مياه الأمطار أو الينابيع.

ر- الخزان

أقيم في إحدى زوايا سور المدينة. وفيه حياض ماء مسقوفة بالحجارة. ويبدو أن كل المنطقة كانت مزودة بخزانات دائرية تستخدم لحزن الزيت أو الحبوب.

ش- كنيسة مسيحية

هذه البناية عبارة عن باسيليكاً من ثلاثة أجنحة ترجع للقرن الميلادي الرابع أو ما بعده. وهي وإن كانت تشبه الباسيليكاً المسيحية في طليمة إلا أن فيها ما يدل على أنها كانت تستخدم لأغراض دنيوية.

ت- الجمناسيوم

الأثار الباقية هنا هي بعض الرخام وبعض الأعمدة الكورنثية وجدران من القرن الميلادي الثاني قد تشير إلى أن البناء هنا كان عبارة عن جمناسيوم.

ث- السيرك أو مضمار السباق (Circus or Hippodrome):

كان هذا عبارة عن ميدان روماني لسباق العربات. وكانت العربات المتسابقة تجري فيه باتجاه يعاكس عقرب الساعة حول جزيرة في وسطه.

خ- معبد زيوس-جوبيتر (Zeus-Jupiter):

تقوم هنا آثار أجمل معبد إغريقي في برقة. وهو معبد أقيم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وكرس لزيوس. أبي الآلهة. (وكان الإغريق قد وصلوا بين إلههم هذا والإله الليبي آمون الذي يظهر رمزه على النقود المحلية بقرون كبش). وهذا المعبد يماثل في عدة وجوه المعبد الدوري لزيوس في أولبيا ببلاد اليونان وفي عهد الإمبراطور كمودس أعيد بناء هذا المعبد من الداخل في نهاية القرن الميلادي الثاني وزينت جوانبه بأعمدة كورنثية. وهو مبني بالحجارة الصفراء التي تظهر عليها علامات حمراء من أثر النار. وفي أواخر القرن الميلادي الرابع تهدم هذا المعبد في أعقاب زلزال أصاب المنطقة. وقد اكتشف في هذا الموقع رأس تمثال لزيوس وهو نسخة عن الأصل القديم يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الثاني. وقد لَوْن لكي يبدو وكأنه ينبض بالحياة.

مقبرة سيرين

إن القبور الموجودة حول سيرين كثيرة للغاية وقد قدر أنها تغطي مساحة تبلغ خمسين كيلومتراً مربعاً. ولا غرابة في هذه إذا تذكرنا أنها تقابل الفترة الزمنية ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الميلادي الخامس. وكان الإغريق والرومان على السواء يمارسون الحرق والدفن بالنسبة لموتاهم حتى وقت متأخر من العصر الإمبراطوري ولكن عادة الدفن غلبت عليهم تحت تأثير الشرق. وفي سيرين كان دفن الموتى ممنوعاً داخل المدينة فصار الإغريق يدفنون موتاهم في حقولهم خارج المدينة. وهذه القبور. وإن لم تكن قد استكشفت. إلا أنه يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع هي:

1- لحود في غرف حفر في الصخور تحت الأرض ويرجع بعضها إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

2- أضرحة معابد أو موسوليا وهي في الغالب هليستية.

3- موسوليا مستديرة. وهي من أواخر العصر الهلينستي وبداية العصر الروماني.

4- توابيت حجرية مفردة. وهي في الغالب رومانية.

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن نسجل النص الذي نقش على قبر الشاعر كليماخوس وكان قد نظمه وأوصى بأن ينقش على قبره:

هنا يرقد سليل باتوس Here lies the son of Battus

وقد كان يجيد معرفة فن الشعر.

He knew well the art of poesy

كما كان يعرف كيف يجمع في الموسم المناسب

And how in season to combine

بين ضحكة الصداقة وكأس النبيذ

Friendly laughter with his wine

ضواحي سيرين

تنتشر في كل المنطقة إلى الجنوب من سيرين وعلى مرتفعات الجبل الأخضر من الطرف الشرق لوادي الكوف شرقاً حتى (Giovanni Berta) بقايا آثار إغريقية وهلينستية ورومانية غربية وشرقية بعضها آثار مساكن وبعضها آثار طرق أو جدران استنادية أو تحصينات أو قبور أو برك ماء وقد استعملت الحجارة كمادة بناء في تلك المرافق. والذي يلفت النظر أن كل تلك الخلفات خالية من عنصر الزينة الذي يبدو أنه خصص للقبور فقط. وأهم الخلفات هي:

1- قصر بني قديم (Gdem) وهو عبارة عن قلعة منازة كانت تقوم على حراسة الطرف الغربي من وادي الكوف. ويعتقد أن هذه القلعة كانت بطلمية في الأصل ثم أيد بناؤها في العصر الروماني وعُدل ورسم في العصر البيزنطي.

2- الصفصافة: إلى الشمال من الطريق بين مفرض سيرين وسفوة (Savoia) توجد بركة رومانية مسقوفة يبلغ طولها حوالي ثلاثمائة متر كانت تتجمع فيها مياه الأمطار الساقطة على الأرض الصخرية المجاورة والتي كانت قد مهدت بشكل أولي بحيث تسيل كل الأمطار الساقطة عليها إلى مصارف متعددة في جنبات البركة.

3- مغيرنس (Meghernes): فيها آثار متنوعة تشير إلى أنها كانت مستوطنة زراعية صغيرة. ويمكن للناظر أن يراها من سفوة إذا توجه إلى الجهة الشمالية.

4- الملوذة (Limniadis): توجد هنا آثار مستوطنة زراعية رومانية الغاية منها عصر زيت الزيتون. وفيها آثار عدة مجموعات من المعاصر.

5- رأس الهلال (Naustathoms) يقع إلى الشمال من الملوذة وهو مرفأً طبيعياً جميلاً. وإلى الشرق من الطريق عدد من القبور من نوع أضرحة المعابد. وهي ترجع إلى العصر الهلينستي.

وأول ما تستنتجه من هذه الخلفات أنها دليل على كثرة المستوطنات في هذا القطع الريفي الذي كان يعتمد في اقتصادياته على الزراعة وتربية المواشي. ومن المعروف أن معظم العنصر السكاني في تلك المستوطنات كان من الليبيين الذين تعلموا الكثير من عادات الاستقرار من المستوطنين الأجانب فصاروا يعيشون في مساكن ثابتة إلى جانب استمرارهم في سكنى الكهوف. ويعتقد أن العنصر الليبي كان يسكن المحوطات الصغيرة المنبئة من حجارة طويلة قائمة والتي نلاحظ وجودها خارج المستوطنات الأجنبية المجاورة لها. وكان سكان هذه المنطقة من الليبيين والإغريق ثم الرومان فيما بعد يعتمدون على مياه المطر التي كانت كافية لأغراض الزراعة والرعي طيلة الفصل الممطر (سنة أشهر) ويعتمدون في الفصل الجاف أي في النصف المتبقي من السنة على ما كانوا قد جمعوه من مياه المطر في الآبار والبرك وعلى مياه الينابيع؛ وكان ذلك كافياً لهم ولماشيتهم وللبساتين المحيطة بمساكنهم. وهم هنا لم يحاولوا إقامة مشروعات ري زراعية بل اقتصرنا على الزراعة الشتوية التي كانت في معظمها تنحصر في زراعة القمح والشعير والعب والزيتون وأشجار الفواكه. وتأتي في المرتبة الثانية بعد هذه الأصناف أنواع أخرى من الحبوب ثم الخضروات المتعددة وشتى أنواع التوابل والعقارات والزهور التي كانت تستخرج منها العطور. ولقد سبقت الإشارة إلى نبات السلفيوم وقيمه وفوائده المتعددة. ونذكر هنا أيضاً نبات الزعفران الذي كان ينمو بكثرة في هذه المنطقة والذي كانوا يستخرجون منه الأدوية والصبغ الأصفر. كما ان الإغريق والرومان كانوا يستخرجون منه بهاراً لا يغيب عن موائدهم. وإلى جانب هذه المنتجات الزراعية كانت المنطقة تنتج العسل بكثرة. كما كانت تصدر الكثير من الأصواف والجلود.

ويشير ما تبقى من خطوط تقسيمات الأراضي الزراعية إلى أنها كانت منهم قرية. وكان نظام توزيع تلك المزارع وتأجيرها أو تملكها يتغير باستمرار فكان بذلك سبباً من أسباب الاضطرابات الكثيرة في المنطقة؛ ففي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كان القسط الأكبر من الأراضي الزراعية قد تركز في أيدي البطالمة ما حول صغار الملاك من المزارعين إلى مستأجرين للأرض

التي كانوا يملكونها والتي أصبحت الآن ملكاً للملك البطلمي الذي كان يستولي على معظم إنتاجها. وعندما آلت برقة للرومان أصبحت الأراضي الملكية البطلمية ملكاً للحكومة الرومانية ثم ملكاً للتاج الروماني فصارت تؤجر للمضاربين من أصحاب رؤوس الأموال الاستغلاليين الذين لم يلبثوا أن أثبتوا أنهم أسوأ من سادة الأرض السابقين وصاروا يعتبرون الأراضي التي استأجروها ملكاً خاصاً لهم. وفي النصف الثاني من القرن الميلادي الأول أثبت التاج الإمبراطوري حقه في ملكية هذه الأراضي الزراعية من جديد وفرض المزيد من الضرائب عليها ما أضاف عبثاً جديداً إلى الأعباء التي كان صغار المزارعين ينوون بحملها. وأسهم في قيام الثورة اليهودية. وما أهلك القرن الميلادي الرابع حتى كان معظم تلك الأراضي قد تكسدت في أيدي كبار الملاكين الذين صاروا يستغلونها ويستولون على معظم إنتاجها. وعند هذا الحد تتلاشى الزراعة المتقدمة التي كانت تعتمد على رأس المال والأساليب الزراعية العلمية. والجدير بالذكر أنه لم تكشف حتى الآن منازل ريفية كبيرة في المنطقة كذلك التي كانت شائعة في أجزاء أخرى من الريف في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الميلاد ما يشير إلى أن كبار ملاك الأراضي الزراعية كانوا يعيشون إما خارج ليبيا وإما في المدن القائمة على الساحل الليبي. وإن كان من النعتقد أن بعضهم كان يعيش في المنازل المتوسطة الحجم والمحصنة في ريف سيرين.

وقد حسن الرومان في عصرهم الوسائل والموارد المائية: يشهد على ذلك ما بقي من خزاناتهم المائية في سيرين وصفصافة وغيرها. وعمل الرومان كذلك على تحسين المواصلات وتوطيد الأمن العام الذي أصبح مزعجاً بشكل مستمر خلال القرن الميلادي الرابع عندما صار الليبيون يغيرون على أطراف المنطقة كلما سنحت لهم الفرصة. ولذلك فقد حوّل الرومان كل مزرعة إلى أشبه ما تكون بقلعة مصغرة. وصارت القرية تتجمع حول معقل حصين تلجأ إليه كلما دعت الحاجة. ووضعت الطرق العامة تحت الحراسة. ووسعت رقعة الأرض المزروعة إلى الجنوب من الجبل الأخضر حيث لا تزال تقوم آثار سلسلة من الحصون التي كانت تصد خطر البدو الرحل عن المنطقة. ولكن

الغارات المتتالية والاضطرابات المتعاقبة أدت في القرن الميلادي الرابع إلى انهيار ذلك الأمن الذي كان الرومان قد ضمنوه إلى حين. وبالرغم من صرخات الاستغاثة الموجهة إلى إمبراطور القسطنطينية فإنه لم يرسل أية قوات إمبراطورية لبرقة. وقد وصف الأسقف سونسيوس في مطلع القرن الميلادي الخامس حرب العصابات التي كان يشنها الأستوريون على المنطقة وبين أن أية حكومة حازمة كان بوسعها أن تضع حداً لتلك الفوضى دون صعوبة تذكر. وقد تمكن الإمبراطور جستنيان في مطلع القرن الميلادي السادس من تحقيق ما كان سونسيوس قد تمناه: فأعيد بناء كثير من المباني والمرافق والتحسينات ولكن الأوضاع لم تلبث أن ساءت بعد انقضاء عهد جستنيان.

أبولونيا = سوسة:

تقع على الساحل على بعد عشرة أميال إلى الشمال من سيرين وعلى انخفاض (1800) قدم عنها. وقد زادت أهمية أبولونيا كميناء في القرنين الثاني والثالث للميلاد. وفي القرن الميلادي الرابع أخذت أهمية سيرين تتضاءل بينما استمرت أبولونيا تنمو وتزدهر حتى بلغت ذروة مجدها في هذا القرن عندما صارت عاصمة لولاية ليبيا العليا. وبالرغم من أن البحر قد ابتلع ثلث هذه المدينة الآن. إلا أننا لا نزال نرى آثار سورها الذي أعاد الرومان بناءه في القرنين الأول والثاني للميلاد.

وبالرغم من قلة أعمال التنقيب التي أجريت في هذه المدينة إلا أنه تم التعرف على آثار كنيسة مسيحية كبيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي وقد أخذت أعمدها الرخامية الخضراء المتفاوتة الطول من بناء روماني أقدم منها. وإلى الغرب منها جدار حجري من طراز رفيع لا بد أنه كان جزءاً من بناية هيلينستية مهمة. وفي الركن الشمالي الشرقي توجد المعمدانية بجرنها المصلب الكبير الذي كان يسمح بغمر الجسم جميعه. وفي هذه الكنيسة بعض الفسيفساء التي تعبر عن موضوعات تتعلق بالحیوانات.

وإلى الغرب من هذه الكنيسة كنيسة أخرى ترجع إلى عهد جستنيان. وبين آثار هذه الكنيسة الثانية أعمدة رخامية نقشت على جنباتها صلبان

تاريخ ليبيا القديم

ترتكز على دائرة - ترمز للعالم - وهذه الأعمدة استوردت جاهزة من مقاطع الرخام الإمبراطورية في بروكونيسوس (Proconnesus) على الهليسبونت (الدردنيل).

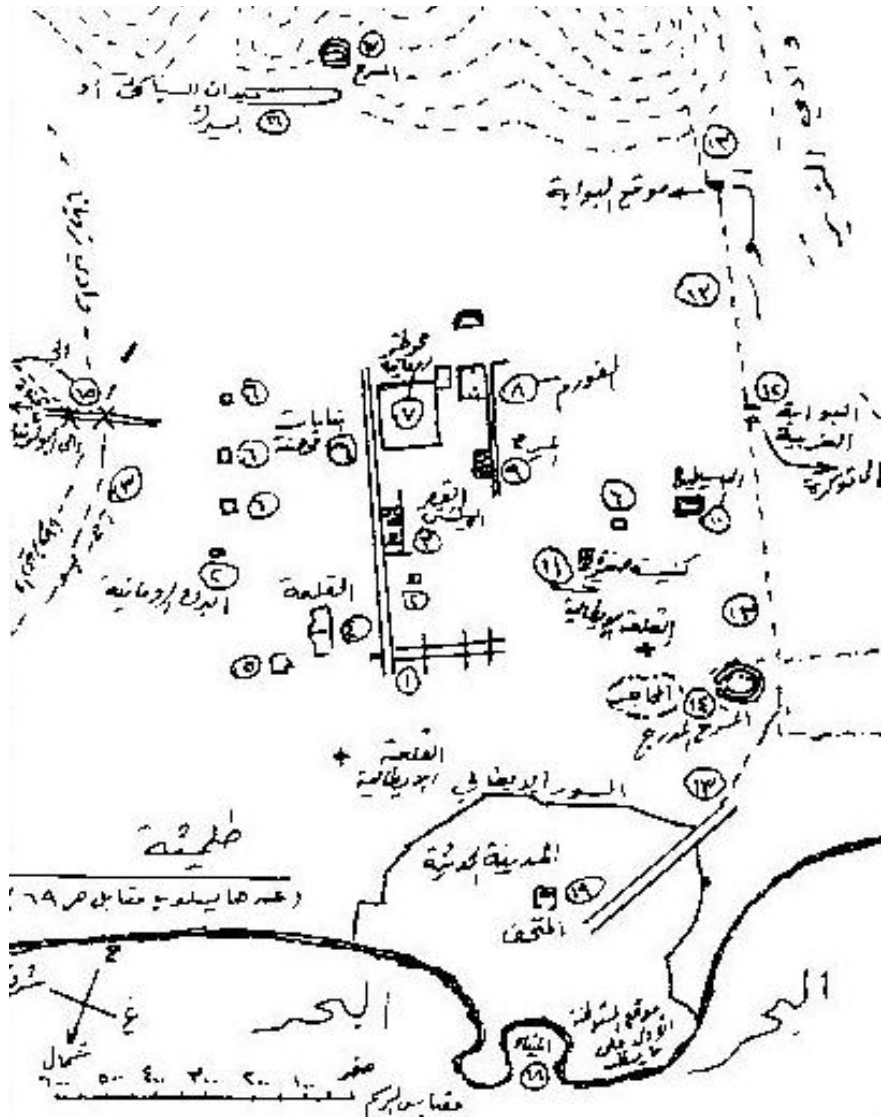
برقة = المرج:

لم يبق من آثار مدينة برقة ما يوضح ماضيها في العصور الإغريقية والرومانية. وأغلب الظن أنها لم تزدهر بعد أن خربها الفرس سنة 515 ق.م. وفي العهد البطلمي ازدادت هي تضاًؤلاً وطغت عليها طلمية التي كانت تزدهر تقدماً وازدهاراً حتى إنها أصبحت عضواً في اتحاد المدن الخمس في القرن الثالث قبل الميلاد.

ولقد وجدت إلى الجنوب من طريق بنغازي وعلى بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من برقة. وفي برقة نفسها. آثار تدل على وجود مستوطنة رومانية في هذه الجهة حيث ما زالت تشاهد مزارع محصنة وأعمدة رخامية وجرار فخارية تبنت في حفر في الأرض ليخزن فيها الزيت أو النبيذ.

بطليموسة = طلمية:

تقع على الساحل إلى الشمال من برقة. وقد كانت أسوارها في عهد البطالمة تضم مساحة أكبر من مساحة مدينة سيرين. ولقد دلت الحفريات على أن شوارع هذه المدينة كانت مستقيمة ومتعامدة. وتدل كثرة البناء وكثرة التعديلات التي أدخلت على الأبنية القائمة في العصر الروماني على أن هذه المدينة كانت لا تزال مهمة بعد الاحتلال الروماني. والواقع أنها هي وأبولونيا أصبحتا المدينتين الرئيسيتين في برقة ابتداء من القرن الميلادي الثالث. وفي القرن الميلادي الرابع صارت طلمية مركز أسقفية ثم عاصمة ولاية. ولكن غارات القبائل البربرية عليها اشددت ابتداء من ذلك القرن ما أدى إلى نقض عدد كبير من مبانيها من أجل إقامة قلعة وحصون لتعزيز سورها الطويل الذي لم يكن الدفاع عنه أمراً سهلاً. ولقد ورد في رسائل سوسوس: أسقف هذه المدينة (373 - 414 م.) وصف مفصل للأحوال المصطربة في هذه الفترة. وكان سونسيوس هذا فيلسوفاً على طريقة الافلاطونية



الحديثة كما أنه كان صياداً، وهو لم يعمد إلا بمناسبة تعيينه أسقفاً للمدينة سنة 410 م.. وحتى آنذاك فإنه قبل ذلك التكرم متردداً واشترط أن يسمح له في الاستمرار بالاحتفاظ بزوجته. وكان سونسيوس زعيماً قديراً كما إنه كان ماهراً في التكتيك العسكري. ولا شك أنه قام بدور فعال في تنظيم الدفاع عن المدينة وفي بناء التحصينات وبناء كنيسته التي تشبه القلعة في طلميثة. ولقد عززت وسائل الدفاع والتحصينات التي أقيمت في أيامه في طلميثة خلال بقية العصر البيزنطي.

مفتاح مخطط طلميثة وملاحظات على آثارها:

1- شارع النصب التذكارية: يمتد من الغرب إلى الشرق ويرجع تاريخه إلى العصر الروماني كما تظهر فيه أبنية من القرن الميلادي الرابع وما بعده. ويبدو أن هذا الشارع كان له طابعه الخاص إذ كانت توجد على طول ممرات مسقوفة ونوافير ومائيل تخرمية ونقوش. ويلاحظ أن قوس النصر الروماني الحديث في الطرف الغربي من هذا الشارع به ثلاثة أقواس - وهذا أمر غير مألوف في الأقواس الرومانية في أفريقيا - وإلى جانبه على الأرض أعمدة رخامية كانت تقوم أزواجا متقابلة على مدخل القوس.

2- البرك الرومانية: وهي من أصل روماني ولها سقوف معقودة بشكل غير عادي.

3- القصر الهلينستي: يرجع تاريخ هذا القصر إلى القرن الأول قبل الميلاد وتظهر عليه تعديلات ترجع إلى القرنين الأول والثاني للميلاد. ويقدر من حجمه وما فيه من زينات معقدة أنه كان منزلاً لأحد كبار الشخصيات. وفي طرفه الجنوبي عدد من قاعات الاستقبال المبلطة بالفسيفساء والتي تفضي في الشمال إلى فناء معمد في وسطه بركة ماء للزينة. وفي جهتيه الشرقية والغربية كانت غرف أخرى تشكل طباقاً ثانياً كان يقوم فوق مساكن الخدم والمرافق المنزلية الأخرى التي لا تزال موجودة وإلى الشمال يبدو أنه كان هنالك فناء ثان بأعمدة كورنثية زينت قواعدها بأوراق نبات الأكانثوس. ولا تزال كان يحيط بهذا الفناء الثاني وكانت به حمامات خاصة بأصحاب المنزل.

ومن الناحية الشمالية من جهة الشارع كان صف من الحوانيت مما يشير إلى العرف السائد آنذاك في تأجير أجزاء من المساكن الواقعة على الشوارع كمتاجر.

4- القلعة: (Citadel) هذه هي القلعة الرومانية الرئيسية التي بدئ بنائها في القرن الميلادي الرابع وبالإمكان ملاحظة التعديلات والإضافات البيزنطية التي أدخلت عليها في القرن السادس للميلاد والتي تتميز بصغر حجارتها.

5- أثر يرجع لنفس الفترة الخاصة بالقلعة (4) وفيه بقايا عقود داخلية مقوسة.

6- بنايات محصنة: ترجع لأواخر العصر الروماني وللعصر البيزنطي. وقد كانت قلاعاً أو مستودعات محصنة.

7- محوطة رومانية: ربما كانت فورم أو قوساً بداخله بناء معمد.

8- الفورم: فناء مربع ومحاط بالأعمدة. أعيد بنائه في القرن الميلادي الأول على موقع الأجورا الهلينستية وفوق أربعة عشر خزاناً كبيراً أزيلت سقوفها القديمة المكونة من البلاط الحجري وعوضت عنها بسقوف من العقود الرومانية وكانت المياه تأتي لهذه الخزانات من الركن الجنوبي الشرقي الذي ربما كان متصلاً بالقناة المائية رقم (15). ولا تزال آثار بلاط الفسيفساء باقية في الجهة الجنوبية كما يقوم في الجهة الشمالية معبد أجريت على بنائه تعديلات كثيرة.

9- المسرح: مسرح روماني صغير وبه قاعة استماع صغيرة شبه دائرية يحيط بها مربع من البنائات.

11- الباسيليكا: كنيسة مسيحية يرجع تاريخها إلى مطلع القرن الخامس الميلادي. وربما كان بناؤها على يدي الأسقف سونسيوس. ويدل بناؤها على أنها حوت عن بناية قديمة إلى كنيسة حصينة يسهل الدفاع عنها. وفي زاويتها الشمالية الشرقية معمدانية مقببة. وإلى الشمال الشرقي

توجد آثار كنيسية أخرى (11) مشابهة للباسيليك المذكورة.

12- البوابة الغربية: بناء هليينستي من القرن الثاني قبل الميلاد تظهر عليه آثار إصلاحات متأخرة. لاحظ حجر الحدود خارج البوابة. وكان قد أقيم في عهد دومتيان (81 - 96 م.) ليسجل عودة الأراضي البلدية لهذه المدينة.

13- سور المدينة: تظهر آثار سور المدينة في الجهة الغربية منها وربما كانت تعود إلى زمن البوابة الغربية. وتدل نقوش على بعض الحجارة التي استخدمت في ترميم السور فيما بعد على أنه رُم في القرن الميلادي الثالث. وبالإمكان تتبع خط السور الجنوبي على طول حافة الجبل. ولعل هذه الجهة من السور أصبح الدفاع عنها مستحيل في القرن الرابع الميلادي نظرا لطولها. ولعل ذلك يعلل بناء كثير من القلاع في المدينة في هذه الآونة.

14- المسرح المدرج: هذا مسرح روماني مدرج من القرن الأول والثاني للميلاد وكان يستخدم لعروض المصارعة والحيوانات المفترسة. والجدار الرئيسي الذي لا يزال موجودا في الداخل هو الجانب الخارجي للممر المعقود الذي كان يحيط بالحلبة. وعلى الجهة الشمالية الشرقية من هذا الجدار لا تزال توجد آثار زناز من الدهان رسمت عليه صور المصارعين.

15- الجسر: فوق وادي زوينة (Zuiana) وهو روماني من أواخر القرن الميلادي الأول وربما كان قد أقيم في عهد الإمبراطور تراجان (97 - 117 م.) وبه قوسان وتظهر على جزئه الشمالي بقايا قناة مائية كانت تحمل المياه للمدينة من التلال على مسافة خمسة وعشرين ميلا إلى الشرق.

16- السيرك أو ميدان السباق: وتدل آثاره بوضوح على أنه كانت به حلبة مستطيلة لسباق الخيول والعربات. قارن هذا مع سيرك سيرين.

17- المسرح: مكون في جُوف طبيعي في إحدى التلال وهو من النوع الهليينستي وربما كان تاريخه يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

18- الميناء: ربما كان الميناء القديم في نفس موقع الميناء الحديث. ويظن أن

المستوطنة الأولى هنا كانت إلى الغرب من هذا الميناء. وإلى الغرب من المدينة شمالي الطريق الرئيسي عدد كبير من القبور والحاجر. وضريح كبير يرجع للقرن الثاني قبل الميلاد. وربما كان خاصا بأصحاب القصر الهليينستي (3).

19- المتحف: فيه تماثيل ومنقوشات وقطع من تماثيل مصرية الأسلوب جيء بها من القصر الهليينستي (3) وهي تشير إلى ارتباط برقة بمصر في عصر البطالمة. وتجدر الإشارة إلى أنه وجدت في كل من طلميثة ولبدة وطبرق فسيفساء تمثل أورفيوس (Orpheus) وهو يعزف على قيثارته وحوله الوحوش والطيور تصغي إليه. ويعتقد أنها ترجع إلى أواخر القرن الرابع الميلادي أو أوائل القرن الخامس الميلادي⁹⁴.

توكيرا (Teuchira) = توكرة (Tocra):

في القرن الثالث قبل الميلاد صارت توكرة عضوا في إتحاد البنطابولس. ومع أنها سميت آرسينوي في عهد البطالمة فقد عرفت لفترة قصيرة من ذلك العصر باسم كليوباتريس (Cleopatra) نسبة لابنة كليوبتره من مارك أنطوني. وقد اشتهرت في هذه المدينة عبادة الإلهتين سيبيل (Cybele) وريا (Rhea) وهما إلهتان كانتا ترمزان لخصوبة الطبيعة. ومنذ عهد البطالمة سارت هذه المدينة على النحو الذي سارت عليه طلميثة التي تبعد عنها بخمسة وعشرين ميلا.

أما ما تبقى من آثار هذه المدينة فهو دائرة السور الكاملة وقد تهدم السور في معظم نواحيه وإن كانت أجزاء منه لا تزال قائمة بارتفاع معقول حيث تشاهد أبراج ذات زوايا أربع وبوابتان واحدة شرقية والأخرى غربية. وهذا السور من بناء الامبراطور جستنيان في القرن الميلادي السادس وتظهر فيه حجارة على بعضها نقوش تدل على أنها أخذت من بنايات أقدم من السور. وليس داخل السور الكثير مما تمكن مشاهدته خاصة وأن الحفريات لم تبدأ هنا إلا سنة 1938م. ولكن المرء لا يستطيع أن يتتبع آثار الشوارع والأبنية بما في

94- The Journal of Roman Studies, Vol. LII, 1962, an article under the title "An Orpheus Mosaic at Ptolemais in Cyrenaica", by R. M. Harrison, pp. 13 - 18.

ذلك كنيستان مسيحيان كانت إحداهما في الركن الشمالي بالقرب من القلعة التركية التي ربما كانت قد أقيمت على أسس الأكروبولس الاغريقي. وهنالك أيضا مجموعة من المنازل أجريت فيها حفريات قليلة ويوجد قربها حوض ماء طويل ما قد يشير إلى وجود اسطبل. ويظهر بين البساتين إلى الشمال من البرج الحديث القائم على تلة بها البوابة الجنوبية. فناء هليينستي معمد وعلى جانبه الجنوبي مر معمد مسقوف. كما يوجد عدد من القبور في الحاجر الواقعة في الجهتين الشرقية والغربية من المدينة. وهي قبور بسيطة منحوتة في الصخور وتدل نقوشها على انها استعملت في القرن الأول قبل الميلاد. وضمن هذه القبور بعض قبور مسيحية وأخرى يهودية. وتشير نوعية هذه القبور وندرة شظايا الرخام في هذه المواقع على ان مجتمع توكرة كان مجتمعا فقيرا يعيش عيشة بسيطة اذا ما قورن بمجتمعات المدن الأخرى. ولعل أهمية هذه المدينة كانت تكمن في كونها مركز حماية للممر الذي يتجه منها إلى الشرق.

وعلى الطريق من توكرة لبنغازي. شرقي برسيس (Bersis) وبجوار المسجد الصغير القائم جنوبي الطريق توجد بقايا قلعة ترجع إلى أواخر العصر الروماني أو إلى العصر البيزنطي. وإلى الغرب من هذا الأثر يوجد أساس بناء دائري كبير ربما كان موسوليم ضخما. ولا تزال بعض آثار المستوطنة الرومانية الجديدة هدرانابولس (Hadrianapolis) قائمة بين تنصولة ودريانة. وتشير تلك الآثار إلى وجود نقاط حراسة للطريق العام ووجود مساكن للمزارعين الذين كانوا يستغلون هذه المنطقة والذين كان الامبراطور هديران قد جاء بهم لإنعاش برقة بعد ما لحقها من خراب في أعقاب الثورة اليهودية. وفي الكوفية بالقرب من بنغازي توجد آثار مزرعة إلى الجنوب من الطريق مقابل السجن الايطالي وفيها آثار جيدة لمعصرة زيت زيتون.

يوسيبيريدس = برنتشي = برنيق = بني غازي = بنغازي:

في العصر البطلمي سميت يوسيبيريدس باسم برنتشي (Berenice)

تكرما للأميرة برنتشي ابنة الحاكم ماجاس بمناسبة زواجها من بطليموس الثالث يورجيتس أي الخير. ويرى أن الأميرة نذرت أن تكسر شعرها الجميل للإلهة أفروديت اذا رجع زوجها سالما من حملة له على سوريا 246 ق. م. وعندما حُفقت أمنيتها وفت بنذرها ولكن شعرها اختفى عن تمثال أفروديت في اليوم التالي لتكريسه. وقد أعلن كونون (Conon) الفلكي الأسكندري المشهور. أن العناية الربانية هي التي رفعت جدائل الأميرة برنتشي إلى السماء لتكون منها مجموعة جديدة من النجوم. ومنذ ذلك اليوم حتى الآن صارت مجموعة النجوم القريبة من ذيل الأسد (Leo) تعرف باسم جدائل برنتشي (Corea Berenices).

وقبيل هذا الوقت من القرن الثالث قبل الميلاد صارت هذه المدينة عضوا في اتحاد البنطابولس. وفي القرن السادس الميلادي جرى تحصينها في عهد جستنيان الذي أمر أيضا بإقامة عدد من الحمامات فيها.

أما آثارها فلم يبقى منها شيء يذكر لأن حركة العمران فيها منذ العصر التركي وخاصة أثناء الاحتلال الايطالي أدت إلى القضاء على الآثار القديمة. ولقد اكتشف على جزيرة في بحيرة تريتونس (Tritonis Lacus) تمثال للإلهة أفروديت (= فينوس) قرب معبدها الذي كان قائما على الجزيرة. أما الميناء الأصلي فرمى كان إلى الغرب من المنارة الحالية وغير بعيد عنها. وكانت المقابر القديمة تشغل مساحة إلى الجنوب الشرقي من البحيرة. ولا تزال القبور البطلمية والرومانية المنحوتة في الصخور تشاهد في مفلوقة على مرتفع حرجي إلى جانب البحيرة.

وعندما بني ذلك الجزأ من المدينة الذي سمي برنتشي بني سنة 247 ق. م. على النتوء الذي يفصل البحر عن البحيرة وعلى بعد ميلين اثنين من يوسيبيريدس. ولا بد انه بني قبيل زواج الأميرة برنتشي من بطليموس الثالث ملك مصر فنحن ما زلنا نذكر أنه لما توفي والدها ماجاس. حاكم برقة الذي كان قد استقل بها. سنة 258 ق. م. كانت الأميرة برنتشي في الرابعة عشرة من عمرها وكانت معطاة للأمير البطلمي الذي أصبح فيما بعد ملكا لمصر باسم بطليموس الثالث. ولكن الحزب القومي في قورينة عارض

تاريخ ليبيا القديم

قيام ارتباط وثيق مع مصر ونجح في اقامة نوع من الحكم الديمقراطي في قورينة. وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات تزوج بطليموس الثالث من برنتشي فعاتد منطقة برقة تابعة لمصر وغيرت أسماء بعض مدنها تخليدا لتلك المناسبة⁹⁵.

وتجدر الإشارة إلى ان بنغازي كانت مسقط رأس صياد السمك أندرونيكوس (Andronicus) الذي صار حاكما للبنطابولس حوالي سنة 410 م. وكان على علاقة خصام مع سونسيوس. أسقف طلميثة.

وبالإضافة للمدن الرئيسية التي مر ذكرها فان الاغريق والبطالمة ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون قد استغلوا كل المواقع المناسبة على طول ساحل برقة من مثل أجدابية التي لا تزال ترى بها بقايا كنيسة مسيحية من مخلفات القرن الميلادي السادس. والأسقف (Asgafah) إلى الشمال الغربي من الأبيار حيث يرى ضريح منحوت في الصخر من القرن الرابع الميلادي وعلى جدرانه رسوم تمثل صاحبه وزوجته وهما يتسلمان العائدات العينية من المزارعين الذين كانوا يعملون في أرضهما بالأجرة. وعلى مسافة قصيرة من هذا الموقع تقوم آثار بنائية كبيرة بين الخرائب يعتقد انها كانت منزلا لذلك الملك. ثم هنالك درنة حيث قضت حركة العمران الحديث على الآثار الاغريقية والرومانية وعلى الميناء القديم الذي لم يرد له ذكر قبل القرن الميلادي الثاني مما يرجح الاعتقاد بأنه لم تكن له أهمية تذكر. ولقد كانت المستوطنة الأصلية إلى الغرب من وادي درنة. ويلاحظ أن سقف المسجد الرئيسي في درنة يقوم على أعمدة رومانية. وهنالك أيضا طبرق التي لا شك أنها كانت ميناء اغريقيا ثم رومانيا ولكن لم يبق من آثارها شيء يذكر. وإن كان بعضهم قد روى أن الامبراطور جستينيان جدد تحصيناتها. ولا بد أن الاغريق والرومان لم يفهم أن يستفيدوا من المرفأ الصغيرة النافعة في مينا وعين غزالة والبردية⁹⁶.

95- Goodchild, R.G., Benghazi, The Story of a City, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd Edition, Lamin Hasni's Press, 1962

96- Hyslop, C.G.C., in collaboration with Applebaum, S., Cyrene and Ancient Cyrenaica, A Guide Book, Government Press, Tripolitania, 19945.

ثانيا: في طرابلس:

لبدة:

إن الأثار الفينيقية التي تم اكتشافها في لبدة حتى الآن هي عبارة عن عدد من القبور تحت المسرح الروماني. ومن المحتمل أن المقبرة الفينيقية كانت تقوم خارج المدينة الفينيقية التي نكاد نقطع بأنها كانت تقوم على المرتفع الواقع بين الفورم القديم ومصب وادي لبدة. وهي منطقة لم تكتشفها الحفريات بعد.

أما لبدة الرومانية فقد كانت مشيدة حسب الهندسة الرومانية التي تعتمد مبدأ الشوارع المتقاطعة عموديا وتحتفظ بتناسب قطاعي المدينة القائمين على جانبي شارع واحد هو محور المدينة. ومحور لبدة الرومانية هو شارع النصر الذي يبدأ من الفورم القديم، نواة المدينة الأصلية. ويتجه إلى الجنوب الغربي. وبإمكاننا أن نكون فكرة عن النمو السريع الذي حققته لبدة من ملاحظة تواريخ إقامة عدد من أثارها: فالسوق أقيم سنة 8 ق. م. والمسرح في سنة الميلاد والكلسيديكم (Chalcidicum) بين سنتي 11. 12م. وقوس صغير لأوغستا سالتوتارس. إلى الشمال من القوس السوييري. بين سنتي 27. 30 م. ولم تكن لبدة الرومانية الأصلية تتمتع بأية تحصينات حجرية وإنما كانت تحيط بها دائرة كبيرة من وسائل الدفاع الرملية.

وفي القرن الميلادي الثاني توسعت المدينة شرقا وغربا: فهناك فورم تراجان والباسيليكا الخاصة بهذا الإمبراطور وهما ما زال لم يكتشفا بعد ولكنهما ذكرا في بعض النقوش وربما يقومان في القطاع الغربي من المدينة الذي لم يكتشف علميا حتى الآن. وهنالك حمامات هدران التي شيدت على محور جديد للمدينة (شمالي - جنوبي تقريبا) في سنة 126 - 127م. بين القطاع الجنوبي من مدينة القرن الأول للميلاد ووادي لبدة الذي لا بد أن تكون قد أقيمت عليه سدود قبل هذا التاريخ لتحويل دون فيضانه على هذا الموقع. وفي مطلع القرن الميلادي الثالث أقيمت في المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من حمامات هدران. بين المدينة ومجرى الوادي. البنايات

السورية المؤلفة من شارع الأعمدة، والنمفية (مقر الحوارى)، والفورم الجديد والباسيلكا. وفي هذا الوقت ذاته أخذ المرفأ شكله النهائي كما أقيم السيرك والمسرح المدرج خارج المدينة في الناحية الشرقية من المرفأ الذي كان يصلهما به صف من المباني القائمة على طول الشاطئ، ونظرا لعدم استكمال الحفريات فان مساحة المدينة السورية ما زالت غير معروفة، وإن كان يعتقد أن تقاطع الطرق الذي يقوم عليه قوس سبتيميوس سيبيرس كان يقع داخلها وأنها كانت تمتد باتجاه الغرب حتى حمامات الصيد على أدنى تقدير.

ومن الواضح أن توسع لبدة السورية ونموها السريع إنما هما انعكاس لتوسع سياسي متكلف نشأ عن ارتباط الأسرة السورية بلبدة، مسقط رأس مؤسس تلك الأسرة. فعندما انهارت الأسرة سنة 235 م. بدأت المدينة السورية تتقهقر وتنحط. وإن كان تدهورها ذلك قد أوقف مؤقتا في عهدي ديوقلتيان وقسطنطين الكبير لينقض على المدينة من جديد ويعنف أشد في أعقاب غارات الأستوريين عليها (363 – 367 م.)، وبوسعنا أن نكون فكرة عن مساحة لبدة بين 250 و 350 م. بتتبع آثار السور الروماني. وهو أول سور حجري للمدينة ويرجع تاريخه إلى هذه الفترة ذاتها.

وحوالي منتصف القرن الميلادي الخامس هدم الوندال سور المدينة الروماني المذكور وتركوا المدينة عرضة لزحف الكثبان الرملية عليها، ولم يستطع من ظلوا بها من السكان أن يفعلوا شيئا أكثر من الإبقاء على مداخلها الرئيسية مفتوحة وذلك بازالة الرمال. والواقع أن السور البيزنطي الذي أقيم في عهد جستنيان لم يضم بين أحضانه سوى المرفأ والفورم القديم والفورم الجديد.

وفي الحديث عن حجر البناء المستعمل في لبدة نستطيع أن نقول بشكل عام أنه كان من صنفين:

الأول: حجر كلسي صلب يغلب عليه اللون الرمادي الفاتح وجده مستعملا في المنحوتات الزخرفية التي تميزت بها لبدة في القرن الميلادي

الأول. كما نجد على وجوه الجدران وفي الأماكن التي كان من المتوقع أن تتعرض للضغط أو للتآكل.

والثاني نوع من الحجر الرملي وهو اقل صلابة من الأول ولذلك فقد استعمل في أماكن أقل أهمية من الأماكن التي استخدم فيها الصنف الأول.

والمعتقد أن هذين الصنفين كانا يقلعان من موقع رأس الحمام الذي يقع على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب من المدينة حيث لا تزال الحماجر القديمة ماثلة حتى الآن. أما كتل الحجارة الكلسية الضخمة المستعملة في بناء المرفأ فيعتقد انها كانت تقطع من أماكن قريبة على المرفأ في مصب وادي لبدة ولكن مواقعها لم تحدد حتى الآن.

وفي القرن الميلادي الثاني شاع استعمال الرخام كعنصر جميل فأستخدم في الأعمدة وفي تصفيح الجدران وتبليط المصاطب؛ وجد بينه كثيرا من الرخام الملون الذي كان يجلب من مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي. ومن أجل الاقتصاد في الوزن كانت الأعمدة وقواعدها تعد في أماكنها قبل نقلها ثم يقوم النحاتون اليونانيون بإجراء اللمسات الأخيرة عليها في مواقع البناء في لبدة. ويلاحظ أن الاسمنت الروماني (إن جازت التسمية) والأجر اللذين يتميز بهما العمران الروماني في إيطاليا كانا نادرين في لبدة التي ظلت أقرب إلى الطابع الإغريقي منها إلى الروماني فيما أقامته من أبنية. ومع ذلك فنحن نجد الاسمنت مستعملا في عقد قاعة المسرح ثم بعد ذلك في حمامات هدریان وحمامات الصيد. كما نجد الاسمنت الموجه بالأجر في الباسيلكا السورية وفي النمفية (مقر الحوارى Nymphaeum).

آثار لبدة:

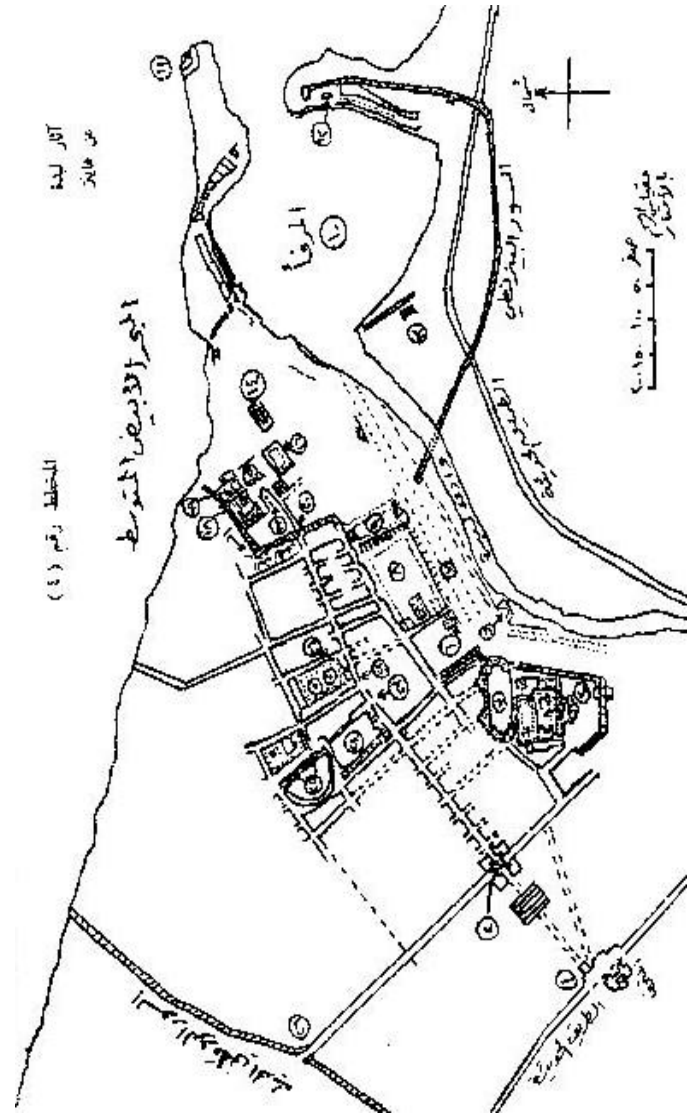
إذا أجهت من المدخل الحالي (1). المقابل للمتحف وسرت نحو الآثار فإن المرر سيؤدي بك إلى درج حديث من الاسمنت ينتهي بك عند آخره إلى الشارع المحوري الرئيسي (Cardo) للمدينة القديمة. وبعد مسافة قصيرة

يتقاطع هذا الشارع مع شارع لبدة الرئيسي (Decumanus Maximus) مكونا بذلك أول تقاطع طرق في المدينة حيث جري إعادة نصب قوس سبتيميوس سيويرس (2). الآن. ويبدو أن هذا القوس أقيم على وجه السرعة وربما كان ذلك بمناسبة الزيارة التي قام بها الامبراطور سبتيميوس سيويرس للبدة سنة 203 م. وهذا القوس من النوع ذي الأربعة جوانب وممرين اثنين وتدل مصطبته المرتفعة على أن العربات لم تكن تمر من تحته. وكان بنائه بالحجر الكلسي المصفح بالرخام وقد زين بكثير من الأباريز ذات الحفورات البارزة. وكان على كل جانب من جانبي الممرين عمود كورنثي. وقد نقلت عدة قطع من زخارف هذا القوس المزينة بالحفورات والأشكال البارزة إلى متحف السرايا الحمراء بطرابلس حيث ما زالت تشاهد حتى الآن. وبالإمكان تقسيم الزخارف ذات الأشكال إلى مجموعتين كبيرتين:

الأولى: وتتكون من أربعة زناير كبيرة قائمة الزوايا وعليها رسوم وأشكال تمثل موكبي النصر. ومشهد تضحية. والامبراطور سبتيميوس سيويرس ممسكا بيد ابنه الكبير كراكلا ومعه ابنه الصغير جيتا (Geta). وهذه الصورة ترمز لوحدة الأسرة الامبراطورية.

والثانية: تتكون من ثمانية زناير صغيرة قائمة كان كل زوج منها مثبتا مقابل زوج آخر على وجوه الجدران الداخلية لكل من الممرين اللذين يقوم عليهما القوس. وأشكال هذه المجموعة تمثل جماعات تقليدية من الآلهة وإن كانت أشكال أحد زنايرها - وهو مع الأسف محروق ومكسور - تظهر الجنود الرومانيين وهم يحاصرون مدينة شرقية.

وبين زخارف هذا القوس الأخرى تظهر أشكال لأسرى من البربر. ولأسلابهم. ولعدد من إلهات النصر وهن يحملن التيجان وسعف النخيل. ولعدد من النسور التي مثلت وقد فردت اجنحتها ووقفت على عدد من الكرات الأرضية. وإلى جانب هذا كله تظهر على الزناير الكبيرة التي كانت تزين زوايا القوس الخارجية الأربع لفائف من أغصان العنب تنتشر بين أوراقها أشكال لعدد من العصافير وعدة أشكال لإله الحب كيوبيد (Cupid).



وبوسع المرء أن يلاحظ تعدد أساليب النحت المتبعة في هذا القوس مما يشير إلى أن النحاتين الذين أسهموا في عمله كانوا متعددين وينتمون إلى مدارس فنية مختلفة. ويكاد يكون في حكم المؤكد أن الأعمدة المربعة في الزوايا بعض عناصر الزينة الأخرى هي من نحت فنانيين من أبناء مدينة أفروديسياس (Aphrodisias) في آسيا الصغرى بمعاونة مساعديهم من تلاميذهم المحليين في لبد، ويظهر أثر هؤلاء مرة ثانية في الأعمدة المربعة في الباسيليك السوبرية التي انتقلوا للعمل فيها بعد فراغهم من أعمال القوس. ومن الواضح أن أعمال هذا الفريق تتباين تباينا كبيرا من حيث الأسلوب ومستوى المهارة الفنية. وإلى جانب ذلك نجد زناجير منحوتة تتميز بالطابع الكلاسيكي. وأخرى يظهر فيها أثر فن النحت السوري والعراقي القديم. ويشير الأسلوب الذي نحتت به عربة سبتيميوس سيويرس في أحد مواكب النصر إلى الميل العام لجعل كل الصور والأشكال تلتفت إلى أمامها بغض النظر عن الواجهة التي يجب أن تلتفت إليها طبقا لما يتطلبه الموقف. ويبعد هنالك ميل آخر يتجلى في مشهد التضحية وهو جمع الأشكال الأمامية المتساوية الارتفاع في صفوف مما يؤدي إلى إحداث أنماط متساوية بتكرار هذه العملية.

وبالإضافة إلى تأثير روما نفسها وهو واضح في الزنار الذي يحمل مشهد الحصار: هذا الزنار بنوعيته القصصية وبالمنظرة الشاملة للموضوع تقترب من فن النحت الذي نراه في أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس وفي قوس سبتيميوس الذي أقيم في نفس الفترة في الفورم الروماني بروما.

وبعد أن تتوجه من قوس سبتيميوس سيويرس إلى الشرق في الشارع الرئيسي فإن الأولى بك أن تسير مع أول منعطف على يدك اليسرى لتصل إلى موقع أجريت فيه دراسات أثرية شاملة هو الطرف الغربي من الباليسترا (3) (Palaestra). أي الملاعب. وقد كانت هذه عبارة عن فناء مستطيل مكشوف. جوانبه الأربعة مستقيمة وأركانه شبه دائرية ويحيط به ممر مستور من الأعمدة الكورنثية.

وبجوار الملاعب إلى الجنوب توجد حمامات هدرمان (4) وكانت قد

افتتحت بين سنة 126 م. وسنة 127 م. ثم جرى ترميمها وتعديلها في عهد الإمبراطور كومودس (180 - 193) (Commodus م). وقد صممت حمامات هدرمان هذه على نفس خطة الحمامات الكبرى في روما فأقيمت وفقا لمخطط متناسب بحيث تشغل غرفتها الرئيسية المحور المركزي بينما تقوم الغرف الثانوية على جانبي ذلك المحور. وتقع في الطرف الشمالي من البنايات المركزية النئاتيو (Natatio). أي بركة السباحة الكبيرة المكشوفة التي كان مدخلها في وسط الجدار المحيط بها من الشمال بينما كان يحف بها من الشمال والغرب والشرق ممر مستور ومعمد بأعمدة كورنثية وردية اللون. وتظهر في الجهة الجنوبية من الجدار نتوءات يرجع تاريخها إلى فترة لاحقة وربما كانت تمثل تعديلات أجريت في عهد كومودس. وفي هذا الجدار ذاته أربعة أبواب: اثنان في الوسط وواحد في كل من الطرفين وهي تفضي جميعاً إلى الممر المحيط بالفريجيداريوم (Frigidarium) (ب) التي يتمثل فيها، بالنسبة لفن النحت، أبرز مظهر للحمامات: لأنها كانت عبارة عن بهو فخم مبلط ومزّن بالرخام ومظلل بثلاثة سقوف متقاطعة من الاسمنت ترتكز أسسها على ثمانية من الأعمدة الكورنثية الضخمة.

وقد وجدت شظايا من قطعة رخام جرى تثبيتها على جدار البهو الجنوبي وهي تحمل نقشاً يشير إلى أن ترميم الغرفة الباردة وأجزاء أخرى من الحمامات وتزيينها «بالرخام والأعمدة» قد تم على يدي روزونيانوس (Rosonianus) بموجب إذن من الإمبراطور خولس فيه التصرف في بعض مخصصات المصارعة. وبعد وفاة كومودس. محي اسمه الذي كان في أصل هذا النقش وحفر مكانه اسم سبتيميوس سيويرس. وفي الطرفين الشرقي والغربي من البهو الرئيسي كانت تقوم أروقة مقوسة تفضي إلى مغاطس ماء بارد يعود تاريخ ما عثر عليه من زخارفها، بما في ذلك بعض الأعمدة الكورنثية، إلى أواخر القرن الميلادي الثاني. وفي وسط الجدار الجنوبي للغرفة الباردة باب يفضي إلى التيداريوم (Tepidarium) أي الغرفة الدافئة (ج): وقد كانت في الأصل حوي حماما واحدا فقط يقع في وسطها. أما الحمامان الأخران فقد أضيفا فيما بعد باقتطاع جزء من الممر الموجود في القسم الجنوبي من

الغرفة الباردة. وعلى جانبي الحمام الواقع في منتصف الغرفة الدافئة مران تسترته عنهما أزواج من الأعمدة الكورنثية المصنوعة من الرخام الرمادي. ويؤدي هذان المران إلى دهليز خلف الحمام كان يستخدم كمنظم حراري بين الغرفة الدافئة والكلدarium (Caldarium) أي الغرفة الحارة (د). وكانت هذه الأخيرة عبارة عن غرفة لها سقف كأنه جانب اسطوانة ويدخل إليها النور من نوافذ مقوسية. وقد وجدت في هذه الغرفة قطع من حجر كلسي اللون تشير بقايا كتابة منقوشة عليه إلى ان هذا الحمام كرسه للإمبراطور هدریان بوبيليوس سلر (Popilius Celer) مندوبا عن البروقنصل فاليريوس بسكوس (Valerius Piscus). وفي الطرفين الشرقي والغربي المناسبة (هـ. هـ.) التي كانت تسمى لكونيكا (Laconica) والتي استخدمت في أواخر عهدها كحمامات هوائية حارة حُمى بواسطة هواء حار يدور تحت مصاطبها المرتفعة بلاط جدرانها. ويلاحظ هنا أن هذه الترتيبات ليست أصلية وإنما جرى استحداثها في فترة لاحقة. وكان في الجدار الشمالي لكل من غرفة الـ (لكونيكا) الخارجية مدخل يفضي إلى صالة في المر الجنوبي يستطيع المستحم أن يرجع منه إلى الغرفة الباردة مباشرة. ولسنا نعرف بالتأكيد الأغراض التي كانت الغرفة الأخرى تستعمل من أجلها وإن كنا نفترض أن بعضها كان يستخدم لتغيير الملابس والبعض الآخر للقيام بالتمارين الرياضية وربما للمكتبة والمطالعة. والغرفتان الوحيدتان اللتان يظهر عرضهما واضحا هما غرفتا المراحيض (و - و) اللتان تشغلان الزاويتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من البناء. وهذان المرحاض كانا على النمط الروماني العادي فمقاعدتها كانت من الرخام وكانت في كل منها قناة عميقة تحيط بثلاثة جوانب من الغرفة وتستخدم مياهها في كسح المرحاض. أما الجانب الرابع من الغرفة فكان يشغله جُوف كالحراب موجود ما بين المدخلين ومخصص ليوضع فيه احد التماثيل. وكانت المنطقة الوسطى من المرحاض الشرقي مكشوفة لولا وجود حاجز ذي ثلاثة جوانب مكون من عدد من الأعمدة الكورنثية. أما المرحاض الغربي. وهو أصغر من المرحاض سابق الذكر. فقد كان يغطيه تماما سقف قائم على أعمدة ذات

قواعد.

ولا تزال بقايا المواقد وغرف التسخين. التي كانت بها سخانات تستخدم لتسخين مياه الحمامات الحار والدافئ. ماثلة على طول امتداد الجدار الجنوبي (ز- ز). وعلى مسافة قصيرة إلى ما وراء البناية من الجنوب يوجد صف من الأحواض أكتشف عنده نقش يفيد ان رجلا من لبداء اسمه كوينتوس سيفيليوس كانديدوس (Quintus Servilius Candidus) «وجد الماء فاستخرجه وجره إلى مستوطنة لبداء (ربما بواسطة قناة مائية) على نفقته الخاصة» بين سنة 119 - 120 م.

وينتهي الطرف الشرقي للملاعب بساحة متعددة الأضلاع مصممة كجزء من برنامج البناء السوييري لتكون محورا بين الشارع الموجود على الجانب الشرقي من حمامات هدریان وشارع الأعمدة الجديد الذي كان يمتد على محور ينحرف قليلا لكي يتجاوز الفورم السوييري. وفي الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية للساحة المذكورة مدخلان مقوسان يفضيان إلى هذين الشارعين. ولا تزال آثار قوسين ملتويين قائمين في الجهة الشمالية الغربية ولكن هذه المنطقة أصابها كثير من التغيير نظرا لمرور السور البيزنطي بها. ويصل مدخلي هذين الشارعين في الجهة الجنوبية الشرقية مقر الخواري السوييري (5) وهو مكان رطب. شبه دائري وفيه صحن نافورة وتحيط به جدران عالية.

وعلى بضعة أمتار من الساحة المذكورة وفي الزاوية الواقعة بين الجدار الشمالي الغربي لشارع الأعمدة الجديد والجدار الجنوبي الغربي للفورم السوييري تظهر آثار كنيسة (6) ربما كانت واحدة من الكنائس الصغيرة الأربع التي شيدها جستنيان في لبداء. ويتبع بناء هذه الكنيسة خطة الباسيليكا من حيث التصميم فهو عبارة عن بهو مستطيل ينقسم طولاً إلى صحن وممر عليه صفان من الأعمدة يتكون كل منهما من ستة أعمدة. بينما أقيمت المعمودية وجرنها المصلب في الزاوية الشمالية الشرقية من البناء.

شارع الأعمدة (7):

يصل حمامات هدران بالمرفاً ويدور حول الفورم والباسيليكا السوبرية. وقد كان الشريان الرئيسي للبدّة السوبرية. ويعتبر هذا الشارع العريض الذي كانت تحف به مرآت مستورة معمدة مثالا ممتازا للشوارع الرومانية التذكارية المتوافرة بكثرة في سوريا الرومانية. وكانت أعمدة مرآتة تقوم على قواعد مربعة. ولها تيجان على شكل زهرة اللوتس أو زهرة الأكانثوس. تخرج منها أقواس صغيرة جميلة كانت ذات أثر بعيد في فن النحت الاسلامي وفن النحت الأوروبي فيما بعد.

فإذا سرت مع شارع الأعمدة هذا باتجاه المرفاً وجدت نفسك بعد مسافة الباب الأول والأوسط والأخير من تلك الأبواب عبارة عن مداخل للفورم السوبري (8) الذي يشبه إلى حد كبير مثيلاته في روما في كونه عبارة عن ساحة مستطيلة (100 × 60 مترا مربعا) تحف بها مرآت مستورة معمدة ويشرف عليها معبد مرتفع يبرز من وسط طرفها الجنوبي الغربي. وتشبه أعمدة مرآت هذه الساحة تلك المستخدمة في شارع الأعمدة من حيث صنعها ونحتها وإن كانت قد أثبتت بين أقواسها بالتوالي رؤوس المدوزة والنيريد (Nereid)⁹⁷. المصنوعة من الرخام.

ولسنا نعرف لمن كرس ذلك المعبد وإن كان من المحتمل انه كرس لأسرة سبتيميوس (Gens Septimia). وهو من الطراز الايطالي الذي يقوم على قاعدة مقوسة وأمام مقدمته درج ذو ثلاثة جوانب بينما يبرز الجزء الخلفي منه ليظل مباشرة على الجدار المحيط بالفورم. وكانت تحيط بمقدمة وجوانب صحن هذا المعبد أعمدة من الطراز الكورنثي بجذوع من الجرانيت الأحمر ثمانية منها في المقدمة وتسعة على الجوانب. وكانت أعمدة المقدمة الثمانية تقوم على قواعد رخامية مربعة حفرت عليها أشكال تمثل معركة دائرة بين الآلهة والعمالقة. أما صحن المعبد فكان مربعاً ولا تزال قطع من بلاط مصطبته الرخامي الأخضر تشاهد حتى الآن.

97- النيريد في الأسطورة الإغريقية هي حورية البحر أو ابنة نيربوس «Nereus». إله البحر.

أما الباسيليكا السوبرية (9) فقد كانت عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة تنتهي عند كل من طرفيها بتجويف تشبه دائري أقيم عليه نصف قبة. وكانت تقسم هذه الباسيليكا طوليا إلى صحن ومرآت جانبيه أعمدة مقامة على شكل طابقين كما كانت تمتد فوق الممرآت الجانبية صالات خشبية للصور ترتفع إلى مستوى تيجان الطابق الأول من الأعمدة. وليس هناك ما يدل على مخطط القسم العلوي من هذا البناء. ومن المحتمل أن الصحن كان أعلى من الممرآت وكانت إنارته تتم بواسطة صف خاص من النوافذ. ومهما كان شكل هذا القسم العلوي من البناء فلا بد أن الصحن والممرآت كانت مسقوفة بالخشب.

وكانت أرض الباسيليكا مبلطة بالرخام كما أن جدرانها كانت مكسوة به إلى مستوى ارتفاع صالات الصور على الأقل. وكانت أعمدة الممرآت من الطراز الكورنثي بجذوع من الجرانيت المصري الأحمر. وقد أفادت نقوش على بعض تلك الأعمدة انه بديء بهذا البناء في أيام سبتيميوس سيويرس وفرغ منه في أيام كراكلا سنة 216 م. وكانت الفجوات فيما بين الأعمدة تزين باقامة التماثيل فيها وعندما حول جستنيان هذه الباسيليكا إلى كنيسة أقيم المذبح في الركن الجنوبي الشرقي منها وهو الركن الذي وسعت مصطبته المرتفعة مدها إلى الامام. وقد أحيط المذبح بست قواعد أعمدة وبقطع أعمدة مأخوذة من قوس سبتيميوس سيويرس كما أقيم له منبر بنفس الطريقة في صحن الكنيسة.

وهناك أبواب مقوسة في نهاية الممرآت الجانبية تفضي إلى غرف أربعة تطل على نهاية جدران الباسيليكا: منها غرفتان قائمتان في الشمال الغربي وهما مربعتان. والغرفتان الأخريان تقومان في الجنوب الشرقي وتبدوان غير منتظمتي الشكل. وقد كانت هذه الغرف الأربعة في حالتها الأصلية مبلطة ومزينة بالرخام وكانت لها سقوف خشبية يرتكز الواحد منها على أربعة أعمدة قائمة في الزوايا الأربع على قواعد مربعة. ومزينة بتيجان على شكل زهور اللوتس والأكانثوس. وفي القرن الميلادي السادس جدد البيزنطيون سقوف الغرف الجنوبية، والشرقية، والغربية بعقود من الحجر الرملي.

واستعملوا الحجرية الغربية كغرفة تعמיד بعد أن حفروا جرن معمودية في مصطبتها.

وإلى الجانب الشمالي الشرقي من الباسيليكامر تذكاري يربط شارع الأعمدة بالقسم القديم من المدينة في الشمال الغربي. ويتميز هذا الممر في كلا طرفيه بقوس كما يقوم على طول جهته الجنوبية الغربية صف من الأعمدة القائمة على قواعد مربعة أمام جدار الباسيليكام.

المرفأ (10):

كان مرفأ لبدة في الأصل عبارة عن مصب واديهما الذي كانت خميه من الجهة الشمالية والشرقية حواجز خارجية. وبعد ذلك حولت ضفاف المصب إلى أرضفة ميناء. وخلال العهد السويدي وصل بين حواجز المرفأ الخارجية ببناء حجري لحماية المرفأ من جهة البحر في الشمال والشرق. وهكذا كان هذا المرفأ عبارة عن شكل متعدد الأضلاع وغير منتظم يبلغ محيطه حوالي ثلاثة أرباع الميل وله ثغرضيق في القسم الشمالي الشرقي منه يحميه ذراع بارز من جهة الشمال. وحوض المرفأ ذاته ملوء الآن بالرمال كما ان أرضفته لا تكاد تبدو للعين الا في جزئه الشرقي.

المنارة (11):

تقوم على رصيف حجري. وهي عبارة عن برج ذي أربعة أوجه. ولا بد أنه كان مكونا من عدة طبقات وفقا لما كان معروفا من هندسة المنارات القديمة. وكان بناء هذه المنارة يضيق شيئا فشيئا باتجاه رأسها حتى ينتهي إلى القمة التي كانت قاعدة لمصباح الانارة. ومن المؤسف أنه لم يبق من هذه المنارة إلى الآن سوى أساس برجها وزاويتها الجنوبية الغربية. ولقد كان مدخلها في وسط جدارها الغربي الذي قد انهار منه ما يقارب نصفه. ويمكن مشاهدة كتلة كبيرة من الاسمنت في البحر غير بعيد عن مكان المنارة يعتقد أنها كانت جزءا من القسم العلوي للبرج.

وفي القسم الشرقي من المرفأ كان رصيف ترسو إلى جانبه السفن

وتشدد إلى مرابط مثبتة في جداره الخلفي. وكانت تطل على هذا الرصيف المستودعات وأبنية المرفأ الأخرى التي كان بينها معبد دوري صغير (12) حول فيما بعد إلى كنيسة. وإلى الجنوب من هذا المعبد كان صف من المستودعات خلف مرمعمد مستور. وبالإمكان مشاهدة آثار السور البيزنطي الذي أقيم في وقت لاحق بحجارة من الأثار السابقة حول هذا الجزء الشرقي من المرفأ. أما الجزء الجنوبي من المرفأ فان الدراسات الحفرية لم تستكمل بالنسبة له وإن كان يتميز بمعبد كبير (13) لم يكتشف منه حتى الآن سوى درجاته الامامية ومصطبته.

الكوريا (Cnria) أو المجلس البلدي (14):

يقوم هذا البناء في ساحة مربعة سويت أرضها ورفعت. وكان مدخله من الجهة الجنوبية الغربية حيث يوجد درج عريض. كما كان يحيط به مرمستور من أعمدة الحجارة الرملية. ولقد كان هذا البناء مربعا كبناء المعابد وامامه درج ومصطبة بها ستة أعمدة كورنتية: أربعة منها في المقدمة واثنتان خلفيان يقوم كل واحد منهما خلف عمود الزاوية الأمامي. وكانت هنالك ثلاث أبواب تفضي إلى قاعة المجلس التي لا تزال تشهد فيها بقايا الدرج المنخفض العريض حيث كانت توضع مقاعد القضاة. أما تاريخ هذا البناء فرما كان القرن الميلادي الثاني.

الفورم القديم (15):

يقع الفورم القديم غربي الكوريا مباشرة وقد كان مركزا للحياة الشعبية في المدينة. وكان عبارة عن ساحة مكشوفة ذات أربعة أضلاع قائمة الزوايا من الجهة الجنوبية والغربية ولكن جانبها الشمالي الشرقي كان ينحرف حتى يكون زاوية حادة في نهايته الشمالية. وتبدو. في الوضع الحالي لهذا الفورم. آثار رصيف في ركنه الشمالي يرجع إلى عهد الامبراطور أوغسطس. وكانت تحيط بهذا البناء معابد المدينة الرئيسية ومبانيها العامة. وتقوم إلى جانبه الجنوبي الشرقي الباسيليكام القديمة (16) التي كانت تستخدم كمحكمة وكبورصة. وهي عبارة عن قاعة مستطيلة لها مدخلان رئيسيان

في جبتها الشمالية الشرقية ومدخل فرعية في وسط ضلعها الطويلين. وكانت أرضها مبلطة بالرخام. أما أعمدتها الأصلية فكانت من حجر الكلس ولكن أعمدة الجرانيت الرومانية التي أعيد نصب اثنين منها مؤخرا ترجع إلى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير. وكان بنائها الأصلي الذي أقيم قبل سنة 53 م. قد اصاب بأضرار بالغة بسبب صاعقة أصابته في أواخر القرن الميلادي الثالث ولكنه أعيد بناؤه إلى ما كان عليه في عهد جستنيان. وفي الطرف الجنوبي للواجهة الجنوبية الغربية من الفورم. تقوم آثار معبد صغير للإلهة سيبيلا (Cybele) أو الأم الكبرى في ساحة خلف ممر الفورم (2). وبعد هذا المعبد. وعلى الجانب الآخر من شارع الكاردو تقوم كنيسة الفورم القديمة القائمة على أنقاض معبد تراجان. وهي في خطتها أشبه بالباسيليكا إذ إنها مقسومة إلى صحن وممرات بواسطة صفين مستطيلين من الأعمدة. كما أنها لها خمسة أبواب.

وتقع خارج هذه الكنيسة مباشرة مقبرة مسيحية صغيرة لا تزال بعض نصب قبورها ماثلة وعليها أسماء من دفنوا فيها ومعظمهم من الاطفال.

وفي الزاوية الغربية من الفورم ممر مستور ذو ثلاثة جوانب (د) وهو مبلط بالرخام ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن الميلادي الثاني. وكانت تقوم في الطرف الشمالي الغربي للفورم ثلاثة معابد الواحد منها إلى جانب الآخر. وأقصاها إلى الجنوب هو معبد ليبر باتر (18) (Liber Pater) وهو أقدم الثلاثة وربما كان يرجع إلى عهد الامبراطور أوغسطس. وقد بني في الأصل بالحجر الكلسي ولكن ما بقي قائما من آثاره يدل على أنه أعيد بنائه بالرخام في منتصف القرن الميلادي الثاني. وقد وصل هذا المعبد في وقت لاحق بمعبد روما - أوغسطس المجاور بواسطة جسر قائم على اقواس حجرية فوق الممر الفاصل بين المعبدين.

معبد روما - أوغسطس (19).

كرس هذا المعبد بين سنة 14 م. وسنة 19 م. وكما هي الحال بالنسبة لمعبد ليبر باتر فان معبد روما - أوغسطس بني في الأصل بالحجارة الكلسية

ولكنه زين بالرخام عندما جدد بناؤه في القرن الميلادي الثاني. وهو يقوم على مرتفع مستطيل ينخفض قليلا من الامام بحيث يسمح بتكوين روسترم (Rostrum) أي منبر للخطابة يطل على الفورم ويتم الدخول إليه بواسطة سلمين صغيرين من الدرج مخفيين في جوف في جانبيه بينما كان في مؤخرة المنبر سلم قصير ذو درج عريض يفضي إلى مصطبة المعابد. وخطة هذا المعبد هي نفسها التي تظهر في معبد فينوس القيصري في فورم يوليس قيس بروما مما يدل على أن هذا المعبد الأخير هو الذي أوحى لمهندسي معبد روما - أوغسطس في لبة بختهم. ويمر السور البيزنطي بالقسم الخلفي من هذا المعبد شاملا ركنه الشمالي وسائرا في خط مائل إلى نقطة متوسطة في ركنه الغربي. وكانت أعمدة هذا المعبد الإيونية في الأصل من حجر الكلس ولكن الأعمدة الرخامية أدخلت عليه في القرن الميلادي الثاني. وكانت في هذا المعبد تماثيل للإلهة روما ولأوغسطس وتيريوس وليفيا (Livia) وآخرين من أعضاء الأسرة البولبو - كلودية. وقد وجدت بقايا من تلك التماثيل قريبة من المعبد وهي الآن في متحف السرايا الحمراء بطرابلس. وكان هنالك جسر آخر يصل هذا المعبد بمعبد صغير إلى الشمال منه (ه).

البوابة البيزنطية (20):

هي أصلح بوابة باقية تؤدي إلى المدينة البيزنطية ويقوم على جانبها برجان مربعان يبرزان من وجه الجدار الخارجي. وكانت هذه البوابة قد شيدت بحجارة مأخوذة من الأبنية السابقة وعلى بعضها نقوش تدل على أصلها من مثل تلك التي تشير إلى نصب كان قد كرس للإمبراطور فسبسيان.

وإذا واصلت سيرك من البوابة البيزنطية في شارع الكاردو. فانك ستجد نفسك بعد قليل عند السوق (21) الواقع على يمينك. وكان أحد اثرياء لبة واسمه انوبال روفس (Annobal Rufus) قد أقام سوقها الأصلي بين السنة الثامنة والسنة التاسعة قبل الميلاد. ولكن تعديلات كثيرة أدخلت عليه فيما بعد. وكان هذا السوق في الأصل عبارة عن ساحة مستطيلة تحيط بها

أبنية المدينة وأبدعها. وقد بني كله من الحجر الكلسي على نقطة تقاطع طرق؛ ولذلك فهو ذو أربعة أوجه. وقد كرس البروقنصل بمبونيوس روفس (Pomponius Rufus) (109 - 110 م.) تخليدا لرفع الامبراطور تراجان مدينة لبدة إلى مستوى مستوطنة رومانية.

ويتصل قوس تراجان بالركن الشمالي الشرقي للكالسيديكوم «Chalcidicum» (24) وهو عبارة عن ممر طويل مستور ومعمد وخلفه ساحة مستطيلة مكوفة حُيَظ بها الممرات المستورة المعمدة. وربما كانت هذه الساحة سوقا آخر. وكان بناء هذا الممر قد تم بالحجز الكلسي بين سنة 11 م. وسنة 12 م. ثم زين فيما بعد بالرخام. والأعمدة الباقية من أعمدته ذات تيجان كورنثية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الميلادي الثاني أو أوائل الثالث. ولكن جزءا من حجارته الكلسية الأصلية ظل موجودا حتى الآن وعليه ثلاثة نقوش يشير النقش الأوسط منها إلى ان الكالسيديكوم كان قد كرس للامبراطور أوغسطس.

المسرح (25):

إن لبدة مدينة باقامة هذا المسرح للشخص ذاته الذي أقام السوق وهو أنو بال روفس وكان تشييده في السنتين الأولى والثانية للميلاد؛ وهو يتكون من قاعة استماع شبه دائرية تتصل بحلبة المسرح وفيها مداخل ذات أقواس في مستوى الأرض يؤدي بعضها إلى ممرات وأدراج تفضي إلى المقاعد الحجرية وإلى الدهاليز الجانبية المسقوفة التي ربما كانت تستخدم كمخازن للأدوات المسرحية ويوجد في كل من نهايتي شبه الدائرة. وبعد بناء حلبة المسرح. مدخل يؤدي خلال ممر مسقوف إلى مركز الأوركسترا. وحُيَظ بالأوركسترا شبه الدائرية أدراج منخفضة كانت توضع عليها الكراسي للشخصيات الممتازة من المتفرجين. وكانت الصفوف الدنيا من مقاعد قاعة الاستماع تقوم على منحدر طبيعي بينما تقوم الصفوف الوسطى منها على مرتكز صناعي من التراب والحجارة. والصفوف العليا على مرتكز ضخم من الاسمنت والبناء الحجري وتنقسم المقاعد أفقيا إلى ثلاثة قطاعات بواسطة

الممرات المستورة المعمدة من جوانبها الأربعة. وبها كشكان اثنان فقط. أما مدخلها الرئيسي فكان في منتصف ضلعها الجنوبي الغربي الطويل. وفي الفترة السوبرية فتحت لهذا السوق بوابة رئيسية جديدة في طرفه الجنوبي الشرقي. ولا يزال عدد من مناخذ السوق الحجرية موجودا حتى الآن. وقد حفرت على بعضها أسماء وعلى البعض الآخر أسماك وعلى واحدة منها المقاييس. ومن وراء الممر المستور في الزاوية الجنوبية الشرقية صف جميل من المناضد الرخامية. وإلى جانب الكشك المبني من الحجارة الكلسية توجد قاعدة تمثال على شكل قوس مصلب مزينة بمراكب تجارية محفورة حفرا بارزا. وعليها نقش يرجع إلى القرن الميلادي الرابع. ولكنك اذا دققت النظر اكتشف أنه حل محل نقش أقدم منه. ويخلد هذا النقش ذكرى تكوين مجموعة عربات سباق تكريما لشخص يدعى بورفيريوس (Porfyrius) بمناسبة تقديم أربعة من الفيلة الحية هدية للمدينة.

وإذا أنت غادرت السوق إلى الشارع الجوري. الكاردو. فانك ستصل مباشرة إلى قوس تيبيريوس (22) الذي يشرف على الركن الجنوبي من موقع السوق. وهو قوس بسيط من الحجر الكلسي خال من كل زخرف باستثناء كرنيش بسيط. وعلى هذا القوس نقش يفيد ان القوس اقيم تخليدا لعملية رصف جميع شوارع المدينة في عهد البروقنصل روبليوس بلاندوس (Rubellius Blandus) 35-36 م. وأن جميع نفقاته غطيت من الدخل الناجم عن أراض معينة كان البروقنصل نفسه قد استعادها من الجرمانيين الذين استولوا عليها أثناء ثورة تكفاريناس (Tacfarinas). وقد وجدت آثار قوس آخر عليه هذا النقش نفسه في الشارع الذي يأتي مباشرة بعد الممر المستور المعمد والكائن خلف المسرح. ولا شك أن هذين القوسين كانا حدودا للمنطقة التي رصفت مجددا من المدينة.

قوس تراجان (23):

يقوم إلى الجنوب من قوس تيبيريوس وعلى امتداد الكاردو وهو من أحدث

ممرين بينما تنقسم عموديا بواسطة سلالم من الدرج إلى عدة قطاعات كل منها على شكل اسفين. وكان على جانبي حلبة المسرح مدخل يوصل إلى غرف تغيير الملابس. وما زالت تشاهد تحت أرض الحلبة التي بنيت على موقع مقبرة فينيقية قديمة، آثار خندق كانت تنزل فيه الستارة عند بدء العمل على المسرح.

وإذا تابعت سيرك على الشارع الممتد إلى الجنوب الغربي من الجهة الغربية للمسرح وموازاة الكاردو الرئيسي فانك ستصل إلى الدكيومانوس الرئيسي الذي توجد عبره وعلى مسافة مائتي ياردة إلى الغرب منه البوابة الغربية (26). وقد كانت هذه البوابة في الأصل قوسا تذكاريًا يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني. ثم حولت فيما بعد إلى بوابة محصنة للصور الروماني الجديد.

من هذه البوابة يمكنك أن تعود باتجاه الدكيومانوس إلى قوس سبتيميوس سيويرس ومنه إلى الخارج أو أن تواصل سيرك إلى حمامات الصيد.

وحمامات الصيد هذه تقوم على منتصف المسافة بين السور الروماني الجديد ووادي رصيف (Rsef) على بعد حوالي مائة ياردة من البحر. وربما كان تاريخ بنائها الأصلي يرجع إلى نهاية القرن الميلادي الثاني ولكنه غير ووسع فيما بعد. وعندما تم اكتشافها كانت في حالة في غاية القابلية للإصلاح. وهي نموذج صغير كامل على كيفية استعمال الاسمنت الروماني في العقد الذي تميزت به أبنية روما. وبناء هذه الحمامات. وشأنه شأن القصور والحمامات الرومانية. تتحكم في هندسته ومظهره الحاجة إلى المساحة الداخلية التي استوجبت أن يكون شكله الخارجي محدودا من ناحية وغير كلاسيكي من الناحية الأخرى. وبغض النظر عن الأجزاء الخارجية التي أضيفت للحمامات في تاريخ متأخر (وهي الآن دون سقوف). فان المدخل إلى البناية الرئيسية يتم من ممر مسقوف في الركن الشمالي الشرقي يؤدي إلى الفريجيداريوم أو الحمام البارد الذي كان به بركتان واحدة في كل طرف. أما الحمام المصلب السقف والمفتوح من جانبه الشمالي فإنه لم يكن واردا في الخطة الأصلية وإنما حل فيما بعد محل غرفتين صغيرتين متجاورتين وموازيتين لممر المدخل.

وتظهر في فسيفساء البركة الشرقية بقايا خطوط رسم حورية ترضع جديا. ورأس وأكتاف إلهة بحر ومنظر من النيل يظهر فيه أحد التماسيح. وفي رسومات الطلاء المتأخرة تظهر مشاهد مصورة فنحن نرى على الجدار الجنوبي للفريجيداريوم مشهدا في حالة جيدة يصور صيد الفهد. ونرى على جدارها الشمالي مشهدا في حالة رديئة يصور صيد الأسد. وإلى جنوب الفريجيداريوم غرفتان مئمتتا الأضلاع وتعلو كلا منهما قبة مئمتة كذلك. وكانت الغرفتان الجنوبيتان حويان الحمامين الحارين بينما كان الحمامان الدافئان في الغرفتين المئمتين وكانت أرضهما فقط هي التي تحمي. أما حويل الغرفة المئمتة الشرقية إلى حمام حار ثالث باضافة شبكة حرارية تحوى جدرانها وأرضه بواسطتها فهو إجراء جاء متأخرا ومرافقا للتغيير الذي طرأ على الشبكة الحرارية الداخلية في الوقت الذي أضيف فيه حمام بارد ووحدته من الحمامات الساخنة كانت عبارة عن دهليز تحمي مصطبته وحجرتان تحمي أرضهما وجدرانها.

وفي تاريخ لاحق أضيفت بنايات متعددة ذات سقوف خشبية على الجانبين الشمالي والشرقي من البناء الرئيسي. وأقيم ممر مستور معمد على طول مقدمة البناية من جهة الشمال في مواجهة الشارع. وكان لهذا الممر مدخلان أمام كل منهما سلم قصير من الدرج. وكان المدخل الشرقي يفتح على النهاية الشمالية لبهو مستطيل زينت جدرانها بزنانير من الطلاء المصور تظهر عليها جلود الحيوانات وصور الصيادين. وربما كان هذا البهو مقرا لنقابة الصيادين وهو غالبا الذي أدى إلى تسمية هذه الحمامات بحمامات الصيد. وكان المدخل الغربي يفتح على الجانب الشمالي لبهو مستطيل طويل يتوسطه صف من الأعمدة والمقاعد المثبتة على طول جدرانها وبين أعمدته. وبالرغم من أنه هذه المقاعد أضيفت في وقت لاحق إلا أنها تدل على أن هذا البهو كان يستعمل كقاعة لتغيير الملابس.

وفي الجهة الجنوبية من الحمامات غرفتا نار في حالة جيدة وأربعة أحواض ماء كبار.

أما السيرك أو ميدان السباق فإنه يقع على بعد نصف ميل إلى الشرق من المرفأ. قريبا من البحر. ويمكن الوصول إليه باتباع الطريق الذي يتفرع من طريق الخمس - مصراته إلى الشرق من جسر وادي لبدة مباشرة ويدور حول الجهة الجنوبية من المرفأ. ويرجع تاريخ هذا الميدان إلى آخر القرن الميلادي الثاني على وجه التقريب. وتبلغ أبعاده حوالي (450 مترا × 100 متر) وهو بذلك أكبر الميادين القديمة المعروفة. وفي طرفه الجنوبي الغربي المستقيم كان يقوم صندوقا إشارة البدء بالسباق (Starting Boxes). هما وإن كان لم يبق منهما الآن أي أثر فإن فتحتيهما المقوستين كانتا لا تزال قائمتين في القرن السابق عشر الميلادي عندما شاهدهما الرحالة الفرنسي ديران (Durand). وكان هنالك مدخل مقوس كبير في نهاية الطرف الشمالي شبه الدائري شاهد ديران بقاياه كذلك. أما بقية الميدان فقد كان محاطا بمقاعد حجرية تقوم الجنوبية منها على منحدر طبيعي بينما تقوم الشمالية على بناء من الاسمنت والحجارة. أما خط المضمار الذي كان يسمى يوريبوس سبينا (Euripus Spina) فكان يتحدد بصف من خمسة أحواض مائية مستطيلة طويلة تقوم على قواعد مصبوبة. وبعبء صغير كان مقاما بين الحوضين الثاني والثالث من الجنوب الغربي. وهذا النوع من خط المضمار معروف في الآداب والكتابات القديمة، ولكن النموذج المادي الحقيقي الوحيد منه. والذي تم اكتشافه حتى الآن. هو هذا الخط الموجود في ميدان لبدة. وكانت جوانب المضمار تزين ببناء ثابت. اكتشفت آثاره. وكان ينتهي من كلا طرفيه ببناء شبه دائري يسمى ميتا (Meta) أي نقطة الدوران وعليه أبراج ثلاثة يتوج رأس كل منها كوز صنوبر.

وإلى جنوب الميدان يقع المسرح المدرج (Amphitheatre). وإلى الجنوب الغربي من المسرح المدرج وفي المنطقة الواقعة بينه وبين طريق الخمس - مصراته توجد بقايا قبور مشهورة متعددة أصلحها حالا القبر المسمى «قصر شداد».

وعلى الضفة اليمنى لوادي لبدة وإلى الجنوب من طريق الخمس - مصراته يقوم خزانان كبيران للماء في حالة جيدة. ويبعد الأول منهما

حوالي (150) ياردة عن الطريق بينما يبعد الثاني ضعف تلك المسافة. وهما مبنيان بالحجارة الكلسية والاسمنت. والشمالى منهما هو الكبير وفي داخله خمسة أحواض متجاورة ومسقوفة بينما نجد في الجنوبي ثلاثة أحواض فقط لكل منها باب كان عمال الصيانة والتنظيف يدخلون منه للقيام بأعمالهم. وقد أستخدم الباب الشمالى من الأبواب الثلاثة ليكون نهاية لفتحة قناة أقيمت في وقت لاحق لتصل بين الخزانين. وكان سطح الخزانين يستخدمان مياه المطر بينما مدت من الخزانين قناتان من الاسمنت أمكن تتبع آثارهما مع مجرى الوادي إلى الشمال حتى مجموعة الأحواض الموجودة إلى جنوب حمامات هديران في لبدة.

وعلى مسافة حوالي ربع ميل من الخزان الجنوبي صعودا مع الوادي تقوم آثار السد الذي شيده الرومان لتحويل مياه وادي لبدة إلى الغرب حتى تصب في وادي رصيف وذلك لحماية مرفأ لبدة من الطمي الذي يحمله إليه وادبها. ولحماية منطقة حمامات هديران والفورم السوييري من فيضانات ذلك الوادي. وهذا السد هو عبارة عن بناء ضخيم من الاسمنت وتبدو عليه علامات الترميم في مناسبات مختلفة. وإلى الغرب قليلا من السد وعلى إمتداد قناة التحويل المذكورة لا يزال المرء يشاهد الجسر الذي كانت تعبر عليه الطريق الرئيسية من لبدة إلى الداخل. ويذكر أن المناطق الدنيا من وادي كعام (نهر كنبس القديم Cynips) وعلى بعد حوالي اثني عشر ميلا إلى الشرق من لبدة تزخر بآثار الأعمال المائية الهامة التي كانت موصولة بلبدة: فهنالك إلى الشمال من النقطة التي تعبر عنها طريق الخمس - مصراته هذا الوادي بركة محفورة في الصخر يغذيها جدول موسمي جوفي تخرج مياهها عندها إلى سطح الأرض. وإذا توغلت إلى الداخل مع مجرى الوادي وجدت آثار سدود ضخمة من الاسمنت. وقد ذكر استرابو جسرا فينيقيا أو سدا على نهر كنبس. ولكن الآثار الباقية حتى الآن لا يوجد بينها ما يرجع إلى قبل العصر الروماني. وليس بالإمكان تبين الكيفية التي كانت تشبه السدود الرومانية تعمل بموجبها إلا إذا أجري مسح مفصل لهذه المنطقة من مجرى الوادي. وإن كان يبدو أنها كانت بمثابة خزان هائل تنقل منه المياه

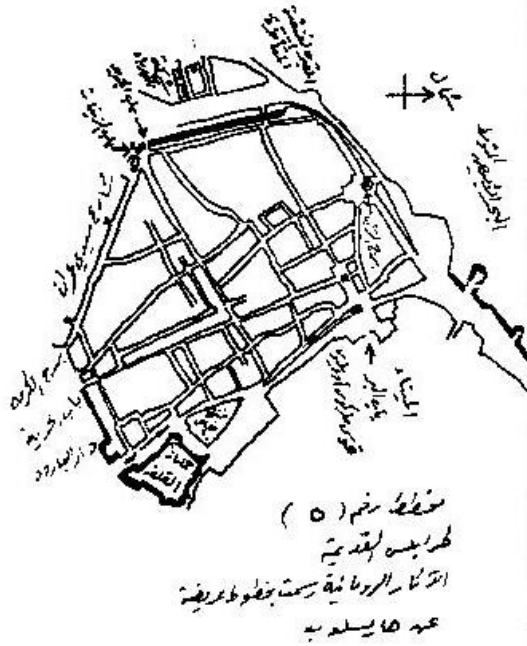
تاريخ ليبيا القديم

بواسطة قنوات جوفية إلى لبدة، ولقد كانت تلك القنوات تخترق الوادي في خطوط مائلة ولا تزال بعض بقاياها مائلة على جانبيه وإن كانت أجزاؤها الموجودة على الجانب الأيسر أصلح حالا من الاجزاء الأخرى. وقد أكتشف تقريبا كل خط هذه القنوات بين وادي كعام ولبدة الا أن مصبها في لبدة لا تزال غير معروفة حتى الآن.

فيعات = أويا = طرابلس:

يختلف موقع أيا عن موقعي لبدة وصبراته في انه كان ولا يزال ماهولا باستمرار منذ القدم. واذا استثنينا قوس ماركوس أوريليوس فان كل عمران أويا القديم قد اختفى تحت عمران القرون الوسطى والعصرين الحديث والمعاصر. وبناء على ذلك فان اعمال التنقيب لم تكن واردة. ولكن وجدت آثار قليلة هنا وهناك أثناء عمليات هدم وتجديد الأبنية. وربما أمكننا كذلك التوصل إلى بعض النتائج من دراسة مخطط المدينة عن فترة لاحقة.

إن أويا الفينيقية لم تكتشف أي أثر من آثارها وربما كانت قد أقيمت في القطاع الشمالي الشرقي من المدينة القديمة الحالية. أما أويا الرومانية فان شوارعها الطويلة المتعامدة ما زالت تنعكس في شوارع المدينة القديمة إلى يومنا هذا: فهناك الكاردو (الشارع المحوري) والديكومانوس أو الشارع الرئيسي الممتد باتجاه الشمال. ولعل هذين الشارعين يتمثلان في الشارعين الطويلين اللذين يلتقيان عند قوس ماركوس أوريليوس. باب الحرية من الجنوب الشرقي وشارع الكبيرة من الجنوب الغربي. ونستطيع القول ان ديكومانوس آخر أقرب في اتجاهه إلى الجنوب ما يزال خطه ملموسا في شارع حومة غريان. وقد أكتشفت آثار أبنية رومانية في مواقع متفرقة من المدينة القديمة وضواحيها القريبة: بيوت بمصاطب من الفسيفساء، زخارف بالدهان بين باب الحديد والبحر: بناء ربما كان منزلا خاصا. على البحر إلى الشمال الغربي من القلعة. وأواني فخارية تحت بناء شركة الكهرباء. وقد أظهرت الحفريات التي أجريت تحت القلعة وجود أساس معقد لبناء واسع وأرصفت من الحجارة الرملية وقطع من الفسيفساء وأعمدة كورنثية كبيرة. وربما كانت هذه كلها مخلفات بنايات عمومية كبيرة كوحدة حمامات مثلا.



والمساحة التي كانت أوبيا الرومانية تشغلها في ذروة توسيعها غير معروفة بشكل قاطع. ويعتقد خط السور الإسلامي إنما قام على خط السور الروماني من باب الجديد إلى برج الكرمة بموازة خط شارع سيدي عمران الحالي ومن ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى دار البارود.

أما قوس ماركوس أوريليوس فيقوم في ساحة تواجه باب البحر والمرفاً قرب نهاية المدينة القديمة من الجهة الشمالية. وقد شيد على نفقة قاض من أبناء المدينة اسمه كايوس كلبورنيوس سلسوس (Caius Calpurnius Celsus) كرسه للامبراطورين ماركوس أوريليوس ولوسسيوس فيروس (Lucius Verus) سنة 163 م. ويفيد الأهداء المنقوش على هذا القوس أنه أقيم على أرض عمومية. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا القوس كان ملتقى الشارعين الرئيسيين في المدينة. ولذلك فقد كانت له أربعة جهات ومدخلان مقوسان يتقاطعان مكونين زوايا قائمة. وبدل طول الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية على أن مدخل هذا القوس من ناحية المرفاً كان يعتبر أهم من المدخل الآخر. وقد بني هذا القوس بأكمله من الرخام وهذه حقيقة حرص نقش الأهداء على ذكرها. ويكاد يكون من المؤكد أن بناته كانوا من البنائين الإغريق.

ويزداد الوجهان الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي لهذا القوس بنقوش منحوتة كما أن كلا منهما كان يزداد بعمودين كورنثيين يقومان على قاعدتين بارزتين طويلتين. وكانت فجوات ما بين الأعمدة مزينة بتمائيل للأباطرة فقد وجد تمثال لوسسيوس فيروس أمام الوجه الجنوبي الغربي. وكانت تظهر على القوس صور محفورة تمثل كيوبيد إله الحب. حاملاً إكليلاً كما تمثل إلهة النصر المجنحة وقد نقشات تحت صورها الصفات الحسنى للإله أبولو والإلهة منيرفا. وهما الإلهان اللذان يحرسان مدينة أوبيا. كما يظهر قائم أبولو الثلاثي وغرابه على الشمال وخوذة الالهة وترسلها وحربتها وبومتها على اليمين.

ويتشابه الوجهان الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي تشابهاً كبيراً وتظهر عليهما صور محفورة لأسر بربرية مأسورة تتجمع حول كومات من الأسلحة التذكارية التي أخذت من البربر بعد هزمتهم. وتظهر على اليسار

صورة أبولو يسوق عربة يجرها زوج من أفراس الملائكة المجنحة (Griffins). ويظهر تحت هذه الصور غراب الإله وقوسه وحقيبته وغصن الغار. وتقابل أبولو في الجهة اليمنى الالهة منيرفا في عربة يجرها اثنان من أبي الهول المجنح. وعلى الأرض تحت هذه الصورة تظهر خوذة الالهة وقد حطت عليها بومتها وإلى جانبها الحربة والترس وغصن زيتون.

وتغطي القوس كله قبة مئمنة مكونة من ثلاث حلقات وغالق ذي ثمانية ضلوع.

وفي قرقارش⁹⁸. إحدى ضواحي طرابلس من جهة الغرب. قبر على الجهة السادسة. وهو مغلق دائماً ولا يفتح الا للزائرين الذين يحصلون على إذن خاص من دائرة الآثار بطرابلس. ويرجع تاريخ هذا القبر إلى القرن الميلادي الرابع وهو محفور في صخر رملي ناعم ما زال يستخدم لقطع الحجارة في الجهات المجاورة. ومدخل القبر في هذا الصخر الرملي هو عبارة عن مريضق ينحدر إلى غرفة أشبه بمستطيل غير منتظم أقيمت في محجر غير مستعمل كان أعمق من أرض القبر الحالية بخمسة أمتار وكان يظللها. وعندما حول هذا الحجر إلى مدفن أفرغ فيه التراب إلى ارتفاع المصطبة الحالية وأقيم له سقف لم يبق له اثر الآن ما دعا إلى إقامة السقف الحالي الجديد وإلى بناء دعائم من الطوب تسند الجانب الصخري من السقف.

وإذا ما استعرضنا داخل غرف هذا المدفن فإننا نجد في جدارها الشمالي فئحتين بني داخل كل منهما حد. وأهم اللحدين هو الذي يقع مقابل المدخل وهو حد ايليا أريسوث (Aelia Arisuth) التي يظهر اسمها منقوشاً على الجدار فوق هذا اللحد على قطعة دائرية مدهونة برفها حارسان عبارة عن روحين مجنحتين. وعلى الوجه الداخلي لفتحة هذا اللحد تظهر صورة أحادة لأريسوث يحيط بها إكليل زهر غني بالزخارف وترفعه وصيفتان صغيرتان. وتذكر ملامح وجه أريسوث الصارمة من ينظر إليها بصورة المومياء المصرية 98- سميت قرقارش بهذا الاسم نسبة لقرقوش. أحد ماليك المظفر نقي الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي . وكان قراقوش قد هرب بقسم من جيش نقي الدين المتوجه إلى بركة. وراح يقوم بمغامرات وأعمال قرصنة في ليبيا وتونس تمكن خلالها من الاستيلاء على طرابلس مرتين: الأولى سنة 571 هـ. والثانية سنة 586 هـ.

في ذلك الزمن. وعلى كلا جانبي فتحة اللحد تظهر صورة روح حارسة وهي متكئة على مشعلة منكسة رمزاً للحياة التي انتهت. ونلاحظ على السقف صورة طاووس وكرمة قد حط عليها عدد من الطيور. وما ذلك كله إلا رمزاً للعبث والحياة الأخرى. وعندما اكتشف هذا المدفن في أوئل القرن الحالي كان غطاء اللحد الملبس بالقصارة لا يزال في حالة جيدة وقد رسمت عليه بالدهان صورة لبوة كتب تحتها باللاتينية (Qua Lea Jacet) (= هنا ترقد لبوة). ومن المعروف أن كلمة «أسد» كانت إحدى درجات الدخول في أسرار إله النور الفارسي مثراس (Mithras) الذي انتشرت عبادته في أرجاء الامبراطورية الرومانية. وقد كان الرأي السائد قبل اكتشاف مدفن قرقارش هذا هو أن النسوة كن مستثنيات من الدخول في أسرار الآله مثراس ولكن إعطاء لقب «لبوة» لأريسوث لا يمكن أن يعني إلا أنها كانت قد بدأت تدخل تلك الأسرار. وفي النهاية الغربية لغطاء اللحد أي من جهة رأس الميت وجدت بقايا طشت من الفخار في قعره ثقب نصب التمجعات السائلة من خلاله. وعلى جانبي فتحة الضريح صورتا شماسين يرتديان مسوحيهما الدينية ويحملان شمعتين مشتعلتين. أما مقدمة اللحد وأجزاء الجدار القريبة من تلك المقدمة فإن عليهما مشهداً من ميدان سباق تمثله نقطتا الدوران في المضمار. وعلى كل من هاتين النقطتين ثلاثة بروج صغيرة. وتبدو في المشهد أربع عربات خيل متسابقة كل منها بلون من ألوان السباق الأربعة. والعربة الزرقاء هي السابقة بينما تظهر البيضاء وقد انتهت بفاجعة. وراحت الخضراء تحاول كبح جماح خيلها لتتجنب الاصطدام بحطام العربة البيضاء بينما جاءت الحمراء في المؤخرة. ويظهر بين العريتين الحمراء والخضراء شخص يحمل كأس السباق ويتجه به نحو الفائز. ولا بد أن نستنتج هنا أن اللون الأزرق كان اللون المفضل لدى أريسوث التي عدت وكسبت مسابقة الحياة.

وتحتوي الفتحة الثانية في الجدار ذاته لحد إيلوس (Aelios) بن يوراثانوس (Jurathanus) الذي يبدو أنه كان زوجاً لأريسوث. وقد نقشت كتابة قبره فوق الفتحة على بلاط صور على كل من طرفيها طاووس.

ويظهر إيلوس على الجدار الداخلي للفتحة وهو يرتدي المسوح ويتكى في جنة رمز لها بشجرة وعدة زهور. أما جوانب جدران الفتحة فقد زينت بصور العديد من الأرواح الحارسة المتكئة على مشاعل مقلوبة. وقد زين السقف بصور الكرمة والطيور وبصورة سلّة معلقة وملوأة بالفواكه. وقد زود غطاء لحد إيلوس. كما في حالة غطاء لحد أريسوث. بطششت فخار للمتقدمات السائلة ورسمت عليه بالدهان صورة أسد تحمل الكلمات (Qui Leo Jacet) (= هنا يرقد أسد).

وفي النهاية الشرقية للجدار الجنوبي فتحتان مقوستان فيهما فسقتان يبدو أنهما لم تستعملتا.

صبراته

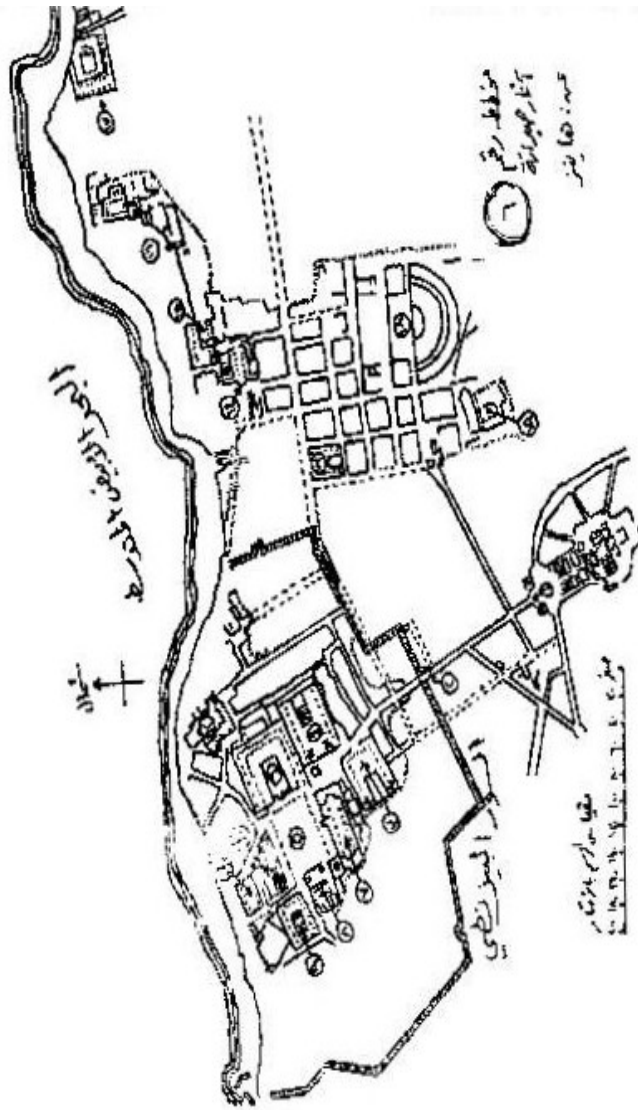
وجدت بعض آثار صبراته الفينيقية تحت صبراته الرومانية في المنطقة ما بين الفورم (5) والبحر: فقد وجدت تحت أقدم المنازل الدائمة مصاطب أكواخ مؤقتة بين الواحدة والتي تحتها طبقة من الرمل الذي كانت تأتي به الرياح مما يدل على أن تلك المواقع كانت تقام عليها أكواخ في الموسم المناسب ثم تنتهي بانتهاء الموسم فتبقى مصاطبها المكونة من التراب المدكوك مكشوفة فتغمرها الرياح بالرمل. ثم تقام تلك الأكواخ في موسم لاحق وهكذا. وقد وجدت في مصاطب هذه الأكواخ فخاريات يونانية يرجع تاريخها إلى القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وربما كانت أول مستوطنة فينيقية دائمة في صبراته قد أنشئت في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد حينما كانت تتألف من منازل صغيرة الحجرات مبنية إلى حد ما بأجر الطين ومحاطة بسور سميك اكتشفت أسسه تحت الجهة الشمالية من ساحة معبد ليدر باتر (6). وخلال القرنين التاليين توسعت هذه المستوطنة حتى الجهة الجنوبية الجنوبية من معبد أنطوني (4). ويبدو أن سوق المدينة الفينيقية كان يقع في المنطقة التي أقيم عليها فيما بعد الفورم الروماني الذي وجدت تحته آثار بناية فينيقية عامة كبيرة وعدد من المنازل الأخرى. ولم تنشأ المستوطنة الفينيقية في صبراته وفق

تاريخ ليبيا القديم

خطة منظمة. يدل على ذلك خطوطها التي ظلت قائمة إلى الشمال من معبد ليبر باتر بالرغم من الأبنية التي أقامها الرومان أو أعادوا بناءها. وقبيل نهاية القرن الأول قبل الميلاد بدئ بتحويل المدينة من فينيقية إلى رومانية ولكن عملية التحويل هنا سارت أبطأ مما سارت عليه في لبة. وكانت نواة المدينة الرومانية في صبراتة تتالف من الفورم ومعبد ليبر باتر وسيرابيس (9) (Serapis). ومن ثم راحت تتوسع باتجاه الداخل وفقا لخطة منظمة إلى حد ما وقائمة على أساس وجود شوارع مستقيمة متعامدة. وما زالت حدود هذه المدينة الامبراطورية غير معينة من الجهة الجنوبية. وفي النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني أقيمت في صبراته ضاحية جديدة إلى جانب البحر وإلى الشرق من الأثار الحالية. واعتمدت في انشاء هذه الضاحية خطة الشوارع المستقيمة المتعامدة ابتداء من البحر إلى المسرح (18). وهكذا كان محورها الرئيسي يشكل زاوية قائمة مع الطريق الساحلي الذي إحتوته الضاحية الجديدة وجعلته أهم شارع من شوارعها.

ولم يكن من أبناء صبراتة - كما كان من أبناء لبة - أباطرة يشجعونها على العيش في مستوى أضخم من مواردها. ولذلك فنحن لا نلاحظ هنا تدهورا وانحطاطا سريعا خلال القرنين الميلاديين الثالث والرابع. تشير نشاطات أبناء صبراته في مجال إعادة تشييد الأبنية العامة التي هدمت إثر غارات الأستوريين إلى أن المدينة كانت لا تزال تحتفظ بكثير من حيويتها. والانهياب الخطير الذي أصيبت به المدينة إنما يظهر في القرن الميلادي الخامس تحت حكم الوندال عندما هجرت منطقة المسرح جميعها (باستثناء الكنيستين 14 و 15) بالإضافة إلى منطقة كبيرة من المدينة الامبراطورية القديمة. والواقع أن السور البيزنطي لم يكن يشمل الا جزءا صغيرا من المساحة التي بلغت هذه المدينة في ذروة عمرانها.

ومادة البناء الرئيسية المستعملة في صبراته هو الحجر الرملي المأخوذ من المنحدرات الجنوبية للحافة الساحلية. ولكي يحال بين هذا الحجر الرملي والتفتت فقد كان الوجه البارز منه يطلى بالقصارة. ويزداد استعمال الرخام ابتداء من القرن الميلادي الثاني فصاعدا ولكنه لا يبلغ من الكثرة الحد الذي



بلغه في لبة. ويمكن الكشف عن تعمد الاقتصاد في استعماله هنا حتى في الأبنية العامة من مثل معبد الفورم الجنوبي (3) ومعبد أنطونين فقد اقتصر استعمال الرخام في المعبد على تزيين الواجهة الأمامية، أما الجوانب والخلف فقد اكتفى بقصارتها.

وكشفت الحفريات في صبراتة عن وجود عدد كبير من المنازل الخاصة. خلافا لما حدث في لبة، مما يساعد على تكوين فكرة واضحة عن حياة المدنيين المنزلية. فهذه المنازل غالبا ما تكون وفقا لمخطط ضيق ولكن ما تبقى من آثارها يدل على أن الكثير منها كان يتألف من طابقين والعديد منها كانت لها آبار ماء تحت الطابق الأرضي تتجمع فيها مياه الأمطار الساقطة على السطح. وكانت مصاطب الفسيفساء واسعة الاستعمال كما أن وجوه الجدران من الداخل كانت تدهن غالبا وتزين، ولا يزال بعض تلك الزينة والفسيفساء في الأماكن التي كانت فيها أصلا وإن كان أفضلها قد نقل إلى المتحف المجاور حيث تحتفظ كذلك مجموعة كبيرة من الأشياء الصغيرة المستعملة في المنازل في الحياة اليومية من مثل الأواني الفخارية والزجاجية والبرونزية وما شابهها.

آثار صبراتة:

يقع مدخل الآثار (1) مقابل المتحف الحالي مباشرة على بداية شارع الكاردو أي الشارع المحوري الرئيسي للمدينة القديمة الذي يؤدي إلى الفورم متدا باتجاه الشمال الغربي. فإذا سرت من هناك فاجتزت تقاطع الطرق ومنزلا كبيرا له حمام (على اليسار) فانك تصل إلى البوابة البيزنطية (2) التي بنيت بمواد مأخوذة من الآثار السابقة. وكانت هذه البوابة بشكلها الأصلي عبارة عن مدخل ضيق يقوم على جانبيه برجان مربعان. وما زالت عتبة هذه البوابة قائمة في موقعها وهي من الحجر الكلسي. وتظهر على البرج الشرقي آثار كشك حراسة. ومن هذه البوابة جُد درجا حديثا يؤدي بك إلى الشارع الروماني الذي كان مستواه منخفضا إلى حد كبير عن مستوى الشارع البيزنطي. وفي وقت لاحق أقيمت بوابة جديدة إلى جنوبي القديمة. ومن الملاحظ أن مستوى الأرض عند بناء هذه البوابة الجديدة كان قد ارتفع

بشكل ملحوظ عما كان عليه ما دعا إلى وضع درجة للصعود إلى البوابة الجديدة. وهذه الدرجة عبارة عن قطعة من عمود سابق.

وإذا تابعت سيرك على شارع الكاردو المذكور وجدت نفسك حول الجهة الغربية من حي سكني يلفت النظر ثم تصل إلى معبد الفورم الجنوبي (3) على يسارك. وهذا المعبد الذي لم يعرف لمن كان تكريسه يرجع في تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني. وكان مقاما في مؤخرة ساحة مستطيلة ضلعه الشرقي والآخر في منتصف ضلعه الجنوبي. وعلى مقدمة الساحة وجوانبها ممرات مستورة معمدة بأعمدة كورنثية ومرصوفة بالرخام الذي زين به بعض جدرانها كذلك. باستثناء جدار الممر الشرقي فقد كان مقصورا ومزين بالدهانات. والساحة أمام المعبد مرصوفة ببلاط الرخام الكبير. أما بقية اجزائها فهي مرصوفة بقطع رخامية صغيرة مستطيلة تظهر بينها فتحات المجاري التي كانت تستوعب مياه المطر. وكان مدخل المعبد نفسه عبارة عن درج عريض من الرخام. وتدل قطعة من عتبة رخامية موضوعة الآن أمام هذه الدرج على أن التسوية الأمامية لهذا المعبد كانت كلها من الرخام وإن كان يبدو أنه اكتفى بكسوة الجانبيين بالقصارة فقط.

وإلى الشمال من معبد الفورم الجنوبي يتسع الكاردو ليكون فناء مربعا يقوم في ضلعه الشرقي مدخل تذكاري يؤدي إلى معبد أنطونين (4). وهذا المدخل يرتفع عن مستوى الفناء فوق سلم عريض من خمس درجات. والمعبد نفسه يقوم مستندا إلى الجدار الخلفي للساحة التي كانت محاطة من الجهات الأخرى بممرات مستورة معمدة بأعمدة كورنثية. وما زالت على هذا المعبد بقايا كتابة تدل على أنه كرس لماركوس أوريليوس ولوسيوس فيروس ما بين سنة 166 - 169 م. ولدى مغادرة الفناء المربع المذكور يمر المرء ببقايا نافورة مربعة وضعت في مركزها وعلى زواياها الأربع قواعد تماثيل. وهذه النافورة هي واحدة من اثنتي عشرة نافورة كان رجل اسمه فلافيوس تولوس (Flavius Tullus) قد أهداها للمدينة في أواخر القرن الثاني الميلادي. وتدل الكتابات الأثرية على أن هذه النوافير جميعها كانت مزينة بالرخام ومزينة بالتماثيل. وكان فلافيوس تولوس المذكور يدفع نفقات امداد تلك النوافير

بالماء، وإلى الغرب من النافورة المذكورة ممر ضيق مقدس يصل بين الفناء المربع والفورم (5) الذي كان في العهد الإمبراطوري عبارة عن ساحة مكشوفة مستطيلة خيط بها ممرات مستورة معقدة. وكانت أعمدة الممر الشرقي من هذه الممرات كورنثية بينما كانت جذوعها من الرخام الأبيض مما يشير إلى أنها ترجع إلى الربع الأخير من القرن الميلادي الرابع عندما رمت أبنية المدينة إثر الدمار الذي أحققته بها غارات الأستوريين.

ويقوم مقابل الفورم معبد لبر باتر أوديونيسوس الفينيقي، ويرجع تاريخه إلى أواخر القرن الأول الميلادي. وقد كان بهوه محاطا بأعمدة حرة ستة منها على النهايتين، وثمانية على الجانبين إذا ما عدنا أعمدة الأركان مرتين. وأعمدة هذا المعبد التي أعيد نصب بعضها في الجهة الجنوبية هي من النوع الكورنثي وهي من الحجر الرملي المقصور. وفي داخل هذا المعبد آثار بنايتين قديمتين إحدهما كانت في الأرجح منزلا والأخرى كانت معبدا ربما كان تاريخ بنائه يرجع إلى أوائل القرن الميلادي الأول.

وفي الجهة الجنوبية من الفورم كانت تقوم الباسيليكا (7) التي تدل بقاياها على ثلاث مراحل مختلفة من البناء: الباسيليكا رقم (9) التي قد تكون شيدت حوالي منتصف القرن الميلادي الأول وهي عبارة عن بهو مستطيل كبير لها مدخل في وسط ضلعها الشمالي الطويل المقابل للفورم، وكانت محاطة من الداخل على جوانبها الأربعة بأعمدة ذات قواعد ضخمة وربما كان يرتكز على هذه الأعمدة سقف خشبي يظلل الممرات الجانبية، وكان الجانب المقابل للمدخل يفتح على صف من الحجرات المتناسبة كانت الوسطى منها تستعمل كمحكمة وربما كانت هي القاعة التي وقف فيها أبوليوس أمام القضاة ليدافع عن نفسه ضد تهمة السحر التي أسندت إليه. ولكن اكتشاف تماثيل لبعض الأباطرة في هذه القاعة، وهي تماثيل تعود إلى القرن الميلادي الأول، يدل على أنها استعملت أيضا كمعبد للأباطرة. وكانت هذه القاعة وبقيّة الباسيليكا مبلطة بالرخام، واستمر استعمالها حتى ظهر أنها أصبحت أضيق من أن تتسع للناس اللذين كانوا يجتمعون فيها في شتى المناسبات، وأنذاك أقيمت قاعة محكمة جديدة في الجانب الغربي

منها. وظلت هذه الباسيليكا الموسعة تستخدم حتى دمرت في أواخر القرن الميلادي الرابع. وبعد تدميرها بقليل أعيد بنائها على طراز الباسيليكا السويرية في لبدة أي على شكل بهو مستطيل يقسمه طوليا صفان من الأعمدة إلى صحن ومر جانبي. وقد جاءت الباسيليكا الجديدة أقل عرضا من سابقتها بحوالي أربعة أمتار كما أنها جاءت أقصر منها بكثير. واستخدم في تبليطها بلاط رخام أخذ من الباسيليكا القديمة. وبديل وجود سلم درج خلف جناحها الشرقي على أنه كان بها صالات صور كتلك التي كانت في باسيليكا لبدة. ولكن هذه الباسيليكا الجديدة لم تعمر طويلا إذ إنها حولت حوالي سنة 450 م، إلى كنيسة رقم (111) يجري الدخول إليها من ثلاثة مداخل مقوسة ومتتالية في نهايتها الشرقية. وفي العهد البيزنطي أقيم مذبح للكنيسة في الجانب الغربي من الصحن وهو ربما كان من الخشب في البداية ولكن ما تبقى من الآثار يدل على أن مذبحا من الرخام كان قد أقيم في الكنيسة وقت ترميمها على أيدي البيزنطيين. ويلاحظ أن أرض الكنيسة البيزنطية أعلى من أرض كنيسة القرن الميلادي الخامس، كما أن المذبح البيزنطي رفع على أساس من تسع قواعد أعمدة مقلوبة. وكان بناء القرن الميلادي قد حولوا قاعة المحكمة إلى معدانية باقائمة جرن مستطيل في فجوة في حائطها الخلفي، ولكن البيزنطيين أقامو معدانية جديدة في بناية قريبة من الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة، أما نافورة المحكمة الغربية فقد سدت وحل محلها مذبح.

وفي الجانب الغربي من الفورم كان الكابيتوليوم (8) (Capitolium) أي معبد الثلاث الإلهي (جوبيتر، جونو، منبرفا)، وكان هذا المعبد في البداية، أي في النصف الأول من القرن الميلادي الأول، مبنيا من الحجر الرملي المقصور، وفي النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني تم تصفيحه بالرخام على نطاق واسع وأقيم أمامه وعلى امتداد أساسه منبر للخطابة زود بسلم من الدرج العريض على كل من جانبيه ليسهل الوصول إليه عن السلمين من الفورم، ولقد رم هذا المنبر وسلمه الجنوبي في وقت لاحق. وقد أقيم خلف المنبر درج عريض يفضي إلى المعبد نفسه، وما زالت درجات الحجارة الأصلية

تشاهد تحت الدرج الرخامي الذي أقيم فيما بعد. وكانت لصحن هذا المعبد مداخل ثلاثة ما زالت عتباتها قائمة في أماكنها الأصلية وتدل تقسيمات أساس هذا المعبد على أن الصحن نفسه كان مقسما إلى ثلاثة صحنون خصص واحد منها لكل من أعضاء الثالوث الالهي.

وإلى الشمال من الكابيتوليوم، وخلف الزاوية الشمالية الغربية من الفورم توجد آثار معبد سيرابيس (9) وفنائه. وقد تم التعرف على هذا المعبد إثر اكتشاف رأس تمثال لهذه الإلهة الاسكندرية بين أنقاضه. وهذا المعبد هو من أقدم معابد صبراته الرومانية. ويرتفع فناؤه المستطيل عن مستوى الشوارع المجاورة. كما أن جانبه الشرقي كانت به ثلاثة مداخل تواجه مقدمة المعبد. وفي الأصل كانت أعمدة الممرات المستورة حول أضلاع الفناء من الحجر الرملي المقصور. ولكن أعمدة المقدمة والجانبين استبدلت فيما بعد بأعمدة من الرخام الرمادية متوجة بتيجان كورنثية. ولقد أنشئ هذا المعبد وفقا للتقليد الهلينستي أي في وسط الفناء. ولكنه رفع عن مستوى الفناء وزود بدرج حجري من الجهة الشرقية فقط. وقد كسى هذا الدرج بالرخام في وقت لاحق.

وتقوم وراء الممر الشمالي للفورم آثار للكوريا أي المجلس البلدي (10) وقد جرى بنائه في آخر القرن الميلادي الرابع على انقاض بناء سابق يغلب على الظن أنه تهدم على أيدي الأستوريين. وكان هذا المجلس عبارة عن قاعة اجتماعات مستطيلة تفتح إلى الشرق مقابل أحد رؤوس فناء مثلث صغير يدخل إليه الناس مباشرة من الفورم بواسطة مدخلين في ضلعه الجنوبي الطويل: واحد في الوسط والثاني بجوار الزاوية الجنوبية؛ ولا تزال نقوب مزلاجيها مائلة للدلالة عليها، وربما كان هنالك مدخل ثالث بجوار الزاوية الجنوبية الشرقية.

ويتصل هذا الفناء بالكوريا بواسطة مدخل في طرفه الغربي. تبدأ بعده مباشرة مصطبة بعرض الغرفة مكونة دهليز يقوم ورائه وعلى مستوى أعلى قليلا من مستواه ممر عريض يسير حتى منتصف المصطبة. وعلى جانبي هذا الممر كانت أدراج منخفضة توضع عليها مقاعد أعضاء المجلس.

وفي الطرف الغربي من الغرفة تشرف الدرجتان الأولى والثانية على منصة مكونة من امتداد الدرجة الثالثة عبر الجدار الخلفي: كان القضاء يجلسون عليها. ويظهر على طول مؤخراتها نتوء كالرف ربما كان قاعدة مستطيلة تثبت عليها التماثيل. وكانت أرض الغرفة والمنصة والدرج مكسوة بالرخام ولكن القسم الأكبر منه قد اختفى.

وبين الكوريا والبحر فناء غير منتظم الشكل يقوم على جانبه الغربي منزل بيزنطي قد شمل بعض موقع معبد سيرابيس. وعلى الجانب الشرقي لهذا الفناء كانت تقوم باسيلكا جستنيان أي كنيسة المشهورة. ويلاحظ أن القسم الأكبر من منبر هذه الكنيسة في الجانب الشمالي من الصحن إنما هو عبارة عن قطعة من كرنيش الكابيتوليوم. ولعل أبرز ملامح هذه الكنيسة هي الفسيفساء الموجودة حاليا في متحف صبراته؛ وتظهر على زنار منها. أخذ أصلا من صحن الكنيسة. كرمة رمزية محملة بالعنب وعلى غصونها اللتوية أعداد كبيرة من الطيور بينها عنقاء وسلوى في قفص وطواويس. أما الزنابير الأخرى فهي مزخرفة تقليدية وهندسية لا تقل أثرا عن زخرف الزنار الأول المذكور. وتدل نوعية هذه الزخارف على أن صناعها لم يكونوا محليين وإنما كانوا من فناني الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

والى الشرق من باسيلكا جستنيان يقوم حي سكني وحجاري مهم ما زال يحتفظ بشيء من طابع الخطة غير المنتظمة للمدينة التي سبقت قيام المدينة الرومانية. وإذا سرت في الجانب البحري من هذا الحي فانك تصل إلى زنقة (زقاق) تقطع هذا الحي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وأول بناء في الجهة الشرقية هو معصرة زيت زيتون قديمة صغيرة تحتوي قسعة الدرس وفراغا للعصارة وعددا من الأحواض المبطنة بالاسمنت. فاذا درت على شمالك في الطرف الجنوبي من هذه الزنقة ثم دخلت أول دورة على يمينك وجدت نفسك في مكان مكشوف وغير منتظم الأضلاع وهو موقع الحمامات البحرية (12) التي كانت أكبر مؤسسة حمامات في صبراته وان كانت لا تقارن بشيء مع حمامات هدرين في لبة. ولقد تأثرت بناية

الحمامات كثيرا بعوامل التعرية إلى حد أن خطة انشائها لا يمكن استعادتها كاملة. وكان المدخل الرئيسي يفضي إلى قاعة مستطيلة كسيت أرضها وجدرانها ببلاط الرخام. وعلى اليسار دهليز قصير يؤدي إلى دورة المياه التي رصفت أرضها ببلاط الرخام وأقيم سقفها على عمودين كورنثيين وما زالت ترتيبات السيفونات (المقاعد) وشبكات المجاري في حالة جيدة. ومن ميمنة هذه القاعة يبدأ ممر طويل غطيت أرضه بالفسيفساء السوداء والبيضاء وهو يفضي إلى صف من الحجرات جانب البناية الشرقي. كما أنه ينتهي بغرفتين صغيرتين خلفهما حجرة كبيرة رصفت أرضها بالفسيفساء الملونة. وإلى جانب هذه الغرفة الأخيرة من الجهة الشمالية غرفة فيها حمام مستطيل يشغل طرفها الغربي.

فاذا عدت إلى المدخل ودرت على شمالك أولاً وثانياً فانك ستجد نفسك في شارع مهم على يمينك يمتد موازاً لشارع الكاردو وتقوم عليه منازل كبيرة تعتبر نماذج للمنازل التي كانت سطوحها معمدة لكي تجمع مياه الأمطار الساقطة عليها في أبار حث أسسها. وفي الطرف الجنوبي من هذا الشارع ثغرة حديثة في السور البيزنطي تفتتح على الديكومانوس الذي يمتد مع السور البيزنطي باتجاه الشرق نحو حي القرن الميلادي الثاني من المدينة. وعلى مسافة ثلاثين ياردة شرقي هذه الثغرة توجد بقايا ضئيلة لقوس ذي أربعة أوجه كان مقاما على تقاطع الطرق ويحجب إلى الغرب منه كوعا في الديكومانوس كان ناجماً عن التقاء الحي القديم بالحي الجديد. وكانت المنطقة إلى الشرق من هذا الكوع تستعمل كمقبرة مسيحية.

ويلاحظ وجود قبر مقصور بارز في وسط الطريق وهو مدهون باللون الأحمر وعليه شعائر مسيحية (صليب. طواويس. حمام) ونقش يسجل دفن طفلين أحدهما عمره ثلاث سنوات والآخر ست سنوات. ويعتبر هذا القبر نموذجاً مبكراً لهذا النوع من القبور وربما كان تاريخه يرجع للقرن الميلادي الخامس.

وأول بناية على يمين الديكومانوس بعد الدخول إلى الحي الجديد هي معبد هيرقوليس (13). وهي تقوم في مؤخرة ساحة مستطيلة مقابل المدخل

الوحيد من جهة الشارع. وعلى طول جوانب الساحة كانت مرمرات مستورة ذات أعمدة كورنثية. وتدل كتابة تكريس هذا المعبد على انه كرس سنة 186 م. ويلاحظ الدرج تمثال لهرقوليس وهو جالس. وجدت قطعة منه في الموقع نفسه.

والى الشرق من معبد هيرقوليس مباشرة مؤسسة حمامات غير منتظمة تعرف باسم حمامات المسرح. وكان هنالك ممر يفرع من الشارع ويسير تاركا دورة مياه على جهته اليسرى حتى ينتهي إلى شقة مكونة من ثلاث غرف أمامية ربما كانت تستعمل لتغيير الملابس. وفي الجهة الشرقية مدخل ربما كان يؤدي إلى القريجيداريوم؛ وهي هنا غرفة مستطيلة تفتتح من جهتها الجنوبية الطويلة على مغطسين باردين مسقوفين. وكانت بين فسيفساء هذا الحمام ميدالتان (هما الآن في المتحف) تمثلان الأدوات التي كان المستحمون يستعملونها من مثل زجاجات الزيت. وقد كتب على الميدالية الأولى (Bene Lava) (= حمام سعيد) . وكتاب على الأخرى (Salvom Lavisse) (= الاستحمام مفيد لك) . وكانت جدران الغرفة مزينة ببلاط الرخام كما كان في الجانب الشمالي من القريجيداريوم بابان سد الشرقي منهما في وقت لاحق. أما الباب الغربي فإنه كان يؤدي إلى ممر يفضي إلى صاليتين صغيرتين ومن ثم إلى الكالديوم التي كان بها حمام ساخن يحمي بشبكة تسخين تحت أرض الغرفة . ولا تزال آثار الموقد. الذي كان له مدخل من الخارج فقط. ماثلة عند الطرف الشمالي للمغطس.

وإذا تابعت الديكومانوس شرقاً وأخذت الدورة الثالثة على يسارك. معتبرا الشارع المحاذي للجانب الشرقي من حمامات المسرح الدورة اليسارية الأولى. فانك ستجد نفسك عند كنيسة مسيحتين (14، 15) تدل حالتها الأصلية على أنهما ترجعان إلى أواخر القرن الميلادي الرابع لأنهما أدخلت عليهما تعديلات واسعة في وقت لاحق ربما كان بعد استعادة البيزنطيين لطرابلس من الوندال.

وكان أمام الطرف الشرقي من الكنيسة الكبرى الواقعة إلى الجنوب

فناء مستطيل استعملت في بنائه مواد من جدران سابقة وكان القسم الأوسط المكتشف من هذا الفناء محاطا بممر مستور ذي أربعة أوجه واعمدة ذات أربعة زوايا في أركانه الأربعة. ومن هذا الفناء كانت أبواب ثلاثة تفضي إلى الجهة الشرقية من الكنيسة. أما الكنيسة ذاتها فهي في خطتها كالباسيليكا العادية في أن لها صحنًا وممرين جانبيين وقد استعملت في بنائها مواد بنايات سابقة. ولكن البيزنطيين أقاموا جدرانًا جانبية جديدة داخل الجدران القديمة ليضيقوا مساحة السقف. وأعمدة الصحن كورنثية وذات جذوع من الجرانيت الرمادي كانت قد أخذت من بناء يرجع تاريخه إلى حوالي سنة 200 م. وكان فيها مذبح من الخشب أولاً ثم من الرخام في عهد البيزنطيين؛ ولا تزال بعض أجزاء قاعدته ومنصته محفوظة. وتظهر في القاعدة ثقب للأعمدة الصغيرة التي كانت تحمل قمة المذبح الرومانية. وكانت أرض الصحن مغطاة بفسيفساء ملونة هي من عصر الكنيسة الأصلية.

وهناك باب في الزاوية الجنوبية الغربية يفضي إلى حجرتين من بناية قديمة ولكنهما أدمجتا في الكنيسة. وكانت الثانية منهما ذات سقف يقوم على عمودين كما أنها كانت تستعمل معمدانية؛ يدل على ذلك وجود جرن معمدانية مربع حفر في وسط المصطبة. وتدل فسيفساء مصطبتي هاتين الحجرتين على أنهما كانتا معاصرتين للكنيسة الأصلية إذ إن أسلوبها يشبه أسلوب فسيفساء صحن الكنيسة. وقد أقيمت في وقت لاحق معمدانية جديدة في شقة من الغرف في الجهة الشمالية من الكنيسة.

وتقع الكنيسة الصغرى على بعد بضعة أمتار إلى الشمال الشرقي من الكنيسة الكبرى وعلى الجانب الآخر من شارع ضيق. وقد بنيت هذه الكنيسة في الركن الجنوبي الشرقي من موقع مستطيل كانت تشغله قاعة كبيرة ذات أجنحة ثلاثة ربما كانت مستودعا. وقد تم كشف أساسها ووجدت في الموقع منصة المذبح ويرجع تاريخها إلى فترة البناء في العهد البيزنطي عندما رفع مستوى أرض الكنيسة جميعها.

وعلى بعد مائة ياردة إلى الشرق من هذه الكنيسة على امتداد الشاطئ

تقوم بقايا حمامات أوكيانوس (16) وفيها غرفة كبيرة في الجهة الشرقية من البناية لا بد أنها كانت حمامات باردة «فريجيداريوم» أو دافئا «تبيداريوم». ونلاحظ في هذه الغرفة حوضين للماء البارد كلا منهما في جهة. وقد وجدت في أرض هذه الحجرة وعلى حافتي الحوضين فسيفساء من نوعية عالية نقلت منها إلى متحف صبراتة قطعة تمثل رأس اله البحر الذي سميت هذه الحمامات حاليا باسمه. وفي الزاوية الشمالية الغربية لهذه الحجرة باب صغير زينت عتبته بالفسيفساء التي تصور نظام الاستحمام (صورة صندل وزجاجة زيت). وهو يفضي إلى غرفة الحمامات الساخنة التي كانت تتمتع بجهاز تسخين يثير الاهتمام وهو عبارة عن دورة هواء ساخن كان يمر خلال آجر مجوف تحته وجوه الجدران.

وعلى بعدة مائة ياردة أخرى إلى الشرق من هذه الحمامات تقوم آثار معبد ايزيس الذي تم التعرف عليه باكتشاف تمثال صغير وقطعة من تمثال كبير لايزيس بين أنقاضه. ويرجع تاريخ هذا المعبد (14) إلى أواخر القرن الميلادي الأول وهو مشيد على أنقاض معبد صغير وكان يحيط به فناء مستطيل معمد له مدخل تذكاري في نهايته الشرقية. ويقوم صف من الغرف على طول نهايته الغربية. ولم يبق من صحن هذا المعبد شيء ولعله كان عبارة عن قاعة مستطيلة مقسومة طوليا إلى قسمين متناسبين مع القاعتين المسقوفتين من تحتهما. ولا بد أنه كان محاطا من الخارج بصف من الأعمدة الكورنثية.

وعلى بعد نصف ميل إلى الشرق من هذا المعبد أي على بعد مائتين وخمسين ياردة من البحر يقع المسرح الروماني المدرج الذي ربما كان أنشئ في أواخر القرن الميلادي الثاني. وتبلغ مساحة حلبته البيضاوية ثلثي مساحة نظيرتها في مدرج الكولوسيوم بمدينة روما. وتدل ضخامة هذا المدرج على مدى ما كانت صبراتة قد بلغت في هذه المرحلة من تقدم وثراء.

أما المسرح (18) فهو من أبرز آثار صبراتة وهو مركز الحي الجديد الذي أنشئ في أواخر القرن الميلادي الثاني. وعندما اكتشف هذا المسرح لم يكن

قائما منه سوى أجزائه الدنيا؛ ولكن الإيطاليين القائمين بالعمل تمكنوا بعد دراسة دقيقة لأثاره المبعثرة ان يرموه ترميما شاملا ودقيقا، وكان هذا المسرح من الطراز الروماني المؤلف: تتصل قاعة استماعه شبه الدائرة المكونة من ثلاث طبقات بمسرح مستطيل طويل يوازئها ارتفاعا. ويقوم البناء كله على منبسط صخري في وسط منخفض استغل ليكون الجزء الأدنى من قاعة الاستماع. وكانت مادة البناء الرئيسية المستعملة فيه هي الحجر الرملي الذي كسيت الأجزاء الظاهرة منه بالقصارة البيضاء.

وكانت مقاعد قاعة الإستماع مقسمة إلى ثلاثة قطاعات بواسطة ممرين شبه دائريين. كان الممر الأعلى يتصل بالممر الأرضي الداخلي بواسطة خمسة مرات رأسية، ومن هذين الممرين كان المتفرجون يصعدون أو ينزلون إلى الصف المعين الذي يجلسون عليه بواسطة الممرات الرئيسية التي كانت تقسم كلا من القطاعات الثلاثة إلى قطاعات أخرى من المقاعد كل منها على شكل اسفين كبير. وكانت حول محيط الأوركسترا المبلطة بالرخام أربع درجات رخامية منخفضة توضع عليها كراس للشخصيات البارزة. وكانت الأوركسترا تنفصل عن قاعة الإستماع بستارة منخفضة من الرخام في وسطها فتحة وعلى طرفيها شكل سمكة دلفين.

وإلى الجنوب الغربي من المسرح يقع المنزل المسمى بيريستايل (Peristyle) نسبة للفنان - البستان الذي بني المنزل حوله. وهذا الفناء - البستان مستطيل في الشكل وان كان منحنيا قليلا في إحدى نهايتيه. وقد كان محاطا بالاعمدة. إن منزل البيريستايل هذا أقدم من حي القرن الثاني للميلاد. والأرجح أنه أنشئ خلال القرن الميلادي الأول كفيلاً خارج المدينة.

وعلى بعد مائتي ياردة إلى الجنوب الغربي من مدخل الحفريات (1) توجد آثار وحدة حمامات صغيرة تابعة لفيلات خاصة. وهي على طراز الحمامات الرومانية التي سبق التحدث عنها.

آثار أخرى

الطرق الرومانية:

لقد سبقت الإشارة إلى الطرق الرومانية في برقة¹. أما بالنسبة لمنطقة طرابلس فنحن نعتد فيما نعرفه عن شبكة الطرق الرومانية فيها على الوثائق القديمة والمخلفات الأثرية. ووثائقنا في هذا الصدد هي:

1- خارطة مصورة تبين الطرق في الإمبراطورية الرومانية وترجع على الأرجح إلى عصر الإمبراطور كمودس (180 - 193 م.) وهي المسماة تَابُلَا بِيوتنجيربانا (Tabula Peutingeriana).

2- رحلة أنطونين (Antonine) في مطلع القرن الميلادي الثالث.

أما المخلفات الأثرية فتنحصر في حجارة الطرق.

وحتى الآن لم نكتشف خارج المدن الساحلية في منطقة طرابلس آثار أية طريق رومانية مرصوفة. ما يجعلنا نفترض أن تلك الطرق كانت. حتى الرئيسية منها. طرقاً ترابية. وأقدم حجارة الطرق في هذه المنطقة يرجع تاريخها إلى عهد كراكلا (211 - 217 م.): وهي في العادة عبارة عن حجارة كلسية أسطوانية الشكل يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالي سبعة أقدام. ويبلغ نصف قطره حوالي خمس عشرة بوصة. وكان يثبت في ثقب مناسب في قاعدة حجرية مستطيلة ومنفصلة عنه. وقد وجدت حجارة بيضوية الشكل وأخرى على شكل أعمدة قصيرة ذات أربعة أوجه. وكان ينقش على هذه الحجارة أسماء ولقب الإمبراطور الحاكم وطول المسافة بالأميال الرومانية². وقد نجد في المكان الواحد أكثر من حجر واحد يرجع إلى عهود أباطرة مختلفين. والجدير بالملاحظة أن الحجر الكراكلي ظل حتى وقت متأخر مستعملاً أكثر من غيره في ضواحي المدن الساحلية ولكن الأنواع الأخرى شاع استعمالها في بقية أنحاء منطقة طرابلس. أما الجزء الذي لم يلحقه تغيير كبير فهو القاعدة الحجرية.

1- انظر ص 387 - 388 أعلاه.

2- كان الميل الروماني يساوي (1480) متراً أي (1616) ياردة.

وتشير الوثائق والحجارة الأثرية إلى وجود خمس طرق رئيسية في منطقة طرابلس:

1- الطريق الساحلي: وكان عبارة عن الجزء الطرابلسي من الطريق الساحلي الكبير الذي كان يربط الاسكندرية بقرطاجة. وقد تم التعرف على ما يزيد عن ستة عشر حجراً من حجارة هذا الطريق داخل منطقة طرابلس.

2- طريق الجبل: وهي طريق عسكرية استراتيجية كانت تسير على محاذاة خط توزيع المياه على طول الجبل من لبة إلى قابس. وقد شملت طريقاً أقدم منها ترجع إلى أيام البروقنصل ل. إيليسوس لاميا «L. Aelius Lamia». وكانت تمتد من لبة إلى نقطة تقع قرب ترهونة الحديثة؛ وقد اكتشف عدد من حجارة هذه الطريق.

3- طريق دورة الجبل الشرقي: وهي طريق كانت تصل لبة بأويا وكانت تسير إلى الجنوب من الطريق الساحلي الرئيسي مارة بالجبل الشرقي حتى تقطع طريق الجبل (رقم 2). ومن هناك تستمر إلى عين شرشارة ومن ثم تنجّه إلى الشمال الغربي عن طريق وادي الرملية وتعتبر سهل الجفارة إلى أويا.

4- الطريق الوسطى: وهي طريق كانت تربط أويا بمزدة مارة بجوار غريان وليس لهذه الطريق ذكر في أية وثيقة قديمة ولكن ثبت وجودها باكتشاف حجارة أميال في القسم الواقع بين غريان ومزدة حيث كانت الطريق القديمة تسير الطريق الحالية.

5- طريق سوف الجين: هذه الطريق أيضاً لم يرد لها ذكر في أية وثيقة قديمة. ولكن ثبت وجودها باكتشاف عدد من حجارتها. وقد كانت تصل مزدة بنقطة على طريق الجبل في منطقة الزنتان عبر أعالي وادي سوف الجين.

محطات الطرق:

كانت محطات الطرق تختلف في حجمها وطبيعتها؛ فبعضها كانت

مجرد علامة بارزة على الطريق. وبعضها كانت تقام فيها قلاع محصنة للدفاع عنها باعتبارها مواقع استراتيجية. والبعض الآخر منها كان في مناطق زراعية مما جعلها تنمو وتحول إلى قرى عامرة على جانبي الطريق. وقد تم مؤخراً مسح ثلاث من هذه القرى:

القرية الأولى تقع على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشمال الشرقي من ترهونة وعلى بعد كيلومترين إلى الجنوب من قصر دوغا (Doga). وفيها آثار كثيرة منتشرة ولكنها لم تكتشف وتدرس إلا أنها على أي حال تدل على أن هذه القرية كانت عبارة عن مستوطنة قديمة. وربما لا نخطيء إذا قلنا إنها هي مستوطنة مسفي (Mesphe) التي تظهر كأول محطة على طريق الجبل بعد لبة في رحلة أنطونين. وهي تعرف الآن محلياً باسم مدينة دوغا. وموقعها موجود في منخفض وسط كروم الزيتون وتقطع طريق تمتد باتجاه الشمال الشرقي من ترهونة. ويمكن مشاهدة حمام بين الآثار الظاهرة الواقعة إلى جنوب هذه الطريق. وحمام آخر أصغر حجماً إلى الشمال منها. وبعد هذا يمكن مشاهدة بناية كبيرة معقدة وساحة مستطيلة ربما كانتا تشكلان مؤسسة عسكرية. وإلى الشمال الغربي من موقع هذه القرية أثيري اكتشف فيه مناضد حجرية كان الجرمانتيون يستخدمونها ليقدموا عليها ما يقدمونه لوتاهم.

والقرية الثانية كانت إلى الغرب من محطة مسفي وهي قرية تنداسا (Thenadassa) وفقاً لرحلة انطونين وقد تم التعرف عليها مؤخراً بين مجموعة مهمة من الخرائب في عين ويف على بعد كيلو مترين إلى الجنوب من طريق ترهونة - غريان في مكان يبعد خمسة عشر كيلومتر غربي قرية تزولي (Tazzoli) و تقوم أنقاض هذه الخرائب على مرتفع يطل من الشرق على العين التي سمي الموقع باسمها. وتخرق هذا الموقع من الشمال إلى الجنوب الطريق الحديثة القادمة من وادي حمام. وبالرغم من أنه لا يوجد بين آثار هذه القرية ما يدل على أنها كانت محصنة عسكرياً إلا أن بعض النقوش التي وجدت على أثارها وهي من عهد سيبتييموس سيويرس وتوجد حالياً بمتحف السرايا الحمراء بطرابلس - تدل على أن هذه المحطة كانت ذات

طابع عسكري. أما المستوطنة الثالثة فتوجد أثارها إلى جانب طريق الجبل في منطقة قصر الداوون (Gasr ed Dauun) عند ملتقي وادي الملي (El me) برفاد صغير وهو شعبة الخيل (Sciabet el Kheil) على يسار طريق القصبات - ترهونة الحديثة. وتدل الأساسيات المنتشرة هنا وهناك. ومصاطب الاسمنت على أن هذه المستوطنة كانت تقوم على جانبي الطريق الرومانية على كلتا ضفتي الوادي. ويبدو أن هذه المحطة كانت ذات طابع تجاري لان موقعها كان مهما تجاريا أكثر منه عسكريا.

القلعة:

اكتشفت في مسلتين بوادي مردوم على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا إلى الشرق من بني وليد قلعة من النوع الروماني الشائع تبلغ مساحتها (28 × 28) مترا مربع. وتعرف هذه القلعة محليا باسم قصر بو الأركان (Bularkan) وهي تقوم على أساس مربع وتبرز منها سبعة أبراج مربعة: واحد في كل ركن وواحد في منتصف كل ضلع من أضلاعها باستثناء الضلع الجنوبي الشرقي التي يوجد به مدخلها الوحيد الضيق الذي يؤدي إلى ممر قصير يفضي بدوره إلى فناء مربع تحيط به «البراكات» والاصطبلات. ولا تزال أجزاء كثيرة من جدرانها قائمة بالارتفاع التي كانت عليه في الأصل. ويتكون بناؤها من وجهين ملئ الفراغ فيما بينهما بحشوه من الطين وقطع الحجارة. و الوجه الخارجي مبني من حجارة كلسية كبيرة مكعبة هذبت قليلا. ويرجع تاريخ هذه القلعة إلى القرن الميلادي الرابع.

وكان خط الدفاع السويدي الأول يتكون من ثلاث قلاع كبيرة وجدت آثار كثيرة لاثنتين منها هما قلعة بوجيم وقلعة القرية الغربية. أما القلعة الثالثة فهي قلعة غدامس التي لم يعثر عليها حتى الآن. وتقع قلعة بوجيم في واحة صغيرة على بعد حوالي مائتي كيلومتر إلى الجنوب من مصراتة على طريق القوافل الشرقي المار بالجفرة (giofra) إلى فزان و الجدار المحيط بهذه القلعة من الخارج مبني من حجارة الأنقاض والطين ومطلي بالقصارة. وهو يشكل مستطيلا مساحته (91×36) مترا مربعا ولكن أركانه ليست زوايا وإنما نحتت على شكل جانب اسطوانة وربما كان يقوم على كل ركن

منها برج داخلي وكانت في كل ضلع من أضلاع هذا الجدار الأربعة بوابة واحدة تفضي إلى القلعة وكانت كل واحدة من هذه البوابات عبارة عن مدخل ذي قوس واحد يقوم برج على كل من جانبيه وكانت البوابة الشرقية كبرى هذه البوابات. وقد نقشت على حجر الغالق في كل من الأقواس الأربعة صورة نسر ونقش فوق الصورة إن القلعة بنيت سنة 200 - 201 م. من قبل كوينتوس انيسيوس فاوستوس (Anicius Faustus Quintus) قائد فرقة أوغستا الثالثة وتوجد الآن ثلاثة من هذه النقوش في متحف السراي الحمراء في طرابلس.

إما قلعة القرية الغربية فهي في واحة على بعد ثلاثمائة كيلو متر إلى الجنوب من طرابلس وبالقرب من الحافة الشرقية للحمامة الحمراء في موقع استراتيجي على طريق القوافل الوسطى إلى فزان. وكانت هذه القلعة تقوم على نتوء من الأرض يرتفع على شكل مهماز ذي جوانب شديدة الإنحدار ويبرز باتجاه الجنوب الغربي مطلا على الوادي الذي تقع فيه الواحة وكانت هذه القلعة تشبه قلعة بوجيم في مخططها ولكنها تبلغ ضعفها من حيث المساحة (183×132) مترا مربعا وقد أثير موقع هذه القلعة إلى حد كبير بسبب بناء قرية بربرية عليها والبوابة الوحيدة التي مازالت في حالة جيدة هي البوابة الشمالية الشرقية ويتكون مدخلها من باب ذي قوس ثلاثي كما يقوم برج على كل من جانبيه وعلى غالق هذا القوس حفرت كلمات لم يعرف المقصود بها حتى الآن وهي: (PRO AFR ILL) ويدل النقش على حجر وجد في قرية البربرية على ميل من الموقع (والحجر الآن في متحف طرابلس) على إن هذه القلعة بنيت في عهد اسكندر سيويرس بين 230 - 235 م وتظهر على القوس الأيسر رسوم كانت بارزة ولكنها أمحت إلى حد كبير وهي عبارة عن صورة نسرين تحف بهما صورة آلهة النصر المجنحة و يظهر دونهما في الزاوية اليمنى مذبح ملتهب والبوابتان الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية أدمجتا في أبنية أقيمت في وقت لاحق ولكن لا يزال باديا منهما ما يقيم الدليل على أن كلا منهما كانت ذات مدخل واحد ينتصب برج على كل من جانبيه أما البوابة الجنوبية الغربية فلم يعثر لها على اثر

وبالنسبة للجدار الخارجي الذي كان يحيط بالقلعة فإن ركنه الشمالي لا يزال قائماً ويبلغ سمكه متراً ونصف المتر وهو مبني من حجارة خشنة وقد وجه القسم السفلي منه بحجارة متوسطة الحجم بينما بني القسم العلوي بحجارة أصغر حجماً نحتت لها حواش أفقية وكما هي الحال في قلعة بوجيم فإن أركان هذه القلعة لا تشكل زوايا وإنما نحتت على جانب أسطوانة ويدل وجود نافذة مقوسة في الطابق العلوي على إن القلاع كانت مزودة ببروج داخلية.

وفي ختام حديثنا عن القلاع لا بد أن نشير إلى ذلك النوع من القلاع الرومانية الصغيرة التي تتمثل في قلعة الحراس المعروفه باسم قصر ذويب وستحدث عن النوع ضمن حديثنا عن المزارع المحصنة.

مزارع الزيتون ومعاصره:

تنتشر آثار مزارع الزيتون ومعاصر زيت الزيتون بكثرة في منطقة طرابلس وخاصة في مناطق زراعة الزيتون في الجبل الشرقي وبين الخط رقم (7) نموذجاً لمعاصر الزيتون الرومانية التي كانت شائعة في منطقة طرابلس وكانت حبوب الزيتون توضع في وعاء مخرم يرتكز على فرشاة حجرية تؤدي بالزيت المعصور إلى مستودع متصل بها وكان يقع فوق حبوب الزيتون الموضوعة في الوعاء المخرم مكبس متصل بذراع طويلة برافعة خشبية ثبت طرفها السميكة إلى أسفل بقضيب خشبي مثبت بإحكام في ثقب بين عمودين حجريين ضخمين وترك طرفها الآخر طليقاً بحيث يسمح بشد الذراع إلى الأسفل بواسطة حبل أو بكرة مثبتة في قطعة حجر ضخمة داخل حفرة في مصطبة المعصرة. والعمودان الحجريان اللذان كثيراً ما كان يظن إنهما نصب ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ هما عادة أبرز آثار معصرة الزيت الرومانية وكان ارتفاعهما عشرة أقدام أو أكثر وقد يتكونان من قطعة واحدة أو من عدة قطع حجرية وكان هذان العمودان يقومان بتقاريرين وعلي أساس واحد وتضمهما من أعلاهما قطعة حجرية واحدة غالباً ما توضع عليها قطع أخرى لتزيد الثقل وقد تدخل أطراف بارزة لبعض تلك القطع في جدار خلفها زيادة في المتانة وكانت تعمل الثقوب لقضيب التثبيت الخشبي

في العمودين على ثلاثة ارتفاعات مختلفة وفي بعض الحالات كان وعاء حجرى يوضع إلى جانب العمودين ليسحب إليه قضيب التثبيت الخشبي عند عدم الحاجة لاستعماله.

إما آثار مزارع الزيتون القديمة فنحن نجدها في أحسن حالاتها في المناطق الخارجة عن حدود مزارع الزيتون الحالية ولناخذ واحداً منها كمثال وهي هنشير سيدي حمدان وتقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الشرقي من قصر داوون على الطريق إلى وادي ترغلات وهذه المزرعة من أكبر مزارع الزيتون التي اكتشفت في هذه المنطقة وربما كانت ترجع في تاريخها إلى القرن الميلادي الثاني.

وبالإمكان استنتاج ما كان عليه مخططها العام من المعالم الحجرية لجدرانها وهي معالم مازالت قائمة في أماكنها الأصلية في الوقت الذي حُول فيه باقي البناء إلى ركام فقد كانت نواة البناء جميعه ساحة مستطيلة محاطة على جوانبها الأربعة بصفوف من الغرف إلى رما كانت مساكن للعمال ومخازن وما شابه ذلك. وخلف الطرف الجنوبي الغربي للساحة صغيرة مكشوفة يجرى الدخول إليها من البوابة مقوسة تفضي إليها مباشرة من الخارج من الزاوية الجنوبية للجدار الخارجي المحيط بقلعة المزرعة. ويدل وجود أحواض سقاية حجرية على أن هذه الساحة ربما كانت حظيرة للحيوانات. وكان يحيط بجوانب هذه القلعة الثلاثة: الشمالي الغربي والشمالي الشرقي. والجنوبي الغربي يمر يتم الدخول إليه من الخارج من بوابة مقوسة في الطرف الغربي للجانب الجنوبي الغربي وكان هنالك مر آخر داخلي يفتح في مواجهة الفراغ الجنوبي الغربي من الممر ويسير بين الساحة الرئيسية وبناء مستطيل يشمل عدة غرف ويشغل الجزء الشمالي الغربي من القلعة وتبدو في هذه البناء المستطيل آثار لسبع معاصر زيتون ما يشير إلى أن هذا البناء كان مصنعا لزيت الزيتون مقام في هذه المزرعة. أما الغرف الواسعة بين المعاصر فيبدو أنها كانت تستخدم مخازن لحبوب الزيتون. وكانت في الركن الشرقي من البناء معصرتان زيت منفردتان وكان فيه أيضا جناح يعتقد انه كان منزلاً لصاحب المزرعة أو وكيلها. وكان هذا الجناح محاطاً من

الجهة الجنوبية الشرقية بممر له بوابة في نهايته الشمالية، ويمتد على طول الجانب الجنوبي الشرقي للقلعة. وكانت هذه القلعة تتلقى مياهها من خزان قائم على سفح تله تقع على بعد مائة وأربعين ياردة إلى الجنوب الشرقي من القلعة.

الفيلات:

تتميز الفيلات التي كان الأغنياء يشيدونها في ممتلكاتهم الريفية عن بقية منازل المزرعة العادية بوجود صفوف من الأعمدة وبالفسيفساء وبزخارف الدهان على جدران وبالحمامات المنزلية وغيرها من المرافق والتسهيلات الكمالية. وكان الموقع المثالي للفيلا أن تكون قريبة من البحر بحيث يسهل على صاحبها الوصول إليها من المدينة التي يقيم فيها عادة وبالرغم من ان العدد الذي وجد من هذه الفيلات داخل الريف هو عدد قليل إلا انه لم يتم التعرف بشكل قاطع على أية فيلا خارج الشريط الساحلي. وقد تتمكن الحفريات في المستقبل من إثبات وجود فيلا في عين الشرشيرة على بعد حوالي ستة كيلو مترات إلى الشمال الغربي من ترهونة حيث اكتشفت مؤخرا آثار مرمعمد مستور وبقايا فسيفساء رصفت بها أرضه. ويبدو من المحتمل أن هذا الممر كان يصل العين ببنية كانت فيلا على الأرجح على مسافة قريبة إلى الجهة الجنوبية الغربية.

ومعظم الفيلات الساحلية وجدت في حالة من الحرب لم تسمح بإعادة تخطيطها والحفاظة عليها كمواقع أثرية ولذلك فانه بعد أن جرى مسح هذه المواقع ونقل الفسيفساء المهمة منها أعيد دفن تلك المواقع من أجل الحفاظة عليها وهنالك نموذج جيد لهذه الفيلات يمكن للزائر أن يشاهده في فيلا داربوك عميرة القائمة على رابية منخفضة من الصخور الرملي تطل على خليج صغير على بعد حوالي كيلومترين ونصف الكيلو متر إلى الغرب من مرفأ زليطن وتشمل هذه الفيلا غرفا وساحة واسعة ومكتشوفة يقوم على طول جهتها الغربية صف من الغرف ووحدة حمامات منزلية وتقوم جدران هذه الفيلا ومصاطبها مباشرة على أساس مهد من الصخر الرملي وكانت الجدران نفسها مبنية من الحجر الرملي الأحمر الذي طلي بالقصارة

نظرا لحشونتها وقد وجدت بعض مخلفات الفسيفساء وصور الدهان في الغرف هذه الفيلا ونقلت إلى متحف طرابلس ونذكر هنا أننا سبق أن اشترنا إلى قطعة الفسيفساء المشهورة التي تصور نشاهد من المسرح المدرج والتي وجدت في هذه الفيلا ونقلت أيضا إلى متحف طرابلس هي وقطعة أخرى تمثل فصول السنة مشخصة.

المزارع المحصنة:

تنتشر المزارع المحصنة بكثرة في الجبل الشرقي وعلي طول الأودية الواقعة على جنوبه وخاصة وادي سوف الجين وروافده وقد وجدت أمثلة متعددة منها كذلك في منطقة سرت الساحلية بين بويرة الحسون ومدينة السلطان وليس هناك أي فرق أساسي بين أبنية المزارع المحصنة المختلفة باستثناء أن مزارع الجبل كانت في الأغلبية حُاط بخندق.

وكانت بناية المزرعة المحصنة عبارة عن بناء على شكل مربع أو مستطيل له مدخل واحد يفضي إلى فناء داخلي يتقابل فيه طبقان أو ثلاثة من الغرف ويعطينا المخطط رقم (9) نماذج تمثل المخططات المتنوعة الأبنية المزارع المحصنة. ويمكن تميز أبنية المزارع القديمة من غيرها من نوع حجارتها، ومن أحسن أمثلة هذا النوع قصر البنات القائم الضفة اليسرى من وادي نغد على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب من جبل سداة. وهو بناء يشغل مساحة مستطيلة تبلغ حوالي (21×25) متراً مربعاً. ولكن أركانه لا تكون زوايا بل نحتت على شكل جانب أسطوانة. ومدخله الوحيد في جداره الطويل المواجه للوادي. وهو قائم إلى اليسار قليلاً عن وسط الجدار. والأجزاء من هذا البناء مهدمة مردومة. إما جدرانه الخارجية فلا تزال قائمة بارتفاع ستة أمتار تقريبا وهي مبنية بنوع جيد من الحجر الكلسي. ومستوى النحت المستخدم في الأبنية السويرية كالقوس المثلث في بوابة قلعة القريات الغربية. وليس بين ما اكتشف من أبنية المزارع المحصنة حتى الآن ما يشبه هذا البناء إلا بنائتان هما: قصر القريات الشرقية وقصر الفاسقية الخرب في وادي زمزم. وربما كانت هذه البنائيات الثلاث من أقدم البنائيات التي شيدت وفقا لخط الدفاع

الطربلسي الذي أقامه اسكندر سيوبيرس فهي بذلك نماذج أولى لقلع المزارع المحصنة وكان تشييدها على أيدي مهندسين عسكريين من الرومان.

والمزارع المحصنة التي أقيمت في وقت لاحق وهي الأكثرية ليست ذات قيمة كبيرة من حيث فن النحت والبناء، والتفحص لقصير ذويب وهو رسمياً قلعة حراسة، يستطيع إن يتبين السرعة الهائلة التي انحط بها فن النحت والبناء؛ فهذا القصر لا يختلف من حيث فن النحت والبناء عن المزارع المحصنة، ويقع هذا القصر في وادي ذويب على بعد خمسة كيلومترات من نقطة التقائه مع وادي سوف الجين وعلى بعد خمسة وثلاثين كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من الرنتان، وتدل النقوش على أنه بني بين سنة 244 م. وسنة 246 م، وبدل مخططه الذي يتميز بعدة أمور غير مألوفة على أنه كان يشغل مساحة مربعة تقدر بحوالي (16×16) متراً مربعاً، وله مدخل واحد في وسط جانبه الجنوبي الشرقي يفضي إلى ممر ينتهي إلى فناء مركزي أقيمت الغرف حوله على شكل طابقين، وكان هنالك بيت درج خشبي يوصل إلى باب في الواجهة المقابلة للمدخل ويتم الصعود منه إلى الطابق العلوي، وقد أدخلت على هذا القصر تعديلات وإصلاحات كثيرة في أوقات لاحقة وخاصة مقدمته من ناحية الجنوب الشرقي التي أقام لها المسلمون فيما بعد واجهة خارجية جديدة، والمدخل الرئيسي الأصلي يقوم الآن في الجدار الإسلامي، ونصفه الأيسر هو الروماني فقط، أما باقيه فقد أدمج في الواجهة الإسلامية، وسقف الممر الحالي المقوس هو إسلامي أيضاً وقد كان سقفه في الأصل خشبياً مستوياً يرتكز على دعائم خشبية، كما أن بعض غرفه الداخلية كانت في الأصل ذات سقوف معقودة بينما كان البعض الآخر منها مسقوفاً بالخشب المستوي منذ البداية، وربما كان هنالك برج يبرز فوق المدخل منفصلاً عن الطابق الثاني.

ولم تكن المزارع المحصنة التي أقيمت في وقت لاحق مبنية بعدم اهتمام كما في حالة قصر ذويب؛ فهنالك قرب بير شدوة (Scedeu) في وادي سوف الجين وعلى بعد حوالي خمسين كيلومتراً إلى الشرق من مزدة مجموعة من البنايات في حالة جيدة، وهي وإن كانت تشبه قصر ذويب بشكل عام إلا

أن حجارتهما نحتت بعناية فائقة، ولا تزال واحدة منها، تشبه البرج وتتكون من ثلاث طبقات، قائمة بارتفاعها الطبيعي تقريبا، وهنالك مزرعة محصنة أخرى على الضفة اليسرى من وادي سوف الجين وعلى مسافة قليلة إلى الغرب من بئر النسمة وهي غنية بالزينة والأعمدة، ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن الميلادي الثالث أو إلى أوائل القرن الميلادي الرابع، وهي دليل ساطع على التقدم الزراعي الذي أحرزته مزارع الحدود.

والغالب على المزارع المحصنة أن توجد منتشرة على جوانب الأودية وبمعدل واحدة كل كيلومتر أو أكثر منه قليلاً، وفي بعض الحالات التي يلتقي فيها رافدان أو ثلاثة من روافد الأودية في نقطة معينة مما يؤدي إلى وجود أراض زراعية واسعة كان يحدث أن تدمج عدة مزارع في قرية واحدة كما هي الحال في قصر السوق اللوطي في وادي بزر، وفاسقية الحبس في وادي مردوم وقصر الحنافس في وادي شظاف، وربما كان أحسن الأمثلة على هذا الاتجاه هو ما نجده من آثار في وادي غرزة على بعد حوالي خمسة كيلومترات من نقطة التقائه بوادي زمزم حيث لا تزال توجد آثار ما يزيد عن ثلاثين بناية كبيرة وعدد آخر من البنايات الصغيرة كانت تقوم جميعاً حول مصب رافد صغير على الجانب الأيسر من الوادي الرئيسي، وبنايات مزارع هذا الوادي تشبه ما سبق أن وصفناه من مثيلاتها، والجدير بالملاحظة في هذا الصدد هو أن الخشب مستعمل على نطاق واسع في هذه البنايات ولا تزال قطع منه تشاهد في مواقعها الأصلية، وقد تم التعرف مؤخراً على عينة من هذا الخشب فتبين أنه من نوع من شجرة الأكاسيا المعروفة محلياً باسم «طلحة» وهي لا تزال تنمو في مجرى هذا الوادي إلى أيامنا هذه، وإذا ما قارنا بين أبنية هذا الوادي وبناء مزرعة بئر النسمة من حيث فن النحت والبناء فإننا سنجد أن الزينة والزخرفة غير موجودة في الأبنية ومقصورة فقط على الأضرحة في هذا الوادي.

السدود:

لقد سبقت الإشارة إلى سد التحويل في وادي لبدة والسدود الأخرى التي

كانت تكوّن خزانات مائية في أجزاء وادي كعام السفلي. وهنالك سدان آخران بأحجام مثشابهة مبنيان من الأسمنت في موقع سيدي الجيلاني في وادي الجينين وعلى بعد أربعة وخمسين كيلومترا جنوبي طرابلس. وهما يقومان متلاصقان في أدنى مجرى الوادي بعد السد الحديث مباشرة. وأقدم هذين السدين وأقربهما إلى الشمال - وهو في حالة جيدة على امتداد مائة متر تقريبا - يمتد شمالا وجنوبا. ويعود تاريخ إنشائه إلى الوقت الذي كان فيه تيار الوادي ينصب عموديا، تقريبا، على مجراه الحالي. ويبلغ سمك هذا السد في أجزائه العلوية مترا واحدا، ولكن هذا السمك يزداد إلى ثلاث أمتار عند الأساس. وقد أضيفت إلى هذا السد بنايات تقوية في أوقات لاحقة وخاصة عند نهايته الجنوبية الشرقية التي يبدو أن قوة التيار كانت تنصب عليها. وفي نهاية الأمر دار التيار حول السد من نهايته الغربية وذلك عندما حوّل مجرى الوادي إلى ما هو عليه حالياً. ولهذا السبب أقيم السد الثاني الممتد من الشرق إلى الغرب. وكان طوله الأصلي مائة وعشرين مترا إذا ما استثنينا جناحا طوله خمسون مترا يمتد باتجاه الجنوب الشرقي من النهاية الشرقية لهذا السد. وقد أحدثت في هذا السد عدة ثغرات بسبب التيار من ناحية ولإقامة القناة الخاصة بالسد الحديث من ناحية أخرى. وكان هذا السد يشبه في بنائه السد الأول بشكل عام. وكان هذان السدان القديمان قد أقيما لغرض حماية واحة طرابلس. كما هي الحال بالنسبة للسد الحديث. من فيضان وادي لجينين المعروف بأنه أعنف أودية منطقة طرابلس. ولتحويل مياه هذا الوادي الفائضة إلى سهل الجفارة الذي يمكن تحويله إلى ذرة خصبة إذا ما توافرت له المياه الكافية. وهنالك أيضا بقايا سد كبير أقيم من أجل أغراض الري في وادي الحيرة على بعد ستة عشر كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من العزيزية.

ومعظم السدود الباقية الكثيرة التي جُذ آثارها في أودية طرابلس كانت صغيرة. وكان الغرض من إقامتها حماية التربة من الأجراف. وكان حجمها وشكلها يتقرر وفقا لطبيعة مجرى الوادي الذي تقام عليه؛ فحيث كان مجرى الوادي متسعا وغير عميق كانت مثل هذه السدود لا تعدو أن تكون جدراناً حجرية منخفضة وغير سمكية. فنحن نجد وادي غرزة مثلا يتسع

عند غرزة إلى ثلاثمائة ياردة. ولذلك فقد قسم إلى عدة حقول مستطيلة بسدود من هذا النوع الحجري المنخفض وكان بين الحقل والذي يليه مسافة ستين ياردة. أما في الأودية العميقة الضيقة فإن قوة التيار كانت تستدعي إقامة سدود منخفضة من الإسمنت بحيث تأتي متتالية عبر الوادي ويسمح السد الأعلى مناه بفيضان شيء من الماء إلى السد الذي يليه ويقل عنه ارتفاعاً وبذلك تكون قوة التيار قد أضعفت تدريجيا. ولعل أحسن أمثلة لهذا النوع من السدود هي تلك الموجودة في وادي الزميط عند تقاطعه مع الطريق الرئيسي بين طرابلس والخمس إلى الشرق من فندق النقازة. وتلك الموجودة في وادي المي على يسار طريق القصبات - ترهونة وبعد قصر الداوون بقليل.

الأضرحة:

إن عادة بناء الأضرحة أو القبور المشهورة كانت شائعة في معظم الولايات الرومانية. وما زاد في انتشارها في شمال إفريقيا عادة عبادة الليبيين لموتاهم. ولذلك فنحن نجد هذه الأضرحة في معظم أنحاء منطقة طرابلس كما نجد أمثلة منها في برقة وفزان. ولكن ما كان منها على الساحل الطرابلسي قد خرب تخريبا شنيعا ونقلت حجارتها واستعملت في أماكن أخرى. وإذا أردنا أمثلة لا تزال في حالة جيدة فعلينا أن نتوجه إلى الجبل الغربي والأودية الواقعة جنوبيه. ومزارع الحدود. وبالامكان تصنيف هذه الأضرحة إلى صنفين: أضرحة معابد وأضرحة مسلات وأحسن مثال على الصنف الأول في شكله البسيط هو الضريح المشهور في جرما بفزان. وربما كان الأحد التجار الرومانيين المقيمين. ويرجع تاريخه إلى حوالي سنة 100 م. وهو يقوم على أساس مستطيل تخطيط به درجات ثلاث ويتكون من غرفة لحد قائمة الزوايا أمامها مصطبة ذات عمودين إيونيين ظليقيين. وكان اللحد مبنيا من الإسمنت بينما كان باقي الضريح مبنيا من الحجر الكلسي.

وهنالك نموذج يمتاز لأضرحة المعابد. لا يزال في حالة جيدة. في المقبرة الشمالية في غرزة على بعد قليل إلى جنوبي المزرعة المحصنة وعلى نفس الضفة من الوادي الرئيسي. وقد بني بالحجارة الكلسية وبرز جانباه الشمالي

والجنوبي نحو الشرق ليتصلا بأدراج تفضي إلى المصطبة الأمامية. أما غرفة اللحد فهي محاطة من جوانبها الأربعة بأعمدة طليقة: أربعة منها في المقدمة ومثلها في المؤخرة، وخمسة على كل من الجانبين إذا ما عدنا أعمدة الزوايا مرتين. ولهذا الضريح إفريز من النوع الدوري مزين بنقوش من باقات الزهر والتروس سعف النخل. وعلى نهاية غرفة اللحد من الجهة الشرقية نقشت الكتابة الخاصة بالضريح بين نسرين مفرودي الجناحين. وكان المدخل الحقيقي لهذه الغرفة في القسم العلوي من الواجهة الجنوبية. وقد كان يوصد بمزلاج حجري يقفل بعد إدخال الجثمان إلى غرفة اللحد العارية من الداخل. ويرجع بناء هذا الضريح إلى القرن الميلادي الرابع، ولدينا مثال آخر على هذا النوع من الأضرحة وهو أقدم من المثال السابق ولكنه غير كامل. وهو موجود في قصر البنات في وادي نفد قرب المزرعة المحصنة هناك. وهي المزرعة التي سبقت الإشارة إليها. وفن النحت المتبع في الضريح وفي المزرعة منتشابه إلى حد كبير. وربما كان بنيان الضريح يرجع إلى نفس الضريح الذي أنشئت فيه المزرعة أي إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثالث. وأثار الضريح التي لا تزال في مواضعها الأصلية هي عبارة عن غرفة لحد مستطيلة في حالة جيدة وأمامها درج وفي داخلها أقواس حجرية مزينة. وكانت غرفة اللحد هذه بأعمدة يربطها ببعضها البعض إفريز من الطراز الدوري سقطت قطع منه على الأرض أمام الضريح. وقد نقش عليه أسماء الشخصيين اللذين أقاماه.

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة توجد أضرحة كثيرة مختلفة الأحجام في مقبرتي غرزة الشمالية والجنوبية بحمل معظمها زخارف منقوشة نقشا بارزا وتمثل مشاهد منتزعة من الحياة اليومية للمستوطنة نفسها من مثل الحرث على الجمال والثيران والخيل. وحصد الشعير ودرسه، ومناظر قوافل الجمال. ومشاهد الصيد من الموضوعات المفضلة وتظهر فيها الأسود والفهود والبقر الوحشية والنعام بالإضافة إلى رسومات حيوانات رمزية كأسود رسول الآلهة والسمك الذي يرمز الأرواح الموتى. وتظهر على إفريز مشهور من أفريز غرزة. موجود حاليا في اسطنبول بتركيا. صورة الرئيس

المتوفى وهو جالس على عرشه ومن حوله أفراد أسرته يقدمون له الطعام والشراب. ويتجلى مدى العناية التي كانت تركز لمبدأ تغذية الموتى في وجود قنوات في العديد من أضرحة غرزة تؤدي إلى قلب اللحد وتسمح بأن تصب فيها المشروبات والأغذية السائلة.

والنوع الثاني الرئيسي من الأضرحة في منطقة طرابلس هو الأضرحة التي تشبه المسلات في شكلها. فالضريح من هذا النوع هو عبارة عن بناء مرتفع كالبرج. زواياه قوائم أو قريبة من ذلك ويتكون من ثلاثة طوابق الثالث منها يشبه مسلة هرمية رقيقة. ومن الأمثلة القديمة على هذا النوع ضريح قصر أم أحمد في وادي نَفَد. ويدل مستوى النحت الرفيع الذي يتجلى في بنائه على أن تاريخه يرجع إلى القرن الميلادي الثالث. وتتجلى زوايا طابقه الأول بأعمدة كورنثية صغيرة متوجة بإفريز دوري وكورنيش. وقد زين الإفريز بصورة نصفية وباقات من الزهور. وتبرز من زوايا الطابق الثاني أعمدة كورنثية يقوم على رؤوسها إفريز مزين بالخضروات وفي واجهته الشرقية باب غير حقيقي. وترتفع فوق كورنيش الطابق الثاني مباشرة مسلة الضريح التي هي عبارة عن الطابق الثالث. ويتجلى هذا المخطط بصورة مبسطة في ضريحين أحدث من الضريح السابق ويعرفان باسم المسلتين وينتصبان متجاورين في وادي مردم على بعد ثلاثين كيلومترا إلى الشرق من بني وليد.

ويظهر تنوع شديد في الأضرحة المسلية الأخرى خاصة في الطابق الثاني منها. ففي ضريح في وادي مسوجي على بعد حوالي أربعين كيلومترا إلى الغرب من بني وليد نجد الطابق الثاني مكونا من تسعة أعمدة كورنثية سميكة مرتبة في ثلاثة صفوف: ثلاثة منها في كل صف. وفي أحد جوانب طابقه الأول يظهر باب غير حقيقي بينما تظهر صور نصفية وصور حيوانات مفترسة منقوشة على الإفريز الذي حمله أعمدة الزوايا. وفي حالات كثيرة يتخذ الطابق الثاني في الأضرحة المسلية شكل هيكل صغير. وفي سنة 1933 م. كان ضريح من هذا الطراز لا يزال قائما بحالته الأصلية في المقبرة الجنوبية في غرزة. ولكن هزة أرضية حدثت بعد ذلك دمرت الطابقين الثالث والثاني منه. ويلاحظ وجود باب غير حقيقي في أحد جوانب الطابق الأول

كما تنتصب في زواياها أعمدة كورنثية يعلوها إفريز. وعلى جدار الباب غير الحقيقي صورتان نصفيتان بينهما صورة طفل وإلى يمينهما صورة في وضع طائر وهي تمسك تاجا بيد وقرطاسا مطويا باليد الأخرى. ولعلها تمثيل غير متقن لآلهة النصر. أما المعبد الصغير الذي هو الطابق الثاني من هذا الضريح فهو يرتكز على قاعدة رقيقة وتنتجه مقدمته بحيث تكون زواياه قائمة مع الباب غير الحقيقي الموجود أسفل منها. وغرفة اللحد فيه غير عميقة وهي مفتوحة من الأمام ويتصل بكل من زاويتيها الخلفيتين عمود كورنثي بينما تقوم أمامها مصطبة ذات أقواس. مرتكزة من ناحية مقدمتها على عمودين كورنثيين طليقيين. وفوق كرنيش الطابق الثاني تنتصب مسلة رقيقة توج رأسها على غرار تيجان الأعمدة الكورنثية.

وقبل الفراغ من الحديث عن الأضرحة لابد لنا من أن نشير إلى ثلاثة أضرحة مهمة لا تتبع لأي من الأنواع الثلاثة التي سبق ذكرها. وأول هذه الثلاثة هو ضريح هنشير سوفيت (Henseir suffit) الواقع على مسافة قصيرة من طريق يفرن _ غريان على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق من يفرن وقرب المزرعة المحصنة التي لا تزال قائمة هناك في حالة جيدة. ويحمل الطابقان اللذان لا يزالان قائمين من هذا الضريح أوجه شبه قوية لنظيريهما في الأضرحة المسلية ذات المعابد الصغيرة المقامة في طوابقها الثانية. ولكن من الشكوك فيه أن بناء ضخما مثل هذا البناء كان ينتهي بمسلة إذ أن الأقرب للعقل أن يكون منتهيا بهرم منخفض. وهو يقوم على أساس بسيط من البناء المقام كتسوية لسطح الصخر المائل. وفي هذا الأساس غرفة لها باب مقوس في جزئها الأمامي. وفي جدرانها الداخلية ستة جأوف صغيرة. ربما كانت لحفظ القوارير. ويقوم الطابق الأول من هذا الضريح على قاعدة ترتكز على التسوية المذكورة. وقد زينت زوايا هذا الطابق بأعمدة كورنثية تحمل إفريزا مزخرفا وكرنيشا. وترتكز مصطبة الطابق الثاني على عمودين مربعين طليقيين وهما من النوع الكورنثي الضخم يصلهما قوس من الأمام ويتصلان مع جدران جوانب غرفة اللحد بوصلات أفقية قصيرة. وكانت الأوجه الأمامية والجانبية لكل من هذين العمودين مزينة بأعمدة كورنثية صغيرة

كما كان هنالك عمود واحد متوسط الحجم وله جانبان فقط في كل من الزاويتين الخلفيتين لغرفة اللحد.

والضريح الثاني يعرف باسم (الصنمة) ويقع فوق وادي البئر الوعر في منتصف الطريق بين غريان ووادي الحمّام على الطريق الجنوبي من غريان إلى تrehونة. ومخطط هذا البناء مربع ويقوم على أساس منخفض ومدفون جزئيا. ولا بد أنه كان يتكون من ثلاث طوابق على الأقل: بقي منها اثنان في حالة جيدة. وفي منتصف الجانب الجنوبي الشرقي من الأساس دهليز نفق يقضي إلى غرفة القبر المقوسة التي توجد في مؤخرتها ثلاث جوفيات لبقايا الموتى: واحد يواجه المدخل وواحد في كل من جانبي الجانبين الآخرين. وقد عومل الطابق الأسفل كأساس له كرنيش بارز. أما الطابق الثاني فقد زين بأعمدة كورنثية صغيرة. أربعة منها على كل جانب من الجوانب الأربعة. ويلاحظ أن ما أقيم من هذه الأعمدة في الزوايا له وجهان فقط. وعلى الجانب الجنوبي الشرقي مثل العمودين المتوسطين بتاجيهما فقط بينما حفر على الفراغ الناجح تحت التاجين باب غير حقيقي له إطار مزخرف وعلى جانبه صور نصفية لفتاتين. على شكل مداليتين. ويعلوه حزام أبيض معد للكتابة. وأمام الباب الغير حقيقي رسم بطريقة الحفر البارز حيوان مفترس يطارد حيوان آخر ثم حيوان ثالث بين قوارير. أما الطابق الثالث على شكل مربع من الأعمدة التي كانت على ما يبدو تحيط بأحد المعابد الصغيرة. وبدل مستوى فن النحت الرفيع المستخدم في هذا البناء على أنه يرجع إلى فترة القرن الميلادي الثالث.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى الضريح الفخم المعروف باسم قصر دوغا. الذي تقع آثاره على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشمال الشرقي من تrehونة وعلى بعد أقل من كيلو متر واحد من مدينة دوغا (مسمى القديمة). وبناء هذا الضريح قائم الزوايا وهو يقوم على أساس مستطيل يرتفع بمقدار درجتين عن سطح الأرض. وكان في الأصل يتألف من ثلاث طوابق لا يزال اثنان منها قائمين وهما متشابهاً بشكل عام في أساسهما وفي أعمدتهما ذات الوجهين التي زينت بها زواياهما. وفي أن كلا منهما توج بإفريز أبيض وكرنيش. وأعمدة

الطابقين لا تقوم على قواعد مستقلة عن أساس الطابق. ولكن أعمدة الطابق الثاني تختلف في تيجانها عن أعمدة الطابق الأول. وكانت تحيط بالطابق الثالث أعمدة كورنثية عددها جميعاً ثلاثون عموداً موزعة حسب الترتيب الآتي (إذا ما عدنا أعمدة الزوايا مرتين): ستة في المؤخرة، أربعة في المقدمة، تسعة على كل من الجانبين واثنان خارجيان في فتحات البناء. ومن المحتمل انه كان وسط هذا المحيط المعمد غرفة لحد من نوع ما. ولكن لم يبقى لها أثر. وحت هذا البناء فسقيتان متصلتان من جدارهما الخلفي. وفي الجدار المقابل للجدار الخلفي ثلاث جواف صغرة فوق المدخل ربما كانت قد أعدت لكي توضع فيها المصابيح. ويدل مستوى فن النحت المستعمل في هذا البناء على أن تاريخه يرجع للقرن الميلادي الثالث.

القبور المستديرة في قورينة ومغيرنس (Meghernes):

تقسم القبور في قورينة إلى نوعين: نوع قائم منفرد. وهو أما مدور أو مربع أو له درج. ونوع محفور في الصخور. وقد قامت بعثة جامعة مانشستر بحفر وتخطيط ثمانية قبور ودراسة وتخطيط أربعة عشر قبراً آخر في مدينة قورينة.

ومن المتعارف عليه أن أقدم قبرين في قورينة هما قبر باتوس الأول وقبر أحد مصارعيه من أبناء دلفي وهو رجل اسمه أونوماستوس (Onomastus). والقبر الأول أكبر من الثاني وقد تم التعرف عليه بناء على إشارة الشاعر الإغريقي بندار (حوالي 518 - 438 ق. م.) الذي يتحدث عن باتوس الأول ثم يقول: «إنه الآن يستريح منفرداً بعد موته. في الطرف البعيد من السوق في قورينة». ويقوم فوق هذا القبر بناء إسطواني الشكل يتكون من صفوف أفقية من الحجارة المنحوتة التي قدر الأثريون الإيطاليون معدل أبعاد الواحد منها بـ 125 سم طولاً و35 سم ارتفاعاً. وهذا طراز لا يمكن أن يكون معاصراً للقبور المستديرة التي كانت شائعة الاستعمال في بداية استيطان الإغريق لقورينة في بداية القرن السابع قبل الميلاد. والتي كانت عبارة عن دائرة منخفضة من الحجارة القائمة كان الجثمان يدفن بداخلها ثم تقام كومة من

التراب على شكل مخروط. ويظهر من أسلوب قبر باتوس أنه يرجع إلى عصر هدرسان الذي جدد أبنية كثيرة في قورينة وغيرها من المدن الليبية في أعقاب تخريب اليهود لها. وربما كان هذا البناء المجدد قد أقيم مكان بناء سابق شيد في مطلع العصر الروماني ثم دمر خلال الثورة اليهودية في عهد تراجان. وقد يكون هذا القبر بني عدة مرات فوق المكان الذي دفن فيه باتوس أصلاً. وما لا شك فيه انه كان في البداية سطحياً وبسيطاً. ويبلغ نصف قطر هذا البناء الاسطواني تسعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار وخمسة وعشرين سنتيمترا وله مدخلان واحد في الجهة الشمالية الغربية والأخر في الجهة الجنوبية. وفي داخل هذا البناء الخارجي من جهة الشرق توجد بقايا مذبح شبه دائري لا تزال أجزاء من أساسه تغطي الدرجات العليا من سلم الدرج الحجري الدائري الخاص بالقبر الروماني المذكور سابقاً. ومقابل هذا المذبح مصرفان صغيران كان دم القريان. أو ما يقدم من السوائل. ينزل خلالهما إلى الميت. وهناك مصرف آخر كبير يؤدي من الداخل إلى الخارج لتصريف المياه التي كان هذا النصب يغسل بها.

وفي المقبرة الغربية في قورينة خمسة قبور مستديرة ومرتبطة على شكل هلال يرجع تاريخها جميعاً إلى حوالي القرن السادس قبل الميلاد. وأسلوب هذه القبور قديم إذ ان الواحد منها هو عبارة عن دائرة من الحجارة الكبيرة المنفرجة والتي يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالي 115 سم ويدل مظهرها على أنها قطعت قطعاً خشناً ولم تهذب. وقد عبثت الفجوات التي بينها بحجارة صغيرة. وتتراوح أنصاف أقطار هذه الدوائر بين 532 سم و 932 سم. وكان الجثمان يودع داخل لحد تغطيه البلاد في وسط دائرة. وبعد الدفن كانت تقام على اللحد كومة من التراب على شكل مخروط تنتهي أطرافه السفلى بحجارة الدائرة.

القبور المربعة:

في نهاية أول الوادي في على يمين الطريق من قورينة إلى أبولونيا يوجد قبر يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. وتتكون

جوانب اللحد الأربعة من أربعة قطع ضخمة من الحجارة وضعت أفقياً على أساس ذي أربعة درجات. وقد قسم داخل هذا القبر إلى قسمين مستطيلين ومتوازيين ثم قسم كل من هذين القسمين إلى قسمين متشابهين وسقف جميع هذه التقسيمات ببلاط من الحجارة يشبه الطوب.

القبور ذات الدرج:

هنالك عدد من القبور من هذا النوع في المقبرة الشرقية في قورينة يعود تاريخها إلى العهد البطلمي. وهي من النوع الذي وجد بكثرة في الإسكندرية في نفس العهد. وكان رماد الجثمان يوضع في وعاء من الفخار يدفن تحت الدرجة السفلى.

القبور المحفورة في الصخور:

في الناحية الجنوبية من أول واد على اليمين بالنسبة للذاهب من قورينة إلى أبولونيا قبر من القرن الرابع قبل الميلاد. له فناء مكشوف. وفي مؤخرة الفناء ثلاثة جُاوييف. وعلى أحد جوانبه سلم درج قصير يفضي إلى لحد خشن مستو من وجهه العلوي. وكان هذا القبر خاصاً بامرأة كما تدل كتابة منقوشة على أحد جانبيه وتكاد ان تحي الآن. وهناك رف بين هذا اللحد ومقدمة التجاوييف خاصة بالتماثيل. وقد نقش اسما صاحبي اثنين من التجاوييف فوق بابيهما:

الأوسط كان لأرخيبا (Archipa) ابنه مينودورس (Menodoros). والأيمن كان الأصل لجثمانين هما جثمان دراكون (Drakon) بن بوسيدبوس (Poseidippos) وجثمان ابنة أجليمونا (Aglemona). وقد وجدت في هذا القبر بعد العاديات وزجاجة دموع و امرأة برونز و دبوس شعر من العاج³.

المعابد والهياكل والأصنام في منطقة طرابلس:

إن طبيعة الديانة الليبية القديمة لم تكن تتطلب بناء المعابد. والمعابد

التي وجدت خارج المدن الساحلية في المنطقة طرابلس كانت قليلة. كما أنها كانت جميعاً باستثناء واحدة منها. عبارة عن هياكل ريفية متواضعة لا تمت إلى فن النحت بصله. ويتمثل أبسط أنواع هذه الهياكل في بقايا بناء صغير في الجديدة (Sghedeida) في الطرف الجنوبي من واحة طرابلس. وتدل آثاره على أنه كان بناء مربع تقوم في وسط واجهته الأمامية فتحة أشبه بالنافذة. وكانت تقوم في زواياه أعمدة ذات وجهين. ونستدل من الهدايا المقدمة لهذا الهيكل على أن تاريخه يرجع إلى القرن الميلادي الثالث. وقد كان في مواجهته مذبح أحيط فيما بعد بجدار مربع.

وهناك مثال آخر على هذه المعابد هو الأثر المسمى قصر تينناي في وادي تينناي على بعد حوالي تسعة عشر كيلومتر إلى الشمال الغربي من نقطة التقاء هذا الوادي مع وادي سوف الجين. وهذا المعبد أفخم من المعبد السابق وكان مبنياً بحجارة كلسية. وهو يتكون من صالة مستطيلة تتقدمها أمام مدخلها مصطبة قائمة على عمودين كورنثيين. وبالإضافة إلى هذا الباب الذي يقضي إلى المصطبة كانت للصالة نافذة مقوسية في أحد جوانبها. وربما كان الغرض منها تمكين الناظر من رؤية تمثال المعبود عندما يكون الباب مقفلاً. وما يثبت أن هذا البناء كان معبداً وليس ضريحاً قطعة افرين وجدت قريبة منه كتب عليها ان الذي بناه هو تيطس فلافيوس كابيتو (Titus Flavius Capito). ويرجع تاريخ الكتابة إلى حوالي سنة 200 م. وهناك آثار ربما كانت أسس معبدتين آخرين من هذا النوع: الأول منهما لا يزال أساسه موجوداً في رأس الحداجية على بعد كيلومتر واحد إلى غرب من الخضراء (قرب ترهونة). وقد وجدت في موقعه كتابه بالأحرف اليونانية تقول إن المعبد وتمثال المعبود الذي كان فيه وممره المعمد المستور كرسها الليبيون جميعها للإله آمون بين سنتي 15 و 16 للميلاد. أما المثال الثاني فيقع في قراريط قصير التراب (= نصب الأخوين فيليني) بالقرب من آثار النصب الذي أقامه الإمبراطور ديوقلتيان علامة للحدود.

والمعبد الريفي الوحيد المهم هو المعروف بقصر الجزيرة وهو يقع على بعد أربعة كيلومترات باتجاه الشمال من الكيلومتر 166 على طريق يفرن

3- Cyrenaican Expedition of University of Manchester, 1952, Manchester University Press, 1956, edited by Alan Rowe, with contriptions by Dererk Buttle & John Gray, pp. 19 - 26.

- جادو. وهذا المعبد في حالة جيدة نسبياً وهو مبني بالحجر الكلسي الجيد وربما كانت قد شُيد في مطلع القرن الميلادي الثالث. أما بناؤه فهو عبارة عن مستطيل في وسطه صالة يقوم على جانبيه جناحان مفتوحان من الأمام. وكان البناء جميعه مسقوفاً بعوارض خشبية ثبتت أطرافها في فتحات مناسبة في أعالي الجدران. وأغلب الظن أن هذا السقف الخشبي كان مغطى بطبقة من الطين. ولصالة هذا المعبد الرئيسية باب واحد في واجهتها الأمامية. وقد وجد بالقرب من موقع هذا المعبد نقش (هو الآن في متحف طرابلس) يخلد ذكرى إقامة تمثال لهرقوليس. الإله الروماني الذي حل محل ملكارت الفينيقي.

أما بالنسبة للأصنام فإن المستر هـ. س. كوبر، الإنجليزي الجنسية، قام بين 1895 و 1896 بزيارة ستة وسبعين موقعاً أثرياً في هضبة ترهونة كان معظمها يشمل هياكل من نوع الأصنام. وهو يقول في حديثه عنها⁴:

«ومع انه يلوح أن مواقع الأصنام موجودة في كل مكان ضمن هذا البلد إلا أننا قد نكتشف شيئاً من قائمة أسماء المناطق التي توجد فيها الأصنام فعلاً:

- 1- وادي دوغا.
- 2- وادي ترقرورت الموازي للوادي الأول.
- 3- السهل المجاور لمصب وادي ترقرورت من جهة الشمال.
- 4- هضبة ترهونة.
- 5- الأرض المرتفعة إلى غرب ترهونة حيث تتصل بغريان.
- 6- هضبة فرجانة ومناطق عزة ومعمورة إلى الجنوب حيث يمر القسم العلوي من وادي ترغلات.
- 7- وادي كسية وداوون.
- 8- الأراضي المنحدرة من القصبات ومسلاته إلى خوائب لبدة بما في ذلك

4- كوبر، هـ. س.، مرتفع الاهات الجمال : استكشاف الهياكل الثلاثية والمواقع المغليبية في طرابلس . (ترجمة انيس زكي حسن . نشتر مكتبة الفرجاني . طرابلس ليبيا) . ص 115 - 164 .

الخراب أيضاً.

وللمواقع المختارة للأصنام ميزات متشابهة. فهي غير موجودة على القمم العالية فان وجدت على بعض سفوحها. كما أنها غير موجودة في الأراضي المنخفضة أيضاً. وإنما تنحصر في المرتفعات المتوسطة في السهول. وفي التلال الصغيرة التي تواجه الشمس فوق الهضاب».

ويقسم كوبر آثار الخراب في المواقع التي زارها إلى صنفين:

- 1- محوطات.
- 2- أصنام.

1- المحوطات:

وهي عبارة عن أبنية هياكل أو مذابح أو أصنام محاطة بجدار. وفي معظم الحالات نجد جدران المحوطات مهددة حتى أسسها. وتبين مخططات المحوطات إنها كانت في الغالب تشغل مساحة مستطيلة يتراوح طولها بين 70 إلى 250 قدماً. وكانت تستخدم في بناء المحوطات الكبرى حجارة كبيرة مرصوفة رصفاً جميلاً. ولكن ارتفاع جدرانها في الأصل لا يمكن تعيينها نظراً لتهدمها جميعاً باستثناء وجود أبنية في بعض المواقع ما زالت بعض أجزائها قائمة إلى ارتفاع أربعة عشر قدماً من مثل صنم عارف.

2- الأصنام:

يتراوح ارتفاعها بين ستة وأقدام وخمسة عشر قدماً. وهي توجد عادة بالقرب من جدران المحوطات الخارجية على جانب واحد أو أكثر وتتألف من أبنية مسطحة الحجارة يبلغ الواحد منها ضخامة الباب العادي أحياناً. والشكل الغالب على بنیان الأصنام هو شكل الهيكل المغليبي المؤلف من عمودين قائمين⁵ ويتكون الواحد من حجر واحد أو من حجرين وفوقهما حجر أفقي وأكثر. وتتراوح سعة الفجوة بين العمودين ما بين 13 إلى 25 بوصة. وكان العمودان يثبتان في قاعدة حجرية تنقر إلى عمق بوصتين أو أكثر قليلاً. ثم

5- نحن ميالون إلى القول ان هذه الآثار التي اعتبرها كوبر أصناماً إنما هي بقايا معاصر زنتون رومانية صغيرة درست معظم آثارها الأخرى . أنظر أيضاً ص 597 اعلاه .

تحت حواشي العمود من جهته السفلى حتى تصبح مناسبة للدخول في القاعدة. وتلاحظ في جوانب أعمدة الأضنام ثقب تكون نافذة في عمود ونصفية العمق في العمود الآخر. وربما كانت الغاية منها وضع المزالج أو العوارض الخشبية المربعة بحيث توضع الواحدة منها في الثقب الجانبي النافذ في أحد العمودين وثبت نهايتها في الثقب النصفية العمق في العمود الآخر. وبالإضافة إلى تلك الثقوب الجانبية في الأعمدة كانت في عدد كبيرة من الأضنام ثقب محفورة في الزوايا لآبد أنها كانت تستخدم أيضا لتثبيت عوارض خشبية من أجل أغراض البناء المختلفة كإقامة وصلة بين الصنم والمذبح مثلاً. وما يؤيد هذا الرأي أننا نجد ثقب الزوايا. في معظم الحالات. في مواجهة المذبح.

ويقارن كوبر بين شكل هذه الأضنام وأشبابها في طقوس الديانات القديمة الأخرى من مثل المسلات الثنائية أمام المعابد المصرية. والتمائيل النحاسية أمام هيكل سليمان. والأعمدة الذهبية والزمردية أمام معبد ملكارت بصور في فينيقية. وصنم فينوس المحروطي الذي يظهر على القطع النقدية القديمة في قبرص. وهو يجد شبيها كبيرا بين شكل الصنم وبين شكل الرمز الذي يظهر على الأختام البابلية المحروطية التي يظهر عليها «كاهن يتعبد أمام حسيكة من أوتاد خشبية تربط بين رمزين: الأول عمود في رأسه مخروط. والثاني يتألف من عمودين فوقهما عارضة أفقية. وعارضة أفقية أخرى في الأسفل. فهذا الشكل شبيه بالصنم بالضبط (مع عارضة داخلية في الثقوب الجانبية). وقد وضع هذا خلف المذبح بنفس الطريقة»⁶.

وواضح من هذا التشابه القوي بين شكل الأضنام الليبية والرمز على الختم البابلي أن الليبيون القدماء ربما كانوا قد أخذوا بعض الطقوس الدينية عن البابليين منقولة بوساطة الفينيقيين الذين كانوا همزة الوصل بين بلدان المشرق والمغرب في هذه الفترة. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الليبيين نقلوا كثيرا من الآلهة عن غيرهم من الشعوب التي احتكوا بها من مثل المصريين والفينيقيين والإغريق والرومان. ونضيف هنا ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن

6- المرجع السابق ص 154 - 155

الرومان لم يكونوا يتعرضون بسوء لديانات الشعوب الداخلية ضمن حدود إمبراطوريتهم ما دامت تلك الديانات لا تتعارض مع السياسة والمصالح الرومانية.

ولما كنا لا نعرف على وجه التحقيق شيئا عن الطقوس التي كانت تجري في هذه الأضنام فإنا نرى هنا أن نقتبس شيئا ذا دلالة نظرية كوبر حول هذا الموضوع حيث يقول:

«وإذا سمح لي القارئ بمزيد من النظريات فقد يكون في وسعي أن أشير إلى أن الثقوب المحفورة في الزوايا في ناحية المذبح من الصنم تصلح لنصب هيكل خشبي من النوع الذي يظهر في الختم البابلي ولربطه بمحطة تجري في داخلها بعض تلك الطقوس الفظيعة المتعلقة بعقيدة مولك [= ملكارت = إله النار الفينيقي]. فإذا كانت الفجوة بين عمودي الصنم هذا المكان الذي يقوم الكاهن بإدخال الضحية منه. وكانت الثقوب الجانبية تحتوي عوارض تغلق بعد ذلك لتدل على أن العالم قد ترك في الخلف. فيمكننا أن نتصور تفسيراً رهيباً لذلك الغموض. فالمدخل بين العمودين يعني هنا التناسل أو المولد الجديد. وتتبع ذلك تضحية أو عملية تطهير بالمرور وسط النار. لأنه بالرغم من كون الفجوات ضيقة بحيث إنها لا يمكن أن تستعمل كأبواب اعتيادية. إلا أنها تكفي لهذا الغرض لأن الضحايا كانوا دائما من صغار السن... وفي حالة التطهير بالنار نجد مجالا كافيا بين الصنم والمذبح لإشعال نارين متجاورتين»⁷.

وتاريخ هذه الأضنام ما زال غامضا لقلة الحفريات التي أجريت في المنطقة. ويذهب كوبر. بالاعتماد على القليل المعروف من تاريخها. إلى أنها لم تشيد في وقت واحد بل خلال الألف سنة التي سبقت سيطرة الرومان على منطقة المدن الثلاث. كما يشير إلى أن الليبيين الذين شيدها بدأوا يمارسون طقوسهم فيها منذ البداية. وظلوا كذلك طيلة العهد الفينيقي وحتى بعد خضوعهم للسيطرة الرومانية قبيل تاريخ الميلاد.

7- المرجع السابق ص 158 - 159 .

ونشبر فيما يلي إلى عدد قليل من الأصنام التي خُدت كوبر عنها على سبيل المثال لا الحصر:

1- صنم بو سيدة: ويقع على تل صغير على مسافة قصيرة من مصب وادي دوغا في الناحية الشمالية من ترهونة.

2- صنم العارف: ويقع على مسيرة عشرين دقيقة من الصنم السابق. في وادي دوغا بين جبل العارف وجبل الأحمر. وهو في الناحية الجنوبية من الوادي تحت التل وبالقرب من مجرى مائي فرعي صغير.

3- صنم قرب قصر دوغا: ويقع على قمة تلة على مسيرة نصف ساعة إلى الشمال الشرقي من قصر دوغا. وارتفاعه غير مألوف إذ يبلغ ارتفاع كل من عموديه تسعة أقدام ونصف القدم وسمكهما من الخارج إلى الداخل قدمين. ومعدل اتساع الفجوة التي بينهما ستة عشر بوصة.

4- صنم كوم أسلاس: يقع على قمة بارزة في هضبة ترهونة ما يمكن المسافرين من رؤيته عن مسافة بعيدة في مختلف الاتجاهات لأنه أعلى من القمم المحيطة به. وفي جميع أنحاءه، وخاصة في الجنوب الغربي. توجد آثار مختلفة بعضها من نوع الأصنام وبعضها الآخر بنايات رومانية. وارتفاع عموده الأيمن سبعة أقدام أما الأيسر فهو أطول من الأول بنصف قدم. والفجوة بين العمودين تبلغ عشرين بوصة. والحجر الأعلى الأفقي مكسور الآن ولكنه كان قطعة واحدة سمكها خمس عشرة بوصة.

5- صنم الغرابية: يقع في وسط كنسية إلى الجنوب الغربي من جبل مسيد والشمال الشرقي من فرجانة. ونصل إليه في فرجانة عبر شعبة الخيل ووادي داوون وكرمة الحثية. ويبلغ ارتفاع كل من عموديه أحد عشر قدما. وسمك عارضته العليا عشرين بوصة. واتساع الفجوة بين العمودين ثمانية عشرة بوصة. وأبرز ميزات هذا الصنم وجود نقش على الوجه الجنوبي لعموده الأيسر يمثل حيوانا غريبا ذا جسم مطول ورأس مرفوع نسبيا وذيل قصير. وتدل خطوط النقش العميق على أن هذه الصور تعود إلى نفس الفترة التي شيد فيها الصنم.

الكنائس المسيحية:

تم حتى الآن اكتشاف آثار تسع كنائس مسيحية في منطقة طرابلس: أربعة منها في حالة أثرية مرضية وخمس في حالة سيئة. والأربع الأولى هي في مواقع الخضراء والأصابعة وشفاجي عامر وقصر السوق اللوطني. أما الخمس الأخرى فهي في مواقع:

1- قصر المعمورة في وادي جزبي على بعد سبعة عشر كيلومترا شرقي قصر داوون.

2- عين ويف أو ثنداسا القديمة (Thendasa). وهي مبنية على أسلوب الباسيليكا.

3- قرب تبادون (Tebdut) على بعد حوالي كيلومترين إلى الجنوب الشرقي من قرية الأصابعة. وهي أيضا على أسلوب الباسيليكا.

4- قرب بئر الكور على بعد (18) كيلومترا إلى الشرق من غريان. وهي كذلك على أسلوب الباسيليكا.

5- في وادي كريمة بالقرب من التقائه مع وادي زريت (Zaret) وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الغرب الشمالي من الأصابعة. وهي أيضا على أسلوب الباسيليكا.

أما الأربع الأولى فهي في المواقع التالية:

1- الخضراء: على رأس تلة إلى الجنوب من طريق ترهونة - القصبات. وعلى بعد ثمانية كيلومترات إلى الشرق من مركز قرية الخضراء. وكانت في الأصل عبارة عن بناء مستطيل بسيط له مدخل في الطرف الشرقي من الواجهة الشمالية. وكان يقسمها طوليا إلى صحن وممرات صفان من الأعمدة في كل منهما أربعة أعمدة. وقد أضيفت لهذه الكنيسة فيما بعد الغرف وجرن معمودية مصلب من النوع البيزنطي.

2- غربي مديرية الأصابعة وعلى بعد كيلومتر واحد إلى الجنوب من رأس السوادي. وهناك طريق تؤدي إليها وتتفرع من طريق غريان - يفرن على

تاريخ ليبيا القديم

مسافة قصيرة إلى الغرب من المديرية. وكان بناء هذه الكنيسة مستطيلا على غرار الباسيليكا. وقد وجدت فيها مجموعة من النقود التي تدل على أن الكنيسة وجدت قبل العهد البيزنطي.

3- وادي بزة: على بعد حوالي عشرين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من بني وليد بالقرب من المستوطنات المحصنة الثلاث المعروفة باسم قصر السوق اللوطني. وقد كانت على غرار الباسيليكا كما أنها حولت بعد الفتح الإسلامي إلى مسجد.

4- شفاجي عامر: على احد روافد وادي سوف الجين على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومترا إلى الشرق من مزدة. وهي أيضا على غرار الباسيليكا ويرجع بناؤها إلى ما قبل العهد البيزنطي.

اللاحقات

الملحق (أ)

العصور الجيولوجية

بالرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن ثلاثة آلاف المليون من السنين التي انقضت على تصلب القشرة الأرضية فإن الحياة بأشكالها البدائية الأولى لا بد أن تكون قد استغرقت في تطورها عدة ملايين من السنين قبل أن تصل إلى مستوى الأشكال المتحجرة الموجودة في كثير من الصخور والتي يرجع تكوينها إلى ما قبل ستمائة مليون سنة. ولم تظهر الحيوانات الفقرية الأولى - وهي أنواع بدائية من الحيوانات التي تشبه الأسماك - إلا بعد انقضاء مائة مليون سنة أخرى. أما الأعشاب فلم تبدأ بالظهور إلا قبل ما يزيد قليلاً عن أربع مائة مليون سنة. والحيوانات البرمائية قبل حوالي ثلاثمائة وخمسين مليون سنة.

ويرجع تاريخ الثدييات - ومنها الإنسان الذي هو أرقاها بفضل دماغه - إلى ما يقل قليلاً عن مائتين وخمسين مليون سنة. والواقع أن الإنسان نفسه إنما خرج إلى حيز الوجود خلال المائة المليون سنة الأخيرة.

وجدير بالملاحظة إن التطور لم يستمر سلساً دون انقطاع فقد نشأت بعض النباتات والحيوانات وتطورت لتتقرض نهائياً بعد ذلك بملايين السنين بينما بقي البعض الآخر واستمر دون تغيير يذكر. ولقد نتج عن التغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية تغيرات هامة في جغرافية الكرة الأرضية ومناخها. وهذه بدورها أثرت بدورها أثرت في تطور النباتات والحيوانات وفي توزيعها الجغرافي. ويعتبر العلماء التغيرات الكبرى التي طرأت على القشرة الأرضية أربعة؛ وهم لذلك يميزون بين أربعة دهور جيولوجية⁸:

1- الدهر البروتيريوزي Proterozoic أي الحياة الأولى.

2- الدهر الباليوزي Palaeozoic أي الحياة القديمة.

8- The Reader>s Digest Great World Atlas,
The Reader>s Digest Association, London,

3- الدهر الميسوزي Mesozoic أي الحياة المتوسطة.

4- الدهر الكينوزي Cainozoic أي الحياة المعاصرة.

وهكذا يستطيع علماء الجيولوجيا بالاعتماد على الصخور وما تحويه من متحجرات أن يكشفوا عن النمط العام لتطور النباتات والحيوانات وعن نشوء المحيطات والقارات وسلاسل الجبال والأنهار والتغيرات المناخية. ونحن نعرف من الأبحاث الجيولوجية أن الأسد ووحيد القرن والفيل وفرس النهر كانت تسرح في يوم من الأيام فيما نعرفه اليوم باسم بريطانيا. ونحن نعرف كذلك أن قمة إفرست - حيث أكتشف حيوانات متحجرة - تتكون من صخور كلسية تكونت في الأصل تحت سطح البحر.

وينقسم كل من الدهور الجيولوجية الأربعة إلى عدة عصور جيولوجية يتميز كل منها عن سابقه بتطورات بارزة. والجداول التالية توضح ذلك:

الدهر الكينوزوي CAINOZOIC ERA أو دهر الحياة العصرية

العصر الجيولوجي	الأحوال الجغرافية	النباتات	الحيوانات في البحر	الحياة على اليابسة
الهولوسين Holocene بدأ قبل حوالي عشرة آلاف سنة.	استمرار الجليد في الانحسار مما سبب ارتفاع مستوى البحر. بريطانيا التي كانت متصلة بأوروبا خلال عصر الجليد تنفصل عنها في هذا العصر. تزايد الجفاف في شمال أفريقيا والشرق الأوسط بسبب ظهور الصحاري.	بانحسار الجليد بدأ حلول صيف أكثر دفأ تبدأ الغابات بالانتشار في أوروبا كلها. أعشاب منطقة التندا تحل محلها أشجار الصنوبر ثم الجوز فالبلوط.	الحياة في البحار تشبه ما هي عليه الآن إلى حد كبير.	الإنسان يتعلم كيف يذبح الحيوانات ويزرع النباتات.
البليستون Pleistocene بدأ قبل مليون سنة واستمر حوالي مليون سنة كذلك.	قطع الجليد والجبال الجليدية تغمر معظم أوروبا وأمريكا والمنطقة القطبية والهملايا. الجليد يبدأ بالذوبان فيرفع مستوى البحر وتبدأ الكتلتان اليابستان (أوروبا وأمريكا الشمالية) بالارتفاع نتيجة لزوال ثقل الجليد الهائل عنهما ويذكر بهذه المناسبة إن شبه جزيرة اسكندنافيا لا تزال ترتفع في أيامنا هذه بمعدل سنتمتر واحد في السنة. الجليد الدائب يكون البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية وبحيرات سويسرا وشمال إيطاليا وبريطانيا. تغيرات حادة في المناخ.	تتابع العصور الجليدية يؤدي إلى انقراض عدة نباتات في أوروبا ويبقى فقط على الأنواع الأشد صلابة مثل البلوط والزرعور. في أمريكا وآسيا لا تواجه النباتات الباحثة عن الدفاء عوائق بحار ولا جبال ولذلك فإن كثيرا منها يبقى على قيد الحياة.	الحياة في البحار تشبه ما هي عليه الآن إلى حد كبير.	مخلوقات تشبه القرد تنمي ذكائها إلى حد أنها تصنع أدوات من الحجارة تقطع بها ما تقتله من حيوانات واضعة بذلك بداية الانتقال إلى مرحلة الإنسان البدائي. وربما كانت إفريقيا هي مسرح ظهور هذا الإنسان البدائي ومنها انتشر إلى آسيا فأوروبا. تعاقب العهود الجليدية والفترات الدافئة يحدث تغييرا في عادات الهجرة لدى الثدييات الأخرى وبينما نجد

<p>التغلب القطبي في جنوب إنجلترا في عصر جليدي نجد فرس النهر في نهر التيمز في الفترات الدافئة كما نجد الأسد في يوكشير.. ظهور الفيل الحقيقي والحصان والثور لأول مرة.</p>				
<p>تناقص عدد الثدييات باستثناء القردة الشبيهة بالإنسان فقد استمرت في نشوئها وارتقائها. وهذا النوع من القردة لا يشمل سكان الغابات فقط بل يشمل أيضا النوع المعروف باسم أوستر الوبيثيكوس A sucehtipolaritsu الذي كان معتدل القامة في الأراضي المكشوفة والذي يمكن أن يكون سلف الإنسان. تكثر الفيلة كذلك وتبلغ في جوالها سفولك ونورفولك في إنجلترا.</p>	<p>انقراض سمك القرش والمخلوقات الضخم والضخمة الأخرى. الحياة في البحار (نباتات وحيوانات) تصبح أشبه بما هي عليه اليوم. والتطورات من هذا العصر فصاعدا تطورات بسيطة محدودة.</p>	<p>بعض نباتات هذا العصر مثل شجرة شعر العذاري تنقرض في أوروبا ولكنها تبقى في الصين وفي أمريكا الشمالية.</p>	<p>القارات والمحيطات بدأت باتخاذ شكلها الحالي. والترسبات الأرضية تؤدي إلى تكون بحر الشمال والبحر الأسود وبحر قزوين وبحر الأرال. استمرار تكون سلاسل الجبال على نطاق ضيق. الأحوال المناخية تشبه ما هي عليه الآن إلى حد كبير مع وجود منطقة معتدلة عرض من المنطقة المعتدلة الحالية.</p>	<p>البليوسين Pliocene بدأ قبل أحد عشر مليون سنة ودام عشرة ملايين سنة</p>

<p>نوع بدائي من القردة عرف باسم lucnocorP انتشر في أواسط أفريقيا ومنها إلى آسيا وأوروبا. وجود نوع آخر من القردة عرف باسم suehtipoil في غابات جنوب أوروبا. الفيلة التي يزداد حجمها تضخما تنتشر من أفريقيا إلى أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية. والطيور المائية طويلة الشاقان مثل البليكان والبط تعيش في الأنهار والبحيرات أنواع بدائية من طير البنجوين. وبعضها بطول الإنسان. تعيش في المنطقة شبه القطبية.</p>	<p>الأسماك ذات العظام تستمر في تنوع متزايد. سمك القرش في هذا العصر ينمو إلى أحجام ضخمة بحيث يزيد طول الواحدة منه عن ستين قدما ويبلغ طول أنيابها ست بوصات.</p>	<p>مناخ لطيف ورطب في أوروبا وأمريكا الشمالية يؤدي إلى نشوء الغابات كالبوط والأرز. الشهب العظيمة في أمريكا الشمالية تغطيها حشائش البريري.</p>	<p>الحركات الأرضية العنيفة تؤدي إلى تراجع البحر مسافة أكبر ويصبح البحر الأبيض المتوسط كأنه محيط تحق به اليابسة من جميع الجهات. التحام الكتلتين الأرضيتين أوروبا وآسيا نهائيا. الجرفات شديدة في بعض أجزاء الأرض نتيجة للأمطار الغزيرة. الحركات الأرضية العنيفة تؤدي إلى ظهور جبال الألب والهملايا. تزايد نشاط البراكين. ميل المناخ إلى التنوع : جاف في بعض المناطق وبارد رطب في البعض الآخر.</p>	<p>اليوسين Menecoi بدأ قبل 52 مليون سنة واستمر مدة 41 مليون سنة.</p>
<p>الدهر الميسوزي MESOZOIC ERA أو دهر الحياة المتوسطة</p>				
<p>تطور أسلاف القط والكلب والدب وتزايد عدد الحيوانات التي تتغذى بالنباتات من مثل الفيلة الصغيرة ذات الخراطيم</p>	<p>تظهر في هذا العصر أنواع جديدة من السرطانات والقواقع.</p>	<p>نتيجة لتأثر أجزاء العالم بمناخ أكثر برودة تبدأ الغابات بالتناقص بينما تبدأ الأراضي المعشبة بالتزايد</p>	<p>الأرض تزداد خلال هذا العصر على حساب تناقص البحر. حركات واسعة للقشرة الأرضية في أوروبا والأمريكيتين.</p>	<p>الأليجوسين Oligocene بدأ قبل 40 مليون سنة ودام 15 مليون سنة.</p>

<p>القصيرة والأنياب في الفكين. والحيوانات ذوات الحوافر والأصابع المختلفة العدد. ظهور القرد الأول عديم الذنب الذي يحتمل أن يكون له علاقة بسلف الإنسان.</p>		<p>ما يؤدي إلى زيادة الثدييات التي تتغذى بالعشب.</p>	<p>بدء تكون سلسلة جبال الألب. استمرار الأحوال المناخية الدافئة مع تعرض بعض أجزاء اليابسة لدورات من الشتاء البارد.</p>	
<p>ظهور عدة أنواع من الثدييات المعاصرة مثل سلف الفيل ووحيد القرن والحصان والخنزير والمواشي. تلاشى الزواحف والضخمة. نشوء التمساح والسلحفاة البحرية والبرية وجميع أنواع الحشرات التي نعرفها اليوم. ظهور أنواع من القردة في بورما.</p>	<p>الزواحف البحرية تنقرض ولكن مجموعتين من الثدييات: الحيتان وبقر البحر تبدأ بالتكيف على الحياة في البحر. معظم أنواع أسماك المحيطات تنخذ أشكالاً كالتي نعرفها اليوم.</p>	<p>كثرة النباتات المزهرة وانتشارها. المنطقة المناخية الدافئة والممتدة حتى جرينلاند تسبب نمو النخيل في منطقة بورنموث Bournemouth وهو الغابات المشابهة لغابات الملايو في منطقة لندن.</p>	<p>ترسب قسّم كبير من أوروبا يؤدي إلى تقدم البحر مرة ثانية. ازدهار النباتات المدارية - كالنباتات الموجودة اليوم في الملايو وفي جنوب إنجلترا. سلاسل الجبال التي بدأت تتكون في العصر الكرتياسي Cretaseous تستمر في النمو. الحركات البركانية تؤدي إلى تكون المحيطين الأطلسي والهندي وتسبب جمع كميات ضخمة من الصخور البركانية (اللافا) في مناطق متباعدة مثل المنطقة القطبية واسكتلاندا وإيرلندا وجنوب الهند. الأحوال المدارية أوسع انتشاراً مما هو عليه اليوم لكن الجليد يغطي السلاسل الجبلية المرتفعة في غرب أمريكا الشمالية.</p>	<p>الأيوسين Eocene بدأ قبل 70 (2+) مليون ودام طيلة 30 مليون سنة.</p>

<p>الزواحف الضخمة من أمثال الديناصورات تسير على الحياة في البر والجو. نشأة نوعين من الطيور: نوع بأجنحة متطورة وهو يشابه الطيور المعاصرة</p>	<p>الأسماك الناشئة والتطور في هذا العصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسمك القرش والرجحة الحالي.</p>	<p>مناخ لطيف تتعاقب فيه الفصول يميز هذا العصر ويؤدي إلى نمو بعض الأشجار مثل شجرة التين وشجرة المانجو. يوازي هذا التطور تطور</p>	<p>مناطق اليابسة القريبة من البحار تغمرها المستنقعات الكبيرة. الأنهار تسير ببطء ودون دلتوات ضخمة. انتشار الرسوبات الطباشيرية على نطاق واسع. كما تظهر اليوم في بريطانيا في</p>	<p>الكرتياسي الطباشيري Cretaceous chalk بدأ منذ 135 (5+) مليون سنة ودام 56 مليون سنة.</p>
<p>ونوع بحري دون أجنحة ولكن برجلين مناسبتين للسياحة. انقرض الديناصورات قبيل انتهاء هذا العصر. الثدييات تبقى غير بارزة خلال هذا العصر ولكن ينشأ قبيل نهايته نوع من الثدييات الذي يتغذى فيه الصغار بدم الأم مباشرة حتى الولادة.</p>	<p>الحياة في البحر تستمر وأبرز ما فيها الزواحف والسلاحف الضخمة والزواحف الطائرة التي يزيد مدى جناحها عن عشرين قدماً (وقد اكتشفت بقاياها في يوركشير وكنت وسسكس بالجلترا).</p>	<p>في الخيثرات والزهور ذات الرحيق ما يؤدي في النهاية إلى انتشار النباتات المزهرة.</p>	<p>الصخور البيضاء في دوفر وفي دورست. تكدر الرسوبات الطباشيرية في أمريكا الشمالية وفي شمال غرب كندا وألاسكا والمكسيك. عصر نشوء الجبال الرئيسية مثل سلسلة جبال روكي والأنديز وكثير من السلاسل الجبال الأوروبية. استمرار المناخ اللطيف ما ساعد على نمو الأعشاب الغزيرة شمالاً حتى جرينلاند. بقاء بعض أجزاء أستراليا مغطاة بالجليد.</p>	

<p>الزواحف تزداد حجما وتنوعا ويبدأ بعضها بالطيران. والطيور الأولى تتطور زعانفه وفلوسه إلى ريش ولكنة يحتفظ ببعض صفات الزواحف كالأسنان. الزواحف الكبيرة (84 طنا) تعيش في المستنقعات. الثدييات تبقى بدائية بحجم الفأر في الغابات.</p>	<p>الحيوانات الغالبة على حياة البحر هي الزواحف المائية سريعة السباحة التي تتغذى بغيرها. والأسماك والأحياء المائية.</p>	<p>استمرار نمو النباتات وظهور أكواز لبعضها تشبه الزهرة وهذه أول خطوة في نشوء الزهور وتطورها.</p>	<p>البحار تتقدم من جديد. معظم اليابسة تكسوها الغابات أو المستنقعات مع وجود البحيرات والأنهار. البحر يغمر معظم آسيا وأوروبا. تكون الصخور الجيرية كما في جنوب ألمانيا وفرنسا وسويسرا المناخ لطيف ويتحول إلى ما دون المداري في هذا العصر. الأمطار تكفي لنمو الحشائش.</p>	<p>الجوراسي Jurassie نسبة لجبال جورا في فرنسا وسويسرا بدأ قبل 180 (+5) مليون سنة ودام 45 مليون سنة.</p>
<p>الزواحف تستمر في السيطرة على الحياة على اليابسة. الثدييات الأولى - مخلوقات ذات دم حار - تنشأ عن الزواحف. ويظهر لأول مرة الديناصور الذي لا يزيد طوله عن سنت بوصات. كما تظهر الذبابة الأولى.</p>	<p>الزواحف التي تشبه السمك في شكلها والتي تأكل اللحوم تتطور خلال هذا العصر. كما تظهر خلاله الأسماك الطائرة والمخلوقات الأولى التي تشبه الجراد.</p>	<p>الجفاف في نصف الكرة الشمالي يعرقل تطور الحياة النباتية في بداية هذا العصر ولكن ازدياد الرطوبة في القسم المتأخر منه يساعد على نمو النباتات.</p>	<p>الصحاري والجبال المكسوة بالشجيرات تشكل معظم مساحة اليابسة والبقعة التي هي بريطانيا حاليا تغطيها بحار ضحلة دافئة تحرق بها الصحاري. تكون الرسوبات الرملية في البحار الدافئة. أحوال جوية حارة جافة تسود في كل مكان تقريبا. المناخ يصبح أكثر رطوبة قبيل نهاية العصر</p>	<p>الترياسي Triassic نسبة للجبال ذات الطيات الثلاث في ألمانيا. بدأ منذ 225 (+5) مليون سنة ودام 45 مليون سنة.</p>

الدهر الباليوزي PALAEOZOIC ERA أو دهر الحياة القديمة

<p>ازدياد أعداد وأنواع الخلوقات القادرة على الحياة على اليابسة وانتهاء عهد سيطرة الحياة البحرية. ولكن تبقى الزواحف هي الغالبة على الحياة اليابسة كما هو الحال بالنسبة للبحر. بدء ظهور أنواع كثيرة من الحشرات.</p>	<p>تنتهي في هذا العصر سيطرة الأحياء البحرية على الحياة وتزداد الحيوانات والنباتات على اليابسة.</p>	<p>نشوء اختلاف موسمي في المناخ ودرجة الحرارة. تناقص عدد النباتات دائمة الخضرة وظهور النباتات القادرة على تحمل فترات الجفاف والصقيع.</p>	<p>الجزر البريطانية تطور جزءاً من قارة شبه قاحلة. القشرة الأرضية تمتد عبر أذرع البحر المتداخلة مع اليابسة فتحولها إلى بحيرات داخلية لا تلبث أن تبدأ تتبخر مما يؤدي في النهاية إلى تكون رواسب البوتاس الرئيسية في العالم. يتميز هذا العصر بحركات أرضية مهمة تنشأ عنها جبال عالية في آسيا وأوروبا وشرق الولايات المتحدة كما يتميز بأحوال مناخية متناقضة فنصف الكرة الشمالي يسود معظمه الجفاف مع وجود بعض المناطق الدافئة الرطبة بينما تسود معظم نصف الكرة الجنوبي حالات الفترة الجليدية</p>	<p>البرمي Permian نسبة لمنطقة برم Perm الروسية بدأ قبل 270 (+5) مليون سنة ودام 45 مليون سنة.</p>
---	--	---	---	--

<p>الزواحف تصبح أول الحيوانات المتكاثرية على اليابسة. ظهور أجنحة لبعض الحشرات.</p>	<p>استمرار تطور الحيوانات البرمائية التي تعيش في المستنقعات وعلى حدود البحيرات ولكنها صغيرة ولا تصل حجمها أكثر من 51 قدماً مكعباً مع نهاية هذا العصر. كثرة الأحياء البحرية نباتات وحيوانات وتعدد أنواعها.</p>	<p>نشوء أشجار ضخمة دائمة الخضرة يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عن مائة قدم في المستنقعات الاستوائية التي لا تعرف تغيراً فصلياً في درجة الحرارة.</p>	<p>البحار الصافية الضحلة تنتشر بكثرة في بداية هذا العصر فتغمر معظم أوروبا وأجزاء كبيرة من روسيا. بدء بارتفاع قيعان تلك البحار فيما بعد لتكون رقاعاً واسعة من الياقوت. انخفاض مناطق أخرى من اليابسة وتحويلها إلى مستنقعات ملحة في معظم أوروبا وأمريكا الشمالية. هذا العصر هو الفترة الرئيسية لتكون الفحم خاصة في نصف الكرة الشمالي. والنباتات المتعضنة جزئياً والموجودة في مستنقعات الغابات تتجمع تدريجياً وتتحول إلى فحم بعد ذلك. مناخ اليابسة جاف للغاية طيلة معظم هذا العصر وإن كان دافئاً ورطباً في بعض المناطق إلى حد يسمح بنمو النباتات الكثيفة.</p>	<p>1 لكر بو نبي Carboniferous أو عصر الفحم بدأ قبل 350 (+10) مليون سنة ودام 80 مليون سنة.</p>
<p>نظراً لوجود النباتات على اليابسة ما يوفر الغذاء للحيوانات البحرية غير الفقرية فقد بدأت تلك الحيوانات تغادر البحر وتكيف نفسها على الحياة فوق اليابسة فظهرت العناكب والحشرات غير المجنحة.</p>	<p>تطور سريع في الحيوانات الفقرية ونشوء أسلاف الأسماك الحالية وظهور سمك القرش البدائي الذي يبلغ طول الواحدة منه عشرين قدماً. وبناء على ذلك فقد</p>	<p>تبدأ الأرض تكتسي الخضرة نظراً لظهور نباتات ذات جذور وسيقان وأوراق. وتتراوح هذه النباتات بين الأعشاب الصغيرة والأشجار التي يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً.</p>	<p>ازدياد رقعة اليابسة على حساب البحر. تميز هذا العصر بنشوء الجبال على نطاق واسع وبكثرة حركة البراكين. مناخ دافئ وشبه جاف في شمال غرب أوروبا وفي قسم كبير من أمريكا الشمالية مع سقوط أمطار فصلية غزيرة.</p>	<p>1 لد يفو نبي Devonian نسبة لأرض ديفون حيث وجدت متحجرات هذا العصر لأول مرة بدأ قبل 400 (+10) مليون سنة</p>

	سُمي هذا العصر بعصر السمك وظهرت قبيل انتهائه الحيوانات البرمائية.			ودام 50 مليون سنة.
ظهور النباتات لأول مرة على اليابسة.	نشوء أنواع جديدة من الحيوانات الفقرية في البحار وظهور عقارب البحر الضخمة التي كان يصل طول الواحدة منها إلى تسعة أقدام. ازدياد التنوع في تركيب الأحياء النباتية ونشوء الجوازر المرجانية على نطاق واسع.	النباتات تكيف نفسها لأول مرة للحياة على اليابسة ولكنها ما زالت دون أوراق. (تم اكتشاف بعض المتحجرات في استراليا).	ميل مستوى البحر للارتفاع والانخفاض من حين إلى آخر مما يسبب تغيرات منتظمة في مساحة اليابسة وقد وجدت الصخور الناشئة في هذا العصر في شروبشير بالجلترا وفي البلطيق وفي منطقة شلالات نياجرا في الولايات المتحدة. بدء تكون سلاسل جديدة من الجبال. تناقص حركة البركين. مناخ دافئ إجمالاً ولكنه جاف بشكل استثنائي في مناطق معينة.	Silurian السيلوري نسبة لإحدى القبائل الكلتية بدأ قبل 440 (+10) مليون سنة ودام 40 مليون سنة.
الدهر البروتيروزي PROTEROZIC أو دهر الحياة الأولى				
لا حياة.	كل الحياة مقصورة على المياه ولكن تظهر في هذا العصر أول الحيوانات الفقرية. الحياة النباتية لا	الحياة النباتية مقصورة على البحار فقط.	استمرار البحار في التقدم والتراجع. مناطق كثيرة من قعور البحار تتحول إلى يابسة نتيجة لتزايد المترسب من الرمل والطين في البحار الضحلة كما حدث	الأوردو فيسي Ordovician نسبة لإحدى القبائل

	تتعدى حشائش البحر.		بالنسبة لأمريكا الشمالية. وقد وجدت صخور ترجع إلى هذا العصر في كل من ويلز وأمريكا الشمالية وشمال غرب أوروبا مع تكون الجبال في هذه المناطق. ثورة البراكين في قعر البحر. المناخ حار وغير متقلب.	الكلتية. بدأ قبل 500 (15+) مليون سنة ودام 60 مليون سنة.
لا حياة.	الحياة مقصورة على البحار فقط. نشوء المجموعات الكبرى من غير ذوات الفقار التي تتغذى على حشائش البحر وهي النباتات الوحيدة حتى الآن. وجود أكثر من ألف نوع من الحيوانات غير ذات الفقار التي تتراوح في حجمها بين رأس الدبوس وبين 18 بوصة مكعبة وهي جميعا منقرضة الآن.	الحياة النباتية مقصورة على البحار.	البحار الضحلة تغطي معظم الأرض. البحار تميل إلى الزحف على والتراجع عن اليابسة التي كان قسما منها لا يختلف كثيرا عن الصحراء. توجد صخور هذا العصر في ويلز وشمال غرب اسكتلندا وغرب إنجلترا كما توجد صخور مشابهة لهذه في كندا والولايات المتحدة. تزايد نشاط البراكين في أوروبا. الأحوال المناخية معتدلة الدفء.	الكمبري Cambrian نسبة لكمبريا وهو الاسم الروماني لويلز. بدأ قبل 600 (20+) مليون سنة ودام مائة مليون سنة.

<p>لا حياة.</p>	<p>تبدأ أصول الحياة في البحار الدافئة خلال هذا العصر (أما كيفية بدئها فلا تزال سرا مغلقا) وهي في هذا الدور بدائي للغاية تتخذ شكل حشائش البحر والحيوانات غير الفقرية.</p>	<p>حشائش البحر هي المظهر النباتي الوحيد.</p>	<p>تبدأ الأرض على شكل كرة دائرية من الغازات الشمسية ثم تنتقل إلى حالة السيوولة ثم تتكون لها قشرة يابسة أما الجو المحيط بها فهو كثيف ومليء بالبخار. وعندما بدأ سطحها يبرد بدأ البخار يتكثف ويسقط أمطارا تكونت منها الأنهار والبحار وظل باقي سطحها عبارة عن صحاري وجبال وبراكين ومروج من مفذوفات الالفا البركانية التي تتصاعد منها الأبخرة. المناخ الحار تتخلله فترات جليدية متعاقبة.</p>	<p>العصر ما قبل الكمبري Pre-Cambrian</p>
-----------------	--	--	---	--